المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

169





ترجمة: د. شكري عياد

المقامر: دوستويفسكي

نصوص مختارة من تولستوي

اعترافات منتصف الليل: جورج ديهامل

دخان: إيفان تورجينيف

المشروع القومى للترجمة

نصوص مختارة
من
تولستوى

تقديم

ستيفان تسفايج

ترجمة

شكرى محمد عياد

مراجعة

على أدهم



٢٠٠٠

هذه ترجمة كتاب

The Living Thoughts of Tolstoi

تقديم

STEFAN ZWEIG

مقدمة

ولد الكونت ليوتولستوى فى منزل أسرته " بياسنايا پوليانا " بروسيا فى التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٨٢٨ .

وكان ينحدر من أسرة عريقة ، وكان مستهتراً فى شبابه ، ثم دخل الجيش واشترك فى حرب القرم ، وبدأ يكتب وهو فى الجندية . وعندما انتهت الحرب كان قد اكتسب شهرة ، وكانت أفكاره تتجه شيئاً فشيئاً وجهة اشتراكية جادة ،متأثرة بالسياسة التقدمية التى اتبعها القيصر الإسكندر الثانى ، وفى سنة ١٨٦٢ تزوج ووفق فى زواجه ، وشهدت السنوات العشر التالية ظهور روايتيه الكبيرتين "الحرب والسلام" و"أنّا كارنينا" وأمضى بقية حياته فى ضيعته ، مشغولاً بأعمال الخير ، وملتزماً البساطة المتزايدة فى عيشته ، حتى مرض فجأة ومات فى العشرين من نوفمبر سنة ١٩١٠ .

تولستوى

لستيفان تسفايج

فى السابع والعشرين من يولية سنة ١٨٨٣ ، بعث الكاتب الروسى تورجنيف - وهو أعظم كتاب قومه بعد تولستوى - بخطاب مؤثر إلى صديقه تولستوى فى ياسنايا پوليانا .

لقد ظل سنوات عدة ينظر فى قلق إلى تولستوى الذى كان يعده أعظم كتاب بلاده ، وهو ينصرف عن الأدب ليستغرق فى "خلقية صوفية" هذا الرجل الذى بذ الجميع فى تصوير الطبيعة والإنسان لم يعد على مكتبه الآن إلا كتب اللاهوت والكتاب المقدس ، وكان تورجنيف يخشى أن يضيع تولستوى أهم سنوات نضجه الفنى فى تأملات دينية بعيدة عن العالم كما فعل جوجول .

ولذلك تحامل على نفسه وهو فى مرضه الأخير ليمسك ريشته - أو قلمه على الأصح لأن يده الضعيفة لم تعد تقدر أن تمسك الريشة - ويكتب إلى أكبر عبقرى عالمى فى بلاده نداءً مؤثراً .

لقد كان هذا النداء - كما قال - الرغبة الأخيرة الحارة لرجل يموت : "عد إلى الأدب ! إنه موهبتك الحقيقية . أيها الشاعر العظيم ، يا شاعر أرضنا الروسية ، اسمع دعائى !" .

لم يجب تولستوى من فوره على تلك الصيحة المؤثرة من فراش الموت (كان الخطاب مقطوعاً فى وسطه ، وقد كتب تورجنيف أن قوته خانته) ؛ وعندما عزم على الكتابة أخيراً كان الوقت قد فات ومات تورجنيف دون أن يعلم أن رغبته قد وجدت أذناً صاغية، ولكن لعله كان من العسير على تولستوى أن يجيب صديقه وينصاع له ؛ فإن الذى كان يدفعه فى طريق العكوف والبحث عن الله لم يكن غروراً ولا رغبة متأملة فى الاستطلاع ؛ ولكنه كان يشعرأنه مجتذب إلى هذا الطريق على غير إرادة منه ، بل برغم إرادته فى الحقيقة . إن تولستوى الذى كان رجلاً دنيوياً ملتصقاً بالأرض ، والذى رأى الجانب الحسى من عالمنا وشعر به أكثر من أى إنسان آخر ، لم يسبق له قط فى حياته كلها أن أبدى ميلا إلى الميتافيزيقا ، ولم يكن قط مفكراً لدافع أصيل نحو التفكير أو للذة التفكير ؛ ولقد كانت العناصر الحسية فى الحياة ، هى التى شغلت الجانب

الأكبر من اهتمامه فى فنه الملحمى . وإذن فهو لم يتجه إلى التأمل عن قصد ، ولكنه تلقى - على حين غرة - ضربة مفاجئة : ضربة من مكان ما فى الظلام ، جعلت هذا الرجل القوى الركين الصحيح البدن ، الذى اقتحم الحياة دائماً منتصب القامة واثقاً من نفسه، يترنح ويلتمس بيديه سنداً يقبض عليه .

هذه الصدمة الداخلية التى تلقاها تولستوى وهو فى نحو الخمسين ليس لها اسم ولا سبب ظاهر على الحقيقة ، فكل ما يمكننا أن نظنه ضرورياً للحياة السعيدة قد جاءه منقاداً فى هذه الفترة من حياته.

كان تولستوى صحيح الجسم ، بل كان أقوى جسماً من أى رجل من معاصريه ، وكان فى عنفوان قواه الفكرية ، وفى نضارة قدرته الفنية ، وكان سيد ضيعة كبيرة ، فلم يكن يرعجه شئ من المتاعب المادية ، وكان ذائع الصيت لأنه أولاً سليل أسرة من أعرق الأسر الأرستقراطية ، ولأنه ثانياً - وهذا هو الأهم - أعظم كاتب فى اللغة الروسية ، وروائى ذو شهرة عالمية ، وكانت حياته المنزلية يسودها الوفاق التام ، فله زوجة وأولاد ، وليس ثمة ما يشير إلى سبب واحد ظاهر يمكن أن يؤدى إلى أقل سخط على الحياة .

وفجأة جاءته هذه الضربة من الظلام ، واستطاع تولستوى أن يشعر بأنه شيئاً مخيفاً قد حدث له ، "لقد توقفت الحياة عن الحركة ، واستحالت كئيبة منذرة ." وكأنما كانت كل جوارحه تسائله عما حدث : لماذا هذه السوداوية المفاجئة ، وهذه النوبات من الرعب ، ولماذا لم يعد شئ يسره أو يحركه ؟ لم يكن يشعر إلا بأن العمل يبعث حنقه ، وأن زوجته تبدو له غريبة ، وأولاده لا يحركون شعوره لقد استولى عليه اشئمزاز من الحياة ، وملل من العيش ، وأخفى بندقية صيده فى درج مغلق مخافة أن يصوبها إلى نفسه يأساً ، وهو يصف هذه الحالة فى صورة فنية رسمها لنفسه ، صورة "ليفين" فى "أنا كارنينا " ، فيقول : "فى ذلك الوقت تجلّت له - لأول مرة - فكرة أن كل حى ليس أمامه شئ يتوقعه إلا العذاب والموت والفناء الأبدى ؛ وهذا شأنه هو نفسه أيضاً فقرر أنه لا يمكنه المضى فى الحياة على هذا النمط ؛ فإما أن يجد تفسيراً للحياة وإما أن يضرب نفسه بالرصاص ." .

ومن العبث أن نضع اسماً لهذه الفورة الباطنية التى أحالت تولستوى إلى متأمل ومفكر ومعلم حياة ، ولعلها لم تكن إلا تحولاً فى نشاطه الجسمى ، أو خوفاً من الشيخوخة ، أو خوفاً من الموت ، أو كآبة عُصابية أدت إلى شلل روحى عابر ، ولكن

طبيعة الإنسان المفكر ولا سيما الفنان ، هى أنه يلاحظ أزماته الداخلية ويحاول التغلب عليها ، وقد استولى على تولستوى فى أول الأمر قلق مبهم ، وأراد أن يعرف ماذا حدث له ، ولماذا غدت الحياة فجأة ضحلة لا معنى لها ، وهى التى كانت تبدو له من قبل معقولة جداً ، غنية جداً ، خصبة جداً ، متنوعة جداً ، وكما شعر "إيفان إيليتش " فى قصته الرائعة بمخالب الموت لأول مرة وسأل نفسه فزعاً : « أتراني لم أعش كما كان ينبغى أن أعيش ؟» أخذ تولستوى يمتحن نفسه يوماً بعد يوم عن حياته ، وعن معنى الحياة .

فكان باحثاً عن الحقيقة وفيلسوفاً ، لاعن لذة فطرية فى التأمل ولا عن حب استطلاع فكرى ، ولكن من أجل المحافظة على النفس ونتيجة لليأس . فتفكيره كتفكير بسكال ، فلسفة على حافة الهاوية أو خارجة منها ؛ لقد كان يبحث عن الحياة فى خوفه من الموت والعدم ، ولدينا من تولستوى وثيقة غريبة ترجع إلى هذه الفترة : قصاصة ورق أحصى عليها "الأسئلة المجهولة » الستة التى كان يجب أن يجيب عنها :

(أ) لماذا أعيش ؟

(ب) ما سبب وجودى ووجود كل إنسان غيرى ؟

(جـ) ما الغرض من وجودى أو من أى وجود آخر ؟

(د) ما دلالة الخلاف الذى أشعر به فى داخلى بين الخير والشر ، ولأى غرض يوجد هذا الخلاف ؟

(هـ) كيف يجب أن أعيش ؟

(و) ما الموت - كيف يمكننى أن أصل إلى النجاة ؟

ولقد كانت الإجابة عن هذه الأسئلة - كيف يحيا هو وغيره الحياة الصحيحة - هى معنى سيرة تولستوى وغرضها فى الثلاثين سنة التالية ، أكثر مما كان عمله الأدبى .

وجاءت المرحلة الأولى من هذا البحث عن معنى الحياة نتيجة طبيعية تماماً . فعلى الرغم من أن تولستوى كانت لديه بعض النزعات العدمية [1] وأهم مظهر لها هو فلسفته التاريخية فى « الحرب والسلام» فإنه لم يكن قط شكاكاً . فقد عاش فى الظاهر

(١) العدمية nihilism ، حركة فكرية ظهرت فى روسيا فى العقد السابع من القرن التاسع عشر ، مدارها الثورة على استبداد السلطة ، ومناقشة كل مبدأ عام أو قيمة مثالية (المترجم) .

والباطن عيشة مطمئنة ، حرة ، أبيقورية ، نشيطة ، وعندما تحول فجأة إلى الفلسفة بدأ بالرجوع إلى الثقات لمعرفة رأيهم فى أى شئ يعيش الإنسان من أجله . فشرع يقرأ الكتب الفلسفية على اختلاف نزعاتها : شوبنهاور وأفلاطون ، وكانت وبسكال ، طالباً منها أن تفسر له معنى الحياة . ولكن لا الفلاسفة ولا العلوم قدمت إليه جواباً ، وساء تولستوى أن وجد آراء هؤلاء الحكماء «لا تكون واضحة دقيقة إلا حيث لا تتناول الأسئلة المباشرة فى الحياة » ، أما إذا طلبت منها نصيحة مقررة ومعونة واضحة فإنها تتجنب الإجابة تجنباً ؛ ولم يجد فلسفة واحدة منها قادرة على أن تفسر له هذا الأمر الذى كان يعتقد هو أنه مهم : « ما معنى حياتى ، من حيث الزمن ، والسبب ، والمكان ؟» .

ومن ثم تحول – فى المرحلة الثانية – عن الفلاسفة إلى الأديان – ملتمساً فيها العزاء . لقد عزت عليه المعرفة ، فبحث عن الإيمان ، ودعا : « رب هبنى إيماناً وهب لى أن أساعد غيرى ليجدوه» .

وإذن فلم يكن تولستوى فى هذه المرحلة المضطربة قد عنى بعد بمبدأ كونى ؛ لم يكن مبشراً ولا ثائراً روحياً ،وإنما كان يريد أن يجد لنفسه طريقاً وهدفاً ، له هو ذلك الفرد الحائر ، ليوتولستوى كى يستعيد سلامه النفسى ، وكان على حد قوله لا يريد إلا أن «ينجو» من تفكيره العدمى ، وأن يجد معنى للوجود عوضاً عن خلوه من المعنى . ولم يكن إذ ذاك يفكر أو يحلم بإعلان إيمان جديد ولا يرغب فى أن يخرج عن حدود المسيحية الأرثوذكسية المتوارثة القديمة . بل على العكس ، راح يقترب من الكنيسة من جديد ؛ كان قد ترك الصلاة والذهاب إلى الكنيسة وتناول القربان حين بلغ سن العاشرة ، فجهد ما استطاع ليكون كامل التقوى ، واتبع كل أوامر الكنيسة ورسومها ، وصام، وحج إلى الأديرة ، وركع أمام الأياقين ، وناقش الأساقفة والقسس وأهل الفرق، وعنى قبل كل شئ بدراسة الأناجيل .

وعندئذ حدث له ما يحدث دائماً لطلاب الحقيقة الذين لا يهدءون وجد أن شرائع الأناجيل وأوامرها قد أهملت ، وأن ما تدعو إليه الكنيسة الأرثوذكسية الروسية على أنه تعاليم المسيح لم يكن قط هو التعليم الأصلى « الحق» للمسيح وهنا اكتشف مهمته الأولى : أن يشرح المعنى الحقيقى للإنجيل ، وأن يعلم هذه المسيحية للجميع « على أنها

فهم جديد للحياة ، لا على أنها عقيدة صوفية » . وأخذ اليأس الشخصى يتشكل عقيدة ذات سلطات ، وتجديداً لكل تفكير عقلى وخلقى ، ونظرية جديدة فى علم الاجتماع أيضاً . وأخذ ذلك السؤال الأول الفزِع الذى ألقاه على نفسه رجلٌ وحيد : « لماذا أعيش» وكيف أعيش ؟» أخذ يتحول إلى دعوة عامة للإنسانية : « هكذا يجبُ أن تعيشوا!» .

وكانت الكنيسة قد اكتسبت من تجربة ألف سنة حسًّاً مرهفاً بالخطر الذى يكمن فى كل تفسير فردى للأناجيل . فالكنيسة تعلم أن كل من يأخذ فى تشكيل حياته وفقاً لنص الكتاب المقدس لابد أن ينتهى إلى صراع مع نظم الكنيسة وقوانين الدولة . وقد منعت الرقابة أول كتاب لتولستوى فى المبادئ "اعترافى" كما منع المجمع المقدس كتابه الثانى «إيمانى» وعلى الرغم من تردد الكنيسة فى اتخاذ الخطوة الأخيرة – احتراماً للكاتب العظيم – فقد لجأت أخيراً إلى إصدار قرار الحرمان ضد تولستوى . ذلك أن تولستوى وقد جاش إلى أعماق الوجود بدأ يزيل الأرض من تحت جميع الأسس التى قامت عليها الكنيسة والدولة والسلطان الزمنى ، وسار تولستوى فى الطريق الذى كان لا بد أن يؤدى به إلى أن يصبح ألد خصم للدولة وأعنف فوضوى خارج على الجماعة فى العصر الحديث ، شأنه فى ذلك شأن شيعة « والدو» وعصاة « ألبى » ومنكرى التعميد[١] ودعاة الثورة الفلاحين ، وكل من حاول أن يرد المسيحية إلى أصلها الأول ، وأن يعيش طبقاً لنص الكتاب المقدس وحده .

واجتمعت قوته وتصميمه وجلده وشجاعته فدفعته إلى مدى أبعد مما بلغه أشد المصلحين الدينيين تحمساً مثل لوثر وكلڤن من ناحية ، كما دفعته فى الناحية

(١) شيعته « والدو » Waldensians فرقة ظهرت فى جنوب فرنسا فى القرن الثالث عشر ، أتباع «بيتر والدو» وهو تاجر غنى من أهل ليون باع أملاكه وأعطاها للفقراء ، أنكروا حق السلطة المدنية فى توقيع عقوبة الإعدام كما أنكروا الكنيسة الرومانية وأجازوا أن يقوم بالطقوس الدينية رجل من غير رجال الكنيسة . وعصاة ألبى Albigensians فرقة ظهرت فى جنوب فرنسا فى العصر نفسه ، خرجت على الكنيسة الرومانية ، وانتقدت فساد رجال الدين .

أما « منكرو التعميد» anabaptists (ومعناها الحرفى مكررو التعميد) ففرقة ظهرت فى ألمانيا على أثر حركة مارتن لوثر ؛ أنكرت قيمة التعميد كما كانت تقوم به الكنيسة الرومانية ، لأن التعميد فى رأيهم لا يجوز إلا إذا كان المعمَّد مدركاً (المترجم) .

الاجتماعية إلى مدى أبعد ما ذهب إليه أجرأ الفوضويين وهم شترنر[١] ومدرسته. ولم يمض وقت طويل حتى وجدت المدينة الحديثة ووجد المجتمع المعاصر - مجتمع القرن التاسع عشر بكل ما فيه من عدالة وظلم - فى أعظم فنانى الأدب لذلك العصر خصماً لا يفوقه خصم فى اللدد والخطورة . ولم يوجد ناقد للمجتمع أشد تدميراً من الرجل الذى بنى لعصره أعظم بناء فنى .

على أن الكنيسة والدولة تعرفان خطر هؤلاء الفرديين المتعصبين ، وتعلمان أن التفكير النظرى مهما يكن نظرياً صرفاً فإنه يدخل بالتدريج فى حيز العمل ؛ وأعظم المصلحين أمانة وأعلاهم موهبة هم بالتحديد أولئك الذين يسببون أعظم ما يكون من الاضطراب على هذه الأرض . والكنيسة والدولة تعلمان أن المسيحية الأولى ترمى إلى مملكة سماوية لا إلى مملكة أرضية ، وأن من أوامرها ما هو من وجهة نظر الدولة هدام مناقض للحكومة ، لأن الأتقياء مطالبون بأن يضعوا المسيح فوق قيصر ؛ ومملكة السماء فوق مملكة الأرض ، ولا بد من ثمة أن يخالفوا عن واجبات الرعايا المخلصين ، وعن قانون الدولة وبنائها ، ولكن تولستوى لم يدرك إلا شيئاً فشيئاً أية غاية من المشكلات سيبلغ ببحثه وتحسسه .. فقد كان يظن أولاً أنه إنما يحاول أن ينظم حياته الخاصة ، وأن ينال اطمئنان الروح بإخضاع موقفه الشخصى - جهد الطاقة - لأوامر الكتاب المقدس ؛ ولم يكن يرمى إلى أكثر من أن يعيش فى سلام مع الله وفى سلام مع نفسه .

ولكن السؤال الأول : « ما الخلل الذى أصاب حياتى؟ » نما إلى أن أصبح هذا السؤال العام : « ما الخلل الذى فى حياتنا جميعاً » ؟

وبذا أصبح نقداً للعصر . وبدأ ينظر حوله فلاحظ أمراً لم يكن عسير الملاحظة ولا سيما فى روسيا تلك الأيام : لاحظ انعدام المساواة فى الأحوال الاجتماعية ، والتناقض بين الغنى والفقر ، وبين الترف والشظف ، ورأى من وراء أخطائه الخاصة الظلم العام الذى يمارسه أنداده من الطبقة العليا ، فجعل أول واجباته أن يناهض هذا الظلم بكل قوته . وهنا أيضاً بدأ يسير ببطء شديد ، وكان لا بد أن يمضى الطريق بذلك الرجل

(١) ماكس شترنر (١٨٠٦ - ١٨٥٦) مفكراً اشتراكى ألمانى ، أكد حرية الفرد وأن الإيمان بشئ من النظم خارج عن الفرد إنما هو ضرب من الاعتقاد فى الخرافات ، وأن على الفرد أن يحدد واجباته ، ويكون سيد نفسه (المترجم) .

الصارم ذى اللماحية العجيبة شوطاً طويلاً ، ولكنه بدأ داعياً للخير ونصيراً للحرية قبل أن يغدوا فوضوياً وثورياً قحاً بزمن طويل ، وقد لمس المسألة الاجتماعية لأول مرة فى زيارة عابرة لموسكو سنة ١٨٨١ ، وهو يصور هذا اللقاء الأول للبؤس الشامل فى مدينة كبيرة تصويراً مذهلاً فى كتابه « ماذا يجب أن نعمل؟ » ولا شك أن عينه اليقظة قد رأت الفقر ألف مرة من قبل فى أسفاره وجولاته ، ولكنه لم يكن إلا الفقر الفردى فى القرى والريف ، لا الفقر البروليتارى المركز فى المدن الصناعية ، الفقر كإنتاج للعصر، إنتاج "آلى" لمدينة "آلية" ووضع تولستوى موقفه من الكتاب المقدس فى حيز التطبيق ، فحاول أولاً أن يقلل من الشقاء بالهبات والتبرع وتنظيم أعمال الخير ؛ ولكنه سرعان ما رأى ألا فائدة من أى عمل فردى ، و« أن المال وحده لا يمكن أن يجدى هنا فى تغيير الحياة الرهيبة التى يحياها هؤلاء الناس » . وإنما يمكن إحداث تغيير حقيقى بإعادة بناء النظام الاجتماعى الحاضر كله من جديد . وهكذا يكتب نذيراً من نار على حائط الزمن : « إن بين الأغنياء والفقراء منا دائماً سوراً من التربية الخاطئة ، وقبل أن نستطيع مساعدة الفقراء يجب أن نهدم هذا السور ، لقد وجدتنى مسوقاً إلى هذه النتيجة : أن ثروتنا هى السبب الحقيقى لشقاء العامة .» هناك خلل فى البناء الاجتماعى الحاضر ، هذا ما تبينه فى أعماق روحه ، ومنذ ذلك اليوم كان لتولستوى غرض واحد : أن يعلِّم الناس ويحذرهم ويربيهم حتى يعملوا بمحض إرادتهم على إصلاح هذه الحقيقة : حقيقة أن الناس مقسمون إلى طبقات منفصلة كل الانفصال عن بعضها البعض .

وينبغى أن يصدروا فى ذلك عن إرادتهم الحرة ، وعن بصيرة خلقية خالصة . وهنا يبدأ المذهب التولستوى . فإن تولستوى لم يكن يرمى إلى ثورة عنيفة ، بل إلى ثورة خلقية ، تحقق هذه التسوية فوراً ، فتجنب الإنسانية الثورة الأخرى الدموية .

لقد أرادها ثورة مؤسسة على الضمير ، ثورة ناتجة عن تخلى الأثرياء عن ثرواتهم والمتبطلين عن بطالتهم طوعاً واختياراً ، وإعادة تقسيم العمل تواً على المعنى الطبيعى الذى جعله الله : ألا يجوز أحد على عمل آخر ، وأن يكون لكلٍّ مثلُ ما لغيره من الحاجات ، وأصبح منذ الآن يرى الترف زهرة سامة لذلك الخمول الذى يجب اقتلاعه كى يصبح الناس سواسية .

ومن هذا الاعتقاد بدأ تولستوى هجومه على الملْكية بمرارة أشد مائة مرة مما هاجمها كارل ماركس وپرودون . "الممتلكات اليوم هى أصل الشرور جميعاً ، فهى

مـصـدر العـذاب لأولئك الذين يملكون وأولئك الذين لا يملكون . ولا سـبـيل إلى تجنب الصدام بين من يملكون أكثر مما ينبغى ومن يعيشون فى فقر » . الشر كله أوله الملكية، وما دامت الدولة معترفة بمبدأ الملكية فهى - فى نظر تولستوى - غير مسيحية وغير اجتماعية معاً ، وهى مشتركة فى الذنب ، بل أكبر شريك فيه (بما أن تولستوى يعتبر المِلْكية نوعاً من الدِّين) ، « فالدول والحكومات تتآمر وتشن الحروب من أجل الملكية ، مرة طعماً فى ضفاف الرين ، ومرة فى أراضى إفريقية ، ومرة فى الصين والبلقان ، ورجال المال والتجار ورجال الصناعة وملاك الأراضى يعملون ويدبرون الخطط ويعذبون أنفسهم وغيرهم للملكية ولا شئ غير الملكية ، والموظفون يختصمون ويغشون ويظلمون ويعذبون أنفسهم كل ذلك من أجل الملكية وحدها . ومحاكمنا وشرطتنا تحمى الملكية . ومستعمرات النفى والسجونُ وكل الفظائع التى تنتسب إلى ما نسميه مكافحة الإجرام إنما تقوم لحماية المِلْكية » .

ففى رأى تولستوى إذن أن هناك مستلماً واحداً كبيراً للبضائع المسروقة ، يحمى كل ما فى مجتمع اليوم من مظالم ، وهذا المجرم هو الدولة . وعنده أنها لم تخترع إلا لحماية الملكية ؛ فلهذا الغرض وحده أقامت نظامها المتشابك المبنى على القوة ، المجهز بالقوانين والمحققين والسجون والقضاة ورجال الشرطة والجيوش .

ولكن أفظع مفاسد الدولة وأشدها كفراً فى اعتقاد تولستوى كان اختراعاً جديداً فى بلاده وهو التجنيد الإجبارى العام .

فلم يكن ثمة حافز - فى نظره - للرجل المسيحى أن يخون وصايا المسيح وأوامر الأناجيل مثل خضوعه لأمر من الدولة يسمح بأن توضع فى يديه قهراً آلة من آلات الإجرام ليقتل رجلاً غريباً عنه تماماً من أجل شعار عابر : كالوطن أو الحرية أو الدولة. فليس لهذه الشعارات من غرض - هكذا ظل تولستوى يصرح - إلا حماية ممتلكات لا يمكلها ، ورفع فكرة الملكية قهراً إلى قانون خلقى سامٍ ، وقد كتب تولستوى المئات بعد المئات من الصفحات ليؤكد هذا التناقض : أن ما يسمى بالمدنية (التى لم يكن يرى فيها إلا غطاء للانحلال الخلقى) قد صارت إلى حالة تسمح بإجبار الناس على ذبح بعضهم بعضاً بأمر من الدولة ، وهذا مخالفة لأوامر الله ووحى الضمير ، إذا بها "يُدفع إنسان رغماً عنه إلى موقف ينفر منه وجدانه " .

وهكذا انتهى تولستوى الباحث عن الإنجيل الذى انقلب فوضوياً متحمساً وبقى كذلك .. انتهى إلى أن واجب كل إنسان يرعى الخلقَ فى بصيرة وذكاء أن يقاوم الدولة إذا تطلبت شيئاً « لا يتفق مع المسيحية » وهو الخدمة العسكرية ، على ألا يكون ذلك بالقوة بل بالمقاومة السلبية ؛ وعليه فوق ذلك أن يتخلى عن كل نشاط يعتمد على استغلال عمل غيره ، وعلى الرجال الشرفاء أن يفكروا ويعملوا لا بدافع وطنى بل بدافع إنسانى .

ولا ينفك تولستوى يشير إلى الحق الأقدس للفرد فى أن يعرض عن أمور بناء على يقينه الداخلى ولو كانت مباحة أو حتى مطلوبة قانوناً ، وفى أن يعصى كل حكم للدولة لا يراه متفقاً مع الخُلق .

ولهذا ينصح لكل مسيحى أن يتجنب التدابير والنظم جميعها بقدر استطاعته ، وألا يذهب إلى المحاكم ، ولا يقبل وظيفة من الوظائف ، ليظل نقى النفس . ولا ينفك تولستوى يشجع الفرد على ألا يخشع أمام "مبدأ القوة " الزائف المناقض للأخلاق ، وإن تَسَمَّى بقوة القانون والنظام ، لأن الدولة بشكلها الراهن هى المدافع والمحامى ومنفذ الأحكام عن ظلم مستتر ؛ بل إن الجرائم الفوضوية التى يرتكبها الأفراد لا تبدو لتولستوى مَفْسدة كنظم ذلك العدو الأكبر التى تبدو مُحكمة رامية إلى خير الإنسانية . "إن اللصوص والشطَّار والقتلة والنصابين مَثَلٌ لما يجب على المرء ألا يعمله ، وهم يبعثون فى نفوس الناس استفظاعاً للجريمة ، ولكن الناس الذين يرتكبون أعمال السرقة والنهب والقتل والجلد ويذَّهبونها بمبرر دينى أو علمى أو تحررى ، أولئك الذين يرتكبون هذه الأعمال بوصفهم ملاكاً أو تجاراً أو رجال صناعة ، يزينون أعمالهم لغيرهم ، فلا يقتصر ضررهم على من يصيبه بل يشمل الألوف والملايين من الناس الذين تُدَمَّر خلقياتهم بتحطيم الفارق بين الخير والشر فى عقولهم .. إن حكماً واحداً بالإعدام ينفذه رجال بعيدون عن تأثير العاطفة ، رجال متعلمون ناجحون فى حياتهم ، يشجعهم ويساعدهم قسيسون مسيحيون ، لأشد إفساداً للبشرية ونزولاً بها إلى مرتبة الوحشية من مئات وألوف من جرائم القتل التى يرتكبها عمال غير متعلمين ، وهم فى ثورة الغضب عادة . وكل حرب حتى أقصرها أمداً ؛ بكل ما يصاحبها من خسائر وسرقات واستباحة للحرمات ونهب وقتل ، مع تبرير ذلك – فى زعمهم – بأنه ضرورة وعدل ، والثناء على الأعمال الحربية وتمجيدها ، والدعاء للعَلَم والوطن ، والقلق المنافق

على الجرحى لتفسد الناس فى عام واحد أكبر مما تفسدهم الملايين من جرائم السلب والإحراق العمد والقتل التى يرتكبها أفراد تحت سيطرة العاطفة على مدى مئات السنين ." أو بعبارة أخرى إن الدولة والنظام الاجتماعى الراهن هما المجرم الرئيسى والمسيخ الدجال حقًّاً والصورة المجسمة للشر ؛ وتولستوى يلطم وجهها بصيحته الصارمة : « امحو هذا العار!» .

ولكن إذا كانت الدولة بوصفها جهاز المجتمع الإنسانى هى الشر مطلقاً ، وصورة المسيخ الدجال فى أعجب تنكر لها على الأرض ، فإن الواجب الطبيعى للرجل المسيحى فى نظر تولستوى هو أن ينأى بنفسه عن مطالب هذا الشبح الشيطانى ومغرياته جميعاً يجب على المسيحى الحر ألا يبالى بروسيا بوصفها دولة كما لا يبالى بفرنسا أو إنجلترا ؛ ويجب ألا يفكر فى أمم بل على أساس إنسانى عام . لقد ابتعد تولستوى بروحه عن الدولة كما ابتعد عن الكنيسة الأرثوذكسية ، معلناً : "إننى لا أستطيع الاعتراف بالدول ولا بالأمم ؛ ولا أن أشترك فى المنازعات التى تقوم بينها بالكتابة فى ذلك أو بخدمة دولة واحدة . إننى لا أستطيع المشاركة فى شئ يعتمد على الفرق بين الدول ، كالجمارك أو جباية الضرائب أو صناعة المتفجرات والأسلحة أو أى نوع من الاستعدادات الحربية " ، ويستطيع الرجل المسيحى ألا يحاول الحصول على منفعة ما من مؤسسات الدولة ، وعليه ألا يسعى إلى الإثراء فى حمايتها أو بناء مستقبله بالحظوة لديها ، وعليه ألا يذهب إلى المحكمة ولا يستعمل شيئاً من المنتجات الصناعية ولا يستخدم فى حياته شيئا يأتى من عمل غيره ، ويجب ألا يجرز مِلْكاً ويجمل به أن يتجنب التعامل بالنقود ، وألا يسافر بالقطار أو الدراجة وينبغى ألا يدلى بصوته فى انتخاب ولا أن يشغل وظيفة عامة أبداً . ويجب عليه ألا يقسم يمين الولاء للقيصر ولا لأية سلطة أخرى ، لأن طاعته لا تكون إلا لله وكلمته المنزلة فى الأناجيل .

ويجب ألا يعترف بقاض سوى ضميره هو نفسه . ويجب على « الرجل المسيحى » بالمعنى الذى أراده تولستوى - والحق أنه يمكننا الاستعاضة عن هذه التسمية دائماً بقولنا « الفوضوى الكامل» - أن ينكر الدولة ، وأن يعيش عيشة تتفق مع الأخلاق خارج نطاق هذه المؤسسة المفسدة للأخلاق. وليس ثمة فارق يميزه عن الثورى السياسى الذى يكره الدولة بدلاً من أن يتجاهلها سوى هذا الموقف السلبى الخالص ، الخالى من الثورة الذى يتقبل راضياً كل عذاب .

ومعنى ذلك أننا يجب أن نغفُل عن التضاد فى المبادئ بين تولستوى ولنين. فالتولستويّة ترفض كل مقاومة عنيفة للنظام الاجتماعى ، بنفس القوة والإصرار اللذين تدين بهما النظام الراهن للمجتمع ، لأن الثورة لا بد لها أن تحارب الشر بشر آخر وهو العنف ." ولا يجوز أن نحارب الشيطان ببعلزبول " [1] وتتبع تعاليم تولستوى مبدأه الأسمى والأعمق : "لا تقاوموا الشر بالقوة " فتعد المقاومة الفردية المنفعلة هى الشكل الوحيد المقبول من أشكال الصراع ، بخلاف الطريق الثورى الفعال ، فالرجل المسيحى يجب أن يتعذب ويتجرع كل ظلم ترتكبه الدولة فى حقه ، دون أن يؤدى به ذلك إلى الاعتراف بالدولة . ويجب ألا يستخدم القوة أبداً ليقاوم القوة ، لأن لجوءه هو نفسه إلى العنف معناه الاعتراف بالقوة ومبدأ الشر على أنهما جائزان . إن الثورى التولستوى لا يَضْرِب أبداً، بل يدع نفسه يُضْرَب ؛ ولا يحاول الحصول على مركز من مراكز القوة الخارجية ، ولكن لا يُزحزَح بأى عنف عن موقفه الداخلى من عدم اللجوء إلى العنف ، ويجب أن لا يستولى على "السلطة" أو "الدولة " بل ينبذهما على أنهما أمران لا يعنيانه ، ولا ينتمى إليهما فى داخل نفسه ، ولا يمكن أحداً أن يجبره على إخضاع ضميره لهما .

وإذن فتولستوى يحدد الفرق واضحاً بين مقاومته الدينية لكل سلطان ، تلك المقاومة الشبيهة بالمسيحية الأولى ، وبين الصراع الطبقى الفعال القائم على الاحتراف . "عندما نقابل الثوريين نخطئ فى كثير من الأحيان فنحسب أننا نتفق وإياهم على بعض النقاط. فكلانا يصيح (لا دولة ، ولا ملكية ، لا ظلم) إلى كثير غير ذلك . ولكن هناك فرقاً كبيراً . فعند المسيحى لا وجود لدولة ما ، أما هؤلاء الناس فإنهم يرغبون فى القضاء على الدولة . وعند المسيحى لا وجود للملكية أما هم فيريدون إلغاءها . وعند المسيحى كل الناس سواسية ، أما هم فيريدون القضاء على عدم المساواة . إن الثوريين يكافحون الدولة من الخارج ، أما المسيحية فلا تكافح مطلقاً ، بل تحطم أسس الدولة من الداخل ." ولو أن ألوفاً متزايدة من الناس أبوا الخضوع بناء على اليقين الشخصى لكل منهم ، وفضلوا أن يرسَلوا إلى سيبريا ويجلدوا ويسجنوا ، لأثمرت انفعاليتهم البطولية – فى رأى تولستوى – أكثر مما يثمر تكتل الثوريين العنيف. ولهذا

(١) اسم للشيطان ، ورد فى العهدين القديم والجديد . وفى سفر الملوك ١ ، الإصحاح الأول : بعلزبول اسم إله من آلهة الوثنيين أو أحد الطواغيت .

السبب وحده يمكن أن تصبح الثورة الدينية باتباع مبدأ المقاومة السلبية اتباعاً دقيقاً - أخطر وأشد تدميراً للدولة على طول المدى من الانتفاضات والجمعيات السرية. لكى يمكن تغيير نظام العالم يجب تغيير الناس أنفسهم. أى أن ما يحلم به تولستوى هو ثورة من الداخل ، ثورة ضمير لا يتزعزع لكن يتقبل كل عذاب لا ثورة القبضة الحديدية ؛ ثورة نفوس لا ثورة أيد .

هذا « المبدأ المناهض للدولة » عند تولستوى - وهو يذكرنا بمقالة لوثر عن « حرية الرجل المسيحى » - مباشر وقوى إلى درجة عظيمة فى حد ذاته ، وإنما يظهر عيب هذا المذهب حين يحاول تولستوى أن يحول مطلبه فى حرية الاختيار إلى نظرية إيجابية فى الدولة. فالإنسان لا يعيش فى فراغ خارج عصره ، وحيث يحتشد ملايين الأفراد على مستويات عدة ، وتتشابك المواهب والحرف فى الحياة العامة ، يلزم أن يقام تنظيم محدد للحياة ، حتى لو بترنا تلك الدولة المجرمة ؛ ومن ثم يجب أن يقام « حق» مناقض لذلك الباطل القديم ، خير مناقض للشر . وهنا نكتشف للمرة الألف فى تاريخ البشرية مبلغ الصعوبة فى بناء المجتمع بالقياس إلى نقده . فإن تولستوى لا يكاد يتحول من التشخيص إلى العلاج ، فيضع مقترحات لمجتمع إنسانى مستقبل أفضل ، بدلاً من أن ينكر النظام الاجتماعى الحاضر ويدينه - لا يكاد يفعل ذلك حتى تصبح مفاهيمه سديمية وأفكاره مختلطة . ففى مكان بناء الدولة المستقر الموحد بسلطانه وقوانينه وأجهزته التنفيذية ، لا يوصى تولستوى بأكثر من "الحب" والأخوة " و "الإيمان " و"العيش فى المسيح " وسيلة للتأليف بين جميع المصالح المتضاربة ؛ وقد يدهشنا أن نسمع ذلك من رجل فتش كل غور من أغوار النفس الإنسانية كما لم يفعل أحد قبله تقريباً ، فعند تولستوى أن الهوة الضخمة التى توجد اليوم بين الطبقات المالكة - أطفال الحضارة المدللين - وبين الطبقات الفقيرة لا يمكن عبورها إلا إذا نزلت الطبقات المالكة عن امتيازاتها طوعاً ، وكفت عن مطالبها المسرفة من الحياة . لينزل الرجل الغنى عن ثروته ، والمثقف عن كبريائه ؛ لينشئ الفنان خَلْقه غير قاصد إلا إفهام الجماهير ؛ ليعيش كل إنسان من عمل يديه فقط ، ولا يتلق فى مقابله أكثر مما يحتاج إليه لهذه العيشة اليسيرة . هذه هى فكرة تولستوى الرئيسية : ألا تتم التسوية الاجتماعية من أسفل كما يريد الثوريون . بانتزاع كل ما يمتلكه الملاك ، بل من أعلى برضى تلقائى من الطبقات المالكة .

وكان تولستوى يدرك بوضوح أن مثل هذا النزول إلى أشكال العيشة البدائية الفلاحية سيحطم كثيراً من قيمنا الحضارية ولكى يجعلنا أكثر استعداداً لقبول ذلك

كتب رسالة عن الفن ، عاب فيها مبتدعات أعظم فنانينا ، حتى شكسبير وبيتهوفن ، لأنها لم تكن مفهومة للشعب كما ينبغى . فلم يكن شيئاً أهم من القضاء على ذلك الفاصل المروع بين الفقراء والأغنياء ، الذى يسمّم العالم اليوم . ففى رأيه أن تساوى الحاجات أو على الأصح بساطة الحاجات إذا ماعادت الوحدة بين الناس لم تستطع غرائز احسد والكراهية أن تجد أهدافاً جديدة لتهاجمها ، فلا يحتاج الأمر إلى خلق سلطات خاصة واستخدام القوة للمحافظة عليها . وستبدأ مملكة الله الحقيقية على الأرض حالماً تمحى جميع الأمجاد الاجتماعية والتبعيات الاجتماعية ويتعلم الناس مرة أخرى أن يكونوا مجتمعاً واحداً متآخياً .

ولقد كان لهذا الفكرة من الجاذبية فى بلاد اشتدت فيها الفروق الاجتماعية وكان لتولستوى من التأثير فى زمنه ما جعل كثيراً من الناس يرغبون فى تحقيق الفكرة التولستوية الجديدة عن المجتمع تحقيقاً عملياً ، ووجد فى بعض الأمكنة أناس حاولوا أن يختبروها بتأسيس مستعمرات على مبدأ عدم الملكية وعدم العنف . ولكن هذه المحاولات انتهت بالفشل الذريع ؛ ولم ينجح تولستوى فى إقامة مبادئ التولستوية الأساسية حتى فى منزله وأسرته فقد جاهد سنوات ليحدث توافقاً بين حياته الخاصة ونظرياته ، فترك رياضة الصيد المحببة إليه حتى لا يقتل الحيوانات ، وتجنب استعمال السكة الحديدية ما استطاع ، وحول دخله من كتاباته إلى أسرته أو إلى أغراض الإحسان ، وأبى أن يأكل اللحم لأنه يستلزم قتل كائنات حية ، وكان يفلح الأرض بنفسه ، ويلبس معطفاً خشناً مما يلبسه الفلاحون ، ويثّبت النعل فى حذائه بيديه .

ولكنه لم يستطع أن يتغلب على مقاومة الواقع لأفكاره ، ولا سيما فى أسرته ، بين أقرب الناس إليه وأعزهم عليه ؛ وهذه هى أعمق مأساة فى حياته ، فتباعدت عنه زوجه، ولم يستطع أبناؤه أن يفهموا لماذا يجب عليهم هم بالذات أن ينشئوا كالحلّابات وأبناء الفلاحين من أجل نظريات أبيهم ؛ وتشاجر كتابه ومترجموه كالحوذية السكارى حول "مِلْكية " كتابات تولستوى . ولم يَر إنسان واحدُ ممن حوله فى حياة هذا الوثنى الرائع حياة مسيحية حقة ، وعرف هو نفسه آخر الأمر ، كما يظهر من مذكراته ، أن ثقافته وكبرياءه كانت تجعلانه أبعد من أى إنسان آخر عن تحقيق المثل الأعلى الذى دعا إليه بإصرار ، وإنا لنهتز إذ نقرأ هذا السؤال فى مذكراته : « يا ليو تولستوى ! » هل تعيش وفقاً لمبدئك ؟» ثم الجواب المر : إننى أموت خجلاً .

إنى مذنب وخليق بالاحتقار " . وحين يشعر الشيخ ذو الثلاثة والثمانين عاماً باقتراب الموت يفر من منزله بليل ويموت فى محطة صغيرة للقطارات ، وحيداً مفجوعاً فى غرضه الأسمى .

وعلى أنه من التعقيبات الرخيصة أن نلاحظ باستعلاء استحالة تحقيق مذهب تولستوى الاجتماعى والدينى ، كاستحالة تحقيق جمهورية أفلاطون الطوبوية أو نظام جان چاك روسو الاجتماعى . ومن السهولة الصبيانية أيضاً أن نكتشف أن كتاباته النظرية قلما تلمع وتقنع كما يلمع قَصصه ويقنع . وحسبنا أن نقارن (كما حاولنا أن نفعل فى هذه المختارات) حماسته الصارخة فى كتاباته النظرية بحكاية أو اثنتين من حكاياته الشعبية التى يعالج فيها الأفكار نفسها لنشعر بالفرق . فهو فى الحكايات الشعبية التى يمكن أن يُضم أروعها إلى الكتاب المقدس مع قصتى أيوب وراعوث ، موجز خلاّق بارع ؛ فى حين أن فلسفته كثيراً ما يغلب عليها عدم التماسك والتأكيد ، فوق ثقلها فى كثير من الأحيان لما فيها من ادعاءات متعسِّفة ، كأنما كان هو ، ليو تولستوى ، أول رجل فى ألف وثمانمائة وثمانين سنة يقرأ الأناجيل "كما ينبغى» وكأن أحداً قبله لم يفكر تفكيراً ناقداً فى مشكلات المجتمع البشرى . وكثيراً ما نشعر بالميل إلى أن نردد رجاء تورجنيف حين دعا تولستوى إلى التحول عن المقاولات غير المتماسكة « ماذا يجب أن نعمل ؟» و "مملكة الله فينا " وشروحه العقيمة للكتاب المقدس إلى عالم الخلق الفنى ، حيث لم يكن مجرد متأمل بين كثير من المتأملين بل الأستاذ الذى لا يبارى ، أعظم مصور لشعبه ، إن لم نقل لقرنه . على إننا نجور إذا أنكرنا الآثار القوية بل الحاسمة التى يدين بها العالم لنظرية تولستوى فى الحياة ؛ ومن المحقق أننا لا نبالغ إذا قلنا إن أحداً من المفكرين المعاصرين له لم يهز نفوس الملايين والملايين من الناس كما فعل ، حتى ولا كارل ماركس أو نيتشه ، وإن كانت تأثيراتهم مختلفة فى الاتجاه كل الاختلاف . فكما تفيض أنهار الفردوس من الوسط فى اتجاهات متضادة ، كانت أفكار تولستوى – وهذا هو الأمر العجيب – تُخصب أشد الحركات الفكرية تناحراً فى القرن العشرين . فقد لا يكون ثمة شئ أبعد من البلشفية المنظمة ، التى تبدأ بطلب القضاء على عدوها (فى حين يطلب هو التصالح عن طريق الحب) ؛ والتى جعلت للدولة – طاغوت تولستوى – سلطاناً ، لم يكن أحد يحلم به على الفرد ؛ والتى تؤكد بتركيزها للسلطات جميعها ، وإلحادها، وعزمها على إثارة الجماهير من سباتها ، عكس ما قاله تولستوى بالضبط فى "هكذا يجب أن تعيشوا " . ومع ذلك فلم يكن بين الثوريين الروس فى القرن التاسع عشر من مهد السبيل للنين وتروتسكى

مثل هذا "الكونت" المناهض للثورة ، الذى كان أول من تحدى القيصر ، والذى خرج من الكنيسة تتعقبه لعنة المجمع المقدس ، والذى حطم كل سلطة قائمة بضربات مطرقة، والذى طالب بالتصالح الاجتماعى على إنه الشرط الضرورى لعالم جديد أفضل . وكانت أعماله التى تصادرها الرقابة تنسخ باليد ، وتصل إلى مائة ألف قارئ ، فتذيع على الملأ مطالبة بإلغاء الملكية فى حين كان غلاة الاشتراكيين الثوريين لا يزالون قانعين بعلاجات وإصلاحات تحررية ، فلم يكن لكتاب ولا لرجل مثل ما كان لتطرف تولستوى الفكرى من نصيب فى جعل روسيا متطرفة ولم يشجع أحد بنى وطنه كما شجعهم على ألا يحجموا عن عظيم من الأمر ، وعلى الرغم من كل "مقاومته الداخلية " فإنه يستحق تمثالاً فى الميدان الأحمر . فكما كان روسو أبا للثورة الفرنسية ، كذلك كان تولستوى (ربما على غير رغبة منه كهذا الفردى المتطرف الآخر تماماً) هو "إرهاص " الثورة الروسية العالمية وسلفها الحقيقى .

ولكن من العجيب أن مبدأه كان له فى الوقت نفسه تأثير مضاد تماماً فى ملايين أخرى من الناس ففى الطرف الآخر من الدنيا ، فى الهند ، تلقى غاندى غير المسيحى رسالة المسيحية الأولى من تعاليم تولستوى . بينما استحوذ الروس على خصلة التطرف فى هذه التعاليم ، أخذ غاندى مبدأ عدم المقاومة وكان أول من نظم أسلوب المقاومة السلبية مع قومه الذين يبلغون ثلاثمائة مليون ، وقد استخدم فى هذا الصراع أيضاً سائر الأسلحة غير الدموية التى أوصى بها تولستوى على أنها الأسلحة الوحيدة المقبولة : هجر الصناعة : العمل المنزلى ، كسب الاستقلال الداخلى والسياسى باختصار الحاجات الخارجية إلى الحد الأقصى . وإذن فقد اعتنق مئات الملايين ، بعضهم فى ثورة روسيا الإيجابية وبعضهم فى ثورة الهند السلبية ، أفكار هذا الثورى الرجعى أو هذا الرجعى الثائر - وإن فعلوا ذلك بطريقه كان صاحب هذه الأفكار جديراً بأن يستفظعها أو ينكرها .

على أن الأفكار ليس لها فى ذاتها اتجاه ما ؛ وإنما تُدفع كالشراع أمام الريح حين يمسك بها الزمن . الأفكار فى ذاتها ليست إلا قوى محرِّكة ، تنتج الحركة دون أن تعرف هدف هذه الحركة وهذا الهياج . ولا عبرة بكون أفكار تولستوى عرضة للنقد فى جانب كبير منها ، فما دامت قد صنعت التاريخ - ولا شك فى ذلك - على نطاق عالمى ، فستحتل كتاباته النظرية ، مكانها دائماً بين أهم مكونات عصرنا الفكرية والاجتماعية ، بل إنها لا تزال إلى اليوم قادرة على أن تعطى القارىء الفرد الشئ الكثير .

فالمكافح من أجل السلم والتفاهم الهادئ بين الناس لن يجد مثل هذه «الترسانة» الفنية المنظمة من الأسلحة ضد الحرب . والرجل الذى يثور ضميره على ما شاع اليوم من تأليه الدولة على أنها الغرض السليم الوحيد من تفكيرنا وجهدنا ، والذى يرفض أن يشارك فى هذه العبادة التى تقوم على التضحية الكاملة ، حرى أن يستمد قوة عجيبة من هذا الخارج على دين الوطنية كله . وكل رجل دولة وكل دارس لعلم الاجتماع سيكتشفان نظراً بعيداً متنبئاً بالمستقبل فى نقده الأساسى لعصرنا ؛ وكل فنان لابد أن تلهمه قدوة هذا الشاعر العظيم ، الذى عذب روحه حتى يفكر لغيره ، ويحارب الظلم على الأرض بقوة كلماته . وإنها لسعادة عظيمة أن تستطيع النظر إلى فنان عملاق على أنه قدوة خلقية أيضاً ، رجل لم يستعل بشهرته ، بل جعل نفسه خادم الإنسانية ، ولم يخضع – فى صراعه لبلوغ خلقية جديدة – إلا لسلطة واحدة من بين جميع السلطات الأرض :

ضميره الذى لا يمكن أن يتطرق إليه الفساد .

اختار ستيفان تسفايج لباب تفكير تولستوى ونظمه من الأعمال الآتية :

اعترافى

مملكة الله فينا

الحرب والسلام

نيكولاى پالكين

ثلاثة أمثال

الملك أسر حدون

مابه حياة الناس[1]

١ – اختارت سلسلة The Living Thougts Library فى طبعتها الإنجليزية ترجمة Nathan Has-kell Dole لتنقل منها هذه المختارات . وقد نقلنا عنها الترجمة العربية ، وراجعنا القطعة المختارة من "اعترافى" على ترجمة Aylmer Maude فى سلسلة The World's Classics . (المترجم)

أعمال
ليونيكولايفتش تولستوى
(١٨٢٨ - ١٩١٠)

الطفولة (١٨٥٢) ، الصبا (١٨٥٤)

الشباب (١٨٥٥ - ١٨٥٧) ثلاث ميتات (١٨٥٩)

القوزاق (١٨٦٣)

الحرب والسلام (١٨٦٤ - ١٨٦٩)

أنا كارنينا (١٨٧٣ - ١٨٧٧)

اعترافى (١٨٧٩ - ١٨٨٢)

مابه حياة الناس ، وقصص أخرى (١٨٨١)

سلطان الظلام (١٨٨٥)

أنشودة كرويتزر (١٨٩٠)

مملكة الله فينا (١٨٩٣)

ما هو الفن ؟ (١٨٩٨)

البعث (١٨٩٩)

العبودية فى عصرنا ، وفصول أخرى (١٨٩٩)

سبيل تولستوى

إلى ذاته الباطنة *

ولقد عُمِّدت ونشئت على الدين المسيحى الأرثوذكسى ؛ وعلمته فى طفولتى وصباى وشبابى . ولكننى حين تركت الجامعة فى السنة الثانية ، وأنا فى سن الثامنة عشرة ، كنت قد نبذت الاعتقاد بكل ما علِّمته .

اختفى لدى الاعتقاد الذى أشربته منذ الصغر ، اختفى تدريجيا كما هو الشأن عند الكثيرين ، ولكن مع هذا الفارق . وهو أن ابتدائى فى قراءة الفلسفة منذ سن الخامسة عشرة جعلنى واعياً بكفرى ، فتركت الصلاة منذ سن السادسة عشرة ، وانقطعت عن شهود الصلوات الكنسية وعن الصوم بناءً على اقتناع ، ولم أعد أدين بإيمان طفولتى ، ولكننى كنت أعتقد فى شئ ما ، وإن لم استطع توضيحه بالضبط . كنت أومن بإله - أو على الأصلح لم أكن أنكر وجود إله - ولكن أى إله ؟ ذلك مالم أكن استطيع بيانه ؛ ولم أنكر المسيح ولا تعاليمه ، ولكننى لم أكن لاستطيع أن أقول مم كانت تتألف هذه التعاليم .

وحين أفكر الآن فى ذلك الزمن ، أرى بوضوح أن كل ما كان لدى من إيمان ، أن الاعتقاد الوحيد الذى سيطر على حياتى إذا نحينا جانباً الغريزة الحيوانية الصرفة ، هو الاعقتاد بإمكان الكمال ، وإن لم استطع معرفة ما هو فى ذاته ، ولا ماذا عسى أن تكون نتائجه .

حاولت أن أبلغ الكمال الذهنى ؛ فوسعت دراساتى فى كل اتجاه أتاحته لى الحياة ؛ وحاولت أن أقوى إرادتى بأن اصطنعت لى قواعد ألزمت نفسى بإتباعها ؛ وبذلت غاية جهدى فى تنمية قواى الجثمانية بكل تمرين قصد به أن يكسب القوة والمرونة ، وبتعويد نفسى طول الاحتمال ؛ وأخذت نفسى متطوعاً بكثير من الشدائد وألوان من الحرمان . وكنت أرى ذلك كله ضرورياً للحصول على الكمال الذى كنت أنشده . وطبيعى أن الكمال الخلقى كان يبدو لى ، أول الأمر ، هو الغاية العليا ،

(*) من « اعترافى» .

ولكننى لم ألبث أن وجدتنى أتطلع – عوضاً عن ذلك – إلى مثل أعلى من الكمال العام ، أو بعبارة أخرى رغبت أن أحسن لا فى عينى ولا فى عين الله بل فى أعين الناس . ثم لم يلبث هذا السعى إلى أن أحسن فى أعين الناس حتى تحول إلى شئ آخر : الرغبة فى أن أكون أقوى من غيرى ، أن أحرز نصيباً أكبر من الشهرة ، ومن الظهور فى المجتمع ، ومن الثراء .

وقد أروى قصة حياتى فيما بعد ، وأبسط تفصيل الحوادث التى أثرت فى عواطفى وأفكارى عندما كنت شاباً . وأحسب أن كثيرين وكثيرين قد عانوا مثل ما عانيته . كنت أرغب من كل نفسى أن أكون خيِّراً ؛ ولكنى كنت شاباً ، تحدونى نوازع قوية ، وكنت وحيداً منقطعاً فى بحثى عن الخير ، فكنت كلما حاولت أن أعبر عما يتوق إليه قلبى من أن أكون ذا خلق خير لقيت الاحتقار والاستهزاء ، فإذا ما خليت السبيل لشهواتى الوضيعة وجدت الثناء والتشجيع .

كان الطموح وحب السلطان وحب الكسب وشهوة الجسد والكبرياء والغضب والانتقام تُحلُّ أعلى مكان من الاحترام .

ولما خَلّيت السبيل لهذه الشهوات أصبحت مثل من يكبروننى ، وشعرت بأنهم رضوان عنى . وكانت لى عمة شفيقة ، امرأة طيبة حقاً ، كنت أعيش معا ، وقد اعتادت هذه العمة أن تقول لى إن هناك شيئاً واحداً تتمناه لى فوق كل شئ : غرام مع امراة متزوجة ، « فلا شئ ينضج الشاب مثل علاقة مع امرأة كاملة » . وكان من بين أمنياتها لسعادتى أن أصبح ياوراً ، وحبذا لو أكون ياوراً للإمبراطور ؛ وكان الحظ الأوفى عندها أن أوفق إلى عروس غنية ، تكون بائنتها إلى تأتينى بها أكبر عدد ممكن من الرقيق ولا استطيع الآن أن أتذكر تلك الأيام دون أن يعرول شعور آليم من النفور والاشئمزاز .

لقد قتلت الرجال فى الحرب ، وبارزت لأذبح آخرين ، وخسرت فى لعب الورق ، وأضعت أموالى التى انتزعتها من عرق الفلاحين ، وعاقبت هؤلاء بقسوة ، وعربدت وخدعت الرجال . كذب ، وسرقة ، وفساد خلقى من كل نوع ، وسكر واعتداء ، وقتل ... لم تكن ثمة جريمة لم أقترفها ، ومع ذلك فإن أندادى ظلوا يعتبروننى رجلا حسن الأخلاق بالقياس إلى غيرى .

تلك كانت حياتى مدى عشر سنين .

وفى تلك الأثناء بدأت أكتب ، يحدونى الغرورّ وحب الكسب والكبرياء. وسرت كاتباً على النهج الذى اخترته إنساناً فلكى أنال الشهرة والمال اللذين أكتب من أجلهما ، كنت مضطراً أن أخفى ما كان خيراً وأقول ما كان شراً وهذا ما فعلته . وما أكثر ما قدحت ذهنى وأنا أكتب لأخفى تحت قناع من عدم المبالاة أو الهزل تلك المشاعر التى كانت تؤلف حقيقة تفكير حياتى من الحنين إلى شئ أفضل . وقد نجحت فى هذا أيضاً وكسبت حمداً .

وعندما بلغت السادسة والعشرين قدمت إلى بطرسبرج ، وقد انتهت الحرب ، ولقيت كتاب العصر ، واستقبلت بترحاب حار ، وملق كثير .

وما هى إلا أن أصبحت المزاعم الشائعة بين كتاب الطبقة التى انتميت إليها ونظراتهم إلى الحياة هى مزاعمى ونظراتى ، ووضعت حداً نهائياً لجميع جهودى السابقة نحو حياة أفـــضل . وخضعت هذه الآراء لحياتى المتحللة فأمدتنى بنظرية تبررها .

كانت النظرة إلى الحياة التى يأخذ بها زملائى الكتاب هى أن الحياة تطور ، وأن الدور الرئيسى فى هذا التطور تلعبه نحن المفكرين ، وأن أصحاب التأثير الأكبر من بين المفكرين هم – مرة أخرى – نحن الفنانين والشعراء ، فرسالتنا هى تعليم الناس .

ولتجنب الإجابة عن هذا السؤال الطبيعى جداً ، وهو : ماذا «أعرف؟ ، وماذا يمكننى أن أعلّم ؟» جعلت النظرية المذكورة متضمنة لقاعدة هى أنه لا يلزم معرفة ذلك ، ولكن الفنان والشاعر يعلّمان بطريقة غير واعية .

وكنت أنا أعد نفسى فناناً شاعراً مبدعاً ، ولهذا كان طبيعياً جداً أن اعتنق هذه النظرية . أنا الفنان الشاعر كنت أكتب وأعلّم مالا أعلمه . وكنت أنال على هذا العمل مالا ، وكانت لى مائدة فاخرة ، ومنزل فخم ، ونساء ، ومجتمع ؛ وكانت لى شهرة ، وكان طبيعيًّاً أن ما أعلمّه حسن جدا .

وعندما أفكر الآن فى ذلك الزمن ، وأتذكر حالتى العقلية وحالة هؤلاء الناس (وهى حالة لا تزال شائعة إلى حد كبير بين الألوف) تبدو لى حقيرة مفزعة مضحكة ؛ إنها تثير المشاعر التى تستحوذ علينا حين نمر داخل مستشفى مجاذيب .

كنا مقتنعين جميعاً آنذاك أننا ينبغى أن نتكلم ونكتب ونطبع أكثر ما نستطيع ، بأسرع ما نستطيع ، وأن خير البشرية متوقف على هذا . وكان الآلاف منا يكتبون ويعلّمون ، وهم خلال ذلك يسفه بعضهم بعضاً ويسب بعضهم بعضاً .

وغفلنا تماماً عن أننا لا نعلَم شيئاً نحن أنفسنا ، ولا نجد جواباً عن أيسر مشكلات الحياة - ما الخير وما الشر - فمضينا نتكلم معاً ولا أحد يسمع ، وأحياناً يشجع بعـضنا بعضاً ويثنى بعضنا على بعض ، بشرط أن نتلقى تشجيعاً بتشجيع وثناء بثناء ، ثم نعود فننقلب بعضنا على بعض فى حنق . باختصار كنا نعيد تمثيل مناظر مستشفى المجاذيب .

وكان ألواف العمال يشتغلون ليل نهار ، باذلين أقصى جهدهم فى صف الحروف وطبع ملايين الكلمات لينشرها البريد فى أنحاء روسيا . ونحن نعلِّم ، ولا نشبع من تعليم ، ومع ذلك نجأر بالشكوى من أن الناس لا يحسنون الاستماع إلينا .

حالة غريبة بلا شك ، ولكننى استطيع فهمها الآن . فقد كان الدافع الحقيقى وراء كل تفكيرنا هو الرغبة فى المال والمديح ، ولم نكن نعرف طريقاً للحصول عليهما سوى كتابة الكتب والصحف وهذا ما كنا نعمله . ولكننا لنتشبث بالاعتقاد أننا أناس ذوو شأن عظيم فى حين أننا نشغل بهذه الأعمال غير الطائلة ، كان ضرورياً أن نبرر وجودنا لأنفسنا بطريقة أخرى . وهذه هى النظرية التى اعتنقناها :

كل ما هو كائن فهو حق ؛ وكل ما هو كائن فمنشؤه التطور ؛ والتطور يأتى من المدنية ؛ ومقياس المدنية هو انتشار الكتب والصحف ؛ ونحن نؤجر ونحترم للكتب والصحف التى نكتبها ، فنحن إذن أنفع الناس وأفضلهم ! .

ولو أجمعنا أمرنا لجزمنا بهذه الحجج ؛ ولكن لما كان كل رأى يبديه أحدنا يظهر له على الفور نقيض يقابله على خط مستقيم ، فقد أضطررنا أن نتردد قبل التسليم بها ، إلا أننا لم ننتبه إلى ذلك ، ومضينا نتسلم النقود ، ونتلقى المديح من الفريق الذى ننتمى إليه ، ومن ثم فقد كان كل واحد منا يرى أنه على حق .

لقد وضح لى الآن أنه لم يكن ثمة فارق بيننا وبين سكان مستشفى المجاذيب : أما فى ذلك الزمن فلم أكن أشعر بهذا إلا شعوراً مبهماً ، وكنت ككل المجانين أحسب أن الجميع مجانين إلا إياى ...

عشت هذه العيشة التى لا معنى لها ست سنين إلى وقت زواجى . وفى أثناء ذلك ذهبت إلى الخارج ، وأكدت معيشتى فى أوربا ومعرفتى بكثير من الأجانب البارزين المتقدمين فى العلم والثقافة إيمانى بمبدأ إمكان الكمال العام ، فقد وجدت النظرية نفسها سائدة بينهم . وأخذ هذا الاعتقاد والشكل الشائع بين معظم المثقفين فى أيامنا . وكان يُعبَّر عنه بكلمة "التقدم " خلت آنذاك أن لهذه الكلمة معنى حقيقياً ، ولم أفهم أننى

حين أجيب عن هذا السؤال الذى يعذبنى كما يعذب كل إنسان : "كيف أحيا حياة أفضل ؟ "بأنى يجب أن أعيش من أجل التقدم ، ولم أكن إلا مردداً لإجابة الرجل الذى تحمل زورقه الأمواج والرياح حين يجيب عن السؤال الهام الوحيد الذى يواجهه : "أين ينبغى أن نتجه ؟ " بقولة : "إننا نحمل إلى مكان ما " .

لم أكن أرى ذلك وقتئذ ؛ إلا أن مشاعرى – لاعقلى .. كانت تثور أحياناً على خرافة عصرنا الشائعة ، التى تقود الناس إلى الجهل بجهلهم للحياة .

ففى أثناء إقامتى فى باريس ، كشف لى تنفيذٌ علنى لحكم الإعدام عن ضعف اعتقادى الخرافى فى التقدم . فعندما رأيت الرأس مفصولاً عن الجسد ، وسمعت صوت سقوطهما منفصلين فى الصندوق ، فهمت – لا بعقلى ، بل بكيانى كله – أن أية نظرية عن حكمة الأشياء المقررة جميعها ، أو عن التقدم ، لا يمكن أن تبرر مثل هذا العمل ، وأنه إذا كان أهل الأرض جميعاً منذ بدء الخليقة قد وجدوا هذا الشئ ضرورياً مهما تكن نظريتهم فى ذلك ، فقد كنت أعلم أنه غير ضرورى ، وأنه شر ، وإذن فيجب ألا أحكم على ما هو ضرورى وخير بما يقوله الناس ويفعلونه ، أو بالتقدم ، بل بما أشعر فى قلبى أنه حق .

ولما عدت من الخارج أقمت فى الريف ، واشتغلت بتنظيم المدارس للفلاحين ، وقبلت وظيفة قاضى تحكيم [1] وأخذت أعلم الشعب غير المتعلم فى المدارس والطبقات المتعلمة فى الصحيفة التى بدأت أصدرها ، وبدا كأن الأمور تسير سيراً حسناً ، ولكنى شعرت بأن عقلى لم يكن فى حالة عادية ، وبأنى مقبل على تحول . ولقد كان من الممكن أن أصل فى ذلك الوقت نفسه إلى حالة اليأس التى بلغتها بعد خمسة عشر عاماً لولا تجربة جديدة فى حياتى لوَّحت لى بالأمان ، وأعنى الحياة الزوجية .

شغلت عاماً بقضايا التحكيم ، وبالمدارس ، وبصحيفتى واضطرب أمرى حتى عييت به ؛ فقد كان التحكيم شاقاً علىّ ونشاطى فى المدارس غير ظاهر الجدوى ، وحركتى فى الصحيفة بغيضة إلى نفسى ، إذ كانت تقوم على شئ واحد وهو الرغبة فى أن أعلِّم الناس جميعاً وأنا أخفى جهلى كيف أعلم أو ماذا أعلم ؟ فمرضت وكان مرضى نفسياً أكثر مما كان جسمياً ، وتركت كل شئ وذهب إلى مراعى "البشكير" لاستنشق الهواء النقى وأشرب "الكوميس " [2] وأعيش عيشة حيوانية صرفة .

(١) وظيفة شرفية أنشئت فى روسيا عقب تحرير الرقيق (سنة ١٨٦١) ، ومهمة صاحبها التوفيق بين الملاك والفلاحين . (المترجم) .

(٢) شراب مخمَّر يشربه التتر ، ويصنعنه من لبن الفرس . (المترجم) .

وبعد عودتى تزوجت . وصرفتنى الأحوال الجديدة لحياة أسرية سعيدة صرفاً تاماً عن البحث وراء معنى للحياة بأجمعها . وكانت حياتى عندئذ مركزة فى أسرتى ، وفي زوجتى وأطفالى وتبعاً لذلك فى العناية بزيادة وسائل الحياة ، وبعد أن اشغل السعى نحو التقدم العام مكان الجهد لتحقيق كمالى الفردى ، عدت فحولته ثانية إلى جهد لتحقيق السعادة لأسرتى بالذات .

وعلى هذا النحو مرت خمسة عشر عاماً ، وعلّمت فى كتاباتى ما كان هو الحقيقة الوحيدة عندى : أن غاية الحـــياة ينبغى أن تكون السعادة الكبرى لنا ولأسرتنا.

هكذا عشت ؛ ولكن حالة عقلية غريبة بدأت تستحوذ علىّ منذ خمس سنين ، كانت تمر بى لحظات من الحيرة ، وكأن الحياة قد توقفت ، وكأنى لا أدرى كيف يمكن أن أعيش ، ولا ماذا يمكن أن أفعل . وبدأت أشعر بالضياع والاكتئاب . ولكن هذه الحالة مرت ، وعدت أعيش كما كنت أعيش . ثم بدأت فترات الحيرة تعاودنى من جديد ، وكثرت ، واتخذت شكلاً واحداً فى جميع الأحيان فكانت تتمثل لى دائماً فى هذين السؤالين لماذا ؟ وإلى أين ؟

وكان يبدو لى أول الأمر أن هذين السؤالين لا هدف لهما ولا معنى ؛ وكان يبدو لى أن كل ما يسألان عنه معروف حق المعرفة ، وما دمت استطيع أن أجيب عنهما فى أى وقت أشاء دون صعوبة كبيرة ، فلا حاجة لأن أزعج نفسى بهذا الأمر فى الحال ، وسوف أجد الجواب متى فرغت للتفكير فيهما . ولكن هذين السؤالين ازدادا مثولا لذهنى ، وإلحاحاً فى طلب الجواب ، وتجمعاً كنقطتين فى بقعة كبيرة سوداء .

وحدث لى ما يحدث فى كل مرض باطنى مهلك : تظهر أولاً أعراض توعك يسيرة يهملها المريض ، ثم تتكرر هذه الأعراض بانتظام متزايد ، حتى تستحيل ألماً متصلاً ، وتشتد الآلام وإذا المريض مواجهُ بأنه ما حسبه وعكة قد أصبح أهم لديه من كل شئ آخر على الأرض ، إنه الموت !

وهذا هو ما حدث لى بالضبط ، وأدركت أن الأمر لم يكن وعكة طارئة بل شيئاً خطيراً جداً ، وأن هذين السؤالين إذا استمرا يترددان فعلىّ أن أجد جواباً عنهما . وقد حاولت أن أجيب عنهما . وكان السؤالان يبدوان أبلهين ساذجين صبيانيين ولكنى لم أكد أعكف عليهما وأحاول أن أنتهى إلى قرار فيهما حتى اقتنعت بأمرين : الأول أنهما لم يكونا صبيانيين ولا فارغين ؛ بل كانا يتناولان أعمق مشكلات الحياة ؛ والثانى أنى لم أكن قادراً على الوصول إلى قرار فيهما مهما كددت ذهنى فى المحاولة .

وقبل أن أشغل نفسى بضيعتى فى "سمارا" وبتربية ولدى ، وبكتابة الكتب ، كان يجب أن أعلم لماذا أعمل هذه الأشياء . وما دامت لا أعلم "لماذا؟" فلن أستطيع أن أعمل شيئاً ، ولن أستطيع أن أعيش ، فبينما كنت أفكر فى إدارة منزلى وضيعتى – وكان ذلك يشغل الكثير من وقتى فى تلك الأيام – كان يقوم فى رأسى فجأة هذا السؤال :

" حسنا حسنا ، قد أصبحت مالكاً لستة آلاف دسياتينا [1] فى حكومة سمارا ، وثلثمائة من الخيل ، ولكن ماذا بعد ذلك ؟ ".

فأجزع وتضطرب أفكارى . وقد أكون مشغولاً بالتفكير فى أمر تربية أبنائى ، فأسال نفسى : "لماذا ؟ " وتارة أكون عاكفاً عن البحث فى خير الوسائل لتحسين أحوال الفلاحين ، وإذا أنا أسأل نفسى : "لكن ماشأنى بهم ؟ " وربما فكرت فى الشهرة التى أنالها من كتبى فأقول لنفسى :

" حسنا فلأكن أشهر من جوجول أو بوشكين أو شكسبير أو موليير ، أو من جميع كتاب العالم ، فماذا بعد ذلك ؟ "

ولم أكن أجد جواباً ، ولم تكن تلك الأسئلة لتحتمل انتظاراً ، كان لابد لها من جواب سريع ، وكان من المستحيل أن أعيش إن لم استطع الجواب عنها ، ولكن لم يكن ثمة جواب .

وشعرت بأن الأرض التى أقف عليها تنهار ، وبأننى لا أجد ما أستند إليه ، وبأن ما عشت من أجله لم يكن شئياً ، وبأن ليس ثمة ما يدعونى للحياة ..

لقد انتهت حياتى إلى جمود كنت أستطيع أن أتنفس وآكل وأشرب وأنام ، ولم يكن لى بد من التنفس والأكل والشرب والنوم ؛ ولكننى عدمت الحياة الحقيقية لأنى لم أجد رغبة واحدة أشعر بأن تحقيقها متفق مع العقل ، كنت إذا رغبت فى شئ أعرف سلفاً أنى إن حققت الرغبة أو لم أحققها فلن يكون لذلك أثر ما . ولو ظهر لى جنى وقال لى لبيك لما عرفت ماذا أقول ، وإذا شعرت فى لحظات النشوة بشئ لا أسميه رغبة بل عادة خلفتها الرغبات القديمة – فقد كنت أعمل فى أوقات الهدوء أنه كان وهماً ، وأنى فى الحقيقة لا أرغب فى شئ ما ، بل إننى لم أكن أرغب حتى فى معرفة الحقيقة ، لأنى كنت أحدس محتواها .

(١) الدسياتينا تساوى $2\frac{3}{4}$ فدان تقريباً . (المترجم) .

كانت الحقيقة أن الحياة لا معنى لها ، كأنما كان كل يوم من أيام الحياة وكل خطوة من خطواتها يقربني من الهاوية ، فأرى بجلاء أنه ليس أمامي إلا الهلاك . وكان الوقوف مستحيلاً ؛ وكان الرجوع مستحيلاً وكان مستحيلاً أن أغمض عينيّ كي لا أرى أنه لا شئ أمامي إلا العذاب والموت الزؤام والبوار التام .

وهكذا انتهيت أنا الرجل السليم السعيد إلى الشعور بأني لا أستطيع الاستمرار في الحياة . كانت قوة لا تقاوم تدفعني إلى التخلص من الحياة بطريقة ما ، ولست أعني أنني "رغبت" أن أقتل نفسي ، فقد كانت القوة التي تجذبني بعيداً عن الحياة أقوى وأكمل وأرحب من كل رغبة .. كانت قوة أشبة بقوة تعلقي السابق بالحياة . إلا أنها تسير في اتجاه مضاد . كنت أجاهد بكل قوتي للابتعاد عن الحياة . وكانت فكرة الانتحار تخطر لي كشئ طبيعي ، مثلما كنت أفكر من قبل في تحسين حياتي ، وبلغ من إغراء هذه الفكرة لي أني أضطررت إلى مخادعة نفسي حتى لا أعجل بتنفيذها . وما كانت رغبتي في التعجل إلا لأني أردت أن أستخدم كل قواي في جلاء أفكاري . فإن لم أستطع جلاء ها فالانتحار ميسور في كل وقت . ومن ثم كنتَ تراني – أنا الرجل المجدود – أخفي عن نفسي حبلاً خشية أن أعلق نفسي به في عارضة مخدعي ، حيث كنت أخلع ملابسي وحيداً كل مساء ، وكففت عن الخروج للصيد ببندقية لأنها كانت تهيئ لي طريقاً سهلاً للتخلص من الحياة ؛ لم أكن أعرف ماذا أريد : كنت خائفاً من الحياة ، وكنت أجاهد للابتعاد عنها ، ولكني لم أزل آمل في شئ منها .

كانت هذه هي الحالة التي وصلت إليها بينما كل ما يحيط بي يُحسَب من كمال الحظ . فلم أكن قد بلغت الخمسين ، وكانت لي زوجة صالحة تحبني وأحبها ، وأبناء نجباء . وضيعة واسعة تنمو وتتقدم دون جهد كبير مني . وقد ازداد احترام أصدقائي ومعارفي لي أكثر من ذي قبل ، ونلت ثناء الآخرين ، وكان في وسعي أن أزعم – دون كثير من خداع النفس – أني أصبحت ذا اسم مشهور . ثم إني لم أكن مجنوناً ولا مختلط العقل ، بل على العكس كنت على حظ من قوة العقل والجسم قلما وجدت نظيرها في الرجال الذين يشبهونني في الطبقة أو المنازع ، فكنت أستطيع أن أجاري فلاحاً في الحصاد ، وأن استمر في عمل عقلي ثماني ساعات أو عشر ساعات متصلة دون أن يكون لهذا الجهد عاقبة وخيمة . وبينما أنا كذلك وجدتني لا أسطيع أن أعيش واضطررت من خوف الموت أن أحتال على نفسي حتى لا أضع حداً لحياتي ..

وكنت خائفاً مما ينتظرنى ؛ وكنت أعلم أن هذا الخوف أشد مما أنا فيه ، ، ولكن لا استطيع أن انتظر النهاية فى صبر ، ومهما وجدت من إقناع فى المجادلة بأنه لا بد على كل حال أن يتمزق عرق فى قلبى أو ينفجر شئ ما وينتهى الأمر ، فإنى لم استطع أن أنتظر النهاية صابراً ، كان الخوف من الظلام أعظم من أن أحتمله ، وكنت أتوق إلى الخلاص منه كأسرع ما استطيع بحبل أو رصاصة ، كان هذا هو الشعور الذى اجتذبنى بأعظم قوة إلى التفكير فى الانتحار ...

سألت نفسى : "أم ترانى غفلت عن شئ ما ، أو أخطأت فهم شئ ما ؟ فما يجوز أن تكون هذه الحالة من اليأس طبيعية للإنسان ! " .

وبحثت فى كل فرع من فروع المعرفة الإنسانية عن شرح للأسئلة التى عذبتنى : بحثت عن ذلك الشرح بحثاً أليماً طويلاً ؛ لم أكن أنشده لطرافة المعرفة ولا أبحث عنه فى تراخ، بل كنت أبحث بعناء وعناد ، ليل نهار ، كنت أبحث عنه كما يبحث الرجل الهالك عن النجاة ولا أجد شيئاً .

بحثت عنه فى كل فروع المعرفة ، ولم أعجز فحسب ، بل اقتنعت أن كل من بحثوا مثلى خرجوا بغير طائل كما خرجت ؛ ولم يخرجوا بغير طائل فحسب ، بل انتهوا كما انتهيت إلى الإقرار العاجز ، بأن المعرفة المطلقة الوحيدة التى يستطيعها الإنسان هى هذه : أن الحياة لا معنى لها .

طرقت كل سبيل . وبفضل حياة أنفقت فى الدرس ، وبفضل اتصالى بأهل العلم ، كان قد مقدروى الرجوع إلى أكبر الأساتذة فى شتى فروع المعرفة ، ولم يضنوا علىّ بفتح جميع ينابيع المعرفة فى الكتب وفى أحاديثهم الشخصية ، فعرفت كل ما يمكن أن يجيب به العلم عن هذا السؤال : "ما الحياة ؟ " .

وضللت طريقى فى غابة المعرفة الإنسانية ، وفى ضوء العلوم الرياضية والتجريبية التى فتحت لى آفاقاً مشرقة إلا أنها لا سكن فيها ، وفى ظلام الفلسفة الذى كنت أزداد غوصاً فى دياجيره كلما تقدمت خطوة ، إلى أن اقتنعت أخيراً أنه ليس ثمة مخرج ، ولا يمكن أن يكون .

* * *

رأيت أنى حين اتبعت ما بدا لى أنه نور العلم المشرق ، لم أزد على أن حولت وجهى عن السؤال الحقيقى ، فمهما يكن فى الآفاق التى تفتحت أمامى من فتنة وصفاء ، ومهما يكن فى الغوص فى تلك العلوم التى لا حدود لها من إغراء ، فقد رأيت أنها كلما ازدادت وضوحاً بعدت عن أن تسد حاجتى وتجيب عن سؤالى .

وكذلك لم تعجز جولاتى فى ميادين المعرفة عن شفاء يأسى فحسب ، بل زادته تفاقما فكان أحد فروع المعرفة لا يجيب عن مشكلة الحياة جواباً ما ، وكان فرع آخر يجيب إجابة مباشرة تؤكد يأسى ، وتثبت أن الحالة التى وصلت إليها لم تكن نتيجة ضلال أو جنة ، وأنى كنت أفكر تفكيراً صحيحاً ، وأنى طابقت ، النتائج التى وصلت إليها أقوى العقول البشرية .

لم أستطع أن أخدع نفسى . كل شئ باطل . سعيدٌ من لم يولد . الموت خير من الحياة ، والحياة عبء يجب أن يطرحه المرء عن كاهله .

كنت فى موقف مروّع ، كنت أعلم أنى لن أحصل من المعرفة التى منحها العقل للإنسان إلا على إنكار الحياة ؛ ولن أحصل من الإيمان إلا على إنكار العقل ، وهو أشد تعذراً علىّ من إنكار الحياة . فقد ثبت من المعرفة المؤسسة على العقل أن الحياة شر والناس يعلمونها كذلك ، وأن للناس أن يكفوا عن الحياة إن شاءوا ولكنهم قد عاشوا وما زالوا يعيشون – وأنا نفسى مازلت أعيش وإن كنت قد عرفت منذ زمن بعيد أن الحياة لا معنى لها وأنها شر . فإن تبعت الإيمان وجدت أن فهم معنى الحياة يقتضى إنكار عقلى وهو هو ذلك الجزء منى الذى كان يطلب معنى الحياة .....!

وعندما وصلت إلى هذه النتيجة أدركت أن من العبث أن ألتمس جواب سؤالى فى المعرفة القائمة على العقل ، وأن الجواب الذى يعطيه هذا النوع من المعرفة ليس إلا إشارة إلى أن الحصول على الجواب غير ممكن إلا أن يوضع السؤال فى صورة أخرى، بحيث يكون شاملاً للعلاقة بين المحدود واللا محدود ، وكذلك أدركت أنه مهما تكن الأجوبة التى يقدمها الإيمان شاذة ومخالفة للعقل فإن لها هذه الفضيلة وهى أنها تدخل فى كل سؤال العلاقة بين المحدود واللا محدود ، وبغير ذلك لا يمكن أن يكون جواب .

فمهما وضعت السؤال كانت هذه العلاقة تظهر فى الجواب : كيف أحيا ؟ – على شريعة الله ، ما الغاية الحقيقية من حياتى ؟ – العذاب الأبدى أو النعيم الأبدى . أى معنى فى الحياة لا يمكن أن يمحوه الموت ؟ الاتحاد بالله الدائم الفردوس .

وكذلك اضطررت أن أعترف بأن مع المعرفة العقلية التى كنت من قبل أحسبها المعرفة الحقيقية الوحيدة ، هناك فى كل إنسان حى نوعاً آخر من المعرفة : نوعاً غير عقلى ، هو الإيمان الذى يجعل الحياة ممكنة .

أصبحت مستعداً لأن أتقبل أى إيمان لا يقتضى منى إنكار العقل إنكاراً مباشراً ، لأن ذلك يكون تزييفاً فدرست البوذية والإسلام فى كتبهما ، ودرست المسيحية بوجه خاص ، فى كتبها وفى حياة أهلها الذين أعيش بين ظهرانيهم .

وكان طبيعياً أن أتجه أولاً إلى المؤمنين الذين هم ألصق بى : إلى العلماء ورجال الدين والرهبان ، إلى الأتقياء الذين اعتنقوا مذهباً جديداً وسموا بالمسيحيين الجدد ، وأقاموا دعوتهم على الخلاص عن طريق الإيمان بمخلِّص . اتجهت إلى هؤلاء المؤمنين وسألتهم عما يؤمنون به ، وعما يجعل للحياة معنى فى نظرهم .

ولم تكن المجادله لتقنعنى بصدق إيمان هؤلاء الناس . ما كنت لأقتنع إلا بالأعمال التى تثبت أن نظرتهم إلى الحياة . قد محت من نفوسهم خوف الفقر والمرض والموت الذى أجده رهيباً فى نفسى . ولم أجد مثل هذه الأعمال بين شتى المؤمنين المحيطين بى . بل على العكس كنت أجد هذه الأعمال عند أشد الناس المحيطين بى إلحاداً ولا أجدها أبداً عند من يدعون بالمؤمنين .

فعرفت أن إيمان هؤلاء الناس ليس هو الإيمان الذى أبحث عنه ؛ وأنه ليس بإيمان البتة بل هو نوع من العزاء الأبيقورى وعرفت أن هذا الإيمان إن لم يكن فيه عزاء حقيقى فقد يصلح على الأقل تسلية لسليمان نادم على فراش موته ؛ ولكنه لا يصلح للسواد الأعظم من البشر الذين يولدون لا ليستمتعوا بجهد غيرهم بل ليخلقوا حياة لأنفسهم . كان لابد لهذه الألوف من الملايين من فهم آخر للإيمان - فهم صادق للإيمان ؛ حتى تعيش البشرية - حتى تستمر البشرية فى الحياة وتفهم معنى حياتها . وكذلك لم تكن حقيقة أن سليمان وشوبنهور وإياى لم نقتل أنفسنا هى التى أقنعتنى بوجود الإيمان ، بل حقيقة أن هذه الألوف من الملايين قد عاشت وما زالت تعيش ، حاملة معها على تيار حياتها سليمان وإياناً .

فبدأت أقترب من المؤمنين فى الشعب الفقير الساذج الأمى : من الحجاج والرهبان والأنصار والفلاحين. وكان هؤلاء العوام يؤمنون بالمسيحية كأولئك الذين كانوا يدعون

بالمؤمنين فى طبقتى، وكانت حقائق المسيحية مختلطة عندهم أيضاً بكثير من الخرافات، ولكن مع هذا الفارق : وهو أن خرافات المؤمنين فى طبقتنا ليست بذات ضرورة لهم ، ولا تأثير لها فى حياتهم إلا باعتبارها نوعاً من التسلية الأبيقورية ، فى حين أن خرافات الطبقة العاملة المؤمنة متشابكة مع نسيج حياتهم إلى حد يستحيل معه تصورهم بدونها . فهى شرط ضرورى لحياتهم ، كانت كل حياة المؤمنين فى طبقتنا متناقضة تناقضاً تاماً مع إيمانهم ، وكانت كل حياة المؤمنين من الشعب مؤكدة لمعنى الحياة الذى منحهم إياه إيمانهم .

وكذلك بدأت أدرس حياة الشعب ومعتقداته . وكلما ازددت تأملاً ازداد يقينى بأن فيهم إيماناً حقيقياً ، وأن إيمانهم أمر ضرورى لهم ، وأنه هو وحده الذى يجعل لحياتهم معنى ، ويجعل فى إمكانهم أن يحيوها . ورأيت فيهم نقيض ما رأيته فى طبقتنا ، حيث يستطيع المرء أن يحيا بلا إيمان ، وحيث لا يتخذ شعار الإيمان إلا واحد من ألف ، فإننى لم أجد بين الشعب ملحداً واحداً فى الألف ، ورأيت فيهم نقيض ما رأيته فى طبقتنا ، حيث تمضى الحياة كلها فى كسل ولهو وضجر ؛ فقد رأيت حياة الشعب كلها تمضى فى كدح شاق ورضا قانع ، ورأيت فيهم نقيض ما رأيت فى طبقتنا من تمرد على القدر وشكوى منه لما يجدونه من حرمان وآلام ؛ فقد رأيت الشعب يتقبل المرض والحزن بلا تذمر ؛ فى إيمان هادئ راسخ بأن ذلك كله يجب أن يكون ولا يمكن أن يكون غيره ، وأن ذلك كله خير . ورأيت أولئك القوم على النقيض منا نحن الذين نزداد بعداً عن فهم معنى الحياة كلما ازددنا حكمة ، ولا نرى فى عذابنا وموتنا إلا سخرية خبيثة ؛ فإنهم يعيشون ، ويتعذبون ويدنون من الموت مطمئنين بل سعداء فى معظم الأحيان . وبينما تعد الميتة الهادئة التى لا فزع فيها ولا يأس استثناء نادراً فى طبقتنا ، فإن أندر استثناء بين الشعب هو الميتة القلقة الثائرة الحزينة .

هؤلاء القوم الذين حرموا من كل ما يعد عندنا وعند سليمان الخير الأوحد فى الحياة والذين يتمتعون مع ذلك بالسعادة العظمى ، هم السواد الأعظم من البشر : نظرت حولى نظرة أوسع ودرست حياة الكتل البشرية فى الماضى والحاضر ، ورأيت أن الذين فهموا معنى الحياة بحيث استطاعوا أن يعيشوا وأن يموتوا لم يكونوا اثنين ولا ثلاثة ولا عشرة بل مئات وألوفاً وملايين . كل هؤلاء القوم على اختلاف عاداتهم وقواهم العقلية وتعليمهم ومكانتهم كانوا على النقيض من جهالتى يعرفون معنى الحياة

والموت حق المعرفة ، يكدحون فى هدوء ويصبرون على الحرمان والعذاب ، ويعيشون ويموتون، ولا يرون ذلك باطلاً بل خيراً . وتعلمت أن أحب هؤلاء الناس : وكلما ازددت معرفة بحياتهم بأحيائهم وموتاهم الذين قرأت عنهم وسمعت بهم ، ازددت حبًاً لهم ، وسهل على أن أحيا كما يحيون . وكذلك عشت قرابة عامين ، وتم فى نفسى تغير ظل يعتمل فيها طويلاً ، وكنت أحس إرهاصاته دائماً ، فلم تصبح الحياة فى بيئتى الغنية المتعلمة منفرة لى فحسب، بل فقدت كل معنى، وبدا لى كل ما لدينا من أعمال وأفكار ، من علم وفن فى ضوء جديد . عرفت أن ذلك كله عبث أطفال ، وأن من المحال العثور على معنى فيه . بينما رأيت حياة الشعب الكادح ، حياة البشرية جمعاء ، حياة الذين يخلقون الحياة - رأيتها فى قيمتها الحقيقية فعرفت أن هذه هى الحياة بعينها ، وأن المعنى الذى يعطى لهذه الحياة حق ، فقبلته ...

وحين تذكرت كيف كنت أنفر من هذه المبادئ وأراها عديمة المعنى إذ يعلنها أناس يمضون فى سيرتهم على نقيضها ، وكيف اجتذبتنى هذه المبادئ وبدت لى حكيمة حين رأيت أناساً يحيون طبقاً لها ، عرفت لماذا رفضتها من قبل وظننتها خلواً من المعنى ، ولماذا اعتنقتها الآن ورأيتها حافلة بالمعنى . وعرفت أنى كنت مخطئاً . وكيف كنت مخطئاً فلم أكن مخطئاً لأنى فكرت تفكيراً غير صحيح بقدر ما كنت مخطئاً لأنى عشت حياة غير صحيحة . وعرفت أن الحق لم يكن محجوباً عنى لضلال عقلى بقدر ما كان محجوباً عنى لأنى عشت حياتى فى ظروف شاذة من الإشباع الأبيقورى لشهوات الجسد وعرفت أن سؤالى : "وما حياتى ؟" وجوابه : « أنها شر » كانا متفقين مع الحقيقة ، وإنما كان الخطأ فى أنى سحبت على الحياة عامة جواباً كان يخص حياتى وحدها . لقد سألت نفسى ما حياتى وتلقيت الجواب أنها شر وسخافة . وكذلك كانت حياتى المتهالكة على الملذات سخافة وشراً ، ومن ثم كان الجواب "الحياة سخافة وشر" متعلقاً بحياتى أنا لا بالحياة البشرية على العموم .

وعرفت الحق الذى وجدته بعد ذلك فى الإنجيل :

"وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة ، لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور ولا يأتى إلى النور لئلا تُوبَّخ أعماله " .

عرفت أن فهم معنى الحياة يقضى أولاً ألا تكون الحياة شريرة . خالية من المعنى وأن يأتى نور العقل بعد ذلك لفهمها . وعرفت لماذا ظللت أدور طويلاً حول الحقيقة

البديهة دون أن أدركها ، وأننا إذا أردنا أن نفكر فى حياة البشرية ونتكلم عنها فيجب أن نفكر فى هذه الحياة ونتكلم عنها جمعاء لا عن حياة بعض الطفيليات التى تعيش عليها .

كانت هذه الحقيقة دائماً حقيقة كما أن مضروب اثنين فى اثنين يساوى أربعة ، ولكنى لم أقبلها لأن تسليمى بأن مضروب اثنين فى اثنين يساوى أربعة لا بد أن يستتبع التسليم بأنى شرير. وقد كان الشعور بأنى خيِّر أهم لدىَّ وألزم لى من التصديق بأن مضروب اثنين فى اثنين يساوى أربعة ، وتعلمت أن أحب الأخيار وكرهت نفسى واعترفت بالحقيقة وتبين لى كل شئ .....

لقد ساعدنى إدراكى لخطأ المعرفة العقلية على أن اتخلص من إغراء المنطق الفارغ. وأدى بى يقينى أن معرفة الحقيقة لا يمكن أن تنال إلا بالحياة إلى الشك فى استقامة حياتى، ولكن كان يجب أن أخرج من إسار تفردى وأنظر حولى إلى الحياة الساذجة التى يحياها الشعب العامل لأعرف أن هذه الحياة هى وحدها الحياة الحقيقية ، وعرفت أنى إذا أردت أن أفهم الحياة ومعناها فيجب ألا أحيا حياة طفيلية بل حياة حقيقية ، وأن أقبل المعنى الذى أعطته لها البشرية الحقيقية وأندمج فى حياتهم لأمحص ذلك المعنى .

وهذا ما حدث لى فى الوقت الذى أتكلم عنه :

طوال ذلك العام الذى كنت أسائل نفسى فيه ، كل لحظة تقريباً ، أيجمل بى أم لا يجمل أن أنهى الأمر كله بحبل أو مسدس ؛ وبينما كان عقلى مشغولا بالأفكار التى وصفتها – كان يثقل قلبى شعور مؤلم لا أستطيع أن أصفه إلا بأنه بحث عن الله .

لم يكن هذا البحث عن الله عملاً عقليًّاً بل شعوراً ، وأقول هذا عن بينة لأنه كان مضاداً لطريقتى فى التفكير ؛ لقد كان يأتى من القلب . كان شعوراً بالخوف أو اليتم ، بالوحدة بين عالم غريب ، والأمل فى عونٍ لا أدرى مصدره .

وأذكر يوماً فى مستهل الربيع ، وكنت وحيداً فى الغابة أصغى لأصواتها ، ولا أفكر إلا فى شئ واحد هو بعينه مالم يبرح فكرى طوال عامين . كنت لا أزال أبحث عن الله.

ودار فى نفسى هذا الحوار : "حسناً ليس ثمة إله ، ليس ثمة إله له حقيقة خارج خيالى ، إله حقيقى مثل حياتى نفسها . ليس ثمة هذا الإله ، ولا شئ يمكن أن يثبت وجوده ، ولا معجزة لأن المعجزات لا توجد إلا فى خيالى الذى ينكره العقل " .

ثم سألت نفسى : "ولكن من أين جاءت فكرتى عن الله الذى أبحث عنه ؟ "

وعند هذه الفكرة انتعشت مرة أخرى أمواج الحياة الجذلانة وبدأ كل ما حولى يصحو ويكتسب معنى جديداً ، ولكن فرحى لم يدم طويلاً فقد مضى العقل فى عمله :

"إن فكرة الله ليست الله ، الفكرة هى ما يجرى فى باطن نفسى ، وفكرة الله هى فكرة أستطيع أن أوقظها فى نفسى أولاً أوقظها كما أشاء ، إنها ليست ما أبحث عنه ، ليست الشئ الذى بدونه لا يمكن أن تكون الحياة . " .

وهنا بدا كأن كل شئ يموت من حولى وفى باطنى مرة أخرى ، ووددت مرة أخرى لو أقتل نفسى .

وبعد ذلك بدأت استعيد ما جرى فى باطنى : الهمود والصحو اللذين تكررا مائة مرة . وتذكرت أنى لم أكن أحيا إلا حين أومن بالله . وكما كان من قبل فهذا ما يكون الآن : علىّ أن أعرف الله فأحيا ؛ علىّ أن أنساه أو لا أومن به فأموت .

ماذا كان هذا الهمود والصحو ؟ أنا لا أحيا حين أفقد الإيمان بوجود إله ، ولولا أمل غامض فى أن أجده لقتلت نفسى منذ أمد بعيد. أنا لا أحيا إلا حين أشعر به وأبحث عنه ، وكأنما صرخ صوت فى باطنى : " وماذا تطلب من مزيد ؟ هذا هو الذى لا حياة بدونه سواء أن تعرف الله وأن تحيا ، فالله هو الحياة . " .

عش باحثاً عن الله ، فلن تحيا بدون الله ، وصحت الحياة فى باطنى ومن حولى أقــــوى من كل مرة . ولم يهجرنى النور الذى أضاء لى عند ذاك ، لم يهجرنى بعد ذلك قط .

نقد تولستوى لعصره *

حياة الإنسان كلها نقض متسمر لما يعلم أنه واجبه ، وهذا التناقض يسيطر على جميع نواحى الحياة ، اقتصادية كانت أو سياسية أو دولية وكأنما نسى ذكاؤه وكسف إيمانه – إذ لا بد له من إيمان وإلا لم يكن لحياته دوام – فهو يتصرف على عكس ما عليه ضميره وبصيرته .

فنحن فى علاقاتنا الاقتصادية والدولية نسترشد بالمبادئ الأساسية للعصور الخالية ، وهى مبادئ مناقضة كل المناقضة لاتجاهنا العقلى وظروف حياتنا الحاضرة .

كان الإنسان الذى يؤمن بفطرة العبودية وضرورتها يرى من الصواب أو يعيش فى علاقة السيد بعبيده ، ولكن هل هذه الحياة ممكنة فى هذه الأيام ؟ قد يؤمن إنسان العصر القديم أنه محق إذ يستغل أخاه الإنسان ويظلمه على مدى الأجيال ، لا لشئ إلا أنه يؤمن باختلاف الأصل ، فنبيل أو حقير ، منسوب إلى حام أو يافث ، فليس يقتصر الأمر على أن أعظم فيلسوفين فى العصور القديمة، معلمى البشرية أفلاطون وأرسطو ، قد بررا وجود العبودية ونسقا البراهين على شرعيتها ، بل إن من وصفوا الحالة المثالية للمجتمع منذ فترة لا تتجاوز ثلاثة قرون لم يستطيعوا أن يصوروه بغير عبيد .

وفى العصور القديمة بل فى العصور الوسطى أيضًا كان الرأى الذى لا يتهم : أن الناس لم يولدوا أكفاء ، وأن الناس الجديرين بالاحترام هم الفرس وحدهم ، أو الإغريق وحدهم أو الرومان وحدهم ، أو الفرنسيون وحدهم ، ولكن لا أحد يصدق ذلك الآن، ولا يستطيع المدافعون المتحمسون عن مبادئ الأرستقراطية والوطنية فى أيامنا هذه أن يؤمنوا بما يقولون .

وكلنا نعلم – ولا مفر لنا من أن نعلم ، وإن كنا لم نسمع القضية محددة قط ، ولا حاولنا أن نحددها بأنفسنا – أن فى أعماق قلوبنا جميعاً يقيناً راسخاً بصدق المبدأ الأساسى فى المسيحية القائل بأننا جميعاً أبناء أب واحد ، أجل ، كل واحد منا ، حيثما نعش ومهما تكن اللغة التى نتكلمها ، أننا جميعاً إخوة لا نخضع إلا لقانون الحب الذى غرسه فى قلوبنا أبوانا جميعاً .

(*) من «مملكة الله» .

ومهما تكن العادات العقلية للرجل المعاصر أو درجة تعليمه ، سواء أكان لبراليا مثقفاً على أي لون من ألوان الرأى ، أم فيلسوفاً على أى مذهب من المذاهب ، أم اقتصادياً من أية مدرسة من شتى المدارس ، أم تابعاً غير متعلم لأية عقيدة دينية ؛ فكل إنسان فى هذه الأيام يعلم أن الناس جميعاً متساوون فى الحقوق فى أمور الحياة ومتاع الدنيا ؛ فلا أحد أفضل من سائر البشر ولا أقل منهم ، ولكن الناس جميعاً ولدوا أحراراً متساوين . وكل إنسان يوقن بهذه الحقيقة يقيناً غريزيًّا ، ولكنه يجد أبناء جنسه مقسمين طبقتين ، إحداهما فى فقر ومتربة تكدح وتقاسى الظلم ، والأخرى فارغة مستبدة مترفة . وهو لا يرى هذا كله فحسب ، بل إنه كذلك يندرج فى أحد القسمين شاء أم لم يشأ - وتلك خطة ينفر منها عقله . ومن ثم فهو معذب لا محالة لشعوره بالظلم من ناحية ، ومشاركته فيه من ناحية أخرى .

وسواء أكان الإنسان فى هذه الأيام سيداً أم عبداً فهو محاصر أبداً بذلك التنافر المحزن بين مثله الأعلى وبين الحقيقة الواقعة ، وليس فى مقدوره أن يتجاهل الآلام التى تنتج من ذلك .

وجماهير الشعب - أى السواد الأعظم من البشرية ، الذين يتعذبون ويكدحون فى حياة راكدة كالحة ، لا ينعشها شعاع من نور متحملين مالا يحصى من ألوان الحرمان- هؤلاء هم أوضح الناس إدراكاً للتناقض الشديد بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون ، بين أقوال البشر وأفعالهم .

فهم يعلمون أنهم يعملون كالعبيد ، ويموتون فى عوز وظلام ، ليوفروا للأقلية ملذاتها، وهذا الشعور هو الذى يضاعف مرارتهم ، بل هو أصل عذابهم .

كان العبد فى العصور القديمة يعلم أنه ولد عبداً ، أما العامل فى أيامنا هذه فيشعر أنه عبد ويعلم أنه ينبغى ألا يكونه ، ويتعذب عذاب "تنتالوس " (١) لشوقه إلى ما يمكن أن يُعطى له ، بل إلى ما هو حقه فى الواقع . ويتضاعف عذاب الطبقات العاملة الناشئ من تناقضات نصيبهم عشرة أضعاف بالحسد والحقد اللذين هما الثمرتان الطبيعيتان للشعور بهذه التناقضات .

(١) ملك من ملوك الأساطير عند اليونانى ، أفشى أسرار الآلهة فعذب فى الجحيم بأن بقى مغموراً فى الماء إلى ذقنه وعناقير الفاكهة متدلية أمامه ، فإذا انحنى ليشرب ابتعد الماء عنه ، وإذا مد يده ليتناول الفاكهة فرت من قبضته ... (المترجم) .

والعامل فى عصرنا وإن كان عمله أقل إرهاقاً من جهد العبد القديم ، وإن نجح فى الحصول على ثمانى ساعات ليوم العمل واثنى عشر بنساً ونصف بنس لأجر اليوم ، لا يزال مظلوما لأنه يصنع أشياء لن يستمتع بها أبداً ؛ فهو لا يعمل لنفسه ، بل يعمل ليمتع المترفين الذين لا يعملون ، ليضاعف ثروة الرأسمالى أو صاحب المصنع أو المنتج. وهو يعلم أن ذلك كله يجرى فى عالم يعترف أهلوه جميعاً بمبادئ كالمبدأ الاقتصادى القائل بأن العمل ثروة ، وأن من الظلم استخدام جهد آخر ليجنى المرء فائدة لنفسه ، وأن العمل غير المشروع يعاقب عليه القانون ؛ بل فى عالم يقول بمبدأ المسيح الذى يعلمنا أن الناس جميعاً إخوة ، وأن واجب الإنسان أن يكون عوناً لجاره ولا يستغله استغلالا ظالماً .

هو يدرك كل هذا فلا بد أن يحز فى نفسه الألم للتناقض المذهل بين العالم كما ينبغى أن يكون وبين العالم كما هو ، يقول العامل لنفسه : "إن صح ما يُقال لى وما أسمع الناس يعلنونه فيجب أن أكون إنساناً حراً مساوياً لأى إنسان آخر ومحبوباً من الناس ؛ وهأنذا عبد مكروه محتقر . " ثم يمتلئ كراهية هو بدوره ، ويحاول الخلاص من حالته ، بأن يصرع العدو الذى يظلمه ، وينتزع السلطان لنفسه .

يقولون : "ينبغى للعامل ألا يطمح إلى مكان الرأسمالى ، ولا للرجل الفقير أن يحسد الغنى . " ولكن هذا زور فلو كنا فى عالم جعل الله فيه سادة وعبيداً ، أغنياء وفقراء ، لما كان للعامل أو الفقير أن يتمنى حظ الغنى . ولكن الأمر على خلاف ذلك، فهو يتمناه فى عالم يقول بتعليم المسيح ، الذى يتمثل أول مبادئه فى العلاقة بين الابن والأب ، ومن ثم فى الإخاء والمساواة .

ولا يستطيع الناس – وإن لم يسارعوا إلى الإقرار بذلك – أن ينكروا أن الحب شرط من الشروط الأولى للحياة المسيحية، الحب الذى لا تعبر عنه الكلمات بل الأفعال.

والرجل المتعلم أشد ألماً لهذه المتناقضات ، فإن كان يؤمن بشئ ما فلعله يؤمن بالإخاء – أو على الأقل بعاطفة الإنسانية ؛ وإلا فبالعدالة ، وإلا فبالعلم لا محالة ، وهو لا يستطيع أن يتجاهل على كل حال أن ظروف حياته مناقضة لكل مبدأ من مبادئ المسيحية والإنسانية والعدالة والعلم .

هو يعلم أن عادت الحياة التى نشأ عليها والتى يكلفه التخلى عنها كثيراً من العناء لا يمكن أن تعتمد إلا على الجهد المضنى – بل المهلك أحياناً – من الطبقة العاملة

المضطهدة ، أى على خرق مبادئ المسيحية والإنسانية والعدالة والعلم أيضا (علم السياسة) التى يزعم أنه يؤمن بها ، وهو يؤكد إيمانه بمبادئ الإخاء والإنسانية والعدالة وعلم السياسة ، ومع ذلك فإن اضطهاد الطبقة العاملة عنصر لا غنى عنه فى حياته اليومية ، وهو لاينى يستخدمه لتحقيق أغراضه على الرغم من مبادئه وهو لا يكتفى بأن يعيش على هذا النمط بل يوجه كل طاقاته نحو المحافظة على نظام يناقض كل ما يؤمن به مناقضة تامة .

نحن إخوة ؛ ولكن أخى أو أختى يؤدى لى أحقر الأعمال كل صباح . نحن إخوة ؛ ولكنى لا أستغني عن سيجارى فى الصباح ، أو عن سكّرى أو عن مرآتى ، أو ماشئت من أشياء كثيراً ما يكلف صنعها إخوتى أو أخواتى صحتهم . ولكن ذلك لا يدعونى إلى الامتناع عن هذه الأشياء ؛ بل على العكس إنى أطالب بها ، نحن إخوة ، ومع ذلك فأنا أعول نفسى بالعمل فى مصرف أو مؤسسة تجارية أو متجر ، وأحاول دائماً أن أدفع ثمن ضروريات الحياة لإخوتى وأخواتى . نحن إخوة ، ومع ذلك فأنا أقبض مرتباً على محاكمة اللص أو المومس أو إدانتهما وعقابهما ، فى حين أن وجودهما نتيجة طبيعية لنظام الحياة الذى أعيش عليه ، وفى حين أعلم أنى لا ينبغى أن أدين ولا أن أعاقب ، نحن جميعاً إخوة ؛ ومع ذلك فأنا أكسب عيشى بجباية الضرائب من الفقراء ، حتى يعيش الأغنياء فى ترف وفراغ . نحن إخوة ؛ ومع ذلك فأنا أقبض مرتباً للدعوة إلى تعليم يسمى زوراً بالتعليم المسيحى ، ولا أومن به أنا نفسى ، وبذلك أمنع الناس مع اكتشاف التعليم الحقيقى ؛ إننى أقبض مرتباً بوصفى قسيسا أو أسقفا لأخدع الناس فى أمر ذى أهمية حيوية لهم . نحن إخوة ؛ ومع ذلك فأنا أجعل أخى يدفع لى أجراً لقاء كل خدمة أقدمها إليه ، سواء أكنت أكتب له كتباً ، أم أعلمه ، أم أصف له دواء ، نحن جميعاً أخوة . ولكننى أقبض مرتباً على إعداد نفسى لأكون قاتلاً ، على تعلم فن الحرب ، أو على صناعة الأسلحة والذخائر أو بناء القلاع .

إن معيشة طبقاتنا العليا متناقضة كلها تناقضاً تامّاً ، وعلى قدر حساسية الإنسان يتألم لهذا الاعوجاج .

فالرجل ذو الضمير الحساس لا يمكنه أن يتمتع براحة بال فى مثل هذه الحياة . ولئن نجح فى خنق صرخات ضميره ، إنه لن ينجح فى التغلب على مخاوفه .

فأولئك الرجال والنساء فى الطبقات السائدة ، الذين قست قلوبهم ، واستطاعوا إسكات ضمائرهم ، ليسوا بمنجاة من العذاب لخوفهم من البغضاء التى أثاروها . فهم

عالمون حق العلم بوجودها بين الطبقات العاملة ، عالمون أنها لا يمكن أن تموت ، عالمون أن العمال يدركون ما يمارس معهم من خداع ، وما يحمل عليهم من مظالم؛ وأنهم قد بدءوا ينظمون أنفسهم ليلقوا بالنير عن كواهلهم ، وينتقموا من ظالميهم ، إن سعادة الطبقات العليا مسممة بالخوف من الكارثة المحدقة ، التى تبدو نذرها فى النقابات والاضرابات ومظاهرات أول مايو . وإذ يدركون الكارثة التى تتهددهم يتحول خوفهم إلى تحدٍّ وكره . فهم يعلمون أنهم إن تهاونوا لحظة فى هذا الصراع مع المضطهدين فهم ضائعون ، لأن عبيدهم الحاقدين يزدادون حقداً مع كل يوم من أيام الاضطهاد . وقد يرى المضطهدون ذلك ولكنهم لا يستطيعون أن يكفوا عن اضطهادهم . فهم يدركون أنهم هم أنفسهم مقضى عليهم إذا ما خففوا ذرة واحدة من قسوتهم . ولذا يمضون فى خطة الاضطهاد على الرغم من دعواهم أنهم معنيون برخاء العمال وبنظام الثمانى الساعات وبالقوانين التى تحدد عمل النساء والأطفال والمعاشات والمكافآت . فهذا كله محض ادعاء ، أو - على أحسن تقدير - اهتمام طبيعى من السيد الذى يريد أن يُبقى عبده فى حال صالحة ولكن لا يزال العبد عبداً ، والسيد - الذى لا يستطيع أن يعيش بدون العبد - أقل استعداداً مما كان فى أى وقت مضى لأن يطلق سراحه . وتجد الطبقات الحاكمة نفسها فى موقف من العمال أشبه بموقف الرجل الذى صرع غريمه وظل ملصقاً إياه بالأرض لا لأنه غير راغب فى تركه يهرب بل بالأحرى لأنه يعلم أن لو أرخى قبضته عنه لحظة لفقد هو حياته ، لأن الرجل المدحور يحتدم غضباً ويمسك فى يده خنجراً .

وكذلك لا تستطيع طبقاتنا الغنية - رقت ضمائرها أم قست - أن تستمتع بالمزايا التى انتزعتها من الفقراء ، كما استمتع الأقدمون الذين كانوا موقنين بعدالة موقفهم . فكل ملذات العالم مسممّة إما بالندم أو بالخوف .

هذا هو الاعوجاج الاقتصادى . وأظهر منه اعوجاج السلطة المدنية .

فالإنسان يُدرَّب قبل كل شئ على عادات الخضوع لقوانين الدولة ، وكل عمل من أعمال حياتنا فى الوقت الحاضر يقع تحت إشراف الدولة ، والرجل يتزوج ويطلق ويربى أبناءه طبقاً لأوامرها ، وفى بعض البلاد يعتنق الدين الذى تتخذه . فما هذا القانون الذى يحكم حياة البشر ؟ هل يؤمن به الناس؟ وهل يرونه صحيحاً ؟ كلا ، بل هم فى معظم الأحيان يعرفون ظلمه ، ويحتقرونه ، ولكنهم يطيعونه . لا عجب أن اتبع القدماء قانونهم ، فقد كان أساسه الدين ، وكانوا يؤمنون إيماناً صادقاً بأنه هو وحده

القانون الصحيح الذى يجب أن يدين له الناس جميعاً بالطاعة ، فهل هذا هو الشأن معنا ؟ إننا لا نستطيع إلا أن نعترف بأن قانون دولتنا ليس هو القانون الخالد ، بل واحد من قوانين كثيرة ، تتساوى جميعها فى أنها ناقصة ، وربما بنيت على الزيف والجور .. قانون تناولته الصحافة بالمناقشة العلنية من جميع نواحيه ... لا غرو أن كان العبرانى يتبع قوانينه فإنه لم يشك قط أن إصبع الله نفسه قد خطها ؛ ولا غرو أن اتبع الرومانى قوانينه ، فقد كان يعتقد أنه تلقاها من الحورية إيجيريا ، بل لا غرو أن اتُّبعت قوانين الدولة بين تلك الشعوب التى كانت تؤمن بأن حكامها الذين يضعون القوانين مختارون من الله ، أو بأن المجالس التشريعية تملك الإرادة والقدرة على سن خير ما يمكن من القوانين ، ولكننا نعلم أن القوانين وليدة الصراع الحزبى والخداع والجشع ، وأنها ليست مستقر العدالة الصحيحة ولا يمكن أن تكون كذلك ؛ ومن ثم يستحيل على الناس فى العصر الحاضر أن يؤمنوا بأن الطاعة للقوانين المدنية أو لقوانين الدولة يمكن أن ترضى النزعة العقلية فى الطبيعة البشرية . وقد أدرك الناس منذ أمد طويل أن لا حكمة فى طاعة قانون متهم فى أمانته ، وذلك يتعذبون لا محالة حين يخضعون له مع إنكارهم لسلطانه بينهم وبين أنفسهم . وعندما تكون حياة المرء كلها موثقة بقوانين يتبين فى جلاء أنها جائرة قاسية مصطنعة ، ولكنه يلزم طاعتها خوفاً من العقاب ، فلا بد أن يتعذب ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك .

نحن نعرف مضار الجمارك والمكوس ، ولكننا مضطرون أن ندفعها ، ونرى حماقة الإنفاق على محكمة بموظفيها الكثيرين ، ونسلم بما للوعظ الكنسى ، من تأثير سيئ ولكننا مضطرون للإنفاق عليهما ، ونحن نعترف كذلك بما فى العقوبات التى توقعها المحاكم من قسوة وجور، ولكننا نأخذ بنصيبنا من توقيع هذه العقوبات ، ونحن نقر بأن توزيع الأرض ظلم وشر ، ولكننا ملزمون أن نخضع له ، ونحن ننكر ضرورة الجيوش والحرب ، وعلى الرغم من ذلك نجبر على تحمل الأعباء الباهظة التى يستلزمها الاحتفاظ بالجيوش وشن الحروب .

على أن هذه التناقضات ليست شيئاً إذا قورنت بذلك التناقض الذى يواجهنا فى مشكلة علاقاتنا الدولية ، والذى يصرخ طالباً الحل ، لأن العقل البشرى والحياة الإنسانية معاً رهينان بحله ، وذلك هو التناقض بين الدين المسيحى وبين الحرب .

فنحن الأمم المسيحية التى تحيا حياةً روحية واحدة ، وترحب فى فرح وفخر بمولد كل فكرة صالحة فى أى ركن من أركان الأرض ، دون نظر إلى الجنس والعقيدة .. نحن الذين نحب الشعراء والفلاسفة والعلماء كما نحب أهل الخير فى غير بلادنا .. نحن الذين نفخر ببطولة رجل كالأب داميان [1] كما لو كانت بطولتنا .. نحن الذين نحب الفرنسيين والألمان والأمريكيين والإنجليز ، ولا نقدر فضائلهم فحسب بل نرحب بلقائهم فى حرارة وود .. نحن الذين ننفر بل نذعر لو صورت لنا الحرب معهم على أنها مغامرة لابد أن تقشعر جلودنا حين تتصور إمكان أن يقوم بيننا يوماً فى المستقبل نزاع لا يمكن فضه إلا بالقتل وأن كل واحد منا قد يدعى ليؤدى دوره فى المأساة المحتومة .

إن أوربا تحتفظ فى الوقت الحاضر بعدد من الجنود تحت السلاح أكبر من العدد الذى كان فى ميدان القتال فى أثناء حروب نابليون الكبيرة ، وكل مواطن فى قارتنا – فيما عدا القلة النادرة – ملزم بأن يقضى بضع سنوات فى المعسكرات ، وثمة تحصينات وترسانات وبوارج تبنى ، وأسلحة نارية حديثة تخترع ، ولا تلبث أن تستبدل بها أخرى ، لأن العلم الذى يجب أن يوقف دائماً على زيادة رخاء البشرية يوجه إلى تدمير البشرية ، باختراع وسائل جديدة فى كل حين لقتل أعداد أكبر من الناس فى أقصر وقت ممكن ، وهذه حقيقة لابد أن نعترف بها آسفين .

"وعلى هذه الاستعدادات الهائلة للتذبيح ، وهذه الأعداد الضخمة من الجنود ، تصرف ملايين الجنيهات كل عام .. أموال كانت تكفى لتثقيف جماهير الشعب ، وتنفيذ أهم أعمال الإصلاح العام ، فتساعد بذلك على تحقيق حل كامل للمشكلة الاجتماعية .

"ولذلك تجد أوروبا نفسها – على الرغم من كل انتصاراتنا العلمية – فى منزلة لا تفضل فى شئ ما كانت عليه فى أشد أيام العصور الوسطى بربرية . ويأسف كل إنسان على تلك الحالة التى لاهى بحرب ولا هى بسلم ، ويتوق إلى الخلاص منها . ويؤكد رؤساء الحكومات تأكيداً جازماً أنهم يرغبون فى السلم ، ويتنافسون تنافساً حاراً فى تصريحاتهم السلمية ، ولكنهم يقدمون بعد ذلك – دون تمهل – اقتراحات إلى الجمعيات التشريعية لزيادة التسلح ، محتجين بأنهم يلجئون إلى هذه الاحتياطات للمحافظة على السلام .

(١) الأب داميان (١٨٤٠ – ١٨٨٩) راهب بلجيكى ذهب إلى جزر الهند الغربية وتطوع بأن يرعى المصابين بالجذام من أهل تلك البلاد ، وكانوا ينفون إلى جزيرة صغيرة ، وبعد أن أقام بينهم اثنى عشر عاماً أصيب بالجذام ، وظل بينهم إلى أن مات . (المترجم)

"ولكن هذا السلام ليس هو السلام الذى ننشده ، والشعوب لا تخدع به .فالسلام الحقيقى يقوم على أساس من الثقة المتبادلة ، أما هذا التسلح الرهيب فإنه يدل على شك مضمر بين الشعوب المختلفة ، إن لم يكن دالاً على عداوة صريحة ، وماذا عسانا نقول عن رجل يبتغى إظهار صداقته لجاره فيدعوه إلى دراسة خطة ما ، ويبسطها أمامه وهو ممسك بمسدس محشو ؟

"إن هذا التناقض الفظيع بين ما تؤكده الحكومات من رغبة فى السلام وما تنتهجه من سياسة الحرب ، هو ما يود المواطنون الصالحون أن يضعوا له حداً مهما يكن الثمن . "

ولقد يدهش المرء حين يعلم أن ٦٠,٠٠٠ حادثة انتحار تسجل سنوياً فى أوروبا ، ولا تدخل فى هذا الإحصاء تركيا وروسيا وهذه الحالات كلها مؤكدة بالقرائن ولكن الأمر كان يكون أدعى للعجب لو كان العدد أقل ، فكل رجل فى هذا العصر يفكر فى التضاد بين معتقداته وأعماله يجد نفسه فى أزمة مظلمة ولو تركنا التناقضات الكثيرة الأخرى بين الحياة العملية والاعتقاد ، تلك التى تمتلئ بها حياة الإنسان فى العصر الحاضر فإن النظر إلى الموقف العسكرى فى أوروبا فى ضوء المسيحية التى تتظاهر بها لكاف لجعل الإنسان يشك فى وجود العقل البشرى ، ودفعه إلى الخلاص من عالم بربرى مجنون بأن ينهى حياته بيده .

حسب المرء أن يدرك ذلك حق الإدراك ليدفع إلى الجنون والانتحار ، وليس هذا إلا أمراً عادياً ولا سيما بين الجنود ،

وقليل من التأمل يثبت لنا حتمية هذا الاستنتاج .

فهو يفسر إمعان الناس فى جميع المفاسد ، من خمر وتبغ ولعب ورق وقراءة صحف وأسفار إلى سائر أنواع الملاهى والملاذ . إنهم يقبلون على جميع هذه المتع إقبال المستميت ، كأنما هى أعمال جادة ، والحق أنها كذلك ، فلو لم يكن لدى الناس تسلية واحدة من هذه التسليات لقتل نصفهم أنفسهم دون تردد ، لأن الحياة التى تقوم على متناقضات حياةٌ لا يمكن أن تحتمل ، وهذه هى الحياة التى يحياها معظمنا فى العصر الحاضر . إننا نعيش فى تناقض تام مع أعمق معتقداتنا . وهذا التناقض ظاهر فى العلاقات الاقتصادية والسياسية على السواء ، ظاهر لا يحتمل الشك فى

التعارض بين الاعتراف بالسنة المسيحية فى الحب الأخوى وبين التجنيد الإجبارى الذى يجبر الناس على أن يهيئوا أنفسهم لانتزاع أرواح بعضهم البعض ، أو باختصار فى كون كل رجل مسيحياً ومصارعاً فى الوقت نفسه ..

وبينما تتزايد الجهود التى يبذلها مثقفو الطبقات العليا لإسكات الوعى النامى بأن نظام الحياة الحاضرة يجب تغييره ، تمضى الحياة فى تطورها وتعقدها دون تغيير اتجاهها ، فتزيد الحياة البشرية اعوجاجاً وألماً حتى تدفع الناس إلى الحد الأقصى من هذا التناقض . والتجنيد الإجبارى العام مثل من أمثلة هذا الحد الأقصى .

يقال عادة إن هذا التجنيد الإجبارى مثل زيادة التسلح وما يترتب عليها من الإكثار من الضرائب والقروض الوطنية فى جميع الأقطار. كلها نتائج عرضية لأزمة معينة فى العلاقات الأوربية يمكن علاجها بتشكيلات سياسية معينة ، دون تغيير فى الحياة الداخلية .

وهذا خطأ مطلق ، فالتجنيد الإجبارى ليس إلا تناقضاً داخلياً زحف إلى التصور الاجتماعى للحياة ، ولم ينكشف أمره إلا لأنه بلغ حده الأقصى فى فترة وصل فيها الناس إلى درجة من التطور المادى .

فالتطور الاجتماعى للحياة ينقل قيمة الحياة من الفرد إلى البشرية عامة ، عن طريق سلسلة متصلة من الأسرة والقبيلة والدولة .

وبناء على التصور الاجتماعى للحياة يقال إنه لما كانت قيمة الحياة فى المجموع الكلى للبشرية فيجب على كل فرد أن يضحى مصالحه لمصالح المجموع من تلقاء نفسه ، وقد كان ذلك هو الشأن فعلاً فى تشكيلات اجتماعية معينة كالأسرة أو القبيلة .

ولكن ازدياد تعقد المجتمعات واتساعها – ولا سيما أن الغزو يساعد على ضم الناس فى منظمات اجتماعية– يستتبع ازدياد الأفراد الذين يحاولون الوصول إلى أغراضهم على حساب إخوانهم . ومن هنا كثرت الحالات التى يلزم فيها الإخضاع بالقوة أو العنف .

ويحاول المدافعون عن التطور الاجتماعى للحياة أن يربطوا فكرة السلطة أو العنف بفكرة السلطان الأخلاقى ، ولكن هذا الربط مستحيل كل الاستحالة .

فتأثير السلطان الأخلاقى فى الإنسان هو تغيير رغباته ، بحيث ينصاع بإرادته لما يُطلب منه ، والرجل الذى يستجيب للسلطان الأخلاقى يُسَر بإخضاع أفعاله للقوانين الأخلاقية ، أما السلطة كما يفهم منها عادة فهى وسيلة للقهر ، يجبر بها الرجل على أن يعمل بما يعارض رغباته . فالرجل الذى يخضع للسلطة لا يفعل ما يُسَر بفعله بل يستسلم للضغط ، ولا بد من التهديد باستعمال العنف المادى أو استعماله فعلاً كى يجبر الرجل على عمل مالا يرغب ؛ فقد يحرم حريته أو يجلد أو يشوَّه ، أو يهدَّد بهذه العقوبات ، وهذا هو معنى السلطة قديماً وحديثاً .

وعلى الرغم من جهود الحكام الدائبة لإخفاء هذه الحقائق وإضفاء معنى آخر على السلطة فإنها لا تعنى إلا الغل والسلسلة اللذين بها يوثق الرجل ويُسَجب ، والسوط الذى به يجلد والسكين أو الفأس التى بها تقطع أطرافه أو يجدع أنفه أو تصلم أذنه أو يحز رأسه ، السلطة إما تهديد بهذه الأفعال وإما مباشرتها : كانت هذه هى العادة الجارية فى أيام نيرون وجنكيزخان . ولا تزال متبعة حتى فى أكثر الحكومات تحرراً ، كجمهوريتى فرنسا وأمريكا ، وإذا كان الناس يخضعون للسلطة فما ذاك إلا لخوفهم أن يؤخذوا بالشدة إن هم قاوموا ، وكل ما تطلبه الدولة من دفع ضرائب أو أداء واجبات عامة أو خضوع لعقوبات النفى والغرامة إلخ ، مما يبدو أن الناس يستسلمون له بإرادتهم - كل ذلك يُفرض دائماً بالتهديد الجسمى أو بحقيقة العقاب الجسمى .

إن العنف المادى هو أساس السلطة .

والتنظيم العسكرى الذى يجعل القوة المسلحة كلها تتصرف تصرف رجل واحد وتخضع لإرادة واحدة ، هو الذى يجعل تنفيذ العنف المادى ممكنا . فهذه الجماعة من الرجال المسلحين الخاضعين لإرادة واحدة يكونون ما يسمى الجيش ، وقد كان الجيش دائماً وما زال أساس السلطة الممثلة فى قواده ، وكان الشغلُ الشاغل لجميع الملوك من القياصرة الرومان إلى الأباطرة الروس والألمان أن يحموا الجيش ويتملقوه ، فهم يدركون أنه إذا كان الجيش معهم فالسلطة فى أيديهم .

وتدريب الجيوش وزيادتها للمحافظة على السلطة هو ما أدخل فى التصور الاجتماعى للحياة عنصر الانحلال .

فسلطة الدولة قد تقضى على العنف الداخلى ، ولكنها بازدياد قوتها تبعاً لاستمرارها تدخل فى الحياة أنواعاً أخرى جديدة من العنف ، لا تفتأ تتزايد شدتها

ومع أن عنف السلطة فى الدولة أقل لفتاً للأنظار من عنف أفراد المجتمع إزاء بعضهم البعض ، لأن مظهره الرئيسى هو القهر لا الصراع ، فإنه قائم على الرغم من ذلك ، بل هو عنف بليغ .

ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، فإن الاستحواذ على السلطة لا يُفسد الرجال فحسب ، بل إن الحكام يحاولون دائماً – عن وعى وتدبير أو عن غير وعى وتدبير – أن ينزلوا رعاياهم إلى أدنى درجات الضعف ؛ لأن الرعية كلما ضعفت قل الجهد اللازم لإخضاعها .

ولذلك فإن استخدام العنف ضد المظلومين يبلغ حده الأقصى الذى ليس بعده إلا قتل الدجاجة ذات البيضة الذهبية ، أما إذا انقطعت الدجاجة عن وضع بيضتها كما هى الحال بالنسبة إلى هنود أمريكا أو سكان جزر فيجى أو الزنوج فإنها تقتل على الرغم من احتجاج دعاة الإنسانية على طريقة القتل .

والدليل القاطع على صحة هذه القضية فى الوقت الحاضر هو مركز العمال الذين لا يعدُون فى الحقيقة أن يكونوا رجالاً مقهورين .

فعلى الرغم من كل الجهود المزعومة من جانب الطبقات العليا للتخفيف عنهم ، فإن عمال العالم جميعاً خاضعون لقاعدة حديدية لا يمكن تعديلها ، مؤداها ألا يحصلوا إلا على الكفاف ، كيما تدفعهم حاجتهم إلى الكدح المتواصل ، الذى يجنى ثمراته سادتهم أو قل أولئك الذين غلبوهم على أمرهم .

والملاحظة التى لا تتخلف هى أنه بعد استمرار السلطان ونموه تقل المزايا التى يحصل عليها من يخضعون له ، فى حين تكثر المضار التى تنزل بهم .

ولكنهم ظلوا غير مدركين لهذه الحقيقة إلى عهد قريب ، وكانوا من السذاجة فى معظم الأحيان بحيث ظنوا أن الحكومات أقيمت لمصلحتهم ، فهى تحميهم من الهلاك ، وأنَّ تصوُّر إمكان العيش بدون حكومات تجديف لا يوصف ، فما هو إلا مبدأ الفوضوية بكل ما تستتبعه من فظائع .

وكان الناس يعتقدون – وكأن الأمر حقيقة ثابتة لا تحتاج إلى برهان جديد – أنه لما كانت جميع الأمم قد تطورت إلى شكل الدولة فيجب أن يبقى هذا الشكل أبداً شرطاً لازماً لتطور البشرية .

وعلى هذا استمرت الحال مئات بل آلافاً من السنين ، وحرصت الحكومات أو ممثلوها - وما زالوا يحرصون - على إبقاء هذا الوهم فى أذهان الشعب .

وكما كانت الحال أيام الأباطرة الرومان ، كذلك تكون الآن ، فمع أن فكرة انعدام فائدة السلطة بل ضررها قد بدأت تتغلغل فى وعى الناس فقد كان من الممكن أن يستمر ذلك الوهم أبداً لو لم ترَ الحكومات من الضرورى أن تزيد جيوشها لتأييد سلطتها .

والاعتقاد الشائع هو أن الحكومات تزيد جيوشها لأنها وسيلة للدفاع عن نفسها ضد الأمم الأخرى ، وينسى أصحاب هذا الاعتقاد أن الحكومات تحتاج إلى الجيوش أولاً لحماية نفسها من رعاياها المستعبدين .

كان ذلك ضرورياً لها دائماً ، وقد زادت ضرورته بانتشار التعليم ، وازدياد الاتصال بين مختلف القوميات ، وهو فى الوقت الحاضر أشد ضرورة إزاء الحركات الشيوعية والاشتراكية والفوضوية والعمالية ، والحكومات تدرك هذه الحقيقة ، وتزيد وسيلتها الأساسية للدفاع وهى الجيش المنظم .

إذا كان العامل لا يملك أرضاً ، إذا كان محروماً من الحق الطبيعى لكل إنسان فى استخراج وسائل معيشته ومعيشة أسرته من الأرض ، فليس هذا لأن الشعب يعارض ذلك بل لأن الحق فى منح العمال هذه الميزة أوحرمانهم منها قد أعطى لأفراد معينين ، وهم ملاك الأرض ، والجيش يسند هذا النظام غير الطبيعى ، وإذا كانت الثروة الضخمة التى يكسبها العمال ويدخرونها لا تعد ملكاً مشاعاً ، بل شيئاً لا ينبغى أن تتمتع به إلا القلة المختارة ؛ وإذا كان لأناس معينين سلطة جباية الضرائب على العمل وحق صرف ذلك المال فى أى الأغراض يرونها ضرورية ، وإذا كانت إضرابات العمال تقمع ، واتحادات الرأسماليين تشجع ، وإذا كان أناس معينون يسمح لهم بتقرير أمر التعليم الدينى والمدنى وتربية الناشئة ، وأناس معينون آخرون يعطون الحق فى سن القوانين التى يجب أن يطيعها الناس جميعاً ، وإذا كان مخولاً لهم أن يتحكموا فى حياة البشر وممتلكاتهم ، فإن هذا كله ليس سببه رغبة الناس فيه ، أو جريانه على سنة الطبيعة ، بل إن الحكومات تريد ذلك لمصلحتها ومصلحة الطبقات الحاكمة ، وهذا كله يتم بطريق العنف المادى .

وإذا لم يكن كل إنسان قد أدرك ذلك ، فسوف يراه جليا حيثما بذلت محاولة لتغيير الأحوال الحاضرة .

ومـــن أجل هذا تحتاج جميع الحكومات والطبقات الحاكمة إلى الجيوش قبل كل شئ ، لتحافظ على نظام للحياة لم ينشأ من حاجات الشعب ، بل على العكس كثيراً ما يضر بهم ، ولا يفيد منه إلا الحكومة والطبقات الحاكمة .

فكل حكومة تحتاج إلى الجيش الذى يفرض طاعتها لنستفيد من عمل رعاياها ، ولكن ليس ثمة حكومة تقوم وحدها ؛ فإلى جانبها تقف حكومة القطر المجاور ، التى تستفيد أيضاً من تسخير رعاياها وتقف دائماً على أهبة الانقضاض على جارتها والاستيلاء على الميزات التى كسبتها هذه من عمل رعاياها ، ومن هنا تحتاج كل حكومة إلى جيش لا لتستعمله فى الداخل فقط بل لتحفظ غنائمها من النهب الخارجى ، وكذلك تجد كل حكومة نفسها مضطرة إلى أن تسبق جارتها فى تضخم جيشها ، وكما قال منتسكيو منذ مائة وخمسين عاماً : «إن زيادة الجيوش عدوى»

فإحدى الدول تزيد جيشها لترهب رعاياها ؛ فتوجس جارتها خيفة وسرعان ما تحذو حذوها .

إن الجيوش لم تبلغ أعدادها الملايين التى بلغتها الآن للخوف من الغزو الخارجى وحده ؛ فالذى سبب الزيادة أولاً هو ضرورة إخماد كل محاولة للعصيان من جانب رعايا الدولة وأسباب تضخم الجيوش متعاصرة ، يتوقف الواحد منها على الآخر ، فالجيوش ضرورية لإخماد محاولات الثورة الداخلية كما أنها ضرورية للدفاع الخارجى وكلا الأمرين يتوقف على الآخر ، واستبداد الحكومات يزيد على قدر ازدياد قوتها ونجاحها الداخلى ، كما يزيد عدوانها الخارجى بازدياد استبدادها الداخلى .

والتجنيد الإجبارى العام هو الخطوة الأخيرة فى عملية القهر التى تحتاج إليها الحكومات لتدعيم البناء كله ؛ وهو الحد الأقصى للطاعة بالنسبة إلى المحكومين . إنه مفتاح العقد الذى يحمل الجدران ، ولو انتُزع لا نتقض الجميع ، ولقد جاء الوقت الذى أصبحت فيه مفاسد الحكومات المتفاقمة ومنازعاتها المتبادلة تقتضى من جميع رعاياها تضحيات روحية إلى جانب التضحيات المادية ، حتى ليقف كل رجل ويسأل نفسه : هل أستطيع أن أقدم هذه التضحيات ؟ ولمن أقدمها ؟ إن هذه التضحيات تطلب منى باسم الدولة .. باسم الدولة يطلب من أن أتخلى عن كل ما يحبب الحياة إلى الإنسان عن السلام ، والأسرة، والأمن والكرامة الشخصية . فما هذه الدولة التى باسمها أطالب بهذه التضحيات المروعة ؟ وما فائدتها ؟

يقولون لنا إن الدولة ضرورية أولاً لأنه لولاها لما أمن إنسانٌ من العنف واعتداء الأشرار ، وثانياً لأنه لولاها لكنا كالوحوش لا دين لنا ولا أخلاق ولا ثقافة ولا تربية ولا تجارة ولا وسائل للمواصلات ولا نظم اجتماعية ما ، وثالثاً لأنه لولا الدولة لتعرضنا للغزو من الأمم المجاورة .

يقولون لنا : "لولا الدولة لا ستهدفنا للعنف واعتداء الأشرار فى عقر دارنا " .

ولكن من هؤلاء الأشرار الذين تنقدنا الحكومة والجيش من اعتدائهم وهجومهم ؟ إن كل مثل هؤلاء الرجال قد وجدوا منذ ثلاثة قرون أو أربعة ، عندما كان الرجال يفاخرون بمهارتهم الحربية وقوة سواعدهم ، والرجل يثبت شجاعته بقتل إخوانه فى الإنسانية ، فإننا لا نجد مثل هؤلاء الرجال فى الوقت الحاضر . فرجال عصرنا لا يحملون الأسلحة ولا يستعملونها ، وهم يرغبون فى السلم والأمن كرغبتنا فيهما ، لأنهم يؤمنون بمبادئ الإنسانية ومحبة الجار وإذن فلم يبق ثمة وجود لهذه الطبقة العجيبة من المغتالين الذين يقال إن الدولة تحمينا من أذى قد يلحقونه بنا .

بل إن المرء يستطيع أن يقول بعكس ذلك تماماً فى أيامنا هذه ، فإن أعمال الحكومات التى تهبط كثيراً عن المستوى العام للأخلاق ، بما تعمد إليه من وسائل العقاب العتيقة الفاسدة ، من أشغال شاقة وسجون ومشانق ومقاصل – هى أقرب إلى أن تنزل بالمستوى الخلقى منها إلى أن ترفعه ، ومن ثم فهى أقرب إلى أن تزيد عدد المجرمين منها إلى أن تقلله .

ويقال : "لولا الدولة لما وجدت نظم تعليمية ولا أخلاقية ولا دينية ولا دولية : ولما وجدت طرق للمواصلات ؛ لولا الدولة لما وجدنا المنظمات الضرورية لنا جميعًا" .

ومثل هذه الحجة كان يمكن أن تستند إلى أساس منذ بضعة قرون ، أما الآن فلا ، فإن كان قد وجد عصرٌ ما قلّ فيه الاتصال بين الشعوب ولم تألف التعامل ولا تبادل الأفكار فيما بينهما بحيث يمكنها أن تتفق على ما يمس مصالحها العامة من أمور التجارة أو الصناعة أو الاقتصاد دون معونة الدولة ،فإن الأمر الآن بخلاف ذلك ، فقد أدى اتساع وسائل الاتصال ونقل الأفكار إلى هذه النتيجة : إن الإنسان الحديث إذا أراد تأسيس جمعيات أو مجالس أو مؤتمرات ، أو منظمات علمية أو اقتصادية أو سياسية فإنه يستطيع أن يستغنى فى يسر عن مساعدة الحكومات ، بل إن الحكومات فى معظم الأحيان تعوق السعى نحو هذه الأهداف أكثر مما تعززه .

ولم تزل الحكومات منذ نهاية القرن الماضى تمنع تأييدها عن جل الحركات التقدمية التى يقوم بها البشر ، بل تضع الحوائل أمامها ، هكذا فعلت فى إلغاء العقاب البدنى والتعذيب والرق ؛ وهكذا فعلت فى تقرير حرية الصحافة والاجتماع ، وفوق ذلك فإن سلطات الدولة والحكومات فى هذه الأيام لا تكتفى بعدم التعاون فى الأعمال التى يحاول بها البشر إيجاد أشكال جديدة للحياة ، بل تعمد إلى عرقلة هذه الأعمال ، فحل قضايا العمل وملكية الأرض ، والمشكلات السياسية والدينية ، لا يلقى تشجيعاً من السلطات الحكومية ، بل إنه يُعارض معارضة ظاهرة ،

ويقولون : «لولا الدولة وسلطة الحكومة لوقعت الأمم تحت سيطرة جيرانها » .

وهذه حجة لا تستحق المناقشة ، فإنها تدحض نفسها بنفسها .

فهم يقولنا لنا إن الحكومة وجيوشها لازمة للدفاع عنا ضد الدول المجاورة التى يمكن أن تتغلب علينا ، ولكن جميع الحكومات تقول هذا عن بعضها البعض ، ونحن نعلم مع ذلك أن كل أمة من الأمم الأوربية تعتنق مبادئ الحرية والإخاء التى تعتنقها سائر تلك الأمم ، ولهذا لا تحتاج إلى دفاع ضد جاراتها ، أما إذا كان الحديث عن الدفاع ضد البرابرة فإن واحداً فى المائة من الجيوش تحت السلاح فى الوقت الحاضر يكون كافياً . إن زيادة القوات المسلحة لا تحمينا من هجوم جيراننا بل تستثير هذا الهجوم الذى تزعم أنها تمنعه .

وهكذا لا يستطيع إنسان يفكر فى معنى الدولة التى يطالب باسمها أن يضحى بسلامه وأمنه وحياته ، لا يستطيع الهرب من اليقين بأنه لم يبق ثمة أساس لهذه التضحيات .

إن الأمم المسيحية فى العصر الحاضر ليست فى حال أقل قسوة من عصور الوثنية ، بل إن حالها قد زادت سوءاً من نواح كثيرة ولا سيما القهر الذى تعانيه . ففى الماضى كان المظهر الخارجى من القسوة والعبودية يطابق الوعى الباطنى عند الناس مطابقة لم يزدها الزمن إلا انسجاماً ، أما فى العصر الحاضر فإن الحالة الظاهرة من القسوة والعبودية تناقض الوعى المسيحى عند الناس مناقضة تامة ، مناقضة لا تزال تبرز عاماً بعد عام .

وما أغنانا عن التعاسة والألم الناتجين من ذلك ، لكأنه مخاض طويل ، فكل شئ مهيأ للحياة الآتية ، ولكنْ لا تظهر حياة .

والموقف يبدو وكأنما لا خلاص منه ، ولقد يكون الأمر كذلك لو لم يكن البشر والعالم من ثمة ، قد منحا القدرة على فهم فيه قدرة التحرير على الفور من جميع الأغلال ، مهما تكن محكمة الإغلاق .

وهذا هو التصور المسيحى للحياة كما أبلغ للناس منذ ألف وثمانمائة عام .

ليس على الإنسان إلا أن يفهم حياته كما تعلمه المسيحية أن يفهمها ، أن يدرك أن هذه الحياة ليست ملكاً له ولا لأسرته ولا للدولة ، بل للذى بعثه إلى العالم ، وأن يعلم - من ثمة - أن واجبه ليس أن يعيش وفقاً لشرعته الشخصية ولا لشرعة أسرته أو دولته ، بل أن يعيش طبقاً للشريعة الأبدية لمن أعطاه الحياة - ذلك حسبه ليشعر أنه حر مطلق الحرية من كل سلطة بشرية ، فلا يعود ينظر إليها على أنها يمكن أن تكون عقبة أمامه .

ليس على الإنسان إلا أن يدرك أن الغاية من حياته هى العمل بشريعة الله ، فيكون سلطان هذه الشريعة التى تستأثر بكل ولائه ناسخاً بالضرورة لسلطة القوانين البشرية جيمعاً .

والمسيحى الذى يتأمل قانون الحب المركوز فى كل نفس بشرية ، والذى بعثه المسيح معلم البشر ، يتحرر من كل سلطة بشرية .

وقد يلقى المسيحى إيذاءً ظاهراً ، وقد يحرم حريته الشخصية ، وقد يُستعبد لشهواته - ومرتكب الذنب عبد لذنبه - ولكنه لا يمكن أن يساق أو يجبر بالتهديد على ارتكاب عمل يناقض وجدانه ، لا يمكن إجباره على ذلك لأن الحرمان والآلام التى تؤثر أعظم التأثير فيمن يتعلقون بالتصور الاجتماعى للحياة لا سلطان لها عليه ، فالحرمان والآلام التى تقضى على النعمة المادية وهى هدف التصور الاجتماعى للحياة ، لا تحدث أثراً فى نعمة المسيحى التى تقوم على الشعور بأنه يصدع بأمر الله ، بل إنها قد تزيد هذه النعمة إذا ابتلى بها لأنه يصدع بأمر الله .

لهذا فإن المسيحى الذى يطيع القانون الإلهى الباطنى لا يصبح عاجزاً فحسب عن تنفيذ أوامر القانون الخارجى إذا تعارضت مع إحساسه بقانون الحب الإلهى ، كما هو الشأن فى مطالب الحكومة منه ، بل إنه لا يمكن أن يقر بطاعة فرد ما ، أو بكونه رعية حسبما اصطلح على القول فعند المسيحى أن إعطاء العهد بالخضوع لحكومة ما - وهو ما يمكن أن يعد أساس الحياة فى الدولة نقض صريح للمسيحية ؛ لأن الفرد يعاهد

سلفاً على الطاعة الضمنية لكل قانون يسنه البشر يكون كمن شهد بإنكار قطعى للمسيحية ، التى يقوم جوهرها على الطاعة فى كل أمرٍ لذلك القانون الذى يشعر به فى باطنه .. قانون الحب !

إن موقف العالم المسيحى بقلاعه ومدافعه ومتفجراته وبنادقه وقذائفه وسجونه ومشانقه وكنائسه ومصانعه وجماركه وقصوره لموقف فظيع ، ولكن لا القلاع ولا المدافع ولا البنادق تستطيع أن تشن حرباً بنفسها ، ولا السجون تستطيع أن تغلق أبوابها ، ولا المشانق أن تشنق ، ولا الكنائس أن تُضلَّ ولا الجمارك أن تطالب بنصيبها ، ولا القصور والمصانع أن تقيم أركانها .. فكل ذلك يعمله البشر ، وحين يفهم البشر أنهم ليسوا بحاجة إلى عمله فلن يبقى لهذه الأشياء وجود .

وقد بدأ الناس يفهمون هذا ، إن لم يكن الجميع قد فهموه حتى الآن ، فقد فهمه أولئك الذين يتبعهم سائر العالم من بعد ، ومحالٍ أن يعود ما فُهم غير مفهوم وإن الجماهير لقادرة على أن تتبع طريق أولئك الذين فهموا ، بل لا بد لها فى النهاية أن تتبع هذا الطريق .

ومن هنا تجئ النبوءة : أن سيأتى وقت يصغى فيه الناس جميعاً لكلمة الله ، وينسون فنون الحرب ، ويصهرون سيوفهم محاريث وحرابهم مناجل ، ومعنى ذلك ، إذا ترجمناه أن جميع السجون والقلاع والمعسكرات والقصور والكنائس ستبقى خالية ، والمشانق والمدافع ستكون بغير عمل . إن هذا لم يعد حلماً طوبويا بل نظاماً جديداً محدداً للحياة ، تتقدم نحوه البشرية بسرعة تزداد كل حين .

ولكن متى يكون ؟

منذ ألف وثمانمائة عام قال المسيح جواباً عن هذا السؤال ، إن نهاية العالم الحاضر – أى النظام الوثنى – ستأتى حين يبلغ شقاء الإنسان حده الأقصى ؛ وحين تعلن – فى الوقت نفسه – فى أرجاء الأرض بشارة مملكة السماء ، أى إمكان قيام نظام جديد لا يؤسس على العنف .

قال المسيح :

"وأما ذلك فى اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحدٌ ولا ملائكة السماء إلا الرب وحده.... اسهروا إذن لأنكم لا تعلمون فى أية ساعة يأتى ربكم "

متى تأتى الساعة ؟ لقد قال المسيح إننا لا نستطيع أن نعلم . ولهذا السبب نفسه يجب أن نستعد للقائها .

وليس ثمة جواب آخر . فلا يمكن للبشر أن يعلموا اليوم والساعة التى تجئ فيها مملكة الله ، لأن مجئ هذه الساعة إنما يتوقف على البشر أنفسهم .

الجواب كجواب ذلك الحكيم الذى سأله المسافر كم بينه وبين المدينة ، فقال له : «أمض فى سيرك» .

أنى لنا أن نعلم بُعد الغاية التى تسعى نحوها البشرية إذا كنا لا نعلم كيف يكون سعيها ؟ ذلك يتوقف على البشرية إن مضت قدماً أو توقفت ، إن حثت خطاها أو أبطأت .

وكل ما فى مقدورنا أن نعلمه هو ما ينبغى أن نفعل أو لا ينبغى أن نفعل – نحن الذين تتألف منا البشرية – لتحقق مملكة الله ، هذه وهذا نعلمه كلنا ، فما على كل منا إلا أن يبدأ فى أداء واجبه ، ما على كل منا إلا أن يعيش وفقاً للنور الذى فى باطنه ، فتتحقق مملكة الله الموعودة التى يحن إليها قلب كل إنسان .

فلسفة التاريخ عند تولستوى

قرب نهاية سنة ١٨١١ بدأت حركة حشد وتركيز للقوات فى غرب أوروبا ؛ وفى سنة ١٨١٢ نُقلت هذه القوات التى بلغت ملايين الرجال ، إذا أدخلنا فى حسابنا أولئك الذين كانوا يعملون فى نقل الجيوش وتموينها - نقلت من الغرب إلى الشرق نحو حدود روسيا ، حيث كانت القوات الروسية معبأة كما كانت فى العام السابق .

وفى اليوم الرابع والعشرين من يونية ، عبرت قوات أوربا الغربية الحدود الروسية ، وبدأت الحرب ، أو بعبارة أخرى ، وقع حادث مناقض للعقل البشرى والطبيعة البشرية .

فارتكت ملايين الرجال ضد بعضهم البعض ما لا يحصى من الجرائم ، من خداع وخيانة وسرقة وتزوير وتزييف نقود ونهب وإحراق وقتل - عدداً لا يمكن أن تباريه جميع محاكم العالم فى عدة قرون ، ولكن مقترفيها لم يكن يخطر ببالهم - فى ذلك الوقت - أنها جرائم .

كيف وقع ذلك الحادث العجيب ؟

ماذا كانت أسبابه ؟

يقول المؤرخون ، بتصديق ساذج ، إن أسباب هذا الحادث ترجع إلى الإهانة التى وجهت إلى دوق أو لدنبرج ، وعدم مراعاة "النظام القارى " وطموح نابليون وحزم ألكسندر ، وأخطاء الدبلوماسيين إلى نحو ذلك .

ولو كان الأمر كما ذكروا لما احتاج وقف الحرب إلا إلى أن يقوم مترنيج أو روميانتسوف أو تاليران ببذل شئ من الجهد بين جلسة وحفلة ، وإظهار البراعة فى تحرير ورقة من أوراق الدولة ، أو أن يكتب نابليون إلى ألكسندر : "سيدى وأخى ، إننى أوافق على رد الدوقية إلى دوق أولدنبرج .» .

ومن اليسير أن نفهم أن الناس فى ذلك الوقت تصوروا الأمر على هذا النحو ، ومن اليسر أن نفهم أن نابليون عزا سبب الحرب إلى مؤامرات إنجلترا (وهذا ما قاله فعلاً

(*) من الحرب والسلام .

فى جزيرة سنت هيلانة) ؛ ومن اليسير أن نفهم أن أعضاء البرلمان البريطانى عزوا سبب الحرب إلى طموح نابليون ؛ وأن أمير أولدنبرج كان يرى أن الحرب نتجت عن الإهانة التى وجهت إليه ؛ وأن التجار اعتبروا "النظام القارى " الذى أضر بالتجارة الأوربية مسئولاً عن هذه الحرب ؛ وأن قدامى الجنود وقواد الجيوش رأوا سببها الرئيسى هو ضرورة البحث لهم عن شئ يعملونه ؛ وأن أنصار الملكية الشرعية فى ذلك الزمن رأوه فى ضرورة المحافظة على المبادئ القويمة ؛ والدبلوماسيين فى أن المحالفة بين روسيا والنمسا سنة ١٨٠٩ لم تُخْفَ عن علم نابليون بمهارة كافية ، وأن المذكرة رقم ١٧٨ قد صيغت فى عبارات غير دقيقة .

من اليسير أن نفهم أن هذه العلل وعللاً أخرى لا تحصى ، ولا تتناسب كثرتها إلا مع كثرة وجهات النظر التى لا حد لها - كانت تبدو مقنعة لأهل ذلك الزمن ؛ أما نحن الأجيال التالية ، الذين نجد أنفسنا على بعد كاف لنتأمل ضخامة الحادث من أفق أوسع ، والذين نريد أن نسبر معناه البسيط المروع ، فإن مثل هذه العلل لا تبدو لنا كافية ، فنحن لا نستطيع أن نصدق أن ملايين من المسيحين قتلوا بعضهم بعضاً وعذبوا بعضهم بعضاً لأن نابليون كان طموحاً وألكسندر حازماً ، والسياسة البريطانية ما كرة ودوق أولدنبرج مهاناً . ومن المستجيل علينا أن نفهم العلاقة بين هذه الظروف وبين حقيقة القتل والعنف ذاتها : لماذا ترتب على الإهانة التى لحقت بالدوق أن ألوفاً من الرجال الطرف الآخر لأوربا قَتَلوا ونهبوا أهل حكومتى سمولنسك وموسكو وقتلوا بأيدى هؤلاء.

نحن الأجيال التالية ، الذين لسنا بمؤرخين ، ولا تستهوينا العمليات الفكرية البعيدة الاحتمال ، والذين نستطيع بفضل ذلك أن نتأمل الظواهر بنظر صحيح ليست عليه غشاوة ، تبدو لنا أسباب تلك الظواهر فى كثرتها التى لا تحصى ، وكلما تعمقنا الأسباب تفتحت لنا عن عدد أكبر ، وبدا كل سبب أو سلسلة من الأسباب على حدة ذا أثر بذاته ككل سبب آخر، عديم الأثر لتفاهته بالقياس إلى ضخامة الحوادث ككل سبب آخر أيضاً ؛ عديم الأثر كذلك لعجزه عن أن ينتج الأحداث التى نتأملها دون معاونة الأسباب الأخرى كلها مجتمعة .

فرفض نابليون أن يسحب جيشه إلى ما وراء القستولا ويعيد دوقية أو لدنبرج سببٌ له من القيمة فى هذا البحث مثل ما لاستعداد جاويش فرنسى واحد أن يشارك فى المعركة الثانية أو إبائه ذلك ؛ لأنه لو أبى هو ثانٍ وثالث وشاركهم فى الإباء ألف جاويش وجندى لتضاءل جيش نابليون إلى حد تمتنع معه الحرب .

ولو أن نابليون لم يغضب حين طُلب منه سحب قواته إلى ما وراء الفستولا ، ولو لم يصدر أوامره إلى هذه القوات ببدء المعركة لما وقعت الحرب ؛ ولكن لو أن جميع ضابط الصف رفضوا أن يخوضوا المعمعة لما وقعت الحرب أيضاً ، وكانت الحرب تمتنع أيضاً لولا المؤامرات الإنجليزية ، وأمير أولدنبرج ؛ ولو لم يشعر ألكسندر بالحنق ؛ ولو لم يوجد حكم مطلق في روسيا ؛ ولو لم توجد ثورة فرنسية ولا تبعتها دكتاتورية ولا إمبراطورية ؛ ولو لم يوجد شئ من الأشياء التى أدت إلى الثورة ، وهلم جرا لو تخلف سبب واحد من هذه الأسباب لما وقعت الحرب وإذن فلا بد أنها جميعاً – أى آلاف الملايين من الأسباب – قد تعاونت لتؤدى إلى هذه النتيجة .

ونخلص من ذلك إلى أنه لا يمكن أن يكون ثمة سبب نهائى واحد لهذه الأحداث ؛ وأن الحادث العظيم قد وقع لأنه كان لا بد أن يقع ، كان لا بد أن يتخلى ملايين الرجال عن مشاعرهم البشرية وعن عقولهم ويسيروا من الغرب إلى الشرق ليقتلوا إخوانهم ؛ تماماً كما حدث منذ عدة قرون أن جحافل من البشر تدفقت من الشرق إلى الغرب ليقتلوا إخوانهم أيضاً .

وما كانت أفعال نابليون وألسكندر ، اللذين يبدو أن هذه الحادثة أو تلك كانت متوقفة على أمرهما . بأقرب إلى التلقائية والحرية من أفعال أى جندى اشترك فى الحملة مجنداً أو متطوعاً ليس من ذلك بد ، لأن تنفيذ إرادة نابليون أو ألكسندر – اللذين يبدو أن الحادث كان متوقفاً عليهما – استلزم اشتراك عدد لا يحصى من العوامل ، التى لو تخلف واحد منها لما وقع الحادث ، كان من اللازم أن يوافق ملايين الرجال على تنفيذ إرادة هاتين الوحدتين الإنسانيتين الضعيفتين ، ملايين الرجال الذين كانت فى أيديهم كل القوة حقا ، الجنود الذين حاربوا ، والرجال الذين نقلوا الذخائر والمدافع ، وقد أدى بهم إلى الموافقة عدد لا يحصى من الأسباب المعقدة المتنوعة .

لا مفر من الجبرية فى التاريخ إذا أردنا أن نفسر ظواهره غير المعقولة (أى تلك الأحداث التى تفوت علتها إدراكنا) . وكلما حاولنا أن نفسر هذه الظواهر التاريخية بعقلنا بدت لنا أبعد عن المنطق والإدراك .

فكل إنسان يعيش لنفسه ، ويتمتع بحرية كافية لتحقيق أغراضه الشخصية ، ويشعر بجماع وجوده أنه يستطيع أن يقوم من ساعته بعمل من الأعمال أو يأباه ، ولكنه متى فعله فإن هذا الفعل الذى تم فى فترة محدودة من الزمان يخرج عن مشيئته ، ويصبح عنصراً فى التاريخ ، يحتل مكانه فيه بمعنى مقدر لم يعد فيه مجال للهوى .

ولكل إنسان حياة مزدوجة : حياته الشخصية فى جانب وهى حياة حرة بقدر تجرد مصالحها ؛ وفى الجانب الآخر حياته بوصفه عنصراً ، نحلة واحدة فى السرب ، وهنا لا مجال للإنسان أن يخرج عن القوانين المفروضة عليه .

والإنسان يعيش لنفسه فى وعيه ، ولكنه فى الوقت نفسه أداة غير واعية لتحقيق أغراض تاريخية واجتماعية ، والعمل إذا تم تحدد ؛ وإذا تلاقى عمل إنسان بغيره – بملايين الأعمال التى تصدر عن أناس آخرين – فإن هذا العمل يكتسب قيمة تاريخية وكلما ارتفع الرجل فى السلم الاجتماعى ، وكثر الناس الذين له بهم صلة ، وعظم تأثيره فى غيره ، وضحت الضرورة الحتمية المقدرة فى كل عمل من أعماله .

قلب الملك فى قبضة الرب .

الملك عبد التاريخ .

فالتاريخ – أى الحياة الكلية اللاشعورية للبشرية فى مجموعها – يستفيد فى كل لحظة من حياة الملك ، بوصفها أداة لتحقيق أغراضه .

ولئن لم يتخيل نابليون قط مثلما تخيل فى هذا العام من ١٨١٢ إن إراقة دماء شعبه أو حقنها – كما عبر ألكسندر فى كتابه إليه – متوقفان عليه ، إنه لم يكن قط فى حقيقة الأمر أكثر خضوعاً مما كان آنئذ للقوانين الحتمية التى تفرض عليه حتى وهو يعمل وفق إرادته الحرة ، كما يبدو له ، أن يحقق للعالم عامة– للتاريخ ما قُدِّر تحقيقه .

سار رجال الغرب نحو الشرق ليقتل بعضهم بعضاً "وبقانون المصادفات تنكرت ألوف الأسباب التافهة فى زى أسباب حاسمة ووافقت هذا الحادث ، ففسرت هذه الحركة وهذه الحرب فى الظاهر : السخط لعدم مراعاة "النظام القارى " دوق أولدنبرج؛ " غزو بروسيا الذى لم يكن له من غرض (كما خيل لنابليون) إلا الحصول على سلم مسلح ؛ ولع إمبراطور فرنسا بالحرب وإلفه لها اللذان اتفقا مع مزاج شعبه ؛ إغراء القيام باستعدادات أوسع ، واعتماد الأموال للقيام بهذه الاستعدادات ، والتعويضات التى تفى بهذه الأموال ؛ التكريم المدير للرأس فى درسدن ؛ المفاوضات الدبلوماسية التى أجريت – فى نظر المعاصرين لتلك الأحداث – برغبة مخلصة فى المحافظة على السلام، ولكنها لم تزد على أن أساءت إلى كبرياء كلا الجانبين ؛ وملايين الملايين من الأسباب الأخرى اتخذت عللاً زائفة لهذا الحادث الذى كان لا بد أن يقع ووافقته فى الزمن .

عندما تنضج تفاحة وتسقط - فما الذى يجعلها تسقط ؟ أهى الجاذبية ؟ أم أن غصنها نوى ؟ أم أن الشمس جففته ؟ أم أنها ثقيلة ؟ أم أن الريح هزتها ؟ أم أن الصبى الصغير الواقف تحتها جائع إليها ؟

ليس ثمة سبب مباشرة ، فالأمر بأجمعه نتيجة لكل هذه الظروف التى يحدث بمقتضاها كل حادث حىّ عضوى معقد ، وعالم النبات الذى يقرر أن التفاحة سقطت نتيجة لتحلل النسيج الخضرى مصيب كالصبى الذى يعلن ، وهو واقف تحت الشجرة ، أن التفاحة سقطت لأنه أراد أن يأكلها ودعا بأن ينالها .

مصيب ومخطئ على السواء من يقول إن نابليون ذهب إلى موسكو لأنه أراد أن يذهب ، ودالت دولته لأنه ألكسندر رغب فى أن تدول دولته ، ومصيب ومخطئ على السواء من يزعم أن سقوط جبل يزن ملايين الأطنان ناتج عن آخر ضربة معول أهوى بها آخر عامل . وفى أحداث التاريخ ليس من يسمون بالعظماء إلا بطاقات توصل بالحادث وتعطيه اسماً ، ولا ارتباط لهم بالحادث إلا كارتباط هذه البطاقات .

فكل عمل من أعمالهم وإن بدا صادراً عن إرادتهم الحرة هو فى دلالته التاريخية خارج عن نطاق الإرادة ، ومرتبط بالاتجاه العام للتاريخ ، ومن ثم فهو مقدر منذ الأزل.

وكما أن الشمس وكل ذرة من الأثير كون كامل فى ذاته ، وهى فى الوقت نفسه لا تعدو أن تكون ذرة فى الكل العظيم الذى لا يمكن أن يدركه الإنسان ، فكذلك كل فرد يحمل فى داخله أهدافه الخاصة ، ويخدم فى الوقت ذاته الهدف العام الذى لايمكن أن يدركه الإنسان .

تقف نحلة على زهرة ، وتلسع صبياً ، ويخاف الصبى من النحلة ، ويقول إن غرض النحل هو أن يلسع الناس .

ويتأمل الشاعر النحلة وهى ترشف كأس زهرة ، ويقول لنا أن غرض النحلة هو أن تمتص فى باطنها شذى الأزهار .

ويلاحظ النحّال أن النحلة تجمع اللقاح وتعود به إلى الخلية فيقول إن غرض النحل هو صنع العسل .

ويلاحظ نحال آخر عادات السرب ملاحظة أدرق ، فيقول إن النحلة تجمع اللقاح لغذاء صغارها واستغلال الملكة ، وإن غرض النحل هو حفظ النوع .

ويلاحظ عالم نباتى أن النحلة حين تطير بغبار زهرة خنثى إلى ميسم زهرى أخرى، تلقح هذه الزهرة ، فيرى فى ذلك غرض النحلة.

ويعنى عالم آخر بملاحظة هجرة النباتات ، فيرى إن النحلة تساعد على هذه الهجرة ، ويقول هذا النظّار الجديد إن هذا هو غرض النحلة .

ولكن الغرض الأخير للنحلة ليس منحصراً فى أول الأغراض التى يستطيع العقل البشرى اكتشافها ، ولا فى ثانيها ولا فى ثالثها .

وكلما أرتقى العقل البشرى فى جهوده لاكتشاف هذه الأغراض وضح أن الغرض الأخير يفوت إدراك الإنسان.

وكل ما يستطيع الإنسان ملاحظته هو الترابط بين حياة النحلة وسائر ظواهر الحياة ، وكذلك الحال بالنسبة إلى أغراض الشخصيات التاريخية والشعوب .

أفكار تولستوى الأخلاقية

(فى قالب الخيال – قصص قصيرة)

نيقولا العصا

(نيكولاى پالكين)

قضى ليلته فى بيت جندى له من العمر خمسة وتسعون عاماً ؛ خدم فى عهدى ألكسندر الأول ونيقولا الأول .

– ماذا يا أبت ؟ هل تريد أن تموت ؟

– أمـــوت ؟ ليتنى أموت ! كنـــت أخافه أولاً ، ولكنى الآن لا أسأل الله غير شئ واحد .. أن ينعم على بالاعتراف والقربان ، فذنوبى كثيرة .

– وماذا عسى أن تكون ذنوبك ؟

– تسألنى ؟ ألا تعلم متى خدمت ؟ وفى أيام نيقولا . وهل كان الجيش أيامها كما هو اليوم ؟ كيف كانت الحال فى تلك الأوقات ؟ إن بدنك يقشعر حين تفكر كيف كانت . بل إننى أستطيع أن أتذكر أيام ألكسندر. كان الجنود يذكرون ألكسندر بالخير . وكان الناس يقولون : لقد كان رحميا .

ورجعت بذكراتى إلى أيام ألكسندر الأخيرة ، وعندما كان عشرون رجلاً من كل مائة يجلدون حتى الموت لابد أن نيقولا كان رحيما حقاً إذا كان ألكسندر قد سمى رحيماً بالنسبة إليه :

قال الشيخ :

– ثم خدمت فى أيام نيقولا .

– وجاشت نفسه ، وانطلق يتكلم :

– كيف كانت الحال فى تلك الأيام ؟ فى تلك الأيام كانوا يستقلون أن ينزلوا سراويلهم من أجل خمسين جلدة ، مائة وثلاثمائة – كانوا يجلدون الناس حتى الموت! .

قال ذلك برهبة وجزع ، مازجهما شئ من الفخر بروائع الماضى .

– وعندما كانوا يستعملون العصا! لم يكن يمر أسبوع دون أن يضربوا رجلاً أو رجلين من الكتيبة حتى الموت ، اليوم لا أحد يعرف ماذا تعنى العصا حقاً. أما فى تلك الأيام فقد كانت الكلمة فى أفواه الرجال دائماً أبداً : "العصا ! العصا! " .

وأطلق جنودنا على نيقولا لقب العصا ، نيقولا پافلوڤتش ، ولكن الناس كانوا يقولون دائماً نقولا العصا ، كان هذا هو اسمه الثانى ، ومضى الشيخ قائلاً .

– عندما تفكر فى تلك الأيام .. العمر انتهى ، والموت قريب ، وعندما تفكر ثانية فى تلك الأيام ينقبض صدرك . كانت الطاعة هى كل شئ ، تضرب مائة وخمسين عصا بسبب جندى (كان الرجل ملازماً وضابط صف ، وقد أصبح الآن فى رتبة رئيس) فتضربه مائتين ، ولا تشفُى جروحك بذلك ولكنك تعذبه .. حرام . حرام !

كان الملازم يضرب الجندى حتى الموت ، يظل يدق بكعب البندقية أو بقبضته على موضع واحد ، على صدره أو على رأسه ويموت الرجل . ولا يسأل أحد . يموت الرجل من الضرب ، ويكتب الرئيس : "مات قضاء وقدراً " وينتهى الأمر ، وهل كنت أعقل ذلك وقتئذ ؟ المرء يفكر فى نفسه فقط ، والآن لا أفعل إلا أن أتقلب على قبة الفرن ، ولا أقدر أن أنام ليلاً ، وأفكر وأفكر ، وأرى كل شئ بوضوح مرة أخرى . سعيدٌ من كتب له أن يتناول القربان كما أوصى المسيح ، وينال المغفرة ، وإلا فإن الفزع يتملكك ، عندما تفكر فى كل ما قاسيته ، وما قاساه أناس آخرون بسببك ، لا تحتاح إلى جحيم ، فإن ذلك شر من الجحيم ، والشيطان .

وتمثلتُ لخيالى الذكريات التى لا بد أن تراود الشيخ الفانى فى وحدته ، وتألمت ، فكرت فى الأشياء المخيفة التى كان لا بد أن يشارك فيها غير الضرب ، كيف كان عليه أن يطارد الناس حتى الموت بِجَلْدهم فى الصف ، ورميهم بالرصاص ، وبالتقتيل ونهب المدن وقت الحرب (كان ممن اشتركوا فى الحملة البولندية) وسألته عن جميع هذه التفاصيل .

سألته عن الجلد فى الصف ، فحدثنى طويلاً عند هذا الإجراء المخيف ، كيف كان الرجل يجُر مقيداً بين الجنود الذين صفوا صفين متقاربين وفى أيديهم السياط ، وكيف كانوا كلهم يَضْرِبون والضباط يمشون خلف الجنود وهو يصيحون : "اضرب بشدة اضرب بشدة ! » .

كان الرجل يصرخ بهذه الجملة فى نبرة الأمر ، فترى أنه يجد فى تذكُّره لهذه النبرة وإعادته لها نوعاً من اللذة .

وحدثنى عن جميع التفاصيل دون أن يبدو عليهُ ظل من ندم ، وكأنه يصف كيف كانت الثيران تُذبح ولحمها يطهى .

ولما حاولت أن أوقظ فيه شيئاً من الندم لكل هذه الذكريات استولت عليه دهشة لم تلبث أن تحولت إلى استنكار . قال :

– لا لا . لماذا ؟ لقد كان هذا كله عرفا متبعاً . هل كنت مذنباً ؟ هكذا كان يقضى القانون .

وأبدى مثل هذا الهدوء والخلو من كل أسف لذكر الفظائع التى اشتراك فيها ورآها تجرى ألف مرة فى تركيا وبولندا .

ماذا عسى أن يشعر الشيخ إن فهم الأمر الذى ينبغى أن يتبين له وهو على عتبة الموت : أنه ليس ثمة واسطة – ولا يمكن أن تكون – بين ضميره وبين الله فى هذه اللحظة ، وأنه لم يمكن ثمة وسيط بينهما –.وما كان يمكن أن يكون – فى اللحظة التى كان يؤمر فيها أن يعذب الناس ويقتلهم ! ماذا عسى أن يشعر إن فهم أنه ليس ثمة ما يمكن أن يكفر عن البشر الذى أنزله بالناس حين كان فى مقدوره ألا ينزله بهم ! إنه فهم أن هناك قانوناً أبدياً كان يعرفه دائماً وكان لزاما عليه أن يعرفه – القانون الذى يأمر بالحب والإحسان إلى الناس ؛ وأن ما سماه قانوناً كان خدعة كافرة سافرة ما كان ينبغى أن يخضع لها ! فظيع أن تفكر فى الصور التى تمر بعقله خلال لياليه المؤرقة على قبة الفرن ، والقنوط الذى لا بد أن يشعر به لو درى أنه حين كان فى مقدوره أن يفعل الخير أو الشر للناس لم يفعل إلا الشر ، وأنه حين فهم الآن ما الخير وما الشر لم يعد فى مقدوره أن يفعل شيئاً ، إلا أن يشعر بعذاب الندم الذى لا يغنى ! إن آلامه تكون فظيعة لو درى .

ولماذا نريد أن نعذبه ؟ لماذا نوجع ضمير شيخ فان ؟ أليس الأفضل أن نهون عليه؟ لماذا نثير الناس ونعيد ما مضى وانقضى منذ أزمان ؟

مضى وانقضى ؟ أى شئ مضى وانقضى ؟ أيكون شىء قد انقضى ونحن لم نبدأ بعد فى استئصاله وعلاجه ، بل لم نزل نتردد فى تسميته باسمه الصحيح ؟

نحن لا نشك مطلقاً أن إحراق المتهمين بالإلحاد واللجوء إلى التعذيب فى التحقيق كانا قسوة وجنوناً ، وكل طفل يدرك أن هذين العملين لم يكن لهما جدوى . ولكن رجال تلك الأيام كانوا لا يرون ذلك ، وكان العلماء الأذكياء يقررون أن التعذيب ضرورة للمجتمع البشرى ، أو شر لا بدمنه كالجلد والرق ، وقد مضى ذلك الزمن ، وأصبحنا لا نكاد نستطيع أن نتخيل كيف كانت عقول أولئك الناس القادرين على مثل هذه الأضاليل . ولكن هذا هو الذى كان فى كل العصور ، وهذا هو الذى يكون فى عصرنا ولا ريب - إلا أننا - مثلهم - عمى عن الفظائع التى نرتكبها .

أين التعذيب عندنا ؟ وأين العبودية ؟ وأين العصا ؟ تبدو لنا هذه الأشياء كما لو كانت غير موجودة . كما لو أنها وجدت مرة ثم ذهبت مع الزمن . ولكن هذا هو ما يبدو لنا فحسب ، لأننا لا نريد أن نفهم الماضى ، بل نغمض عيوننا حتى لا نراه .

إما إذا نظرنا خلفنا إلى الماضى نظرات فاحصة ، فإن موقفنا الحاضر وأسبابه سوف تتبدى لنا ، وإذا ما سمينا الإحراق والوسم والتعذيب وساحات الإعدام والقرعة العسكرية بأسمائها الحقيقية فسوف نجد على الفور الأسماء الحقيقية للسجون والإصلاحيات والتجنيد العام للحرب ، وللمدعين العموميين ورجال الشرطة ، وعندما نكف عن القول : لماذا نتذكر الأيام الخالية ؟ سنرى ونفهم ما يجرى اليوم .

عندما نرى من الجنون والقسوة أن نقطع رقاب الناس ، وأن ننتزع الحقيقة من أفواههم بكسر مفاصلهم ، سنرى مثل هذا الجنون وهذه القسوة أو أكثر منهما فى تعليق الناس على أعواد المشانق أو قذفهم فى حبس انفرادى أشبه بالموت أو أشد ، وفى البحث عن الحقيقة عن طريق المحامين المأجورين والمدعين العموميين .

وعندما نفهم أن من الجنون والقسوة قتل رجل ضال ، سنفهم أيضاً أنه أشد جنوناً ، وقسوة أن نلقى هذا الرجل فى إصلاحية للقضاء عليه قضاء مبرماً ، وعندما نفهم أن من الجنون والقسوة حشد الفلاحين للخدمة العسكرية ووسمهم بالنار كالماشية ، سنرى مثل هذا الجنون وهذه القسوة فى دعوة كل رجل فى الحادية والعشرين إلى الجندية وعندما ندرك مبلغ ما هنالك من جنون وقسوة فى نظام الحرس القديم ، سيتجلى لناكل ما هناك من جنون وقسوة فى نظام الخفراء والدوريات .

عندما نكف أخيراً عن إغماض عيوننا عن الماضى وقول : لماذا نتذكر الأيام الخالية؟ سنرى أن لعصرنا فظائعه أيضاً ، وإن تكن فى أشكال جديدة .

نحن نقول : لقد فرغنا من كل هذا ، لم يبق ثمة تعذيب اليوم لم يبق ثمة مثيلات للداعرة "كماترين "بعشاقها المطلقى السلطان ، لم يبق ثمة عبودية ولا ضرب حتى الموت ، ولكن هذا هو ما يبدو لنافقط ، فهناك ثلثمائة ألف رجل فى السجون والسخرة ، يُحشرون فى حجرة صغيرة منتنة ، ويموتون ميتة بطيئة جسماً وروحاً . نساؤهم وأطفالهم يتركون للجوع ، وأولئك الرجال محبوسون فى كهوف الظلم فى السجون ومستعمرات المذنبين ، ولا يفيد من الأسر القاسى المجنون إلا الحراس ، والسادة المطلقو السلطان على هؤلا العبيد .

وهناك عشرة آلاف من "ذوى الأفكار الخطرة " فى المنفى يحملون تلك الأفكار الخطرة إلى أقصى أرجاء روسيا وهم يفقدون رشدهم ويشنقون أنفسهم ، وألوف فى القلاع يقتلهم السجانون سراً ويدفعونهم إلى الجنون بالحبس الانفرادى ، وملايين الرجال تُطحن أجسامهم وأرواحهم فى عبودية أصحاب المصانع . ومئات الألوف من الرجال أجسامهم كلٌ خريف يتركون أسرهم وأزواجهم الشوابّ ويتعلمون القتل ويسيرون بنظام نحو الانحطاط .

لا حاجة إلى ذكاء كثير لكى ترى أن يومنا مثل الأمس ، وأن عصرنا ممتلئ بالفظائع نفسها ، وأنه سيأتى يوم تثير فيها قسوتها وجنونها دهشة الأجيال القادمة . إنه المرض نفسه ، وما هو بمرض أولئك الذين يستفيدون من هذه الفظائع .

فليستفيدوا مائة مرة أو ألف مرة فليبنوا الأبراج والملاعب وليدعوا إلى حفلات الرقص وليمتصوا دماء الشعب . ليَجْلد "العصا"الناس حتى الموت وليشنق "پوبيدونستوف[1] و«أورزفسكى» المئات سراً فى القلاع ، ولكن ليقفوا عند هذا الحد ، لا يُحطمن روح الشعب ولا يخدعنه بإرغامه على الاشتراك فى ذلك كله كما فعل صاحبى هذا الجندى القديم ! .

إن المرض المخيف هو فى الادعاء بأنه يمكن أن يكون ثمة قانون للإنسان أقدس أو أسمى من قانون حب الجار ؛ فى الخدعة التى تخفى عن الإنسان أنه قد يجوز له أن يفعل أشياء كثيرة ليرضى رغبات رجال آخرين ، ولكن هناك شيئاً واحداً يجب عليه بوصفه إنساناً ألا يفعله إرضاءً لرغبة إنسان آخر : وذلك أن يعمل ما نهى الله عنه ، فيعذب إخوته البشر ويقتلهم .

(١) قانونى روسى ، وصل إلى مراكز عالية فى الدولة فى عهد القيصر ألكسندر الثالث ، وأدت أفكاره المحافظة إلى اشتعال حركة الاضطهاد الدينى . (المترجم) .

منذ ألف وثمانمائة عام سأل الفريسيون : هل يجب أن يدفعوا الضرائب لقيصر ؛ فأجيبوا بهذه الكلمات : أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

ولو كان فى الناس أثارة من إيمان ، ولو كانوا يشعرون بأقل ما يجب عليهم نحو الله لشعروا بواجبهم قبل كل شئ نحو ما علمه الله للناس بالكلمات حين قال : "لا تقتل" وحين قال : "فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا انتم أيضاً بهم وحين قال "تحب جارك كنفسك" بل نحو ما نقشه الله فى قلب كل إنسان : حب الجار والإحسان إليه ، وكراهة قتل أخيه الإنسان وتعذيبه .

لو كان الناس يؤمنون بالله ما نكلوا عن أول واجباتهم نحوه : ألا يعذّبوا ولا يقتلوا ؛ ولكان للكلمات : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله – معنى واضح محدد عندهم ؛ ولقال الرجل المؤمن لقيصر أو لمن يكون : – إلا ما نهى الله عنه .

إن أراد الإمبراطور مالى فليأخذ ، منزلى ، مجهودى ، فليأخذ أطفالى ، نفسى ، فليأخذ . فلا شئ منها لله ، أما إن أرادنى الإمبراطور على أن أرفع يدى بالعصا وأهوى بها على ظهر جارى فهذا لله عملى هو حياتى ، هو ما أحاسب عليه أمام الله ، وما نهانى الله عنه فلن أفعله ولو أراده الإمبراطور ، لا أستطيع أن أوثق إنساناً أو أسجنه أو أضطهده أو أقتله – كل ذلك هو حياتى وحياتى لله ، ولا أستطيع أن أعطيها لغير الله.

إن الكلمات : أعطوا ما لله لله ، تعنى لنا أن نعطى الله شموعاً وصلوات ، كل ما لا يحتاج إليه أحد فما ظنك بالله ، أما الباقى كله ، حياتنا كلها ، محراب روحنا ، كل ما لله ، فقد أعطيناه لقيصر ، أى إننا أعطيناه لرجل كريه بعيد (فكهذا كان اليهود ينظرون إلى قيصر) .

أليس هذا مخيفاً ؟ أيها الناس ! تدبروا أمركم! .

ثلاثة أمثال

المثل الأول

كان هناك مرج جميل ؛ وقد نبتت فيه الحشائش ، وكان أصحاب المرج يجزونها ولكنها لا تزال تزيد . وذات يوم جاء زارع صالح حكيم إلى أصحاب المرج ونصحهم نصحاً كبيراً نافعاً ، وقال لهم أيضاً إن الحشائش يجب ألا تجزّ فإن ذلك لا يزيدها إلا انتشاراً ؛ لكن يجب أن تنزع من جذورها .

وسواء أنسى أصحاب المرج من بين ما وصاهم به الزارع الصالح وصيته لهم ألا يجزوا الحشائش بل ينزعوها من الجذور ، أم فكروا لأنفسهم ورأوا ألا يتبعوا هذا الأمر ، فانهم على كل حال أهملوا النصيحة ألا يجزوا الحشائش بل ينتزعوها من الجذور . وعملوا كأنهم لم يسمعوا هذه النصيحة قط ، واستمروا يجزون الحشائش ويساعدون على نموها بذلك ، ومع أن الناس ظلوا فى السنين التالية يأتون ويذكرون أصحاب المرج بنصيحة الزارع الصالح الحكيم ، فإن هؤلاء لم يكفوا عن عملهم ، واستمروا على ما كانوا عليه ، حتى أصبح جز الحشائش عند ظهورها عادة متبعة ، بل شعيرة مقدسة والمرج لا يزال يكتظ بالحشائش حتى غلبت عليه ، وشكا الناس وفكروا فى وسائل كثيرة للإصلاح وكانت الطريقة الوحيدة التى لم يستعملوها هى تلك التى نصح بها الزارع الصالح منذ سنين طويلة ، ثم اتفق آخر الأمر أن رجلاً لاحظ ما صار إليه المرج من حال سيئة ، واكتشف بين وصايا الزارع المنسية قوله إن الحشائش يجب ألا تجز بل تقلتع من الجذور ، فأوضح لأصحاب المرج أنهم يعملون عملاً غير رشيد ، وأن الزارع الصالح الحكيم قد بين لهم منذ زمن طويل خطأهم فيما يعملون .

فماذا حدث ؟

لم يختبروا صدق النذير ، ليكفوا عن جز الحشائش إن كان صحيحاً ، أو يثبتوا للرجل فساد زعمه إن كان خطأ ، ولم يقرروا أن وصايا الزارع الصالح الحكيم كانت بغير أساس ، أو أنهم غير ملزمين باتباعها ، لم يفعلوا شيئاً من ذلك ، ولكنهم ضاقوا بالنذير وأغلظوا القول للرجل ، ودعاه بعضهم ملتاثاً مغروراً لأنه حسب نفسه الوحيد بين البشر الذى فهم وصية الزارع ؛ ودعاه غيرهم متنبئاً أفاكا خبيثاً : ونسى آخرون أنه لم يأت برأى من عنده ، بل ذكّر بوصايا الزارع الحكيم الذى يبجله الجميع ،

فزعموه شخصاً خطراً يريد نشر الحشائش وحرمان الناس من مرجهم ، فهو يقول إن الحشائش يجب ألا تجز ، وإذا لم نقض عليها - هكذا كانوا يتكلمون ، متناسين أن الرجل لم يقل إن الأعشاب يجب ألا يقضى عليها ، بل إنها يجب أن تقلتع بدلاً من أن تجز - فإن الحشائش سوف تزحم المرج وتتلفه إتلافاً ، ولماذا أعطينا المرج إن كنا سنزرعه بالحشائش ؟ .

ورسخ الزعم بأن هذا الرجل ملتاث أو أفاك ، أو مريد للبشرية الشر ، فكان كل واحد ينبذه ويستهزئ به ومهما أعلن الرجل لم يرد نشر الحشائش بل على العكس كان يرى القضاء عليها من أول ما ينبغي أن يشتغل به الفلاح ، كما علم الزارع الصالح الحكيم الذى لم يكن هو إلا مردداً لكلماته ، مهما كرر الرجل هذا القول فإن الناس لم يصغوا إليه ، إذ كان قد تقرر أنه يسئ تأويل كلمات الزارع الصالح ، أو إنه شرير يحض الناس على حماية الحشائش وإنمائها بدلاً من القضاء عليها .

كان هذا مَثَلى حين أشرت إلى وصية الإنجيل : "لا تقاوموا الشر. " لقد علم المسيح هذه الوصية ، علمها من بعده كل تلاميذه المخلصين وسواء أهمل الناس الوصية أم لم يفهموها أم شق عليهم أن يطيعوها ، فقد كانت كلما مر عليها الزمن ازداد الناس لها نسياناً ، وازدادت حياتهم عنها بعداً ، حتى بلغ الأمر ما هو عليه الآن ، فأصبحت هذه الوصية تبدو جديدة لم يسمع بها وغريبة بل حمقاء ولقيت ما لقى الرجل الذى رد الناس إلى الوصية القديمة ، وصية الزارع الصالح الحكيم ، ألا يجزوا الحشائش بل ينتزعوها من الجذور .

وكما تناسى أصحاب المرج أن النصيحة لم تكن بترك القضاء على الحشائش بل بأن يقضوا عليها بطريقة رشيدة ، وقالوا : لن نسمع لهذا الرجل ، إنه ملتاث ، يأمرنا ألا نجز الحشائش بل نتركها تنمو - كذلك قال الناس حين سمعوا نذيرى أن تعليم المسيح يقضى ألا يُقاوم الشر بالعنف بل يقتلع فروعاً وأصولاً بالحب : لن نسمع لما يقول ، إنه ملتاث ، يشير علينا بأن لا نقاوم الشر حتى يتغلب الشر علينا .

لقد قلت إن تعليم المسيح يقضى أن الشر يجب ألا يدفع بالشر ، وإن كل مقاومة عنيفة لا تنتج إلا زيادة الشر ، وإن تعليم المسيح يقضى بأن الشر لا يمحوه إلا الخير ، باركوا لا عنيكم ، وصلوا لأجل الذي يسيئون إليكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، أحبوا أعداءكم فلا يكون لكم عدو .

لقد قلت إن تعليم المسيح يقضى بأن حياة الإنسان كلها ليست إلا صراعاً مع الشر ، ومحاربة للشر بالعقل والحب ، ومن بين وسائل الحربْ جميعاً نفى المسيح الوسيلة الوحيدة غير الرشيدة : محاربة الشر بالعنف التى تعنى مقاومة الشر بالشر .

وفهمت كلماتى هذه كما لو كنت قلت إن المسيح علمنا ألا نقاوم الشر ، ووقع هذا التحريف لكلماتى وكلمات المسيح موقع الرضا والترحيب من أولئك الذين بنيت حياتهم على العنف ، وهم من أجل ذلك يعتزون بالعنف ، وسلمت الكافة بأن التعليم : لا تقاوموا الشر ، تعليم خاطئ أحمق كافر خطر من كل وجه ، ومضى الناس ينتجون الشر زاعمين أنهم يقضون عليه .

المثل الثانى

كان الناس يتجرون فى الدقيق والزبد واللبن وسائر المأكولات . وأراد كل رجل أن يربح أكثر من جاره ويثرى فى أقصر وقت ممكن ؛ فجعلوا يخلطون بضائعهم بشتى العناصر الرخيصة الضارة ؛ يلقون الجبش والجير فى الدقيق ، ويضعون الدهن فى الزبد والماء والطباشير فى اللبن ، وسارت الأمور كما أحبوا ما دامت الأطعمة بعيدة عن الشارين ، فباع التجار بضائعهم لأصحاب الدكاكين ، وباعها أصحاب الدكاكين للباعة الجوالين .

وكانت هناك متاجر ودكاكين كثيرة ، فبدت التجارة رائجة واطمأن التجار ورضوا ، ولكن المشترين فى المدينة – وهو اللذين كانوا لا ينتجون لأنفسهم ما يحتاجون إليه ، وكانوا من ثمة مضطرين إلى شراء كل شئ – أصابهم الضرر ، ووجدوا أنفسهم فى ضيق .

كان الدقيق رديئا ، وكذلك كان الزبد واللبن ، ولكن الشارين فى المدينة مضوا يقبلون هذه البضائع المغشوشة إذ لم يكن فى أسواق المدينة أطعمة غيرها ، وعزوا سوء مذاق الطعام وأضراره إلى أنفسهم وإلى الخطأ فى إعدلد ما يأكلون غير أن أصحاب الدكاكين مضوا يزيدون المواد الرخيصة فى بضائعهم .

وطال الزمن على هذه الحال ، وسكان المدينة كلهم يعانون منها ، ولكن أحدهم لا يجرؤ على التصريح بما يعانيه .

ثم جاءت امرأة من الريف كانت تقدم لأسرتها دائماً أطعمة مصنوعة فى البيت ، وكانت هذه المرأة قد قضت عمرها تعد الطعام ، وإن لم تكن طاهية من الطراز الأول فقد كانت على أية حال تعرف كيف تخبز العيش وتطهو وجبة طيبة .

اشترت هذه المرأة أطعمة من المدينة ، وبدأت تخبز وتطهو . فكان العيش لا يصلح عند الخبز بل يتشقق ويتفتت ، والفطائر المنضجة فى الدهن تخرج كريهة المذاق ، وإذا تركت المرأة اللبن يتخثر ولم تتكون عليه قشدة ، فارتابت المرأة على الفور فى جودة الأطعمة ، وفحصتها بعناية ، فتحقق ارتيابها ، إذ وجدت فى الدقيق جيراً ، وفى الزبد دهناً ، وفى اللبن طباشيرا ولما ثبت لها أن جميع الأطعمة فاسدة ذهبت إلى الدكان ، ووبخت الباعة توبيخاً مراً ، وطالبتهم بأن يبيعوا بضائع جيدة صحية غير مغشوشة

أو يتركوا التجارة ويغلقوا دكاكينهم ، ولكن أصحاب الدكاكين لم يبالوا بالمرأة ، وقال لها إن المدينة كلها لم تزل تشترى منهم منذ سنين كثيرة ، بل إنهم ظفروا بالجوائز تقديراً لبضائعهم ، وأشاروا إلى الأوسمة على لافتاتهم .

وأصرت المرأة قائلة : لاحاجة لى بالأوسمة ، إن حاجتى إلى أطعمة جيدة ، حتى إذا أكلت أنا وأبنائى لم تضر معداتنا .

قال أصحاب الحوانيت : مالك يا خالة ؟ لعلك لم ترى فى حياتك دقيقاً جيداً ، ولا زبدة جيدة - وأخذوا يعرضون عليها الدقيق الأبيض الناصع فى صناديقه المدهونة بالزيت - والزبدة المقلدة الحقيرة المنضدة فى أطباق جميلة ، والسائل الأبيض فى القوارير اللامعة الشفافة .

فأجابت المرأة : أنا أعرف حقيقة هذا ، لأنى لم أفعل شيئاً طول حياتى إلا الحصول على طعامى لآكله أنا وأطفالى ، إن بضائعكم مغشوشة وهذا هو البرهان - وأرتهم الخبز الردئ ، والدهن فى الفطائر ، والطبقة الرأسية فى أسفل اللبن - إن بضائعكم يجب أن ترمى فى النهر ، أو تحرق ، وتحل محلها أشياء صالحة .

وظلت المرأة واقفة أمام الدكان لا تكف عن الصياح ، وكانت تردد الشئ نفسه لكل شارٍ ، يمر ، حتى بدأ الزبائن يساورهم الشك .

ورأى أصحاب الدكاكين أن المرأة الجسور قد تضر بتجارتهم فقالوا للزبائن : أنظروا يا قوم إلى هذه المرأة المجنونة ، تريد أن يموت الناس من الجوع ، تريد أن يرمى الطعام فى النهر أو يحْرَق وماذا تأكلون إن فعلنا كما تقول ، ولم نعد نبيع لكم طعاماً ؟ لا تسمعوا لها إنها ريفية جاهلة لا تعرف شيئاً عن الأطعمة ، بل تنتقدنا لأنها تحسدنا ، لأنها فقيرة تريد أن يكون كل إنسان آخر فقيراً مثلها .

هكذا خاطب أصحاب الدكاكين الجمع الذى احتشد ، مخفين أن المرأة إنما أرادت إتلاف الأطعمة لتحل أشياء جيدة محل الرديئة .

وثار الجمع بالمرأة وراحوا يسلقونها بألسنتهم ، ومهما قالت إنها لم ترد إتلاف المؤن بل على العكس إنها أنفقت كل عمرها تعد الطعام لغيرها ولنفسها ، وإنها لم تطلب إلا أن يمتنع الناس الذين تكفلوا بتموين إخوانهم عن تقديم السم لهم فى الأشياء الضارة التى يقدمونها على أنها طعام - مهما تكلمت أو قالت فما كان الناس ليسمعوا ، فقد تقرر أنها تريد أن تسلب الناس أقواتهم .

كان هذا مَثَلى ومَثَل أفكارى عن العلم والفن فى عصرنا . فقد عشت على هذا الطعام عمرى ، وجهدت أن أطعم الآخرين منه كلما استطعت متقناً أو غير متقن ، وبما أنى أراهما طعاماً لا متجراً ولا ملهىً ، فأنا أعرف معرفة لا شك فيها متى يكون الطعام طعاماً ومتى لا يكون طعاماً إلا بمظهره ، وعندما ذقت الطعام الذى يباع فى سوق العلم والفن فى عصرنا وحاولت أن أطعم منه صغارى وجدت أن معظمه ليس بطعام ، وعندما قلت إن العلم والفن اللذين يبيعهما البائعون فى سوق الفكر دهن أو على الأقل مغشوشان بأشياء غريبة عن العلم الحقيقى والفن الحقيقى ، وإنى عرفت ذلك لأن المنتجات التى اشتريتها من سوق الفكر كانت عسيرة الهضم بل ضارة بى وبأهلى- عندما قلت ذلك راح الناس يوبخوننى ويشتموننى ويملئون أذنى بأنى ما قلته إلا لأنى جاهل لا أعرف كيف أتناول هذه الأشياء الرفيعة ، ولكننى عندما بدأت أثبت أن الناس الذين يتجرون فى هذه البضائع الفكرية لا يكفون عن اتهام بعضهم البعض بالغش ، وعندما نبهت إلى أن شتى الأشياء الرديئة الضارة كانت تقدم للناس دائماً تحت اسم العلم والفن ، وأن ثمة خطراً كبيراً فى أن يكون الأمر فى أيامنا كما كان بالأمس ، وأن الأمر جد كل الجد ، وأن سم الفكر أضر ألف مرة من سم الجسم ، ولذلك يجب أن تُفحص المنتجات الفكرية التى تقدم لنا على أنها طعام أتم الفحص ، وينفى منها كل زائف ضار- عندما قلت ذلك لم يكتب إنسان واحد بياناً واحداً أو كتاباً واحداً ليدحض كلماتى . ولكن الناس فى الدكاكين صاحوا بى كما صاحوا بالمرأة : إنه مجنون ! يريد القضاء على العلم والفن وهما حياتنا . احذروه ولا تسعموا له ! تعالوا إلينا ، إن لدينا أحدث البضائع الأجنبية .

المثل الثالث

كان السائحون يقطعون الطريق . ثم اتفق أنهم خرجوا عن الجادة ، وأصبح الممر الذى عليهم أن يسيروا فيه خشنا ، يمر خلال مستنقعات وأدغال وأشواك ، وتعترضه عروق من الخشب ؛ والتقدم لا يفتأ يزداد عسراً .

وهنا انقسم السائحون طائفتين : طائفة قررت أن تواصل السير فى الاتجاه الذى أخذوا فيه ، وقالوا لأنفسهم وللآخرين إنهم لم يضلوا قط عن الوجهة الصحيحة ، وهم لا شك واصلون إلى الغاية من رحلتهم ، وطائفة قررت أنهم يجب أن يبحثوا عن الطريق، لأن الاتجاه الذى يسيرون فيه قد تبين خطؤه ، ولولا ذلك لبلغوا مقصدهم منذ زمن طويل ، ولكنهم ليبحثوا عن الطريق يجب أن يسرعوا بقدر ما يستطيعون فى كل اتجاه وهكذا تفرق السائحون على حسب الرأيين : فريقا قرر أن يمضى قدماً ، وفريقاً قرر أن يتقدم فى كل اتجاه . وكان هناك رجل واحد لم يوافق على أىٍّ من الرأيين ، فقال إن عليهم أن يتقدموا فى الاتجاه السابق نفسه . أو يهرولوا فى كل اتجاه أملاً فى العثور على الطريق الصحيح ، عليهم أن يقفوا ليفكروا فى الأمر ، وبعد أن يفكروا فيه يتبعون أحد السبيلين ، ولكن المسافرين كانوا مهتاجيين من جَوَلانهم جزعين لحالتهم ، شديدى الرغبة فى تعليل أنفسهم بالأمل أنهم لم يضلوا ، بل انحرفوا عن الطريق قليلاً وسرعان ما سيهتدون إليه ؛ وكانوا قبل ذلك كله حريصين غاية الحرص على أن يهدئوا خوفهم بمواصلة السير ، فأنكرت الطائفتان رأى الرجل ، وعنفوه وازدروه وقال جماعة منهم إن هذه النصيحة هى خطة العجز والجبن والكسل .

وقال غيرهم : ما أحسنها طريقة أن نصل إلى غايتنا بالوقوف هنا والكف عن السير ! وقال آخرون : هذا هو معنى أن تكون إنساناً ، لهذا منحنا القوة ، ولكى نحارب ونصل ، ونتغلب على الصعاب بدلاً من أن نخضع ونستكين .

ومهما قال الرجل الواحد الذى خرج على الجماعة إن السير فى الاتجاه الخطأ لن يقربهم من غَايتهم بل سوف يبعدهم عنها ، وإن التقلب من وجهة إلى وجهة لن يبلغهم مقصدهم أيضاً ، وأن الطريقة الوحيدة لبلوغ الغاية هى أن يستنبؤا الشمس والنجوم عن وجهتهم ثم يسيروا فى هذه الوجهة ، وإنهم كى يفعلوا ذلك يجب أن يقفوا - يقفوا لا ليجمدوا بل ليجدوا الطريق الصحيح ثم يتقدموا على هدى فى هذا الطريق ، ولكنهم ليفعلوا كُلا من هذين الأمرين يجب عليهم أولاً أن يقفوا ويفكروا - مهما قال ذلك فإن أحداً لم يصغ إليه .

ومضت الطائفة الأولى فى الاتجاه الذى أخذت فيه ، وانطلقت الطائفة الثانية من ناحية إلى ناحية على غير هدى ، ولكن إحداهما لم تقترب من هدفهم المشترك قليلاً ولا كثيراً بل إنهم لم يخرجوا من الأدغال والأشواك ، وما برحوا يتخبطون بينها .

هذا مَـثَلى حين حـاولت أن أبدى شكى فى أن الطريق الذى أدى بنا إلى حـرج المسألة العمالية ومستنقع التسلح المستمر حيث نوشك أن نتردى لم يكن هو الطريق الذى ينبغى أن نقطعه ، واعتقادى أن من الجائز جداً أن نكون قد خرجنا عن الجادة ، وأننا لذلك يجب أن نتوقف عن الجولان الذى تبين أنه يطوح بنا ، ونسـأل أنفسنا قبل كل شئ راجـعين إلى الأسـاس الشـامل الخـالد من الحق المنزل : هل نحن نسـيـر فى الاتجاه الذى نويناه ؟

ولم يقدم أحد جواباً عن هذا السؤال ، ولم يقل أحد: "إننا غير مخطئين فى إتجاهنا إننا لا نتخبط على غير هدى بل نحن على ثقة من سبيلنا لكيت وكيت من الأسباب" ، ولم يقل إنسان : "لعلنا أخطأنا السبيل " ولكن لدينا وسيلة لا تخيب لتصحيح أخطائنا دون أن نكف عن السير . " لم يقل أحد شيئاً من هذا ، بل استشاطوا كلهم غضباً ، وأظهروا أنهم جرحوا جرحاً عميقاً ، وأسرعوا يتصايحون ليغرقوا صـوتى الوحيد : ألا يكفينا ما نحن فيه من كد وتعب حتى يأتى رجل يدعو إلى الجمود والخمول وترك العمل ! » بل إن بعضـهم أضافوا متـعـجبين : « الجمود » وصاحت الطائفتان – من آمنت بأن الخلاص فى مواصلة السير فى الاتجاه نفسه مهما يكن ، ومن رأت الخلاص فى التقدم على غير هدى فى كل اتجاه : «لا تسعموا له – تقدموا ! خلفنا!» .

لماذا نقف ؟ لماذا نفكر ؟ أسرعوا ، سينتهى كل شئ كما ينبغى .

لقد خرجت البشرية عن الجادة ، ولعلك تحسب أن أول جهد وأهم جهد يجب بذله ليس الإسراع فى التقدم الذى أدى بنا إلى ما نحن فيه من شر ، بل الوقوف ، ولعلك تحسب أن الوقوف وحده هو الذى يمكن أن يتيح لنا فهم موضعنا وكشف الاتجاه الذى يجب أن نتبعه لنبلغ السعـادة الحقيقية ، لا سـعـادة الأفراد ولا سـعـادة جمـاعـة من الجماعات ، بل السعادة الحقيقية الشاملة ، سعادة البشرية التى يسعى إليها كل الناس ، ويتوق إليها قلب كل إنسان ، لكن ماذا يحدث ؟

ينظر الناس فى كل فكرة يمكن أن تخطر على البال ، إلا الفكرة الوحيدة التى قد تكون فيها نجاتهم – أعنى أن يقفوا ولو لحظة ، ولا يمضوا يزيدون متاعبهم ببذل

الجهد فى اتجاه خاطئ ، يشعر الناس بتعاسة حالتهم ، ويجربون كل وسيلة للخلاص ، ولكنهم يأبون كل الإباء أن يفعلوا الشئ الوحيد الذى لا شك أنه ينقذهم ، وإذا نصحتهم أن يفعلوه أسخطهم هذا النصح مالا يسخطهم أى شئ آخر .

إن كان ثمة بقية شك فى إننا قد ضللنا ، فإن موقف الناس إزاء النذير أن يتدبروا أمرهم ، يثبت بغاية ما يكون من الوضوح مبلغ ضلالنا المؤس ، وضياعنا المخيف .

الملك أسرحدون

كان الملك أسرحدون ملك أشور قد فرغ من غزو مملكة الملك ليلى ، ونهَبَ كل المدن وأحرقها وحمل جميع السكان إلى بلاده، وقتل المحاربين، ووضع الملك ليلى فى قفص .

بينما كان الملك أسرحدون راقداً على سريره ليلاً ، أخذ يفكر كيف يقتل الملك ليلى وفجأة سمع صوتاً بالقرب منه ، ففتح عينيه ورأى شيخاً معمراً ذا لحية طويلة شهباء وعينين وديعتين قال الشيخ المعمر :

– هل تريد إعدام ليلى ؟

فأجاب الملك :

– نعم ، غير أنى لم أهتد بعد إلى القتلة التى سأنزلها به .

قال الشيخ المعمر :

– ولكنك أنت ليلى .

قال الملك :

– هذا غير صحيح ، أنا أنا ، وليلى هو ليلى .

قال الشيخ المعمر :

– أنت وليلى واحد ، إنك مخطئ إن حسبت أنك لست ليلى ، وأن ليلى ليس إياك .

قال الملك :

– أنا مخطئ . ألست راقداً هنا على سرير وثير ، يحيط بى العبيد الذين يطيعون أمرى ؟ ألست على أن أولم لأصدقائى غدا كما فعلت اليوم ، بينما يقبع ليلى كطائر فى قفص ، وغدا يتلوى على خشبة التعذيب ، ويدلع لسانه حتى يموت وتمزق الكلاب لحمه؟ قال الشيخ المعمر :

– إنك لا تستطيع القضاء على حياته .

قال الملك :

– والأربعون ألف محارب الذي قتلتهم وكدستهم كالجبل ؟ إننى حى وهم لا وجود لهم ، أما ترى أنى قادر أن أقضى على الحياة ؟

– وأنى علمت أنهم غير موجودين ؟

– إنى لا أراهم ، وفوق هذا إنهم قاسوا العذاب وأنا لم أقاسه . كان مصيرهم سيئاً ومصيرى حسناً .

– هنا أيضاً تخطىء . لنفسك سببت الألم لا لهم .

– قال الملك :

– أنا لا أفهمك .

– أتريد أن تفهم ؟

– نعم أريد ذلك .

فقال الشيخ المعمر :

– إذاً تعال ، وأشار إلى حوض ماء .

فنهض الملك وذهب إلى الحوض .

– اخلع ثيابك واخط فى الحوض .

ففعل أسرحدون كما أمره الشيخ المعمر .

قال الشيخ المعمر وقد غرف ماء فى إناء :

– إذا بدأت أصب الماء فوق رأسك الآن فاحن رأسك تحته .

وأمال الشيخ الإناء فوق رأس الملك ، فأحنى الملك رأسه تحته .

وما كاد الملك أسرحدون يحنى رأسه حتى شعر أنه ليس أسرحدون بل شخصاً آخر ؛ وفى اللحظة التى شعر فيها أنه شخص آخر رأى نفسه راقداً على سرير فاخر وإلى جواره امرأة جميلة .

ولم يكن قد رأى هذه المرأة قط ، ولكنه علم أنها زوجته ، ونهضت المرأة وقالت له:

ليلى ، يا زوجى العزيز ، لقد تعبت من عناء الأيام الماضية ، ولذلك نمت أكثر من عادتك ، ولكنى حرست نومك ولم أوقظك ، غير أن الأمراء ينتظرون الآن فى البهو الكبير ، فارتد ثيابك واخرج إليهم .

وعرف أسرحدون من هذه الكلمات أنه ليلى ، فلم يدهش بل أدهشه أنه لم يعرف ذلك من قبل ، ونهض ، وارتدى ثيابه ، ودخل البهو الكبير حيث كان الأمراء فى انتظاره.

وحيا الأمراء ملكهم ليلى بانحناءات عميقة ، ثم ظلوا قائمين حتى أمرهم فاتخذوا مجالسهم أمامه ، وبدأ الكلامَ أكبرهُم سناً .

لقد تجاوزت إهانة الملك الشرير أسرحدون حد الاحتمال ووجب إعلان الحرب .

ولكن ليلى لم يوافق ، بل أمر بإيفاد الرسل إلى أسرحدون ليحتكموا إلى ضميره ؛ وصرف ليلى الأمراء ثم عين رسله من الأشراف ولقنهم تفصيلات الرسالة التى كان عليهم أن يحملوها إلى الملك أسر حدون .

ولما فرغ من ذلك ، خرج أسر حدون ، الذى كان يشعر بأنه ليلى ، إلى الجبال لصيد حمر الوحش ، وابتسم له الحظ فقتل بنفسه حمارين ، ثم عاد إلى داره وأكل وشرب مع أصحابه وشاهد رقصات الجوارى .

وفى اليوم التالى نزل كعادته إلى ساحة القصر حيث كان أصحاب المظالم والشاكون والمتهمون فى انتظاره ، فعقد مجلسه ، ثم خرج ثانية إلى الصيد وهو رياضته المفضلة ، ووفق فى ذلك اليوم إلى قتل لبوة عجوز وأخذ شبليها .

وبعد الصيد أكل وشرب ثانية مع أصحابه ، واستمتع بالموسيقى والرقص ، وأمضى المساء مع زوجته المحبوبة .

وكذلك مرت الأيام والأسابيع ، وهو ينتظر عودة الرسل الذين بعثهم إلى الملك أسرحدون ، الرجل الذى كانه فى وقت من الأوقات .

وأخيراً عاد الرسل بعد شهر ، وقد جدعت أنوفهم واصطلمت آذانهم .

وبعث الملك أسرحدون إلى ليلى أن ما حدث لرسله سيحدث له أيضاً إن لم يسارع بإرسال جزية من الذهب والفضة وخشب السرو ، وإن لم يحضر بنفسه إظهاراً لطاعته.

ودعا ليلى - الذى كان أسرحدون فى وقت من الأوقات - أمراءه ثانية وشاورهم فيما يجب عمله فاتفق الجميع على أنهم يجب ألا ينتظروا هجوم أسرحدون بل يغزوا بلاده ، ووافق الملك ، وجعل نفسه على رأس جيشه ، وخرج للقتال ، وواصلوا سيرهم سبعة أيام ، والملك يعرض جيشه كل يوم ، ويثبت عزائم جنده .

وفى اليوم الثامن التقى جيشه بجيش أسرحدون فى الوادى الأفيح على ضفاف النهر ، وأبلى جنود ليلى بلاء حسناً ولكن ليلى (الذى كان أسرحدون فى وقت من الأوقات) رأى العدو ينحدر كالنمل من على الجبال ، ويكتسح السهول ، ويوقع بجيشه فقذف بنفسه فى عربته الحربية إلى أتون المعركة ، وهو يطعن فى العدو ويمزق ، ولكن مقاتلة ليلى كانوا مئات ، ومقاتلة أسر حدون ألوفاً وشعر ليلى بنفسه يُجرح ويؤسر .

ومشى تسعة أيام مقيداً فى السلاسل مع غيره من الأسرى ، بين جنود أسرحدون ، وفى اليوم العاشر أحضر إلى نينوى ، ووضع فى قفص . وكان ليلى يقاسى عذاب الجوع ولهيب الجروح ولكن آلام الذل والقهر كانت عليه أقسى ، فقد وجد نفسه عاجزاً عن أن يجزى عدوه عما أنزله به من شر .

شئ واحد كان يستطيع أن يفعله : ألا يسمح لعدوه أن يلتذ بعذابه ، ولهذا قرر بعزم رجل أن يتحمل كل ما يحدث له دون أن يشكو .

وظل عشرين يوماً فى قفصه ينتظر الموت ، ورأى أقاربه وأصدقائه يؤخذون إلى ساحة الإعدام ، وسمع أنين الذين قطعت أيديهم وأرجلهم أو سلخ جلدهم وهم أحياء ، فلم يبد انزعجاً ولا شفقة ولا خوفاً ورأى الخصيان يقودون زوجته المحبوبة فى السلاسل ، وعرف أنهم يأخذونها لتكون جارية لأسرحدون فتحمل ذلك أيضاً دون أن يشكو .

ثم فتح جلادان القفص ، وقيدا يديه من خلفه بسير ، وقاداه إلى ساحة الإعدام المخضبة بالدماء ، ورأى خشبة التعذيب الدامية التى انتزع من فوقها جسد صديقه منذ لحظات ، وعرف أنهم لم يُخلوا الخشبة إلا ليعدموه .

ونزعت عنه ملابسه ، وارتعد ليلى لنحول جسمه الذى كان فيما مضى قوياً جميلاً .

وأمسك جلادان جسمه من حرقفتيه ، ورفعاه وهمّا بوضعه على الخشبة .

وقال ليلى لنفسه : الموت أمامى ، الفناء ! ونسى عزمه أن يحتفظ بهدوء الرجولة حتى النهاية ، فبكى وسأل العفو ، ولكن أحداً لم يسمعه .

قال لنفسه : ولكن هذا مستحيل لابد أنى نائم هذا حلم ، وهَّم ليستيقظ ، قال لنفسه : وبعد فأنا لست ليلى ، إننى أسرحدون .

وسمع صوتا يقول : " أنت ليلى ، وأنت أسرحدون . » وشعر بأن تنفيذ الإعدام يبدأ ، فصرخ ، ورفع رأسه من الحوض ، وكان الشيخ المعمر منحنياً فوقه يصب بقية الماء من الإناء على رأسه .

قال أسرحدون :

– ما أقسى العذاب الذى كابدته ! وما أطوله !

فسأل الشيخ المعمر :

– ما أطوله ؟ إنك لم تزد على أن حنيت رأسك ، وسرعان ما رفعته ثانية ، انظر! إن الماء فى الإناء لم يفرغ بعد هل تفهم الآن ؟

ولم يحر أسر حدون جواباً ، ولكنه نظر إلى الشيخ المعمر فى فزع ومضى الشيخ المعمر يقول :

– هل تفهم الآن ليلى وإياك واحد ، وأن المقاتلة الذين أسلمتهم إلى الموت هم معك واحد ، وليس المقاتلة فحسب بل الحيوانات التى قتلتها فى صيدك وأكلتها فى ولائمك ؛ لقد كنت تحسب أن الحياة فيك أنت وحدك ، ولكننى مزقت قناع الخطأ ، فرأيتَ أنك أوقعت بنفسك كل شر أوقعته بغيرك ، هناك حياة واحدة فى كل واحد ، وأنت بمفردك لست إلا جزءاً من تلك الحياة ، وفى ذلك الجزء وحده ، فيك أنت ، يمكنك أن تجعل الحياة خيراً أو شراً ، أعظم أو أحقر . يمكن أن تجعل الحياة خيراً فى نفسك بأن تهدم الأسوار التى تفصل حياتك عن حياة سائر الكائنات ، وتنظر إلى سائر الكائنات كما تنظر إلى نفسك ، وتحبهم ، ولكن ليس فى مقدورك أن تقضى على الحياة فى الكائنات ، غيرك فحياة الكائنات التى قتلتها قد غابت عن بصرك ولكنها لم تنقطع عن الوجود. لقد حسبت أن تطيل حياتك وتقصر حياة غيرك ، ولكنك لا تستطيع ذلك فعند الحياة لا زمان ولا مكان ، الحياة لحظة ، والحياة ألف سنة ، وحياتك وحياة كل كائن ظاهر أو خفى فى العالم واحد ، إننا لا نستطيع القضاء على الحياة ولا تحويلها ، فليس هناك إلا حياة واحدة ، وكل ما عدا ذلك باطل .

هكا تكلم الشيخ المعمر ، ثم اختفى .

وفى الصباح أمر الملك أسرحدون بإطلاق سراح ليلى وجميع الأسرى ، وأمر ألا يُعدم أحد بعد ذلك .

وفى اليوم التالى دعا ابنه أشور بانيبال وسلم إليه العرش ، أما هو فخرج إلى الصحراء ، وتأمل فيما تعلمه ، ثم راح يطوف بالمدن والقرى يعظ الناس أن الحياة كلها واحدة ، وأن الناس لا يسيئون إلا إلى أنفسهم حين يفكرون فى إلحاق الأذى بغيرهم .

ما به حياة الناس

نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة ، فمن لا يحب أخاه يبق فى الموت (يوحنا ١ : ٣ : ١٤)

وأما من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً وأغلق أحشاءه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه (٣ : ١٧) .

يا أولادى لا نحب بالكلام ولا باللسان بل بالعمل والحق (٣ : ١٨) .

لأن المحبة هى من الله وكل من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله (٤ : ٧) .

الله لم ينظره أحد قط ، إن أحب بعضنا بعضاً فالله يثبت فينا محبته قد تكلمت فينا (٤ : ١٢) .

الله محبة ومن يثبت فى المحبة يثبت فى الله والله فيه (٤ : ١٦) .

إن قال أحد إنى أحب الله وأبغض أخاه فهو كاذب ؛ لأن من لا يحب أخاه الذى أبصره كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره (٤ : ٢٠) .

- ١ -

كان صانع أحذية يسكن مع زوجته وأبنائه فى منزل أحد الفلاحين.

لم يكن له منزل ولا أرض ، وكان يعول نفسه وأسرته من عمل يديه .

وكان الخبز غالياً والعمل رخيصاً ، فكان يأكل ما يكسبه .

وكان للزوج والزوجة معطف واحد من جلود الضأن يتبادلانه بينهما . وحتى هذا المعطف كان رثاً ممزقاً ، وكان صانع الأحذية قد نوى منذ عامين أن يشترى جلود ضأن ليتخذا منها معطفاً جديداً .

وعندما دخل الخريف كان صانع الأحذية قد جمع مبلغاً صغيراً من النقود : فكان عند زوجته ثلاثة روبلات فى درجها ، وكان فلاحو القرية مدينين له بخمسة روبلات وعشرين كوپكا .

وذات صباح ذهب صانع الأحذية مبكراً إلى القرية ليشترى الجلود فلبس سترة زوجته المبطنة فوق قميصه ، وقفطانه القماش فوق السترة ، ودس الورقة ذات الروبلات الثلاثة فى جيبه ، واتخذ عصا من فرع شجرة ، وانطلق بعد الإفطار إلى القرية . قال لنفسه : سأحصل على خمس روبلات من الفلاحين ، وأضعها على الثلاثة التى معى ، وأشترى جلوداً للمعطف .

ووصل صانع الأحذية إلى القرية ، وذهب إلى أحد الفلاحين فلم يكن الرجل فى المنزل ، ووعدت الزوجة أن تبعث رجلها بالنقود قبل أن يتنتهى الأسبوع ولكنها لم تعط صانع الأحذية شيئاً فذهب إلى فلاح ثان ، فحلف هذا بكل مقدس أنه لا يملك نقوداً . ولم يدفع إلا عشرين كوپكا فى إصلاح فتق ، فحدث صانع الأحذية نفسه أن يشترى جلود الضأن بالنسيئة ، ولكن الدباغ أبى أن ينسئه ، قال :

- أحضر النقود واختر ما تشاء ، أنا أعلم كيف يضطر الرجل الجرى وراء ديونه .

فلم يبق لصانع الأحذية إلا أن يعود فارغ اليدين ، وكان كل ما حصل عليه هو العشرون كوبكا أجر إصلاح الفتق ، مع حذاء قديم من اللباد لأحد الفلاحين أخذه كى يهيئه له نعلاً .

وأنفق صانع الأحذية العشرين كوپكا– من ضيقه– في شرب الخمر ، وذهب إلى بيته بغير جلد الضأن ، لقد كان يشعر بالبرد فى الصباح ، أما الآن بعد أن شرب الخمر فقد شعر بالدفء دون جلد ضأن . وعلى ذلك سار فى طريقه يضرب الحصى المتجمد بعصاه فى إحدى اليدين ، ويطوح حذاء اللباد فى اليد الأخرى ، ويقول لنفسه : "إننى أشعر بالدفء وإن لم يكن على جلد ضأن ، كأس أو كأسان تجريان فى عروقك ، فما الحاجة إلى جلد ضأن ؟ أنا سائر فى طريقى ، لا أفكر فى أحزانى هكذا أنا . وما حاجتى إلى مزيد ؟ أنا لا احتاج إلى جلد ضأن ، ولن أحتاج أبداً ، طول عمرى ، لا يضايقنى إلا شئ واحد أن العجوز سوف تقول وتعيد ، وهذا شئ يغيظ – نعم ، هو كذلك أنت تشتغل له حتى تهلك ، وهو يسحبك من أذنك ، اسمعْ إن لم تحضر النقود سأخطف قبعتك ، قسماً بالله سأخطفها منك ، وما قصده من إعطائى قطعتين بعشرة كوپكات – ماذا أفعل بعشرين كوپكا ؟ على الأكثر أشرب بها ، يقول : "إنى معذور ،» أنت معذور – وأنا ألست معذوراً ؟ أنت تملك منزلاً ، وتملك ماشية وأشياء أخرى فوق ذلك وأنا لا أملك إلا نفسى ، أنت تملك خبزك ، و أنا يجب أن أشتريه – أحصل عليه حيث أستطيع ، الخبز وحده يكلفنى ثلاثة روبلات كل أسبوع ، وعندما أعود إلى البيت يكون الخبز قد نفد ، وعلىَّ أن أصرف روبلاً ونصف روبل من جديد ، يجب أن تعطينى ما عليك . ".

وعلى هذا وصل صانع الأحذية إلى الكنيسة الصغيرة عند المنحنى وخلف الكنيسة رأى شيئاً أبيض يلمع ، وكانت الظلمة تنزل ، ونظر صانع الأحذية ، ونظر فلم يتبين ما هو ، قال لنفسه : لم يكن هناك حجر قط ، لعله حيوان ؟ ليست له هيئة حيوان ، إن الرأس أشبه برأس إنسان ، ولكن ماذا عسى أن يكون الجزء الأبيض ؟ وماذا عسى أن يفعل إنسان هنا ؟

واقترب فرآه بوضوح ، ياللعجب ! رجل يجلس هناك ، حيّاً أو ميتا ، لا يستره شئ ، مستنداً إلى الكنيسة ، لا يتحرك ، وارتعد صانع الأحذية ، لا بد أن أحداً قتل ، وسلبه المجرمون وتركوه راقداً هنا ، إذا اقتربت منه فقد تلصق بى التهمة .

ومضى صانع الأحذية فى طريقه ، وعندما جاوز المنحنى اختفى الرجل ومضى فى طريقه ثم التفت خلفه ، وإذا بالرجل لم يعد مستنداً إلى الكنيسة ، بل كان يتحرك وكأنه يرقب شيئاً . وازداد صانع الأحذية رعباً ، قال فى نفسه : أأذهب إليه أم أمضى فى طريقى ؟ إن ذهبت إليه فقد يحدث شئ من يدرى ماذا يكون ؟ ليس خيراً ما جاء به

إلى هنا ، إن رجعت إليه فقد يهجم على يخنقني بلا رحمة - وإن لم يخنقني فماذا أفعل به ؟ أى نفع من رجل عريان ؟ هل أنزع ملابسى عن جسمى وأعطيه إياها ؟ سأمضى فى طريقى .

وأسرع صانع الأحذية خطاه وكان قد ابتعد عن الكنيسة عندما استيقظ ضميره.

فوقف وقال لنفسه : ماذا تفعل ياسيميون ؟ رجل يموت محتاجاً وأنت تمر كالجبان ، كأنك انقلبت غنياً فأنت تخشى أن يسرق أموالك ؟ ياالخزيك ياسيميون .

ورجع سيميون أدراجه وقصد إلى الرجل .

قصد سيميون إلى الرجل ، ونظر إليه ، فإذا هو شاب فى ريعان الصحة ، ليس فى جسمه جرح واحد إلا أنه مقرور مذعور ، كان يجلس هناك مستنداً إلى الحائط ، غير ناظر إلى سيميون ، كأنه أضعف من أن يفتح عينيه ، واقترب منه سيميون ، وإذا بالرجل يثوب ، ويدير رأسه ، ويفتح عينيه ، وينظر إلى سيميون ؛ وملأت النظرة سيميون حبًّا للرجل ، فألقى حذاء اللباد على الأرض ونزع الحزام ، ووضعه على الحذاء وخلع قفطانه ، قال :

- إليك ، خذ هذا ! لا تشكرنى ! ألبسه - هيا ، هيا .

وأمسك سيميون بالرجل من تحت إبطيه وأوقفه على قدميه . فوقف الرجل ، ورأى سيميون أن جمسه نظيف رقيق ، ويديه وقدميه لا شية فيها ووجهه حلو سمح ، وألقى سيميون القفطان على كتفى الرجل ، ولكنه لم يستطع أن يدخل ذراعيه فى الكمين ، فساعده سيميون على إدخال يديه ، ولف القفطان عليه وزرره ، وشبك الحزام على وسطه .

ثم خلع سيميون قبعته البالية ، عازماً أن يضعها على رأس الرجل العريان ، ولكنه شعر بالبرد فى رأسه هو ، فقال لنفسه ، مهلا ، إن رأسى أصلع كله ، وهو ذو شعر طويل جعد - وعلى ذلك لبس قبعته - خير لى أن أعطيه حذاء بدلاً من القبعة .

وأجلس الرجل ، وألبسه حذاء اللباد .

وعندما فرغ صانع الأحذية من كسوته كما فعل ، قال :

- وآلا يا أخى نشِّط نفسك ، وحاول أن تدفأ ، سوف تنجلى الأمور دون أن نعنى أنفسنا بها ، هل تقدر أن تمشى ؟

ولم يتحرك الرجل ؛ ونظر إلى سيميون بحب ولم يحر جواباً .

- لماذا لا تقول شيئاً ، إننا لا نقدر أن نمضى الشتاء هنا . يجب أن نبحث عن مكان نقيم فيه ، هيا ، خذ عصاى لتتوكأ عليها إن كنت ضعيفاً ، ولنسرع .

ومشى الرجل ، وكان يمشى بسهولة ، ويجارى رفيقه فى سرعته .

وفيما هما يمشيان كذلك قال سيميون :

– من أين قدمت يا ترى ؟

– لست من هذه القرية .

– أنا أعرف أهل هذه القرية ، كيف اتفق أن جئت إلى الكنيسة ؟

– لا أستطيع أن أخبرك .

– هل أساء إليك أحد ؟

– لم يسئ إلى أحد ؛ ولكن الله عاقبنى .

– نعم ، كل شئ بإرادة الله ، ولكنك مع ذلك لا يمكن أن تعيش دون سقف يظلك : ما طريقك ؟

– كل الطرق لدىّ سواء .

وتحيرّ سيميون ؛ فالرجل لا يشبه المجرمين ، وكلامه لطيف ، ولكنه لا يقول كلمة واحدة عن نفسه وفكر سيميون أن ذلك كثيراً ما يحدث فى هذه الدنيا ، ثم قال للرجل:

– اسمع تعال إلى منزلى ، ولولتستريح قليلاً .

– وقصد سيميون إلى منزله ، والرجل يواكبه . وكانت الريح قد نشطت ، وراحت تضرب بحده تحت سيميون ، وزال سكره شيئاً فشيئاً ، وشعر بالبرد ، وعلى ذلك كان يمشى فى الريح ، وهو يتنفس بصوت مسموع ، ويلفلف نفسه فى سترة المرأة ، ويفكر : ها قد فعلتها . خرجت لاشترى جلد ضأن ورجعت بدون قفطان ، ومعى رجل عريان ، لن تكون العجوز جد مسرورة ! وعندما فكر سيميون فى زوجته بدأ يقلق ولكنه حين التفت إلى الغريب تذكر كيف نظر إليه الرجل خلف الكنيسة ووثب قلبه فرحا .

- ٣ -

كانت زوجة سيميون قد فرغت من شغل المنزل مبكرة ،فقد كَّسرت الخشب، وأحضرت الماء ، وأطعمت الأطفال ، وأكلت هى أيضاً ، ثم أخذت تفكر . كانت تفكر متى تضع الخبز فى الفرن : اليوم أم غدا ؛ وكانت لا تزال هناك قطعة كبيرة من الخبز

قال لنفسها : إذا أكل سيميون فى القرية ظهرا ، ولم يأكل كثيراً فى العشاء ، فسيبقى الخبز إلى الغد .

وقلبّت ما تريونا قطعة الخبز فى يديها ، وقالت لنفسها ، لن أضع الأرغفة فى الفرن اليوم ، لم يبق دقيق كثير على كل حال . إنه يكفى إلى يوم الجمعة . ووضعت ما تريونا الخبز فى ناحية ، وجلست إلى المنضدة لتصلح قميص زوجها . وبينما هى تخيط كانت تفكر فى أن زوجها يشترى جلود الضأن للمعطف .

ياخوفى أن يغشه الدبا غ ! حقاً إن شيخى رجل ساذج . لا يمكن أن يغش أحداً، ، ولكن أى طفل يقدر أن يسحبه من أذنه ، ثمانية روبلات ليست بالشئ القليل تكفى لشراء جلد ضأن جيد ، حتى ولو لم يكن مدبوغاً فإن هذا لا يمنع أن يكون جلداً جيداً. الشتاء الماضى قضيناه بدون جلد ضأن لم نقدر أن نذهب إلى النهر ، أو إلى أى مكان، وعندما كان زوجى يخرج كان يضطر أن يضع كل شئ على جسمه ، وحتى اليوم لبس كل شئ عندما خرج ، ولم يترك لى فتلة واحدة ، لقد خرج مبكراً وكان يجب أن يعود الآن ، أخاف أن يكون طيرى قد وقع فى بعض الشباك .

وبينما كانت تفكر فى ذلك طقطق الدرَج ودخل رجل فشبكت ما تريونا إبرتها فى القميص وذهب إلى باحة الدار ، وإذا برجلين اثنين : سيميون ومعه رجل فى حذاء من اللباد ، وليس على رأسه قبعة .

ولا حظت ما تريونا على الفور رائحة الخمر التى كانت تنبعث من زوجها قالت لنفسها : حسنا ، ما حسبته لقيته ، إنه وقع وعندما رأته قد رجع بدون قفطانه ، وليس عليه إلا السترة وليس معه شئ ، ولم يقل كلمة ، والخجل بادٍ عليه ، انقبض قلب ما تريونا وحدثت نفسها أنه شرب بالنقود لقد ذهب إلى الحان مع أول آفاق قابله ، وفوق ذا وذا أحضره إلى البيت .

تركتهما ما تريونا يدخلان الحجرة ثم دخلت هى أيضاً . ورأت الغريب رجلاً نحيلاً ، يلبس القفطان الذى كان لها هى وزوجها ، ولم يكن ثمة قميص يرى تحت القفطان ، ولا كان عليه قبعة وقف كما دخل ، لم يتحرك ولم يرفع عينيه ، وقالت ما تريونا لنفسها : لا يمكن أن يكون رجلاً شريفاً وهو خزيان هكذا .

ونظرت ما تريونا نظرة سوداء ، وقصدت إلى الفرن لتنتظر ما عسى أن يفعله الآخران .

وخلع سيميون قبعته ، وجلس على الدكة كأن شيئاً لم يحدث قال :

- هيا ياما تريونا ، جهزى لنا عشاءً .

وزمجرت ماتريونا بينها وبين نفسها ، وظلت واقفة بجانب الفرن لا تحرك إصبعاً ، بل تردد نظرها بينهما وتهز رأسها ، وتظاهر هو بأنه لم يلاحظ شيئاً وأمسك بيد الغريب قال :

- أجلس يا أخى ، سنتعشى .

وجلس الغريب على الدكة .

- حسنا ، ألم تطبخى شيئاً ؟

- واحتدم غضب ما تريونا :

- بلى طبخت ولكنى لم أطبخ لك . لقد شربت حتى فقدت رشدك كما أرى . تخرج لتشترى جلد ضأن وتعود بدون معطف . وفوق ذلك تجر معك عرياناً صعلوكاً إلى بيتى. ليس عندى عشاء لكما يا سكيران .

- ماذا جرى لك يا ماتريونا ما هذا الكلام الفارغ ؟ ألا تسألين أولاً من الرجل -

- وأنت تخبرنى ماذا فعلت بالنقود .

فأدخل سيميون يده فى القفطان وأخرج الورقة وبسطها .

- هاك النقود ، وتريفينوف لم يدفع ، أجلنى إلى الغد .

وهنا ثارت ما تريونا ثورة أشد :

- أنت لم تشتر جلد الضأن ، وتلبس آخر قفطان عندك لهذا الشحاذ ، وتحضره إلى منزلى !

قالت ذلك ومدت يدها فأخذت الورقة ذات الثلاثة الروبلات وكانت على المنضدة ، فوضعتها فى الدرج ، وقالت :

– لا عشاء عندى ، لا يمكننى أن أطعم كل سكير عريان أراه .

– مهلاً يا ماتريونا ، لا تطلقى لسانك . اسمعى ما يقال لك .

– وماذا عسى أن يقول أحمق سكران ؟ أنا أعرف لماذا كنت لا أريد أن أتزوجك يا حليف الزجاجة ، كانت أمى تعطينى القماش وأنت تسكر بثمنه ، تذهب إلى القرية لتشترى جلد ضأن فتشرب حتى تسكر .

وحاول سيميون أن يبين لزوجته أنه لم يصرف فى الشرب إلا عشرين كوبكا وحاول أن يخبرها أين لقى الرجل ، ولكن ما تريونا لم تمكنه من أن يقول كلمة واحدة ، فقد ظل لسانها يدور كأنها عجلة طاحونة ، وجعلت تعيّره بقصص مرت عليها عشر سنوات .

وظلت ماتريونا تتكلم وتتكلم ، وأخيراً انقضت على سيميون وأمسكته من كمه قائلة:

– أعطنى سترتى ، لم يبقى لى إلا سترة واحدة وأنت تأخذها وتلبسها . هاتها يا جبان جاءتك داهية ! .

وحاول سيميون أن يخلع السترة فانقلب الكمان وهو يفعل ذلك ، فشدتها ماتريونا فطقطقت من كل جانب ، وانتزعت ما تريونا السترة وألقتها على رأسها وهرعت إلى الباب ، وهمت بالخروج ولكنها توقفت ، كان قلبها يكاد ينشق غضبا، ولكنها كانت لا تزال تود أن تعلم من الشخص الغريب .

فتلبثت لتقول :

– لو كان رجلاً طيباً لما كان عريانا ، إنه لا يملك حتى قميصاً يضعه على ظهره : ولو لم تكن أنت قد فعلت ما لا ينبغى لك لقلت أين وجدت هذا السيد العظيم .

– ولكن هذا ما أحاول أن أقوله ، لقد كنت ماشيا فرأيت هذا الرجل ، عرياناً مقروراً ، يجلس بجانب الكنيسة ، لسنا فى الصيف ، حتى يجلس امرؤ هناك عريانا الله ساقنى لهذا الرجل ولولا ذلك لقضى عليه . ماذا أعمل ؟ ليس هذا بالأمر المستغرب ، أخذته وألبسته وأحضرته معى . أهدئى ، حرام يا ماتريونا تذكرى ساعة الموت .

وكانت ماتريونا موشكة أن تبدأ فى التأنيب ، عندما أضاءت عينها على الرجل الغريب ، فصمتت كان الغريب جالساً هناك لا يتحرك ، كان جالساً على حافة الدكة ، على هيئته منذ دخل ، ويداه مشبوكتان على ركبتيه ورأسه منكس على صدره ، وعيناه مغمضتان ، وحاجباه معقودان كأنه يعانى ألماً ، ولم تنطق ماتريونا بكلمة ، ولكن سيميون قال :

- ماتريونا ، أما فيك شئ من روح الله ؟

وسمعته ماتريونا فنظرت إلى الغريب ثانية ، وتحرك قلبها فجأة ، فابتعدت عن الباب ، وذهبت إلى زاوية الفرن ، وجهزت العشاء ، وضعت الأطباق على المنضدة وصب

بعض الكفاس» [1] وأحضرت آخر قطعة من الخبز قالت :

- هيا ، كلا .

وجذب سيميون الغريب قائلاً :

- اقترب يا أخى .

وقطع سيميون الخبز ، وغمسه ، وبدآ يأكلان ، وكانت ماتريونا جالسة إلى ركن المنضدة ، معتمدة برأسها على يدها ، تنظر إلى الغريب .

واستحوذت على ماتريونا رحمة بالغريب ، وبدأت تفرح به وفجأة انبسط حاجبا الغريب ، بدا عليه البشر ؛ وثَّبت عينيه على ماتريونا وابتسم .

وانتهى العشاء فرفعت ماتريونا الأطباق ، وبدأت تسأل الغريب :

- من أين أنت ؟

- لست من هنا .

- وماذا جاء بك إلى هنا ؟

- لا استطيع أن أقول .

- من سرقك ؟

(١) نوع من الجعة ، شراب شعبى عند الروس (المترجم)

– الله عاقبنى .

– كنت ترقد هناك عريانا هكذا ؟

– نعم كنت أرقد هكذا ، عريانا مقروراً ، ثم رآنى سيميون ، فرحمنى ، وخلع قفطانه ، وكسانى إياه ، وقال لى أن أجئ معه ، وهذه أنت قد أطعمتنى وسقيتنى وعطفت علىَّ ، فليكافئك الله .

ووقفت ماتريونا ، وأخذت من النافذة قميص سيميون القديم الذى كانت تصلحه ، وناولته للغريب ، وكذلك وجدت سراويل وأعطته إياها .

وخلع الغريب القفطان ، ولبس القميص ، ورقد على الدكة . وأطفأت ماتريونا النور ، وأخذت القفطان ، وزحفت إلى جوار زوجها .

وتغطت ماتريونا بأحد طرفى القفطان ، ولكنها بقيت ساهرة ؛ فإنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير فى أمر الغريب .

وكانت إذا تذكرت أنها أكلت آخر قطعة من الخبز ، ولم تبق كسرة واحدة للغد ، وإذا فكرت أنها نزلت عن القميص والسراويل تشعر بالكآبة ، ولكنها حين تتذكر كيف ابتسم يثب قلبها من الفرح .

أرقت ما تريونا طويلاً ، ثم تنبهت إلى أن سيميون غير نائم أيضاً، وأنه يسحب القفطان إلى ناحيته .

– سيميون .

– إيه ؟

– لقد أكلنا آخر كسرة من الخبر ، ولم أضع خبزاً فى الفرن ، لا أدرى ماذا نفعل غدا ، سأضطر أن آخذ بعضاً من جارتنا العجوز .

– إن عشنا سنجد ما نأكله .

ورقدت ساكنة من جديد ، ولم تقل شيئاً .

– إنه يبدو مع كل ذلك رجلاً شريفاً ، ولكن الغريب أنه لا يقول شيئاً عن نفسه .

- لعلة لا يستطيع .

- سيم ..

- إيه ؟

- نحن نعطى الآخرين . ولكن لماذا لا يعطينا أحد ؟

ولم يدر سيميون بماذا يجيب ، فقال : "كفى عن كلامك " ودار على جنبه ونام .

- ٤ -

استيقظ سيميون فى الصباح ، وكان الأطفال نائمين ، وزوجته قد ذهبت إلى الجيران ، لتقترض خبزاً ، أما الغريب صاحبه بالأمس ،فكان جالساً على الدكة فى سراويل قديمة وقميص قديم ، وهو ينظر إلى أعلى وكان وجهه أكثر إشراقاً مما كان بالأمس .

وقال سيميون :

– اسمع يا صديقى ، الجسم يطلب الخبز ، والأطراف العارية تطلب الكساء . يجب أن يأكل الإنسان ، ماذا تستطيع أن تعمل ؟

– لا أستطيع أن أعمل شيئاً .

فدهش سيميون ، وقال :

– العبرة بالإرادة كل شئ يمكن تعلمه .

– الناس يشتغلون إذاً سأشتغل أيضاً .،

– كيف أدعوك ؟

– ميكائيل .

– حسناً يا ميكائيل لا حاجة بك أن تحدثنى عن نفسك ، ولكن الإنسان يجب أن يأكل . ستؤدى العمل الذى أعطيك إياه ، فأقدم لك ما تأكله .

– جزاك الله خيراً ، أنا أستطيع أن أتعلم أرنى ماذا أعمل .

فتناول سيميون خيطاً ، ولفه على أصابعه ، وعقده .

– ليس فى الأمر سر عظيم انظر ..

– ونظر ميكائيل ولف خيطاً على أصابعه كما فعل صانع الأحذية وعقد عقدة.

ثم أراه سيميون كيف يضع الشريط ، وكيف يخرز الخيط ، وكيف يستعمل السندان وميكائيل يفهم سريعاً .

وكان سيميون كلما أراه عملاً فهمه على الفور وبعد اليوم الثالث بدأ يعمل كأنه كان يخيط الأحذية طول عمره ، وكان يعمل دون أن يتحرك من مكانه ، ويأكل قليلاً ، وإذا لم يكن ثمة عمل ظل جالساً ينظر إلى أعلى ، ولم يكن يغادر الحجرة ، ولا ينطق بلغو ، ولا يمزح ولا يضحك .

لم يروه يضحك إلا مرة واحدة ، وكان ذلك فى المساء الأول ، عندما أحضرت له المرأة العشاء .

- ٥ -

مرت الأيام فى إثر الأيام ، والأسابيع فى أثر الأسابيع حتى انقضى حول كامل ، وميكائيل مقيم يعمل فى منزل سيميون .

وذاع صيت عامل سيميون فى كل مكان ، وكان الناس يقولون إن الأحذية التى يصنعها ميكائيل عامل سيميون لا يستطيع أحد أن يصنع مثلها نظافة ومتانة . وكان الناس يأتون من الأنحاء البعيدة ليطلبوا أحذية من سيميون ، فأخذت حاله تروج .

وذات يوم من أيام الشتاء كان سيميون وميكائيل جالسين يعملان عندما أقبلت عربة صغيرة تجرها ثلاثة جياد وتصلصل بأجراسها أمام منزل سيميون فنظرا من النافذة ، ووقفت العربة ، وهبط شاب عن مقعد السائق وفتح الباب ، فنزل من العربة سيد يلبس معطفاً من الفراء ، نزل من العربة وتقدم من كوخ سيميون وصعد الدرج ، وأسرعت ماتريونا تستقبله ، وفتحت الباب على مصراعيه ، فانحنى السيد ، ودخل الحجرة واعتدل ثانية ، وكان رأسه يكاد يلامس السقف ، وجسمه يملأ ركن الحجرة كله .

نهض سيميون وانحنى إلى السيد دهشاً ، فما رأى من قبل مثل ذلك الرجل . كان سيميون نفسه نحيلاً وميكائيل قضيفاً ، وماتريونا رقيقة كقشرة من الخشب ، ولكن هذا الرجل كان يبدو وكأنه من عالم آخر ، وكان وجهه أحمر منتفخاً ، وعنقه كعنق ثور ، وجسمه كله كأنه صب من حديد .

وقف السيد ليلتقط أنفاسه ، ثم خلع معطفه الفرو ، وجلس على الدكة وقال :-

من المعلّم ؟

فتقدم سيميون خطوة ، وقال :

- أنا يا صاحب السعادة .

ثم نادى السيد خادمه :

- فيديا ، هات الجلد يا فتى .

وجاء الرجل بربطة فأخذها السيد ووضعها على المنضدة ، وقال :

- افتحها .

ففتح الرجل الربطة .

ولمس الرجل الجلد بإصبع وقال لسيميون :

– اسمع يا معلم ، هل ترى هذا الجلد ؟

قال :

– أجل يا صاحب السعادة .

– أجل وهل تدرى أى جلد هو ؟

فتحسس سيميون الجلد ، وقال :

– جلدٌ عظيم .

– أحسبه كذلك ! إنك لم تر نظيراً له من قبل يا غبى . إنه جلد ألمانى وثمنه عشرون روبلا .

فأخذ سيميون ، وقال :

– وكيف يرى رجل مثلى جلداً كهذاً ؟

– طبعاً لا ! يمكنك أن تفصل لى حذاء من هذا الجلد ؟

– أجل يا صاحب السعادة .

وهنا صاح به السيد :

– الكلام عندكم سهل : تذكّر لمن تشتغل ، وأى جلدٍ هذا ، أصنع لى زوجاً من الأحذية يتحمل عاماً دون أن يتشق أو يلتوى .

إن كنت تستطيع ذلك فابدأ العمل واقطع الجلد ، وإن كنت لا تستطيع فدعه ولا تقطع الجلد ، وأقول لك منذ الآن : إن تشقق الحذاء أو التوى قبل أن يمر العام ، فسأدخلك السجن ، وإن لم يتشقق أو يلتو فسأعطيك أجرتك عشرة روبلات .

وريع سيميون ، ولم يدر ماذا يقول ، ونظر إلى ميكائيل وغمزه سائلاً بصوت خفيض :

– هل آخذه ؟

فأومأ ميكائيل ألا تخف وخذ العمل .

وأطاع سيميون عامله ، وتعهد أن يصنع حذاء يبقى عاماً دون أن يلتوى أو يتشقق.

ونادى السيد خادمه وأمره أن يخلع الحذاء الأيسر ، ثم مد قدمه :

– خذ مقاسى .

وتناول سيميون شريطاً من الورق طوله نصف متر ، وركع ، ومسح يديه بعناية فى فوطته حتى لا يوسخ جورب السيد ، وبدأ يأخذ مقاسه . فقاس بطن القدم ، ثم ظهرها ثم بدأ يقيس الربلة ، فلم يكف طول ورقته ، فقد كان للقدم الضخمة ربلة كالجذع العظيم .

– حذار– أن تجعله ضيقاً عند الساق .

– فخاظ سيميون قطعة أخرى فى شريطه ، وكان السيد جالساً هناك يحرك إبهاميه فى جوربه وينظر إلى من فى الحجرة ، ثم لاحظ ميكائيل ، فقال :

– من هذا الذى معك ؟

– هذا صانع عندى ، سيشتغل فى الحذاء أيضاً .

فقال السيد لميكائيل :

– اعتن . ولا تنس أن الحذاء يجب أن يعيش عاماً .

والتفت سيميون بدوره إلى ميكائيل ، فلاحظ أنه لا يكاد ينظر إلى السيد . كان واقفاً فى الركن خلف السيد وعيناه تبدوان مركزتين على شخص ما . كان ميكائيل واقفاً هناك يحدق تحديقاً شديداً وفجأة ابتسم وأشرق وجهه كله .

– لماذا تقف هناك مبتسماً أيها الغبى ؟ خيرلك أن تحرص على إتمام الحذاء فى وقته .

فأجابه ميكائيل :

– سيكون حاضراً فى وقته تماما .

– أرجو ذلك !

ثم لبس السيد حذاءه ثانية ، وتدثر بفرائه ، وذهب إلى الباب ولكنه نسى أن ينحنى ، فصدم رأسه بالعارضة .

فسب ، ودعك جبينه ، ثم ركب فى العربة وانطلق .

وعندما ذهب السيد قال سيميون :

– رجل من حديد ، ليس فى الدنيا هراوة يمكن أن تقتله ، لقد كاد يخلع العارضة برأسه ، وهى لم تكد تؤذيه .

ولكن ما تريونا قالت :

– ولماذا لا يكون أولئـك الناس أقويا ء وهم يعيشون كما يعيشون ؟ حتى الموت لا يمكنه أن يمس مثل هذا الهيكل الضخم ؟

- ٦ -

وقال سيميون لميكائيل : حسنا لقد أخذنا العمل ، وأخشى أن نكون قد حملنا صليبنا على ظهورنا ، فهذا الجلد ثمين والسيد لا يعرف المزاح يجب أن لا نخطئ في قطع الجلد ، افعل ذلك أنت ، فإنك أصح نظراً وأمهر يدا ، إليك النموذج ، اقطع الجلد بينما أشتغل فى مقدّم الحذاء .

وفعل ميكائيل كما أمره المعلم ، فأخذ جلد السيد وبسطه على المنضدة ووضع قطعة على الأخرى وأخرج سكينه وبدأ يقطع .

وأقبلت ماتريونا لتنظر فرأت ميكائيل يستخدم المقص ، وحارت فى فهم ما يصنع وكانت ماتريونا تعرف صناعة الأحذية ، فنظرت ورأت ميكائيل لا يقطع الجلد كما يفعل صانع الأحذية بل يدور حول الحافة بالمقص .

وهمت ماتريونا أن تقول شيئاً ، ولكنها فكرت : لعلى لا أعلم كيف تصنع أحذية السادة ، لعل ميكائيل أدرى منى بذلك فلن أتدخل .

وقطع ميكائيل الزوج ثم أخذ خيطاً وبدأ يخيط ، لا بخيطين كما يفعل صانعو الأحذية بل بخيط واحد ، كأنه يخيط حذاء للدفن .

وحارت ماتريونا فى ذلك أيضاً ، ولكنها لم ترد أن تتدخل ومضى ميكائيل يخيط ويخيط وتعشوا . ثم وقف سيميون ، ورأى أن ميكائيل قد صنع حذاء دفن من جلد السيد .

وتأوه سيميون بصوت مسموع ، وقال فى نفسه : كيف هذا؟ لقد مضى عام كامل على ميكائيل عندى ، ولم يخطئ خطأ واحد ، والآن يجلب علىَّ مثل هذه المصيبة ، لقد طلب السيد حذاء طويلاً بنعل مخيط ، وهكذا ميكائيل قد صنع له حذاء دفن بلا نعل ، وأتلف الجلد ، كيف أسترضى السيد ؟ لن نجد مثل هذا الجلد ثانية .

قالت : ماذا فعلت يا أخى ؟ لقد خربت بيتى ! السيد طلب حذاء ، فماذا فعلت ؟

ولم يكد المعلم يبدأ فى تأنيب ميكائيل حتى دقت مطرقة الباب دقات سريعة ، فنظروا من النافذة ، فرأوا فارساً لا يزال يربط جواده ، ففتحوا الباب ، ودخل خادم السيد .

- طاب يومكم .

طاب يومك ، ماذا وراءك ؟

- سيدتى أرسلتنى فى أمر الحذاء .

- ماذا عن الحذاء .

- ماذا عن الحذاء ؟ إن السيد لا حاجة له بحذاء ، تعيشون أنتم .

- ماذا قلت ؟

- إنه لم يبلغ داره حيا ؛ لقد مات فى العربة ، عندما وصلت العربة إلى المنزل وهبطنا لنساعده على النزول رأيناه راقداً هناك كالعدل رأيناه راقداً وقد مات وجمد ، وما استطعنا إخراجه من العربة إلا بعناء فأرسلتنى السيدة قائلة : "أخبر صانع الأحذية أن سيداً أمره بصنع حذاء وأعطاه الجلد ، قل له لا حاجة بنا إلى الحذاء الآن، وليقطع من هذا الجلد حذاء دفن للميت بأسرع ما يستطيع وانتظر أنت هناك حتى يتم حذاء الدفن ، وأحضره معك .» وهأنذا قد جئت .

وتناول ميكائيل بقايا الجلد من على المنضدة ، ولفها ، وأخذ حذاء الدفن وقد تم صنعه فضرب واحداً بالآخر ، ومسحهما بفوطة ، وأعطاهما للرجل ، وأخذ الرجل حذاء الدفن.

- مع السلامة.

مر عام وعام ، وسرعان ما انقضت ستة أعوام على مجئ ميكائيل ليعيش فى بيت سيميون وكانت حياته هى هى لم تتغير .

فهو لا يذهب إلى مكانٍ ما ، ولا ينطق بكلمة لغو ، ولم يروه يبتسم طيلة هذه المدة إلا مرتين : مرة عندما قدمت له المرأة العشاء ، ومرة عندما جاء السيد ، وكان سيميون مسروراً بعامله أعظم السرور ، ولم يعد يسأله من أين جاء ، إلا أنه كان خائفاً أن يرغب ميكائيل فى تركه .

وذات يوم كانوا جالسين فى المنزل ، ووضعت ربة الدار قدر الحديد على النار ، وراح الأولاد يجرون على الدكك ، وينظرون من النافذة . و كان سيميون جالساً بالقرب من إحدى النافذتين يدق ، وميكائيل جالساً بالقرب من النافذة الأولى الأخرى يهيئ كعبا .

وأقبل الصبى الصغير يجرى علي الدكة إلى ميكائيل ، واستند على كتفه ونظر من النافذة .

– انظر يا عمى ميكائيل ! ألست هذه امرأة صاحب الدكان ومعها البنتان ؟ وإحدى البنتين عرجاء .

وما كاد الصبى يتكلم حتى ألقى ميكآئيل ما فى يده ، والتفت إلى النافذة ، ونظر إلى الطريق .

ودهش سيميون ، فإن ميكائيل لم يكن ينظر قط إلى الطريق ، وها هو ذا ملتصق بالنافذة يتأمل شيئاً فى الخارج ، ثم ذهب سيميون إلى النافذة أيضاً ، حقًّاً لقد كانت ثمة امرأة قادمة صوب داره ، وكانت حسنة الملبس ، تمسك بيدى طفلتين تلبسان معطفين صغيرين من الفراء وشملتين مطرزتين . وكانت الطفلتان أشبه بإحداهما الأخرى من الماء بالماء حتى ليصعب التمييز بينهما ، ولكن إحداهما كانت مهيضة القدم اليسرى ، وكانت تظلع فى مشيتها .

صعدت المرأة الدرج الخارجى إلى الباحة ، وتلمست الطريق إلى الباب ، وضغطت على المزلاج ، ودخلت وتركت البنتين تتقدمانها ،

– طاب يومك يا عم ، طاب يومك يا خالة .

– مرحباً ما طلبك ؟

وجلست المرأة إلى المنضدة ، وزحفت البنتان إلى جانبها ، فقد كانتا نفورين من الأغراب .

– أريد حذاء ين صغيرين من الجلد للبنتين يصلحان للربيع .

– حبا وكرامة إننا لم نصنع من قبل أحذية صغيرة كما تطلبين ، ولكننا نقدر أن نصنعها بإتقان ، برقبة أو بدون رقبة ، كما ترغبين . إن ميكآئيل قادر على صنع أى شئ .

ونظر سيميون إلى ميكائيل ، فرآه قد ألقى ما كان بيده جانباً ، وجلس يحدق فى البنتين دون أن يحول عينيه عنهما .

ولم يستطيع سيميون أن يفهم ماذا جرى لميكائيل ، لقد كانت البنتان جميلتين لاشك فى ذلك ، عيون صغيرة سوداء ، وخدود مستديرة حمراء ، وفراءان صغيران جميلان، وشملتان صغيرتان جميلتان ، ولكن سيميون لم يستطع أن يفهم لماذا كان ميكائيل يحدق فيهما ولا يحول عنهما نظره ، وكأنه يعرفهما .

خفى السر على سيميون ، وبدأ يساوم المرأة ، وانتهيا إلى اتفاق فأخذ المقاس ، فحملت المرأة الطفلة العرجاء فى حجرها وقالت :

– خذ مقاس هذه الطفلة مرتين ، حذاء للقدم اليسرى ، وثلاثة للقدم السليمة ، إن أقدامها متشابهة تماماً ، فهما توأمتان .

وقاس سيميون ، وقال وهو ينظر إلى الطفلة العرجاء :

– وكيف حدث لها ذلك ؟ يا خسارة ، بنت جميلة ، هل ولدت هكذا ؟

– لا . لقد هاضتها أمها .

وأقبلت ماتريونا ، قالت وقد أرادت أن تعرف من المرأة مَنْ أم الطفلتين :

– ألست أمهما ؟

– لستُ أمهما ولا قريبة لها يا خالة ، إنهما ربيبتاى .

– ليستا بنتيكِ ، وتحبينهما هذا الحب ؟

– كيف لا أحبهما وقد أرضعتهما كلتيهما من ثديى ؟ لقد كان لى ولد وأخذه الله ؛ ولم أحببه قط كما أحببت هاتين .

– ومن أمهما ؟

- ٧ -

فانطلق لسان المرأة وروت :

- منذ ستة أعوام تيتمت الطفلتان فى أسبوع واحد ، مات أبوهما يوم الثلاثاء ، وماتت أمهما يوم الجمعة .

وكنت أنا وزوجى فلاحين وقتئذاك ، وكنا جيرانهما فى القرية ، نعيش بجنبهما ، وكان أبو الطفلتين يعمل فى الغابة ، فذات يوم وقعت عليه شجرة ، وسطت جسمة فخرجت أحشاؤه .

وما كادوا يعودون به إلى الدار حتى أسلم الروح ، وفى ذلك الأسبوع ولدت له زوجته توأمتين ، هما هاتان الطفلتان ، وكان كل ما حولهما شقاء ووحشة . كانت المرأة وحيدة لا أهل لها ولا أبناء وكانت وحيدة فى ساعة حاجتها ، ووحيدة ماتت .

وفى اليوم التالى دخلت لأرى جارتى ، وعندما دخلت كانت المرأة المسكينة باردة جامدة ، وكانت قد سقطت وهى تحتضر على الطفلة الصغيرة ، وضغطت على جسمها وهاضت قدمها .

ثم دخل الناس وغسلوها وألبسوها ، وصنعوا لها تابوتاً ، ودفنوها ، قام الناس الطيبون بكل شئ ، وأصبحت الطفلتان وحيدتين فماذا نعمل لهما ؟ كنت وحدى من دون النسوة جميعاً لى طفل فى الرضاع ، وكنت أرضعه منذ شهرين فأخذت الطفلتين إلى أن نرى فيهما رأيا ، واجتمع الفلاحون لينظروا من يكفل الطفلتين ، فقالوا : هلا تأخذين الطفلتين عندك فترة قصيرة يا ماريا ؟ عسى أن يأتى الفرج فكنت أولاً أرضع الطفلة السليمة ، ولا أرضع هذه العرجاء . وظننتها لا تعيش طويلاً ، ثم قلت لنفسى : لماذا يموت هذا الملاك الصغير ؟ ورثيت لها فأرضعتها هى الأخرى ، كنت أرضع طفلى وهاتين معه ، والثلاثة كبروا على هذا الثدى . وكنت شابة قوية وكان الغذاء كثيراً أعطانى الله من اللبن ما كفاهم وزاد . وربما أشبعت اثنين والثالث ينتظر ، فإذا شبع الثانى أخذت الثالث ، وأراد الله أن أربى هاتين وأدفن ابنى فى عامه الثانى . ثم لم يعطنى الله أطفالاً آخرين بعد ذلك ونمت أموالنا ، وأصبحنا نعيش الآن فى الطاحونة مع صاحب الدكان ويدفع لنا أجراً طيباً ، ولا نحمل هما ، وليس لنا أطفال ،

فكيف كنت أعيش لولا هاتان البنتان ؟ وكيف لا أحبهما ؟ إنهما قرة عينى .

قالت المرأة ذلك ، وضمت البنت العرجاء بإحدى يديها ، وبالأخرى مسحت الدموع عن خديها

وتنهدت ماتريونا وقالت :

– صدق المثل ، قد يحيا المرء بدون أب ولا أم ، ولكن بدون الله لا يحيا .

هكذا تكلمتا ، عندما أضاء الحجرة فجأة نور باهر من الركن الذى كان يجلس فيه ميكائيل ، فنظروا كلهم إليه ، كان ميكائيل جالساً ويداه مشبوكتان فى حجره ، وعيناه تنظران إلى أعلى بابتسام .

خرجت المرأة بالبنتين ثم نهض ميكائيل بدوره عن الدكة ، وخلع فوطته ، وانحنى أمام سيده وسيدته وقال :

– سامحانى يا سيدى وسيدتى ، لقد غفر الله لى ، فاغفرا لى أيضاً بحق الله .

ورأي المعلم وزوجته أن النور يفيض من ميكائيل ، فوقف سيميون وانحنى أمام ميكائيل وقال له :

– ميكائيل ، إنى لا أراك بشراً مثل الناس ، وليس لى أن أستبقيك ، وليس لى أن أسألك ، ولكن أخبرنى عن أمر واحدا !لماذا كنت شديد الاكتئاب حين عثرت عليك وجئت بك إلى الدار ؟ ولماذا ابتسمت حين قدمت زوجى إليك العشاء وأصبحت أكثر بشراً منذ تلك اللحظة ؟ ثم لماذا ابتسمت ثانية حين جاء السيد ليطلب الحذاء ، وازددت بشراً من بعد ذلك ؟ ثم لماذا ابتسمت مرة ثالثة الآن حين دخلت المرأة بالبنتين وغمرك نور ساطع ؟ خبرنى يا ميكائيل أنى لك هذا النور ، ولماذا ابتسمت ثلاثة مرات ؟

قال ميكائيل :

– لقد أشرق النور لأنى عوقبت والآن غفر الله لى ، وقد ابتسمت فى المرة الثالثة لأنى ألزمت أن أفهم ثلاث كلمات لله ، والان فهمت كلمات الله : فهمت الكلمة الأولى حين عطفت على زوجك ، فابتسمت أول مرة ، وفهمت الكلمة الثانية حين أمر الرجل الغنى بصنع الحذاء ، فابتسمت ثانى مرة ، والآن حين رأيت البنتين فهمت الكلمة الأخيرة ، والكلمة الثالثة ، وابتسمت ثالث مرة ،

ثم قال سيميون :

– خبرنى يا ميكائيل لماذا عاقبك الله ، وما كلمات الله لأعلمها ؟

فقال ميكائيل :

– لقد عاقبنى الله لأنى عصيته ، كنت ملكاً فى السماء ، وعصيت الله .

كنت ملكاً فى السماء ، وأرسلنى الله لأقبض روح امرأة . وطرت هابطاً إلى الأرض فإذا المرأة ترقد وحيدة مريضة كانت قد ولدت طفلتين توأمتين ، وكانت الطفلتان

ترفسان بجوار أمهما ، والآم لا تقدر أن تحملهما إلى ثديها . رأتنى المرأة وعرفت أن الله أرسلنى لأقبض روحها ، فبكت وقالت : يا ملاك الله لقد دفن زوجى منذ قليل ، وقعت عليه شجرة فى الغابة ، وليس لى أخت ولا عمة ولا جدة ، لا مخلوقة تربى يتيمتىَّ فلا تقبض روحى المسكينة ، ودعنى أرضع طفلتى وأربيهما حتى تقفا على قدميهما ، فالأطفال لا يحيون بدون أب ولا أم ، وأصيغت إلى المرأة ، ووضعت إحدى الطفلتين عند ثديها ، والأخرى على ذراعها ، وصعدت إلى الله فى السماء ، وعندما طرت إلى الله قلت : لم أستطع أن أقبض روح المرأة لقد قتل الأب تحت شجرة ، وولدت الأم توأمتين وتضرعت إلىَّ ألا أقبض روحها قائلة : دعنى أرضع الطفلتين وأربيهما حتى تقفا على قدميهما ، فالأطفال لا يحيون بدون أب ولا أم ، هنالك قال الله لى : عد واقبض روح المرأة ، وستفهم ثلاث كلمات . ستفهم ماذا فى الناس ، وماذا لم يُعَط للناس ، وماذا يحيا به الناس ، فإذا فهمت ذلك فعد إلى السماء فطرت هابطاً إلى الأرض ، وقبضت روح المرأة .

وتدحرجت الطفلتان عن صدرها ، وانحطت الجثة الميتة على المهد، فوقعت على إحداهما وهاضت قدمها ، وطرت فوق أكواخ القرية لأعود بالروح إلى الله فأحاطت بى عاصفة ، وتدلى جناحاى فى ضعف ثم سقطا وارتفعت الروح إلى الله وحدها .

أما أنا فهبطت إلى الأرض ورقدت على جانب الطريق .

وعلم سيميون وماتريونا ، من ذلك الذى كسواه وأطعماه ، ومن كان ضيفهما فبكيا خوفاً وفرحا ، ولكن الملك قال :

– كنت راقداً فى الحقل عريان . لم أعرف من قبل متاعب الإنسان ، لا البرد ولا الجوع ، والآن أصبحت إنساناً ، عذبنى الجوع والبرد ولم أدر ماذا أفعل ، ثم رأيت فى الحقل كنيسة بنيت لله ، فذهبت إلى كنيسة الله لأجد فيها مأوى ، فوجدتها مغلقة ، ولم أستطع الدخول فجلست خلف الكنيسة لأحتمى من الريح ، وجاء المساء ، وعذبنى الجوع وأيبسنى البرد ، واشتملنى ألم واحد كبير ، وإذا بى أسمع شيئاً ، كان رجل يسير فى الطريق ، فى قدميه حذاء ، ويكلم نفسه ، ورأيت وجه الإنسان الفانى لأول مرة منذ أصبحت أنا نفسى إنساناً وملأنى هذا الوجه رعباً ، فتحولت عنه ، وسمعت الرجل يحدث نفسه كيف يقى جسمه برد الشتاء ، وكيف يجد خبزاً لزوجته وأطفاله . فقلت لنفسى : أنا أموت برداً وجوعاً وهذا الرجل السائر هناك لا يفكر إلا أين يجد جلد الضأن ليتدثر به هو وزوجته ، والخبز ليأكلوه ، إنه لن يستطيع معاونتى ورآنى الرجل فعبس ، وازداد وجهه نكراً ، ومربى ، واستحوذ علىّ اليأس وإذا بى أسمع الرجل يعود فنظرت إليه ، فلم أكد أعرف فيه الرجل الأول فى المرة الأولى كان فى قسمات وجهه الموت والآن دبت فيه الحياة فجأة ، وعرفت فى محياه الله جاء الىّ ، وكسانى ، وأخذني معه ، وسار بى إلى منزله ودخلت منزله وقابلتنا زوجه ، وبدأت تتكلم وكانت المرأة أشد نكرا من الرجل . كانت ريح الموت تنفح من فمها ، ولم أستطع أن أتنفس من نتن رائحة الموت أرادت أن تطردنى إلى العراء وعلمت أنها ستموت إلى طردتنى ثم ذكَّرها زوجها الله ، وإذا هى امرأة أخرى ، وعندما قدمت إلينا العشاء ونظرت إلى ، نظرت إليها ، كان الموت قد فارقها ودبت فيها الحياة وفيها أيضاً رأيت الله .

ثم تذكرت أولى كلمات الله : ستفهم ماذا يحيا فى الناس ، وعرفت أن الحب يحيا فى الناس ، وامتلأت سروراً لأن الله قد بدأ يكشف لى ما وعدنيه ، وابتسمت الأولى ولكنى لما أستطع أن أفهمْ كل شئ . لما أفهم ما الذى لم يعط للناس ، ولا ما به حياة الناس .

وأقمت معكم عاماً كاملاً ، ثم جاء الرجل الذى أمر بصنع الحذاء ، حذاء يعيش عاماً دون أن يتمزق أو يلتوى ، ونظرت إليه فإذا بى أرى خلف كتفيه رفيقى ملك الموت لم ير الملك أحدٌ غيرى ولكنى عرفته ، وعرفت أن الشمس لن تغرب حتى تكون روح الرجل الغنى قد فارقته ، وقلت لنفسى : الإنسان يدبر لعام قادم ، ولا يعلم أن عمره سينتهى قبل المساء ، ثم تذكرت الكلمة الثانية من كلمات الله ، ستفهم مالم يعُط للناس .

لقد عرفت ما فى الناس ، والآن عرفت مالم يعط للناس لم يعط للناس أن يعلموا ما يحتاجون إليه لحياتهم ، فابتسمت الثانية ، وسررت لأنى رأيت الملك رفيقى ، ولأن الله كشف لى الكلمة الثانية .

ولكنى لما أفهّم كل شئ لما أفهم ما به حياة الناس .

وأقمت معكم ، وانتظرت أن يكشف الله لى عن الكلمة الأخيرة ، ومرت خمس سنوات ، ثم جاءت البنتان التوأمتان مع المرأة ، وعرفت البنتين ، وعرفت كيف بقيت البنتان فى الأحياء ، عرفت ذلك وقلت : لقد توسلت المرأة من أجل طفليها وصدقتها وظننت الطفلتين لا تحييان بدون أب ولا أم ، والآن أرى المرأة الغريبة قد أرضعتهما ، وربتهما ، وعندما ذرفت المرأة دموع الحب لأطفال الغرباء رأيت الله الحى فيها ، وعرفت ما به حياة الناس ، وعرفت أن الله كشف لى عن الكلمة الأخيرة وعفا عنى ، فابتسمت الثالثة .

ثم سقطت الملابس عن جسم الملك ، ووقف مغموراً فى النور ، حتى لم تعد العين تقوى على النظر إليه ، وازداد صوته عظمة حتى كأنه لا يصدر منه بل من السماء ، قال الملك.

- فهمت أن كل إنسان لا يحيا بتدبيره لنفسه ، بل بالحب .

لم يُعط للمرأة أن تعلم ما الذى تحتاج إليه طفلتاها لتعيشا ، ولم يعط للرجل الغنى أن يعلم ما الذى يحتاج إليه ، ولم يعط لإنسان أن يعلم أيحتاج إلى حذاء ليلبسه أم إلى خف ليدفن فيه قبل أن ينقضى النهار .

لقد حفظت حياتى البشرية لا لأنى دبّرت لحاجاتى بل لأنِ عابر الطريق كان فيه الحب، وكان فى زوجه الحب ، ولأنها أحبتنى وعطفت ، علىَّ ، وعاشت اليتيمتان لا لأن غيرهما حاولوا أن يدبروا لهما بل لأنِ المرأة الغريبة كان الحب فى قلبها ، فأحبتهما ، وعطفت عليهما ، والناس جميعاً يحيون لا لأنهم يدبرون لأنفسهم بل لأن الحب فى الناس .

عرفت أن الله أعطى الحياة للناس وأرادهم أن يحيوا والآن أعرف شيئاً أكثر .

أعرِف أن الله لم يرد أن يعيش الناس كلٌّ لنفسه ، ولهذا لم يكشف لهم عما يحتاج إليه كلٌ منهم لنفسه ، لقد أرادهم أن يعيشوا فى أخوّة ، فكشف لهم عما يحتاجون إليه جميعاً لأنفسهم ولغيرهم .

والآن أعرف أن الناس لا يحسبون إلا أنهم يحيون بالتدبير لأنفسهم ، ولكنهم يحيون بالحب وحده ، ومن يَحْيَ بالحب يَحْيَ بالله ، ويَحْيَ الله فيه . فالله هو الحب .

وسبح الملك بحمد الله فارتجَّ البيت بتسبيحه ، وانفتح السقف ، وارتفع عمود نار من الأرض إلى السماء ، وخر سيميون وزوجه وأطفالهما راكعين ، وانبسط جناحان على ظهر الملك وارتفع إلى السماء .

وعندما ثاب سيميون كان الكوخ كعهده به ، ولم يكن فى الحجرة غير سيميون وأسرته .

فهرس

الموضوع	صفحة

الكتاب الثانى

فيدُور دستويفسكى

المقامر

تعريب

شكرى محمد عياد

العنوان الأصلى للكتاب

FEDOR DOSTOIEVSKI

THE GAMBLER

- ١ -

عدت أخيراً بعد غيبة أسبوعين ، وكانت الجماعة قد وصلت منذ ثلاثة أيام إلى « رولتنبرج » ، وكنت إخالهم ينتظروننى فى لهف شديد ، ولكن خاب ظنى ، فقد نظرا إلىَّ الجنرال باستعلاء ، وخاطبنى بأنفة ، وأرسلنى إلى أخته ، ووضح لى من ذلك أنهم حصلوا على شىء من المال من طريق ما ، بل لقد خيل إلىَّ أن الجنرال خجل قليلا حين نظر إلىَّ .

وكانت ماريا ڤليوڤنا تبدو هى الأخرى فى شغل عنى ، وقد حدثتنى وهى شاردة اللب ، ولكنها أخذت النقود وأحصتها ، واستمعت لقصتى ، وعلمتُ أنهم أعدوا وليمة غداء فخمة - كعادة المسكوفيين حين لايعوزهم المال - ودعوا إليها ميزانتسوف ، والفرنسى الصغير ، وسيداً إنجليزيًا .

سألتنى پولينا ألكسندروڤنا عن السر فى غيبتى الطويلة ، ولكنها ذهبت دون أن تنتظر جوابى ، ولم يخالجنى ريب فى أنها فعلت ذلك عامدة ، وشعرت أن الوقت قد حان لتنجلى الأمور بيننا .

خصصتُ بغرفة صغيرة فى الطابق الرابع من الفندق ، حيث يقال إنى « من أتباع الجنرال » ، ويبدو لى أن الجماعة قد جعلت لنفسها منزلة هنا ، حيث يظن أن الجنرال نبيل روسى واسع الثراء ، لقد أمرنى الجنرال قبل الغداء أن أصرف له ورقتين من ذوات ألف الفرنك من مكتب الفندق ، وذلك بلا ريب يجعلنا نبدو من أصحاب الملايين ، ليت ذلك يدوم أسبوعًا واحداً فقط .

وكنت موشكا بعد ذلك أن أخرج مع ميشا وناديا للنزهة ، ولكن الجنرال استدعانى بينما كنت أهبط الدرج ، وقال : إنه يود أن يعلم أين أذهب بالطفلين ، حقًا إن هذا الجنرال لايجسر على النظر إلى عينىَّ مهما حاول ذلك ، فإنى أرده كل مرة بنظرة ثابتة هازئة ، تفقده ثقته واطمئنانه ، عمد إلى أسلوب طنان ، تتراكب فيه الجمل ثم تتداعى متنافرة ، فأبان لى أننى يجب ألا أذهب بالطفلين إلى الكازينو ، بل يجب أن أصحبهما إلى الحديقة ، ثم انفجر غضبه فجأة ، وأضاف بحدة :

- أجل ، فربما حدثتك نفسك أن تأخذهما إلى الكازينو لتلعب القمار ، ليس بخاف علىَّ أنك جد شغوف بالمقامرة . لست مربياً لك ، ولا أرغب أن أكون كذلك ، ولكن من حقى أن أريد ... باختصار ... أن تحافظ على سمعتى .

فأجبته بهدوء :

– ولكن المقامر لابد له من مال . إنى لا أملك شيئاً .

فأجاب الجنرال :

– لن يطول بك الوقت حتى تجد مالاً .

واحمر وجهه قليلا وهو يمد يده فى درج مكتبه ليخرج سجل حسابه ، حيث وجد أن لى عنده مائة وعشرين روبلا .

– تعال نحسب . علينا أن نحول هذا المقدار إلى عملة ألمانية . هاك مائة تالر . لن يضيع الباقى .

فتناولت النقود صامتاً ، وأضاف الجنرال :

– يجب ألا تغضب لما قلته لك . ما أشد تأثرك لهذه الأمور ! إننى لم أقصد من الملاحظة التى أبديتها لك إلا مجرد التحذير ... ومن حقى أن أفعل ذلك .

بينما كنت عائداً مع الطفلين قبيل الغداء ، قابلت أصحابنا فى قافلة ، وقد خرجوا ليشاهدوا بعض الأطلال الشهيرة فى الضواحى . كانت المدموازيل بلانش جالسة فى عربة جميلة مع ماريا فليوڤنا وپولينا ألكسندروڤنا ، والفرنسى الصغير والإنجليزى والجنرال محيطين بالعربة على صهوات جيادهم ؛ ووقف المارة ليتأملوا منظرهم العجيب ، وكان الجنرال لايفتأ يتململ على ظهر جواده ، لعل سر قلقه أن أربعة آلاف الفرنك التى أحضرتها إليه ، إذا أضيف إليها ما حصل عليه هنا كان ما معه لايزيد عن سبعة آلاف فرنك أو ثمانية آلاف ، وهذا المقدار أقل بكثير مما تتطلبه المدموازيل بلانش .

إن هذه المدموازيل بلانش ، تقيم فى فندقنا مع أمها ، كما يقيم فى مكان منه الفرنسى الصغير أيضا ، والخدم هنا يسمونه « السيد الكونت » كما يسمون أم المدموازيل بلانش « السيدة الكونتس » ؛ ولم لا يكونان حقاً كونتا وكونتة ؟

لم أعجب أيضًا حين رأيت السيد الكونت يقتحمنى ببصره ، ونحن على المائدة ، فإن الجنرال لم يخطر بباله أن يقدم الواحد منا إلى الآخر ، ولا أن يزكينى عند الكونت ؛ أما السيد الكونت فقد عاش فى روسيا ، وهو يعلم حق العلم أن الأوتشيتل (المربى) ليس بالشىء الخطير هناك ، وما من شك فى أنه عرفنى ، ولكنى لم أكن مدعواً للغداء ، وقد أراد الجنرال أن يستدرك الأمر ، بأن يرسلنى لأتغدى على مائدة

الفندق العامة – فهمت هذا من نظرة الضجر التى أنعم بها علىّ – وأشارت ماريا فليوڤنا إلى مكانى ، ولكن معرفتى السابقة بالمستر أستلى أخرجتنى من ذلك المأزق . فجلست بين الجماعة رغم أنف الجنرال والسيد الكونت والسيدة الكونتة . وكنت قد عرفت هذا الإنجليزى الغريب فى بروسيا ، حيث اتفق أن جلسنا متقابلين فى عربة من عربات القطار الذى ركبته لألحق بالجماعة . ورأيته بعد ذلك فى فرنسا وفى سويسرا ؛ ومن عجيب الصدف أن أراه مرتين فى مدى أسبوعين ، ثم أراه مرة ثالثة هنا فى رولتنبرج ! لم يتفق لى قط أن رأيت رجلا فى حيائه واعتزاله ، فقد كان نفوراً للغاية ، ولكنه كان يدرك ذلك ، إذ لم يكن غبيًا . وهو بعد امرؤ دمث الخلق لطيف المعشر ، وقد جعلته يأنس إلىّ لأول لقائه ، وأخبرنى أنه ذهب فى الصيف الماضى إلى الرأس الشمالى ، وكان يود أن يشهد سوق نشنى نوڤجرود ، لست أدرى كيف أصبح من رفقة الجنرال ، ولكن يبدو لى أنه مدله فى حب پولينا . وقد سر كثيراً حين جلستُ بجانبه ، وكأنى صادفت مكاناً رحيباً من نفسه .

وكان الفرنسى الصغير يُشَعِّب الحديث على المائدة ، ويعامل الجميع بترفع ، وهو يتحدث عن أحوال روسيا المالية والسياسية ، غير تارك لأحد فرصة الاعتراض ، اللهم إلا الجنرال الذى لم يكن بعدُ يجرؤ على ذلك إلا فى كثير من التهيب .

أما أنا فكنت أفكر تفكيراً غريباً ، فقد جعلت أسائل نفسى ذلك السؤال الأبدى : لماذا أتعلق بأذيال هذا الجنرال ، ولماذا لم أتركه هو وأسرته منذ زمن طويل ؟ وكنت أنظر بين الفينة والفينة إلى پولينا ألكسندروڤنا ، ولكنها لم تعرنى أدنى اهتمام ، فضاق صدرى ، ونفد صبرى ، وعزمت على أن أكون فظاً .

وخضت فى الحديث دون تلطف ولاتمهيد ، وكنت أتحرق شوقاً إلى مناوشة الفرنسى الصغير . فأخذت أتحدث إلى الجنرال وأنا أرمى إلى هذا الهدف ، ثم قطعت حديثه فجأة وقلت له : إنى وجدت الروس هذا الصيف لايكادون يستطيعون الغداء على « موائد الفنادق » فى أى مكان . فرمقنى الجنرال دهشاً فاستطردت : فإن الرجل الكريم لابد أن يحتمل فى ذلك كل أذى وإهانة . ففى باريس ، وعلى الرين ، وفى سويسرا أيضاً ، ترى على هذه الموائد كثيراً من البولنديين وأصدقائهم الفرنسيين لايكفون عن الكلام ، ولايطيقون أن ينبس الروسى بكلمة . قلت هذا بالفرنسية ، فنظر إلىّ الجنرال فى ريبة ، وكأنه لايدرى أيتكلف الغضب ، أم يكتفى بأن يظهر الدهشة لتناسى منزلتى . ولكن الفرنسى قال بازدراء وعدم اكتراث :

– لعل أحداً لقنك درساً عن ذلك فى مكان ما .

فمضيت أقول :

– أجل . عندما كنت فى باريس تنازعت مع پولونى ، ثم مع ضابط فرنسى كان يناصره . وكانت ثلة من الفرنسيين مارة بجانبى عندما قلت لهما : إنى توعدتُ مرة بأن أبصق فى فنجان قهوة مطران ! .

فحملق الجنرال فىَّ ذاهلاً ، وصاح مستنكراً : تبصق !

وحدجنى الفرنسى غير مصدق فاستأنفت قصتى :

– أجل ، حدث مرة أنى كنت أتأهب للرحيل إلى روما لأمر هام ، فذهبت إلى السفارة البابوية لوسم جواز السفر ، وهناك قابلت قساً فى نحو الخمسين ، ذا وجه جاف بارد . أصغى إلى مطلبى بأدب يمازجه التحفظ والتوقر ، ثم سألنى فى جفاء شديد أن أنتظر قليلا . وكنت عجلان ، ولكنى جلست وأخرجت من جيبى نسخة من صحيفة الأپنيون ناسيونال (الرأى العام) ، فوقع نظرى على مقال فيه طعن هائل موجه إلى روسيا . وبينما كنت أقرأ ، سمعت شخصاً يدخل إلى المطران من حجرة مجاورة ، ورأيت القس ينحنى للزائر ، انحناءة عظيمة ، ثم ينحنى له مرة أخرى عند انصرافه . فذكرت القس بحاجتى متلطفاً ، ولكن ذلك لم يزده إلا جفاء ، وسألنى مرة أخرى أن أنتظر . ثم جاء زائر ثالث فى حاجة له (وإخاله كان نمسويًا) فما كاد يعرض حاجته حتى أذن له فى الدخول . فتملكنى الغضب ، ونهضت ، واقتربت من القس ، وقلت له فى شدة : ما دام المطران يستقبل الزائرين ، فيجب أن يتسع وقته لحاجتى أيضاً . فتراجع القس مأخوذاً وكأنه لايعقل أن روسيًا بسيطاً يستطيع أن يسمو بنفسه إلى مرتبة غيره من زوار المونسنيير ! ثم أجال طرفه فىَّ وقال فى لهجة تحد ، وكأنه يلتذ بالاساءة إلىَّ : عجباً ! أتريد أن يترك المطران قهوته تبرد من أجلك ! عندئذ صرخت بصوت كالرعد : إنى أبصق فى قهوة المطران ، وإذا لم يفرغ من هذا الجواز على الفور فسأدخل على الرغم منك ! فصاح القس وهو يرتعد من الخوف : ماذا تقول ؟ إن المطران عنده كردينال الآن ! وأسرع إلى الباب ، وأسند ظهره إليه ، وبسط ذراعية كأنه يرينى أنه يفضل الموت على أن يسمح لى بالدخول . فأجبته بأنى ملحد بربرى ، وأنى لا أبالى بهؤلاء الرعاة والكرادلة والمطارنة ومن إليهم . فنظر إلىَّ القس فى ابتسامة غريبة ، ابتسامة تنم عن حقد متأصل ، وغضب مكظوم . ثم انتزع الجواز من يدى ، وبعد لحظة كان قد وسمه . وإليكم الجواز إن شئتم أن تروه .

وأبرزت الجواز ، وأريتهم السمة البابوية . فتمتم الجنرال :

– ولكن ...

وقال الفرنسى مبتسماً :

– لم ينقذك إلا إعلانك أنك ملحد وبربرى . ها ها ! لم تكن غبيًا ! إذ قلت هذا !

– هل كان أجدر بى أن أقلد إخواننا الروس ؟ إنهم لا يحركون ساكناً ، ولايبدون اعتراضاً ، بل ما أراهم إلا مستعدين لأن ينكروا قوميتهم متى سُئلوا . حقاً لقد زدت فى أعين القوم احتراماً عند ما عرفوا شجاعتى مع القس ، ولاحظت أن السيد البولونى الذى كان أسوأ الجميع أدباً ، قد صعد إلى غرفته مسرعاً . أما الفرنسيون فلم يقاطعونى حين رويت لهم أنى رأيت منذ عامين رجلا أطلق عليه أحد « الأبطال » الفرنسيين رصاص بندقيته فى سنة ١٨١٢ ، لمحض اللهو ، ولم يكن ذلك الرجل يومئذ إلا صبياً فى العاشرة ، وما تزال أسرته مقيمة فى موسكو .

فزمجر الفرنسى الصغير :

– هذا غير ممكن ! إن الجندى الفرنسى لا يرمى طفلا بالرصاص ! فأجبته ببرود :

– ولكن هذا ما حدث . لقد أخبرنى بالقصة ضابط سابق وقور ، وقد رأيت الندبة على خده .

وأخذ الفرنسى يتحدث فى طلاقة وحماسة ، وأراد الجنرال أولاً أن يؤيده ، ولكنى نصحت للفرنسى بأن يقرأ طرفًا من مذكرات الجنرال پيروڤسكى ، الذى كان أسير الفرنسيين عام ١٨١٢ . وأخيراً أثارت ماريا فليوڤنا موضوعاً آخر لتقطع هذا الحديث . وكان الجنرال بادى السخط علىّ لمشاحنتى مع الفرنسى ، على حين أظهر المستر أستلى سروراً كبيراً بهذه الملاحاة ، ودعانى وهو ينهض عن المائدة لأن نشرب سوياً بعض الكئوس .

فى نحو الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم ، تحدثت إلى پولينا حديثنا العادى ، ثم أخذنا نسير فى الحديقة حتى اقتربنا من الكازينو ، فجلست پولينا على مقعد قرب النافورة ، وأرسلتْ ناديا تلعب مع أطفال آخرين على مقربة منا ، كما أرسلتُ ميشا يلعب قرب النافورة ، فأصبحنا وحيدين .

بدأنا الحديث فى شئون عملية ، وغضبت پولينا حين قدمت إليها سبعمائة « جُلْدْ » فقد كانت تطمع أن تحصل من رهن جواهرها فى باريس على ألفى جلد بل أكثر .

قالت : لا بد أن أحصل على النقود مهما كلفنى ذلك ، وإلا ضِعتَ .

فسألتها عما جرى فى أثناء غيبتى . فأجابت :

– لاشىء غير أننا تلقينا خبرين من بطرسبرج ، الأول : أن الجدة فى أسوأ حال ، والثانى : أنها قد لاتمتد بها الحياة يومين جديدين ، ومصدر هذا الخبر الأخير هو تيموثى پتروڤتش ، وهو أمين كما تعلم .

– إذن فكلكم منتظرون .

– أجل . كلنا ننتظر بين لحظة وأخرى . وقد مضى عام ونصف ونحن نترقب .

– وهل تطمعين أنت فى شىء ؟

– أنت تعلم أنى لست من أقرباء الجدة . فما أنا إلا ربيبة الجنرال ، ولكنى واثقة أنها لم تنسنى فى وصيتها .

فأجبتها مؤكدا :

– بل أعتقد أنها حبتكِ بكيثر .

– أجل . فهى تحبنى . ولكن ما الذى دعاك إلى أن تفكر فى هذا ؟ فأجبت على سؤالها بسؤال :

– هل يعلم المركيز أيضاً بهذه الأسرار ؟

فقالت وهى تنظر إلىّ بصَرامة :

– ولماذا تهتم أنت بها ؟

– معذرة . ولكنى أظنه قد أقرض الجنرال شيئاً من المال .

– هذا صحيح .

– حسناً ! أترينه كان يقرضه شيئاً لو لم يكن يعتمد على مال الجدة ؟ هل لاحظت أنه سماها الجدة ثلاث مرات على المائدة ؟ يا لها من ألفة ! كأنه فرد من الأسرة !

– ولكنك مصيب فى ظنك . لن يعلم أن لى نصيباً من الوصية حتى يسألنى أن أتزوجه . أليس هذا ما تريد أن تعلمه ؟

– ألم يفعل ذلك بعد ؟ كنت أظنه فعله من زمن طويل .

فقالت پولينا فى صبر نافد :

– أنت تعلم جيداً أنه لم يفعل ! وأردفت بعد فترة :

– ولكن أين لقيت هذا الإنجليزى ؟

– كنت أعلم أنك ستسالينني عنه .

وأخبرتها كيف صادفت أستلى فى أثناء السفر . وأضفت :

– أنه شديد الحياء . وهو يحبك أيضًا .

– أجل . إنه يحبنى .

– يظهر أن ثروته عشرة أضعاف ثروة الفرنسى . من يدرى ماذا يملك هذا الفرنسى ؟ يخيل إلىّ أنه لا يملك شيئًا على الإطلاق !

– كلا . لاشك أنه يملك قصراً فى مكان ما ، وقد أخبرنى الجنرال بذلك أمس . هل عرفت الآن كل ما تريد ؟

– ربما كان ما تقولينه صحيحاً . ولكنى لو كنت فى مكانك لتزوجت الإنجليزى .

– لماذا ؟

فقلت فى نبرة حاسمة :

– لاشك أن الفرنسى أجمل ، ولكنه أحط أخلاقاً . أما الإنجليزى فهو رجل شريف ، وثروته عشرة أضعاف ثروة الفرنسى .

– حقا ! ولكن الفرنسى مركيز ، وهو أذكى من الإنجليزى .

– أترين ذلك ؟

غضبت پولينا لأسئلتى ، ولاحظت أنها تجتهد فى إغاظتى بعنف إجاباتها ، وصارحتها بهذه الفكرة على الفور ، فقالت :

– إنى أسر حقًا حين تغضب . ولكنى أسمح لك بأن تسأل وتلح وتستطلع فيجب أن تدفع الثمن .

فأجبتها بهدوء شديد :

– يخيل إلىّ أن لى الحق فى أن أسالك ما أشاء من الأسئلة ، ما دمت مستعداً لأن أدفع الثمن ، ولأن أقدم إليك حياتى دون مطمع .

فجعلت تضحك لاهية ثم قالت :

– لقد أخبرتنى أخيراً عندما كنا فى شلاجنبرج أنك مستعد لأن تقذف برأسك إلى الهاوية إذا أمرتك . ويخيل إلىَّ أن عمق هذه الهاوية كان ألف ذراع . سأقول لك يوماً من الأيام هذه الكلمة التى تنتظرها ، وسأعرف عندئذ مبلغ صدقك . إنى أكرهك ، لأنى سمحت لك بأن تحدثنى كما تشتهى ، وأكرهك أيضاً لأنى فى حاجة إليك . ومع ذلك فليس لك أن تجزع ، فسوف أصانعك ما دمت أحتاج إليك .

كان فى كلامها نبرة الغضب الشديد . ولاعجب ، فعلى هذا النحو كانت تنتهى محادثاتنا فى الأيام الأخيرة .

– هل لى أن أسالك من هذه المدموازيل بلانش ؟

– أنت تعلم ذلك جيداً . هى المدموازيل بلانش ، ولم يجد جديد منذ سافرتَ . ولكن قد لا يطول بها الوقت حتى تمسى « عقيلة الجنرال » . هذا إن صدق ما سمعناه وكانت الجدة مشرفة على الموت ، فأن المدموازيل بلانش وأمها وقريبها المركيز يعلمون جيداً أنا مفلسون .

– وهل يحبها الجنرال ؟

– ليس هذا هو المهم فى المسألة . اسمع ، هاك سبعمائة فلورين . أذهب إلى الروليت واربح لأجلى كل ما تستطيع . فلابد لى من المال .

قالت ذلك ، وأخذت ناديا معها ، ودخلتا الملهى حيث انضمتا إلى سائر الجماعة . أما أنا فسلكت أول درب على يسارى وجعلت أفكر . لقد أصابنى الذهول حين أمرتنى بالذهاب إلى الروليت ، ومن العجيب أن هذا الذهول أدخل على نفسى التردد ، وجعلنى أحلل شعورى نحو پولينا . الحق أنى كنت أنعم بالاً طيلة الأسبوعين اللذين قضيتهما بعيداً عنها ، منى يوم عدت إليها . وذلك رغم أنى كنت أشعر بالملل ، وكنت أتخبط كالأبله ، وأندفع كالمحموم ، وكانت صورتها ملء خيالى .

ولا أنسى أنى كنت يوماً فى سويسرا ، وكنت نائماً فى عربة قطار ، فوجدت نفسى أكلم پولينا بصوت عال ، ولعل ضحكات جيرانى هى التى أيقظتنى .

وسألت نفسى مرة أخرى ، أترانى أحبها ؟ وللمرة المائة عجزت عن الجواب ، أو بالحرى قلت لنفسى إنى أكرهها . نعم ، إنى أكرهها . فقد كنت أشعر أحياناً ، وخصوصاً عندما يشرف حديثنا على الانتهاء ، أنى مستعد لأن أدفع كل ما بقى

من أعوام حياتى ثمناً لأستطيع خنقها . آه لو استطعت أن أغمد فى صدرها قليلا قليلا خنجرى المسنون ! يخيل إلىّ أنى لو فعلت ذلك لسررت أعظم السرور . ومع هذا أستطيع أن أقسم أيضاً أنها لو أمرتنى ، هناك على شلاجنبرج ؛ ذلك الجبل الأنيق ، أن أقذف بنفسى إلى الهاوية لفعلت ذلك سعيداً . أجل ، إنى واثق من ذلك . يجب أن ينتهى هذا الأمر يوماً . إنها هى أيضاً لا تجهله ،. إنها تعلم إحساسى بالعجز أمامها ، واليأس من تحقيق أحلامى معها . وهذا ولاشك يملؤها سروراً ، ويجعلها صريحة معى رغم حرصها وذكائها . إنها تشبه تلك الأمبراطورة القديمة التى لاتتردد أن تتعرى أمام عبدها – ويبدو لى أننى كنت فى عينى پولينا أقل من رجل .

ولكنها أمرتنى أن أربح كل ما أستطيع فى الروليت . لماذا ترى حتما عليها أن تربح ، وأى جديد تمخض عنه عقلها الخصب ؟ يبدو لى أنه قد تجمت فى ذينك الأسبوعين اللذين لم أشهدهما عوامل كثيرة مجهولة . وعلىّ أن أحدس وأختبر . ولكنى لا أجد متسعاً من الوقت للتفكير الآن ، إذ يجب على أن أذهب إلى الروليت .

* * *

- ٢ -

أعترف أن ذلك لم يرقنى . حقًا لقد كنت عازمًا على اللعب ، ولكنى لم أكن أريد أن ألعب لغيرى ، ولذلك اضطرب تفكيرى ، وخالجنى ، حين دخلت بهو القمار ، ازدراء لما حولى ، وتملكنى لأول وهلة ضيق بكل شىء . لطالما أنكرت هذا الروح الذليل الذى يبدو فى صحف العالم أجمع ، وفى صحافة روسيا خاصة ؛ هذا الروح الذى يحتم على كل صحفى مرتزق أن يكتب كل مساء عن هذين الموضوعين : «فخامة صالونات اللعب فى مدن الروليت على ضفاف الرين ، وأكوام الذهب التى تتكدس كل يوم على الموائد» . ومن الغريب أن هؤلاء المرتزقة لايؤجرون على ذلك الكلام ، بل هم يصدرون فيما يكتبونه عن ذلة محضة . فليس فى هذه الأبنية شىء من الفخامة ، وأكوام الذهب لا ترى على هذه الموائد ، بل إن ما يرى من المال جد قليل . طبيعى أن موسم اللعب قد يأتى المدينة بطارق أجنبى من أثرياء الإنجليز أو الأسيويين أو الترك ، فيلبث فى المدينة يومين ، ويبيت ليلة فى البهو ، ليخسر فيه أو يربح أموالا طائلة . ولكن عامة اللاعبين لا يقامرون بغير فلورينات معدودة ، وموائد اللعب لا ترى عليها عادة إلا قليلا من النقود .

فلما دخلت بهو القمار هذه المرة - وكان ذلك فى أول عهدى بالقمار - لبثت لحظات عديدة وأنا لا أجرؤ على اللعب . وضاق صدرى لكثرة من كان هناك من اللاعبين ، ولو كنت أقامر لنفسى لانصرفت لتوى ، ولما أقدمت على اللعب قط . فقد أخذ قلبى يدق دقاً شديداً ، وفقدت رباطة الجأش .

كنت عازماً منذ زمن طويل ألا أغادر رولتنبرج إلا وقد تبدل مصيرى تبدلا تاماً نهائياً . هذا ما يجب أن يكون ، وهذا ما سوف يكون . قد تسخر من هذه الفكرة ، ولكنى لا أراك أقرب إلى الصواب منى ، فإن القمار وسيلة للربح كغيره من الوسائل . حقاً إن الربح فى القمار لايقيض إلا لواحد فى المائة ، ولكن هناك هذا الواحد . ولهذا صممت على الفور أن أختبر كل شىء وأن لا أبدأ بدءاً حقيقياً تلك الليلة ، فقد شعرت أنى لو أقدمت على شىء ما لفعلته ذاهلا معتمداً على الصدفة وحدها .

كنت عاقد العزم على هذا ، وكان علىَّ بعدُ أن أدرس اللعبة نفسها ؛ فإنى رغم كل ما التهمت من كتب الروليت ، لم أستطع أن أفهم طرق اللعب إلا حين مارستها بنفسى . غير أن كل شىء بدا لى أول الأمر دنيئاً قذراً ، ولست أعنى ذلك الجمهور

الجائع القلق الذى كان يزدحم عشرات ومئات حول الموائد ، فإنى لا أجد شيئاً من الدناءة فى رغبة الإنسان أن يربح من أقصر طريق أكثر ما يستطيع من المال . ولقد كان يعجبنى قول ذلك الحكيم السالف : « إذا قامرت فلا تلزم الحذر ، فإن القليل التافه لا يأتى إلا بالقليل التافه ، وهذا الحرص لا يجعل القمار خيراً مما هو » . إلا أن المسألة تبدو لى نسبية ، فتفاهة الربح وجسامته ليست واحدة فى كل حال ، والقليل عند روتشيلد كثير بالنسبة إلى ! وليس ذنب القمار والربح أنك حيثما وجدت أناساً يربحون، وجدتهم يحرمون غيرهم من بعض الأشياء ، كما يفعلون فى الروليت . أما أن القمار والربح حرام فى ذاتهما فمسألة أخرى لا أريد أن أبدى فيها رأياً .

لم تعزف نفسى إذن عن هذه الجموع المتزاحمة تبغى الربح ، بل لعلها وجدت فيهم ترديداً لرغبتها ، فاستشعرت نحوهم شيئاً من التعاطف الذى يحسه المرء حين يرى الناس طلقاء من قيودهم ، أمناء لطبيعتهم . ولكن الذى هالنى يفظاظته وفظاعته فى هذه الأخلاط التى يتكون منها جمهور الروليت ، إنما هو تلك الرزانة المثيرة التى يصطنعها الجالسون حول الموائد . فهناك نوعان من اللعب : لعب السيد ، ولعب السوقة . وتستطيع أن تميز هذين النوعين بجلاء ، ولو أن التمييز بينهما عبث وسخف . أما السيد فيقامر بخمسة لويات أو عشرة ، وقلما يضع أكثر من ذلك ، ولو أنه يستطيع – إذا كان غنياً – أن يقامر بألف فرنك ؛ ولكن هواه فى اللعب ذاته ، وما يدخله على نفسه من الطرب تقلب الحظوظ واختلاف الربح والخسارة . أما الربح نفسه فأمر لا يعنيه . ويجمل بالسيد حين يتناول ربحه أن يطرف أحد جيرانه بملحة .

وقد يلعب السيد بما ربح ، بل قد يضاعفه ، ولكنه لا يفعل ذلك إلا بدافع الاستطلاع ، ومسايرة الحظ ، والتفنن فى اللعب ، لا بالرغبة السوقية فى الربح . لا ينبغى أن يرى السيد فى بهو القمار إلا ملهاة ، وليجهل كل الجهل أن موائد القمار إنما تقوم على غرور الربح وإغراء المال . والأفضل أن يفترض السيد ذلك فيمن يحيط به من اللاعبين ، الذين ترتعش أيديهم على كل قطعة من النقود ، فيراهم مثله سادة أثرياء ، يلعبون للذة والاسترواح . وهذه هى الأرستقراطية الصحيحة فى نظرى : جهل تام بالحقائق ، ونظرة بريئة إلى البشرية ... ولقد رأيت أمهات يقدمن النقود الذهبية إلى فتيات غريرات فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، ويعلمنهن اللعب ، وقد تربح الفتيات أو لا تربحن ، ولكنهن يجب أن يضحكن على كل حال ، وأن ينصرفن وعليهن مظاهر السرور .

ورأيت جنرالنا مرة يقترب من المائدة فى وقار ، فيسارع إليه الخدم يقدمون له كرسياً ، ولكنه لايكاد ينتبه إليهم ، بل يتناول من حافظة نقوده ثلاثمائة فرنك ذهباً ، ويضعها على الأسود ويربح ، ويكرر ذلك فيظهر الأسود ثانية ، ولكن الأحمر يظهر فى المرة الثالثة ، فيخسر ألفاً ومائتى فرنك دفعة واحدة ، ويخرج وهو يتجلد ويظهر الابتسام . ولا أنسى أن أضيف إلى هذه الأمثلة أن فرنسياً ربح أمامى ثلاثين ألف فرنك ثم خسرها وهو مسرور . أجل . إن السيد يجب أن يتقبل كل شيء بهدوء ، لأن المال عنده أحقر من أن يهتم له . ومن تمام الأرستقراطية - لا شك - ألا يلاحظ مبلغ حقارة هؤلاء الأوشاب الذين يحيطون به ، ولكن قد يكون من تمام الأرستقراطية أحياناً أن يلاحظ ذلك ويتأمله من خلال منظاره ، يفعل ذلك طلباً للتسلية ، وهل الحياة إلا تسلية للسادة ؟ إن السيد لايعيش إلا ليتفرج بالنظر إلى الدهماء . غير أنه يجب ألا يمعن النظر طويلا فيما حوله ، فهذا المنظر لا يستحق كبير انتباه ، وأى منظر يستحق انتباه السيد ؟ ... أقول هذا معبراً عن رأى السادة ، أما أنا فأعتقد أن ذلك كله يستأهل النظر الدقيق . غير أنى لم آت ههنا متفرجاً فحسب ، بل جئت فرداً فى عداد هذه الدهماء ، ولم تكن معتقداتى الخاصة تعنينى كثيراً . حسبى إذن أن أبسطها هنا ، فقد أصبح بغيضاً إلىَّ أن أخضع أعمالى وأفكارى لقوانين الأخلاق . إنى أتبع سبيلاً آخر ...

والحق أن لعب السوقة كان دنيئاً إلى الدرجة القصوى . وأكاد أعتقد أن هذا اللعب المزعوم ينطوى على سرقات صريحة . « فالكروپييه » عند كل من طرفى المائدة يجب أن يراقب النقود ، ويجرى الحساب ، وهذا الكروپييه سوقة هو الآخر ! والمقامرون أكثرهم فرنسيون . ويجب ألا تنسى أنى لم أكن أرمى بهذه الملاحظات إلى تدوين وصف للروليت وحسب ، ولكنى كنت أريد أن أعرف كيف يجب أن أسلك عندما أبدأ اللعب ، فليس بعيداً - بل من المألوف جداً - أن تمتد يدٌ إلى المائدة وتتناول ربحك ، وعندئذ يثور الجدل ، وترتفع الصيحات ، ولكن - بالله ربك - كيف تستطيع أن تثبت أنك صاحب المال ؟

لم أفهم ذلك كله بادى الأمر إلا كما أفهم العبرية . وكل ما علمته أنهم يلعبون على أرقام ، منها « زوجى » و« فردى » ، وعلى ألوان . وقررت ألا أقامر تلك الليلة إلا بمائتى فلورين من نقود پولينا .

وكانت أعصابى ثائرة لأنى مقدم على اللعب لغيرى . وآلمتنى هذه الفكرة ، فأردت أن أفرغ من كل شىء مسرعاً . لقد كان يخيل إلىّ أنى أحطم حظى باللعب لپولينا ، ويكفى أن تلمس مائدة اللعب حتى تؤمن بالخرافات ! وضعت خمسين جُلداً على « الزوجى » . ودارت العجلة وخرج الرقم الثالث عشر .

خسرت إذن ! ثم وضعت خمسين أخرى على الأحمر ، وأنا أغالب إحساساً كإحساس المريض بالألم ، ورغبة قوية فى الهروب من ذلك الحشد ، وظهر الأحمر . فتركت مائة الجلد على الأحمر ، وربحت ثانية ، ثم تركت المال حيث هو فربحت أيضاً . فأمسكت بأربعمائة الجلد ووضعت مائتين منها على الاثنى عشر الوسطى ، لأرى ماذا ينتج من ذلك . فإذا بالكروپييه يدفع إلىّ ثلاثة أضعاف رهانى ! إذن فقد أصبحت مائة « الجلد » ثمانمائة ! خامرنى إحساس غريب معقد يهيب بى أن أرحل ، وخالجنى الظن أنى لو كنت ألعب لنفسى لما ربحت هذا الربح . ثم وضعت ثمانمائة الجلد على « الزوجى » فوقفت العجلة على رقم ٤ .

وأخذت ألفاً وستمائة جلد وذهبت أبحث عن پولينا ألكسندروڤنا . فوجدت الجماعة كلهم يتنزهون فى الحديقة ، ولم أستطع أن أنفرد بها إلا بعد العشاء ، ولم يكن الفرنسى حاضراً هذه المرة ، فاستطاع الجنرال أن ينتهز هذه الفرصة ليتحدث بما يريد . وقال لى فيما قال إنه لا يريد أن يرانى على مائدة القمار ، فقد كان يرى فى ذلك تهديداً لسمعته ، ولاسيما إذا خسرت كثيراً . على أنه استدرك ملمحاً : ولن تسلم سمعتى أيضاً وإن ربحت كثيراً . ليس لى الحق أن أفرض عليك سلوكاً بعينه ، ولكنك توافقنى ...

وهنا أمسك كعادته ، فأجبته فى جفاء شديد أنى لا أملك إلا قليلا من النقود ، فلن أستطيع المقامرة كثيراً . وبينما كنت عائداً إلى غرفتى ، استطعت أن أخبر پولينا بربحها ، وصارحتها أنى لن ألعب لها بعد ذلك الحين ، فسألت فى قلق :

– لماذا ؟

فأجبتها وأنا أتصنع الدهشة :

– لأنى أريد أن ألعب لنفسى . هذا هو السبب الوحيد .

فقالت بابتسامة ساخرة :

– معك حق ! لا خلاص لك إلا بالروليت !

– أجل !

أعترف أن الأمل فى الربح المستمر أملٌ مضحك ، ولكنى لم أكن لأبالى بذلك ، ولم أرد إلا أن أُخلى وشأنى .

وقد أصرتْ پولينا ألكسندروڤنا على أن نقتســم ربـح اليوم ، وقدمت إلىّ ثمانمائة « جلُد » على أن أستمر فى اللعب بهذا الشرط . رفضتُ ذلك رفضاً باتاً ، وصارحتها أنى لا أســتطيع أن ألعب لغيرى ، وأنى أحس أن لو فعلت فقد أخسر ، بل سأخسر دون شك .

– ورغــم هــذا ، ورغــم ســخافة الفكرة ، فأنا أيضاً يخيـل إلــىّ أن لا أمــل لى فى غير الروليت . إذن يجب أن تلعب لى ، وأنا أريد أن أقاسمك ، وستفعل ما أريد .

وخرجت دون أن تنتظر أو تسمع احتجاجى .

- ٣ -

لم تحدثنى طيلة نهار أمس بشىء عن المقامرة . بل لقد تحاشتنى تحاشياً ، وغيرت قليلاً من سلوكها إزائى ، فلم تكد تبدى لى شيئاً حتى الاحتقار . وأدركتُ أنها غاضبة ، ولكن ألم تقل لى أنها ستصانعنى ما دامت تحتاج إلىّ ؟ لقد توشجت بيننا علاقات غريبة يعيينى فهمها فى أكثر الأحيان ، وأشد ما يحيرنى فيها كبرياؤها الشديد ، فهى تعلم أنى أحبها حتى الجنون ، بل تسمح لى أن أحدثها بحبى ، وليس أعظم من هذا علامة على الاحتقار ! فكأنها تقول : إن إحساساتك لا تهمنى . تستطيع أن تعبر عنها أو تدع ذلك ، فكلاهما سواء عندى !

وكثيراً ما تحدثنى عن شئونها الخاصة ، ولكنها لا تحدثنى ألبتة فى صراحة تامة ؛ وهذا أيضاً احتقار ملطف . وهى تعلم أنى مطلع على كثير من شئونها ، وعلى أشد هذه الشئون إرباكاً لها ، ولكنها لا تطلعنى إلا على تفاصيل قليلة ، حينما يكون ذلك ضرورياً للاستفادة منى واستغلالى ، وكأنما أنا عبد أو صديق عابر . أما مجرى الحوادث فقد كانت تخفيه عنى دائما ؛ إلا أن ترانى مهموماً لمشاكلها فتتفضل علىّ بشىء من التصريح ، كأن لم يكن واجبها - وقد عهدت إلى فى أمور خطرة - أن تكون صريحة معى كل الصراحة !

وقد كنت أعلم منذ ثلاثة أسابيع عزمها على أن تأمرنى بالمقامرة ، إذا لم يكن من اللائق أن تقامر هى . فلما طالعت محياها فهمت أن ذلك لم يكن منها لرغبة مبهمة بل لحاجة ملحة إلى النقود . ولكن لماذا تريد النقود ؟ لابد أن لها غرضاً ، بل مشروعاً لا أعلمه ، مشروعاً ألمحه ولكنى لا أكاد أتبينه . حقاً إن العبودية الذليلة التى تفرضها علىّ تمنحنى الحق فى أن أسألها عما أريد بغير مواربة ، وما دامت لا تهتم بى كثيراً فلن يغضبها فضولى . ولكنها إن سمحت لى بأن أسألها فلن تمنّ علىّ بالجواب ، بل لعلها لا تلتفت إلىّ بتة . هذا هو وضع المسألة .

سمعت أمس لغَطًا عن برقية أرسلت إلى بطرسبرج منذ أربعة أيام ولم يرد جوابها بعد ، وكان الجنرال يبدو قلقاً مفكراً ، فلا شك أن الأمر يتعلق بالجدة . وكان الفرنسى قلقاً أيضاً ، وقد تحدثت الجماعة كلها مساء أمس حديثاً جدياً طويلاً بعد العشاء . إن هذا الفرنسى يصطنع معنا جميعاً نغمة غريبة من التعالى والاحتقار ، وقد

قيل فى الأمثال : ادع شخصاً إلى مائدتك ، فسرعان ما يضع عليها قدميه . وهو كذلك يظهر نحو پولينــا ألفة تكاد تبلغ حد القحة ، إلا أنه يبدى سروره بمشاركة الجماعة فى نزهتهـا فى الملهـى وعلـى ظهـور الخيـل وفى الضواحـى . وقد كانت له بالجنرال منذ زمن طويل علاقات متشعبة ، وفكرا أن يؤسسا معاً مصنعاً فى روسيا ، ولا أدرى هل أقلعا عن هذه الفكرة أم ما زالا عازمين على تنفيذها . وقد بلغنى فوق ذلك أن الفرنسى أنقذ الجنرال من مأزق وقع فيه فى العام الفائت ، وذلك بأن أقرضه ثلاثين ألف روبل كان فى حاجة إليها ليدفع دينه للخزانة العامة قبل اعتزاله الوظيفة ... لقد كان الجنرال يومئذ فى قبضة دى جرييه ، أما الآن ، فالمدموازيل بلانش هى التى تلعب الدور الأول .

من هذه المدموازيل بلانش ؟ يقولون : إنها فرنسية من الطبقة الراقية ، وإنها تملك وأمها ثروة هائلة . ويقولون أيضاً : أنها تمت إلى المركيز بقرابة ، فلعلها تلتقى معه فى الجد الثالث . وقد علمت أنه قبل رحلتى إلى باريس ، كان فى سلوكهما نحو الجماعة شىء من الكلفة والتحفظ ، أما الآن فقد أصبحت معرفتهما بها ، أو صداقتهما لها ، أعظم تطلقاً ... فهل كان ذلك لأن اضطراب أحوالنا جعلهما يقرران ألا حاجة بهما إلى مزيد من التأدب أو التوقر ؟

ولاحظت أيضا منذ ثلاثة أيام أن المستر أستلى يتبع المدموازيل بلانش وأمها نظره ، وكأنه يعرفهما . ويخيل إلىَّ أيضاً أن الإنجليزى والفرنسى ليسا غريبين كل عن الآخر . ولكن المستر أستلى رجل حيىٌ مأمون اللسان ، وكأنه جُبل على كتمان الأسرار . والفرنسى لا يكاد يحييه أو يلتفت إليه ، ومعنى ذلك أنه لا يخافه . قد أفهم هذا كله ، ولكننى لا أفهم لماذا تصر المدموازيل بلانش على إهمال المستر أستلى ، خاصة وقد فضح المركيز نفسه مساء أمس ، إذ قال فى ثنايا الحديث – لا أدرى لأى مناسبة – إن المستر أستلى وافرا لثراء ، « وإنه يعلم ذلك » . ألم يكن هذا سبباً كافياً لأن تعنى المدموازيل بلانش بالإنجليزى عناية أكبر ؟ ... على كل حال فإن الجنرال لم يعدْ يخفى قلقه من هذه الناحية ، إذ أنه ما يزال ينتظر برقية من سانت بطرسبرج !

پولينا تتجنبنى شبه عامدة ، أما أنا فأتظاهر بعدم المبالاة ، معتقداً أن إعراضها لن يدوم طويلا . وقد حاولت الانتقام منها بأن وجهت كل اهتمامى نحو المدموازيل بلانش ، فطار قلب الجنرال المسكين شعاعاً ... من الدواهى أن يشغف الرجل حبًا وهو فى الخامسة والخمسين ، وهو أرمل وأبو ثلاثة أطفال ، وهو غارق فى الديون وعلى شفا الإفلاس . ثم أن يحب مثل هذه المرأة ! إن المدموازيل بلانش جميلة ، ولكن ماذا أقول ؟

إن لها وجهاً يمكن أن يكون مخيفاً . أما أنا فمازلت أرهب هذا الصنف من النساء . هى تبدو فى نحو الخامسة والعشرين ، مديدة القامة ، عريضة الكتفين مستديرتهما ، بديعة الصدر والعنق ، ذات بشرة صفراء كالذهب ، وشعر غدافىّ أثيث يستطيع أن يتوج رأسين ، وعينين يميل بياضهما إلى الاصفرار ، أما سوادهما فحالك ، ونظرة جريئة ، وأسنان ناصعة البياض ، وشفتين لايفارقهما الطلاء . وهى كثيرة التعطر بالمسك ، شديدة العناية بملبسها ، لها يدان وقدمان بديعتان ، وصوت أنثوى ملئ فى شيء من الصحل ... كانت حين تضحك تبدى أسنانها جميعاً ، ولكنها أميل إلى الصمت وخاصة أمام پولينا . ليست على شيء من الثقافة ، ولعلها ليست على شيء من العمق ، ولكنها شديدة الدهاء ، ويخيل إلىّ أن حياتها لم تخلُ من مغامرات . لعل المركيز لايمت إليها بقرابة ، ولا أمها كذلك ...

ولكن لاشك أنها عاشرت الطبقة الراقية فى برلين . أما المركيز نفسه – ولا زلت أشك فى نبالته – فهو بلا ريب قد اتصل بعلية القوم فى ألمانيا وروسيا ، ولا أدرى ماذا كانت هويته فى فرنسا ، ولكنهم يقولون إنه يملك قصراً هناك . لقد كنت أتوقع أن يحدث فى الأسبوعين الماضيين أمر حاسم بين المدموازيل والجنرال ، ويبدو أن كل شيء يتوقف على ما لدينا من مال : أيستطيع الجنرال أن يلوح أمامها بمال كاف ؟ كنت واثقاً أن المدموازيل بلانش ستختفى فى طرفة عين إذا ما علمت أنّ الجدة لم تمتْ . لشدَّ ما تضيق نفسى بهذه الخدع ! ولكم أود لو تركتهم جميعاً ! ولكن هل أستطيع أن أفارق پولينا ؟ هل أستطيع ألا أحوم حولها وأتجسس عليها محاولا إنقاذها ؟ لا شك أن التجسس خلق دنيء ، ولكنى لا أملك حيلة سواه .

وقد بدا لى أن المستر أستلى شديد القلق أيضاً ، ولست أشك فى أنه يحب پولينا . فكم تنم نظرة الرجل الخجول عليه إذا مسّ قلبه الحب ! هذا الرجل يفضل أن يغوص فى أعماق الأرض على أن يبوح بما صرحت به عيناه . إنه يلتقى بنا كثيراً ونحن نتنزه فيرفع قبعته ويمضى ، وكله رغبة فى أن ينضمّ إلينا . ولو دعوناه لاعتذر على الفور . كثيراً ما يقف على مقربة منا فى الكازينو أو بهو الموسيقى أو قرب النافورة . كان بصرنا يقع عليه حيثما كنا ... فى الحديقة أو الغابة أو فوق شلاجنبرج . فإذا حانت منا التفاتة فما من ريب فى أننا سنلمح أثراً منه فى أقرب ردهة أو خلف شجيرة . وكنت أترقب الفرص ليكلمنى ، حتى التقينا هذا الصباح ، وتبادلنا بضع كلمات . ابتدرنى قائلا قبل أن يوجه إلىّ التحية :

– لقد رأيت نساء كثيرات مثل المدموازيل بلانش ....

وصمت ونظر إلىّ نظرة ذات معنى . فماذا أراد أن يقول ؟ لا أدرى ! فإنى حين سألته :

– ماذا تعنى بهذا ؟

هز رأسه فى خبث وأجاب :

– كذا ... هل تحب المدموازيل پولينا الزهور ؟

– لا أدرى !

فصاح فى دهشة بالغة :

– كيف لا تدرى ؟

فأجبت مبتسماً :

– أجل . إنى لم ألاحظ قط أهى تحبها أم لا .

– عجباً . هذا أمر يدعو إلى التفكير .

وأومأ إلىَّ برأسه وابتعد ، وعلى وجهه سيماء الرضا . وكان الحديث بيننا فى فرنسية سقيمة .

* * *

٤

انقضى اليوم فى عبث وبلادة وحماقة . والساعة الآن الحادية عشرة مساءً ، وأنا جالس فى حجرتى أفكر ، لقد اضطررت أن أذهب هذا الصباح إلى الروليت ، وأقامر لپولينا ألكسندروڤنا ، ولكنى اشترطت عندما أعطتنى فلوريناتها الألف والستمائة ، ألا أقاسمها الربح ، وأن تشرح لى هذا المساء نفسه ، لماذا تريد النقود وكم تريد منها . فهى لا شك تريد هذه النقود لغرض بعينه ، وقد وعدتنى أن توضح لى الأمر ، وذهبتُ .

وكان بهو اللعب مكتظاً بالناس . فيالها من كائنات جشعة وقحة ! واخترقت البهو ، حتى ظفرت بمقعد إلى جانب الكروپييه ، ثم بدأت أقامر فى شىء من التهيب ، ولم أعدُ العشرين أو الثلاثين جلداً فى الدور ، ولكنى كنت ألاحظ ما يدور حولى ، وقد بدا لى أن القمار لا يعتمد على التقدير الرياضى ، أو على الأقل ليس للتقدير الرياضى تلك الأهمية التى يدعيها اللاعبون المحترفون ، الذين يحرصون على كتابة النتائج فى ورقة صغيرة ، ويحسبون الاحتمالات حساباً دقيقاً ، ثم يخسرون كالبسطاء الذين يلعبون جزافاً . ولكنى أدركت أن هناك نتيجة واحدة صحيحة ، وهى أن الصدف تتبع - لا أقول نظاماً - بل ترتيباً مخصوصاً . ولا شك أن هذا أمر جد غريب . فمثلاً إذا وقفت الكرة عند سلسلة من الأرقام الوسطى ، وقفت بعد ذلك عند سلسلة من الأرقام الخارجية . وإذا وقفت الكرة مرتين على سلسلة من الأرقام الخارجية عادت فوقفت مرة عند سلسلة الأرقام الأولى ، ثم وقفت عند سلسلة الأرقام الوسطي ثلاث مرات أو أربعًا ، ثم تنقلب إلى الأرقام الخارجية ، وتنقلب بعد دورين إلى الأرقام الأولى ، فتصيبها مرة ، ثم تعود إلى الأرقام الوسطى فتصيبها ثلاث مرات وتستمر كذلك ساعة ونصفاً أو ساعتين : واحد ، ثلاثة ، اثنان ، واحد ، ثلاثة ، اثنان . كان ذلك شيئاً غريباً جدًا . وقد يمضى يوم كامل والأحمر والأسود يتعاقبان ولكن بغير نظام ، حتى لا يكاد أحدهما يظهر مرتين متتاليتين . وفى اليوم التالى يظهر الأحمر وحده ، ويستمر فى الظهور مدة طويلة ، ربما كانت يوماً كاملا . وقد أمدنى المستر أستلى بكثير من هذه الملاحظات . وكان يقف إلى مائدة القمار طول الصباح دون أن يقامر بشىء .

أما أنا فسرعان ما خسرت كل ما معى . لعبت أولاً على الزوجى بمائتى جلد ، وكسبت ، ثم قامرت بمثلها وكسبت . وفعلت ذلك مرتين أو ثلاثاً . فلابد أنى كسبت فى مدى خمس دقائق ما يقرب من أربعة آلاف جلد ، وكان يجب أن أذهب بعد ذلك .

ولكن إحساساً عجيباً تملكنى ، كأنما كنت أريد أن أتحدى القدر وأصفعه على وجهه وأخرج له لسانى . فراهنت بأربعة آلاف فلورين وهو أكبر رهان جائز ، وخسرت . وغاظنى الفشل ، فوضعت كل ما بقى معى على الزوجى أيضاً وخسرت . وتركت المائدة ذاهلا . ولم أستطع أن أخبر پولينا بهذه الخسارة إلا قبيل الغداء ، بعد أن همت على وجهى فى الحديقة طوال الصباح .

وكنت شديد الانفعال عند الغداء كما كنت منذ أيام ثلاثة . وكان الفرنسى والآنسة بلانش حاضرين ، وقد علما بمغامرتى ، فقد كانت الآنسة بلانش فى بهو القمار ، فعنيت بى هذه المرة عناية أكبر ، أما الفرنسى فقد بدهنى بالسؤال عن تلك النقود أكانت لى ؟ ويبدو لى أنه كان يشك فى أمر بينى وبين پولينا . ولكنى انفجرت قائلا : إن النقود كانت كلها لى . وهنا دهش الجنرال دهشة عظيمة ، وسألنى من أين حصلت على هذه النقود ؟ فأوضحت له أنى بدأت اللعب بمائة جلد ، وكسبت ست أو سبع مرات متوالية ، فأصبح معى خمسة أو ستة آلاف خسرتها فى دورين . وبدا هذا كله معقولا . وبينما كنت أتحدث ، نظرت إلى پولينا ، ولكنى لم أستطع أن أتبين شيئاً فى محياها . إلا أن سكوتها عن معارضتى ، دلنى على أنى يجب أن أستمر فى ادعائى أنى لا ألعب لها . وحدثت نفسى أن عليها بدورها أن توضح لى الأمر . فقد وعدتنى هى بذلك . ولم يقل الجنرال شيئاً ، وإن بدا عليه الاهتمام بى ، ورأيت على وجهه الضيق والقلق . ولعله سخط لأنه – فى حين يعانى أشد الضيق فى هذه الأيام – يسمع بأكداس الذهب تتدفق بين يدى مجنون . ويخيل إلىَّ أنه تنازع مع الفرنسى ليلة أمس ، فقد انفردا فى غرفة مجاورة ، وسمعناهما يتكلمان بحدة ، ثم خرج الفرنسى مبدياً ضجره الشديد ، ولكنه بادر بالثورة هذا الصباح ليجدد النزاع ، فما كاد يسمع بخسارتى حتى أشار علىَّ فى غيظ وحنق ، بأن أكون أكثر احتياطاً ، ولأمر ما قال فى أثناء الحديث : « إن أكثر الروس يقبلون على المقامرة ، ولكنهم فى الحقيقة لا يفهمون أصول اللعب » .

فأجبته : أما أنا فأعتقد أن الروليت إنما ابتدعت للروس .

وحدجنى بنظرة احتقار ، فاستطردت قائلا :

– أجل . إنى واثق مما أقول . ولست امتدح الروس بذلك ، بل لعلى أذمهم .

فوافق ذلك هوى فى نفسه . ولكنه سأل :

– علامَ تبنى رأيك ؟

– على هذه الحقيقة : وهى أن من فضائل الرجل الغربى المتمدن ، أن يعمل لجميع رأس مال . أما الروسى فهو لا يستطيع أن يجمع رأس مال ، بل إنه ليبدد ما يملكه فى ثورة وبغير حساب . ولكنه فى حاجة إلى المال كسائر الناس ، ولهذا تستهويه تلك الطرق التى تجلب الثراء فى ساعتين ، كالروليت . فهو يلعب معتمداً على الصدفة ويخسر . قال الفرنسى راضياً : هذا حق !

فاعترض الجنرال بعنف :

– لا . ليس هذا حقًا . ويجب أن تخجل من أن يكون هذا رأيك فى مواطنيك !

فأجبته :

– ولكن قل لى ، أليس كسل الروس أنبل من طريقة الألمان فى جمع المال بعرق الجبين ؟

صاح الجنرال :

– يا لها من فكرة شاذة !

وأضاف الفرنسى :

– بل يا لها من فكرة روسية !

ابتسمت . فقد سرنى أن أناوشهما معاً . وعدت أقول :

– أما أنا فأفضل أن أهيم على وجهى طيلة عمرى ، وأن أنام تحت خيمة القرغيز ، على أن أسجد أمام معبود الألمان .

فسأل الجنرال وقد بدأ يغضب :

– أى معبود ؟

– الثراء ! ما أزال قليل التجربة ، ولكنى رأيت عند هؤلاء القوم ما أثار طبيعتى التترية ، خلنى من هذه الفضائل ! لقد عنّ لى أن أطوف بهذه الأرجاء طوفة فاضلة ، فلم أرها تختلف فى شىء عما قرأناه فى تلك الكتب الألمانية الصغيرة المصورة . إن عندهم فى كل منزل « أباً » كأنه الفضيلة مجسمة ، والشرف كاملاً ، فأنت تكاد من فرط فضيلته تخاف الاقتراب منه . فإذا أقبل المساء ، جلس الأب بين أهله يقرءون فى كتب التهذيب ، والريح تداعب أشجار الدردار والكستنا ، والشفق الأحمر يلهب السقف ، وقد أوى إلى إفريز المنزل لقلق ، كل ذلك شعرى جميل مؤثر . لا تغضب يا سيدى الجنرال ، دعنى أحدثك بما هو أشد تأثيراً . إنى أذكر – أنا أيضاً – أن أبى – رحمه الله – كان يقرأ لى ولأمى فى الأماسى الجميلة كتباً كهذه . حسناً !

إن كل أسرة هناك قد أنزلها أبوها على العبودية المطلقة . فكلهم يعملون كالأنعام ، وكلهم يدخرون كاليهود ، والأب قد جمع من كد حياته بضعة جلدات يزمع أن يتركها - مع أرضه - لابنه الأكبر ، ولكيلا ينتقص من الكنز شيئاً ، لايخص ابنته ببائنة ، ابنته المسكينة التي تهرم عذراء . ثم هذا ابنه الأصغر قد أصبح خادماً أو جندياً . ليزيد شيئاً إلى الثروة ، إي والله ، إني واثق مما أقول . كل هذا صنعوه بالشرف ، الشرف المضاعف ثلاث أو أربع مرات . إن الابن الأصغر نفسه يروى أنه إنما بيع بالشرف . وهل رأيت شيئاً أجمل من هذا ؟ الفريسة سعيدة بأنها اقتيدت إلى المذبح ! ولكن الابن الأكبر ليس أكثر سعادة . إن له فى مكان ما حبيبة تعلق بها فؤاده ، ولكنه لايستطيع أن يتزوجها لأنه لم يجمع كل ما يريد من الفلورينات . وها هما ينتظران فى إخلاص وفضيلة ، ويذهبان إلى المذبح وعلى شفتيهما ابتسامة . ثم ها قد بدأ خدا المحبوبة يتغضنان ، فإن الملل يبريها ولكن قليلاً من الصبر . سوف تتم الثروة فى عشرين عاماً ، وسوف تجمع الفلورينات بأمانة وفضيلة . وعند ذلك سوف يبارك الأب ابنه ، وقد صار شاباً فى الأربعين ، وحبيبته وقد صارت شابة فى الخامسة والثلاثين ، مسحاء الصدر ، حمراء الأنف . وفى هذه المناسبة سوف يبكى ، وسوف يقرأ شيئاً فى كتاب التهذيب ، ثم ... يموت ويصبح الابن الأكبر بدوره « أباً » فاضلا وتبدأ القصة نفسها من جديد . ويثابر حفيد الأب الأول على العمل خمسين أو سبعين عاماً ، ويجمع ثروة ضخمة ، ثم ... يورثها ابنه . وهكذا دواليك ، حتى يولد بعد خمسة أو ستة أجيال البارون روتشيلد ، أو هوپ وشركاه ، أو فلان أو علان . يا لها من صورة رائعة ! خمسة أجيال من الصبر والذكاء والشرف والثبات والمثابرة ، فماذا تريد أكثر من هذا ؟ إن هؤلاء القوم الفضلاء على حق حين يزدرون غيرهم من الناس ، ممن لا يجمعون مثلهم . حسناً ! إني أريد أن أستمتع كما يستمتع الروس ! لا أريد أن أكون روتشيلد أو هوپ وشركاه بعد خمسة أجيال . إني أريد النقود ! إنى أرى نفسى خيراً من رأس المال ... قد أكون مخطئاً على كل حال ، لكن هذه هى معتقداتى .

فقال الجنرال مفكراً :

- لست أدرى حظك من الصواب أو الخطأ ، ولكن الذى أدريه أنك أصبحت مهرجاً كبيراً ، على قلة ما نسمح لك بنسيان ...

ولم يتم كعادته . وكان الفرنسى قد استمع إلىّ فى غير اهتمام ، ودون أن يبدو عليه أنه فهمني ، أما پولينا فنظرت إلىّ فى كبرياء وإهمال ، كأنها لم تسمعنى ، ولم تسمع أحداً .

****

- ٥ -

كانت شاردة اللب ، وما كدنا نغادر المائدة حتى أمرتنى أن أخرج معها ، فأخذنا الطفلين وذهبنا إلى الحديقة ، وكنت ثائر الأعصاب ، فلم أستطع أن أمنع نفسى من أن أسأل پولينا هذا السؤال السخيف :

– لماذا لا يصحبك هذا الفرنسى الصغير عندما تخرجين ، ولماذا يمضى اليوم والأيام دون أن يخاطبك ؟

قالت فى صوت غريب :

– إنه حيوان !

فأخذت بما فى عبارتها من نغمة السخط . ولم أكن سمعتها تتكلم عن المركيز قط . قلت :

– وهل لاحظت أنه ليس اليوم على وفاق مع الجنرال ؟

– أتريد أن تعلم السبب ؟ إن الجنرال قد رهن له كل ما يملك ، وإذا لم تسرع الجدة بالموت ، فسيستولى على هذه الممتلكات كلها .

– لقد سمعت شيئاً كهذا . ولكنى لم أكن أعلم أن الأمر بهذه الخطورة ، إذن فالوداع أيتها الآنسة بلانش ! إنها لن تكون إذن عقيلة الجنرال ، بل ستهجره ، وإخاله سوف ينتحر .

– ربما .

– أجل . إنى أتوقع أن يحدث له حادث – يا لها من صراحة عجيبة ، إنها تخفى أنها ما كانت لتتزوجه لولا نقوده ! كل ذلك يتم بغير أدنى تلطف ! أما الجدة فما أشد دناءتهم معها ! إنهم يرسلون البرقية تلو البرقية ، لعلها تكون قد ماتت . ماذا ترين أنت يا پولينا ألكسندروڤنا ؟

– أجل ، إنه أمر شنيع . ولكنى أعجب لفرط مرحك ، رغم كل شىء . أتراك مسروراً لأنك خسرت النقود ؟

– ألم تعطينى إياها لأفقدها ؟ لقد أخبرتك أنى لا أستطيع أن أقامر بنقود غيرى ، خصوصاً بنقودك أنت ، وقد أطعتك لأنك أمرتنى . ولكنى أنذرتك بالفشل . خبرينى : أمتألمة أنت إذ فقدت كل شىء ؟ ولماذا تريدين كل هذه النقود ؟

– ولم كل هذه الأسئلة ؟

– لأنك وعدتنى أن توضحى لى الأمر ... اسمعى ! أنا واثق أنى لو قامرت بنقودى فسوف أكسب . معى مائة وعشرون جلداً ، وعندما أكسب ستأخذين كل ما تريدين .

فعبستْ . فأضفتُ :

– أرجو ألا تغضبك منحتى . إن حقارتى عندك تسمح لك بأن تقبلى منى كل شىء حتى النقود ! إن هدية منى لا تعنى شيئاً . ثم إنى خسرت نقودك .

رمقتنى بنظرة سريعة ، لقد ضايقتها نغمتى الساخرة ، فقطعت الحديث قائلة :

– إن شئونى لا تعنيك . إذا كنت تريد إيضاحاً فاعلم أنى مدينة . هذا كل شىء . لقد استدنت ، ويجب أن أرد الدين . وقد جننت حتى توهمت أنى سأربح لا محالة على مائدة القمار . لماذا ؟ أنا نفسى لست أدرى . ولكنى كنت أعتقد هذا ، ويخيل إلىّ أنى لم أتعلق بهذا الوهم إلا لأنه مخرجى الوحيد .

– لعلك توهمت أن الكسب محقق كما يتعلق الغريق بالعود الطافى . ولكن المرء لا يخال العيدان كتلاً من الخشب ، إلا حين يغرق .

– إذن فلماذا تتعلق أنت بالوهم نفسه ؟ لقد أكدت لى منذ خمسة عشر يوماً أنك ستكسب « حتما » إذا قامرت هنا ، وأنى لا يجب أن أظنك مجنوناً ، وأنك تتكلم جاداً والحق أنك كنت تتكلم جاداً ، ولم يكن فى حديثك شىء من الهزل .

فأجبتها وأنا ذاهل :

– هذا حق . إنى موقن أنى سأكسب إذا لعبت لنفسى .

– ولم هذا اليقين ؟

– قد يكون سببه أنى يجب أن أكسب . إن هذا هو مخرجى الوحيد أنا أيضاً .

– إذن فأنت فى حاجة إلى كثير من النقود ؟ ولكنك تتعلق بخرافة .

– وماذا يصنع مثلى بالنقود الكثيرة ؟

– ليس لى شأن بهذا . ولكن دعنى أقول لك نعم ! أى دافع قوى يجعلك تريد الثروة ؟ ماذا تصنع بها ؟ أنت رجل لانظام له ولا قرار . إنى لم أرك جاداً قط .

فقاطعتها :

– أخبرينى . لقد قلت إنك مدينة . فهل دينك ثقيل ؟ أهو للفرنسى ؟

- ماذا تعنى بكل هذه الأسئلة ؟ إنك شديد الذكاء اليوم ! ألست ثملاً ؟

- تعلمين أن لا كلفة بيننا ، وأنى أسألك فى بعض الأحيان أسئلة صريحة . أكرر لك أنى عبدك ، ولا أحد يخجل أو يغضب من عبده .

- هذا حديث أطفال . يستطيع المرء أن يحتفظ دائماً بكرامته . ينبغى أن يسمو النزاع بالإنسان لا أن ينزل به .

- لاحظى أنى لم أقل لك إنى سعيد بأن أكون عبدك . إنى أتكلم عن الأمر ، كما أتكلم عن حقيقة ليس لإرادتى شأن بها .

- كن صريحاً ! لماذا تريد النقود ؟

- لماذا تريدين أن تعلمى ؟

- كما تريد أنت !

ورفعت رأسها فى كبرياء لا توصف .

- أنت لا تؤمنين بنظريتى فى العبودية . ولكنك تعملين بها . شعارك دائماً : « أجب ولا تجادل ! » .

سمعاً وطاعة يا سيدتى !

تسألينني لماذا أريد المال ؟ إنى أريد المال لأنه هو القوة الوحيدة التى لا تقاوم .

- إنى أفهم ماذا تعنى . لكن حذار أن تصبح مجنوناً ! إنك تستسلم إلى القدر استسلاماً أعمى . ولكن لك هدفاً آخر أقرب من هذا . فأبن ولا تجادل .

وكانت تبدو على وشك الغضب ، فسررت سروراً عظيماً ، فقد لذ لى أن تسألنى بهذا الإلحاح الشديد .

- حقًا إن لى غرضاً . ولكنى لن أخبرك به . أو ... هو أنى أغدو بالمال رجلاً ، حتى بالنسبة إليك .

- كيف هذا ؟

- كيف ؟ ألا تتصورين أن أغدو بالنسبة إليك شيئاً آخر غير العبد ؟

- ألم تكن تقول لى إنك سعيد بهذه العبودية ؟ أنا نفسى كنت أظن هذا .

فصحت بفرح عجيب .

– آه ! كنت تظنينه ! كم تعجبنى هذه السذاجة منك ! أجل ، إن هذه العبودية هى سعادتى ، إن هناك لذة هائلة فى الانحطاط إلى الدرك الأسفل من الذل . وقد طالما فكرت أن السوط يخفى فى طياته لذات سحرية . ولكنى أريد أن أجرب لذات أخرى – لقد وبخنى الجنرال منذ لحظة على المائدة أمامكم ، لأن السبعمائة الدويل التى يعطينيها كل عام – وقد لايدفعها – تمنحه الحق فى ذلك . إن المركيز دى جرييه ، يرفع حاجبيه كثيراً عندما يرانى ، دون أن يبدو عليه أنه يلحظنى . أتعلمين أن بى رغبة جنونية فى أن أجره يوماً من أنفه ؟

– يا للعبث ! إننا نستطيع أن نحتفظ بكرامتنا رغم كل شىء ، يجب أن يرفعنا الألم لا أن يخفضنا .

– عبارات جميلة محفوظة ! ولكن أواثقة أنت من أنى أستطيع الاحتفاظ بكرامتى ؟ قد أكون امرءاً كريماً . أما أن أحتفظ بكرامتى فهذا شىء آخر . إن الطبيعة الروسية لمن الغنى والسعة بحيث لا تتشكل بسرعة حسب الظروف ومسألة الكرامة مسألة مظهر فلابد لنا من شىء من العبقرية ، حتى نستطيع أن نجمع قوانا ونركزها فى السلوك المناسب . وهى عبقرية نادرة ، ولعل الفرنسيين وحدهم هم الذين يستطيعون أن يتظاهروا بالكرامة دون أن يكونوا على شىء منها . وهذا هو سر عنايتهم الشديدة بالمظاهر ، فالفرنسى قد يغضى الجفن على إساءة حقيقية – فى الصميم – ولا ينهض لدفعها ، طالما كان ذلك سراً . ولكنه لا يحتمل ألبتة قرصة الأنف ، لأنه يرى فى ذلك اجتراءً على قوانين المجتمعات . لا تعجبى إذا وجدت فتياتنا يحببن الفرنسيين ، فالديك الفرنسى آنق شكلا ، وأبرع مسلكا . أما أنا فهذه الطريقة كما تعلمين ... ولكنى لست امرأة ، ولعل الديك على شىء . ألم أغال كثيراً ؟ ولكنك لا تقاطعيننى ! إنى أحب أن أقول لك كل شىء عندما أكلمك ، ولهذا أفقد شيئاً من احترامى لنفسى . أعترف لك أننى لست على شىءٍ من براعة المسلك بل إنى لست على شىء ما . كل شىء فىَّ قد جمد . كل شىء فىَّ قد مات . أنت تعلمين السبب . ليس فى رأسى فكرة إنسانية . إنى لم أعد أعلم ماذا يعمل الناس فى الدنيا ، إن هنا ، أو فى روسيا . لقد عدت من درسدن ، أليس كذلك ؟ حسناً ! ! إنى لم أر تلك المدينة . أنت تعلمين ما يشغلنى . وما دمت منقطع الرجاء منك ، وما دمت صفرا أمام عينيك ، فلن أهاب الصراحة معك . إنى لا أرى فى أى مكان غيرك ، وكل شىء سواء عندى بعد ذلك . إنى أحبك ولا أعلم لماذا أحبك . لعلك لست جميلة مطلقاً ، اعجبى لى كيف أنى لا أعلم أجميلة أنت أم قبيحة ، ولكنى أعلم أن قلبك شرير دون شك ، وأن عقلك ليس على شىء من النبل .

– لهذا بلا ريب تطمع أن تشترينى .

فصحت :

– أن أشتريك ! ماذا تقولين !

– لقد نسيت الموضوع الذى نتحدث فيه . إن لم تكن تريد أن تشترينى أنا بالأموال الطائلة التى سـتربحها فى الروليت ، فإنك تريد بلا شك أن تشترى احترامى .

– ليس هذا هو ما أريده ألبتة . لقد قلت لك من قبل أننى لا أحسن التعبير . فلا تغضبى لثرثرتى . يجب ألا تغضبى منى ، فلست إلا مجنوناً . ولكنى لا أبالى بغضبك . حين أجلس هناك فى غرفتى ، لا أكاد أذكر حفيف ثوبك حتى أعض على أناملى ، أهذا يغضبك أيضاً ؟ أيغضبك أن أكون عبدك ؟ تمتعى بعبوديتى ... فلعلى قاتلك يوماً . سوف أقتلك ، لا لأنى لم أعد أحبك ، ولا لغيرة تملكتنى – لا لشىء إلا أنى أحب فى بعض الأحيان أن آكلك . تضحكين !

قالت فى حدة :

– إنى لا أضحك ألبتة ، وإنى آمرك أن تصمت .

ووقفت وقد احتبست أنفاسها من الغضب . رباه ! إنى لا أعلم أجميلة هى أم لا ، ولكن كم أحب أن أراها واقفة أمامى وقد استبد بها الهياج ! لعلها تعلم هذا ، ولعلها تستسلم إلى الغضب لتثير إعجابى . وقد صارحتها بذلك على الفور ، فصاحت مرتعدة .

– أنت مخلوق قذر !

– لا بأس ! ولكن لا تنسى أنك تعرضين نفسك للخطر بتنزهك وحيدة معى ، فكثيراً ما بدا لى أن أضربك ، أن أقطع لك ساقاً أو ذراعاً ، أن أخنقك . ألا تظنيننى أقدم على هذا ؟ إنك تدفعيننى إلى الجنون . إننى لا أخشى الفضيحة ، ولا أخشى غضبك ، إنى أحب بغير أمل ، وأعلم أنى إذا قتلتك ، فلابد أن أقتل نفسى أيضاً ، ولكنى سأقتل نفسى بأشد البطء لأنفرد دونك على الأقل بهذا الألم ، وبعد هذا ، لا أنقاد للقدر ؟ تذكرين أنى قلت لك على شلاجنبرج : مُرينى أقذفْ بنفسى إلى الهاوية . أتظنيننى لم أكن فاعلاً ؟

– يا لها من ثرثرة سخيفة !

– سخيفة أو ظريفة ، سيان عندى ما دمت أتكلم . إنى ما دمت بجانبك ، يجب أن أتكلم وأتكلم وأتكلم . عندما تكونين معى أفقد كل كبرياء .

– ولماذا أضطرك أن تقذف بنفسك من على شلاجنبرج ؟ إن هذا لا يجدى شيئاً .

– آه ما أعذب نبراتك ! ما أجمل ما قلت هذا ! أى إهانة فى « لايجدى » هذه ! إنى أفهمك حق الفهم . أتقولين إنه غير مجد ؟ وكيف لا تكون اللذة مجدية ؟ أو لا يكون الظلم لذة ؟ لذيذ أن تقتلى بعوضة ، وأن تقذفى رجلاً من قمة شلاجنبرج . إن الإنسان مستبد بطبعه ، يحب التعذيب . وأنت بخاصة تحبين ذلك .

لقد كانت تنظر إلىَّ فى انتباه عميق . ولا شك أن وجهى كان ينم عن كل الإحساسات الغريبة التى تملكتنى ، كنت أحس بالدم يصعد إلى عينى ، وبالزبد يعلو شفتى . ولكنى أقسم أنها لو أمرتنى لألقيت بنفسى من قمة شلاجنبرج . أجل ، أجل ! لو أنها أمرتنى عابثة أو محتقرة لألقيت نفسى .

– كيف أصدقك ؟

قالتها بنغمة فيها من الاحتقار ومن الدهاء ومن الغرور ما .... رباه ! رباه ! لقد كنت قميناً أن أقتلها تلك اللحظة بلا تردد . لقد كنت قميناً أن أقتلها وأنا راضٍ مسرور . سألتنى فجأة :

– ألست جباناً رعديداً ؟

– ربما . إنى لم أسأل نفسى قط هذا السؤال .

– لو أنى قلت لك اقتل هذا الرجل ، أتقتله ؟

– من هو ؟

– أى رجل شئت .

– الفرنسى الصغير ، أليس كذلك ؟

– لا تسألنى . أجب ! أو تقتل من آمرك بقتله ؟ أريد أن أعلم سريعاً أجاد أنت ؟

كانت تنتظر جوابى بجد وصبر شديدين حتى أحسست بالاضطراب .

– خير لك أن تصارحينى بما يجرى هنا ! أتخافيننى ! إنى أرى كل ما تعانينه . أنت ربيبة رجل مفلس مجنون قد أذلته عاطفة جبارة . وها أنت ذى أيضاً تحت سلطان

هذا الفرنسى التعس ، وأخيراً هذا السؤال الغريب ! يجب أن أعلم ... ألا تستطيعين أن تكلمينى مرة واحدة بصراحة ؟

– دعنا من هذا . إنى أسالك فأجبنى .

– أذن ، فنعم ، نعم ، نعم ، بغير شك ، إنى أقتله ... ولكن ... أعازمة أنت حقًا على أن تأمرينى بمثل هذه الأعمال ؟

– ماذا تظن ! أتظننى مشفقة عليك ؟ كلا ... سوف آمرك ، وسوف أبقى فى الخفاء . أتقتل ؟ أتقدر أن تحتمل هذا ؟ آه . لا أظنك تستطيع . قد تقتله إن أمرتك ولكنك سوف تفقد رشدك بعدها . لله ما أضعف رشدك ! سوف تقتلنى لأنى جرؤت على إرسالك إليه .

وكأن ضربة وقعت على رأسى . فقد كنت أعتقد إلى ذلك الحين ، أن سؤالها ليس إلا مزاحاً أو تحدياً ، ولكنها كانت تتكلم فى جد ظاهر . وقد عجبتُ لاعترافها بسلطانها علىّ ، ولاجترائها على أن تقول لى : اسعَ إلى حتفكَ ! أما أنا فسأبقى فى الخفاء . لقد كان فى كلامها سوداوية غريبة صريحة ولكن ماذا يكون سلوكها معى بعدئذ ؟ إن مثل هذا لتآمر يرفع العبد إلى منزلة السيد ، ولئن بدت لى محاورتنا أضغاث أحلام ، فقد وجف قلبى .

وفجأت انفجرت ضاحكة ، وكنا جالسين على مقعد ، وكان الطفلان يلعبان غير بعيد منا ، قرب المنعطف الذى تقف فيه السيارات ، لينحدر راكبوها إلى الملهى ، وكانت الجموع تمر أمامنا تترى .

– أترى إلى هذه المرأة البدينة ؟ إنها البارونة برمرجلم ، وقد وصلت منذ ثلاثة أيام . وانظر إلى زوجها هذا البروسى الطويل الأعجف ، الذى يحمل عصا ، ألا تذكر كم حدجنا ببصره أمس ؟ اذهب من فورك واقترب من هذه البارونة وارفع قبعتك وقل لها شيئاً بالفرنسية .

– لماذا ؟

– كنت تقسم أن تلقى بنفسك من على شلاجنبرج ، وكنت تقسم أن تقتل من أشاء ! لكنى لا أطلب إليك عوضاً عن هذه المآسى كلها إلا مهزلة واحدة . أذهب ولا تلتمس عذراً . إنى أريد أن أرى البارون يضربك بالعصا .

– أتتحديننى ؟ أتظنين أنى لن أفعل ؟

– أجل . إنى أتحداك . اذهب . فهكذا أريد .

– سأذهب إذن ، رغم أنها نزوة منك ، ولكن ألا ترين أنك تسيئين بذلك إلى الجنرال ، ثم إلى نفسك ؟ إنى لا أخشى على نفسى ، بل عليك وعلى الجنرال ، يا لها من نزوة – أن أهين سيدة !

قالت فى احتقار :

– إذن فلست إلا ثرثاراً . إن عينيك منتفختان بالدم – وهذا كل شىء . لعلك شربت كثيراً على الغداء . أتظننى لا أعلم كم يبدو هذا سخيفاً ، أو لا أدرك أن الجنرال سوف يغضب ؟ ولكنى أريد أن أضحك ، وهذا كل شىء . أن تهين سيدة ، نعم ، وأن تُضرب ، نعم ، فإنى أريد هذا .

وذهبت فى بطء أصدع بالأمر . حقًا ، لقد كان هذا جنوناً . ولكن هل كنت أستطيع ألا أخضع ؟ أذكر أنى حين اقتربت من البارونة ، كنت منفعلا كالطفل ، كنت محموماً ، كنت كالثمل ، أتفهمون ؟

* * * *

مضى يومان على هذا الجنون . أى ضجيج ولغط وثرثرة وصياح ! أى خليط كريه من الفظاظة والفوضى والغباء والغلظة ! ولكن الأمر لم يخل مما يضحكنى أنا على الأقل . وأنا سبب كل هذا ! فلكم ضحكت ! هل دار رأسى أم جننت ؟ أظن . ثم إن العهد لم يبعد بينى وبين مقاعد الدراسة ، وإخالنى سررت من هذه اللعبة .

پولينا هذه ! دائماً هى !

لعلى أتيت ذلك بدافع من اليأس . ولكن ماذا أحب فيها ؟ إنها تبدو لى جميلة . هى رشيقة القد ، أدنى إلى النحول ، تستطيع أن تثنيها وتعقدها كرباط العنق . أثر قدمها على الأرض طويل دقيق ؛ إنه يبعث الجنون . نعم يبعث الجنون ! شعرها أصهب وعيناها كعينى قط ، ولكن فيهما كبرياء واحتقار يزلزلان النفوس . كان أول عهدى بها ذات مساء منذ أربعة أشهر ، عندما استقدمتنى هذه الأسرة ، إذ رأيتها جالسة فى البهو تتحدث مع دى جرييه حديثاً حاراً . وكانت تحدجه بنظرة ... خيل إلىَّ عندما أويت ، أنها صفعته قبلها . منذ ذلك المساء أحببتها .

لنعد إلى قصتنا .

لقد هبطت من الممر ووقفت فى وسط الطريق ، منتظراً البارونة والبارون . فلما صارا على قيد خمس خطوات منى ، رفعت قبعتى وانحنيت . وأذكر أن البارونة كانت ترتدى ثوباً فضفاضاً من الحرير الأشهب ، له جناحان وذيل وصدار محبوك . وكانت هذه البارونة صغيرة بدينة ، لها ذقن ضخم يغطى عنقها كله ، ووجه أحمر ، وعينان صغيرتان خبيثتان وقحتان . وكانت تسير وكأنها تشرف الأرض بوطئها إياها . أما البارون فكان طويلا معروقاً هزيل الوجه ، شأن الألمان ، يلبس منظاراً ؛ ويبدو فى الخامسة والأربعين . وكانت له ساقان كأنما تبدآن من صدره ؛ بل من ذقنه ، وكان مزهواً كالطاووس ، ثقيل الحركة ، إلا أن ملابسه كانت مهرولة ، وعلى وجهه بلاهة ، يتوهم الرائى أنها ذهول التفكير .

رأيت كل هذا فى ثلاث ثوان ، وكانت انحناء تى وقبعتى المرفوعة قد عجزتا عن أن تثير انتباههما كثيراً وعقد البارون حاجبيه قليلا ، أما البارونة فأقبلت نحوى دون أن ترانى ، فقلت فى وضوح وبصوت عال ، فى مقاطع لينة :

– سيدتى البارونة ، لى الشرف أن أكون عبدك .

ثم حييت وأعدت قبعتى إلى رأسى . ومررت بالبارون ملتفتاً إليه فى أدب ، موجهاً إليه ابتسامة وقحة .

كانت پولينا قد أمرتنى أن أرفع قبعتى فقط ، ولكن الانحناءة والوقاحة كانتا من عندى . ولست أدرى ماذا كان يدفعنى ، فقد كنت أحس كأنى أمشى على الهواء .

وزمجر البارون وهو يلتفت إلىَّ بدهشة يمازجها غضب : هه !

وقفت دون أن أكف عن الابتسام ، ورأيته قد ذهل ، ورفع حاجبيه حتى منبت شعره . والتفتت إلىَّ البارونة أيضاً بدهشة شديدة ، وضيق متزايد ، وبدأ المارة يتجمعون . وزمجر البارون من جديد وقد تضاعفت دهشته وغضبه . هه !

– ياقول !Ja wohl قلتها ماطاً المقاطع ، وأنا أنظر إلى بياض عينيه وصرخ وهو يلوح بعصاه :

– Sind sie rasend ? (أأنت مجنون ؟)

ولكن ذراعه بقيت فى الهواء ، وهو يرتجف من الرعب ، أكثر مما يرتجف من الغضب .

ويخيل إلى أن ملبسى هو الذى أربكه . لقد كنت أتزيا بأحدث طراز كرجل من الطبقة العليا .

وصرخت فجأة بكل قواى ، مقلداً أهل برلين الذين يمطون المقطع الأخير من هذه الكلمة ، دالين بذلك على معانٍ مختلفة :

– Ja wo-o-ohl!

والتفت البارون والبارونة بسرعة ، وهربا مذعورين . وبدرت من بعض الواقفين صيحات . وظل بعضهم ينظر إلى فى دهشة . ولكنى لا أذكر التفصيلات جيداً .

عدت أدراجى ، وذهبت بغير عجلة إلى پولولينا ، ولكنى قبل أن أصل إليها رأيتها تنهض مع الطفلين ، وتتجه شطر الفندق ، ولحقت بها على الدرج ، وقلت لها :

– لقد أنجزت الـ ... سخافة !

فأجابت دون أن تنظر إلىّ :

– أفعلتَ . تحمّل العواقب إذن .

واختفتْ فى الردهة ، ومكثتُ طيلة المساء أتنزه فى الغابة ، وملت إلى مطعم صغير وتعشيت بيضاً ، واحتسيت شيئاً من الخمر ، وكلفتنى هذه الأكلة تالرا ونصف تالر .

لم أعد إلا فى الساعة الحادية عشرة ٠ فعلمت أن الجنرال أرسل في طلبي ٠

كانت جماعتنا تشغل شقتين من الفندق ، في كل شقة غرفتان ٠ وفي الشقة الأولى – وهي الكبرى – ثوىً وحجرة للتدخين ، وبين الشقتين ، مكتب الجنرال ٠ هنا كان الجنرال ينتظرنى ؛ وهو واقف إلى مكتبه بعظمة ، وكان دى جرييه مضطجعا علي ديوان بالقرب منه ٠

بدا الجنرال يقول :

– دعنى أسألك ياسيدى ماذا صنعت ؟

– أرجو أن تتكلم فى الموضوع مباشرة يا جنرال ٠ لعلك تعنى لقائى اليوم مع الألمانى ؟

– مع الألمانى ؟ إن هذا الألمانى هو البارون برمر جلم – وهو شخصية خطيرة ، لقد سمعت أنك اهنته هو وزوجته ٠

كلا ٠ ألبتة ٠

فصاح الجنرال :

– لقد علمت أنك روعتهما يا سيدى الكريم ٠

كلا ٠ألبتة، لقد تعودت أذنى فى برلين ، سماع هذه الـ Ja wohl التى لا تنتهى، ممطوطة بطريقة قبيحة ٠ ولا أدرى لما قفزت إلى خاطرى وأثارتنى هذه الـ Ja wohl عندما قابلت هذين البارونين الجبانين ، زد على ذلك أن هذه البارونة قابلتنى ثلاث مرات ، وكانت تشير نحوى فى كل مرة كأنما كنت دودة تسحق بالقدم ٠ إن لى كرامتى أنا أيضًا لقد رفعت قبعتى وقلت بكل أدب ، إى والله بكل أدب ٠٠٠ « سيدتى البارونة ، إننى عبدك » وعندما بدأ البارون يصيح : هه ! لم أستطع إلا أن أصرخ !Ja wohi ، وقد قلتها مرتين ، فى المرة الأولى ببساطة تامة ، وفى المرة الثانية وأنا أمط الكلمة قدر ما أستطيع وأعجبنى هذا التفسير الصبيانى ، فقد سرتنى القصة ، ورق لى أن أطيل فيها وأضيف إليها ٠صاح الجنرال :

– أهذه هى القصة ؟ أتسخر منى إذن ؟

وبين لدى جرييه بالفرنسية أنى أرمى دون شك إلى شىء ٠ وابتسم دى جرييه فى احتقار وهز كتفيه ٠

– لا وربى ، لا تظن هذا ! لقد ارتكبت حماقة ، إني أعترف ! إنه عبث لا يليق ، ولكنه ليس اكثر من هذا ٠ إننى نادم ، ولكن لى عذراً ٠ إني أشعر بالمرض منذ أسبوعين أو ثلاثة ، وأعصابى ثائرة مهتاجة ، وانى لافقد سيطرتى على نفسى بين حين وآخر . حتى لقد حاولت أن أتشاجر مع المركيز ... آه . إنه هنا ، إذن فلن أتم الحديث حتى لايغضب . ولا أطيل . فقد بدت علىّ علامات المرض فى الأيام الأخيرة ، ولا أدرى هل تقبل البارونة هذه الأعذار ! فإنى أنوى أن أعتذر إليها . ولكنى أعتقد – بينى وبينك – أنها لن تقبلها . فقد شاع فى هذه الأيام ادعاء المرض ، كعذر ملطف للجريمة والمحامى والطبيب يتفاهمان على اكتشاف المجنون ، خلف قناع القاتل . ولكن البارونة والبارون من القوم المحافظين ، وهما يجهلان تقدم علم الطب الجنائى ، فلن يقبلا مثل هذه الأعذار .

ما رأيك يا جنرال ؟

– كفى يا سيدى ، إنى أريد أن أتخلص منك نهائياً . إنى أنهاك عن أن تعتذر إلى البارون اعتذاراً ما . سيكون هذا منك إهانة أخرى . لقد علم البارون أنك من بيتى ، وقد تفاهمنا سوياً بعد إذ أوشك أن يطلب مبارزتى أتعلم لأى شىء تعرضنى يا سيدى ؟ لقد وعدته بشرفى أن أفصلك من خدمتى اليوم .

– عفواً يا سيدى . أهو الذى طلب إليك أن ... أن تتخلص منى – ما دمتُ من منزلك ، كما تفضلت بالإشارة إلى ذلك ؟

– كلا ، ولكنى اعتقدت أن من واجبى أن استرضيه . وقد اكتفى بذلك . فلنفترق يا سيدى ، ما زال لك عندى أربعون جلداً وثلاثة فلورنيات . هاك النقود ، ولك أن تراجع الحساب . وداعاً ، أنت من اليوم غريب عنى وأنا غريب عنك . إننى لم أجن منك غير المتاعب . سأخبر رئيس الخدم أنى من اليوم غير مسئول عن نفقاتك فى الفندق ، ولى الشرف بأن أكون خادمك . وتناولت النقود والحساب – وكان منقوشاً بالرصاص وحييت الجنرال وقلت له فى قطوب شديد :

– يا سيدى الجنرال ، إن الأمر لا يمكن أن ينتهى عند هذا . إنى آسف جداً لما سببت لك من المتاعب لدى البارون . ولكن الخطأ خطؤك ، ومعذرة . كيف اعتبرت نفسك مسئولا عني أمام البارون ؟ ما معنى هذا التعبير ... « إن هذا الرجل من بيتى » ؟ إنى مربٍ عندك ، ولست ابنك ولا ربيبك ، فليس لك أن تحمل وزر أعمالى . إنى فى الخامسة والعشرين ، وإنى متخرج فى الجامعة ، وإنى شريف . أنا غريب عنك أنا بنفسى فرد مسئول قانونا . لولا ما أعلمه من حميد صفاتك ، ونبيل أخلاقك ،

لطلبـتك أنـت للمبارزة بغير إمهال ، جزاء اجترائك على أن تدعى لنفسك أنك مسئول عن أعمالى .

ذهل الجنرال حـتى فـغـر فـاه ، وحـاول أن يتكلم ، وبسـط يديه ، ثـم التـفت إلى الفرنسى ؛ وأوضح له أنى أتحداه . فقهقه الفرنسى .

وأردفت دون أن يزعجنى مسلك دى جرييه :

– أما البارون فلن أدع أمرى وأمره يمضى هكذا . وما دمت قد تدخلت فى هذا الأمر أيها الجنرال ، بموافقتك على الاستماع لشكوى البارون ، فإنى أتشرف بإخبارك أنى سأسأل البارون غداً بكل إصرار ، وباسمى أنا ؛ لماذا خاطب شخصاً سواى فى شىء يخصنى : كأنى غير جدير بأن أوضح مسلكى .

وصح ما توقعته ؛ فقد اغتاظ الجنرال لهذا الاقتراح الأخير .

– كيف ؟ أتنـوى أن تمضــى فى هــذه المســألة الملعونة ؟ لا تدع هذه الجسارة يا سـيدى ؛ وإلا فـإنى أقـسم لك ... إن هنـا حكومـة ، وأنـا ... وأنا ... بالاخـتـصـار ، مركزى ، ومركز البارون ... أخيراً ... سنوقفك عند حدك ، سنطردك بقوة البوليس – أتفهم ما أقول ؟

فأجبته دون أن يفارقنى الهدوء :

– أيها الجنرال إنكم لا تستطيعون أن تفعلوا ذلك دون ما داع . إنى لم أكد أبدأ نقاشى مع البارون ، وأنتما تجهلان كل الجهل كيف أردت أن أناقشه . لست أريد إلا أن أصلح ما توهمه البارون ، وهو أنى خاضع لشخص يمكنه أن يسيطر على إرادتى الحرة . لا حاجة بك إلى الانزعاج والإشفاق .

فانقلب الجنرال ضارعاً يقول :

– يا ألكسى إيڤانوڤتش . بالله دع هذه الخطة الخرقـاء (وأخذ يدى بين يديه) ، ماذا يفهم هو من هذا ؟ مضايقات ؟ ألا ترى أنى مضطر أن أسلك هنا سلوكا معيناً ، وخـاصـة الآن ، وقـد ... وخـاصـة الآن ! آه ، إنك لا تعلم ، إنك لاتسـتطيع أن تعلم موقفى ! ... عندما نرحل من هنا – سأكون على استعداد لقبولك عندى ، أما الآن ... آه ، باختصار ، أنت تفهم كل شىء !

وصاح بإشارة يأس :

– ألكس إيڤانوڤتش ، أنت تفهم كل شىء !

وانصرفت راجياً من الجنرال ألا يجزع ، ومؤكداً أن كل شىء سيمضى فى هوادة ونظام ، والروس فى الخارج جبناء فى بعض الأحيان ، فهم يخشون القيل والقال ، ويتعبون أنفسهم كثيراً ليعلموا إن كان شىء من الأشياء مناسباً أو غير مناسب . هم دائماً يفضلون ذلك السلوك الذى جرى به العرف ، فيخضعون له سواء أكانوا فى فندق ، أم فى نزهة ، أم فى حفل ، أم فى رحلة . ولكن الجنرال اعترف لى أن هناك – فوق هذا – ظروفا تحتم عليه أن « يلزم الحذر » فى ذلك الحين . وأدى به ذلك إلى الخور والجبن ، وجعله يغير نبرة حديثه معى . بيد أن هذا الأحمق قد ينقلب غداً كرة أخرى ، ويستعين بالسلطات ، وإذن فيجب أن آخذ حذرى ، فليس لى بعدُ ، غرض ما من مضايقة الجنرال ، ولكنى أردت أن أنتقم من پولينا : فقد عاملتنى بقسوة ودفعت بى إلى مأزق حرج . حتى لقد شاقنى أن تضطر إلى التوسل إلىّ حتى أكف . حقاً إن حماقاتى قد تعود عليها بالضرر ... على أن أحاسيس ورغبات أخرى بدأت تتجسم فى خاطرى . إذا لم يكن لى بد من أن أبدو لها نكرة ، فلا ضيرَ إذا ظهرت بمظهر الديك الصغير الحقير ، وإذا أوسعنى البارون ضرباً . ولكنى رغبت أن أسخر منهم جميعاً ، وأن أخرج من هذه المعمعة قياً . فليرَ الناس ما يريدون أن يروا ، ولتذعر پولينا ، ولتضطر أن تصفر لى حتى أكف . ولكنها مهما صفرت فسوف ترى على الأقل أنى لست ديكا صغيراً حقيراً !

. . . .

سمعت الآن نبأ عجيباً . فقد قابلت خادمتنا منذ برهة على الدرج ، وأخبرتنى أن ماريا فليوڤنا رحلت اليوم بقطار الليل لتقيم مع قريبة لها فى كارلسباد . فما معنى هذا ؟ وقد صرحت الخادمة أن سيدتها حزمت أمتعتها فى الصباح المبكر . كيف لم يلاحظ أحد غيرى هذه الحادثة ؟ أم لعلى كنت أنا الشخص الوحيد الذى لم يكن على علم بها ؟ وأخبرتنى الخادمة أيضاً أن ماريا فليوڤنا تقارضت والجنرال عبارات قاسية منذ ثلاثة أيام .

فهمت إذن ! لعل هذه العبارات كانت عن المدموازيل بلانش . لاشك أن أمراً حاسماً يوشك أن يقع .

* * *

ناديت رئيس الخدم هذا الصباح . وطلبت إليه أن يفرد لى حساباً خاصاً والحق أن نفقاتى لم تكن تبهظنى أو تضطرنى إلى مغادرة الفندق . إنى أملك مائة وستين جلداً . ومن يدرى ؟ ربما كانت سبباً فى ثرائى ، نعم سبباً فى ثرائى . أمر غريب ! إنى لم أربح شيئاً بعد ، ومع ذلك لم أستطع قط أن أعمل أو أفكر أو أحس إلا كأنى واثق من ثرائى القريب . إذ لم أستطع أن أتخيل نفسى إلا ثرياً .. ثم فكرت أن أذهب رغم تلك الساعة المبكرة إلى المستر أستلى فى فندق إنجلترا ، وهو نزل صغير لا يبعد عن فندقنا كثيراً .

ولكن دى جرييه دخل غرفتى فجأة . ولم يكن قد فعل ذلك قط ، إذ لم أكن على وفاق معه فى هذه الأيام الأخيرة ، فهو يحتقرنى ولا يخفى ذلك ، وأنا أبغضه ولا أميل إليه ، ولهذا أدهشتنى زيارته كثيراً .

حيانى بأدب ، وهنأنى تهنئة عابرة بمقامى الجديد . وسألنى ، حين رأى قبعتى فى يدى ، هل أقصد النزهة ؟ فأجبته أنى ذاهب إلى المستر أستلى لبعض شأنى ، وما كدت أفعل حتى بدا على محياه الاهتمام .

ودى جرييه - ككل فرنسى - مرح ظريف حين يكون هذا واجباً أو مفيداً ، ثقيل الوطأة حين لا حاجة به إلى المرح ، والظّرف . فالفرنسى ليس بطبيعته ظريفاً ، وهو لا يكون كذلك إلا بقدر ، وإذا شعر بضرورة الابتكار فخياله سقيم مصطنع .. وحقيقة أمره أنه أتفه وأحط وأثقل مخلوق على ظهر الأرض . وقد أبدو غريباً ساذجاً حين أقول : إن الرجل الفرنسى لا يحبه إلا رجل غبى أو فتاة روسية .. فما من رجل ذى عقل إلا يؤذيه هذا التأنق المصطنع ، وهذا التلطف المنافق ، وهذا التسامح الكاذب ، وهذا المرح البغيض .

قال دون احتفال ، وإن لم تخلُ نبراته من أدب :

- لقد جئت لأمر ذى بال . إنى رسول الجنرال ، أو إن شئت وسيطه . إنى لم أفهم معظم الحديث الذى دار أمس ، وذلك لجهلى بالروسية . ولكن الجنرال شرح لى الأمر تفصيلا ولابد أن اعترف بأنى ...

- اسمع يا مسيو دى جرييه ، إنى أتشرف بوساطتك ، فلست إلا مربياً لست صديق الأسرة ولا مستودع أسرارها ، ولكن قل لى : أأنت من الأسرة ؟ إنك تعنى بكل شىء وبكل أحد . وتتدخل فى كل أمر . وها هم قد اختاروك وسيطاً ! ..

فأسخطه سؤالى وقال بجفاء :

– إنى مرتبط مع الجنرال بروابط العمل المشترك وباعتبارات خاصة أخرى . وقد أرسلنى لأرجوك أن تدع ما عزمت عليه أمس . إن أفكارك تدل على خيال رائع ، ولكن الجنرال يخبرك بأنك لن توفق فيما عزمت عليه .

– فالبارون لن يستقبلك ، بل إنه قادر على أن يكف أذاك عنه . وإذن فلماذا تصر ؟ أنت ترى هذا جيداً ، لقد وعدك الجنرال أمس أن يعيدك إلى عملك فى أول فرصة تسنح ، وإنه اليوم يمنحك الحق فى أن تأخذ مرتبك دون أن تخدمه . هذا يكفى . أليس كذلك ؟

أجبته بهدوء أنه مخطئ ، وأن البارون سيستمع لى . ثم رجوته أن يخبرنى صراحة إن كان قد جاء لغرض آخر ، وإن كان يريد أن يعلم على أى شىء صممت .

– بلا ريب . طبيعى أن الجنرال يريد أن يعلم ماذا ستصنع .

أخذت أوضح له ما اعتزمته ، ولكنه جلس مسترخياً وجعل يحرك رأسه على حافة مسنده مظهراً الاستهزاء وقلة الاكتراث . وبذلت غاية جهدى لأوهمه أنى جاد فى الأمر . أوضحت له أن البارون أهاننى بأن خاطب الجنرال فى أمرى كأنى خادم ، وأنه تسبب فى حرمانى من عملى ، وأنى مستاء لذلك دون شك . ولكنى أستطيع أن أفهم الفروق فى السن ، والمركز الاجتماعى ، وهنا لم أستطع أن أمنع نفسى من الابتسام وأضفت : إنى لن أرتكب حماقة أخرى ، ولن أطلب إلى البارون المبارزة ، ولكنى أعتقد أن لى الحق فى تقديم اعتذاراتى إلى البارونة . بيد أنى أدع هذا أيضاً ، فإن تصرفات البارون والجنرال المهينة لم تدع له مجالاً ، وسيظن الناس جميعاً أنى لا أعتذر إلا لكى أُعاد إلى عملى . وما دام الأمر كله قد انتهى ، فيجب أن أطلب إلى البارون أن يعتذر إلىّ ، ولكن فى عبارة ملطفة ، كأن يقول مثلا : « إنى لم أقصد إهانتك » . وحينئذ أعتذر إليه بدورى ، بحرية وصراحة . إننى لا أريد إلا أن يمكننى البارون من هذا الحل الأخير .

– يا لها من مهارة يا سيدى . يا لها من دقة . ألا تعترف أيها السيد أنك صنعت كل هذا لتضايق الجنرال ؟ .... أو لعل لك خطة أخرى يا سيدى العزيز !

– ألا تنبئنى أنت أيضاً يا عزيزى المركيز لم تهتم لهذا الأمر ؟

– حسناً . إن الجنرال ...

– والجنرال . لماذا يهتم لهذا أيضاً ؟ لقد أظهر بالأمس بعض القلق ولكنه لم يوضح لى شيئاً ...

فقاطعنى المسيو دى جرييه فى نبرة تلطف ، يشوبها شىء من السخط :

– إن ظروفاً غير عادية تضطره إلى هذا . لعلك تعرف المدموازيل دى كومنج ؟

– تعنى المدموازيل بلانش ؟

– أجل . المدموازيل بلانش دى كومنج . إنك تعلم أن الجنرال يحبها وأن زواجهما قريب . تصور الأثر الفاجع الذى تحدثه فضيحة ، قصة ...

– إنى لا أرى هنا فضيحة ولا قصة يمكن أن تؤثر فى الزواج .

– ولكن البارون شديد الغضب – شخصية بروسية كما تعلم ! إنه قد يثور ثورة الرجل الألمانى !

أجبته وأنا أبذل كل ما أستطيع من جهد حتى لا يفهم شيئاً مما أقول :

– هذا لا يعنينى فى شىء . إنى لم أعد من منزل الجنرال . ثم إذا كان مفهوماً أن المدموازيل بلانش ستتزوج الجنرال ، فماذا ينتظران ؟ ولماذا يخفيان الخبر عن أهل المنزل ؟

– إنى لا أستطيع أن .... لم يحن الوقت .... أنت تعلم أنهم ينتظرون أخباراً من روسيا ، وأن الجنرال فى حاجة إلى أن يصلح شئونه .

– آه ! أخبار عن السيدة عمته .

فنظر إلىّ دى جرييه نظرة تنم عن الكراهية وعاد يقول :

– على كل حال فإنى معتمد على ظرفك ونبلك ولطفك ... لا شك أنك ستصنع هذا من أجل الأسرة ، التى تحبك كفرد منها وتقدرك ...

– ولكنى طردت أخيراً . أنت تدعى الآن أنهم فعلوا هذا مضطرين . ولكن ألا ترى أنك لا تسر كثيراً حين أقول لك : إنى لا أريد أن أشد أذنيك ، ولكنك يجب أن تقول فى كل مكان إنى شددتهما ؟

فأجاب بصرامة وأنفة :

– ما دام الرجاء لا يؤثر فيك ، فمن واجبى أن أقول لك إننا سنعمد إلى طرق أخرى . إن ها هنا حكومة . سنطردك اليوم بلا إمهال . يا للشيطان ! صعلوك مثلك يطلب إلى المبارزة شخصاً كالبارون ؟ ! لا أحد هنا يخافك . أتظن أن الجنرال غير قادر على أن يأمر خدمه بقذفك إلى الباب ؟

أجبته بهدوء غريب :

– لا حاجة بى إلى أن أعرض نفسى لهذا . إنك مخطئ يا مسيو دى جرييه سيتم كل شيء خيراً مما تظن . سأذهب إلى المستر أستلى لأرجوه أن يكون شاهدى . إنه يحبنى ولن يرفض ذلك . وسيذهب إلى البارون فيستقبله هذا إنى لست إلاً «مربياً» أو تابعاً . ولكن المستر أستلى هو ابن أخى اللورد پيبروك . وكل الناس يعلمون هذا ، واللورد پيبروك هنا . فلا شك أن البارون سيكون مؤدبا مع المستر أستلى . أما إن أساء الذوق معه ، فسيعتبرها المستر أستلى إهانة لشخصه هو – أنت تعلم عناد الإنجليز – وسيبعث إليه أحد أصدقائه ، وأنت تعلم أنه كثير الأصدقاء . تصور إذن عاقبة المسألة . مسألة لن تنتهى على النحو الذى تظنه .

جَبُنَ دى جرييه ، ولعله قال لنفسه : قد يكون الأمر كما يقول الفتى ، لعله قادر على أن يرتكب حماقة أخرى . فعاد يقول مبالغاً فى التلطف :

– أتوسل إليك مرة أخرى أن تهمل الأمر . يخيل إلىّ أنك تلتذ بهذه المشاحنات . إنك لا تطلب استرضاء بل فضيحة . أعترف أن هذا جميل وطريف ، ولعل هذا ما يعجبك فى الأمر . ولكن ...

وأردف بسرعة وقد رآنى أتناول قبعتى :

– إن معى خطاباً لك من أحد الأشخاص . اقرأ . لقد رجانى أن أنتظر جوابك .

وسلم إلىّ ورقة مطوية مختومة ، عرفت فيها خط پولينا ، وقرأت :

« لقد بلغنى أنك مصر على المضى فى تلك المسألة . فأتوسل إليك أن تقصر عما أنت فيه من جنون . إنها حماقة ! وأنا فى حاجة إليك ، وقد أقسمت أن تطيعنى . تذكر شلاجنبرج . إنى أسألك أن تطيع . إنى آمرك إذا لم يكن من ذلك بد » .

فتاتك – پولينـا

حاشية : « إن كان فى نفسك شيء من السخط علىّ لما حدث أمس فإنى أرجو منك المعذرة . »

لقد تغير كل شيء ، وأحسست أنى أشحب وأرتعد . ونظر إلىّ الفرنسى متحاشياً أن يلاقى نظرتى فيزيد ارتباكى . وددت لو صرح بالسخرية منى !

– حسـناً . تستطيع أن تطمئن الآنسة پولينا . ولكن دعنى أسألك لماذا انتظرت بهذه الورقة طوال الوقت . كان يجب تقديمها على الفور بدلا من كل تلك الثرثرة .

– معذرة ... لقد كان من الطبيعى أن أسرع . فالأمر دقيق . لقد أردت أن أعرف ما عزمت عليه أولا ... وعلى كل حال ، فإنى أجهل مضمون الرسالة ، وقد ظننت أنى لن يعوزنى الوقت لتقديمها إليك .

– دعك من هذا ! لقد طُلب إليك ألا تقدم هذه الورقة إلا إذا نفدت حيلتك معى . كن صريحاً يا مسيو دى جرييه .

فقال وهو ينظر إلىَّ نظرة غريبة :

– ربما .

ومددت يدى أتناول قبعتى ، فانحنى وخرج . وخيل إلىَّ أنى أرى ابتسامة على شفتيه . غمغمت وأنا أهبط الدرج :

– هذا يوم له ما بعده أيها الفرنسى الصغير .

ولم أكن قادراً على التفكير فى شىء ما . فقد خيل إلىَّ أنى تلقيت ضربة على رأسى . ثم أنعشنى الهواء قليلا . فوضحت أمامى فكرتان ، الأولى : أننا نخلق من هذه التفاهات مأساة بغير ما داع . والثانية : أن للفرنسى على پولينا سلطاناً غريباً دون شك . فهو لا يكاد يأمرها حتى تطيع ، وتكتب إلىَّ متوسلة . حقاً إن العلاقة بينهما لم تكن قط واضحة لى ، ولقد حرت فى فهم هذه العلاقة منذ عرفتهما . ولكنى ألاحظ من زمن أنها تبغضه ، بل تحتقره وأنه لا يكاد يلتفت إليها ، بل يعاملها شر معاملة ، وقد ذكرت لى پولينا أنها تبغضه وألقت إلىَّ باعترافات صريحة فى هذا الشأن . لا ريب إذن أن له عليها سلطاناً ما ، وأنه يقبض عليها بقبضة من حديد .

* * *

- ٨ -

قابلت الإنجليزى فجأة بينما كنت ماراً « بطريق النزهة » كما يسمونه ، وهو طريق تشرف على جانبيه أشجار الكستنا . قال :

– لقد كنت على وشك القدوم إليك ، ويبدو أنك كنت قادماً إلىّ أيضاً . إذن فقد تركت مخدوميك ؟

فسألته دهشاً :

– كيف علمت هذا ؟ أكل الناس يعلمون ؟

– كلا . ألبتة . إن هذا الأمر لا يعنى الناس جميعاً . والحق أنى لم أسمع قط أحداً يتكلم عنه .

– فكيف اتفق لك أن تعلم به ؟

– صدفة ... وأين تقصد ؟ إنى أميل إليك ، ولهذا كنت عازماً على زيارتك .

صحت :

– يا لك من فتى رائع يا مستر أستلى (ذلك ولو أنى لم أزل أسائل نفسى كيف تسنى له أن يعلم .) إنى لم أشرب قهوتى بعد ، ولا أظنك مسست قهوتك . فلنعرج على ندى الملهى ، حيث نستطيع أن نجلس وندخن ونتحدث .

وكان الندىّ على قيد خطوات . فلما جئ بالقهوة جلسنا ، وأشعلت سيجارة ، ولم يكن المستر أستلى مدخناً ، فجلس منتبهاً وقد ألقى إلىّ سمعه . وبدأت حديثنا قائلاً :

– لست عازماً على الرحيل . بل أريد البقاء هنا .

فقال المستر أستلى مستحسناً :

– إنى لم أشك فى هذا قط .

ومن العجيب أنى بينما كنت ذاهباً إليه ، لم أفكر قط أن أخبره بحبى لپولينا ، بل عزمت ألا أحدثه عن ذلك الأمر ، إنى لم أشر إلى الأمر أدنى إشارة أثناء مقامنا بذلك البلد ، إذ كنت أعرفه رجلا شديد التحفظ ، وقد لاحظت من أول الأمر أنه معجب بپولينا . وإن لم يتحدث عنها قط . بيد أنه ما كاد يجلس ويثبت نظرته الثقيلة الباردة علىّ ، حتى استشعرت – لأمر ما – رغبة فى أن أنفض إليه كل شىء ، وأن أحدثه

عن حبى فى جميع أطواره . وقد تحدثت إليه عنه ساعة ونصف ساعة . ووجدت فى ذلك الحديث لذة كبيرة ، وإن كانت هذه المرة هى الأولى التى أتحدث فيها عنه ، بل إننى لاحظت اضطرابه كلما تحمست فى الحديث ، وأغرانى هذا بالمبالغة فى عنف قصتى . ولست آسفاً إلا على شيء واحد : أنى أطلت الحديث عن الفرنسى .

استمع إلىّ المستر أستلى صامتاً ساكناً ، ولم ينبس بكلمة ، ولم تصدر عنه نأمة ، وهو يحدق فى عينى بنظرات قوية . ولكنه أوقفنى عندما بدأت أتكلم عن الفرنسى ، وسألنى كيف يكون لى أن أرجم بالظنون فيما لا صلة بينه وبين ما أتحدث عنه ؟ فأجبته : لعلك مصيب فيما تقول ، ولم ألبث أن دهشت لذلك الرجل الخجول يسألنى هذا السؤال الصريح :

– أتعلم شيئاً عن هذا المركيز والمدموازيل پولينا سوى الظن ؟

فأجبته :

– كلا . لست واثقاً من شيء .

– وإذن فقد أسأت صنعاً بإفشائك هذه الظنون إلى ، بل بمجرد التفكير فيها .

فقاطعته وقد دهشت ثانية :

– أجل ، أجل . إنى أعترف ، ولكن ليس هذا هو لب الموضوع .

ثم رويت له قصة أمس الأول بكل تفاصيلها تحدثت عن نزوة پولينا ، ولقائى مع البارون ، وفصلى من العمل ، وعن وضاعة الجنرال ، وزيارة دى جرييه لى ذلك الصباح وأخيراً أطلعته على الخطاب ، وسألته :

– ما رأيك ؟ لقد كنت قادماً لأسألك رأيك . أما أنا فيبدو لى أن أقتل هذا الفرنسى الصغير ، ولعلى قاتله .

قال المستر أستلى :

– إنى أوافقك على رأيك فيه . أما المس پولينا ... فأنت تعلم أن المرء قد يضطر إلى معاملة من يكره ... ولعل بين هذين الشخصين أنفسهما شيئاً تمليه ظروف خارجية – وإن يكن مجهولا منك – ورأيى ألا تهتم اهتماماً كبيراً . وأما ما أقدمت عليه المس پولينا منذ يومين ، فغريب بلا شك ، ولو أن ذلك لا يعنى أنها أرادت التخلص منك ، أو أن يضربك البارون بعصاه (ولا أدرى لماذا يحمل هذه العصا إذا كان لا يستعملها) ولكن الغريب فى الأمر أنه لا يتفق مع نبل المس پولينا . ولعلها لم تكن تظنك مقدماً على إنفاذ أوامرها نصاً .

فصحت فجأة وأنا أثبته بنظرى :

– أتعلم أنى واثق من سبق معرفتك بهذه القصة ، وأنك عرفتها من .. المدموازيل پولينا نفسها ؟ ....

فنظر إلىّ دهشاً ، ثم قال وقد استرد هدوءه سريعاً :

– إن عينيك تلمعان ، وإنى أقرأ فيهما شكا . ولكن ليس لك أن تصار حتى بشكوك كهذه إنى لا أسمح لك بذلك ألبتة . أتسمع ؟ وإنى أرفض كل الرفض أن أجيب على سؤالك .

صحت وقد اختلج فى صدرى انفعال غريب لم أتبين كنهه :

– حسناً ! كفى ! لا حاجة بك إلى أن تزيد .

وبعد ، فأين ومتى كان لپولينا أن تتخذ المستر أستلى حميماً ؟ إنى لم أعد أرى ذلك محتمل الوقوع ، وإن كانت پولينا ما تزال عندى ذلك اللغز المحير . أليس من العجيب أني بينما كنت أروى لصديقى قصة غرامى ، راعنى أنى لا أكاد أرى فى هذه القصة شيئاً واضحاً أو معقولا ، بل رأيت أن كل ما يربطنى بها خيالىٌ وغريب وشاذ ، ولا يشبه شيئاً مما أعرفه ؟

عدت أقول بحرارة كحرارة المستر أستلى :

– حسناً . حسناً . إنى حائر ولا أستطيع أن أبدى رأياً آخر . وبعد ، فأنت سيد كريم ، ويسرنى أن أعلم رأيك ، وإن لم أكن فى حاجة إلى نصيحتك . وصمت . ثم عدت أقول :

– أود أن أعلم أولا إلى أى شىء تعزو جزع الجنرال ؟ إنه خلق من ألعوبتى ، مشكلة عويصة ، بل تدخل فى الأمر دي جرييه ، الذى لا يهتمٍ إلا بشأن خطير ، وشرفنى بالزيارة وسألنى ، بل توسل إلىّ ... أجل ، لقد توسل إلىّ دى جرييه نفسه . والعجيب أنه جاءنى فى الساعة التاسعة صباحا ، وكان فى يده خطاب المدموازيل پولينا . فمتى كتبت هذا الخطاب ؟ هل أيقظوها لذلك ؟ إنها تخضع دائماً لكل ما يريد وتهبط حتى تسألنى العفو إذا أراد هو ذلك . ولكنى لا أدرى أى مصلحة تدفعها إلى هذا ، ولماذا يخشون جميعاً هذا البارون ، ولماذا يهتمون بزواج الجنرال من المدموازيل بلانش دى كومنج ؟ لقد قال لى الجنرال ليلة أمس : إنه مضطر إلى أن يسلك سبيل الحذر فى هذه الأيام ، فما رأيك في الأمر كله ؟ أرى من نظرتك أنك أعلم بهذا الأمر منى .

فابتسم المستر أستلى ، وأومأ برأسه مقراً وقال .

– أجل ، إنى أعلم بهذا الأمر منك . فهذه المدموازيل بلانش هى محور كل شىء . وأنا واثق من هذا .

وخطـر لى أنى ربمـا علمت من هذا السبيل شيئاً جديداً عن پولينا ، فصحت بلهفة :

– وماذا عن المدموازيل بلانش ؟

– أعتقد أن للمدموازيل بلانش مصلحة خاصة فى اجتناب لقاء مع البارون . كأن هذا اللقاء ربما يكون مسيئاً ... بل مشيناً .

– إيه ، إيه .

– منذ ثلاثة أعوام ، كانت المدموازيل بلانش هنا فى رولتنبرج ، ولم تكن تسمى عند ذلك « دى كومنج » ولا كان لأمها الأرملة دى كومنج وجود . وكذلك لم يعرف أن هناك شخصاً يدعى « دى جرييه » . ولا ريب عندى فى أنهم ليسوا أقرباء ، بل فى أنهم حديثو المعرفة ، بل إن عندى ما يدفعنى إلى الاعتقاد بأن مركيزية دى جرييه أمر مستحدث ، وأن اسم دى جرييه قد اخترع مع اللقب ، فأنا أعرف شخصاً هنا ، لقيه من قبل باسم آخر .

– ولكن دى جرييه له أصدقاء ممتازون .

– وما قيمة هذا ؟ المدموازيل بلانش لها أيضاً أصدقاء ممتازون ، ومع ذلك فقد أمرها البوليس منذ ثلاث سنوات فحسب أن تغادر المدينة ، تبعاً لإشارة البارونة السالفة الذكر وقد صدعت بالأمر .

– كيف كان ذلك ؟

– إنها قدمت إلى هنا فى صحبة أمير إيطالى يتحلى باسم تاريخى – بربارينى – أو شىء كهذا . وكان رجلا مرصعاً بالجواهر والأحجار الكريمة الثمينة ، وكان يخرج معها فى عربة فخمة . وكانت المدموازيل بلانش تلعب بالثلاثين وبالأربعين ، فربحت أولا ، ثم أدبر عنها الحظ ، فعادت ذات مساء وقد خسرت مقداراً جسيما من المال . ولكن الكارثة الحقيقية هى أن الأمير اختفى بسحر ، واختفت معه الجياد والمركبات . وكانت تذكرة الفندق التى خلفها وراءه تحمل رقماً ضخماً . فسقط فى يد المدموازيل زلما (وقد سمت نفسها المدموازيل زلما بعد أن كان يظن أنها السيدة بربارينى) ،

وبكت وأعولت ومزقت ثيابها فى سورة الغضب ، وكان فى الفندق نفسه كونت پولونى - والپولونيون فى الخارج كلهم كونتات - أثر فيه منظر المدموازيل زلما وهى تقد ثيابها وتخمش وجهها بأظافرها الموردة المعطرة . وكان بينهما لقاء . فلما حان وقت الغداء ، كانت تبدو هادئة ، وظهر الكونت البولونى مساء فى الملهى وذراعه فى ذراع المدموازيل زلما ، وكانت تضحك كعادتها ضحكاً عالياً ، بل كانت أكثر مرحاً مما اعتادت ، وجعلت تشق طريقها بين لاعبى الروليت ، صنيع اللاعبات اللائى يدفعن الجالسين ليفسحن لأنفسهن مكاناً . إن لهن مهارة خاصة فى ذلك . وقد لاحظت هذا دون شك .

- آه . نعم .

- إنهن غير جديرات بالملاحظة . وهن قذى فى عيون المهذبين ، وإن كان يسمح لهن بالبقاء هنا . ومنهن من تصرف أوراقاً من ذوات أربعة آلاف الفرنك على موائد القمار . ولكنها لا تكاد تكف عن ذلك حتى يطلب إليها الرحيل . وقد جعلت المدموازيل زلما تصرف أوراقاً من هذا الصنف ، وخسرت أكثر مما خسرته البارحة ، رغم أن هذا الصنف من النساء سعيد الحظ عادة فى القمار ، لأنهن يعتمدن على رصيد كبير ... ولكن قصتى تنتهى هنا . فقد اختفى الأمير . وفى مساء اليوم نفسه جاءت المدموازيل زلما وحيدة إلى الملهى ، فلم تجد من يرحب بها هذه المرة . وأصبحت بعد يومين خاوية الوفاض . وعندما فقدت آخر جنيه ذهبى كان معها ، تلفتت حولها ولمحت إلى جانبها البارون برمرجلم ، الذى كان يرمقها بانتباه عظيم ، وغيظ شديد . ولم تبال بغيظه ، بل رمته بابتسامتها الخلابة ، وسألته أن يضع لها عشرة جنيهات على الأحمر . فقدمت البارونة شكوى عنها وفى المساء نفسه أُمرت ألا تعود إلى الظهور فى الملهى ... إن كان علمى بكل هذه الوقائع الفاضحة يدهشك ، فاعلم أنى عرفتها من قريبى المستر فيدر ، الذى أخذ المدموازيل زلما فى عربته ذلك المساء من رولتنبرج إلى أشپا . وها هى المدموازيل زلما تريد أن تصبح « عقيلة الجنرال » لعل ذلك يعفيها من مضايقات إدارة الملهى . وهى لم تعد تقامر ، ولكنها تقرض اللاعبين بالرهن ، وربما كان هذا الجنرال المسكين نفسه مديناً لها ، ودى جرييه كذلك ، إلا إن كان هذا الأخير شريكها . أرأيت الآن لماذا يجب على المدموازيل أن تتجنب البارونة والبارون ؟ إن الفضيحة تقضى على مثلها . وأنت تنتمى إلى هذه الأسرة ، فأى عمل منك قد يسبب الفضيحة ، ويزيد الأمر حرجا أنها تظهر للناس كل يوم وذراعها فى ذراع الجنرال أو المس پولينا . أفهمت الآن ؟

فضربت المنضدة بيدى ضربة شديدة - حتى أن الخادم أقبل إلينا مذعوراً - وصحتُ :

- لا ! إنى لا أرى شيئاً ! أخبرنى يا مستر أستلى ، إذا كنت تعلم هذه القصة منذ زمن طويل ، ومن ثم تعلم من هى المدموازيل بلانش دى كومنج فلماذا لم تطلعنى على ذلك من قبل ، أنا أو الجنرال ، أو المدموازيل پولينا على الخصوص ، وهى التى تظهر فى الملهى أمام الناس مع المدموازيل بلانش ؟ أكنت محقاً فى ذلك ؟ فأجاب المستر أستلى بهدوء :

- لم أجد ثمت داعياً إلى تحذيرك ، فأنت لا تملك أن تغير من الأمر قليلا أو كثيراً . ثم من أى شىء أحذرك ؟ إن الجنرال يعرف عن المدموازيل بلانش أكثر مما أعرف ، والمسكين مع ذلك يتنزه معها ومع المس پولينا . إن هذا الجنرال رجل تعس . لقد رأيت هذه الفرنسية أمس على جواد ، ومعها دى جريبه والأمير الروسى وكان الجنرال يتبعهم عن بعد ممتطيا حصاناً أبلق . وقد قال لى فى ذلك الصباح ، إنه يجد ألماً فى ساقيه ، ولكنى رأيته يتحامل على نفسه حتى يستطيع الركوب ، فعرفت أنه امرؤ مقطوع منه الرجاء . ورغم كل شىء ، فإن هذه المسألة لاتعنينى ، وأنا لم أعرف المس پولينا إلا من زمن قصير ... ثم قال بعد تفكير .

- وقد أخبرتك أنى لا أرى لك أن تجعل من مودتى الصادقة سببا لأن تسألنى نوعاً بعينه من الأسئلة .

قلت وأنا أنهض .

- كفى . إنى أرى الأمر واضحاً كالشمس : أعنى أن المدموازيل پولينا تعلم كل شىء عن هذه المدموازيل بلانش . ولكنها لا تستطيع أن تفارق الفرنسى ، ولهذا لا تأبى صحبة المدموازيل بلانش . وما من شىء آخر . كان يمكن أن يدفعها إلى ذلك . أو إلى أن ترجونى أن أبتعد عن البارون ، بعد أن أغرتنى هى به !

- إنك تنسى أولا أن هذه المدموازيل دى كومنج هى خطيبة الجنرال وأن المدموازيل پولينا ربيبته ، ولها أخ وأخت ، هما ولداه ، وأن هذا المجنون لا يعنى بولديه ، بل يهملهما ويسلب مالهما .

– أجل . أجل . هذا حق . إن ترك الطفلين معناه ضياعهما . والبقاء معناه السهر على مصلحتهما ، أو إنقاذ جزء من ثروتهما . أجل . أجل . ولكن ... ولكن ... آه ! إنى أفهم الآن لماذا يهتمون جميعاً بصحة الجدة .

– عمن تتكلم ؟

– عن هذه العجوز التى تأبى أن تموت ! إنهم ينتظرون بصبر نافد برقية تخبرهم أن الأمر قد وقع ، وأن العجوز قد ماتت .

– الحق أن اهتمامهم كله منصب عليها . وكل شىء يتوقف على الميراث . فإن الوصية لن تكاد تفتح حتى يتزوج الجنرال ، وتصبح پولينا حرة . أما دى جرييه ...

– حسناً ، حسناً ، ماذا يكون من أمر دى جرييه ؟

– سيسترد دينه . وهو ما ينتظره الآن .

– ألا تراه ينتظر شيئاً غير ذلك ؟

فأجاب المستر أستلى بعناد :

– لا أعلم أكثر من هذا .

فصحت بغضب :

– أما أنا فأعلم أكثر . إنه هو الآخر ينتظر وصية الجدة . لأنها تجعل لپولينا بائنة ، وما إن تنال النقود حتى تلقى بنفسها على عنقه . كل النساء هكذا . أعظمهن كبرياء يصبحن عند الزواج أذل الإماء . إن پولينا لاتستطيع إلا أن تحب بإخلاص . هذا رأيي فيها : انظر إليها حين تكون وحيدة غارقة فى أفكارها . إن فيها شيئاً قاهراً متسلطاً ، ملعوناً . إنها تستطيع أن تقدم على أى عمل جنونى . إنها ... إنها ... (وصمتُ) ولكن من ذا الذى ينادى باسمى ؟ من ينادى ؟ لقد سمعت صيحة بالروسية : ألكسى إيڤا نوڤتش ! صوت امرأة ! صه !

وفى هذه اللحظة اقتربنا من الفندق ، وكنا قد غادرنا الندى من زمن طويل دون أن نلاحظ ذلك . قال المستر أستلى وهو يشير إلى فندقى :

– حقاً ، لقد سمعت صوت امرأة ، ولكنى لم أعلم من كانت تنادى . وإنى أرى الآن من أين تأتى هذه الصيحات ، إنها امرأة جالسة على كرسى كبير ، قد وضعه الخدم على قمة الدرج . هم يحملون حقائبها . لقد وصلت بلا ريب منذ قليل .

– ولكن لماذا تنادينى ؟ انظر ، إنها تصرخ مرة أخرى وتلوح لنا بيديها .

– قال المستر أستلى :

– أجل . إنى أرى ذلك .

وسمعنا صيحات تنبعث من درج الفندق :

– ألكسى إيڤانوڤتش ! ألكسى إيڤانوڤتش ! تبًا لك من أحمق !

فأخذنا نعدو . وما إن وصلنا إلى الباب ، حتى تراخت ذراعاى فى ذهول ، ومكثت مسمراً فى مكانى .

* * *

كانت الجدة واقفة على قمة الدرج ، بعد أن حملت إليها على كرسى كبير ، وكانت محاطة بالخدم والوصائف ومن إليهم ، وعلى رأسهم مدير الفندق ، وقد جاء بنفسه ليستقبل القادمة الجديدة التى أحدثت ضجة فى الفندق ، بحاشيتها الخاصة ، وصناديقها وحقائبها الكثيرة .

أجل . لقد كانت أنطونيدا ڤاسيليڤنا تراسڤتشا بعينها ، ذات الثروة الباذخة ، والكبرياء القاهرة ، والأعوام الخمسة والسبعين . هى المالكة المسكوڤية الثرية ، التى أتعبت البرق ، وماطلت الموت ، جاءت على حين غرة ، كما تمطر السماء ، وكما يسقط الثلج . لقد كانت مشلولة الساقين ، ولهذا جاءت فى كرسيها الذى لم تغادره قط منذ خمس سنوات ، ولكنها جاءت جمة النشاط ، راضية النفس ، رافعة الرأس ، عالية الصوت ، شتامة كعهدها ، لا تختلف فى شىء عن تلك السيدة التى تشرفتُ برؤيتها مرتين منذ التحقت بخدمة الجنرال مربياً .

وقفت أمامها كالصنم من الدهشة . لقد رأتنى عن بعد وعرفتنى وهى محمولة على كرسيها ، ونادتنى باسمى واسم أبى (وكانت تذكر الأسماء بعد أن تسمعها مرة واحدة ، فلا تنساها بعد ذلك) . قلت لنفسى : هذه هى المرأة التى ظنوا أن يزوروا قبرها بعد أن تكتب وصيتها ! إنها ستدفننا جميعاً ، وستدفن معنا كل من فى الفندق . ماذا سيكون من أمر أصحابنا الآن ، ماذا سيحدث للجنرال ؟ إنها ستقلب الفندق كله رأساً على عقب ! صاحت الجدة بصوت جهير :

– حسناً يا سيدى . لماذا تقف أمامى زائغ البصر ؟ أتأنف أن تصافحنى ؟ أم لعلك لم تعرفنى ؟

ثم صاحت بخادم شيخ ، ضئيل الجسم ، أصلع الرأس ، يلبس صداراً أبيض وسترة سوداء (وكان وصيفها الذى يصحبها فى رحلاتها جميعاً) :

– إلىّ يا پوتاپتش ! تصور ! إنه لم يعرفنى ! لقد ووريت التراب وانتهى الأمر ! نعم ، بعد أن أرسلوا برقية إثر برقية يسألون هل ماتت ؟ ألم تمت بعد ؟ إنى أعلم القصة . ولكنى مملوءة حياة ، كما ترى .

فأجبتها فى شىء من المرح ، وقد ثبتُ إلى رشدى :

– عفواً يا أنطونيدا ڤاسيلڤنا . لماذا أرجو موتك ؟ لقد أدهشتنى المفاجأة وحسب ....

– لماذا تدهش ؟ إنى ركبت القطار وسافرت . القطار مريح جداً . أكنت خارجاً تتنزه ؟

– أجل . إنى عائد من الملهى .

– إن الجو هنا جميل دافىء ، والمكان طيب ، والأشجار كلها مزهرة . إنى أحب هذا المكان ... أجماعتنا فى مسكنهم الآن ؟ هل الجنرال مثلا بالفندق ؟

– نعم . أظنهم جميعاً هناك .

– أتراهم يراعون التقاليد ويحفلون بالمظاهر ؟ إن مثل هذه الأشياء تضفى على المرء أبهة . لقد سمعت أيضاً أنهم يتخذون مركبة كما يجدر بالأشراف الروس . إن سادتنا الروس إذا ذهبوا إلى الخارج غالوا فى المظاهر . هل پراسكوڤيا هنا أيضاً ؟

– أجل . إن پولينا ألكسندروڤنا هنا .

– والمرأة الفرنسية ؟ سأراهم جميعاً بنفسى ، أرشدنى إلى الطريق يا ألكسى إيڤانوڤتش . أمستريح أنت إلى مقامك هنا ؟

– أجل . وأشكرك يا أنطونيدا ڤاسيليڤنا .

– أما أنت يا پوناپتش فمرْ هذا الفندقى الأحمق أن يعد لى مسكناً لائقاً ، وليكن حسن الزينة ، غير شديد الارتفاع ، وليحمل المتاع إليه بإشرافك ... آه ! ماذا يريد كل هؤلاء منى ؟ ثلة من العبيد ! من الذى معك ؟

فأجبتها :

– المستر أستلى .

– ومن هو ؟

– رفيق فى السفر ، وصديق حميم لى ، وهو يعرف الجنرال أيضاً .

– أهو إنجليزى ؟ فلهذا حدق إلىَّ ولم يكد يفتح فاه . على أنى أميل إلى الإنجليز . احملونى الآن إلى المسكن الذى يقيمون فيه .

فحملها الخدم على كرسيها ، وتقدمتُ الجمع على درج الفندق الكبير . وسار الموكب فى مهابة وجلال ، فكان كل من يقابلنا يقف ليحملق إلينا . وكان فندقنا يعد

أحسن الفنادق فى تلك المنطقة وأغلاها وأفخمها ، وقد مررنا فى الردهات بسيدات أنيقات وسادة من كبار الإنجليز . أسرع غير واحد منهم يسأل المدير المذهول عن القادمة الجديدة فكان لا يفتأ يجيبهم بأنها « أجنبية ذات مكانة ، روسية ، كونتيسة ، سيدة عظيمة ، ستحتل الغرف التى كانت تقيم فيها منذ ثلاثة أيام الدوقة دى ن .... » بينما كانت الجدة بطلعتها المتكبرة وعنقها الأصيد ، تطيل النظر فى كل من يمر بها ، وتسأل بصوت عال : من هذا ؟ وكانت مديدة القامة وكان هذا واضحاً رغم أنها لم تنهض قط عن كرسيها ، وكان ظهرها معتدلا كأنه لوح من الخشب ، ولم يلمس المسند قط . وكان وجهها الأشهب الحاد الملامح يطل بكبرياء من فوق عنقها ، لقد كان فى نظرتها شىء من العظمة ، بل من التحدى ، ولكنك كنت لا تلحظ أى تكلف فى نظرتها أو إشارتها . وبرغم سنيها الخمس والسبعين كان وجهها صبوحاً ، وكانت أسنانها كلها سليمة . وكانت ترتدى ثوباً من الحرير الأسود وقبعة بيضاء .

همس المستر أستلى ، وهو يصعد إلى جانبى ولا يزال يدخن :

– إنى معجب بها كل الإعجاب .

فأجبته مصرحاً بما كان يدور فى خاطرى :

– إنها تعلم قصة البرقيات ، وهى تعرف دى جرييه أيضاً ، ولكنها لا تكاد تعرف المدموازيل بلانش .

ما أضعف الإنسان ! ما كادت تزول دهشتى الأولى حتى ترقبت فى سرور الصاعقة التى توشك أن تنزل على الجنرال . واندفعت ، أمشى فى المقدمة ، والمرح ملء إهابى .

كانت أسرة الجنرال تشغل مسكنا فى الطابق الثالث . لم أنبه أحداً ، بل لم أطرق الباب . ولكنى فتحته على حين غرة ، فإذا الجدة محمولة بينهم كالغازى المنتصر ، ومن غريب الاتفاق أن أصحابنا كانوا مجتمعين بأسرهم فى حجرة الجنرال . وكان الوقت ظهراً ، وكانوا على أهبة الخروج للنزهة (حيث يركب بعضهم عربة ، ويمتطى الآخرون الجياد ، ومعهم بعض من يعرفون) . كان الجنرال حاضراً ، وكذلك پولينا ، والطفلان ، والمربيتان ، ودى جرييه ، والمدموازيل بلانش فى كسوة الركوب ، وأمها الأرملة دى كومنج ، والأمير الصغير ، وعالم ألمانى رأيته فى ذلك اليوم للمرة الأولى .

أقبل الخدم إلى هذا الحشد بكرسى الجدة ، فوضعوه فى وسط الحجرة تماماً ، على قيد ثلاث خطوات من ابن أخيها . رباه ! لن أنسى أبداً ذلك المنظر ! كان الجنرال قبل دخولنا واقفاً بين الجماعة يتحدث ودى جرييه يساعده . ولأزد على ذلك أنى لاحظت منذ يومين أو ثلاثة أن المدموازيل بلانش ودى جرييه يتملقان الأمير ولا يحفلان بالجنرال العجوز . وهكذا كانت الجماعة كلها رغم تكلفها وتصنعها فى مرح ونشاط . ولكن لم تكد تظهر الجدة حتى ماتت الكلمة على شفتى الجنرال ، وحدق فى السيدة العجوز فاغر الفم ، تكاد تبرز عيناه من رأسه ، فكأنه رأى غولا . وظلت الجدة أيضاً صامتة ساكنة ، ولكن نظرتها المثبتة عليه كانت تنطق بمزيج من التحدى والانتصار والسخرية . وظلا يتلاحظان هكذا نحو عشر ثوان ، بين صمت الجماعة العميق وكانوا جميعاً قد بدت عليهم سيماء الاضطراب العظيم ، حتى دى جرييه جلس جامداً لا يتحرك وقد لاح على وجهه قلق شديد ، وحدقت المدموازيل بلانش فى الجدة مذعورة وقد ارتفع حاجباها ، وانفرجت شفتاها . ووقف الأمير والعالم دهشين يتأملان ذلك المنظر . أما پولينا فقد بدت فى عينيها أول الأمر دهشة عميقة ثم شحب لونها فجأة وغاض الدم من محياها ، وبعد لحظة تدفق الدم إلى وجهها وورد خديها ، ثم شحب ثانية .

أجل ، كان مجئ الجدة كارثة حلت على الجميع .

ووقف المستر أستلى عن بعد ، هادئا راسخاً كعادته .

وأخيراً قالت الجدة :

– حسناً . ها أنذا قد جئت عوضاً عن البرقية . ماذا جرى ؟ لعلكم لم تكونوا تنتظروننى ؟ فتمتم الجنرال المسكين :

– أنطونيدا ڤاسيليڤنا ... عمتى العزيزة .... ولكن كيف ؟ .....

ولو أن الجدة لبثت صامتة زمناً أطول ، لخر الرجل المسكين مفلوجاً .

– كيف ؟ لقد جئت بالقطار . وما وظيفة السكك الحديدية إذن ؟ ولكنكم جميعاً ظننتمونى قد متُّ وخلفت لكم الميراث . إنى عليمة بالبرقيات التى أرسلتموها . كم كلفتكم من النقود ! حسناً ، لقد جئت أسعى على قدمىَّ أهذا هو الفرنسى المسيو دى جرييه ؟ فقال دى جرييه على الفور :

– أجل يا سيدتى . ثقى ... أنى مسرور جداً ... صحتك ... هذه معجزة ! أن نراك هنا ... مفاجأة سارة !

– أجل . أجل سارة . إنى أعرفك أيها المهرج ، ولكنى لا أبالى بكلامك إلا كما ...

ولوحت بخنصرها . ثم سألت وهى تشير إلى المدموازيل بلانش :

– وهذه ؟ من هى ؟ أهى معكم ؟

لقد أسخط الجدة منظر هذه الشابة الأنيقة تمسك فى يدها سوطا . أجبتها :

– هذه هى المدموازيل بلانش دى كومنچ ، وهذه أمها ، مدام دى كومنچ . وهما تقيمان فى هذا الفندق .

فسألت بغير كلفة :

– الابنة متزوجة ؟

فأجبتها هامساً ومظهراً كل احترام مستطاع :

– كـلا .

أهى رفيقة طيبة ؟

فلم أفهم ما تريد .

– أظريفة هى أم غير ظريفة ؟ أهى تعرف الروسية ؟ لقد استطاع دى جرييه هذا أن يبين عن نفسه بالروسية بعد قليل من الإقامة فى موسكو .

فأوضحت لها أن المدموازيل بلانش لم تزر روسيا غير مرة واحدة . فاندفعت الجدة موجهة الخطاب إليها :

– إذن فبونچور !

فقالت المدموازيل بلانش ، بانحناءة جميلة وأدب جم ، تخفى تحته الدهشة البالغة لهذا السلوك من السيدة العجوز :

– بونچور ، مدام .

– أوه ! إنها تجحظ ببصرها وتتغامز ! ليس من العسير أن أعلم أى طائر هى ... ممثلة أو شىء من هذا القبيل .

ثم التفتت إلى الجنرال بغتة وقالت :

– لقت نزلت هنا . إنى جارتك فهل يسرك هذا ؟

- أوه يا عمتى ! ثقى بإخلاصى وولائى ... وسرورى .

بدأ الجنرال يسترد ثباته . وإذ كان قادراً على أن يتكلم بطلاقة ورزانة وشىء من البلاغة ، أخذ يفيض فى حديثه قائلا :

- لقد كنا فى قلق شديد على صحتك ... كنا نتلقى برقيات مؤيسة ! ولكن ها أنت ذى !

فقاطعته الجدة بغتة :

- أكاذيب ! أكاذيب !

فتظاهر الجنرال بأنه لم يسمع هذا التكذيب الصريح ، وأسرع يقول وقد رفع صوته :

- ولكن كيف استطعت ... ؟ كيف استطعت أن تقررى القيام بمثل هذه الرحلة ؟ ألا ترين أنه فى مثل سنك ، وفى مثل صحتك ... حقاً ، إن هناك ما يدعو إلى الدهشة ، وإنا لنا عذراً فى حيرتنا . ولكن ما أعظم سرورى ! إننا مسرورون جميعاً ، وسنحاول أن نضاعف استمتاعك بالرحلة ....

- حسناً . حسناً ! كفى ! لا فائدة من كل هذه الثرثرة ! إنى لست فى حاجة إلى أحد منكم لأستمتع . تسألنى كيف استطعت القيام بهذه الرحلة ؟ حسناً ! هل فى ذلك ما يثير الدهشة ؟ لقد تمت فى يسر . ما بالكم جميعاً كالسكارى ؟ كيف أنت يا پراسكوڤيا . ماذا تعلمين هنا ؟

فقالت پولينا وهى تتقدم إلى السيدة العجوز :

- وكيف أنت يا جدة ؟ هل استمرت رحلتك طويلا ؟

- هذا أول سؤال معقول يوجه إلىّ . أتسمعون ؟ ألا ترين ؟ لقد مللت الرقاد ، والعلاج ، وانتظار الشفاء ... لا ، حسبى ما مضى . لقد طردت كل أولئك الناس واستدعيت قسيس كنيسة سانت نيقولا ، الذى شفى إحدى السيدات من المرض نفسه بشراب مستخرج من الخرشوف . وقد أفادنى فائدة كبيرة . ففى اليوم الثالث قمت بعد أن عرقت عرقاً غزيراً ، واجتمع أطبائى الألمانى من جديد . ووضعوا نظاراتهم على أعينهم ، وشرعوا يفحصون ، ثم قالوا لى : اذهبى الآن إلى المياه حتى يتم لك الشفاء . قلت : ولم لا أذهب ؟ وفى يوم واحد أعددت العدة وبدأت الرحلة فى الأسبوع الماضى مع پوتاپتش وخادمى فيدور . وقد تخلصت من هذا الأخير فى برلين إذ لم تكن له ضرورة عندى . فأنا أستقل دائماً بعربة من القطار ، أما الحمالون فإنك تستطيعين أن

تكتريهم من أى مكان بعشرين كوپكا . - ثم أضافت وهى تجيل نظرها فى الحجرة : يا له من مسكين جميل ! أنى لك هذا يا سيدى ؟ أنا أعلم أن ثروتك كلها مرهونة ، بكم أنت مدين للفرنسى وحده ؟ إنى أعلم كل شىء . إنى أعلم كل شىء .

فتمتم الجنرال بارتباك شديد :

– إنى أعجب لك يا عمتى العزيزة . إنى لست بحاجة إلى رقابة . ثم إن ما أنفقه لا يزيد عن دخلى .

– حقاً . إنك تأكل مال أبنائك وأنت وصيهم !

أُخذَ الجنرال وقال :

– لا أدرى فى الحقيقة ... بعد هذا الكلام ...

– لا تدرى ماذا ؟ ألا تترك هذه الروليت ؟ أتريد أن تضيع كل ثروتك ؟ فحنق الجنرال وتمتم وهو يكاد يختنق من الغضب :

– الروليت ؟ أنا ؟ إن مركزى ... ولكنك ما تزالين مريضة دون شك يا عمتى . ألا تعودين إلى منزلك ؟

– هراء . تمثيل . الحقيقة أنك لا تستطيع أن تغادر هذه الروليت . سأذهب اليوم لأرى ما عسى أن تكون هذه الروليت . حدثينى يا پراسكوڤيا عن مشاهد هذه البقعة . وعليك أنت يا ألكسى إيڤانوڤتش أن ترينى كل شىء . وعليك يا پوتاپتش أن تعدَّ لى قائمة بالرحلات .

وسألتْ پولينا مرة أخرى :

– ماذا يمكن أن يُرى هنا ؟

فقالت پولينا :

– يوجد قريباً جداً من هنا أطلال أحد الحصون ، وشلاجنبرج .

– ما شلاجنبرج هذه ؟ أهى غابة ؟

– كلا . بل جبل وعلى قمته شرف تبصرين منه منظراً رائع الجمال .

– أيمكن أن يحمل كرسىٌ فوق جبلكم هذا ؟

قلت ؟

– لاشك أننا سنجد من يقوم بهذا العمل .

وفى هذه اللحظة أقبلت فيدوزيا تقدم إلى الجدة طفلى الجنرال .

– كلا إنى لا أريد أن أراهما ، فإنى أكره تقبيل الأطفال بأنوفهم الملوثة . كيف حالك يا فيدوزيا ؟

فأجابت فيدوزيا .

– إنى سعيدة هنا كل السعادة يا أنطونيدا ڤاسيليڤنا . كيف حالك يا سيدتى ؟ كم أسفنا لمرضك !

– أجل . إنى أعلم ذلك . أنت ساذجة طيبة القلب .

ثم أضافت مخاطبة پولينا :

– من كل هؤلاء الأضياف ؟ من هذا اللئيم القمئ ذو النظارة ؟

فهمست پولينا فى أذن الجدة :

– إنه الأمير نلسكى .

– آه ! روسى ! لم أكن أحسبه يستطيع أن يفهمنى ! أتظنين أنه سمع ما قلته ؟ لقد رأيت المستر أستلى من قبل . ثم أضافت ملتفتة إلى المستر أستلى كيف أنت ؟ فانحنى صامتاً .

– ألا تجد ما تقوله لى ؟ قل شيئاً بربك . ترجمى له يا پولينا .

ففعلت ، فأجاب المستر أستلى برزانة لم تخل من رشاقة :

– ليس لدى ما أقوله ، إلا أنى سعيد حقاً بأن أراك فى صحة .

فلما ترجمت هذه العبارة للجدة سرت وقالت :

– ما أحسن أجوبة الإنجليز ! لهذا أفضلهم على الفرنسيين . إنى لا أريد أن أشقّ عليك كثرياً يا پولينا . قولى له : إنى مقيمة هنا فى طابق أدنى . ثم كررت مخاطبة المستر أستلى :

– أجل . فى طابق أدنى . وأشارت بأصبعها إلى أسفل . فبدا على المستر أستلى أنه سر بهذه الدعوة . ثم أخذت السيدة العجوز تحدق فى پولينا من رأسها إلى قدميها فى اهتمام بالغ . ولم تلبث أن قالت :

– إنى أميل إليك يا پراسكوڤيا ، فأنت بنت لطيفة . خير من فيهم . إن لك شخصية مثلى . أرينى ظهرك . أليس هذا شعراً مستعاراً ؟

– كلا يا جدتى . إنه شعرى .

– حسناً . حسناً . إنى لا أحب هذه البدع السخيفة . أنت جميلة جداً . ولو كنتُ رجلا لأحببتك . لماذا لا تتزوجين ؟ يجب أن أذهب الآن . إنى أريد المشى . ولكن لابد لى من الركوب .

والتفتت إلى الجنرال قائلة .

– أما زلت غاضباً .

فبادر الجنرال يقول وهو يتكلف المرح :

– كلا . ألبتة . إنى أعلم أنه فى سنك ...

وهمس دى جرييه فى أذنى :

– إن هذه العجوز تهرف .

وعادت تقول للجنرال :

– إنى أريد الطواف بهذه الأنحاء ، ألا تدع لى ألكسى إيڤانوڤتش ؟

– عن طيب خاطر . ثم إنا جميعاً رهن إشارتك – أنا وپولينا – والمسيو دى جرييه أيضاً ...

فقال دى جرييه بابتسامة ساحرة :

إنه شرف يا سيدتى .

– شرف ؟ أنت مضحك يا سيدى ... احملونى إلى مسكنى الآن ، أريد أن أراه ، ثم أخرج قليلا . والتفتت إلى الجنرال بغتة : لا تظن أنى سأعطيك شيئاً من النقود ....

حُملت الجدة من جديد ، وهبطوا جميعاً خلف الكرسى . وكان الجنرال يسير كمن ضرب على رأسه بهراوة ، ودى جرييه غارقاً فى التفكير ، وأبدت المدموازيل بلانش أولاً ميلا إلى البقاء ثم انضمت إلى الجماعة ، وتبعهم الأمير ؛ فلم يبق فى مسكن الجنرال إلا الألمانى ومدام دى كومنج .

* * * *

فى مدن المياه ، يُعين مديرو الفنادق مساكن السياح على أساس تقديرهم الشخصى أكثر مما يعينونها على أساس رغبة هؤلاء السياح . والحق أنهم قليلا ما يخطئون . وقد كان مسكن الجدة بالغ الترف حقاً ، ولأمر ما خص المدير الجدة بهذا المسكن الفخم . فكان فيه أربع غرف حسنة الموقع ، وحمام وحجرتان للخدم ، وأخرى للوصيفة . وكانت تقيم فى هذه الغرف فى الأسبوع الماضى دوقة عظيمة ، وبهذا احتج المدير لارتفاع الأجر ، وقد طافت الجدة بهذه الغرف واحدة بعد أخرى ، وفحصتها فحصاً دقيقاً ، بينما كان الفندقى ، - وهو شيخ أصلع - يسير إلى جانبها إجلالاً لها ، ولست أدرى بالضبط ماذا كان الناس يظنون الجدة . ولكنى أعلم أنها اعتبرت على كل حال سيدة ذات مكانة عظيمة ، وثروة باذخة . ودون اسمها فى سجل الفندق : « السيدة عقيلة الجنرال . أميرة تراسفتشوا . » والحق أنها لم تكن أميرة قط . ولكن حاشيتها الفخمة ، ومقصورتها الخاصة ، ومتاعها الكثير ، كل ذلك زادها روعة ، بينما ضاعف الرهبة منها كرسيها المتحرك ، وصوتها الحاد ونبرتها الآمرة ، وأسئلتها الشاذة الصريحة ، وقامتها المنتصبة الشامخة .

كانت تقف أحيانا وهى تشاهد مسكنها الجديد ، وتشير بأصبعها إلى قطعة من الأثاثات ثم تغمر الفندقى المبتسم المتملق المتحفظ بأسئلة غير متوقعة . وكانت تخاطبه بالفرنسية ، ولكن منطقها فى هذه اللغة من الغموض أحيانا بحيث اضطررت أن أترجم لها . وكانت أجوبة الفندقى عادة غير مقنعة لها ، على حين كانت أسئلتها غريبة محيرة له . وقفت مثلا أمام لوحة منقولة - فى غير إتقان - عن أحد الرسوم الأسطورية وسألت :

- صورة من هذه ؟

فأجاب الفندقى :

- إنها لابد أن تكون صورة كونتسة معروفة .

- كيف لا تعلم ؟ ولم هذه النظرة الزائغة ؟

فلم يدر الفندقى بم يجيب . وصاحت الجدة بالروسية : أحمق !

ثم مضت لسبيلها ، لكن لتعيد القصة ثانية أمام تمثال سكسونى لمحته من بعيد ، وأمرت – لغير سبب واضح – أن يؤتى به إليها . وأخيراً سألت الفندقى عن ثمن البساط الذى كان فى حجرة نومها ، ومكان صنعه ، فلم يستطع الرجل إلا أن يَعِد بالاستخبار عن ذلك . فقالت الجدة :

– أفٍّ لهؤلاء الحمير !

ثم ركزت كل انتباهها على سرير نومها وقالت :

– هذا حسن . هذا فخم . دعونى أرى فكشف الخدم عن السرير شيئاً .

– أكثر . انزعوا الوسائد . ارفعوا الحشايا .

وفحصت الجدة كل شىء بدقة .

– أليس هنا بق ؟ حسناً . ارفعوا الفرش جميعاً ، وضعوا فرشى ووسائدى . هذا ترف عظيم ، ماذا أصنع به ؟ إنى سأكون عرضة للملل هنا . يجب أن تأتى إلىَّ كثيراً يا ألكسى إيڤانوڤتش . يجب أن تأتى إلىَّ كلما فرغت من التدريس للطفلين .

فأجبتها :

– لقد تركت خدمة الجنرال منذ أمس . إنى أعيش هنا مستقلا .

– ولم ذلك ؟

– إليك الخبر . لقد قدم من برلين منذ بضعة أيام بارون شهير مع زوجته . وبينما كنت أتنزه أمس قلت لهما شيئا بالألمانية دون أن أتمكن من تقليد لهجة أهل برلين تماماً .

– ثم ماذا ؟

– لقد اعتبرها البارون إهانة وشكانى إلى الجنرال ففصلنى من خدمتى .

– كيف هذا ؟ هل أهنته حقاً ؟ ليتك أهنته !

– كلا إن البارون اعتدى علىَّ بأن رفع عصاه ليضربنى .

فالتفت إلى الجنرال فى عنف :

– أتسمح بأن يعامل مربى أبنائك هذه المعاملة ، ثم تطرده من وظيفته ؟ يالك من جبان ! يا لك من أحمق !

فأجاب الجنرال بشىء من العزة :

– صبراً يا عمتى . إنى لا أجهل واجبى .، ولكن ألكسى إيڤانوڤتش لم يقص عليك النبأ على حقيقته .

واستمرت هى تقول ملتفتةً إلىَّ :

– وماذا فعلت بعدئذ ؟

فأجبت بهدوء :

– أنا ؟ لقد أردت أن أطلب البارون للمبارزة ، ولكن الجنرال أبى علىَّ ذلك .

فسألت الجنرال :

– لماذا أبيت عليه ذلك ؟

– ثم التفتت إلى الفندقى وسألته أهو أيضًا يأبى أن يبارز ؟ وأضافت :

– فإنى لا أجد فرقا بينك وبين البارون ، ولا أطيق أن أرى سحنتك الألمانية .

فلم يكن من الرجل إلا أن انحنى وانصرف .

قال الجنرال ساخراً :

– معذرة يا سيدتى . لكن هل المبارزات حقاً مما يقبله العقل ؟

– لم لا ؟ إن الناس جميعا ديكة صياحة ، ولهذا يتعاركون ، ولكنى لا أراك إلا أحمق ضعيف الشخصية ، هيا احملونى . اعمل يا پوتاپتش على أن يكون لدينا حمالان دائمان . اذهب واستأجرهما ، لسنا بحاجة إلى أكثر من اثنين يحملانى إذا صعدت الدرج . أما هنا ، أو فى الطريق ، فيمكنكم أن تدفعوا الكرسى . اذهب وأخبرهما بذلك . وادفع لهما الأجر مقدماً حتى يظهرا لى شيئاً من الاحترام . وعليك أيضاً ياپوتاپتش أن تصحبنى حيث أذهب . أما أنت يا ألكسى إيڤانوڤتش فلا تنس أن تشير إلى هذا البارون عندما نتنزه ، حتى أظفر بلمحة من هذا « الفون » بارون ! أين الروليت ؟

فأوضحت لها أن الروليت توجد فى أبهاء الملهى . فأمطرتنى بالأسئلة عن هذه الأبهاء . أكثيرة هى ؟ وهل يرتادها كثير من اللاعبين ؟ وهل يستمر اللعب طيلة النهار ؟ وهل يخضع اللعب لقواعد معلومة ؟ فلم أر بدًا من نصحها بأن ترى الشىء بعينى رأسها ، إذ كان أحسن الشروح لا يعطى عنه إلا فكرة جد ناقصة .

– حسناً . خذونى الآن إلى الملهى . تقدمنا يا ألكسى إيڤانوڤتش .

سألها الجنرال باهتمام :

– كيف هذا يا عمتى ؟ ألا تستريحين قليلا أولا ؟

وبدا عليه القلق ، وعلى الجماعة كلها الارتباك . وأخذوا يتقارضون النظرات الحائرة ، كأنما خشوا أن تظهر الجدة شذوذها أمام الناس . ومع ذلك فقد وعدوا جميعاً باصطحابها .

– أستريح ؟ إنى لست متعبة . فقد مكثت خمسة أيام بلا حركة . فلنرَ ينابيعكم المعدنية ما شكلها ، وأين موقعها ؟ ثم لنر هذا الجبل ... شلاجنبرج . أليس هذا هو اسمه يا پراسكوڤيا ؟

– أجل يا جدتى .

– أهنا مناظر أخرى يجب أن أراها ؟

فقالت پولينا بارتباك :

– أشياء كثيرة جداً يا جدتى .

فالتفتت الجدة إلى وصيفتها :

– مارفا ، ستأتين معى إلى الروليت .

– إن هذا غير ممكن يا عمتى . فلن يسمح بدخول مارفا ، ولاپوتاپتش .

– هراء . ألأنها خادم ؟ ولكنها هى أيضاً يجب أن ترى كل هذا . مع من تستطيع أن تذهب إن لم تذهب معى ؟

– ولكن يا عمتى ...

لعلك تخجل أن ترى معى ! البث . إنى لا أسألك المجىء . إن كنت جنرالا ، فأنا الأخرى أرملة جنرال . ولكنك على حق ، رغم كل شئ . فلست فى حاجة إلى كل هذه الحاشية . يكفى أن آخذ معى ألكسى إيڤانوڤتش .

ولكن دى جرييه أصرً على أن يكونوا جميعاً فى صحبة الجدة . ووجد بضع كلمات لطيفة يقولها عن هذه المتعة الطيبة ... إلخ ، وسر الجميع بعباراته على أنه همس إلى الجنرال :

– لقد خرفتْ . ولو تركناها تذهب وحدها لأتت بالحماقات .

ولم أسمع بقية الحديث ، ولكن بدا لى أن دى جرييه قد أخذ فى تدبير جديد ، وأنه قد عاوده الأمل .

كان بين الفندق والملهى نحو نصف ڤرست على الطريق المحفوف بأشجار الكستنا حتى يشرف السائر على ميدان مواجه للبناء . ويبدو أن الجنرال كان مطمئناً بعض

الاطمئنان ، فإن موكبنا ، رغم غرابته ، لم يخل من فخامة ، وليس منظر عجوز مقعدة من المناظر التى تثير الدهشة فى مدن الينابيع . ولكن من الواضح أنه كان يخشى مغبة الزيارة نفسها . كيف تذهب سيدة كسيحة عجوز إلى غرف لم تجعل إلا للقمار ؟ كانت پولينا والمدموازيل بلانش تسيران على جانب الكرسى ، والثانية منهما تمزح بظرف ، وتتملق الجدة ، حتى سلست لها أخيراً ، أما پولينا ، فكان عليها أن ترضى تطلع السيدة العجوز التى أرهقتها بأسئلة من هذا النمط : من الذى مر الآن ؟ من هذا القادم ؟ أهذه المدينة واسعة ؟ هل الحدائق العامة فسيحة ؟ ما نوع هذه الأشجار ؟ ما اسم هذه التلال ؟ أنسور تلك التى أراها تطير هناك ؟ ما هذا البناء العجيب ؟ وقس على ذلك ... بينما همس المستر أستلى فى أذنى « إن النهار لن يمضى دون حادث . » وكان پوتابتش ومارفا يسيران وراء الكرسى ، وأولهما يلبس سترته السوداء وصداره الابيض ، وفوقهما عباءة ، ومارفا – وهى امرأة فى الأربعين موردة الخدين وإن وخط المشيب شعرها – تلبس قلنسوة وثوباً قطنياً وحذاءً له صرير . وكانت السيدة العجوز كثيراً ما تنثنى إليهما لتتحدث معهما . وجعل دى جرييه يتحدث إلى الجنرال فى حماسة كأنه يقترح عليه أمراً ، ويبعث فيه عزماً . ولكن ما القول فى هذه العبارة المروعة من الجدة : « إنى لن أعطيك شيئاً ؟ » لئن كان دى جرييه يجهل السيدة العجوز فإن الجنرال يعرف عمته حق المعرفة ، وهو لهذا منقطع الرجاء . وقد لاحظت أيضاً أن دى جرييه والمدموازيل بلانش يتبادلان الإشارات ، كما لاحظت أن الأمير والعالم الألمانى اختفيا عند نهاية الطريق ، فقد خلفانا وعادا أدراجهما . وهكذا دخلنا الملهى فى موكب بهى . وأظهر الخدم هناك من المبادرة ما أظهره خدم الفندق . على أن نظراتهم إلينا لم تخلُ من فضول . ولم تضيع الجدة وقتاً ، فأمرت أن يطاف بها فى الأبهاء جميعاً ، وراقها قليل منها ، ولم تعن بالباقى ، على أنها كانت تسأل عن كل شئ وأخيراً وصلنا إلى أبهاء القمار ، فبادر حارس الباب يفتحه فى خفة مجنون . وراع الحاضرين منظر الجدة وهى داخلة إلى بهو الروليت ، وكان قد احتشد فى طرف البهو حول مائدة الثلاثين والأربعين عدد من اللاعبين بين المائة والخمسين والمائتين ، وقد وقفوا صفوفاً . وكان أولئك الذين يشقون طريقهم إلى الموائد يثبتون فى أماكنهم حتى ينتهوا من اللعب ، إذ لم يكن يسمح لأحد بأن يشغل مكاناً إلى المائدة ولا يلعب . وكان حول المائدة كراسى ، ولكن أكثر اللاعبين كانوا يفضلون الوقوف ليكونوا أقرب وأقدر على الحساب واللعب . وكان يقف وراء الصف الأول صف ثان وثالث ينتظر دوره . وقد ينفد صبرهم فيراهنون من فوق رءوس

اللاعبين الجالسين . وكان في الصف الثالث من يتمكن من وضع نقوده . وكانت هناك مناقشات حول أموال ضائعة ، وقد كان في الملهى شرطة يقظة نشيطة ، وكان الكروپييه الثمانية يراقبون أموال القمار وهم يحسبون النتائج ، ويفضون ما يشجر من خلاف ، فإن عجزوا عن ذلك لجئوا إلى شرطة الملهى ، فيحسم الأمر . وكان هؤلاء الشرطة يلازمون الملهى بملابس عادية ، ويلابسون الجمهور حتى لا تعرف أشخاصهم . وكانت عيونهم يقظة على اللصوص الذين تعج بهم أبهاء الروليت . وكثيراً ما سرقت النقود من الجيوب أو الأكياس ، إلا أن يُزحم اللص فيعلوا الصياح . وكثيراً ما يقترب اللص من مائدة اللعب ، فيأخذ تحت بصر القوم وسمعهم مبلغاً من المال ليس له ، فإذا علا الصياح قال : إنه ماله ، وإذا حالفه التوفيق وكان ماهراً ولم يجزم أحد الشهود بأمر ، استطاع أن يدس المال في جيبه ويمضي . على أن ذلك لا يكون إلا في المقادير الضئيلة التي لا تلفت أنظار الكروپييه أو اللاعبين ، ويفضل صاحبها الحقيقي أن يتركها تضيع على أن يحدث في سبيلها شغباً . فإنْ ضُبط اللص ، طرد من المكان شر طردة .

وكانت الجدة ترقب كل ذلك من بعيد ، بعينين جاحظتين ، وتطلع غريب . ولم تعجبها « الثلاثون والأربعون » كثيراً . بل فضلت عليها الروليت بعجلتها الدائمة الدوران . وأخيراً رغبت في أن ترى اللعبة عن كثب . ولا أدري كيف استطاع الخدم وبعض الوسطاء – وخصوصاً پولونيان منكوبان من أولئك الذين لا يزالون يقدمون خدماتهم إلى اللاعبين المجدودين وإلى الأجانب عامة – لا أدري كيف استطاعوا أن يجدوا لها مكاناً على الفور ، رغم تدافع اللاعبين الشديد . ووضع الكرسي في وسط إحدى الموائد ، إلى جانب الكروپييه الأول ، وتجمهر الناس – وبينهم أسر إنجليزية – حول المائدة ، ليروا السيدة العجوز بوضوح من بين صفوف اللاعبين ، ورأيت مناظير كثيرة توجه نحوها . وعلق الكروپييه بعض الأمل على تلك اللاعبة الشاذة ، تلك المرأة العجوز المفلوجة ! ووقفت قريباً منها ، أما أصحابنا ، فقد ظلوا بين المشاهدين .

اقتصرت الجدة أول الأمر على مراقبة اللاعبين ، وألحت عليّ تسألني في همس من هذا ؟ ومن ذاك ؟ وأثار اهتمامها بوجه خاص ، شاب كان يقامر بمبالغ طائلة ، وقد ربح بالفعل نحو أربعين ألف فرنك ، كانت مكومة أمامه ما بين نقود ذهبية وأوراق . وكان شاحباً ، تلتمع عيناه ، وترتعش يداه . وكان يراهن بملء يديه دون أن يعد ، ويربح دائماً . وكان الخدم يضطربون خلفه ، يقدمون إليه مقعداً ، أو يوسعون له مكاناً ، أملا في حلوان طيب . وكان بعض المقامرين يقدمون إليه شيئاً مما ربحوا ،

ليقامر لهم به . وكان يجلس على مقربة منه پولونى صغير ، يبدى اهتماماً عظيما بالأمر ، ولا يكف عن الهمس إليه بذلة مشيراً عليه ، منظماً لعبه ، آملا هو الآخر فى مكافأة . ولكن المقامر لم يكن يراعيه ولا يستمع إليه ، بل كان يراهن كيفما يعن له ، ويربح . ولبثت الجدة ترقبه بضع لحظات . ثم قالت فجأة تخاطبنى :

– مره أن يترك اللعب ويذهب بربحه ! إنه إن بقى سيفقد كل شىء فى لحظة . ثم دفعتنى بمرفقها وقالت : « اذهب إليه ! » وكان تنفسها مضطرباً إذ كانت شديدة الهياج – أين پوتاپتش ؟ أرسل إليه پوتاپتش ، ألا تسمع ؟ – ودفعتنى بمرفقها ثانية – يجب أن تذهب إليه أنت ، فإنى لا أدرى أين پوتاپتش . ثم جعلت تصيح بالشاب : اخرج ! اخرج ! حتى انحنيت نحوها وأوضحت لها أنه لا يجوز الصياح أو رفع الصوت على مائدة اللعب ، لأن ذلك يربك اللاعبين حين يحسبون ، وأنذرتها بأننا قد نطرد إن فعلنا ذلك .

– يا للمصيبة ! لقد خسر هذا الفتى المسكين ! كأنه كان يريد أن يخسر ! ولكنى لا أريد أن أراه يرد كل ما ربح . يا له من أحمق !

والتفتت الجدة إلى ناحية أخرى . وكان على اليسار إلى الطرف الآخر من المائدة ، سيدة شابة معها قزم ضئيل ، فمن يكون هذا القزم ؟ لعله قريب . أو لعلها تصطحبه لتجذب إليها الانتباه . وكنت قد رأيت هذه السيدة من قبل . وهى تأتى إلى الملهى فى الواحدة تماماً ، وتغادره فى الثانية . فهى تلعب ساعة واحدة . وكان لها مقعدها المختار . فتخرج من جيبها عدداً من النقود الذهبية وكثيراً من الأوراق ذات ألف الفرنك وتراهن فى هدوء واتزان ، وهى تحسب وتبحث – بعمليات تجريها بالقلم الرصاص على ورقة – احتمالات الخسارة والربح . وكانت مراهناتها ضخمة ، وكانت تربح كل يوم ألفى فرنك أو ثلاثة آلاف فرنك وتذهب على الفور . ظلت الجدة ترمقها طويلا ثم قالت :

– آه ! أما هذه فلن تخسر أبداً أتعرفها ؟ من هى ؟

فأجبتها فى صوت خفيض :

– لعلها فرنسية .

– آه . طير مهاجر دون شك . حذاؤها لامع . اشرح لى الآن سير اللعب ، وطريقة المقامرة .

فأوضحت لها تلك الموافقات المتعددة بين الأحمر والأسود ، والزوجى والفردى ، والقيم المختلفة فى نظام الأرقام . وقد استمعت إلىَّ بانتباه ، وسألتنى أسئلة كثيرة ، وحفظت كل شىء عن ظهر قلب . والحق أن الإلمام بقواعد اللعب كان ميسوراً مع تكرر الأمثلة على كل لعبة . سألت :

– وما معنى الصفر ؟ لقد سمعت الآن ذلك الكروپييه ذا الشعر الأشقر المرسل يصيح « صفر ! » وها هو ذا ما زال يجمع كل ما على المائدة من نقود ! إن هذه الكومة كلها ستصير له ! ما معنى الصفر ؟

– الصفر يا جدة « للبنك » فكل ما على المائدة يصبح له حين تسقط الكرة الصغيرة على الصفر .

– وحينئذ لا يربح أحد ؟

– صاحب البنك فقط . إلاّ أن يراهن أحد على الصفر فتدفع له نقوده خمسة وثلاثين ضعفاً .

– ولماذا يُدفع له خمسة وثلاثون ضعفًا والصفر يظهر كثيراً ؟ ولماذا لا يراهن كثير من هؤلاء الحمقى على الصفر ؟

– لأنه ليست للصفر إلا فرصة واحدة بين ست وثلاثين .

– هراء ! .... پوتاپتش ... لكن ، لا . إن نقودى معى .

وأخرجت من جيبها كيساً مطرزاً وأخذت منه فلوريناً .

– خذ ! ضعه حالاً على الصفر .

– يا سيدتى إن الصفر قد خرج اللحظة . ولعله لا يظهر ثانية إلا بعد وقت طويل . انتظرى فتكون فرصة الربح أعظم .

– هراء . ضعه حيث أمرتك .

– لك ما أمرت . ولكن الصفر قد لا يخرج الليلة أبداً وإن قامرت عليه بالآلاف . هذا يحدث كثيراً .

– أوهام . من خاف الذئب لم يقرب الغابة . هل ضاع ؟ ضع غيره .

وفقد الثانى ، كما فقد الأول . فوضعت ثالثاً . وكانت الجدة شديدة الهياج كأنها تريد أن تسحر الكرة الصغيرة التى كانت تقفز بين أقسام العجلة . وضاع الفلورين الثالث أيضاً ، فجنت الجدة ، وضربت بيدها على المائدة عندما نادى الكروپين ستة وثلاثين بدل الصفر المنتظر . وصاحت :

– الصعلوك ! متى يظهر هذا الصفر اللعين ؟ لن أهدأ حتى أراه . يخيل إلىَّ أن هذا الكروپييه يمنعه من الظهور عمداً . ألكسى إيڤانوڤتش ! ضع جنيهين ذهبيين دفعة واحدة ، سيظهر إذا عدلنا عنه وعندئذ لن نربح شيئاً .

– سيدتى !

– ضع ! ضع ! إنها ليست نقودك !

ووضعت الجنيهين . ودارت الكرة الصغيرة زمناً طويلا ، ثم بدأت تقفز على الأقسام فى هدوء أكثر . وكانت الجدة تحملق جامدة وتضغط على يدى . وفجاة ... صاح الكروپييه :

– صفر !

فقالت الجدة بحرارة وهى تتألق بشراً :

– أرأيت ؟ أرأيت ؟ إن الله نفسه هو الذى أوحى إلىَّ أن أضع جنيهين . كم سآخذ ؟ لماذا لايعطوننى نقودى ؟ پوناپتش ! مارفا ! أين هما ؟ أين أصحابنا ؟ پوتاپتش !

– إن پوتاپتش بالباب يا سيدتى ، وقد منعوه من الدخول . انظرى ! إنهم يقدمون إليك ربحك . خذى .

وقذف إلى الجدة خمسون جنيهاً ملفوفة فى ورق أزرق ، وعشرون نقداً . فجمعتها كلها أمام الجدة .

قال الكروپييه وهو يدير الروليت :

– العبوا يا سادة . العبوا ....

– رباه ! لقد تأخرنا . ضع ، ضع سريعاً .

– أين ؟

– على الصفر ، على الصفر أيضاً . ضع كل مايمكنك . كم ربحنا ؟ سبعين جنيهاً ؟ لماذا تستبقيها ؟ ضع عشرين جنيهاً دفعة واحدة .

– فكرى قليلا يا سيدتى . قد يمكث الصفر مائتى مرة دون أن يظهر . إنك بهذا تفقدين ثروتك .

– أكاذيب . حماقات . ضع . إنى آمرك . كفى كلامًا . إنى أدرك ما أفعل .

– إن قانون اللعب لا يسمح بأن يوضع أكثر من اثنى عشر جنيهاً على الصفر . هاك . قد وضعتها .

– لماذا ؟ ألا تكذب عليَّ ؟

ثم قالت وهى تغمر الكروبييه بمرفقها :

– يا مسيو ؟ كم على الصفر ؟ اثنا عشر ؟ اثنا عشر ؟

وأسرعتُ بشرح المسألة بالفرنسية فأجاب الكروپييه فى أدب :

– أجل يا سيدتى . كما أن كل رهان آخر يجب ألا يزيد عن أربعة آلاف فلورين . هذا هو القانون .

– حسناً . ضع اثنى عشر إذاً .

صاح الكروپييه :

– انتهى اللعب ؛

ودارت العجلة وظهر الرقم الثالث عشر .

– خسرنا .

– ضع ؛ ضع ؛ ضع ؛

لم أعد أعارضها . بل هززت كتفى ووضعت اثنى عشر جنيهاً أخرى .

ودارت العجلة طويلا ، وكانت الجدة ترتعش . هل كانت تأمل حقاً أن يظهر الصفر ثانية ؟ هكذا سألت نفسى فى دهشة . لقد كانت الثقة القاطعة بالربح تلمع على وجهها . وسقطت الكرة الصغيرة على أحد الأرقام .

وصاح الكروپييه :

– صفر ؛

صاحت العجوز وهى تلتفت إلىَّ وقد استطارها الظفر : آه !

لقد كنت أنا نفسى مقامراً بطبعى ، ولكن القمار لم يملك علىَّ حواسى قط كما ملكها تلك اللحظة . كانت يداى ترتعدان ، وكان رأسى يدور وفى الحق ، لقد كانت صدفة نادرة ؛ ثلاثة أصفار فى عشرة أدوار ! بيد أن هذا لم يكن غريباً . فمنذ ثلاثة أيام رأيت الصفر يظهر ثلاث مرات متتابعة ، حتى قال أحد اللاعبين ، وكان يسجل النتائج على ورقة ، إن الصفر لم يظهر قط منذ عدة أيام . وقد أظهرت الإدارة للجدة

من الاحترام والعناية ما تظهره لكل من يربح مبلغاً جسيمًا . فقد ظفرت بما لا يقل عن أربعة آلاف ومائتى فلورين . ودفعت لها المائتان ذهباً ، والباقى ورقاً ، ولكنها كانت فى شغل عن ذلك . وفى هذه المرة لم تناد الجدة بوتاپتش ، ولم تكن ترتعد ، فى الظاهر على الأقل . بل كانت ترتعد ارتعاداً نفسياً ، إن صح التعبير .

– ألكسى إيفانوفتش ، لقد قال إنه يمكن أن يوضع أربعة آلاف فلورين أليس كذلك ؟ حسناً ، ضع الآلاف الأربعة على الأحمر .

ودارت العجلة وصاح الكروپييه :

– أحمر ؛

أربعة آلاف أخرى – فالجميع ثمانية آلاف .

– أعطنى أربعة آلاف ، وضع الأخرى على الأحمر .

أطعت .

– أحمر ؛

– اثنا عشر ألفاً . أعطنيها . ضع الذهب فى كيس . وعد الأوراق . كفى لعباً ولنعد . ادفعوا الكرسى .

* * *

- ١١ -

كانت الجدة تتألق بشراً عندما دفع كرسيها نحو الباب فى الطرف الأقصى من البهو ، وأسرع أصحابنا يحفون بها ، ويزفون إليها التهانئ . وبدت رغم شذوذها وكأنما أحاطها النصر بهالة ، فلم يعد الجنرال يخشى أن يظهر معها أمام الناس ، بل جعل يتودد إليها ، ويثنى عليها كما يثنى المرء على طفل ليسره . لقد دهش بلا شك مثل سائر الحاضرين . فقد أخذوا يتناجون فيما بينهم ، ويشيرون إلى الجدة ، واقترب كثير منهم ليروها بوضوح . وأخذ المستر أستلى يتحدث عنها مع اثنين من مواطنيه . وكانت السيدات يراعينها كأنها مخلوق غريب . أما دى جرييه فقد صاح بإعجاب :

- فوز عظيم !

وأضافت المدموازيل بلانش بابتسامة زائفة :

- حقاً يا سيدتى . إن حظك من نار !

- آه . لقد ربحت اثنى عشر ألف فلورين، عدا الذهب . فإذا أضفت إليها الذهب ، فإنها تصبح ثلاثة عشر ألفاً . ستة آلاف روبل بنقودنا . أليس كذلك ؟

حسبتُ النقود ، فإذا هى تجاوز سبعة الآلاف ، أو تبلغ ثمانية آلاف بسعر القطع الآن .

- ثمانية آلاف روبل ! هذا شىء جسيم ! پوتاپتش ! مارفا ! انظرا ما ربحت !

فهللت مارفا :

- كيف فعلت ذلك ياسيدتى ! ثمانية آلاف روبل !

- ها كما خمسة جنيهات لكل منكما !

وأسرع پوتاپتش ومارفا بتقبيل يدها .

- أعط كلا الحمالين جنيها يا ألكسى إيڤانوڤتش . أهؤلاء الذين يحيوننى من الخدم ؟ أعط كلا منهم جنيهاً .

- سيدتى الأميرة ... منفى بائس ... مصائب متلاحقة ... إن الأمراء الروس كرماء جداً ...

كان رجلا يرتدى سترة بالية ، وصداراً ملونا ، وقد ظل يدور حول الكرسى رافعاً قبعته عالية فوق رأسه ، مبتسما فى استعطاف .

– أعطه جنيهاً هو الآخر ... بل جنيهين . كفى الآن . إننا لن ننتهى هيا ! پراسكوڤيا ، سأشترى لك فى الغد ثوباً جديداً ، وللأخرى ... ما اسمها ؟ مدموازيل بلانش . سأشترى لها ثوباً كذلك . ترجمى لها ذلك يا پراسكوڤيا .

فقالت المدموازيل بلانش بابتسامة ساحرة حلوة وهى تغمز بعينيها لدى جرييه والجنرال :

– شكراً يا سيدتى .

– لم يخف الجنرال ارتباكه ، وتنفس الصعداء عندما بلغنا الطريق . وصاحت الجدة حين تذكرت خادم الجنرال العجوز :

– وفيدوزيا ! إنها أيضاً ستدهش . سأشترى لها هى الأخرى ثوباً . ألكسى إيڤانوڤتش ، أعط هذا الشحاذ شيئاً .

كان رجلا أشعث محدب الظهر ، قد اقترب منا يحدجنا ببصره . فقلت للجدة :

– لعله أفّاق لا شحاذ .

– لا ضير . أعطه جلداً .

فاقتربت من الشحاذ وأعطيته قطعة النقود . فنظر إلىَّ بدهشة بالغة ، وأخذ قطعة النقود صامتاً ، وكانت تنبعث منه رائحة شراب قوية .

– ألم تجرب حظك بعد يا ألكسى إيڤانوڤتش ؟

– كلا يا سيدتى .

– ولكنى أرى عينيك تلمعان .

– سأحاول ذلك بعد .

– لا تراهن إلا على الصفر . سترى ... كم معك من النقود ؟

– عشرون جنيهًا يا سيدتى .

– هذا لا يكفى . سأقرضك خمسين إن شئت . خذ هذه اللفافة .

ثم قالت فجأة تخاطب الجنرال :

– أما أنت فلا تنتظر شيئاً . فإنى لن أعطيك .

وارتعد الجنرال رعدة ظاهرة ، وزوى دى جرييه حاجبيه ، وقال من بين أسنانه للجنرال :

– يا للشيطان ! إنها عجوز فظيعة .

وصاحت الجدة :

– شحاذ آخر ! شحاذ ! أعطه فلورنيا .

وكان فى هذه المرة شيخاً أشيب ، له ساق خشبية ، وسترة طويلة زرقاء ، يتوكأ على عصا . كان أشبه بجندى هرم . بيد أنى عندما قدمت إليه الفلورين تراجع خطوة ، ونظر إلىَّ بغضب ، وصاح بالألمانية :

– ما هذا ؟ ويحك !

وأتبع ذلك بسيل من الشتائم . فصاحت الجدة وهى تشير إلىَّ أن أدعه :

– يا له من أحمق ! هيا بنا ، فإنى جائعة . يجب أن نتغدى حالاً . سأنام قليلا ثم نعود إلى الروليت .

فصحت :

– تريدين أن تعودى يا سيدتى ؟

– ولم لا ؟ ألأنكم تبقون هنا متبطلين يجب أن أصنع ما تصنعون ؟ فقال دى جرييه :

– ولكن الحظ قلب يا سيدتى . وقد تفقدين المبلغ كله فى دور واحد ، وخاصة إذا داومت على طريقتك فى اللعب ... إن هذا مخيف !

وصاحت المدموازيل بلانش :

– أجل . ستخسرين حتماً .

– وما شأنكم بهذا ؟ إنه مالى وليس مالكم ... أين صاحبك المستر أستلى ؟

– لقد بقى فى الملهى يا سيدتى .

– يؤسفنى ذلك . إنه فتى ظريف .

وعندما وصلنا إلى الفندق ، نادت الجدة الفندقى وأخبرته بربحها . ثم نادت فيدوزيا وأعطتها ثلاثة جنيهات وأمرت بأن يعد الغداء . وبعد أن انتهى الغداء ، أخذت كل من فيدوزيا ومارفا تثرثر بفرح ، فانطلقت مارفا تقول بصوت مرتعش :

– لقد كنت أنظر إليك طيلة الوقت يا سيدتى . وسألت پوتاپتش ماذا تريد السيدة أن تصنع . لله ما كان أكثر النقود على المائدة ! إننى لم أر فى حياتى مثل هذا القدر من المال . وكان يقف حولها سادة كثيرون ، ويجلس سادة آخرون . فسألت پوتاپتش

من أين جاء هذا الملأ . ودعوت الله أن يخص بعنايته سيدتنا من بينهم . أجل ، لقد دعوت لك يا سيدتى . وجفّ قلبى بين جنبى حتى أخذت أرتعش وأرتعش : كان الله معها ! كان الله معها ! لقد دعوت الله وأجاب دعائى بما أرسل إليك من مال ، ولكنى لا أزال أرتعش وأرتعش كلما تذكرت .

– ألكسى إيڤانوڤتش ، استعد فى الساعة الرابعة لنذهب سوياً إلى الروليت . إلى اللقاء حتى ذلك الحين . لا تنس أن تأتى معك بطبييب . فإنى أريد أن أستفيد من المياه . اذهب الآن واسترح قليلاً .

وتركت الجدة حائراً ، لا أستطيع أن أتخيل ماذا يحل بجماعتنا ، ولا أى اتجاه ستجرى فيه الحوادث . وقد وضح لى أن الجماعة – وبخاصة الجنرال – لم يستعيدوا بعد حضور أذهانهم ، فقد كان مجئ الجدة عوضاً عن البرقية التى طال انتظارها ساعة فساعة ، حاملة نعيها (وما يتبعه من الميراث) ، هادماً لكل تفكير وتدبير ، حتى أن المتآمرين أخذوا ينظرون إلى ما ستفعله الجدة فى القمار ، وقد داخلهم الخوف ، فوقفوا جامدين . على أن هذا العامل الثانى لم يكن مهماً كسابقه ، فمع أن الجدة أعلنت مرتين أنها لن تعطى الجنرال شيئاً من المال ، فإن هذا الإعلان لم يكن سبباً كافياً لليأس ، ولا شك أن دى جرييه الذى كان معنياً بالأمر كالجنرال ، لم يفقد كل أمل . وكنت واثقاً أن المدموازيل بلانش – وهى الأخرى معنية بالأمر كسابقيها ، وهى عدا ذلك تتوقع أن تصبح عقيلة الجنرال ، ووريثة عظيمة – كنت واثقاً أنها لن تنفض يدها من الأمر بسهولة ، بل سوف تستعين بكل مالها من دلال وتصنع ، لتستأثر بعطف السيدة العجوز، دون پولينا التى كانت غامضة، لاتتقن فن الإرضاء . أما الآن ، وقد ظهرت العجوز فى مغامرة الروليت امرأة جسوراً فوضوية متكبرة ، تفرح بالقمار فرح الأطفال باللعب ؛ أما الآن ، فقد أوشك أن يضيع كل شىء . وإنى لأتخيل فى سرور خبيث ، أن كل جنيه تراهن به الجدة ، طعنة سكين فى قلب الجنرال ، ولوثة فى عقل دى جرييه ، وبادرة جنون فى أعصاب المدموازيل دى كومنج ، التى رأت تلك الملعقة الذهبية ترقص أمام شفتيها . ومما ضاعف جزعهم أن الجدة كانت وهى مسرورة بالربح ، تنثر الصدقات باليمين وبالشمال ، وتظن كل امرئ شحاذاً ، ولكنها تهزأ بالجنرال وتقول له إنها لن تعطيه شيئاً من نقودها . ومعنى ذلك أن السيدة العجوز قد عقدت العزم على ذلك ، وأنها غير مترددة فى شىء منه . أجل . إن الأمر جد خطير .

كانت هذه الأفكار كلها تناوشني وأنا في طريقي إلى غرفتي بالطبقة العليا من الفندق ، على أن الذي حيرني ، هو أني رغم تبيني للخطوط الرئيسية التي تربط بين أشخاص التمثيلية ، قد بقيت جاهلا حتى الآن بأساليب التمثيل وأسراره . فإن پولينا لم تصارحني بجلية الأمر ، وربما أفضت إليّ ببعض ما تضمر ، ولكنها تعود فتقلب الأمر هزلا ، أو ترتبك ، أو تزعم أنها تعني شيئاً آخر . وكنت في كل مرة أحس أن السرّ يوشك أن ينجلي .

ولم أكن أهتم كثيراً لمصيري . يا لها من حالة نفسية غريبة ! لم أكن أملك غير خمسين جنيهاً ، وكنت وحيداً بين غرباء ، بغير عمل ، وبغير مورد للرزق ، وبغير أمل . ومع ذلك لم أكن أهتم لأمري أي اهتمام . ولولا قلقي على پولينا ، لضحكت من أعماق قلبي ، وسألت نفسي متى ينتهي كل هذا العبث . ولكن التفكير في پولينا كان يعذبني . بيد أني يجب أن أعترف بأن الأمر الذي كان يشغلني حقاً ، لم يكن مصيرها ، بل سرها . وددت لو أنها جاءت إليّ وقالت لي : إني أحبك ! فإذا لم يكن ذلك معقولا ، وإذا كان الأمل في ذلك مستحيلاً فماذا أريد ؟ حقاً ، ماذا أريد ؟ إني أود ألا أتركها أبداً ، أود أن أعيش في أفقها ، في ضوئها وسناها إلى الأبد ، إلى آخر العمر . لم أكن أفكر في شيء آخر ، إني لا أستطيع أن أعيش بعيداً عنها .

ولما صرت عند الطابق الثالث ، في ردهة الجنرال ، أحسست شبه هزة باطنة ، فالتفت ولمحت پولينا على بعد عشرين خطوة . لقد كانت تنتظرني دون شك ، فما كادت تراني حتى أشارت إليّ أن اقترب :

– پولينا ألكسندروڤنا !

– صه !

قلت في صوت خفيض :

– أتصدقين أني أحسست الآن بهزة ، فالتفتّ فرأيتك ؟ لعلك تشعين تياراً كهربياً ؟

قالت في جد ، ولعلها لم تسمع ما قلته :

– أرجوك أن تأخذ هذا الخطاب وتوصله إلى المستر أستلي على الفور . لا تنتظر جواباً ، إنه ....

ولم تتم فسألت في دهشة :

– إلى المستر أستلي ؟

ولكن پولينا كانت قد اختفت .

« آه ! آه ! إنهما يتكاتبان ! » ولا حاجة لأن أقول إنى هرعت إلى المستر أستلى ، فلم أجده فى الفندق ولا فى الملهى . وبينما كنت عائداً فى ضيق ويأس إلى الفندق ، لقيته بين ركب من الإنجليز والإنجليزيات . فأشرت إليه فوقف ، وسلمت إليه الخطاب . ولم نكد نجد وقتاً لنتقارض النظر ، ولكنى أشك فى أن المستر أستلى ألهب ظهر جواده عامداً .

هل كانت الغيرة تأكل قلبى ؟ لا أدرى . ولكنى كنت أحس بحزن عميق ، ولو أنى لم أشأ أن أعرف موضوع مكاتباتهما . أيكون هو المؤتمن على سرها ؟ هو ، صديقى الحميم الأوحد ! ولكن أفى الأمر حب ؟ كلا ، دون شك ، بهذا أوحى إلىَّ العقل . ولكن العقل شىء لا وزن له فى هذه الأمور . ويجب أن ينجلى الأمر ، فإنه زاد تعقيداً .

وما كدت أصل إلى الفندق حتى أبلغنى الحارس والفندقى أن الجنرال استدعانى ثلاث مرات . فلما دخلت مكتبه ، لم أكن أحس شيئاً من الرضا . كان معه دى جرييه ، والمدموازيل بلانش ، أما الأم فلم تكن حاضرة ، ولا شك أن الآنسة كانت تتخذ هذه الأم للمظهر ، فقد كانت تمارس كل أمورها بنفسها ، ولعل الأخرى لم تكن تعلم شيئاً من هذه الأمور . وكان ثلاثتهم يتناقشون فى حرارة ، وكان باب الغرفة - على غير العادة - مفتوحاً ، فسمعت قبل أن أدخل دى جرييه يتكلم بصوت عال ونبرة هازئة ، والمدموازيل بلانش تشتم ، والجنرال يضرع ، وفى صوته رنة البكاء . فلما رأونى صمتوا فجأة ، وابتسم دى جرييه تلك الابتسامة الفرنسية الدنيئة ، ابتسامة الضرورة ، الابتسامة التى أكرهها . أما الجنرال فاعتدل بحركة آلية ، ولكن المدموازيل بلانش لم تعن باخفاء الغضب الذى كان يتوقد على وجهها ، وثبتت علىَّ نظرة انتظار متلهفة ، وكانت عادة تتخطانى ببصرها ، ولا ترد تحياتى ، بل تتجاهلها . وبدأ الجنرال الحديث فى تلطف ملحوظ :

- ألكسى إيڤانوڤتش ، اسمح لى أن أعلن إليك أنه من الغريب ، من الغريب جداً ، باختصار ، أن مسلكك نحوى ونحو أسرتى جميعاً - باختصار ، ... غريب .. غريب جداً . فقاطعه دى جرييه باحتقار وازدراء (وكان واضحاً أن قياد الحديث فى يده) :

- ليست هذه هى المسألة . كلا يا سيدى العزيز . إن جنرالنا العزيز قد أخطأ . إنه أراد أن يقول لك ... أعنى أراد أن يحذرك ، أو على الأصح أن يرجوك رجاءً ، ألا تكون سبباً فى ضياعه . أجل . فى ضياعه . إنى استعمل هذه الكلمة عامداً . قاطعته :

- كيف ذلك ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

– حسناً . لقد أصبحت ... ماذا أقول ؟ أصبحت دليل هذه العجوز المخيفة . لاحظ إذن أنها تسعى إلى دمارها ! لقد رأيت بنفسك كيف تقامر . إنها إذا بدأت تخسر فلن تترك الروليت أبداً . ستظل تقامر ، وأنت تعلم أن هذا لا يعوض الخسارة ، وإذن ... وإذن ...

فقال الجنرال :

– وإذن يضيعني أنا وأسرتي ، إذ نحن ورثتها . نحن أقاربها الأدنون . إني أكلمك بصراحة . إن أحوالنا سيئة ولعلك لاحظت هذا من قبل . فإذا خسرت خسارة جسيمة ، أو خسرت ثروتها كلها ، ... فماذا يحل بنا ؟ ماذا يحل بولدى (وتبادل نظرة مع دى جرييه) . وماذا يحل بى ؟ – ونظر إلى المدموازيل بلانش ، فلوت رأسها باحتقار .

– ألكسى إيڤانوڤتش . أنقذنا ! أنقذنا !

– أخبرنى يا جنرال ما حيلتى أنا فى كل هذا ؟

– تخل عنها . دعها .

– ستجد من يخلفنى .

فقال دى جرييه مقاطعاً :

– لا . لا . لا تتركها ، بل انصحها ، أقنعها ... اصرفها عن القمار . أوجد لها ما تتلهى به .

– ولكن كيف أستطيع أن أفعل ؟ (وأضفت بأعظم ما أستطيع من السذاجة) : لماذا لا تحاول أنت ذلك يا مسيو دى جرييه ؟

وفى هذه اللحظة ، لمحت نظرة مستفسرة قلقة من المدموازيل بلانش إلى دى جرييه . بينما بدا على وجه دى جرييه نفسه شىء لا يستطيع كتمانه . صاح بإشارة يأس :

– لا . إنها لن تصغى إلىّ الآن . آه ! ربما ... فى المستقبل ...

وقالت لى المدموازيل بلانش بدورها – أجل ، المدموازيل بلانش نفسها – وهى تضغط كلتا يدى بقوة :

– أوه يا عزيزى ألكسى ! كن طيباً ...

ليأخذها الشيطان ! إن هذا الوجه الشيطانى يستطيع أن يتبدل فى لحظة . لقد كان عند ذلك مليئاً بالضراعة ، فى تعبير لطيف كأنه محيا طفل مبتسم عابث . وجذبتنى من يدى بعيداً عن الآخرين ، كأنما لتنفرد بى دونهما . فأخجلنى ذلك الموقف وإن لم يضر شيئاً ، فإنه لم يكن إلا نوعًا من العبث السخيف . وعاد الجنرال يقول :

– ألكسى إيڤانوڤتش ! اغفر لى لهجتى التى اتخذتها معك منذ قليل . ما هكذا أردت أن أكلمك . إنى أرجوك . إنى أضرع إليك . إنى أقبل ذيل ردائك كما يقول الروس . أنت وحدك تستطيع أن تنقذنا . إننا نضرع إليك – أنا والمدموازيل دى كومنج .

ثم قال يلمّح إلى المدموازيل بلانش :

– ألا تفهم ؟ أظنك تفهم !

كم كان كريها ! ...

وهنا طُرق الباب ثلاث طرقات هادئة ، فانفتح عن خادم يتقدم پوتاپتش . كان كلاهما قد أرسلته الجدة . وأبلغنى پوتاپتش أنها تبحث عنى ، وأنها تريدنى فى الحال ، وأنها غاضبة .

– ولكن الساعة لم تبلغ الثالثة والنصف !

فأجاب پوتاپتش :

– إن سيدتى لم تستطع النوم ، فنهضت وطلبت الكرسى ، وأرسلت فى البحث عنك . إنها الآن فى الشرفة .

فصاح دى جربيه :

– يا لها من حمقاء !

ولقد وجدت الجدة تنتظرنى حقاً على شرفة الفندق ، وقد عيل صبرها لغيابى ، إذ لم تطق الانتظار إلى الرابعة . فما أن رأتنى حتى صاحت بالخدم : احملونى .

ومضينا مرة أخرى إلى أبهاء الروليت .

* * *

- ١٢ -

كانت الجدة تبدو نافدة الصبر ، شديدة الهياج ، فلم يكن يعنيها أو يشغل بالها شيء سوى الروليت ، والدليل على ذلك أنها لم تسألنى عما رأيناه فى الطريق ، عدا عربة فخمة ، مرت بنا تثير سحابة من الغبار ، فرفعت رأسها وسألت « ما هذا ؟ » ولكنها مع ذلك لم يبد عليها أنها سمعت إجابتى . وكانت فى ذهولها ربما تململت فى مقعدها قلقة . وأشرت مرة ثانية إلى البارون والبارونة برمرجلم ، وهما سائران إلى الملهى ، فلم تزد على أن نظرت إليهما بشرود وقالت بغير اهتمام : آه ! ثم التفتت بحدة إلى پوتاپتش ومارفا ، اللذين كانا يسيران خلفنا ، وصاحت :

– لماذا جئتما ؟ إننا لن نأخذكما كل مرة . ارجعا على الفور .

فلما انحنى الخادمان وانصرفا مسرعين ، قالت وهى توجه الحديث إلىَّ :

– إنى لا أريد أحداً غيرك .

ويخيل إلىَّ أن عودتها كانت متوقعة فى الملهى ، فما أسرع ما أفسح لها مكانها السابق ، بجانب الكروپييه . وأعتقد أن هؤلاء الكروپييه وإن بدوا موظفين عاديين لا يعنيهم أربح « البنك » أم خسر ، فهم فى الحقيقة يفزعون لخسارة « البنك » ، وهم مأمورون أن يجتذبوا المقامرين ، وأن يراعوا مصلحة « البنك » ، وهم يُجزون على ذلك النشاط بالمكافأة والزيادة فى الأجر . ومهما يكن من شىء ، فقد كان كروپييه رولتنبرج يترقبون الجدة ، وكأنها فريستهم التى يحق لهم افتراسها . وقد أعقب ذلك ما خشيت منه الجماعة ، وإليك ما حدث .

هجمت الجدة على الصفر من جديد ، فأمرتنى أن أضع عليه اثنى عشر جنيهاً دفعة واحدة ، وكررت ذلك مرة ومرة ، دون أن يظهر الصفر . وظلت تغمزنى بمرفقها وتصيح بى « ضع مرة ثانية » ، وأنا أطيع . ثم سألتنى وهى تصرُّ على أسنانها من القلق :

– كم مرة راهنت حتى الآن ؟

– اثنتى عشرة مرة . فالمجموع مائة وأربعة وأربعون جنيهًا . إن الصفر يا سيدتى قد لا يظهر حتى المساء .

– اسكت . ضع على الصفر . وضع فى الوقت نفسه ألف فلورين على الأحمر . إليك ورقة النقد .

وظهر الأحمر ولكن الصفر لم يظهر . واستعدنا فلوريناتنا الألف وحسب .

– أرأيت ؟ أرأيت ؟ لقد استعدنا كل شيء تقريباً . مرة أخرى على الصفر . اثنتى عشرة مرة أخرى ثم نتركه .

ولكنها ترددت عند المرة الخامسة .

– ليذهب الصفر إلى الشيطان ! ضع أربعة آلاف فلورين على الأحمر .

– سيدتى . إن هذا كثير . قد لا يظهر الأحمر .

ولكن كان لابد لى أن أرضخ وقد راعنى اضطراب الجدة ، فإن انفعالها كان يسرع بها إلى الحنق ؛ فلم يكن ثم سبيل إلا أن أضع أربعة آلاف الفلورين كما أمرت .

ودارت العجلة ، والجدة منتصبة فى جلستها ، هادئة متكبرة كأنها لا تشك فى الربح . وصاح الكروپييه :

– صفر !

فلم تفهم الجدة بادىء الأمر . ولكنها حين رأت الكروپييه يجمع أربعة آلاف الفلورين مع غيرها من النقود التى على المائدة ، وتبينت أن الصفر الذى ظهر كثيراً من قبل ، والذى أضعنا عليه قرابة ألفى فلورين ، قد ظهر فجأة آخر الأمر ، وكأنه قصد إلى ذلك قصداً ، عند ذلك أخذت الجدة تلعنه وتتخبط وتصيح ، وتشير للجمع المحيط بها ، حتى انفجر بعض من حولنا ضاحكين . صاحت .

– رباه ! لم لمْ يظهر هذا الصفر اللعين إلا الآن ؟

ثم قالت وهى تلتفت إلىّ فى خبل :

– هذه غلطتك . أنت الذى أشرت علىّ بترك الصفر .

– ولكنى قلت لك الحقيقة يا سيدتى . ولست مسئولا عن المصادفات .

صاحت بغضب :

– اذهب من هنا .

– وداعاً يا سيدتى .

وتظاهرت بالانصراف ، فأضافت مسرعة :

– ألكسى إيڤانوڤتش ! ابق . أين تذهب ؟ لماذا تتركنى ؟ يا لك من أحمق ! أبقَ . لا تغضب . إنى أنا المخطئة . قل لى ماذا يجب أن أصنع ؟

– لن أشير عليك بشىء يا سيدتى . فستجزيننى باللوم . العبى وحدك مرى وسأفعل ما تشائين .

– هيا ، ضع أربعة آلاف فلورين على الأحمر . خذ (ومدت إلىّ حافظتها) إن معى هنا عشرين ألف روبل .

– سيدتى ! كل هذا ...

– لا ضير . لن أستريح حتى أسترد ما خسرت . راهن .

فأطعت وخسرنا .

– ضع ثمانية آلاف .

هذا مستحيل يا سيدتى ! إن أكبر رهان هو أربعة آلاف .

– إذن ضع أربعة .

وفى هذه المرة ربحنا فاستعادت شجاعتها .

– أرأيت ؟ أرأيت ؟ أربعة آلاف أخرى .

فأطعت ، وخسرنا . ثم خسرنا ، وخسرنا .

– يا سيدتى . لقد ذهبت الاثنا عشر ألفاً جميعها .

قالت فى هدوء كأن مبعثه اليأس :

– أرى ذلك . إنى أرى . ضع أربعة آلاف فلورين أخرى .

– ولكن لم يبق نقود يا سيدتى . لم يعد فى الحافظة إلا سندات وصكوك .

– والكيس ؟

– ليس فيه إلا أوراق صغيرة القيمة .

– أهنا صيارفة ؟ لقد سمعت أنه يمكن أن تستبدل هنا كل أنواع الأوراق .

– كما تشائين . ولكنك ستفقدين بالاستبدال مقادير جسيمة .

– هراء . إنى مصممة على أن أسترد كل ما خسرتُ . اذهبوا بى إليهم . نادوا هؤلاء الحمقى .

وأقبل الحمالون ، فصاحت :

– أسرعوا . أرشدهم إلى الطريق يا ألكسى إيڤانوڤتش . أبعيد هو ؟

– خطوتان يا سيدتى .

ولقينا أصحابنا جميعاً عند ثنية من ثنيات الطريق ، وكان بينهم الجنرال ودى جرييه، والمدموازيل بلانش ، وأمها . ولم يكن ينقصهم إلا پولينا والمستر أستلى . ولكن الجدة صاحت :

– أمامًا . لا تتوقف . ماذا تريدون ؟ إنى لا أستطيع الكلام معكم هنا .

وكنت أسير خلف كرسيها ، فأسرع إلىّ دى جرييه ، فقلت له فى صوت خفيض :

– لقد خسرت ربح الصباح ، واثنى عشر ألف فلورين من مالها . ونحن ذاهبون الآن لنستبدل صكوكًا .

فدقّ الأرض بقدمه . فى غضب وأسرع إلى الجنرال . وتابعنا المسير فهمس إلىّ الجنرال جزعاً :

– امنعها من ذلك ! امنعها من ذلك ! فأجبته هامساً كذلك :

– امنعها أنت إن استطعت !

فقال وهو يقترب منها :

– عمتى ... عمتى العزيزة ... إننا ذاهبون نستأجر جياداً للنزهة خارج المدينة ... منظر بديع ... شلاجنبرج ... لقد جئنا نبحث عنك ... فقالت الجدة فى ضيق :

– ليأخذك الشيطان أنت ومناظرك !

ولكن الجنرال أضاف يائساً :

– إنه ريف بديع . ونستطيع أن نشرب الشاى تحت الأشجار . وزاد دى جرييه بمثل حشرجة الوحش الضارى :

– سنشرب اللبن على العشب الأخضر .

« اللبن والعشب الأخضر ! » أليس هذا هو حلم البرجوازيين الپاريسيين ؟ أليس عندهم أروع ما فى الطبيعة الصادقة ؟

– أذهب مع لبنك . أغرق فيه حتى أذنيك . أما أنا فلا أطيقه .... ولكن ماذا تريدون منى ؟ لا حاجة بى إليكم .

وعند ذلك قلت لها :

– لقد وصلنا يا سيدتى . ها هنا مكتب الاستبدال .

ودخلت لأطلب إجراء المبادلة ، وبقيت الجدة بالباب مع الجنرال ودى جرييه ، اللذين سقط فى أيديهما ، وحارا ماذا يفعلان . ثم التفتت الجدة إليهما بنظرة فيها من الغضب ما جعلهما ينسلان إلى الملهى . وقد عُرضت علىَّ شروط مجحفة ، فلم أتكفل بقبولها وعدت إلى الجدة . فصاحت .

– آه ! اللصوص ! حسنا . لابأس ! بادل ! ... كلا ناد صاحب المصرف .

– ألا أنادى أحد الكتبة يا سيدتى ؟

– بلى . آه ! اللصوص !

وقد قبل الموظف أن يخرج عندما علم أن التى تطلبه كونتسة شيخة عاجزة . فأنبته الجدة تأنيباً شديداً ، ودعته لصاً ، وحاولت أن تساومه ، مخاطبة إياه بلغة غريبة ، هى مزيج من كلمات روسية وألمانية وفرنسية ، وكنت أترجم عنها ، وكان الموظف يفحصنا كلينا ببصره وهو يهز رأسه فى صمت ، ويحدج الجدة خاصة بنظرات فيها فضول يقرب من الوقاحة . ثم ابتسم أخيراً ، فصاحت الجدة :

– انتبه لما تقول . لا متعك الله بنقودى ! ألكسى إيڤانوڤتش ! أخبره أنا سنذهب إلى مصرف آخر .

– يقول الكاتب إنهم سيعطونك أقل مما يعطيك .

ولا أدرى كيف تمَّ الحساب ، ولكن النتيجة كانت مفزعة حقاً ، فقد تسلمت اثنى عشر ألف فلورين ذهباً ، ومعها قائمة الحساب ، وعدت بها إلى الجدة . فقالت وهى تدفع الورقة بعيداً :

– حسناً . حسناً . أنا لا أتقن الحساب . هلمَّ بنا .

قلت لنفسى ونحن ندخل الملهى :

لن أضع مليما على ذلك الصفر الملعون ، ولا على ذلك الأحمر الملعون أيضاً .

وفى هذه المرة حاولت أن أقلل من المقادير التى تراهن بها العجوز ، مجتهداً فى إقناعها بأننا نستطيع فى كل حين أن نرفعها إذا رأينا الحظ يواتينا . ولكنها كانت نافدة الصبر ، حتى لم يبق فى الإمكان تهدئتها ، فما كادت تكسب اثنى عشر جنيها حتى قالت :

– أرأيت ما ربحناه ؟ لو أننا وضعنا أربعة آلاف فلورين بدل اثنى عشر جنيهاً لربحنا أربعة آلاف فلورين أخرى . إنك أنت المخطئ دائماً ....

لم أرتض طريقتها فى اللعب ، ولكنى أمسكت عن الكلام ، وعزمت على ألا أشير عليها بشىء بعد ذلك . ثم ظهر دى جرييه فجأة ، ولعله كان وسائر الجماعة على مقربة منا طوال الوقت ، وإن كنت قد لاحظت أن المدموازيل بلانش اعتزلت الجماعة ، وأخذت تلغى شباكها على الأمير الصغير ، حتى ضاق ذراع الجنرال لذلك ، وهو واقف يكاد يموت غيظاً . ولكن المدموازيل تحاشت النظر إليه ، رغم أنه بذل جهده ليسترعى التفاتها . يا للجنرال المسكين ! إن وجهه كان يبيض ويحمر على التعاقب ، وكان يرتعد حتى أنه ذهل عن السيدة العجوز . وأخيراً خرجت بلانش مع الأمير الصغير فتبعهما الجنرال .

ثم قال دى جرييه بنبراته المعسولة ، وقد انحنى ليهمس فى أذن الجدة :

- سيدتى . سيدتى ... ما هكذا يكون اللعب ... ليست هذه هى الطريقة ... كلا .

وأردف بالروسية :

- لا . لا .

- ولم لا ؟ أرشدنى إذن ما يجب أن أفعل .

وانطلق دى جرييه يثرثر بالفرنسية ، ويقدم النصائح ، ويقفز هنا وهناك ، ويقدر الفرص ، ويحسب الأرقام ، ويوجه إلىّ ذلك لأترجمه . وأخيراً تناول قلماً وشرع يكتب أرقاماً على الورق حتى نفد صبر الجدة فقطعت عليه حسابه صائحة :

- اغرب بوجهك ! إنك تهذى ! « سيدتى ، سيدتى » فإذا جاء وقت العمل لم تعرف شيئاً . اغرب !

- ولكن يا سيدتى ...

وعاد يشرح . فأمرتنى قائلة .

- حسنا ! راهن كما يقول مرة واحدة . سنرى ما يكون ؛ فقد يفوز رهانه . ولم يكن دى جرييه يبغى إلا أن يثنيها عن المقامرة بمقادير جسيمة ، ولذلك نصحها بأن تلعب على رقم خاص ، وعلى مجموعة من الأرقام فى الوقت نفسه ، ومن ثمّ وضعت جنيهاً على كل رقم من الأرقام الفردية حتى العدد الثانى عشر ، وخمسة جنيهات على مجموعة الأرقام من اثنى عشر إلى ثمانية عشر ، ومن ثمانية عشر إلى أربعة وعشرين . وجملة ذلك ستة عشر جنيها .

دارت العجلة وصاح الكروپييه :

- صفر !

وخسرنا كل شىء .

صاحت العجوز :

– يا له من أحمق ! آه ! الفرنسى اللعين ! إليك عنى ! أنت كثير الجلبة ولكنك لا تفهم ما تقول .

فهزَّ دى جرييه كتفيه حانقاً ، ونظر إلى الجدة باحتقار وابتعد . وخسرنا اثنى عشر ألف فلورين بعد ساعة ، فصاحت الجدة :

– لنعـد .

ولم تنبس بكلمة حتى بلغنا الطريق المؤدية إلى الفندق . وهناك صاحت فجأة :

– عجوز خرقاء !

وما كادت تدخل حتى صرخت طالبة الشاى ، وأمرت أن تحزام أمتعتها للرحيل . فسألت مارفا :

– إلى أين يا سيدتى ؟

– أهذا يعنيك ؟ پوتاپتش ، أعدَّ الحقائب ، سنعود إلى موسكو . لقد فقدت خمسة عشر ألف روبل !

– خمسة عشر ألف روبل ؟ سيدتى ! يا لله !

وبصق پوتاپتش فى يديه كأنه يبدى استعداده لخدمتها بكل وسيلة يستطيع – هيا أيها الأحمق ! هل فرغت من نحيبك ؟ علىَّ بقائمة الحساب . ولنرحل . قلت لها لأخفف من حدتها قليلاً .

– إن أول قطار لا يرحل إلاَّ فى الساعة التاسعة والنصف .

– كم الساعة الآن ؟

– السابعة والنصف .

– أف لهذا القطار ! ألكسى إيڤانوڤتش ، ليس معى كوپك واحد . اذهب واستبدل صكين آخرين ، وإلا فلن أستطيع الرحيل .

وعدت بعد نصف ساعة وقد أنفذت أمرها ، فوجدت جماعتنا كلها – عدا پولينا – عند الجدة . وقد أفزعهم خبر رحيلها إلى موسكو ، أكثر مما أفزعتهم خسائرها .

حقا إن فى رحيلها إنقاذاً لثروتها ، ولكن ماذا يكون من أمر الجنرال ؟ من يردُّ دين دى جرييه ؟ وهل تنتظرُ المدموازيل بلانش موت الجدة ؟ ألا ترحل مع الأمير الصغير أو مع سواه ؟

وإذن فقد كانوا جميعاً يحاولون أن يستبقوا الأميرة العجوز . أما هى فلم تقابلهم بغير الشتائم .

– دعونى فى سلام أيها الأوغاد . لا شأن لكم بى . ثم قالت وأشارت إلى دى جرييه :

– ماذا يريد منى هذا التيس ؟ وقالت وقد أشارت إلى المدموازيل بلانش :

– وأنت أيتها القبرة الجميلة ماذا تريدين منى ؟

فتمتمت المدموازيل بلانش ، وفى عينيها وميض الغضب :

– يا للشيطانة ! ثم انفجرت ضاحكة وهى تصيح بالجنرال :

– إنها ستعمر مائة عام !

فقالت الجدة للجنرال :

– آه ! آه ! إذن فأنت تترقب موتى ؟ اغرب بوجهك ... ألكسى إيڤانوڤتش ! اطردهم جميعاً ! ما شأنهم بى ؟ إنى لم أخسر إلا نقودى ، حرِ مالى ! فهز الجنرال كتفيه وخرج ، وتبعه دى جرييه .

وأمرت الجدة مارفا أن تنادى پراسكوڤيا ، فعادت بعد خمس دقائق ومعها پولينا ، التى كانت معتكفة فى غرفتها مع الصغيرين ، وكان يبدو على محياها الحزن والهم .

– أصحيح أن هذا الأحمق زوج أمك ، يريد أن يتزوج تلك الفرنسية الصغيرة اللعوب ... تلك الممثلة ؟ بل لعلها شر من ذلك . خبرينى ! أهذا صحيح ؟

– لست على يقين يا جدة . ولكن المدموازيل بلانش لا تحاول كتمان شىء ، وقد فهمت مما تقوله أن ...

فقاطعتها الجدة بحدة :

– كفى . إنى أفهم كل شىء . لقد كان رأيى دائماً فيه ، أنه غبى رغم تباهيه باللقب الذى يحمله . وأنا أعلم قصة البرقيات المرسلة إلى موسكو ، وسؤاله « هل ستموت العجوز وشيكا ؟ » فقد كانوا ينتظرون الميراث ، وإذن فلولا المال ما رغبت فيه هذه الفتاة السافلة ... هذه الـ ... دى كومنج . أليس هذا اسمها ؟ أجل .

لولا المال لما قبلت أن يكون هذا الجنرال ذو الأسنان الصناعية خادماً لها . ويقولون : إنها هى نفسها غنية ، وإنها تقرض بالرهن ، فهى - لا شك - قد جمعت مالها من كل طريق ، أما أنت يا پراسكوڤيا فلا أتهمك بشىء . لا أريد أن أثير أشجاناً قديمة . إنك عنيدة وشكسة بطبعك . أنت أشبه بالزنبار الذى يلسع من يدنو منه . ولكنى أشفق عليك رغم ذلك ؛ فقد كنت أحب أمك كاتيا . أترغبين أن تتركيهم جميعًا وتأتى معى ؟ إنك لا تعرفين لنفسك وجهة ، وليس من الصواب أن تلبثى معهم فى هذه الأحوال . أصمتى (وأشارت إلى پولينا التى كانت تريد الجواب) ، إنى لم أتم بعد . إنى لا أسألك شيئاً إزاء ذلك . أنت تعلمين أن لدى قصراً فى موسكو . إنى أمنحك جناحاً بأكمله ولك أن تبقى فى مسكنك دون أن تريني . أتأتين معى أم لا ؟

- دعينى أسألك أولا ، أعازمة أنت عزماً قاطعاً على الرحيل ؟

- هل يبدو علىَّ أنى أهزل ؟ إنى أقول وسأفعل . لقد سُلبتُ اليوم خمسة عشر ألف روبل على مائدتكم الملعونة . وقد وعدت منذ خمس سنوات أن أبنى فى مقاطعتى كنيسة من الحجر عوضاً عن الكنيسة الخشبية . وقد تركت المبلغ الذى خصصته لذلك يضيع .. ها ها . ولكنى سأبنى كنيسة رغم كل شىء .

- والمياه يا جدتى ؟ لقد جئتِ للاستشفاء !

- اذهبى بمياهك إلى الشيطان ! لا تغيظينى يا پراسكوڤيا . يخيل إلىَّ أنك تتعمدين إثارتى . أتأتين ؟

- أشكرك يا جدتى على المأوى الذى تقدمينه إلىَّ ، وأشكرك أيضاً لأنك أدركت موقفى . ولعلى ذاهبة إليك قريباً . أما الآن ... فلأسباب ... هامة ... لا أستطيع أن أقرر على الفور . ولو مكثت نحو أسبوعين ...

- معنى هذا أنك ترفضين !

- كل ما أعنيه أنى لا أستطيع الذهاب الآن . هل أستطيع أن أترك هنا أخى وأختى ؟ إنى لو فعلت ذلك لما بقى من يعنى بأمرهما . - ثم أضافت بحرارة - : لو أخذتنى والصغيرين يا جدة ، لذهبت معك دون تردد ، ولحاولت أن أكون أهلا لإحسانك ، ولكنى لا أستطيع أن أذهب دونهما .

– هذا حسن . لا تبكى . (ولم يكن يبدو على پولينا أنها تريد البكاء . والحقيقة أنها لا تبكى ألبتة) . لن يضيق ذرعى بالصغيرين أيضاً . ثم إن الوقت قد حان لإرسالهما إلى المدرسة . ولكنك لا تريدين المجىء الآن . حذار يا پراسكوڤيا . إنى أبغى لك الخير ، وأنا لا أجهل لماذا تؤثرين البقاء . إنى أعلم كل شىء يا پراسكوڤيا . إنك لن تصيبى خيراً من وراء الفرنسى الصغير .

وتضرج وجه پولينا . وأخذتنى رعدة ، فقد حدثتنى نفسى أنهم جميعاً واقفون على هذا الأمر ، ولعل أحداً لا يجهله سواى !

– لاتعبسى فإنى أريد أن أصارحك . حذار أن يصيبك أذى . إنك فتاة عاقلة ، وأنا حزينة لك . فإنك من طراز غير طرازهم . انصرفى الآن . ووداعاً

– دعينى أمكث معك قليلا .

– لا . لا فائدة من هذا . اتركينى فقد أثقلتم علىَّ جميعاً .

وعندما أرادت پولينا أن تلثم يد الجدة ، جذبتها هذه بسرعة وقبلت خد الفتاة . وبينما كانت پولينا مارة بجانبى رمقتنى بنظرة سريعة عابرة .

– حسنًا ، وداعاً يا ألكسى إيڤانوڤتش . سأرحل بعد ساعة . لعلك مللت بقاءك معى خذ هذه الخمسين جنيهاً .

– شكراً لك يا سيدتى . ولكن ...

– هيا ! هيا !

وكان فى صوتها من الشدة والعزم ما سلبنى الجرأة على الإباء .

– إذا كنت فى موسكو وأردت عملاً فتعالَ إلىَّ . وسوف أوصى بك خيراً . أعد المتاع يا پوتاپتش .

صعدت إلى غرفتى وتمددت على سريرى ، ولبثت نحو ساعة مستلقياً ويداى معقودتان خلف رأسى . لقد أزفت الآزفة . كنت فى حاجة إلى أن أتدبر الأمر . لابد أن أحادث پولينا غداً . آه ! هذا الفرنسى الصغير ! إذن فهذا صحيح ! ولكن كيف يكون ذلك ؟ پولينا ودى جرييه ، كيف يلتقيان ؟ إن هذا غير مقبول عقلا . ووثبت عن السرير عازماً علىّ أن أذهب للبحث عن المستر أستلى وأن أدفعه إلى الكلام . فإنه ولا شك يعلم أكثر مما أعلم . يا لهذا المستر أستلى ! إنه أيضاً لغز !

وفجأة سمعت طرقاً على بابى ، وفتحته فإذا بپوتاپتش .

– سيدى ألكسى إيڤانوفتش ، إن سيدتى تريدك .

آه ! ماذا هناك ؟ أراحلة هى ؟ ولكن أمامها عشرين دقيقة !

– إنها شديدة الاضطراب يا سيدى . إنها لا تستقر على حال . أسرع ! أسرع ! إنها تريدك أنت . فأسرع بحق يسوع المسيح !

ونزلت على عجل . لقد كانت الجدة فى الردهة ، وكانت حافظة أوراقها بيدها :

– ألكسى إيڤانوفتش ! . تعالَ . هيا ...

– إلى أين يا سيدتى ؟

– لن أهدأ حتى أسترد نقودى . لا تجادل . سِرْ . إن اللعب لاينتهى إلا عند نصف الليل . أليس كذلك ؟

ذهلت . وفكرتُ هنيهة وما لبثت أن عزمت على ما يجب أن أفعل .

– إئذنى لى يا سيدتى فى ألاّ أرافقك .

– لماذا ؟ ماذا دهاك ؟ هل استبطتكم الشياطين ، أنتم جميعاً ؟

– معذرة ، ولكنى لا أريد أن أصبح فريسة الندم . لن أكون شاهداً أو شريكا . أعفينى يا أنطونيدا ڤاسيليڤنا ، وهاك جنيهاتك الخمسين . وداعاً .

ووضعت اللفافة على منضدة صغيرة قرب الكرسى ، وانحنيت وخرجت ، فصاحت الجدة .

– يا لك من أحمق ! حسناً . سأذهب وحدى . تعال يا پوتاپتش . لنمض ! لم أوفق إلى العثور على المستر أستلى ؛ فعدت إلى الفندق بعد أن جاوز الليل منتصفه ، ولكنى علمت – بعدئذ – من پوتاپتش ، كيف قضت الجدة يومها . إنها خسرت كل ما استبدلته لها فى الصباح ، أى نحواً من عشرة آلاف روبل ، وخسرتها بإرشاد ذلك البولندى الذى منحته جنيهين من قبل . وكانت قد أمرت پوتاپتش أن يراهن لها قبل مجيئه ، ثم غضبت عليه وأمرته أن يكف عن ذلك . وعندئذ ظهر البولندى . واتفق أن كان يعرف الفرنسية ، ويتكلم مزيجاً من لهجات ثلاث ، فاستطاعا أن يتفاهما ، ولكن السيدة العجوز جعلت تنتهره رغم تملقه إياها ، وتقول له : إنه ليس خيراً منى ... هكذا روى لى الخادم الهرم ، وأضاف : لقد عاملتها يا سيدى بنبل ، أما ذلك الرجل فقد سلبها كل ما استطاع أن يسلبها إياه . إنى رأيت ذلك بعينى رأسى ، وقد ضبطته

الجدة مرتين على هذه الحال ، فأنبته تأنيباً شديداً ، بل شدت شعره فى إحدى المرتين ، حتى ضحك الحاضرون . ولكنها خسرت كل شىء ياسيدى ، كل ما استبدلته لها . ثم رجعنا بها فشربت قدحاً من الماء ، وصلت وأوت إلى فراشها ، وما لبثت أن نامت من شدة التعب - متعها الله بأحلام الملائكة - هذا كل ما كسبناه من السفر فى الخارج ! إيه يا موسكو العزيزة ! ماذا يعوزنا هناك ؟ إن الدنيا هناك حديقة متنوعة الأزهار لا تجد لها مثيلاً هنا ، ويهب الهواء نقياً ، ويتفتح نور الصباح ! يا له من منظر بديع ! ولكننا نسافر إلى الخارج واحسرتاه !

* * *

- ١٣ -

ها قد مضى شهر دون أن ألمس هذه المذكرات التى بدأتها وأنا تهب إحساسات حادة مضطربة . لقد حدثت الأزمة الخطيرة التى توقعتها ، وكانت أعجب كثيراً من كل ما تخيلت ، حتى بدا الأمر كله غريباً مختلطاً محزناً . أجل . لقد مرت بى أحداث مروعة ، أو أراها مروعة من بعض الوجوه ، فقد كانت أشبه بدوارة اكتنفتنى تلك الفترة من حياتى . على أنَّ أعجب هذه الأمور ، هو موقفى من تلك الأحداث ، فإنى لم أكن قد فهمت نفسى بعد . أما الآن ، فقد مرت الأزمة الحقيقية ، أشبه شىء بالحلم . حتى حبى لپولينا قد مات . أكان حباً قوياً صادقاً كما ظننت ؟ فإن كان كذلك فماذا أصابه الآن ؟ يخيل إلىَّ أحياناً أنى لابد أن أكون مجنوناً ، وإنى جالس فى بيمارستان بمكان ما . وأن هذه الحوادث كلها لم تكن إلا خيالا ، وإنها ما تزال تحدث فى الخيال .

قد رتبت أوراقى من جديد ، ولعلى لم أفعل ذلك إلا لأقنع نفسى أنى لست فى بيمارستان . أنا الآن وحيد وحيد . والخريف قد أقبل وبدأت الأشجار تصفر ، وأرانى جالساً أفكر فى تلك المدينة الكئيبة ، وتالله ما أشد كآبة المدن الألمانية الصغيرة ! . أرانى أفكر ولا أمد بصرى إلى المستقبل ، بل أجتر إحساساتى القديمة ، وأستعيد ذكرى ذلك الاعصار الذى انتزعنى من مدارى الطبيعى ثم لفظنى بعيداً . ولكنى قد أستطيع أن أستوضح مستقبل أمرى ، إذا استطعت أن أفهم حياتى طوال ذلك الشهر الماضى . إن الرغبة فى الكتابة تلح علىَّ ، ولكنى أستعير من المكتبة الريفية الصغيرة أعمال پول دى كوك (مترجمة إلى اللغة الألمانية !) . إنى أكره ذلك الكاتب بيد أنى أقرأه . لماذا ؟ ألا ستبقى ذكرى الكابوس الذى انتهى منذ قليل ؟ ألهذا أفر من كل عمل جدى ؟ أهو عزيز علىَّ إلى هذا الحد ؟ آه ، أجل ، سأظل أفكر فيه حتى بعد أربعين عاما ...

هأنذا أتابع مذكراتى .

لنفرغ أولا من أمر الجدة .

إنها فقدت صبيحة ذلك اليوم – حسب رواية پوتاپتش – تسعين ألف روبل . ولم يكن ذلك مستبعداً . فإن مثلها إذا سلك هذا الطريق لم يستطع النكوص عنه .

إنها أشبه بزلاقة دُفعت على منحدر من الجليد ، فهى تسرع وتسرع حتى الهاوية . وقد ظلت تقامر النهار كله ، وقد علمت ذلك من پوتاپتش فيما بعد ، وإن كنت لم أشهده بنفسى .

كان پوتاپتش معها طوال ذلك النهار . ولكنها بدلت الپولنديين الذين يلعبون لها غير مرة ، بدأت بطرد الپولندى الذى راهن لها أمس وجذبت شعره . وقربت آخر ثم ظهر أنه شر من الأول . فطردته وأعادت الأول الذى بقى - وهو مطرود - يحوم حول كرسيها ، ويمد رأسه فوق كتفها . وأخيراً ضاق ذراع السيدة العجوز بهما ، فإن الپولندى الثانى حين طرد ، حذا حذو الأول ، فأبى أن يذهب . وهكذا بقى أحد الپولنديين واقفاً إلى يمين الفريسة ، والآخر إلى يسارها ، ودار بينهما الشجار وهما فى موقفيهما ، يتقارضان التهم عن المراهنات وأدوارها ، ويتبادلان الوصف : «لايداك» (أى الوغد) وغيرها من كلمات الإعزاز الپولندية . وأخيراً وصلا إلى إتفاق ، فأخذا يلعبان على غير هدى ، ويلقيان النقود حيثما اتفق . ثم تنازعا مرة أخرى ، فأخذا يضعان النقود كلٌ من جانبه (فيراهن أحدهما على الأحمر ، ويراهن الثانى على الأسود) حتى اختلط الأمر على الجدة وحنقت عليهما واضطرت - وهى تكاد تبكى - إلى الاستعانة برئيس الكروپييه على طرد الپولنديين . وسرعان ما أنفذ ذلك ، رغم صيحات الرجلين واحتجاجهما بأن العجوز مدينة لهما ، وأنها غشتهما ، وأن سلوكها كان حقيراً دنيئاً . وقد قصّ علىَّ القصة پوتاپتش التعس ، المساء نفسه ، وهو يبكى ويشكو من أن الرجلين قد ملآ جيوبهما بالمال الذى سرقاه من سيدته بغير حياء ، وقد رآهما وهما يسرقانه . فمثلا طلب أحدهما من الجدة خمسين فلورينا لقاء تعبه ، وراهن بالنقود إلى جانب رهانها ، وحدث أن ربحت هى فصاح هو بأن الرهان الرابح رهانه وأنها هى الخاسرة . وما إن طرد الپولنديان حتى غادر پوناپتش الحجرة ، وأخبر الإدارة أن جيوب الرجلين محشوة بالذهب ، وحين رجت الجدة رئيس الكروپييه أيضا أن يتدخل فى الأمر ، ظهرت الشرطة وأفرغت ما فى جيوب الپولنديين اللذين قبض عليهما متلبسين بالجريمة دون أن تأبه لاحتجاجهما ، وأعطت ما وجدته للجدة . والحق أن الكروپييه وغيرهم من إدارة الملهى إنما أظهروا العناية الشديدة بها لأنها قضت النهار كله وهى تخسر ، وقد ذاع صيت الجدة فى المدينة حتى احتشد الزوار من كافة الجنسيات - وبينهم أهل الدراية والرفعة - ليلقوا نظرة على الكونتسة الروسية العجوز المخرفة التى فقد « ملايين كثيرة » .

على أن الجدة لم تفد كثيراً بما استرجعته لها الإدارة من جيوب البولنديين . فسرعان ما جاء پولندى ثالث يحل محل صاحبيه ، وكان يتكلم الروسية بطلاقة ، ويلبس لبس السادة ، وإن يكن على طريقة الخدم ، وله شارب ضخم . كان يتأدب مع الجدة ويتعالى على الحاضرين . كان باختصار يضع نفسه موضع المرافق لا الخادم . كان إثر كل دورة يلتفت إلى الجدة ويقسم أقساماً مغلظة أنه « سيد پولندى شريف » يأبى أن يمس كوپكا من مالها . وقد لبث يراهن لها ، وإن أكثر من الحلف حتى أزعجها ، وبدأ يربح ، فلم تعد تستطيع الاستغناء عنه . وبعد ساعة ظهر ثانية الپولنديان اللذان طردا من الملهى فى الصباح ، وعرضا الخدمة من جديد وإن اقتصرت على قضاء الحاجات . ولكنى علمت من پوتاپتش فيما بعد أن هذين الوغدين تغامزا مع ذلك « السيد الشريف » وأن الأخير دس فى أيديهما شيئاً . وإذ كانت الجدة لم تتناول غداء ولم تكد تغادر كرسيها لحظة ، فقد ركض أحد الپولنديين إلى مطعم الملهى ، وأتى لها بكوب من الحساء، ثم بالشاى. الحق أن البولنديين كليهما أسرعا لأداء هذه المهمة . وأخيراً قبيل المساء حين كانت الجدة تراهن بالورقة الأخيرة ، لم يكن المرء يرى خلف كرسيها أقل من ستة پولنديين لم يسبق له أن سمعهم أو رآهم . وما أن راهنت الجدة بتلك الورقة حتى انصرفوا عن الاهتمام بها وجاوزوا كرسها إلى المائدة ، وقبضوا على النقود وراهنوا بها ، وهم يتصايحون ويتنازعون ويجادلون « السيد الشريف » الذى كان قد نسى هو الآخر وجود الجدة ، وكأنه واحد منهم . بل إنه حين خسرت الجدة كل شىء ، وعادت إلى الفندق حوالى الثامنة ، لم يستطع ثلاثة پولنديين أو أربعة أن يتركوها ، بل ظلوا يتراكضون إلى جوار كرسيها ، ويرددون الاحتجاج بأنها غشتهم ، وبأنه ينبغى أن تتنزل عما ليس لها . هكذا وصلت الجماعة إلى الفندق ، وهناك طردت شرذمة الأوغاد شر طردة .

خسرت الجدة ذلك اليوم تسعين ألف روبل فى تقدير پوتاپتش ، غير ما فقدته فى اليوم السابق . وقد صرفت كل ما جاءت به من أوراق مالية وسندات من القرض الوطنى وغير ذلك . ثم إنى لأعجب كيف مرت بها سبع ساعات أو ثمان بطولها جالسة على كرسيها لا تكاد تترك المائدة . وقد أخبرنى پوتاپتش أيضا أن الربح الحق وأتاها ثلاث مرات ولكن الآمال الكاذبة استولت عليها فلم تستطع أن تنأى بنفسها فى اللحظة المناسبة . وكل مقامر يعلم كيف يمكن أن يقضى المرء نهاره وليله يلعب الورق دون أن يلتفت إلى اليمين أو الشمال .

وفى اليوم نفسه حدث فى الفندق أحداث خطيرة . فقبل الساعة الحادية عشرة صباحاً كان الجنرال ودى جرييه قد عزما على أن يبذلا محاولة أخيرة . فلما علما أن الجدة لم تعد تفكر فى الرحيل بل عادت إلى الملهى ، ذهبا ليكلماها « صراحة » . وكان الجنرال يرتعد ، واعترف بكل شىء . بديونه ، وبغرامه بالمدموازيل بلانش .... ثم اندفع يهدد ويصيح ، ويدق الأرض بقدمه ، وعيَّرها بأنها فضيحة الأسرة ، وأحدوثة المدينة . وبأنها أخيراً .. « أنت أخيراً معرة روسيا كلها يا سيدتى . » فطردته الجدة وهى تهدده بالعصا .

وقد خلا الجنرال إلى دى جرييه عدة مرات فى ذلك الصباح ، وكان يفكر فى اللجوء إلى الشرطة محتجاً بأن تلك السيدة الفاضلة المسكينة قد فقدت رشدها وانطلقت تبذر مالها ، فلا بد إذن من أن يفرض عليها نوع من الإشراف أو الحجر . ولكن دى جرييه رفع حاجبيه ، وسخر من الجنرال ، الذى كان يقبل ويدبر فى غرفته مبلبل الفكر . وأخيراً لوح الفرنسى الصغير بيده يائسا وانصرف وعلم فى المساء نفسه أنه بارح الفندق بعد خلوة طويلة مع المدموازيل بلانش . أما هذه الأخيرة ، فكانت قد رتبت أمرها من قبل ، فطردت الجنرال قائلة إنها لم تعد تريد أن تراه ! وركض الجنرال على أثرها فلحق بها فى الملهى ووجدها تسير وذراعها فى ذراع أميرها ، فأنكرته هى وأمها مدام دى كومنج ، ولم يحيه الأمير . بيد أن هذا الأخير لم يكن ثابت العزم ، وكانت المدموازيل بلانش تبذل قصارى جهدها لتدرك طويته ، وتحمله على أن يحزم أمره . ولكن وا أسفاه ! كم كانت مخدوعة ! إنها علمت فى ذلك المساء نفسه أن الأمير الصغير كان خاوى الوفاض وأنه يعتمد عليها ليستطيع أن يلعب الروليت ، فطردته من عندها شر طردة ، واعتكفت فى مسكنها .

وفى صبيحة ذلك اليوم ، كنت أبحث بلا جدوى عن المستر أستلى . وقد علمت أنه لم يتغدَّ فى فندقه . فلما كانت الساعة الخامسة لمحته اتفاقاً على محطة السكة الحديدية ، متجها شطر فندق إنجلترا . كان يسير مسرعاً ويبدو مهتما ، ولكنى لم أتبين فى ملامح وجهه شيئاً من القلق أو الاضطراب ، وقد مد لى يده مرحباً ، بصيحته المألوفة « آه ! » وبغير أن يبطئ فى مشيته ، وانثنيت سائراً بجانبه ، ولكنى أدركت أنى لن أظفر منه بجواب شاف ، وعز علىَّ أن أحدثه عن پولينا ولم يسألنى هو عنها ، ورويت له قصة الجدة ، فهز كتفيه ، فقلت له :

– سينتهى أمرها إلى الخراب .

فأجـــاب :

– أجل . لو كان عندى فسحة من الوقت لذهبت كى أراها وهى تقامر ... إن الأمر يستهوينى .

– إذن فأين كنت طيلة الصباح ؟

– فى فرنكفورت .

– لبعض العمل ؟

– نعــم .

ماذا أسأله من بعد ؟ لكنى لم أتركه حتى وصلنا إلى باب فندق «الفصول الأربعة » فحيانى ومضى . أما أنا فعدت إلى غرفتى موقناً أنى لو لقيته الساعة الثانية ظهـراً لما ظفرت منه بأكثر مما ظفرت حين لقيته الخامسة عصراً . وما كنت لأعلم منه شيئاً ، وليس لدىَّ سؤال بعينه أوجهه إليه . وقد أمضت پولينا سحابة يومها بين الحديقة – تتنزه فيها مع الطفلين والمربية – وبين حجرتها الخاصة . وقد لاحظت منذ زمن أنها تتجنب حديث الجنرال ، ولكنها لم تكن لتجزع لأمر من الأمور . لقيتها اتفاقاً وأنا عائد إلى الفندق بعد حديثى مع أستلى ، فإذا محياها لا ينم عن قلق ولا خوف . وحيتنى بإيماءة صغيرة ، ثم انطلقت إلى غرفتى كئيباً مهموماً .

حقاً إنى لم أبادلها الكلام منذ حادثة برمرجلم ، ولكنى كنت أتقلب على الجمر ، وكنت أحتدم غيظاً كلما طال الزمن . أما أنها لا تحبنى فهذا ما لا أستطيع أن ألومها عليه ، ولكنها يحب ألا تدوس كبريائى بقدميها ، وتقابل خضوعى بازدراء مع أنها تعلم أنى أحبها ، وقد سمحت لى أن أحدثها بحبى ! والحق أن قصتنا بدأت بدءاً غريباً ، فمنذ نحو شهرين لاحظت أنها تريد أن تجعلنى صديقها ، وموضع سرها ، وكأنها جرت ذلك فىَّ زمناً ولكن الأمر لم ينته كما أرادت ، وأفضى بنا الحال إلى تلك العلاقات الغريبة التى جعلتنى أصارحها بحبى . ولكن لماذا لا تنهانى أن أحدثها عنه إذا كانت نادمة عليه ؟ إنها لا تنهانى عن هذا وكثيراً ما تدفعنى إليه . ولعلها إنما تفعل ذلك تلذذاً من قسوتها ، فكثيراً ما لاحظت أنها بعد أن تستمع إلى حديثى وتشبع من إيلامى ، تعمد إلى تعذيبى بفيض احتقارها وتعاليها ؛ ولكنها لا شك قد علمت أنى لا أستطيع الحياة بدونها ، فما كادت تنقضى ثلاثة أيام على قصة البــارون ، حتى شــعرت أنى

لا أستطيع احتمال هذا « الفراق » وعندما لقيتها الساعة قرب الملهى ، دقَّ قلبى دقًا عنيفاً . إنها هى الأخرى لا تستطيع أن تعيش بدونى . ألم تقل إنها محتاجة إلىَّ ؟ أكانت تهزل عند ذلك أيضاً ؟ ما من ريب فى أنها تطوى عنى سراً من الأسرار . لقد جرح قلبىَ حديثها مع الجدة ، أنا الذى ضرعت إليها ألف مرة أن تكون صريحة معى ، وجعلت حياتى رهن إشارتها . ولكنها لم تكن تنظر إلىّ إلا باحتقار ! ولم تكن تطلب عوضاً عن حياتى التى أمنحها إياها إلا حماقات مخجلة ! خذ قصة البارون مثلا : ألم ترد بهذا كله تعذيبى ! أيمكن أن يكون هذا الفرنسى هو كنه الحياة فى نظرها ؟ إن الأمر كله عسير الفهم . وما شأن المستر أستلى أيضاً ؟ رباه ! ما أشد شقائى !

لما أويت إلى غرفتى ، أمسكت بالقلم فى نوبة غضب وسطرت ما يأتى : « پولينا الكسندروڤنا . إنى أرى جيداً اقتراب اللحظة الفاصلة . أسألك للمرة الأخيرة . أتريدين حياتى ؟ إن كنت نافعاً لك فى أى أمر من الأمور فمرينى بما شئت . سأكون فى حجرتى متى أحببت . فاكتبى إلىّ . أو دعينى أحضر إليك » . وختمت الكتاب وحملته النادل أمراً إياه أن يسلمه يداً بيد ولم أكن أنتظر رداً . بيد أن النادل جاء بعد دقائق وهو يقول لى : إنه أمر بأن يقدم إلىّ التحية .

وحدث بعد ذلك أن أرسل إلىّ الجنرال حوالى الساعة السابعة يدعونى إلى مسكنه ، فلما دخلت عليه ، ألفيته واقفاً وسط الحجرة ، وقد باعد ما بين ساقيه ، وأحنى رأسه ، وأخذ يكلم نفسه بصوت مسموع ، فما أنَ رأنى حتى أسرع إلى لقائى ، وقد بدرت منه صيحة جعلتنى أتراجع بحركة آلية . ولكنه أمسك بكلتا يدى ، وجرنى شطر الأريكة ، وجلس عليها مرغما إياى على الجلوس على مقعد أمامه ، ثم صاح ويداى ما تزالان فى قبضته وشفتاه ترتعدان ، والدموع تلمع بين أهدابه :

– ألكسى إيڤانوڤتش ! أنقذنى ! أدركنى برحمتك !

ولبثت زمنا وأنا لا أفهم شيئا ، مع أنه كان يتكلم ويتكلم ويكرر بغير انقطاع :

– رحمة بى ! رحمة بى !

وأخيراً فهمت أنه ينتظر منى شيئاً يشبه النصيحة ، أو بالأحرى أنه – وقد تخلى عنه الجميع ، وأمسى وحيدا قلقاً – قد تذكرنى ودعانى لا لشىء إلا الكلام ... والكلام

وحده ! والحق أنه كان كمن أصابه مس . فقد ضم يديه وأراد أن يركع على ركبتيه أمامى . ورجانى أن أذهب من فورى إلى المدموازيل بلانش ، وأن أضرع إليها أن تعود إليه وتتزوجه ، فقلت له :

– سيدى الجنرال ، إن المدموازيل بلانش لا تأبه لى . فماذا أستطيع أن أصنع عندها من أجلك ؟ ولكن اعتذارى لم يغن . فإنه ما كان ليفهم شيئاً مما يلقى إليه ، ثم بدأ يتحدث عن الجدة حديثه المضطرب المهوش ، وهو لا يعى إلا أنه يريد اللجوء إلى الشرطة . ثم صاح وهو يحتدم غيظاً .

فى روسيا ، بل فى كل دولة منظمة ، يحجر على العجائز أمثالها . أجل يا سيدى العزيز ! وبدأ حديثه يتخذ نبرة التهكم – وقد وثب على قدميه يذرع الغرفة طولا وعرضاً– ألا تعلم يا سيدى العزيز أن العجائز أمثالها يراقبن ويحجر عليهن ؟ عليهن اللعنة !

وانحط على الأريكة مرة أخرى .

وبعد هنيهة حاول أن يخبرنى بين شهقاته وزفراته ، أن المدموازيل بلانش أبت أن تتزوجه ، لأن الجدة انبعثت من موتها حية ، فلم يعد له أمل فى إرثها ولا ريب أنه كان يظننى جاهلاً بذلك كله . ولما حدثته عن دى جرييه ، لوح بيديه فى قنوط وقال :

– لقد ذهب . وكل ما أملكه مرهون له . فأنا الآن أفقر من جرذ حتى النقود التى أحضرتها معك من پاريس لا أحسب أنه بقى منها أكثر من سبعمائة فرنك . لا شك أن هذا القدر يكفينى الآن . أما المستقبل فلا علم لى به . صحتُ فى فزع :

– فكيف تدفع حسابك فى الفندق ؟ وماذا تصنع بعد ذلك ؟

فنظر إلىَّ فى غموض ، فتبينت أنه لم يفهم ، ولعله لم يسمع ما قلت . وحاولت أن أحدثه عن پولينا والصغيرين ولكنه لم يزد على أن أجاب باختصار :

– أجل . أجل .

ثم عاد إلى هذيانه ، فجعل يتحدث عن الأمير وقال : إن بلانش ربما ذهبت معه « وإذن فماذا أصنع يا ألكسى إيڤانوڤتش ؟ أخبرنى بربك ماذا أصنع ؟ أليس هذا جحوداً ؟ ولكن ... أجل ... أجل ... إنه جحود ! ... » وانفجر باكياً .

ما كان ليجدى معه شيء . فأعلمت الخادم بحالته ، وأخبرت النادل أيضا ، حتى يهتما بأمره . وخرجت .

وما كدت أخرج حتى جاء پوتاپتش ينبئنى بأن الجدة تريدنى . كانت الساعة الثامنة ، وكانت قد عادت من الملهى ، حيث فقدت كل النقود التى حملتها معها من موسكو . ووجدتها فى كرسيها ، متعبة مريضة . وكانت مارفا تقدم إليها كوباً من الشاى تكاد ترغمها على شربه . وكانت نبرة صوتها قد تغيرت تماماً قالت فى هدوء :

– مساء الخير يا ألكسى إيڤانوڤتش ، لا تلمنى على أزعاجك مرة أخرى لقد خسرت هناك نحو مائة ألف روبل . كنت محقاً فى رغبتك ألا تصحبنى . ليس معى الآن كوپك واحد . ولكن يجب ألا أتأخر لحظة . يجب أن أرحل فى قطار التاسعة والنصف . إنى أرسلت إلى صاحبك الإنجليزى أستلى وسأطلب إليه أن يقرضنى ثلاثة آلاف فرنك لأسبوع . أقنعه حتى يقبل . إنى ما أزال ثرية ، فعندى ثلاث قرى ومنزلان ، وما يزال لدىّ بعض النقود . أجل . إنى لم آخذها جميعاً معى . انظر . ها هو ذا قد أقبل . لا شك أنه رجل كريم !

وهكذا أسرع أستلى إلى السيدة العجوز عند أول دعوة منها . وعدّ لها بلا أدنى تردد ثلاثة آلاف فرنك ، لقاء صك وقعت عليه الجدة . ثم حيا وانصرف .

– لك أن تذهب يا ألكسى إيڤانوڤتش . لم يبق لى غير ساعة . وأريد أن أستريح قليلا ، لاتنقم علىّ ، فإنى عجوز خرقاء . لن أتهم الشبان بعدُ بالنزق ... والجنرال ؟ هذا الجنرال المسكين ! إن اتهامه إثم أيضا . ولكنه لن يأخذ شيئا من النقود ، وهى كل ما يتمناه منى . كم هو شديد الغفلة ! غير أنى لست أحكم منه . حقا ، إن الله يعاقب الشيب كما يعاقب الشبان على إثم الغرور ... وداعا . مارفا ، تعالى ، رافقينى .

ولكنى عزمت على أن أخرج لأودع الجدة ، فقد كان يخيل إلىّ أن شيئاً خطيراً يوشك أن يقع ، ولهذا لم أطلق البقاء فى غرفتى .

لقد كان خطابى إلى پولينا خطاباً جازماً . وكنت موقنا أن الأزمة الحاضرة أزمة فاصلة ، فقد علمت برحيل دى جرييه ، فحدثت نفسى : لئن لم تقبلنى صديقاً ، فقد تقبلنى خادما ، أصدع بما تأمر . ولم أكن لذلك آبياً . وهل من سبيل غير ذلك ؟

لما اقترب موعد القطار سارعت إلى المحطة ، وأجلست الجدة فى مقصورتها الخاصة فقالت لى وهى تودعنى :

– شكراً لك على معونتك الصادقة . لا تنس أن تذكر پراسكوڤيا بما قلته لها ليلة أمس . إني أرجو أن أراها قريبا .

ورجعت أدراجي إلى الفندق . فلما كنت ماراً بمسكن الجنرال ، قابلت الخادم فأنبأتني في حزن أن لا جديد هناك . ولكني عزمت على الدخول ، وبينما أوشك أن أدخل ، إذ وقفت عند الباب مبهوتا . فقد رأيت بعيني المدموازيل بلانش والجنرال وهما يتضاحكان في مرح . وكانت مدام دي كومنج هناك هي الأخرى . كان الجنرال دون شك قد استطير لبه من الفرح ، فقد كان يهذي ، ويقرقر بضحكة عصبية ممطوطة – ضحكة ملأت وجهه بالتجاعيد ، وكادت تخفي عينيه . وقد علمت فيما بعد من المدموازيل بلانش نفسها أنها بعد أن طردت الأمير علمت ما صار إليه الجنرال من اليأس والذهول فذهبت إليه لحظة لتسليه ، ولكن الرجل المسكين كان يجهل أن مصيره لا يزال حيث هو ، وأنه بينما كان يضحك ضحك المجانين ، كانت بلانش تحزم أمتعتها لتطير إلى باريس بأول قطار في الصباح .

وبعد أن وقفت متردداً بضع دقائق على عتبة المكتب ، عدلت عن الدخول ، وانسللت دون أن يراني أحد ، وصعدت إلى حجرتي ؛ ولما فتحت الباب لمحت في غبشة الغرفة شبح امرأة جالسة على كرسي في ركن قريب من النافذة . لم تنهض حين دخلت ، فاقتربت منها منفعلاً ، ونظرت ... واحتبست أنفاسي .

كانت هي پولينا .

* * *

- ١٤ -

صرخت مبهوتا .

فقالت بصوت غريب : ماذا ؟ ماذا ؟

كانت شاحبة ، وكانت عيناها غائمتين .

فرددت كالصدى : ماذا ؟ أنت هنا ؟

- أجل . وعندما جئت أحضرت معى كل شىء . هذا دأبى . وسترى ذلك الآن . أوقد شمعة . فأوقدت شمعة .

ونهضتْ ، واقتربت من المنضدة ، وألقت إلى خطاباً مفضوضاً وهى تقول « اقرأ ! » .

فصحت وأن أقبض على المخطوط : هذا خط دى جرييه !

كانت يداى ترتعدان ، وكانت السطور تتراقص أمام عينىّ . إننى لا أذكر الآن ألفاظ الكتاب ، ولكن إن لم أوردها بنصها فهذا مجمل معناها . قال المخطوط :

« يا آنستى . إن أموراً كريهة إلىَّ تجبرنى على سرعة الرحيل . لقد لاحظت بلا ريب أنى تحاشيت حتى الآن الإفضاء إليك بحديث فاصل . ولكن قَدوم الجدة العجوز ، وما ارتكبته بعد ذلك ، قد وضعا حداً لكل تردد عندى . وأزيد على ذلك أن اضطراب شئونى الخاصة يمنعنى من الكتابة إليك ذاكراً تلك الآمال السعيدة التى طالما عللت بها نفسى . إننى أندب الماضى . ولكننى أرجو فى الوقت نفسه ألا تجدى فى مسلكى أمراً يغض من الكرامة أو يشين الشرف . لقد ضاع معظم مالى فى ديون وليك ، فلا مناص لى من أن أنقذ القليل الباقى . ولهذا كلفت بعض أصدقائى فى بطرسبرنج أن يستعد لبيع جميع العقار المرهون إلىّ . ولكن لعلمى أن وليك المأفون قد فرط أيضاً فى مالك الخاص ، تجاوزت عن بعض ديونه ، حتى تستطيعى استرداد ما فقدته ، فى ساحة القضاء . وآمل أن ينفعك عملى هذا . وآمل أيضاً أن يكون هذا العمل نفسه قد أبرأ ذمتى مما يجب علىّ لشرفى ومحتدى . وثقى أن ذكراك لن تمحى من قلبى » .

قلت مخاطباً پولينا : هذا جلى لاخفاء به ! وأردفت بغيظ : ما أظن أنك كنت تنتظرين منه شيئاً آخر .

فأجابت بهدوء تام ، ولو أن صوتها كان يرتعد :

– لم أكن أنتظر منه شيئاً . لقد وطنت النفس على كل شيء من زمن طويل . إنى أعرفه.. لقد ظن أنى سأتعقبه وألح عليه وأزعجه (ووقفت دون أن تكمل عبارتها ، وعضت على شفتها ، وصمتت) .... لقد تضاعف احتقارى له حين كنت أنتظر ما هو فاعل . ولو أن البرقية المنبئة بالميراث وصلت حينئذ لقذفت إلى رأسه بالنقود التى استدانها منه هذا الأحمق زوج أمى ، وطردته . إنى أكرهه من زمن طويل . أوه ! إنه لم يكن كذلك من قبل . ألف مرة كلا ! والآن ، والآن ... ! كم كان يسعدنى أن أقذف إلى وجهه الدنئ بهذه الخمسين ألف الفرنك ! وددت لو بصقتها فى وجهه ! ...

– أهذه الوثيقة – وثيقة الدين – عند الجنرال ؟ خذيها منه وأرسليها إلى دى جرييه .

– كلا ، كلا . إنها ليست عند الجنرال .

– هذا ما توقعته تماماً ! وماذا سيعمل الجنرال ؟

ثم لمعت فى خاطرى فكرة فصحت : الجدة !

فسألتنى پولينا سؤال المضجر المحنق :

– لماذا تذكرها ؟ إنى لا أستطيع أن أعيش معها . ثم أضافت بحرارة : كما أنى لن أذل « لمخلوق » .

صحت : أجل . لست بحاجة إلى ذلك ، ولكن أكان يمكن أن تحبى دى جرييه ؟ يا له من وغد ! سأبارزه وأقتله .

أين هو الآن ؟

– إنه فى فرانكفورت – وسيمكث بها ثلاثة أيام .

فاندفعت أقول :

– مرينى فاذهب إليه غداً بأول قطار

فابتسمت وقالت :

– لو فعلت لطلب منك أن ترد إليه الخمسين ألف الفرنك أولا . وبعد ما أنهت العراك معه قالت إنك تهذى .

كررت وأنا أصر على تسائلى .

– من أين لنا هـذه الخمسـون ألـف الفرنـك ؟ إننا لن نجمعها من على الأرض ! ما رأيك فى المستر أستلى ؟

فقدحت عيناها شرراً ، وقالت بنظرة نافذة وابتسامة متكبرة :

– مـاذا ؟ أنت نفسك تريدنى على أن أنصـرف عنك إلى هنا الإنجليـزى ؟ وكـان رأسها قد أخذه دوار ، فتهالكت على الأريكة إعياء .

وكأنما صعقت وأن واقف فى مكانى ذاك ! ماذا ؟ إنها تحبنى ! لقد جاءت إلىّ لا إلى المستر أستلى . فتاة تأتى وحيدة إلى غرفتى ... إنها تعرض نفسها لاتهام شنيع ، وأنا واقف أمامها لا أفهم شيئاً ! ثم لمعت فى ذهنى فكرة مجنونة أخرى :

– بولينا ! امنحينى ساعة واحدة . انتظرينى هنا ساعة واحدة حتى أعود . أجل ، يجب أن تفعلى هذا . ألا تعرفين ما أعنى ؟ اجلسى هنا وحسب .

وأسرعت دون أن ألتفت إلى نظرتها المستفسرة ، أو إلى سؤالها الذى ألقته علىّ وأنا خارج .

أجل . قـد يحـدث فى بعض الأحـيـان أن تتـسلط على العـقل فكرة مـجنونة أو مستحيلة، حتى ينتهى المرء إلى تصديقها. فإذا اجتمعت إلى الفكرة رغبة قوية جامحة ، نظر إليها الإنسان كأنها أمر محتوم مقدر لا مفر من وقوعه . وسواء أكان هذا نوعاً من الاحسـاس المركب ، أو الجـهد الإرادى العنيف ، فقـد شـهدتُ تلك الليلة التى لن تمحى من ذاكرتى معجزة وقعت لى إنها حادثة قد تفسرها الحقائق الرياضية ، ولكنى ما زلت أعتقد أنها معجزة فلماذا آمنت بذلك ، ولماذا لا زال أومن به ؟ لقد خطرت لى الفكرة من قبل ، لا على أنها حقيقة يمكن حدوثها ، بل على أنها بعض المستحيل .

كان الساعة قد بلغت العاشرة والربع عندما أسرعت إلى الملهى يحدونى أمل قوى مجـموم فى الربح ، أمل لم أجـربه قط من قبل . كان الملهى لا يزال عامـراً بكثيـر من الناس ، ولكنهم لا يبلغون نصف عددهـم فى الصبـاح . ففى هذه السـاعة لا يبـقى إلا المقامـرون الحقيقيـون ، أولئـك الذين لا يفقـهون من العالم إلا الروليت ، ولا يذهبون إلى الملهى إلا للقمار ، ولا يكادون يلتفتون إلى ما يجرى حولهم ، أو يهتمون لمفاتن تلك المواسم ، بل يلعبون من الصباح إلى المساء ، ولو استطاعوا لواصلوا اللعب من المساء

إلى الصباح ؛ فما كانوا ينفضون عن مائدة الروليت عندما ينتهى القمار فى منتصف الليل إلا كارهين . وعندما يوشك اللعب على الانتهاء وينادى الكروپييه : « الأدوار الثلاثة الأخيرة » فكثيراً ما يسارعون إلى المقامرة بكل ما فى جيوبهم ، وكثيراً ما يخسرون .

أما أنا فقد تقدمت إلى المائدة التى ربحت عليها الجدة ثم خسرت تلك المقادير الجسيمة من المال . وإذ كان الجمع حولها غير حاشد ، استطعت أن أقف بين اللاعبين بغير عناء . وعند ذلك أبصرت أمامى على القماش الأخضر كلمة « پاس » . كان « الپاس » صفاً من الأرقام من تسعة عشر إلى ستة وثلاثين . والصف الآخر من واحد إلى ثمانية عشر ، يدعى « مانك » ولكن ما لى ولهذا ؟ إننى لم ألاحظ ولم أسمع بالأرقام التى ظهرت فى الدور السابق . ولم أنتظر كما يفعل المقامر المتزن ، بل أخرجت من جيبى جنيهاتى العشرين وألقيتها على كلمة « پاس » التى اتفق أن وجدتها أمامى .

وصاح الكروپييه : اثنان وعشرون .

ربحت . وتركت الجميع على الپاس .

– واحد وثلاثون .

ربحت مرة أخرى . لقد أصبح معى ثمانون جنيها . وضعت الجميع على الأرقام الاثنى عشر الوسطى (والربح هنا ثلاثة أضعاف الرهان ، ولكن هناك احتمالين للخسارة ضد احتمال واحد للربح) .

– أربعة وعشرون . فأخذت ثلاث لفافات فى كل منها خمسون جنيهاً ، وعشر نقود ذهبية .

وفى شبه حمى أزحت الكومة كلها على الأحمر . ثم ثبت إلى نفسى فجأة . وتملكنى الرعب . كانت هذه هى المرة الوحيدة فى تلك الليلة التى اصطكت فيها ركبتاى وارتجفت يداى فزعاً ، فقد أدركت أنى يجب أن أربح ، وأن حياتى كلها معلقة بهذا الرهان .

– أحمر !

وتنفست الصعداء . ثم سرت فى جسمى رعدة محمومة حين تناولت الأوراق المالية. كانت جملة ما معى أربعة آلاف فلورين وثمانين جنيهاً . وكنت ما أزال قادراً على عدها .

وأذكر بعد ذلك أنى وضعت ألفى فلورين مرة أخرى على الأرقام الاثنى عشر الوسطى وخسرت ، ثم وضعت الذهب والثمانين جنيهاً على الأرقام نفسها وخسرت أيضاً . فكاد يطير صوابى ، وأمسكت ألفى الفلورين الباقية ووضعتها على الاثنى عشر الأولى بلا وعى ولا حساب . ولكنى أذكر أنى كنت أحس إحساساً ... إحساساً لا يشبهه إلا إحساس مدام بلانشار عندما هبطت من منطادها إلى الأرض .

– أربعة .

أصبح معى مرة أخرى ستة آلاف فلورين فوق رهانى الأصلى . ومرة أخرى نظرت حولى نظرة الفاتح ، ومرة أخرى لم أحس خوفاً وأنا أضع أربعة آلاف من هذه الآلاف الستة على الأسود . وحذا حذوى تسعة من اللاعبين ، ونظر الكروپييه حولهم وتبادلوا كلمات قليلة ، ولغط الحاضرون وهم يترقبون ما سيحدث .

وظهر الأسود . ولم أعد أذكر بعد تلك اللحظة رهاناً ولا حساباً . لا أذكر إلا أنى – فى شبه حلم – ربحت فى دور واحد ستة عشر ألف فلورين . وفى الأدوار الثلاثة التالية خسرت اثنى عشر ألفاً . ثم وضعت الآلاف الأربعة الأخيرة على « الپاس » . وكنت قد غدوت فاقد الشعور ، أنتظر وأتصرف تصرفا آليا . وربحت من جديد أربعة أدوار متتالية . وأذكر أيضاً أنه كان أمامى أكوام من الذهب ، وأن الاثنى عشر الوسطى كانت أكثر الأرقام ظهوراً ، فقد ظهرت ثلاث مرات أو أربع ، ثم اختفت مرة أو مرتين لتعود من جديد ثلاث مرات أو أربعاً متتالية . ومن الغريب أن هذا التواتر المدهش قد يحدث فى بعض الأحيان ، وهذا ما يحنق اللاعبين الحقيقيين الذين يلعبون والأقلام فى أيديهم . إن الحظ قد يمزح مزاحا مخيفا فى الروليت ولا أظن أنه كان قد مضى نصف ساعة منذ دخولى ، حين نبهنى الكروپييه إلى أنى ربحت ثلاثين ألف فلورين ، وأنهم سيقفلون الروليت حتى الغد ، لأن هذا المقدار هو أقصى حد لما يستطيع البنك أن يدفعه ، فأمسكت بذهبى جميعه وكدسته فى جيوبى ، وقبضت على رزم الأوراق المالية ، وأسرعت إلى مائدة أخرى فى بهو آخر ، والجمهور كله يتبعنى محتشداً ، ويفسح لى مكاناً أمام المائدة . وشرعت أقامر مرة ثانية معتمداً على الحظ ، مهملا كل حساب . ولست بقادر أن أدرك أى شىء أنقذنى من الدمار .

وفى بعض الأحيان كانت الأرقام تتراقص أمام عينى فأتعلق ببعضها ، وربما لزمت أرقاماً مخصوصة ، ولكنى لم أكن أسلك سبيل العناد والإصرار بل كنت سرعان ما أتحول عن هذه الأرقام دون أن أدرى ماذا أفعل . ولابد أنى كنت مضطرب القوى فأنى أذكر أن الكروپييه كثيراً ما أصلحوا لى أخطاء فاحشة فى اللعب . وكان صدغاى مخضلين ويداى ترتعدان . وكان بعض البولنديين يحومون حولى ، يقدمون إلى مساعدتهم ، ولكننى لم آبه لواحد منهم ، ولم يخنى الحظ قط . وكنت أسمع فى كل دور كلاما وضحكا من كل صوب .

– مرحى ! مرحى ! بل كان منهم من صفق .

لقد ربحت هنا أيضاً ثلاثين ألف فلورين ، وأقفلت الروليت إلى الغد .

وقال لى صوت عن يمينى ! أذهب ! كان يهودياً من فرنكفورت ، لم يغادرنى قط ، وكان يساعدنى أحياناً .

وتمتم صوت من اليسار : أذهب بربك ! وكانت سيدة متواضعة الملبس تناهز الثلاثين من العمر ، وتبدو عليها آثار الضنى ، ويعلوها شحوب المرض ، ولكنها ما تزال محتفظة بأثارة من جمال رائع .

وفى تلك اللحظة كنت أدس فى جيوبى الأوراق وأجمع الذهب . وعن لى أن أسقط آخر لفافتين من ذوات الخمسين جنيهاً فى كف السيدة الشاحبة دون أن يلاحظ ذلك أحد . فضغطت بأصابعها النحيلة على أصابعى علامة الشكر ، ولم يستغرق هذا سوى لحظة .

وبعد أن أخذت الجميع ، اتجهت فى حماس شطر « الثلاثين والأربعين » وجمهور هذه اللعبة أكثر أرستقراطية ، وهى تلعب بالورق وليست عجلة تدور ؛ والبنك يستطيع أن يدفع فى الليلة الواحدة مائة ألف تالر ، ولكن أكبر رهان هو أربعة آلاف فلورين كما فى الروليت . وكنت أجهل اللعبة تماماً ، اللهم إلا تلك المراهنات على الأحمر والأسود ، ولكنى اندسست بين اللاعبين ، وأحاط بى ذلك الجمع الذى كان يتبعنى . ولست أدرى الآن هل كنت أفكر فى پولينا عند ذلك تفكيراً ما . يخيل إلىّ أنى لم أكن أحس إلا لذة غامضة غريبة تخالجنى كلما أمسكت الأوراق المكدسة أمامى ودفعتها فى جيبى .

والحق أنى كنت كمن تسيره قوة خارقة . وفى هذه المرة بدت ظاهرة كثيرة الحدوث ، فكان الحظ إذا لزم الأحمر ، ظهر عشر مرات متتابعة . وقد اتفق منذ يومين أن ظهر الأحمر اثنين وعشرين مرة بغير انقطاع . وجلىّ أن لا أحد يراهن على اللون نفسه إذا ظهر اثنتى عشرة مرة متتابعة ، كما أن حذاق اللاعبين يكفون عن الرهان إطلاقاً حتى لا يتحدوا نزوات الحظ . ولقد يظهر الأحمر ست عشرة مرة ، فيلعب المبتدئون على الأسود ، ويضاعفون رهانهم ضعفين أو ثلاثة ، ولكنهم يخسرون .

وهكذا بدا لى عندما ظهر الأحمر سبع مرات متتابعة أن ألزم ذلك اللون . وربما كان مبعث ذلك هو الغرور ، فقد أردت أن أدهش الجميع بجرأتى . وربما كان مبعثه أيضاً أنى تملكتنى رغبة المخاطرة . فإن النفس إذا مرت بانفعالات كثيرة عادت لا يروى لها ظمأ إلى هذه الانفعالات ، بل تزيد ثورتها اشتعالا ، وتقبل على انفعالات جديدة أشد قوة ، وهكذا حتى تتداعى خائرة . ولو قد سمحت لى قوانين اللعبة أن أراهن بخمسين ألف فلورين دفعة واحدة لأقدمت على ذلك . ولكنى سمعت فجأة صيحات ترتفع بأن الأمر كله معجزة ، فقد ظهر الأحمر للمرة الأربعين !

وقال صوت ورائى : لقد ربح السيد حتى الآن مائة ألف فلورين .

وعدت إلى نفسى سريعاً . كيف ؟ ربحت فى الليلة الواحدة مائة ألف فلورين ! ولكن هذا يكفينى ! ... وانقضضت على الأوراق ، ووضعتها رزماً فى جيوبى ، واندفعت خارجاً من الملهى . وكان الناس يضحكون من حولى ، ويشيرون إلى جيوبى المنتفخة ، ومشيتى المترجحة من ثقل الذهب ، فقد كنت أحمل أكثر من ثمانية أرطال . وكان كثير من الأيدى ممدوداً إلىّ ، وأنا أوزع عليها الذهب بالقبضات . وأوقفنى يهوديان وأنا خارج ، وقالا لى :

– إنك فتى شجاع . ولكن لا تنس أن ترحل من المدينة فى الغد ، وإلا فقدت كل شىء .

لم أجبهما ، إذ كان الوقت قد تأخر ، وكان بينى وبين الفندق نصف فرست . إنى لم أخش اللصوص أو قطاع الطرق قط ، حتى فى طفولتى . ولا أستطيع أن أتذكر فيم كنت أفكر وأنا عائد . ولكنى أحسست بلذة مخيفة لا أدرى كيف أصفها : لذة النصر ، أو لذة الفوز ، أو لذة القوة . كذلك مرت بخاطرى صورة پولينا . وأخذت أذكر نفسى بأنى ذاهب إليها ، وبأنى سأكون معها بعد قليل ، وبأنى سأروى لها كل

شىء ، وأريها كل شىء . ولم أكد أذكر مرة واحدة ما قالته لى منذ قليل ولا لم تركتها ، ولا كل تلك الأحاسيس المتنوعة التى خالجتنى منذ ساعة ونصف لا تزيد . لقد بدت لى تلك الأحاسيس أشياء من الماضى ، أشياء استقرت وشيخت ، أشياء لا نعنى أنفسنا بها وقد كادت الحياة تبدأ لنا من جديد .

فلما شارفت نهاية الممشى هاجمنى الرعب فجأة ... وإن قتلتُ ؟ ... وإن سُرقتُ ؟ ... وتزايد فزعى مع كل خطوة ، فكدت أركض .

وانحدرت من الطريق فجأة ، فلاح لى فندقنا يتالق نوراً .

– شكراً لله – ها قد وصلت !

وارتقيت مسرعاً إلى غرفتى . وفتحت الباب . كانت پولينا ما تزال هناك على الأريكة ويداها معقودتان على صدرها ، فلما رأتنى حملقت إلىّ مبهوتة . لقد كنت ألوح لها دون أى كلام ، ولكن لم أصر على هذا .

وألقيت على المنضدة بما كنت أحمل من مال .

* * *

- ١٥ -

ولا أنسى كيف جعلت تحدق في وجهي دون أن تتحرك من مكانها أو تغير جلستها، فصحت وأنا أرمي بآخر اللفافات على المنضدة : لقد كسبت مائتي ألف فرنك !

كانت كومة الأوراق والنقود تغطي المنضدة ، ولم أكن أستطيع أن أحول بصري عنها ، لقد أنستني پولينا نفسها ، وأخذت أرتب الكومة ، وأفرز الصكوك ، وأميز الذهب ، ثم خلطت الجميع ، ثم جعلت أذهب وأجئ في الغرفة حالماً ، ثم بدأت أعد ثم ألقيت نفسي على الباب ، وأغلقته مرتين ، وقلت وأنا ذاهب إلى حقيبتي الصغيرة :

– أأضع المال هنا حتى الغد .... وكررت وأنا ألتفت نحو پولينا : حتى الغد فقط .

وفي هذه اللحظة تذكرتها ، لقد ظلت پولينا ساهمة تتبعني نظرها ، كان غريباً ذلك التعبير المرتسم على وجهها كان كريهاً ، بل لا أخطئ إذا قلت إنه كان ينم عن البغضاء واقتربت منها وقلت لها :

– پولينا ، هاك خمسة وعشرين ألف فلورين ، أكثر من خمسين ألف فرنك ، إقذفها غداً في وجه دي جريية ، فلم تجبني .

– إن شئت حملتها إليه غداً بنفسي في ساعة مبكرة ، أتريدين ذلك فانفجرت ضاحكة ، وظلت تضحك طويلاً ، ونظرت إليها في ذهول وألم ، لقد كانت تلك الضحكة الساخرة التي ألفتها في الأيام الأخيرة ، تلك الضحكة التي ترسلها كلما حدثتها بحبي المشتعل وأخيراً كفت عن الضحك ، وعلتها الكآبة ، ونظرت إلى من تحت حاجبيها ، ثم قالت بإحتقار :

– لن آخذ منك نقوداً .

– لماذا ؟ لماذا يا پولينا ؟

– لأني لم أعتد أن أقبل المنح .

– إني أقدمها إليك كصديق ، وأقدم إليك معها حياتي .

– فألقت عليَّ نظرة طويلة فاحصة ، كأنها تريد إن تقرأ ما في أعماق ضميري ، وعادت تقول بابتسام :

– إنك تغلي الثمن ، إن حبيبة دي جرييه لا تساوي خمسين ألف فرنك .

– پولينا كيف تستطيعين أن تقولي لي هذا الكلام ؟ أأنا مثل دي جرييه ؟

فصرخت وعيناها متقدتان :

– إنى أبغضك ! أجل .. أجل! ... إنى لا أحبك أكثر مما أحب دى جرييه ..

ثم أخفت وجهها بين يديها وتملكتها نوبة عصبية ،وأسرعت إلى جانبها وقد خطر لى أن قد أصابها فى غيبتى أمر غريب لا يتصل بى ، لقد كانت أشبه بمجنونة كانت تصبح بصوت يقطعه النحيب :

– أتريد أن تشترينى ؟ أتريد أن تشترينى بخمسين ألف فرنك مثل دى جرييه ؟

أخذتها بين ذراعى ، وقبلت يديها وقدميها ، وسجدت أمامها .

ومرت النوبة .

وثابت إلى رشدها ، فوضعت كلتا يديها على كتفى ، وحدقت فى وجهى ملياً كأنها تستشف ما وراءه ، قلت لها شيئاً ولكنها لم تسمعه ، وكان وجهها مظلماً كئيباً ، فأشفقت عليها أن يصيبها مس ، وأخيراً جذبتنى إليها .

وسرت على قسماتها ابتسامة واثقة ، ثم دفعتنى فجأة وراحت تحدق فىَّ بيأس مرة أخرى وعادت فألقت نفسها علَّى معانقة وقالت :

– ولكنك تحبنى ؟ أليس كذلك ؟ لقد أردت أن تقاتل البارون طاعة لأمرى ؟

وأمسكت ، وراحت تضحك كأنها تذكرت شيئاً حبيباً إلى نفسها ولكنه يبعث على الضحك، كانت تبكى وتضحك فى وقت واحد فماذا أعمل ؟ لقد أحسست دبيب الحمى ، ولم أعد أفهم ما تقول كانت تهمس فى لثغة كلثغة المحموم ، وكأنها تريد أن تخبرنى بكل شئ فى كلمات قليلة ، وبين ذلك الهذيان ، كان تبتسم تلك البسمة التى بدأت أفزع منها . وكانت تكرر : كلا أنت حبيبى ، أنت من أعتمد عليه .

ووضعت يديها من جديد على كتفى ، وهى تحدق فى عينى ، وتكرر !

– أنت تحبنى ! أنت تحبنى ! ... هل تحبنى دائماً ؟

ولم أستطع أن أحول عينيى عنها . ما رأيتها ، قط فى مثل هذه الحالة من الخضوع والحب حقاً لقد كانت تلك الحالة وليدة الهذيان ، ولكن ... ولكنها لاحظت نظرتى المتقدة حباً ، وابتسمت لها ، وفجأة ذكرت المستر استلى ، وطفقت تتحدث عنه طويلاً ، بيد أنى لم أستطع أن أفهم كل ما حدثتنى به ، ولا سيما حين كانت تشير إلى حوادث قريبة العهد ، والظاهر أنها كانت تهزأ به ، فقد جعلت تكرر أنه ينتظرها وسألتنى هل أعلم إن كان واقفاً الآن تحت النافذة أم لا ؟ «أجل . أجل . إنه هناك . أفتح النافذة . وأنظر » .

ودفعتنى نحو النافذة . ولكنى ما كدت أصدع بما أمرت حتى أنفجرت ضاحكة ، فلبثت بجانبها وهى تعانقنى ثم قالت فجأة وكأنما خالجها فكرة أليمة – أترحل غداً ؟ وفكرت ملياً .

ونرى أن نلحق بالجدة ؟ أعتقد أننا سندركها فى برلين . ماذا تظنها .

قائلة عندما ترانا ؟ والمستر أستلى ؟ لا أظنه يقفز من قمة شلاجنبرج لأجلى ، إنى واثقة من هذا . أتعلم أين يذهب فى الصيف القادم ؟ إنه عازم على الذهاب إلى القطب الشمالى لأبحاث علمية ! وهو يقترح علىّ أن أصحبه ! ها ها ها ها ! وهو يقول أيضا إننا نحن الروس لا نستطيع أن نعتمد على أنفسنا فى علم أو عمل وإننا مدينون بكل شئ للأوربيين ... ولكنه طيب القلب جداً . فهو لا يلوم الجنرال ، بل يقول إن بلانش ... الحب .... لست أدرى ... لست أدرى ....

وكفت عن الكلام كأنما أحست حيرة تخالجها بعد أن قالت ما قالت .

– يا لهم من مساكين ! إنى أرثى لهؤلاء الناس ، وللجدة أيضا . ولكن متى تقتل دى جرييه ؟ لا أظنك عازما على قتله حقاً ؟ أيها المجنون ! أتظن أنى أتركك تقاتله هو أو البارون ؟ – وهنا انفجرت ضاحكة – كم كنت مضحكا وأنت تكلم هذين البارونين ! لقد كنت أراقبك طيلة الوقت وأنا جالسة فى مكانى . والغريب أنك كنت متردداً فى الذهاب ؟ آه ! كم ضحكت !

ثم قبلتنى وعانقتنى مرة أخرى ، وألصقت وجهها بوجهى فى حنان عجيب . ولكنى لم أسمعها ولم أرها . فقد كان رأسى يدور ...

. . . .

ولابد أن الساعة كانت السابعة صباحاً عندما انتبهت ، فقد كانت الشمس تضئ غرفتى ، وكانت پولينا جالسة إلى جانبى تنظر إلىّ نظرة غريبة ، كأنها أفاقت من حلم مضطرب ولما تجمع خواطرها المشردة . وكانت هى الأخرى قد استيقظت منذ قليل ، وكانت تحدق بين الفينة والفينة فى النقود التى على المائدة .

كنت مصدع الرأس . أردت أن أمسك يد پولينا ، ولكنها دفعتنى ونهضت واقتربت من النافذة ، وفتحتها ، وأشرفت منها تستقبل النسيم . وظلت كذلك بضع دقائق ، لاتلتفت إلىّ ولا تسمع ما أقول . فسألت نفسى : ماذا – سيحدث ؟ كيف سينتهى كل هذا ؟ ورأيتها وقد تركت النافذة فجأة ، وسارت نحو المنضدة ، وقالت وهى تنظر إلىّ ببغضاء غريبة ، وشفتاها ترتعدان من الغضب :

– حسناً أعطنى الآن خمسين ألف فرنك .

– پولينا ! أتقولين هذا مرة أخرى ؟

– لعلك متردد ؟ ها ها ها ! هل أخذت تندم عليها منذ الآن ؟

كانت الخمسة والعشرون ألف فلورين ما تزال مكومة على المائدة . فأخذتها وأعطيتها إياها .

سألتنى وعلى وجهها تعبير قبيح :

– إنها لى . أليس كذلك ؟

– إنها لك منذ حصلت عليها !

– حسناً . هاك فرنكاتك الخمسين ألفا !

ورفعت يدها ، وقذفت برزم الاوراق إلى وجهى ، وخرجت تعدو ....

لاشك أنها لم تكن كاملة العقل عند ذلك . ولكنى لا أستطيع أن أفهم سر اضطرابها . لقد كانت حالتها غريبة بعض الغرابة طيلة الشهر السابق ، ولكن ماذا بلغ بها إلى هذه الحال ؟ أهو الندم على مجيئها إلىّ ؟ هل تركتها ترى من اغترارى بهذه السعادة أكثر مما كان ينبغى أن ترى ؟ هل اعتقدت أنى ، وقد ازدهتنى تلك الثروة المفاجئة ، اردت أن أتخلص منها مثل دى جرييه ، بعد أن أعطيها خمسين ألف فرنك ؟ والله ما فكرت فى شئ من ذلك ولكنى أعتقد أن الامر كله يرجع إلى كبريائها التى دفعتها إلى إتهامى وإهانتى وإن كانت هى لم تفهم أنها أهانتنى . لقد كنت فى نظرها صورة من دى جرييه فجعلت انتقامها منه نكالا بى . صحيح إن هذا لم يكن إلا نتيجة الحمى ، وإنى كان يجب ألا أنسى ذلك . ولعلها لن تغفر لىّ الآن نسيانى إياه . ولكن عند ذلك ، عند ذلك ؟ ألم تكن تدرك ما تصنع عند ما جاءت إلى بخطاب دى جرييه ؟

على كل حال فقد جمعت الأوراق والذهب جميعاً ووضعتها تحت حشيتى ، وخرجت بعد رحيل پولينا بعشر دقائق . وكنت واثقاً أنها عادت إلى مسكنها ، ولهذا اعتزمت أن أتسلل إلى هناك وأسأل الخادم عن صحة « السيدة الصغيرة » وكم كانت دهشتى عندما علمت من الخادم أن پولينا لم تعد بعد ، وأن الخادم نفسها كانت موشكة أن تأتى إلى لتبحث عنها عندى ! قلت لها :

– لقد خرجت من عندى منذ قليل ، بل منذ عشر دقائق ! فأين يمكن أن تكون ؟

ونظرت إلىّ الخادم فى لوم .

كانت پولينا قد أصبحت حديث الفندق بأجمعه . فكانوا يتهامسون فى إدارة الفندق بأن الفرويلين (الآنسة) خرجت من الفندق منذ السادسة صباحاً ، وركضت حاسرة الرأس شطر فندق إنجلترا . فهل كان معلوماً إذن أنها أمضت الليلة فى غرفتى ؟ على كل حال فإن الأحاديث عن أسرة الجنرال لم تكن تنقطع . وكان معلوما أن الجنرال على شفا الجنون ، وكان يقال أنه يذرع الفندق باكياً ، وكان يقال أيضا إن السيدة العجوز هى أمه ، وإنها جاءت من روسيا خاصة لتمنع زواجه بالمدموازيل دى كومنج ، ولتحرمه من ميراثها إن أبى أن يخضع ، وإنها أضاعت كل نقودها عمداً فى الروليت ، حتى لا تبقى له شيئاً .

وأخذ مدير الفندق يكرر فى حنق وهو يهز رأسه : هؤلاء الروس ! بينما جعل الواقفون يضحكون ، والكاتب يعد حسابه . وكانوا يعلمون أيضاً بربحى البارحة ، وقد كان كارل ، خادم الطابق الذى أسكنه ، أول من هنأنى ولكن هذا كله لم يكن يعنينى . لقد ذهبت أعدو إلى فندق إنجلترا .

كان الوقت مبكراً جداً ، ولم يكن المستر أستلى يستقبل الضيوف فى مثل ذلك الوقت . فلما علم بمن يطلبه ، خرج إلى الردهة واستقبلنى فى صمت ، وحدجنى بنظرة ثابتة ، منتظراً ما سأقول . سألته عن پولينا ، فأجاب دون أن ينظر إلى وجهى :

– إنها مريضة .

– إذن فهى عندك ؟

– أجل . إنها عندى .

– أو عازم أنت على أن تبقيها هنا ؟

– أجل . إنى عازم على ذلك .

– ولكن هذه فضيحة يا مستر أستلى . إن هذا غير ممكن ! ثم إنها مريضة جداً ، وقد لاحظت ذلك بلا ريب .

– نعم لاحظته . وقد قلت لك الآن إنها مريضة . ولو لم تكن مريضة لما قضت الليلة عندك .

– أأنت تعلم هذا أيضاً ؟

– إنى أعلمه . فقد كان عليها أن تأتى إلىّ أمس لآخذها إلى قريبتى . ولكنها كانت مريضة ، وقد اختلط عليها الأمر فذهبت إليك .

– أتظن هذا ؟ حسناً . إنى أهنئك يا مستر أستلى . ولكنك أوحيت إلىّ بفكرة . ألم تمض الليلة تحت نافذتى ؟ لقد اضطرتنى المس پولينا أن أفتح النافذة ليلا لأرى أأنت هناك . وكانت تضحك كثيراً ؟

– حقاً ؟ كلا ، لم أكن تحت النافذة . ولكنى كنت أنتظرها فى الردهة ، وأتمشى حول الفندق .

– يجب أن يعودها الطبيب يا مستر أستلى .

– أوه ، أجل ! إنى استدعيت طبيبا . أما إذا ماتت ، فسأعدك مسئولا عن موتها !

ألجم الدهش لسانى ...

– معذرة يا مستر أستلى ... ماذا تقول ؟

– دعنا من هذا . أصحيح أنك ربحت أمس مائتى ألف تالر ؟

– بل مائة ألف فلورين .

– حقاً ؟ إذن فأركب القطار هذا الصباح وأرحل إلى باريس .

– لماذا ؟

فأجاب المستر أستلى وكأنه يردد عبارة محفوظة من كتاب :

– لأن الروس إذا أثروا ذهبوا إلى پاريس .

– ولكن ماذا أصنع فى پاريس فى الصيف؟ إنى أحبها كما تعلم يامستر أستلى . أنى أحبها !

– حقاً ؟ أنا واثق أنك مخطئ . ولكنك إن مكثت هنا ستفقد كل ماربحت ، ولن تجد مالاً يعينك على الذهاب إلى پاريس . وداعاً . إنى واثق أنك سترحل اليوم .

– حسناً . وداعاً . ولكنى لن أذهب إلى پاريس . فكر يامستر أستلى فيما سيحدث فى منزل الجنرال . فالحقيقة .. إن هذه المغامرة مع المس پولينا ... لا ! إن هذا سيصبح أحدوثة المدينة كلها !

– نعم . ربما كان الأمر كما تقول . ولكنى أعتقد أن الجنرال لديه ما يشغله . ثم إن المس پولينا حرة فى أن تذهب حيث تشاء . أما هذه الأسرة فيمكن أن يقال إنها قد زالت من الوجود .

وذهبت وأنا أضحك بيني وبين نفسي من ثقة هذا الإنجليزي بقرب رحيلي إلى باريس ، وأحدث نفسي أن لعله يريد أن يقتلني في مبارزة إن ماتت پولينا . أجل ، إن هذا ما يريده !

ولقد كنت أرثي لپولينا . ولكني يجب أن أعترف بأني منذ البارحة ، أي منذ اللحظة التي جلست فيها إلى مائدة القمار ، دخل حبي لها في دور جديد . إني أفهم الآن ، أما في ذلك الحين ، فلم أكد أتبين الأمر . أحقاً أني خلقت مقامراً ؟ أوَ كان حبي لها خدعة كبرى ؟ كلا ! أقسم بالله أني أحببتها مخلصاً ، وأني مازلت أحبها ! ولكني كنت مقبلاً على تجربة غريبة كريهة .

كنت ذاهباً إلى مسكن الجنرال ، عندما سمعت باباً يفتح بالقرب مني ، وصوتاً يناديني باسمي . أنها الأرملة دي كومنج تدعوني باسم فتاتها للدخول . دخلت إلى مسكن المدموازيل بلانش ، وكان من غرفتين ، فسمعت ضحكة وصيحة صغيرة ، تنبعثان من حجرة النوم . كانت المدموازيل بلانش تستيقظ من نومها . :

– آه ! إنه هو ! تعال ياصغيري ! أصحيح أنك ربحت جبلاً من الذهب والفضة ؟ إني أفضل الذهب .

فأجبتها مبتسماً :

– أجل . ربحت .

– كم ؟

– مائة ألف فلورين .

– يالك من غبي ! ولكن اقترب . إني لا أسمع شيئاً . سوف نعيش في أبهة . أليس كذلك ؟

دخلت الغرفة . وكانت ملتفة بغطائها الساتاني الوردي ، الذي كانت تبرز منه كتفاها الذهبيتان المدورتان البديعتان ، كتفان كهذه الأكتاف التي يراها المرء في الأحلام ، ينشق عنهما قميص من الحرير الأبيض الشف ، يبرز لون بشرتها الحار . صاحت بي عندما رأتني :

– يابني ! ألك قلب ؟

وضحكت ضحكة حلوة . وكان بشرها يبدو طبيعياً دائماً ، بل كان يلوح صادقاً .

وأردت أن أستعين بما حفظته عن « كورنيً » ولكنها راحت تثرثر :

– هلُم . أبحث عن جوربى أولاً وأعنى على لبسهما . وإذا لم تكن غبياً فإنى سأصحبك إلى پاريس . أنت تعلم أنى راحلة على الفور .

– على الفور ؟

– بعد نصف ساعة .

كانت الأمتعة محزومة حقاً ، والحقائب مقفلة . وكانت القهوة قد قدمت من زمن طويل :

– حسنا . سنرى پاريس . خبرنى ماذا عسى أن يكون الأوتشيتل « المعلم » عندكم ؟ لقد كنت مضحكاً عندما كنت « معلماً » . أين جورباى ؟ هيا . ساعدنى إذن!

وأرتنى قدماً معبودة ، قدم تمثال . قدماً بديعة لا كهذه الأقدام التى تفقد كل جمالها حين تفارق أحذيتها الصغيرة . وبدأت أضحك وساعدتها على لبس جوربها ، بينما بقيت هى فى الفراش تثرثر .

– حسناً . ماذا تصنع إذا أخذتك ؟ لا بد أن آخذ منك أولاً خمسين ألف فرنك . ستعطينى إياها فى فرنكفورت ، ثم نذهب إلى باريس . وهناك نعيش سوياً ، وأريك النجوم فى وضح النهار ، سترى نساء لم ترهنَّ قط .

– مهلاً . فلنقل إنى أعطيتك خمسين ألف فرنك . ماذا يبقى لى بعد ذلك ؟

– مائة وخمسون ألفاً ! ثم إنى سأعيش معك شهراً ، بل شهرين ، بل ربما أكثر من ذلك ... وسننفق فى هذين الشهرين فرنكاتك المائة والخمسين ألفا . هذا مفهوم . أنت ترى أنى فتاة شريفة ، وأنى أنذرك من أول الأمر ... سأريك النجوم فى وضح النهار .

– كيف ؟ أتعنين أننا سننفق الجميع فى شهرين ؟

– أجل . لعل هذا يخيفك ؟ آه ، أيها العبد النجس ! ألا تعلم أن شهراً من هذه الحياة أغلى من وجودك السابق كله ؟ شهر ، ثم الطوفان ! ... ولكنك لا تستطيع أن تفهم . أذهب ، فأنت لا تستحق ما أمنحك ... آى ! ماذا تصنع ؟

كنت ألبسها جوربها الثانى ، فلم أستطع أن أمنع نفسى من تقبيلها . فسحبت ساقها بخفة ، وضربتنى بقدمها فى وجهى . ثم طردتنى من الغرفة .

– حسناً يا أوتشيتل . سأنتظرك إذا أحببت . ثم صاحت بى وأنا ذاهب : سأرحل بعد ربع ساعة .

عندما عادت إلى غرفتي كنت أحس بشبه دوار . أكنت ملوماً لأن بولينا قذفت بالأوراق إلى وجهى وآثرت عليّ المستر أستلى ؟ كانت بعض الأوراق ما تزال ملقاه على الأرض فألتقطتها ، وفى هذه اللحظة فتح الباب ، وظهر مدير الفندق نفسه . لم يكن قد أنعم على من قبل بنظرة ، والآن جاء يقدم إليّ مسكن الكونت « و ،..... » الذى رحل عنه منذ حين .

فكرت بضع لحظات . ثم صحت فجأة :

– عليّ بالحساب . إنى راحل بعد عشر دقائق !

وقلت لنفسى : إلى باريس ! إذن فإلى باريس ! كل نبيل لابد أن يذهب إلى باريس .

وبعد ثلاث دقائق كان ثلاثتنا فى مقصورة خاصة بالقطار : بلانش والأرملة دى كومنج ، وأنا . كانت بلانش تضحك كلما نظرت إلى ، والأرملة دى كومنج تشاطرها الضحك دون إسراف . وكنت وحدى أقل الجماعة مرحاً ، فقد انقسمت حياتى كلها إلى شطرين . ولكنى تعلمت منذ البارحة ، أن أعلق مصيرى بورقة . لعل هذه الثروة الضخمة هى التى شلت إرادتى لعلى لم أكن أرجو خيراً من هذا ! وكان يبدو لى مع ذلك أن مسرح حياتى لم يتغير إلا لأمد قصير . فبعد شهر سأعود ، وعندئذ ... وعندئذ نسوى حسابنا يامستر أستلى ! إنى لا أزال أذكر عمق أحزانى فى تلك اللحظة . ومع ذلك فقد حاولت أن أضحك مع هذه المجنونة الصغيرة ! ...

صاحت دون أن تكف عن الضحك :

– مأذا تريد بعد ؟ كم أنت غبى ! حسناً ، حسناً ، سنحرق فرنكاتك المائتى الألف ! ولكنك ستكون سعيداً كملك صغير ! سأربط بنفسى رباط عنقك ، وسأقدمك إلى «هورتنس» وبعد أن ننفق النقود جميعها ، ستعود إلى هنا لتخرب البنك مرة أخرى . ماذا قال لك اليهوديان ؟ المهم أن تكون شجاعاً ، وإنك لشجاع . ستعود إلى باريس تحمل إلى المال .. عدة مرات أما أنا فأريد خمسين ألف فرنك ، وعندئذ ...

فسألتها : والجنرال ؟

– الجنرال ؟ إنه يخرج كل صباح في هذه الساعة ليشترى لى طاقة من الزهر كما تعلم . وقد طلبت منه اليوم أزهاراً . وعندما يعود سيجد « الطائر قد هرب » وقد يطير وراءه ! هاهاها ! لا بأس علىَّ من هذا ! سيكون خادماً لى فى باريس ، بينما يدفع المستر أستلى حساب فندقه هنا .

وهكذا رحلت إلى مدينة النور !

* * *

- ١٦ -

ماذا أقول فى باريس ؟ لقد كان الأمر كله هذيانا أو جنوناً . إنى لم أعش فيها غير ثلاثة أسابيع ، أنفقت فى أثنائها مائة ألف الفرنك التى كانت لى . أما مائة الألف الأخرى ، فقد أعطيتها لبلانش نقداً : خمسين ألفا فى فرنكفورت وخمسين ألفا بعد ذلك بثلاثة أيام فى باريس .

- أما مائة الألف الباقية ، فسنأكلها سوياً عزيزى الأوتشيتل .

كانت تدعونى دائماً ، عزيزها الأوتشيتل .

ولن تجد نفساً أجشع ولا أبخل من هذه الفتاة . فقد كانت قليلة الاسراف فى ثروتها الخاصة ، أما مائة ألف الفرنك التى كانت لى ، فقد صرحت لى ذات يوم أنها محتاجة إليها لتستطيع الإقامة فى باريس . وقالت : بهذا استقر نهائياً . ولا يستطيع أحد أن يعترض سبيلى - فترة طويلة على الأقل .

وكانت النقود بيدها هى ، فلم أر من هذا المائة الألف إلا ظلها . ولم تكن تدعنى أحمل معى أكثر من مائة فرنك . فقد كانت تقول : لماذا تريد النقود فى جيبك ؟ إنك لن تجد ما تصنع بها !

ولم أكن أجادل !

ولكى تنتقم منى كانت تنفق هذه النقود دون حساب على مسكنها ، وكنا كلما دخلناه قالت لى بجد : انظر ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل إذا استعاض عن الثروة الباذخة بالذوق والاقتصاد ! ولكن هذا الذوق وذاك الاقتصاد كان يساويان خمسين ألف فرنك كاملة . أما الشطر الباقى من مائة ألف الفرنك التى كانت « لى » فقد ابتلعتها الجياد ، والمركبات ، والحفلات الراقصة ، التى كانت تدعو إليها هورتنس وليزبت وكليوباترا (وهن نساء على حظ كبير من الجمال) . وفى أثناء هذه الحفلات كنت ألعب ذلك الدور السخيف دور « رب البيت » ، أستقبل فى أدب تجاراً ثقلاء حديثى النعمة ، وضباطا شباناً ذوى قحة وغباء شنيعين، وكتاباً صغاراً بائسين، وصحفيين متسكعين .. وكلهم يلبسون السترة الطويلة من أحدث طراز ، والقفاز الأصفر الفاقع ؛ وكلهم يلوحون لى أسخف من مواطنينا أهل بطرسبرج . ومع ذلك .. فقد بلغت بهم القحة أنهم كانوا يحاولون السخرية منى . فكنت أروح عن نفسى بشرب الشمبانيا ، ثم آوى

إلى حجرة منعزلة . ولكنى وجدت الأمر كله بغيضاً ثقيلاً على النفس . وكانت بلانش تقول : إنه « أوتشيتل » . لقد كسب مائتى ألف فرنك ، ولولاى ما عرف كيف ينفقها . سيعود بعد بضعة أيام « أوتشيتلا» كما كان . ألا تعرفون عملا يناسبه ؟ يجب أن نصنع شيئاً من أجله ! وكثيراً ما كنت أشرب الشمبانيا عندما تزدحم فى صدرى الهموم، فقد كنت أعيش فى أشد البيئات حرصاً على المال ، حيث يعد كل مليم ويوزن ! وقد لاحظت فى الأسبوعين الأولين أن بلانش كانت تبغضنى . حقاً إنها كانت تلبسنى باناقة ، وكانت تربط رباط عنقى بنفسها ، ولكنها لم تكن تخفى احتقارها لى عندما تضمنا جدران أربعة .غير أنى لم أهتم لذلك أدنى اهتمام ، وكنت أذهب كل مساء بمللى وكآبتى إلى قصر الزهو ، حيث أسكر وأرقص رقصة الكانكان ، التى لم يكونوا يحسنونها ، والتى اكتسبت فيها مهارة مرموقة . واخيراً فهمتنى بلانش . لقد كانت تظن أنى سأتبعها بقلم وقرطاس ، أكتب ما تنفقه وما تبقيه ، وما تدفعه وما تختلسه ؛ فكانت تعد جواباً لكل ملاحظة تنتظرها منى . ولكنى لم أكن لأبدى ملاحظة ما خشية أن أجلب على نفسى الكدر كل حين ، فأخذت تبدهنى بالرد وتفعل ذلك أحياناً فى عنف شديد ، وأنا صامت ممدد على الأريكة ، وعيناى مثبتتان على السقف . عند ذلك تشتد دهشتها ، وتروح تبحث عن تفسير لعدم مبالاتى ، فتعزوه إلى الغباء الذى لا يستغرب من « أوتشيتل » ، وتكف عن ردودها ، معتقدة أنها تحاول عبثاً أن تجعلنى أفهم أشياء يقصر عن إدراكها ذكائى . فكانت تترك لى الحجرة ، ثم تعود بعد دقائق لتستأنف الهجوم . وكانت هذه المشاحنات الصامتة تتجدد كلما اقتطعت من نقودى قدراً كبيراً لتنفقه فيما لايناسب مكانتها. فمن ذلك أنها استبدلت بجواديها القديمين جوادين آخرين نظير ستة عشر ألف فرنك .قالت فى هذه المناسبة وهى تقترب منى: «حسناً ياصغيرى ! ألا يغضبك هذا ؟» فدفعتها عنى وقلت لها وأنا أضغط على كل مقطع : « كلا ولكنى متعب » غير أن هذا أدهشها دهشة عظيمة فجلست إلى جانبى وقالت :

– إنى لم أعزم على شرائهما إلا لأننا نستطيع بيعهما فى أى وقت نريد ، ولن يقل ثمنهما عن عشرين ألف فرنك .

– أجل . أجل . جوادان أصيلان ، ومركبة فخمة . إننى راضٍ فلا تعيدى على سمعى هذا الكلام .

– إذن فلست غاضباً ؟

– ولماذا أغضب ؟ إنك تحسنين صنعاً بشرائك ما أنت فى حاجة إليه ، فسينفعك هذا كله فيما بعد . إن أردت أن تصبحى مليونيرة ، فيجب أن تنفقى كما ينفق أصحاب الملايين . إنى لا أرى مائة ألف الفرنك التى لدينا إلا بداية الثراء . أول الغيث .

فهتت بلانش ، إذ لم تكن تنتظر منى هذه التصريحات ، بل كانت تنتظر عاصفة من السخط والاحتجاج .

– مـاذا ؟ ياللفتى ! أأنت الـذى يقـول هذا ؟ إنك إذن لذو قلب ! أتعلم يابنى أنك وإن كنت « أوتشيتلا » فقد كان يجب أن تولد أميراً ، ألا تأسف إذن لأن النقود أنفقت بهذه السرعة ؟

– آه ! الخير فى أن تسرع بالزوال !

– ولكن ... أتدرى ... بل قل لى : أترى أنت حقاً ؟

إنك تحتقر النقود أكثر مما يجدربك . ماذا تصنع بعد هذا ؟ هه ؟

– بعد هذا ؟ سأذهب إلى همبورج ، وسأربح مائة زلف فرنك مرة أخرى .

– أجل . أجل . هو ذاك . هذا بديع . إنى واثقة أنك ستربحها ... وأنك ستأتينى بها ! ... مـادمت هكذا فسـوف أحبك دائماً ، ولا أخـونك أبداً . أرأيت ؟ إنى لم أكن أحبك حتى الآن ، فقد كنت أظنك لست إلا أو تشتيلا ، أو شيئًا كالخادم . ولكنى كنت وفيه لك دائماً لأنى فتاح مخلصة .

– تكذبين ! وما بال ألبير ، ذلك الضابط الشاب الأسمر ؟ ... لست غافلا عنه .

– أوه ! أوه ! ولكنك ...

– لا ، لا ! لا تكذبـى ! أتظنينى أغضب لمثـل هـذا ؟ إنى أسخر منكما أنى لا أريد أن أطرده ، ما دمت تعرفينه وتحبينه من قبل أن نتلاقى . ولكن إياك أن تعطيـه شـيئاً من النقود ، أتسمعين .

فصاحت بفرح شديد :

– إذن فأنـت لا تغضـب لهـذا أيضـاً ؟ إنـك فيلسـوف حق أجل ، إنك فيلسوف حق ! حسناً ، سأحبك ، سأحبك ، سترى . ستكون راضياً .

واحق أنها منذ تلك اللحظة تعلقت بى وحدى ، وهكذا مرت أيامنا العشرة الأخيرة ، أما النجوم التى وعدت أن ترينى إياها فى وضح النهار ، فلم أر منها نجماً ، ولكنها وفت بوعدها فى أمور أخرى ، وقدمتنى إلى هورتنس وهى امرأة فريدة فى بابها ، كنا ندعوها فيما بيننا بالفيلسوفة تيريزاً .. .

ولكنى لن أطيل فى وصف تلك الأيام ، فإنها قصة أخرى لا أريد أن أكتبها هنا لم أكن لأفكر إذ ذاك إلا فى الوصول إلى النهاية بأسرع ما يستطاع ، وقد أدهشنى أن مائة ألف الفرنك دامت شهراً ، فإن بلانش أنفقت منها ثمانين ألفاً على زينتها وملابسها ، فلم يبق إلا عشرون ألفاً نعيش بها ، وقد أصبحت بلانش قرب النهاية شبه أمينة معى ، فلم تعد تكذب علىّ فى شىء ، وأنبأتنى بأن الديون التى اضطرت إلى اقتراضها لم تكن باسمى قالت : "لم أرد أن أجعلك مسئولاً عن كل ما أشتريه أو أقترضه ، إننى أشفقت عليك . ثق أن سواى ما كانت لتحجم عن هذا العمل ، ولولاى لأصبحت الساعة فى السجن ألا ترى أنى محبة لك وأنى نقية القلب ؟ ألا ترى أيضاً أن زواجى اللعين بالجنرال سيكلفنى كثيراً ؟ " حقاً لقد حدث الزواج ، وكان ذلك عندما أوشك شهرنا على الانتهاء ، وأعتقد أن بقية مالى أنفقت فى هذا السبيل ، وبذا انتهى مقامى مع الفرنسية ، وانزويت من مسرح حياتها .

وإليك التفصيل :

لقد وصل الجنرال بعد شهر من إقامتى فى باريس ، وبادر إلى المدموازيل بلانش ليزورها ، فمكث عندنا ضيفاً لا يبارح ، لو أنه قد استأجر مسكناً خاصاً به ، واستقبلته بلانش فى مرح وضحك ، بل إنها عانقته أيضاً ؛ وجعلته يمشى فى ركابها فى كل مكان ، فى الغابة أو فى البولڤار أو فى المسرح ، ويصحبها كلما ذهبت إلى أصدقائها ، وكان هذا عملاً ما يزال الجنرال قادراً على القيام به ، فقد كان فخم المنظر ، رائع المحضر ، مديد القامة ، مخضوب العارضين ، مفتول الشاربين ، وسيماً على ما بوجهه من تجاعيد ، وكان إلى ذلك ارستقراطى المسلك ، يبدو فى سترته الطويلة وأنواطه الكثيرة مهيباً فخماً ، حقاً إن مثل هذا الفارس كان جديراً بألا تقتحمه الأعين ، بل كان جديراً بأن يعرض فى البولڤار أما الرجل المسكين فلم تكد الدنيا تسعه من فرط السرور ، فإنه لم يكن ينتظر لقاء كهذا ، بل . إنه جاء إلى باريس وهو واجف

القلب خشية أن تطـرده بلانـش . لذلك كـان فى نوبـة مستمرة من السعادة المحمومة حرصتُ على ألا أفسـدها عليـه وقـد علمـت مـن بعـد أن رحيلنا عن رولتنبرج تركه فى غشية ، وأنه أمضى أسبوعاً يهذى ، واستدعى له الأطباء ، وأجبر على اتباع علاج دقيق ، ولكنه هرب ذات يوم قـادماً إلى باريس ، إذ كـان علاجـه الوحيد النافع هو أن يصير خـادماً لبلانش ، ولا شك أن استقبالها له أفاده كثيراً ، غير أن أعراض ذلك المرض لازمته طويلاً رغم ما أصبح فيه من سرور ولذة . فقد حـرم نعمـة التفكـير المسـتقيم ، بل استحال عليه أن يشترك فى أى مناقشة جدية ، ولم يعد قادراً إلا على أن يقول عقب كل كلمـة من محدثه : هِمْ ! وهو يومئ برأسه مـوافقاً ، وربما ضحك ، ولكن ضحكته كانت عصبية شبه هستيرية ، وربما جلس ساعات وهو كئيب كأنما أعاره الليل ظلامه الحالك وحاجباه الغـزيران معقودان على عينيه ولم يكن يشعر بأكثر ما يمر عليه ، فقد غدا ذهل العقل ، واعتاد أن يكلم نفسه ، وهكـذا كانت بلانـش وحـدها هى التى تستطيع أن تبعث فيه نوعاً من الحيـاة فكانت نوبات كآبته وبؤسه وازوراره علامـة على شىء من ثلاثة : إمـا أنه لم يرها منذ مـدة ، أو أنهـا أبت اصطحـابه ، أو أنهـا لـم تداعـبه قبل الرحيل ، وكان إذا اعترته هذه الحالة ، امتنع عن الكلام ، وأظهر العبوس ، ولبث كذلك ساعة أو ساعتين وقد لاحظت مرتين أنه اعترته حالة غريبة ، وذلك عندما كانت بلانش تغيب طول النهار ، ولعلها كانت تذهب إلى منزل ألبير ، فكان إذا طال به ذلك الوجـوم ، أخـذ يتلفـت حوله واستحـوذ عليه القلق ، ثم يثوب كأنما تذكر شيئـاً يجب أن يعـثر عليـه فلا يجـد ذلك الشئ ، ولا يستطيع أن يتذكره ، فتغمره غيبوبة باردة ، لا يفيق منها إلا عندما تظهر بلانش : حلوة رشيقة ، نصف عارية ، تضحك ضحكتها الصحلة المجلجلة ، وهى تتقدم إليه لتداعبه وتقبله ... وكان حظه من تلك القبلات ضيئلاً ، وحدث مرة أن غمره الفرح حين قبلته ، فبكى ، ودهشت لذلك أنا نفسى .

ولقد كانت من مجيئه إلى باريس تدافع عنه أمامى والحق أنها كانت قوية الحجة فكانت تحتج بأنها لم تهجره إلا لأجلى ، وبأنها كانت منذ زمن طويل خطيبته ، وبأنها وعدته بالزواج ، وبأنه هجر أسرته من أجلها ، وأخيراً بأنى كنت أعمل عنده ، وأنى يجيب ألا أنسى ذلك ، وأنى يجب أن أخجل .. فكنت ألزم الصمت طويلاً ، ثم أضحك ، وينتهى الأمر عند هذا وقد ذكرتُ أنها كانت تظننى أول الأمر أبله ، ثم اعتقدت أنى حكيم سمح الخلق ، والحق أنى عرفت كيف أظهر نواحيها الطيبة ، وقد أسأت فهمها

أول الأمر ، ولكنى تبينت أنها أمرأة رقيقة القلب ، على ما تفهم هى من الرقة كانت تقول لى قرب النهاية : "أنت نبيل ذكى . و ... و ... وإنى لا آسف إلا على بلاهتك هذه .. إنك لن تكون ثرياً أبداً ، روسى حق ! كالموكى !» .

وكثيراً ما كانت تأمرنى أن أخرج مع الجنرال إلى الطريق للرياضة ، كأنها تأمر خادمها أن يصحب كلبها المدلل ، ولكنى كنت أفضل أن آخذه إلى المسرح أو المرقص أو المطعم ، وكانت تعطينى نقوداً لهذا الغرض ، وإن كان الجنرال يملك بعض النقود ، وإن كان مشغوفاً بإظهار حافظة نقوده أمام الناس ، وقد كدت ألجأ إلى العنف معه ذات يوم لأمنعه من شراء دبوس ثمنه سبعمائة فرنك رآه فى "الباليه رويال " وأراد أن يهديه إلى بلانش مهما كلفه ذلك ، ماذا يساوى عندها دبوس ثمنه سبعمائة فرنك ؟ كان الجنرال لا يملك أكثر من ألف فرنك ، ولا أدرى من أين جاءته هذه النقود ، لقد كان كرم المستر أستلى هو التفسير الأقرب احتمالاً ، وخصوصاً لأنه هو الذى أدى حساب الجنرال فى الفندق ، ولقد كان سلوك الجنرال معى بحيث جعلنى أعتقد أنه لا يخالجه أدنى شك فى علاقاتى ببلانش ، وأظنه فسر وجودى عندها بعمل أعمله كأن أكون سكرتيرها الخاص مثلاً ، أو خادمها ، فلقد كان يشمخ علىّ بأنفه ، وربما انتهرنى لسبب من الأسباب .

فذات يوم بينما كنا نشرب قهوة الصباح ، أخذ يسخر منى ، ولم يكن بطبعه سريع الغضب ، ولكنه ثار بى ذلك الصباح لسبب لم أعلمه بعد ، ولا أظنه هو أيضاً يعمله ، وراح يلفظ بكلمات متقطعة ، ونعتنى بالطيش والعبث ، ويقول إنه سيؤدبنى .. إلخ وكانت بلانش تتلوى من شدة الضحك ثم نجحنا فى تهدئته ، وصحبناه للنزهة ، ولاحظت غير مرة أن الكآبة ترين عليه ، وكأنه يفتقد شخصاً أو شيئاً ، حتى ولو كانت بلانش معه ، وقد حدث مرتين أن أخذ يحدثنى وهو فى هذه الحالة ، ولكن الأمر اختلط عليه ، فجعل يهذى عن حياته فى الجندية ، وعن زوجه المتوفاة ، وعن منزله وممتلكاته وربما أعجبته كلمة بعينها فجعل يرددها مائة مرة طيلة النهار ، ولعل الكلمة لا تتفق مع أفكاره أو مشاعره ، وكنت أحاول أن أحدثه عن طفليه ولكنه كان يروغ من ذلك الحديث ، ولم أكن أظفر منه بغير هذه الكلمات .

– الطفلان ... أجل .. أجل ... أنت على حق ...

ولكنه كان منطلقاً ذات مساء ، وذلك حينما كنا ذاهبين إلى المسرح فقال لى فجأة :

– طفلاى البائسان ! أجل يا سيدى ! إنهما يستحقان الرثاء ياللطفلين البائسين ! وكرر هذه العبارة عدة مرات فى أثناء المساء .

واتفق لى مرة أخرى أن حدثته عن پولينا ، فاحتدم غضبه عليها وصاح :

– إنها جحود ! جحود شقية لقد حطمت أسرتنا لو كان هناك قانون لما أفلتت من العقاب ! أجل .. أجل .

أما دي جرييه فلم يكن يطيق لك ذكراً .

– لقد ضيعنى لقد سلبنى مالى لقد ذبحنى ذبحاً لقد كان كابوساً علىَّ عامين كاملين ، إنه .. إنه ، أوه ! لا تحدثنى عنه أبداً .

وتبين لى أنه كاد يصبح على وئام مع بلانش ، وحدثتنى هى نفسها عن ذلك قبل انفصالنا بأسبوع ، فقالت لى خلال ثرثرتها ، إنه سعيد الحظ فالجدة مريضة حقاً هذا المرة ، وتوشك أن تموت ، وقد أبرق إليه المستر أستلى بذلك ، إنه هو الوريث الوحيد ، وسأتزوجه حتى لو لم يتم هذا الميراث ؛ فإن لديه راتبه على كل حال ، وسيعيش فى غرفة بجانب غرفتى ، ويغدو سعيداً بذلك كل السعادة ، أما أنا فسوف أكون "عقيلة الجنرال " وسوف أتصل بالطبقة الراقية ، ولن ألبث أن أصبح من كبار الملاك الروس ، سيكون لى قصر وفلاحون ، ومليون من النقود أعتمد عليها فى كل وقت .

– وإذا أصبح غيوراً ؟ وإذا أرادك على أشياء .. أتفهمين ما أعنى ؟

– أوه، كلا . إنه لن يجرؤ . لا تخف على كل حال ، فقد أخذت حذرى ، لقد أرغمته على أن يكتب سندات كثيرة لألبير ، حتى إذا هفا أقل هفوة عرفت كيف أؤدبه ، ولكنه لن يجرؤ .

– حسناً تزوجيه .

واحتفل بالزواج احتفالاً بسيطاً بغير جلبة ، ودعى ألبير وبعض الأصدقاء أما هورتنس وكليو باترا فلم يكونا هناك ، وكان الخطيب ، يبدو فخوراً ، وقد ربطت له بلانش رباط عنقه بيدها ، ورجلت شعره وعطرته ، فبدا فى حلته السوداء وصداره الأبيض لا يعاب .

قالت لى بلانش وهى تخرج من غرفة الجنرال : لا شك أنه حسن المنظر .

ولعل هذا كان يدهشها هى نفسها ، ولكنى كنت قليل الاهتمام بهذه التفاصيل التى كنت أشاهدها عن كثب وأنا عازب اللب ، حتى أنى لم أعد أذكر منها إلا القليل لست أذكر إلا أن بلانش لم يكن اسمها «دى كومنج» وأن أمها لم تكن الأرملة "دى كومنج" بل كان اسمها الحقيقى "دى پلاسيه " ولست أدرى لماذا لقبت نفسها بدى كومنج عوضاً عن دى بلاسيه ، ولكن الذى أدريه أن الجنرال سرَّ بذلك الكشف سروراً عظيماً ، فقد بدا له اسم دى بلاسيه أجمل بكثير من دى كومنج وفى صبيحة يوم الزواج ، كان يتمشى فى زيه الفخم أمام موقد البهو وهو يكرر مزهواً ، : مدموازيل بلانش دى بلاسيه .. مدموازيل بلانش دى بلاسيه .. دى بلاسيه ! وفى الكنيسة وفى المحكمة وفى مأدبة العرس كأن وجهه يضئ بأكثر من السعادة ، كان يضئ بالغرور لقد كان كلاهما كأنه خلق خلقاً جديداً ، فقد كانت بلانش هى الأخرى تبالغ فى إظهار الوقار والكبرياء .

قالت لى بجد ظاهر: يجب أن أسلك سلوكاً جديداً ، ولكن ألا ترى أنى لا أستطيع أن أنطق باسمى صحيحاً ؟ زاجوريانسكى .. زاجوريانسكى ... السيدة عقيلة الجنرال دى زاحو .. زاجو .. يا للاسم الروسى الشيطانى ! بل السيدة عقيلة الجنرال ذى الاسم الطويل ! أليس هذا حسناً ؟

وأخيرا افترقنا ، وبكت هذه اللعينة بلانش ، بكت حقاً وهى تودعنى .

كانت تقول لى وهى تبكى : إنك فتى طيب السريرة ، لقد ظننتك أبله . أنت تبدو كذلك ولكن بلاهتك محببة إلىَّ .

وبينما كانت تهز يدى للمرة الأخيرة صاحت : انتظر ! وأسرعت إلى مخدعها ، وعادت بعد لحظة وقد أحضرت لى ورقتين من ذوات ألف الفرنك .

كدت لا أصدق عينى .

– لعل هاتين تنفعانك ، فربما كنت استاذاً بارعاً ، ولكنك رجل غبى ! لن أعطيك أكثر من ألفين من الفرنكات حتى لا تفقدها كلها فى القمار . والآن ، وداعاً . سوف نظل أصدقاء ، وإذا ربحت ثانية فتعال إلىَّ وسوف تكون سعيداً .

وكان قد بقى معى كذلك خمسمائة فرنك . وساعة ثمينة تساوى ألف فرنك وأزرار ماسية للقميص ، وبعض الجواهر ، وهكذا كنت أستطيع أن أعيش زمناً دون أن أحمل هما .

وقد اتخذت مسكنى فى هذه الجهة لأمرين : أولهما أن أجمع شتات نفسى وثانيهما أن ألقى المستر أستلى ، الذى علمت أنه قادم إلى هذا المكان لبعض شأنه ، أجل ، إنى أعلم ذلك ، وسأذهب بعد ذلك إلى همبورج ، ولن أذهب إلى رولتنبرج هذا العام ، فإنهم يزعمون أن ليس من المستحسن أن تجرب حظك مرتين متتابعتين على مائدة واحدة . ولا تنس أيضاً أن همبورج هى خير مدن القمار .

- ١٧ -

ها قد مضى عام وثمانية أشهر دون أن أنظر إلى هذه المذكرات واليوم أفتحها حزيناً كئيباً لأنسلى فأقرأ هنا وهناك ... لقد طويتها عندما كنت ذاهباً إلى همبورج .

كم كنت مرحاً وأنا أكتب الصفحات الأخيرة ! فإن أبيت أن تسمى ذلك مرحاً ، فقل إنه ثقة بالنفس وأمل لا ينضب هل كنت يومئذ لأشك فى مقدرتى؟ انظر إلىّ الآن ! لقد تحطمت لم يكد يمضى عام ونصف عام حتى أصبحت أتعس من شحاذ ! ولكن ما الشحاذ ؟ إنّ هدنتى مع الأخلاق قد انتهت إننى لا أستطيع أن أزن شيئاً من الأشياء لن تجدى معى الحكم ، ولا شىء عندى الآن أسخف من الحكم . أنتم أيها الراضون الرافلون فى كبريائكم المتألهة على استعداد أبداً لأن تملئوا أفواهكم بمبادئكم الخلقية ، لو علمتم كم أقدر شناعة موقفى لأعفيتم أنفسكم من شقشقة ألسنتكم ، أى جديد عندكم لا أعلمه ما الذى يجعلنى من دون أنظاركم شقياً شريراً ؟ لا شىء إلا أن دورة واحدة من العجلة كانت كفيلة بأن تغير كل شىء ولو انعكس الأمر لهرع أولئك الأخلاقيون أول من هرع ، يمازحوننى ويهنئوننى ؛ أجل ولما أولونى ظهورهم كما يفعلون الآن ! بُعداً لهم جميعاً من أنا ؟ أنا صفر أنا عدم . من أكون غداً ؟ ربما أبعث من الأموات ، وأبدأ حياة جديدة ، ربما كشفت الرجل فى أعماق نفسى ، وإن كانت رجولتى لم تمزق شر ممزق .

أجل لقد ذهبت إلى همبورج كما ذهبت بعد ذلك إلى رولتنبرج ، وأشبا ، وبادن ، وفى هذه المدينة الأخيرة اتصلت بمستشار نكد اسمه هنتز ، وأصبحت سكرتيراً له ، سكرتيراً . كلا بل خادماً ، لقد عشت بين الخدم خمسة أشهر ، وكان ذلك عقب خروجى من سجن رولتنبرج ، حيث حبست لدين صغير كان علىّ ، وأخلى سبيلى حين ضمننى شخص .. ترى من كان ؟ أستلى ؟ پولينا ؟ لست أدرى . وأيا كان فإن دينى قد قضى ، وكان مائتى تالر ، وانطلقت رجلاً حراً ، ولكن أين كنت أتوجه ؟ لقد لجأت فى يأسى إلى ذلك الهنتز .

وكان فتى أرعن كسلان ، وكانت مواهبى ذات قيمة عنده ، فإنى أتقن ثلاث لغات حديثاً وكتابة ، كنت أول الأمر أشبه بسكرتير أتقاضى ثلاثين فلوريناً فى الشهر ، ولكنى هبطت أخيراً إلى خادم ، إذ لم يكن لدى هنتز الموارد التى تسمح له باستخدام سكرتير، رضيت بذلك لأنى لم أجد سبيلاً آخر ، ولكننى جمعت بالتقتير فى خلال هذه

الأشهر الخمسة سبعين فلورينا ، وأخبرته ذات مساء فى بادن أنى سأتركه ، وذهبت فى المساء نفسه إلى الروليت ، أوه ! كم كان قلبى يخفق ، كلا لم تكن النقود هى التى أريد ،إن الذى أردته هو أن أنتقم من كل تلك الإهانات التى وجهتها إلىَّ عقائل بادن ومديرو الفنادق وهذا الهنتز أردت أن أراهم جميعاً يسجدون أمام انتصارى ، أحلام ! خيالات صبيانية ! من يدرى ؟ ربما لقيت پولينا وأثبت لها أنى فوق كل ضربات القدر لا لم أكن أرغب فى المال لذاته ، فقد كنت أعلم أنى سأضيعه على بلانش جديدة ، وأقضى ثلاثة أسابيع أخرى فى باريس بعد أن أشترى زوجاً من الخيل بستة عشر ألف فرنك ، لا ما عرفت نفسى قط كانزاً للمال بل كنت أعلم حق العلم أنى متلاف .

بأى قلب واجف كنت أستمع إلى صيحات الكروپييه : واحد وثلاثون زوجى. باس ، مانك .. بأى نهم كنت أنظر إلى مائدة القمار المغطاة بالنقود الذهبية .. والتلال الذهبية التى كانت تنهال تحت عصا الكروپييه وهى تتوهج كالنار .

أوه ! كنت أعلم أنها ليلة حاسمة ، تلك الليلة التى ذهبت فيها إلى مائدة القمار ، أحمل فلوريناتى السبعين ، لقد كنت أفضل "الپاس" تفضيلاً خرافياً فوضعت عشرة فلورينات عليه ، وخسرتها ، وبقى معى ستون نقداً فضياً ، فركنت إلى الصفر ، ووضعت عليه خمسة فلورينات ، وفى الدور الثالث ظهر الصفر ، وكدت أموت فرحاً وأنا أتناول المائة والخمسة والسبعين فلوريناً .

كان فرحى إذ ذاك لا يعادله فرح عندما ربحت مائة الألف فى تلك الليلة المشهودة وضعت تواً مائة فلورين على الأحمر ، وربحت . ثم الأربعمائة كلها على الأسود وربحت ثم الثمانمائة على المانك وربحت لقد أصبح معى فى أقل من خمس دقائق ألف وسبعمائة فلورين ، أجل فى هذه اللحظات ينسى المرء كل هزائمه الماضية لقد قامرت بحياتى وربحت ، وغدوت رجلاً مرة أخرى .

واستأجرت غرفة ، وأغلقت بابها علىَّ ، ومكثت إلى الساعة الثالثة من الصباح أعدُّ نقودى واستيقظت امرءاً حراً .

وعزمت على الرحيل إلى همبورج ، حيث لم أكن قط خادماً ولا سجيناً .

وذهبت إلى الروليت قبل الرحيل بلحظات ، وراهنت مرتين لاغير ، فخسرت ألفاً وخمسمائة فلورين ، ولكن رحلت مع ذلك ، وها قد مضى شهر منذ قدومى إلى همبورج.

إنى أعيش فى فزع مستمر ، أقامر بمقادير ضيئلة جداً ، وأترقب دائماً أن يحدث شيء إنى أمضى أياماً بطولها قرب مائدة القمار ، أرقب اللعب ، بل إنى أحلم بالقمار وأنا نائم ، ولكنى أحس بالجفاف واليبس ، وكأنى خُبزتُ فى الوحل بيد أنى يجب أن أختم هذه المذكرات التى أتمها تحت تأثير مقابلة أخيرة مع المستر أستلى .

لم أره منذ افترقنا فى رولتنبرج ، وقد قابلته الآن صدفة بينما كنت سائراً فى الحديقة أعد الخمسة عشر فلوريناً التى بقيت معى ، وأستذكر أنى لست مديناً بشيء للفندق الذى أسكن فى غرفة منه ، وكنت أحدث نفسى أنى أستطيع بذلك أن أذهب إلى الروليت مرة أخرى ، فإذا ربحت أمكن لى أن أستمر فى اللعب ، أما إذا خسرت فسأضطر أن أعمل خادماً ، إلا أن وجدت أسرة روسية فى حاجة إلى معلم ، وبينما كنت شارد الذهن فى هذه الأفكار مررت من خلال الغابة إلى الريف المجاور ، وكان يتفق لى فى مثل هذه الأحوال أن أمشى أربع ساعات ، متصلة ثم أعود إلى همبورج منهكاً جائعاً وفجأة لمحت المستر أستلى جالساً على مقعد ، وما كاد يرانى حتى دعانى باسمى فذهبت وجلست بجانبه ، ولكنى حين رأيت عبوسه وتجهمه ، كتمت مظاهر الفرح الذى شملنى لرؤيته قال لى :

– أنت هنا ؟ لقد توقعت أن أقابلك ، لا تكلف نفسك أن تروى لى قصة حياتك فى هذه الأشهر العشرين ،فإنى على علم بها .

– أف ! إذن فأنت تتجسس على أصدقائك القدماء ؟ إنك لا تنساهم على كل حال .. ألست أنت الذى خلصنى من السجن وقضى دينى فى رولتنبرج ؟ – لا ياصاحبى ولكنى أعلم أنك كنت مسجوناً لعجزك عن الوفاء بديونك .

– لعلك تستطيع أن تخبرنى إذن بمن قضى دينى ؟

– كلا ، يؤسفنى ألا أستطيع ذلك .

– هذا غريب فأنا لا أعرف أحداً من الروس هنا ، ونحن الروس قد يضمن بعضنا البعض ليخلصه من السجن ، ولكنى رجحت هذه المرة أنها بدوة إنجليزى شاذ لا يجهل عاداتنا .

كان المستر أستلى ينصت إلىَّ بدهشة ، ولا شك أنه كان يتوقع أن يرانى أشد حزناً ، وأكثر خشوعاً ، فاستمر يقول فى غير ود .

– على أنى مسرور لاحتفاظك بطلاقتك ومرحك القديمين .

فأجبته باسماً : إنك تفضل أن ترانى أكثر ذلاً .

فلم يفهم بادئ الأمر ، ثم أدرك فكرتى فضحك .

– إن ملاحظتك تعجنبى إنى أعرف فيها صديقى القديم ، بذكائه وتوثبه وسوداويته الغالبة . لا يستطيع أن يجمع بين هذه المتناقضات غير الروس ، أجل ، إن أكثر الناس يحبون أن يروا أصدقاءهم الأعزاء أذلاء أمامهم ، وعلى هذه الذلة تقوم أوثق الصداقات هذه حكمة قديمة يعلمها كل عاقل ولكنى على الرغم من ذلك سعيد بأن أراك على هذه الشجاعة أخبرنى ألا تريد أن تترك القمار ؟

– أوه . لعن الله القمار كان ينبغى أن أتركه لولا ...

– لولا أنك تخسر ؟ هكذا ظننت لا حاجة بك إلى أن تزيد إنى أعلم بحالك ، فقد قلت هذه العبارة الأخيرة يائساً ، ولهذا كنت صادقاً فيها ألا عمل لك سوى القمار ؟

– لا .. لا شئ مطلقاً .

فتفرس فىَّ بدهشة لقد كنت فى ذلك الوقت بمعزل عن كل شئ ، وقد مرت علىَّ آباد دون أن أنظر فى صحيفة أو أقلب صفحات كتاب . قال :

– لقد أسرفت على نفسك ، لقد نفضت يدك من الحياة بشواغلها وروابطها الاجتماعية ، بما تفرضه عليك ، مواطناً وإنساناً ، ونقضت يدك من أصدقائك القدماء ، بل إنك نفضت يدك من ذكرياتك ، إننى أذكر الوقت الذى كنت فيه فى أعنف أطوار حياتك ، أجل إنى أذكره ، ولكنى واثق أنك نسيت كل ما كنت تشعر به فى ذلك الوقت إن أحلامك وأمانيك اليوم لا تعدد الزوجى والفردى والأحمر والأسود والأثنى عشر الوسطى وما إليها .

فصحت غاضباً :

– كفى يامستر أستلى ، أسألك أن تكف عن هذا الحديث لا تهج بى الذكريات فإنى قادر على أن أتذكر كل شئ وحدى ولكنى نفيت هذه الأفكار عن خاطرى حتى يأتى الوقت الذى استعيد فيه كيانى ، وعندئذ سترى كيف أبعث .

– إذن فسوف تبقى هنا عشرة أعوام أخرى ، وإن عشت فسوف أذكرك بهذا ، على هذا المقعد ، أجل ، إنى مستعد لأن أراهنك على ما أقول .

فقاطعته بصبر نافد .

كفى ولكن دعنى أثبت لك إنى لم أنس الماضى كله ، أين المدموازيل پولينا الآن ؟ إن لم تكن أنت الذى قضيت دينى فلا شك أنها هى التى فعلت ذلك وها قد مضى وقت طويل دون أن يصلنى شىء من أخبارها .

قال فى لهجة حاسمة يشوبها الضجر .

– كلا لا أعتقد أنها هى التى أخرجتك من السجن ، إنها الآن فى سويسرا ، وإنك تحسن إلىَّ كثيراً إذا كففت عن السؤال عنها .

صحت وأنا أضحك على الرغم منى :

– وإذن فقد جرحتك جرحاً دامياً .

– إن المدموازيل پولينا هى أشرف مخلوق على وجه الأرض أكرر لك : كف عن هذه الأسئلة إنك لم تعرفها قط ، وإن اسمها حين تنطقه يؤذى كل مشاعرى .

– آه أنت مخطئ احكم بنفسك : فيم نتكلم إذا لم يكن حديثنا عنها إنها محور كل ذكرياتنا إننى لا أسألك إلا عن الظروف التى تحيط بالمدموازيل پولينا ، وهذا يمكن أن يقال فى كلمتين .

– ليكن على شرط أن تكفيك هاتان الكلمتان إن المدموازيل پولينا مريضة من زمن طويل وهى لم تشف بعد ، لقد عاشت مدة من الزمن مع أمى وأختى فى شمال إنجلترا وقد ماتت الجدة – لعلك تذكر تلك العجوز المجنونة ؟ ماتت منذ ستة أشهر وخلفت لها سبعة آلاف جنيه ، إنها تسيح الآن مع أسرة أختى المتزوجة ، وأخوها وأختها قد أفادا من الوصية أيضاً ، وهما يتعلمان الآن فى لندن ، وقد مات الجنرال منذ شهر فى باريس بنوبة شلل ، وكانت زوجه تعامله معاملة حسنة ولكنها استطاعت أن تستأثر بكل ما ورثه عن الجدة ، هذا كل ماهنالك .

– ودى جرييه ؟ أهو أيضاً يسيح فى سويسرا ؟

– كلا إنى لا أعلم أين دى جرييه ، ثم إنى أنصحك للمرة الأخيرة ، بأن تتجنب هذه الإشارات والتلميحات المجردة من الشرف ، وإلا فسوف ، يكون لى معك شأن آخر .

– كيف ؟ رغم صداقتنا القديمة ؟

– أجل .

– ألف معذرة يا مستر أستلى . ولكن دعنى أنبهك إلى أنى لم أذكر شيئاً وليس فى قولى تلميح معيب ، ثم إننا لا نستطيع أن ننكر ما كان بين هذا الفرنسى وتلك الفتاة الروسية ، ولا أن نفهم كنه هذه العلاقة .

– إذا كان لا يهم أن تسمع اسميهما مقرونين كلا إلى الآخر ، فدعنى أسألك ما الذى تعنيه بقولك "هذا الفرنسى " و"تلك الفتاة الروسية " و"كنه العلاقة بينهما " ولماذا تتعمد أن تسميها "فرنسياً " و"فتاة روسية " ؟

أرأيت ؟ إن الأمر يعنيك يا مستر أستلى ولكنها قصة جد طويلة ، ولا بد لها من مقدمة مملة ، والمسألة بعد مسألة خطيرة ، وإن بدت للوهلة الأولى سخيفة مضحكة، إن الفرنسى يا مستر أستلى ليس إلا صورة رجل أنيق جميل ، قد تنكر هذا لأنك إنجليزى سكسونى وأنا أيضاً قد تدفعنى الغيرة إلى إنكاره ، ولكن الأمر عند فتياتنا على العكس ، ولأضرب لك مثلاً إنك قد تجد "راسين " معطراً مقطراً ، ولكنك مع ذلك لا تطيق أن تقرأه ، وربما وافقتك أنا على هذا ، بل ربما جعلته هدفاً لسخريتى ، ولكنه مع ذلك ممتع ، وهو – شئناً أم لم نشأ – شاعر عظيم ، ولقد كان الفرنسيون – والباريسيون بوجه خاص – على حظ كبير من الأناقة والرشاقة بينما كنا نحن دببة ما نزال وقد جعلت ثورتهم إرث النبالة حقاً لأكبر عدد من الناس ولن تجد اليوم شاباً فرنسيا إلا له هيئة وشارة ولغة بل أفكار لطيفة ، وإن كان روحه وقلبه لا يأخذان من ذلك كله بنصيب فقد اكتسب هيئته وشارته بالوراثة ، ولكنك إن تعمقت نفسه وجدته أغبى الأغبياء وأسفل السافلين ، وعلى العكس من ذلك الفتاة الروسية فلا أحد أجدر منها بالثقة ولا الاحترام ، وربما ظهر لها دى جرييه بقناعه الجميل ، فلا يلبث أن يجعلها أطوع له من بنانه فإن له المظهر المنمق ، والفتاة تظن هذه المظاهر هى الروح نفسها ، ولا تعلم أنها كساء ورثه عن أسلافه ولأضف إلى ذلك أن الإنجليز – وإن ساءتك هذه العبارة – أكثرهم خشنوا المظهر وحشيو الطبع ونحن الروس نتعشق الجمال حيثما وجدناه ، ونحاول أن نكتسبه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، ولكن فهم جمال الروح ، والشخصية يتطلب مبلغاً من الاستقلال والحرية لا تصل إليه نساؤنا ، والشواب منهن على الخصوص فقيرات فى تجاربهن ولنأخذ لذلك مثلاً المدموازيل بولينا – ولا بد لى من ذكر اسمها – فإنها تتردد كثيراً قبل أن تفضلك على دى جرييه، ولعلها تجلك ، ولعلها تحب أن تكون صديقتك ، ولعلها تفتح لك قلبها ، ولكن فوق ذلك القلب يرن اسم الوغد الكريه ، ذلك المرابى الوضيع دى جرييه إنها لتصر على حبها لمحض العناد والكبرياء ، لأن دى جرييه بدا لها مرة فى زى مركيز جميل ،

وهالة حر مهضوم ، يبذل جهده ليعين أسرتها ويسدد خطى الجنرال العجوز الأحمق ، لقد عرفت زور هذا المخلوق ، وأدركت خبث مذاهبه ، ولكن هذا الكشف لن يؤثر فى عقلها شيئاً ، أعطها دى جريبه القديم ، لا تسألك شيئاً آخر إنها كلما أبغضت دى جريبه الحاضر ، ذابت أسى على دى جريبه الماضى ، ولو أن هذا الأخير ، لم يعش قط إلا فى مخيلتها أظنك تملك مصنعاً لتكرير السكر يا مستر أستلى ؟

– أجل إنى شريك فى مصنع لوقل وشركاه للتكرير .

– حسناً أرأيت يا مستر أستلى ؟ فى أحد الجانبين صاحب مصنع لتكرير السكر، وفى الجانب الآخر أپولون دى بلڤدير أما أنا ، فلست شيئاً حتى ولا مكرر سكر ، ما أنا إلا مقامر ، وقد كنت خادماً أيضاً ، ولا بد أن المدموازيل پولينا على علم بذلك ، فإن أرى أن لها عيوناً تمدها بالأخبار فأجابنى المستر استلى بأعظم ما يكون من الهدوء .

– إنك تقول هذا لأنك ثائر الأعصاب ، ومع ذلك فلست أرى فى مزاحك شيئاً من الطرافة .

– أنت على حق ، ولكن يا صديقى النبيل ، أليس من أفظع الأشياء أن هذه التعابير المبتذلة البالية ما تزال صادقة ؟ أرانا نحن المحدثين لم نأت بجديد ! قال المستر أستلى وصوته يرتجف وعيناه تلمعان :

– أنت تهذى ... أعلم ... أعلم أيها الكنود التعس ، أيها الضائع الشريد ، أنى ما جئت إلى همبورج إلا لأنها كلفتنى أن أراك وأن أحدثك حديثاً ودياً طويلاً ، ولأنها رجتنى أن أحمل إليها أفكارك وآمالك ... وذكرياتك .

صحت :

– حقاً ! حقاً !

وسالت من عينى دموع محرقة يخيل إلىَّ أنى ما بكيت قبلها قط .

– أجل أيها التعس ! إنها كانت تحبك ، وأستطيع أن أصرح لك بهذا ، فأنت رجل ضائع ، وأستطيع أن أقول لك إنها ما زالت تحبك ، ومع ذلك سوف تبقى حيث أنت ! أجل إنك ضائع ! كانت لك مواهب نادرة ، وشخصية حية ، كنت رجلاً ممتازاً ، كنت تستطيع أن تنفع وطنك ، وما أحوجه إلى الرجال ! ولكنك ستبقى هنا ! إن حياتك مقضى عليها ، لست ألومك على هذا ، فكل الروس فى نظرى مثلك ، وهم على استعداد لأن يسلكوا تلك الشعاب المضلة ، من لم يهلك بالقمار هلك بغيره ، قليل منكم من يشذ

عن هذه القاعدة ، ولست أنت أول من لم يفهم قانون العمل ، إن الروليت هى لعبة الروس التى فطروا عليها لقد كنت شريفاً حتى الآن ، وقد فضلت الخدمة على السرقة ، ولكن مستقبلك يرعبنى ! كفى ووداعاً ! .

لعلك فى حاجة إلى النقود هاك عشرة جنيهات ذهباً ، اذهب وقامر بها . خذ ... وداعاً .. قلت لك خذ ! ..

– كلا يا مستر أستلى ، بعد كل ما قلته لى ...

صاح :

– خذ إنى واثق أنك ما تزال شريفاً وإنى أعطيك هذه منحة صديق لصديق ، ولو كنت واثقاً أنك ستكف عن القمار وتعود إلى وطنك ، لقدمت إليك على الفور ألف جنيه لتبدأ عملك ولكن ألف جنيه وعشرة جميهات سواء عندك الآن ، فستفقدها على الحالين ، خذ ووداعاً .

– سآخذها على شرط أن تسمح لى ، قبل أن تذهب ، بأن أعانقك ،

–أوه ! بكل سرور .

وتعانقنا ، وافترقنا .

ولكنه كان مخطئاً فلئن قسوت فى حكمى على پولينا ودى جرييه ، لقد كان بلا شك قاسياً فى حكمة على الروس عامة ، إننى لا أدافع عن نفسى ، ولكن ، ولكن هذا كله كلام ، كلام لا يغنى ، إننى فى حاجة إلى أن أعمل يجب قبل كل شىء أن أسرع إلى سويسرا غداً ! غداً ! اه لو أستطيع أن أرحل غداً وأن أولد من جديد ، وأن أبعث من بين الأموات ! ولكنى لا أستطيع ، ولكنى يجب أن أظهر لها ما أستطيع عمله .. يجب أن تعلم پولينا أنى مازلت قادراً على أن أكون رجلاً ... لم يبق وقت اليوم ... ولكن غداً أوه ! إنى لأشعر أن هذا هو الطريق الوحيد .. معى خمسة عشر جنيهاً وقد بدأت بخمسة عشر فلورنيا ! إذا سرت بحذر ، لا لا ! إنى لست أحمق ! .. ولكن لم لا أبعث من بين الأموات ؟ .. شيئاً من العقل والصبر – وأنجو ليس علىّ إلا أن أضبط نفسى ساعة واحدة ، فيتغير مصيرى كله ، لا بد من الشخصية هذا هو المهم ، فلأ ذكر ما حدث لى منذ أشهر فى رولتنبرج ...

.... كانت لحظة أثبت فيها أنى قادر على العزم والتصميم ، لقد خسرت كل ما كنت أملك ، وأخرج من الملهى فأجد فى جيب صدارى فلورينا آخر ، فأحدث نفسى : إذن فمعى ما أتعشى به ولا أكاد أخطو مائة خطوة حتى أعود أدراجى إلى بهو القمار ، وأضع فلورينى على "المانك" حقاً إن ههنا شيئاً غريباً رجل وحيد ، بعيد عن وطنه ، بعيد عن أصدقائه، يخشى أن يبيت على الطوى - هذا الرجل يقامر بآخر فلورين معه لقد ربحت ، وبعد عشرين دقيقة خرجت وفى جيبى مائة وسبعون فلورينا . غريب ! هذا هو فلورينى الأخير ! وماذا كنت أصبح لو أعوزتنى الشجاعة غداً ، غداً ، سوف ينتهى كل شىء .

الكتاب الثالث

چورج ديهامل

اعتراف منتصف الليل

تعريب

شكرى محمد عياد

تقديم

لا أعرف كاتباً صور محنة الفردية فى هذا العصر كما صورها چورچ ديهامل . ولك أن تقول : محنة الفردية ، أو محنة الفرد ، حسبما يحلو لك من رغبة فى التجريد الفلسفى أو التخصيص الإنسانى ... وأنت مصيب على الحالين ، فهى محنة يعانيها الأفراد المثقفون اليوم ، لا فى فرنسا وحدها بل فى كل بلد مسته الحضارة الصناعية والإنتاج بالجملة . ومصدر هذه المحنة إحساس هؤلاء المثقفين ذوى الذكاء اللامع أو الإحساس المرهف أو الخيال الوثاب ، بأن هذا المجتمع الحديث لم يعد محتاجاً إلى ذكائهم اللامع ولا إلى إحساسهم المرهف ولا إلى خيالهم الوثاب ، بل لعله ينظر إلى هذه الأمور التى كانت تعدها الإنسانية من قبل ميزات نظرة الشك والارتياب ، لأنها أصبحت تعد فى دينا العمل عوائق ومعطلات ..... وهم يلاقون من ذلك عناء غير قليل ، حتى ليضطرون إلى إحدى اثنتين : إما أن يستبدلوا بذواتهم الحساسة ذواتاً أخرى أشبه بالآلة فى انتظامها ودقتها ، وأكثر انطباقاً على ما يتطلبه المجتمع الحديث ، وإما أن ينسوا أنهم أفراد ، ويلقوا بأنفسهم إلقاء فى جيش الساخطين على هذا المجتمع ، المعدين العدة لتغييره وفق ما يتراءى لهم أنه الحق والصواب . وهم على الحالين لا يستطيعون الاحتفاظ بفرديتهم ، وقلما ينجون من هذا القلق الذى ينوشهم من كل جانب ، وقلما يصلون إلى حالة من السلام النفسى الذى ينشدونه . وأكثرهم ينطوون على أنفسهم ، ويجترون إحساساتهم ، ويطعمون أحلامهم وآلامهم ، وربما وجدوا فى الألم لذة أكبر ، لأنه لا يلوح لهم بأشياء مستحيلة ، ولا يعرضهم لخيبة قاسية .

هذه الفرقة من الناس ، إذاً ، ظاهرة بارزة فى الحياة الإنسانية لعصرنا الحاضر، يعنى بها علماء الاجتماع ، وعلماء النفس ، والفلاسفة ، والأخلاقيون ، والأدباء ، والفنانون ولعل مما يزيد عنايتهم بها أن هذا الفريق من الناس هم الجمهور الأكبر من قراء الأدب والفلسفة وأهل الفكر ، ومتذوقى الفن ، فكأن رجال الفكر والفن إذ يعالجون مشاكل هذا الفريق من الناس إنما يعالجون مشاكلهم هم أنفسهم فى نطاق أوسع ، وكأن هذا الجمهور إذ يطالع مايكتبه له الأدباء والمفكرون إنما يطالع نفسه بين السطور .

كتب چورچ ديهامل سلسلة من خمس قصص تدور كلها حول محنة الفردية فى العصر الحديث ، أى حول التنافر بين الفرد ونفسه ، وبين الفرد ومجتمعه . وابتدع فى هذه القصص شخصية « سلاڤان » ، وهى شخصية لا تقل حياة ولا صدقا

ولا عمقاً عن شخصية « هملت » أو « دون كيشوت » . هى شخصية ذلك المثقف المرهف الحس الذى يلفظه المجتمع الحاضر ، على أن ديهامل لا يتخذ بطله من أولئك المثقفين ذوى الثقافة العالية المنظمة ، وإنما هو رجل من عامة الشعب ، لم ينل ما اصطلح الناس على تسميته بالثقافة العالية ولا الثقافة الثانوية ، ولكنه قرأ كثيراً وفكر كثيراً . يقول لصديق : « إننى فقير ، وقد كنت فقيراً دائماً ، فدرست كما يدرس الفقراء ، أعنى أننى درست دراسة فقيرة . وقد آلمنى ذلك وبخاصة فى السن التى يتألم فيها المرء لمثل هذه الأمور . ثم أخذت أثقف نفسى بنفسى ، وعلى قدر استطاعتى ، فأنا أعلم اليوم أكثر مما يعلمه غالبية البورجوازيين فى مثل سنى ، ولكن الراجح أنى لم أتعلم هذه الأشياء بطريقة منظمة كما تقول . ومن ثم لا يعدنى الناس مثقفاً . وأصدقك القول إننى مستتنى العدوى من أفكار الناس عنى فأصبحت أشك أنا أيضاً فى ثقافتى . إنها لثقافة طيبة لا تخلو من رسوخ وغنى ، ولكنها ليست ثقافة «أصيلة» . لا ضير ! إننى مثابر على القراءة . » .

وهو يقضى سحابة نهاره فى بعض تلك المكاتب التى تؤوى عشرات أو مئات من طبقته يؤدون أعمالا تافهة . وهو مشغوف بالموسيقى . غير أنه يقول : « ولكنى حين أجاهد آلتى لا يبدو على أننى أفهم شيئاً مما أوقعه ، على حين أن أودين مثلا – وهو ينفخ فى الناى أيضاً – أودين هذا الذى لا يفهم شيئاً من الموسيقى ، ولكن له أصابع متمرنة ، يخيل إلى من يسمعه أنه مشبوب الوجدان ! » .

وقد تسأل : لماذا جعل ديهامل بطله مثقفاً عاميًا وفنانا عاجزاً ، ولم يجعله رجلا ممتازاً فى ثقافته أو فنه ؟ ألا يكون فى هذه الصورة الأخيرة أصدق تمثيلاً لمشكلة المثقفين فى هذا العصر ؟ ولكننى أذكرك بأمرين اثنين : أولهما أن ديهامل لا يعالج مشكلة المثقفين الممتازين بوجه خاص ، بل مشكلة كل من يتغلب فيهم جانبا الفكر والوجدان على جانب العمل ، وطبيعى ألا يبلغ هؤلاء جميعا رتبة العبقرية . والأمر الثانى أن القصة والأدب على العموم قد اتجها وجهة شعبية منذ ظهر المذهب الواقعى فى الأدب واتخذ موضوعاته من الحياة العادية – حياة الناس العاديين . لم يبق الأدب تصويراً لحياة الأبطال وصراعهم ، بل أخذ أشخاصه من زحمة الحياة العادية التى تعج بشتى صنوف المآسى والمساخر . ولعل هذا هو الأثر الخالد للمذهب الواقعى فى التراث الأدبى الإنسانى ، فما أظنه قد أصبح فى استطاعة الأدب فى حاضره أو مستقبله أن يترفع عن مشاكل جماهير الناس مهما تكن طبقتهم أو ثقافتهم أو نحلتهم ، ولا أن ينتزع العواطف الإنسانية من مجالها الطبيعى ، ليضعها فى إطار

من العظمة المصنوعة . وقد ظهر المذهب الطبيعى وعميده زولا بعد المذهب الواقعى ، فزاد هذا الاتجاه بالأدب نحو الشعب قوة ووضوحاً . فديهامل محافظ إذاً على تراث الأدب الفرنسى الخالد ، وهو فى الوقت ذاته دقيق الإحساس بالمشكلة التى يعالجها حين يختار بطله نكرة من النكرات ، أو كما يقول هذا البطل عن نفُسه : « رجلاً لا يختلف فى شىء عما ألفه الناس ، رجلاً يشبه كل الرجال إلى حد مخيف ! » .

ظهرت قصتنا Confession de Minuit – وهى الأولى من مجموعة سلاڤان – سنة ١٩٢٠ ، ثم تلاها «رجلان» Deux Hommes سنة ١٩٢٤ ، و«يوميات سلاڤان» Journal de Salavln سنة ١٩٢٦ ، و« نادى ليونيه » Le Club des Lyonnais سنة ١٩٢٩ ، وأخيراً : « كما هو » Tel Quen Lui-meme سنة ١٩٣٢ .

حلل ديهامل فى القصة الأولى عناصر التناقض بين الفرد ومجتمعه ، وبين واقع الفرد وآماله ، وبين أفكاره وأعماله . صور ذلك كله منعكسا على ذهن سلاڤان ، فهو لا يقص أحداثا ، بل أفكاراً بلغت من قوتها وتمكنها مبلغ الأحداث ، فهى أحداث بالنسبة لصاحبها ، وهى مغامرات حقة تمسك أنفاسك وأنت تقرؤها .. أحداث هذه القصة لا تعدو أن سلاڤان يفصل من عمله التافه إثر حادثة يحسبها الناس حمقا وشذوذاً ويراها هو عملا ضرورياً يرد إليه ثقته بأنه إنسان يعيش بين أناسىّ . وليس بعد ذلك إلا البطالة والتشرد والفاقة ، وأحلام الحرمان ، وأوهام القلب الوحيد .

وفى القصة التالية « رجلان » نرى سلاڤان الصديق ... نراه فى ضوء تلك الصلة النفسية العميقة التى تكشف من أسرار النفوس ما لا تكشفه الأفكار ولا الأحلام ولا الأوهام . وصديقه لا يشبهه فى شىء من الأشياء . إذا كان سلاڤان مثال الرجل الذى لا ينسجم فكره وعمله فإدوار مثال الرجل الذى يقيس فكره على قدر عمله . وإذا كان سلاڤان مثال الرجل الساخط على وجوده فإدوار مثال الرجل الراضى عن وجوده . وإذا كان سلاڤان مثال الرجل الخائب الذى يزداد انحداراً كل يوم فإدوار مثال الرجل الناجح الذى يزداد كل يوم صعوداً . إدوار هو على الجملة صورة حية للمجتمع الحديث . هو الرجل الذى تخضع حياته لنظام لايحيد أو لا يكاد يحيد . هو الرجل الذى يترجم جميع أفكاره إلى أعمال ، وجميع دوافعه ونوازعه إلى مصالح . هو الرجل الذى تنسجم رغباته مع واقع الحياة ، حتى لتحار : أيهما يستجيب للآخر ... أهو يكيف وجوده طبقاً لواقع حياته ، أم هى أحداث الحياة تنساق وراء رغباته ؟ يعرف سلاڤان من مطعم كانا يترددان عليه ، وكأنه يحس فيه ضعفا وعجزاً عن المضى فى تيار الحياة الزاخر ، فيود لو يسنده بذراعه القوية ، ليزداد التذاذاً بقوته .... ويقبل سلاڤان – بعد

تردد – هذه اليد الممدودة إليه ، ويبذل له الصديق من جاهه وماله ، ويقبل سلاڤان هذه الهبات أيضا ، ولكن على حساب كرامته وكبريائه ، حتى إذا ضاق صدره بعد سنين طوال من هذه الصداقة غير المتكافئة ، ثار على ما ألقى فيه من عبودية ، وفارق صاحبه فراقاً غير جميل .

والقصص الثلاثة الأخيرة تصور صراع سلاڤان لتحقيق فرديته ، فإنه لم يحدد بعد مطلبه من الحياة ، وإنما كانت نفسه أشبه بصندوق رنان ، كل عمله أنه يضخم الذبذبات التى تصل إليه من الخارج . ولكنه قد بدأ يحس نزوعاً إلى إكمال نفسه ، فصاحبه يقول له قبل أن يفارقه : « ما بك ؟ » فيجيبه : « بى كل ما ليس بى ... أشياء لا تستطيع أن تمنحنى إياها يا إدوار ... السلام . السعادة . روح خالدة . الله » .

ويعود سلاڤان إلى وحدته المريرية اللذيذة ، ويستدبر أعوامه الأربعين ، وقد شغل بتحديد وجهته فى الحياة . فهو يقول عن حياته فى تلك الأعوام : « أربعون سنة ولم أفعل شيئاً ! أعنى أننى لم أقض شيئا ولا أتممت شيئا .. ولو مت هذا المساء ما استحققت أن يذكر اسمى على لسان ، ولا أن تبقى صورتى فى ذاكرة . ليتنى لا أموت هذا المساء ! دعاء أرفعه إلى الفضاء ، ولنقل إننى أسأل القدر ، ما دمنا لا نعرف غيره ؛ فما أظن أن الدعوة الحارة لا تجد صدى ولو لفظت فى الصحراء » . وهو ينظر فى أمره كله ويقلبه على جميع وجوهه ، حتى إذا استقبل عامه الأول بعد الأربعين كان قد استقر عزمه على أن يتأله ، أو يكون قديسا ، فهو يبدأ « يومياته » ليسجل خطواته فى هذا السبيل .

ولكنه لا يؤمن بالدين . فهو لا يريد أن يكون قديسا كقديسى الكنيسة ، بل يريد أن يحيا حياة القديسين ، يريد أن ينعم بلذة الفضيلة ، يريد أن يرفع الفضائل النفسية – فى ذاته هو – إلى أوج من العظمة . وهو يرى أنه بهذا يفى بحاجة من حاجات العصر : يفى بحاجته إلى قديسين ، فقد كان لكل عصر قديسوه ، ولكنه لا يرى لهذا العصر قديسين .

ويأخذ فى جهاد نفسه جهاداً منظماً ، يدونه فى « يومياته » ، وكلما خرج من معركة من هذه المعارك النفسية وجد نفسه مريضاً أو مستغفلاً أو محتقراً .. ووجد أنه لم يبلغ من فضائله المنشودة شيئا . ذلك لأن قديسى العصور القديمة كانوا يمارسون فضائلهم معتمدين على إيمان وثيق بالله واليوم الآخر ، كانوا يعتقدون أن الحق فى جانبهم وأن الله معهم ، فكان فى أفعالهم ثقة واطمئنان وجلال . أما هو فلا يؤمن بقوة

خارج نفسه ، ولا يبحث فى جهاده إلا عن نفسه ، ففضائله تبدو سخيفة مضحكة إذ يعوزها الوسط الذى لا تعيش وتنشط إلا فيه ، وكأنما هو رجل يحرك شفتيه بالغناء فلا يتجاوز غناؤه حنجرته .

ويتمنى سلاڤان أن يؤمن ، ويرتاد الكنائس ، ويعترف ، ولكنه لا يحس فى هذه التجارب كلها شيئاً من الصدق ، إنما هى حركات وأقوال لا تصدر من قلوب قائليها ، ولا تصل إلى قلوب سامعيها . هى أشبه بالبقايا المتحجرة من عصور إنسانية بائدة . ويكتب إلى قس بروتستنتى يسأله النصيحة لروح ضالة ، فيكتب إليه كتابا . موجزاً ذا رقم وتاريخ ، ويحدد له ساعة يلقاه فيها بعد أسابيع ... ويقابله فى مكتب كمكاتب رجال الأعمال ، وإذا هو أمام قس يرشد الأرواح الضالة « بالجملة » ، على طريقة الإنتاج بالجملة ويرد الإيمان إلى النفوس الحائرة بأحدث أساليب التحليل النفسى .

لا يستطيع سلاڤان ، إذاً ، أن يكون قديساً . وتنتهى هذه التجربة الأليمة بمرض طويل فى مستشفى مجانى ، دخله إثر حمى أصابته لأنه قدم معطفه وحذاءه - فى الشارع وفى ليلة من ليالى الشتاء - إلى أفاق لئيم ، لم يجد ما يعطيه إياه فآثر أن يقدم إليه كساءه على أن يحتمل نظرة الشك التى صوبها إليه . ويخرج سلاڤان من المستشفى وقد أكسبته هذه التجربة نوعا من الهدوء ، ولكنه ما زال يبحث ... يبحث بالمعنى المطلق لهذا الفعل ، كما يقول . ويهديه البحث إلى « نادى شارع ليونيه » ، وهو ليس بناد على الحقيقة ، وإنما هو حانوت إسكاف فقير يجتمع فيه بعض الشيوعيين الثوريين الذين يدعون إلى مجتمع جديد ، يجتمعون فيه خفية ليتباحثوا فى مشاكلهم ويدبروا أمورهم ، وإن كنا لا نعرف ماذا يدبرون بالضبط لأننا نراهم بعينى سلاڤان . وليس سلاڤان واحداً منهم وإنما هو فى اصطلاحهم «عاطف» ، وكما يقول أحدهم : «من أولئك المثقفون الذين ينزلون إلى الشعب . طراز ١٩٠٠» . فهم لا يطلعونه إذاً على كثير من أسرارهم ، ولكنه يفهم أنهم يطمحون إلى حياة أسعد ، ويراهم يعيشون عيشة خشنة ، ويعلم أنهم يلاقون ألوان الاضطهاد ؛ ونفسه نزاعة إلى السمو ، نواقة للألم ، فبينما هو يفكر أن يلقى بنفسه فى تلك النار يعلم من أمرهم مالم يكن يعلم ، فهم ثوريون فنيون ، لا يبالون كثيراً بالفرد ، لأن همهم تغيير المجتمع. عندئذ تنفر منهم فرديته فيقول لهم : إننى لا أسمح لنفسى بانتقادكم وأغلب ظنى أنكم مادمتم مقدمين على هذا الأمر فثم ما يدعوكم إلى ذلك. ولكنكم تستطيعون أن تغيروا مايسمى النظام ، وتستطيعون أن تخلفوا الطبقة الحاكمة ، تستطيعون أن تغيروا كل شئ ولكنكم إذا لم تغيرونى أنا - أنا سلاڤان مثلاً - فإنكم لم تغيروا شيئاً ! » .

فإذا سأله سائل منهم : « ولماذا تلح هكذا فى تغيير نفسك ؟ » أجاب فى صوت خفيض ولكنه واضح يسمعه الجميع : « لأنى .... لأنى جبان . » .

ويعكف وحده على هذه الفكرة يديرها فى نفسه حتى ينتهى فيها إلى نوع من الفلسفة . إنه يريد أن يغير روحه ، ولكن ليس فى ذلك شىء من المغالاة ولا الاستحالة بل إنه تجربة معقولة . فروحه ليست إلا أربعين سنة من العادات والحوادث والأفكار والإشارات والأقوال . إنها الحى الذى يعيش فيه ، والمنزل الذى يسكنه ، وملابسه وأثاث بيته ، وزوجته وأمه العجوز .... إن ما يسميه روحه هو ذلك العالم المألوف الذى يضغط عليه ويخنقه ، والذى يريد هو أن يرفعه عن عاتقه ويطوح به ...

ولكن سلاڤان لا يفارق أصحابه الثوريين حتى يدهمهم البوليس ويقضى ليلة فى السجن ويعود إلى داره فى صبيحة ذلك اليوم ليجد أمه تهلك أسى ....

وكأنما انفسح له المجال لينفذ مشروعه الجديد ، فهو يودع زوجته بخطاب قصير، ويمضى ليجرب أن يكون رجلا آخر غير سلاڤان . وقد تعلم فى هذه المرة إلا يطمح إلى أفعال رائعة .... لن يحاول أن يكون قديساً ، بل يكفيه أن يكون إنسانا يخفف آلام المنكوبين من البشر ، وما أكثرهم . فنراه فى القصة الأخيرة « كما هو » يعيش فى الجزائر باسم « سيمون شافجران » ، وكيلاً لشركة فونوغرافات ، وقد حلق لحيته واستبدل بنظارته المعدنية عوينات ذهبية الإطار ، وأصبح يحظى بإجلال عارفيه لأنه لا يفتأ يضرب الأمثال على تضحيته وإيثاره وحبه للإنسانية . فهو قد أنقذ صبية صغيرة من بين عجلات القطار فى مرسيليا ، وهو قد تبرع بدمه لجريح ، وتطوع لتمريض المصابين بالطاعون ، ثم هو يرعى خادمه « مختاراً » ويعلمه القراءة والكتابة ، ويحاول أن يثنيه عما هو منغمس فيه من قبيح العادات، إذن فقد بدأ يمارس أعمال الخير حقاً ، ولم يعد يجرب اكتساب الفضائل بطرق خيالية ، بل أصبح لأعماله مضمون واضح .

ولكنه على ذلك كله غير راض عما يفعل ! لماذا ؟ إنه غير مجرد من كل تفكير جماعى ، فلعله يرى أن طيبته وإنسانيته لا تستطيعان أن تخففا شيئاً من هموم البشر الثقيلة ، ولكن ضيقه يرجع إلى سبب آخر أهم من هذا ، فهو لم يقدم على هذه التجربة الكبيرة إلا لينقذ الإنسانية فى نفسه أولاً ، بأن يكون إنسانا خيراً فيما يأتى وما يدع ، عن سليقة وعادة لا عن تفكير وإرادة . وهو يرى أنه لم يبلغ من ذلك شيئاً ، فهو يرتد ثانية إلى نفسه ، ويصارح صاحباً له : « كيف يستطيع المرء ألا يكون إلا ما هو ؟ وكيف يحاول أن يكون غير ما هو بغير أن يصيبه الجنون ؟ » .

هو إذا لم يتقدم خطوة منذ فكر أن يغير روحه ، ولكنه يتعلم شيئاً واحدا : يتعلم أن « العمل الطيب إنما هو ثمرة تفكير يوازن ويختار . أنه النتيجة الثابتة لصراع باطنى كبير . » وتدخل هذه الحكمة على نفسه شيئاً من الهدوء ... فهو يستطيع إذاً أن يصل إلى السلام النفسى الذى ينشده عن طريق هذا الصراع الباطنى الموجه دائما نحو غرض طيب .

وتأتى نهاية سلاڤان فى عمل من هذه الأعمال الطيبة .

قتل خادمه مختار بائعاً إيطالياً برصاصة مسدس ، وكان سلاڤان يستطيع – بشىء من حضور الذهن – أن يمنع الحادث ، ولكنه لم يفعل ، واعتصم الخادم بقبو المنزل فسار إليه سلاڤان يضرع إليه أن يخرج ويعده بأن يدافع عنه ، وإذا بالخادم يرديه بمسدسه .

عمل من أعمال الطيبة . عمل يودى بصاحبه دون جدوى ولكنه يأتيه بالسلام النفسى الذى ينشده ، لأنه انتصار على تردد النفس وجبنها ، ومواجهة للجهل والظلام والشر ، ولأنه لطف ورحمة ، ولأنه عفو ومغفرة ؛ وتلك هى الفضائل النفسية التى جاهد سلاڤان ليبلغها ، فليكن عزاؤه إذ لم يحظ بها فى حياته ، أنه أحسها فى مماته ، وليكن عذره إذ لم يبلغ السلام النفسى الذى ينشده ، أنه دفع حياته ثمنا له !

* * *

وقد أردت بهذه المقدمة شرحاً وتفسيراً ، ولم أرد نقدا وموازنة . على أنى أكتفى بأن أقول إن سلاڤان الشاب أحب إلىَّ من سلاڤان الكهل ، ولعل القارئ يشاركنى فى هذا الحكم ، فإن سلاڤان الكهل أبعد عن الواقع ، وأقرب إلى أن يكون دعاوة لأفكار الكاتب ، وسلاڤان الشاب أروع سخرية وأقل تشاؤما على رغم ما ينتابه من يأس عنيف .

شكرى محمد عياد

- ١ -

أنا لا أكره السيد سيرو ، إنني جد آسف لأني فقدت وظيفتي ، وهي وظيفة طيبة ، ولكني لا أكره السيد سيرو ؛ فقد كان على حق ، ولست أدرى ماذا كنت أصنع لو كنت في محله ، وإن كنت أفهم - ويالِلأسف ! - أشياء كثيرة .

ويجب القول إن السيد سيرو لم يشأ أن يفهم . وكان يلزمني أن أوضح له كثيراً من الأمور ، ولكني بعد أن وزنت الأمر فضلت ألا أوضح له شيئاً . ثم إن السيد سيرو لم يدع لي فرصة لأتمالك نفسي ، وأبرر مسلكي . فقد كان محتداً ، ولأقل في غير مواربة إنه كان غليظاً ، بل كان فظًا . لا ضير ، فليس يخطر ببالي أن أكرهه .

أما السيد جاكوب فالأمر معه مختلف، فقد كان بوسعه أن يفعل شيئاً من أجلي، وقد رآني أعمل خمس سنوات ، كل يوم ، في الصباح وفي المساء ، وهو يعلم أني لست امرءاً خارقاً للعادة ، إنه يعرفني ، أي أنه - في أرجح الرأي - لا يكاد يعرفني . على كل حال ! كان يستطيع أن ينطق بكلمة - بكلمة واحدة ، ولكنه لم ينطق بهذه الكلمة ، ولست ساخطاً عليه لذلك ، فإن له زوجة وأولاداً ، وسمعة لا يستطيع أن يقامر بها .

ولا شك أني لو قلت ما أعلمه عن السيد جاكوب ... ولكن لينم قريراً ، فلن أقول شيئاً . إنه لم يدافع عني ، ولم يخلصني ، ولكني حين أزن كل الأمور لا أجد في نفسي كراهية له أيضاً . فهؤلاء الناس ليسوا ملزمين أن يدخلوا في اعتبارهم أشياء معينة . ولقد كان في هذا الحادث مجموعة من الظروف الشديدة الإيلام . فلنسلم الآن أني كنت وحدي المخطئ ، وما دام حال العالم كما تعرف فلأقل إني كنت مخطئاً . وسنرى بعد ! .

لقد مضى على هذه الحادثة وقت طويل ، ولولا أنك هجت ذكريات سيئة ما حدثتك عنها : ثم إني قد وقعت لي أشياء كثيرة منذ ذلك الوقت ، فربما أكون قد نسيت بعض التفاصيل . ويجب أن أنبهك إلى أني لم أر السيد سيرو غير ثلاث مرات ، وهذا قليل في مدى خمس سنين ، وهو راجع إلى أن بيت سوك وسيرو بيت عظيم جداً ، فليس في وسع هذين السيدين أن يعقدا صلات مع موظفيهما الذين يبلغون الألفين . أما عملي أنا فلم يكن له أدنى صلة بالإدارة .

وذات صباح بدأ التليفون يدق . ولست أدرى أأنت من أولئك الذين تؤثر فى حواسهم الأجراس والنواقيس وسائر هذه الأجهزة الجهنمية ؟ أما أنا فأستفظعها . وإن وجود جرس كهربى فى المكان الذى أنا فيه ليكفى لتكدير حياتى ! ولهذا السبب وحده أغتبط أحياناً بتركى الخدمة . إن صليل الجرس ليس صوتاً كغيره من الأصوات . إنه مثقاب ينفذ فجأة فى جسمك ويخرز أفكارك ، ويقف كل شىء حتى نبضات قلبك . إنه شىء لا يؤلف .

هاهو ذا التليفون يدق . فيصغى كل من فى المكتب ، دون أن يبدو عليهم ذلك . وينقطع الصليل فينتظرون .. لست أشد عصبية من غيرى ، ولكن هذا الانتظار أيضاً قطعة من العذاب ، فنحن ننتظر لنعلم أتكون هناك دقات أخرى أم لا تكون .

فإذا كانت دقة واحدة فهى للسيد جاكوب . وإذا كانت دقتين فهما لفلوج السويسرى . أما أنا فأذهب إذا دقت ثلاث دقات . ولابد أن الدقات الثلاث أصبحت لأودين بعد أن ذهبت ، وكان على عهدى ينادى بأربع دقات . أودين ! إنه ليس عصبياً هو أيضاً ، ولكنه لا يكاد يسمع الدقة الأولى حتى يأخذ فى قرض ظفره ، عن غير وعى بالطبع ، حتى أصبحت لإصبعه تلك مجلة متنقلة .

وفى اليوم المذكور دقت دقة واحدة لا غير دقة كبيرة طويلة مستقيمة ، فيها ثقة تؤذى .

فيخرج السيد جاكوب من وراء ستره ؛ يخرج من كنه ، حيث يرابط كحصان السباق فى حظيرته ، ويرفع السماعة ويميل معتمداً برأسه على الحائط ، حيث ترك شعره على مر الزمن بقعة مزيتة .

ويبدأ الحديث وأنا شبه مصغ . وعجيب دائماً أن ترى رجلاً طيباً يحادث العدم ويبتسم له ويتلطف إليه . رجلاً طيباً يحدق فجأة إلى الدهان البنى على الحائط وكأنه يرى شيئاً يثير الدهش .

على أن السيد جاكوب لم يبتسم فى ذلك اليوم ، ولم يتلطف ؛ فقد ارتبك منذ سمع الكلمات الأولى ثم علاه الاحمرار ؛ ثم أغضى وجعل يتأمل المدفأة الكهربائية القابعة فى ركنها شتاء كأنها كلب صغير ساخط .

أما أنا فكنت أبرى قلما ، وغنى عن البيان أنى كنت أكسر سنه بين لحظة وأخرى . وسمعت السيد جاكوب يدمدم : ولكن ياسيدى ، لكن ياسيدى .... ففكرت

فى أعماق نفسى « إن أعاد « لكن ياسيدى » هذه فلسوف أنهض وأصفعه صفعة تصك رأسه بالحائط ! » .

وأنا دائماً أحدث نفسى بأشياء كهذه . والواقع أنـى أمـرؤ شـديد الهدوء وأنى لا أكاد أفعل شيئاً من هذه الأشياء التى أحدث بها نفسى . وأنت تدرك أنى لم أكن لأصفعه ، ولكنى لم أزل أكسر سن قلمى وأوسخ أطراف أصابعى . وذكرنى السيد جاكوب بأولئك الوسطاء الروحانيين الذين يدعون مخاطبة أرواح الموتى ، والذين يخلعون عليها - آخر الأمر - نوعا من الحياة . فقد كانت تسمع - حين يصمت - ضوضاء خشنة ، كأنها آتية من آخر الدنيا أميز فيها - قليلاً قليلاً - صرخات صوت مغضب .

وانتزع السيد جاكوب نفسه من الجهاز فجأة، ووضع السماعة متحسساً مكانها، ومخطئاً الخطاف ثلاث مرات قبل أن يعثر عليه . فاستبد بى الغضب ولكنه - بلا شك - لم يبد على . وأفلحت أخيراً فى أن أبرى قلمى برية جيدة ، ومسحت أصابعى فى طرف سراويلى ، حيث لا يظهر أثر الرصاص .

ويمضى السيد جاكوب إلى كنه ، ويفتح صناديق من الورق المقوى ويقرقع بأوراق ثم يصيح فجأة :

- سلافان ! تعال هنا برهة !

كنت واثقاً أن ذلك سيحدث . فنهضت طائعاً ، ووجدت السيد جاكوب ينتزع شعرات أنفه ، وهذه عنده علامة قلق شديد . قال لى :

- خذ هذه الكراسة واحملها أنت إلى السيد سيرو . ستجده فى حجرته بالإدارة . قل له إنى أصبت بوعكة مفاجئة .

ووقف عند هذه العبارة ، ومد بصره نحو النافذة وهو يطرف بعينيه ، لينظر إلى شعرة من خيشومه . ثم وضع الشعرة على نشافة وأضاف وهو يكبح رغبة شديدة فى العطس ملأت عينيه بالدموع :

- هيا يا سلافان ، أسرع !

ولكى تصل إلى مكتب السيد سيرو يجب أن تمر بأجزاء كثيرة من البناء . وحين تكون النوافذ مفتوحة فى الصيف ، والأبواب منفرجة لتدخل النسيم ، يلمح المرء أقساماً متعددة بعضها فوق بعض ، والرجال وهم يعملون فيها .

فمن هؤلاء من هم غارقون حتى صدورهم فى مكاتب أمريكية مركبة الصنع كالآلات الميكانيكية . ومنهم من يتدلون ذابلين من قمم كراسى عالية بغير مساند ، مدببة كالعصى . وهناك جدران عريضة ، مغطاة بصناديق الأوراق ، تذكرنى بمقبرة بيرلاشيز ، ويمر أمامها - على ممرات مرفوعة فى الهواء - صبيان أو ثلاثة ، يبدو عليهم الدأب وكثرة العمل كأنهم نحل العسل. وربما تسمع نقراً كصوت شؤبوبِ المطر، فتدخل بهواً واسعاً يعزف فيه الكتبة على الآلات كالمجانين ، موسيقى كموسيقى العاصفة ، تتخللها دقات أجراس قصيرة . وترى فى غير هذا المكان كوى تذكرك بالقط المبتل والفراء الغليظ ، فى أسفلها رجال يضغطون سجلات النسخ تحت المكبس ، وهم يقبضون أيديهم بشدة ويعضون على نواجذهم . وبالإجمال كانت اللوحة كلها تمثل مكانا كل ما فيه منتظم ، أى أنها كانت تمثل شيئاً لا يمكن أن يقارن بالفردوس الأرضى .

وفى الدهليز الموصل إلى مكتب السيد سيرو خادم ذو سترة رسمية وجورب أبيض . سألنى عن رقم القسم الذى أعمل به ودفعنى إلى غرفة فسيحة وهو يتمتم :

- إنه ينتظرك .

- فعرفت لتوى حجرة السيد سيرو ، وإن كنت لم أدخلها غير مرة واحدة إذ أنى رأيت السيد سيرو فى المرتين الأخريين فى قسمنا . رأيت جدران الغرفة مغطاة بورق أزرق داكن ، وحواف النوافذ والأبواب مدهونة بلون حلوى العنب ، وفى أحد الأركان نموذجاً « لدرأسة وذراية سوك وسيرو » وعليها أوسمة المعارض .

وكان هو هناك ! ولعلك تعرفه وتعرف أنه رجل قوى البنية نوعا طويل القامة ، حليق الرأس ، له شارب منتفش ولحية صغيرة خشنة ، وشعر وخطه الشيب ، وعوينتان تهتزان دائماً لأنهما لا تمسكان إلا بقليل من الجلد تحت الجبين .

نظر إلى السيد سيرو عن عرُض ولم يزد على أن قال :

- أجئت من التحرير ؟ وما بال السيد جاكوب ؟

- إن به وعكة .

- كذا ؟ هات !

كل ذلك وأنا واقف تجاه المكتب ذى الطراز الامبراطورى ، لا أدرى أيحسن بى أن أضم عقبى وأشد جسمى أم أنثنى قليلاً كما يقف الجندى وقفة الراحة .

ويجب أن أعترف لك بأنى عشت فى عزلة شديدة فى بيت سوك وسيرو . فكنت أكره المناسبات التى تجبرنى على الخروج عن وظائفى وعاداتى . لقد كان على أن أصحح المكتوبات لا أن أقف أمام أمير من أمراء الصناعة . فلعنت السيد جاكوب وأعددت له بعضاً من تلك العبارات المجوّدة التى ماكنت لأقولها آخر الأمر . وكنت أشعر بقلق فى جسمى الذى لم أكن أدرى ماذا أصنع به . أحسست بعضلاتى تتقلص حتى تؤذى كل منها الأخريات ، وشعرت شعوراً غريباً بأنى أكوّن التواءة مضحكة ضخمة ، لا بوجهى وحده ، بل بجذعى ، ومعدتى وأطرافى ... بجثمانى كله .

ومن حسن الحظ أن السيد سيرو لم ينظر إلى ، بل كان ينقر بأصابعه على الكراسة التى قدمتها إليه ، وهو يكظم فى نفسه غضباً شديداً .

قال فجأة وهو يضغط الصفحة بسبابته ولا يرفع أنفه :

– كتابة رديئة ... لا تقرأ ... ما هذه الكلمة ؟

فخطوت أربع خطوات إليه . وأنحنيت وقرأت بلا تردد وبصوت مرتفع : « تبرعاً » وجعلتنى هذه الحركة بمقربة من السيد سيرو ، وعلى كثب من ذراع كرسيه اليسرى .

وعندئذ لاحظت أذنه اليسرى ، وإنى لأذكرها جيداً ومازلت أرى أن لم يكن بها شىء خارق للعادة . كانت أذن رجل دموى نوعاً ؛ أذناً كبيرة فيها شعر وبقع بلون ثمالة النبيذ . ولست أدرى لماذا جعلت أنظر إلى هذا الغضروف بانتباه شديد لم يلبث أن أصبح مؤلماً . كانت هذه الأذن جد قريبة منى ، ولكن شيئاً لم يبد لى قط بعيداً . كبعدها ، ولا غريباً كغرابتها ، ففكرت : « إنها من اللحم الإنسانى ؛ وثم أناس يجدون لمس هذه اللحمة شيئاً طبيعياً جدًا ؛ وثم أناس يألفون ذلك اللمس . » .

ورأيت فجأة ، وكأنى فى حلم ، صبيًا صغيراً – والسيد سيرو ذو أسرة – صبياً صغيراً – يطوق عنق السيد سيرو بذراعه . ثم لمحت الآنسة ديبير ، وكانت كاتبة على الآلة، وكانت للسيد سيرو معها علاقة لغط بها الناس. رأيتها منحنية على السيد سيرو ، تقبله هناك ، خلف الأذن بالضبط . وكنت أفكر فى أثناء ذلك : « أجل . إنها لحم إنسانى . من الناس مَن يقبلونها . هذا طبيعى . » ولست أدرى لماذا بدت لى هذه الفكرة عسيرة التصديق ، وأحياناً مستنكرة . وتتابعت على مخيلتى صورة مختلفة ، حتى انتبهت فجأة إلى أنى حركت ذراعى اليمنى حركة خفيفة ، مقدماً السبابة ، فأدركت على الفور أن بى رغبة فى أن أضع أصبعى هناك على أذن السيد سيرو .

وفى هذه اللحظة زمجر الرجل الضخم وهو ينظر فى الكراسة، وتغير وضع رأسه، فشعرت لذلك بغضب وارتياح ممتزجين . ولكنه عاود القراءة ، فأحسست أن ذراعى قد بدأت تتحرك بلطف .

وقد روعتنى أول الأمر هذه الحاجة من يدى إلى مس أذن السيد سيرو . ثم بدأت أشعر تدريجياً بأن عقلى ينصاع لتلك الرغبة . وأصبح ضرورياً لى - لألف سبب لم أتبينه - أن ألمس أذن السيد سيرو ، وأن أثبت لنفسى أن هذه الأذن لم تكن شيئاً محظوراً ، ولا معدوماً ، ولا وهميا ، وأنها لا تعدو أن تكون لحماً إنسانيًا كأذنى أنا . وفجأة مددت ذراعى بحركة مقصودة ، ووضعت سبابتى بلطف ، هنالك حيث أحببت ، على قطعة من الجلد الأحمر فوق الشحمة بقليل .

سيدى ؛ لقد عذب داميان لأنه طعن لويس الخامس عشر بسكين . وتعذيب إنسان عار كبير لا يمكن أن يسوغه شيء . ومهما يكن فقد أصاب داميان الملك بأذى قليل . أما أنا فلم أصب السيد سيرو بأذى ، ولم يدر بخلدى أن أصيبه بأقل أذى ، ستقول لى إنى لم أعذب ، وفى هذا بعض الصحة .

لم أكد ألمس بطرف سبابتى - وبرقة - أذن السيد سيرو حتى وثب هو وكرسيه إلى الخلف . ولابد أنى كنت شاحباً بعض الشحوب ، أما هو فقد أزرق لونه كما يحدث للمرضى بالصرع حين يشحبون . ثم انقض على درج ففتحه وأخرج منه مسدساً .

لم أتحرك . ولم أتكلم . وشعرت بأنى جئت أمراً إدا. كنت خاوياً، منخوباً ، مطموساً .

ووضع السيد سيرو المسدس على المنضدة بيد ترتجف ، فكان له حين مس المنضدة صوت كصوت الأسنان حين تصطك . وجأر السيد سيرو جؤارا .

ولا أدرى على التحقيق ما حدث بعد . فقد أمسك بى عشرة من غلمان المكتب ، وجرونى إلى غرفة مجاورة ، ونزعوا ملابسى وفتشونى . ثم ارتديت ملابسى ، وجاءنى شخص يحمل قبعتى ، ويبلغنى أن الأمر سيكتم ، على أن أغادر الدار من فورى . وسير بى إلى الباب ، وجاءنى أودين فى الغد بأدواتى الكتابية ، وأشيائى الخاصة .

إليك هذه القصة المحزنة . إننى لا أحب روايتها ، لأنى كلما رويتها استحوذ على ألم لا يوصف .

- ٢ -

ولا يغيبن عن بالك أن قصة سيرو كانت بداية مصائبى .

وحين أقول « مصائبى » لا أريد بذلك على وجه التخصيص تلك المتاعب الكبيرة التى عانيتها لضياع وظيفتى ، بل أعنى فى الغالب الأزمة الروحية التى أتخبط فيها منذ تلك الفترة ، وقد لا أخرج منها أبدا .

وفى ذلك اليوم سبرت وأشرفت على أعماق لم تعد نفسى تستطيع تجنبها . كان هنالك شبه انفطار بين السحب ، وفى لحظة نظرت بجلاء إلى أعمق الأعماق .

عبث أن تسرد بمنطق العقل أشياء لا تخضع للعقل . وإنى لأفضل أن أروى لك الحوادث التى وقعت من بعد . ويجب أن تلاحظ – بهذه المناسبة – أن إطلاق اسم الحوادث على صغائر لا قيمة لها – ككل شىء فى – أمر يبعث على الإشفاق إن أنت تأملته .

وقعت مشاجرتى مع رجال السيد سيرو فى نحو الساعة العاشرة صباحاً . ولم تنتصف الساعة الحادية عشرة حتى وجدتنى فى الطريق . فلم يبق أمامى إلا شىء واحد أعمله : أن أعود إلى المنزل .

وأنا أقيم مع أمى . وإذ كنت لا تعلم من الأمر شيئاً فيجب أن أشرح لك كل شىء ، وأن أروى لك كل شىء ؛ وهذا أمر لا يطاق ، فالمرء حين يتحدث عن نفسه لا يفرغ أبداً .

إن أمى أرملة . فقد مات أبى قبل أن أتجاوز طفولتى الأولى ، فأنا لا أكاد أعرف شيئاً عنه . وليعلم أن ذكرياتى الشخصية المحضة قليلة جداً . وقد روت لى أمى – عدا هذه الذكريات القليلة – أربعمائة مرة بعض قصص عن أبى ، حتى أصبحت هذه القصص جزءاً متمماً لذاكرتى ، وأصبحت مضطراً إلى أن أجهد نفسى إجهاداً لأميز هذه الذكريات عن ذكرياتى أنا .. ولكنا سنتحدث عن أبى مرة أخرى .

كنا نقيم دائماً فى مسكننا بشارع پوده فير . وهو ثلاث غرف ومطبخ فى الطبقة الرابعة ، وإنى لأشمئز من هذا المسكن ، ولكننى مع ذلك لا أستريح إلا فيه .

فالمسكن هو المكان الذى ينتهى بأن يصبح أشبه بصورة للكائن . وما علينا إلا أن ندرك ذلك لنرى كل مافيه من كآبة . بل من كآبة لا تحتمل .

كان لأمى دخل ضئيل . وكانت تتوصل بهذا الدخل وبالقليل الذى أكسبه إلى أن تقوم بشئون البيت قياماً حسناً . إن أمى امرأة جديرة بالإعجاب إنها الشخص الوحيد فى العالم الذى يجعلنى أرغب أحياناً فى أن أركع على ركبتىَّ .

أقول لك هذا غير قاصد . على أنه من الخير - ولا شك - لو يركع الإنسان على ركبتيه أمام أحد ما ، ولو يوقره ، ولو يفتح له قلبه ، ولو يفوض إليه كل أمر . وحين أفكر فى البشرية ، حين أفكر فى هذه الكائنات الإنسانية ، لا أنكر عليها ما تقترف من شر ، بقدر ما أنكر عليها أنها لا تتهيأ لأن تتلقى من حين إلى حين رغبتنا المتحكمة فى أن ننبطح أمام الواحد منهم ، ونحتضن قدميه ، ونعاهده على الوفاء ، ونخدمه خدمة العبد أو خدمة الكلب . آه ، نعم ! إنك لا تستطيع أن تنال شيئاً من هؤلاء الوحوش ! إنك تقدم إليهم روحك ملتهبة ، وتنتزعها لهم حية ، فيبدو الشك على وجوههم وكأنهم بائع الكروش حين ينظر إلى نقد زائف .

وأعيد على مسمعيك القول إن أمى امرأة جديرة بالإعجاب . فهى كريمة الخلق ، شجاعة ، لا تكاد تشبهنى . وأنا - ولا شك - خليق بالاحتقار ، ولكننى أرجو أن تصدقنى إذ أقول لك إنى خليق بالاحتقار لأسباب أنا وحدى الذى أعلمها ، لأسباب لاتخطر على بال أودين ولا السيد جاكوب ولا لانو نفسه . فهؤلاء يحسن بهم - بدلاً من أن يحتقرونى - أن ينظروا فى أنفسهم بثبات وجلد .. وبعد فلعلهم فى قرارة أنفسهم لا يحتقروننى .

غير أن فى أمى عيباً صغيراً . فهى تعاملنى دائماً وكأنى مازلت ذلك الطفل الصغير الذى كانت تدلله وتؤنبه فيما سلف . وهذا يحنق رجلاً يدلف إلى الثلاثين . والحق أن أمى كثيرة التأنيب .. وأنا أعلم أن هذا عيب صغير جداً ، ولكنه مع ذلك يؤلمنى إيلاماً شديداً ، وخصوصا فى مناسبات معينة وفى عيب أمى هذا كنت أفكر وأنا خارج من محلات سوك وسيرو .

وأنعشنى الهواء الطلق . فبدأت أتمالك نفسى ، وأستجمع أفكارى التى شردت فى كل سبيل ، كأنها جياد عربة أيأسها طول الشوط .

وسلكت طريق أوسترلتز وحاولت أن أفهم ما قد حدث لى ، وجعلت أكرر : «إنى رميت إلى الباب .. إنى رميت إلى الباب .... رميت إلى باب المكتب » ومن العسير على أن أنتزع أفكارى من نغم السير ؛ فلما كانت خطواتى منتظمة انتظاماً كبيراً أخذت أوقع عباراتى العنيدة على نغم البولكا .

ووقفت فجأة . فقد بدا لى أن من الضرورى إعلان هذا الخبر لأمى . وأن هذا الخبر كان محزناً جداً . وأنه ينطوى على نتائج مخوفة .

فكففت عن السير واعتمدت بمرفقى على السور الذى يشرف على نهر السين .

وكان الحجر أقرب إلى البرودة فى ظل الأشجار . وكنت بحاجة إلى هذه البرودة وإلى هذا السكون ليتضح إحساسى بما فىّ من حمى واضطراب وكفتنى دقيقة واحدة من السكون لأتبين أنى لم أكن قط فى حالتى الطبيعية تلك الحالة العجيبة التى لا أكون فيها ألبتة .

على أنى وجدت فى هذه الوقفة القصيرة روحاً . والهين من الأشياء يسعدنى . ولكن البلوى أن أهون الأشياء يفسدنى . فما أقل تماسكى !

كان هناك جماعة من الحمالين ينزلون البضاعة فى مركب شراعى . فكانوا يرفعون أحمالهم على حافة الرصيف ويصلون إلى القارب على ألواح طويلة مرنة تتموج صورها على الماء . وشعرت أول ما نظرت إليهم بسرور حقيقى ثم خلتنى أسير على الخشبة الضيقة كأنى بهلوان ، فعرانى شبه دوار واستحوذ على الضيق فانتزعت نفسى عن الحجر وتابعت السير .

وسرعان ما تذكرت أننى يجب أن أعلن لأمى الخبر الفاجع ، وجثمت على صدرى هذه الفكرة .

بدا لى من السهل أن أقول : « إنى فقدت عملى » : فالعبارة قصيرة ، يسيرة ، حاسمة ، ولا يلوح لى نطقها مستحيلاً . وتراءات لى وجوه كثيرة للإفضاء بهذا الاعتراف الأول . فأستطيع مثلاً أن أجلس محطما – وإنها لحالة لم أكن بحاجة إلى تكلفها – وأقول بصوت عال : « أماه ؛ إنى فقدت عملى . » وربما كان أدنى إلى اللباقة والبراعة أن أذهب وأجىء فى الغرفة كعادتى ، حتى لا أزعج المرأة المسكينة ، ثم ألقى فجــأة بهذه الكلمات بنغمة يتجلى فيها عدم الأكتراث : « وبهذه المناسبة ! أتعلمين أنى فقدت عملى ؟ » وتراءى لى أن من الممكن أيضاً أن أدخل المسكن ثائراً ، وأقذف – فى عنف – بعبارة كهذه : « دناءة ! فظاعة ! إنهم جعلونى أفقد عملى » ثم تخيلت الصدى المؤلم الذى يكون لمثل هذا الانفجار – ولو كان مصطنعاً – على صحة أمى ، ففضلت أن ألجأ إلى خطة أيسر ، فأدخل حجرتى ، وأخلع حذائى بحركة مسموعة ، فتقول لى أمى : « لماذا تخلع حذاءك ؟ هل أغلق المكتب هذا المساء ؟ » فأجيبها : «كلا ، ولكنى لن أعود إليه ، فقد كان بينى وبين الرؤساء كلام شديد، وفقدت عملى»

وأكرر لك أن هذا القسم من الحديث لم يبد لى منطويا على شىء من الصعوبة . ولكنى كنت أضيق صدراً حين أفكر فى أنى يجب أن أعود على الأمر بالشرح ، وأوضح أسباب خروجى ، وأروى القصة .... تلك القصة العظيمة التى أصبحت - الآن على علم بها .

أما هذا فلا ! لن أفعل ذلك مهما تكن الدواعى ! لقد قلت لك إن أمى امرأة جديرة بالإعجاب ، ولكنها سوية الطبع . معتدلة النفس ، فليس بمقدورى أن أطلعها على هذه المغامرة المضحكة ، على هذا الأصبع الموضوع على أذن الرجل الضخم الطيب ، على هذه الحماقة!

ولكن .. أهذه حماقة ؟ أهذه مغامرة مضحكة حقًا ؟ كلا ! ألف مرة كلا ! لن أقر لك بأنى مجرم ولا بأنى أحمق . أهذه هى إنسانيتكم ؟ هاك رجلاً مثلك ومثلى ، بينى وبينه حد بلغ من قوته أنه يجعلنى لا أستطيع مس جلده بطرف إصبعى دون أن أكتسب صفة المجرم . إذاً فلست حرًا ؟ إذن فالفرد محاط - كالأقطار البحرية - بمساحة لا يجوز للأجانب أن يبحروا فيها إلا بعد أن يستكملوا مراسم خاصة ؟

أنا لا أتظاهر بالشذوذ . فما خلقت إلا كخلقة غيرى . وإن شيئاً ليقول لى : إن هذه الفكرة التى حفزتنى إلى الحركة فى تلك المناسبة لفكرة من الأفكار التى يعرفها كل الناس . إنها لفكرة شاذة مضحكة ، ولكنها - فى صميمها - فكرة طبيعية . أما أن الاستسلام لمثل هذه المشاعر شىء يليق أو لا يليق ، فهذه - وأسفاه ! - مسألة أخرى .

إنى أكره الكذب . ولئن كان ما نلقاه من الشر فى التخلص من الحقائق يكفينا ، هل يجب أن نمزج شقاءنا بشقاء جديد ؟ لهذا لم يخطر ببالى أن أروى لأمى أنى فصلت وفقاً لخطة عامة فى نقص الموظفين ، أو أن دسائس زملائى الحاسدين هى التى أدت إلى فصلى . أو بالأحرى- وما دمت قد حدثتك عن ذلك - خطرت لى هذه الفكرة ، ولكنها لم تلبث إلا ريثما رفضتها فى سهولة .

كانت أفكارى - كما ترى - بعيدة عن أن تدخل الاطمئنان على نفسى . وحين وصلت إلى جسر أوسترلتز كنت قد صممت أن أعلن خبر فصلى بلا أدنى تعليق .

إن جسر أوسترلتز جسر جميل . فهو يمتد وسط مساحة كبيرة بيضاء . وإذا أصاب باريس شىء قليل من الضوء فهو لجسر أوسترلتز . هنالك لا ينقطع النسيم ، ولا روائح السفر ، ولا المراكب العمول ، ولا الباعة من كل جنس ، ولا المصورون

فى الهواء الطلق ، يتخذون من أردية نسائهم حجراً مظلمة ليعيدوا ملء أجهزتهم . هنالك - فى إيجاز - كل ما يستهوى النظر ، وفى الجسر احديداب يسير كأنما دغدغته عربات الترام والأثقال التى تجرى على فقاره . وأقول لك مجملا إنى معجب بمنطقة جسر أوسترلتز فهى مكان لم تتوشح صلاته بذكرياتى السيئة ، ولست أذكر أنى مررت قط بجسر أوسترلتز خزيان أو غاضباً . ومثل هذه الأمور لها وزنها .

ولكن جسر أوسترلتز - واأسفاه ! - لم يغن عنى شيئاً فى ذلك فاليوم . فقد كانت همومى محرقة فلم يمدنى جسر أوسترلتز بقوة .

فأممت حديقة النباتات وقلت لنفسى : « لا شك أن الدرب المحاط بأشجار الساج أرفق بى » فإن هذا الدرب الممتد الذى يصعد نحو المتحف مكان أجد فيه السعادة دائماً .

وكان الدرب المحاط بأشجار الساج خيبة مطلقة . فحين وصلت إلى ما يوازى قمة بيوت النبات الزجاجية كان ضيقى وكدرى قد زادا بعض الزيادة عما كان حين عبرت بوابة الحديقة . وتركنى الدرب أنساب منه ، مظهراً عدم اكتراثه بى ، غير معنى اليوم بأمرى إلا كما يعنى بأجنبى ، غير مظهر لى آية واحدة من آيات الصداقة ، أنا الذى ربت عليه بطوله منذ خمس سنوات ، أربع مرات كل يوم فى الصيف ، وثلاث مرات فى الشتاء .

فاعترانى شعور مؤلم بأن الأشياء تهجرنى وتناوئنى . وإنها لبادرة شؤم ياسيدى أن تخوننا الأشياء فى المناسبات الخطيرة .

بل إن منظر الحديقة النباتية جلب على كدراً لم أكن أتوقعه . فقد كانت الحديقة مغلقة ، ففهمت أنى جئت قبل موعدى ، وإذا واصلت السير كان وصولى إلى المنزل رأد الضحى أمراً غير مألوف يعجل بالكارثة ، أعنى أنه يعجل بالإيضاح .

فعدت أسير نحو حظيرة الدببة . ولم يفارقنى - وأنا أفعل ذلك - غضب أخرس ، لأن عاداتى جميعها قلبت رأساً على عقب ! لا عجب إذا أنكرنى العالم المألوف ، فقد أوقعت الاضطراب فى كل شىء ، ونقضت الاتفاق ، ووصلت فى وقت لا أنتظر فيه ، كما يعود الزوج المرتاب فجأة من سفره .؛

كان لدىّ أكثر من ساعة أضيعها قبل أن أستطيع الوصول إلى شارع پوده فير . فأمضيت هذا الوقت أطوف حول الحديقة النباتية ، كسفينة على مرأى من الميناء تنتظر المد لتدخله .

وكنت عازما ألا أنبس بكلمة من قصتى ، ولكن ثقتى بأن أمى سوف تستوضحنى الأمر لم تعفنى من الغيظ .

قلت لنفسى : « إن وجهت إلى أدنى لوم فلن أجيبها بشىء . سأظل جامداً ، متكبراً ، كمن عانى ظلماً فادحاً . فأنا الفريسة فى هذه القصة بعد كل شىء . لقد عانيت ظلماً فادحاً ومن حقى أن يُعتذر إلى وأن يطيب خاطرى .

« لا شك أنها ستؤنبنى . فهى تعاملنى دائماً كما لو كنت طفلاً . ولا شك أنها سوف تندب حظها ، وتسألنى أسئلة ، وتكلمنى عن النقود .. أوه ! أما هذا فلا ! إن هذا الموضوع قادر بطبعه على إثارة حنقى . أنا لا أحب أن أسمع حديث النقود .

« فإذا حدث أنها أنبتنى فلن أخفى عنها شيئاً من أفكارى . سأقول لها رأيى فى تلك الوظيفة القذرة التى أضعتها . أغلطتى أنا أنى اشتغلت بالأعمال الكتابية ، وأنا الذى كنت أريد أن أدرس الكيمياء ؟ إنى لا أصلح ألبتة لهذه الصناعة المكتبية . لماذا أجبرتنى أمى على أن أعمل أولا فى بيت موتيه ، ثم فى بيت سوك وسيرو ؟ لقد خلقت للكيمياء . كل ما حدث كان لا بد أن يحدث . لماذا لم تدعنى هى أسلك طريقى ؟ صحيح أنا فقراء . ولكن هذا ما كان سبباً ليحور حياتى ، ويضيع مستقبلى ، ويكدر سعادتى بل يحطمها . كلا ! كلا ! إنى لا أقبل أى لوم فى شأن هذه الوظيفة التى ضيعتها فلولا أنى أجبرت على قبولها ما ضيعتها » .

وكنت أحس وأنا أذرع الدروب المتمعجة فى ذلك التيه أن جيشاً من الأفكار السامة ينفخ فى حتى يمتلئ جوفى، فكانت خطاى ترتد دائماً فى تلك الدائرة الحمقاء، ومشاعرى تدور حول نفسها ، كجماعة من الزرازير لا تدرى أين تنزل ، ووصلت بالتدريج إلى هذه النتيجة : أن أمى هى الشخص الوحيد المسئول عن شقائى . فهى التى تركتنى أضيع عهد الدراسة بغير أن تحفزنى إلى السير فى الوجهة الصالحة ، وهى التى دفعتنى إلى البحث عن أعمال لا تتفق مع شخصيتى ، وهى التى ستنحى على الآن باللائمة ، فتحدثنى عن متاعبنا المالية ، وتبصرنى بحماقتى وسوء تدبيرى . كلا ! كلا ! إنى لا أستطيع احتمال ذلك .

كان الجو إعصارياً هداماً للقوى . وأجهدنى الجولان فتصببت عرقاً وصرت أمشى وكأننى مخمور . والحق أنى كنت ثملاً . كنت ثملاً بالمرارة والغضب . ومع ذلك فقد ضمنت الشىء الجوهرى : لقد أعددت جوبتى كلها ، وكنت محشوا بالحقد حشو المدفع بالبارود . كنت مستعداً . كنت عازماً على أن يكون لى فصل الخطاب .

تستطيع ياسيدى أن تزدرينى . إنى أوافقك على ذلك . ولكنى يجب أن أذكر الأشياء كما هى ... تخيل الآن أى مجنون كنت حين سمعت الساعة تدق نصفاً بعد الثانية عشرة ، وحين جعلت وجهتى شارع پوده فير ، ومشيت مسرعاً كمن كدح ليكسب قوته .

* * *

الدهليز الذى يخترق منزلنا، محاذياً أرض الشارع، مظلم عند الباب كأنه جحر . أكلت بلاطه فى الوسط خطى لا تحصى ، حتى بدا وكأنما شقه من أوله إلى آخره مسيل تثوى فيه المياه الوحلة التى جلبتها الأحذية إليه ، فهى ليست بقايا من مياه المسح ، لأن البوابة عجوز لا تمسح أبداً .

لهذا الدهليز عندى أنطباعات حية أليمة . فهو من تلك الأمكنة التى تكون جزءاً من نفوسنا . وكل أفراحى وأتراحى وثوراتى سبكت بين جدرانه ، فتركت عليها آثاراً لا تمحى : بقعاً غير تلك التى تخلفها الرطوبة وروائح وحشية أنا وحدى الذى أشمها ، وذكريات كثيرة خشنة ، تبطئ دائماً من خطوى ، وتشرب نفسى الكآبة .

والشمس أم النسيان لم تر هذا الدهليز قط منذ ذلك اليوم الذى ضل فى ثنايا الماضى ، يوم أن دفنه البناءون تحت المنزل ، كما دفنت المقابر المصرية تحت الأهرام . ولعل هذا هو السبب فى ازدحام الدهليز بالأشباح .

وأنا آلفه ، كما نألف هذه الأمراض التى أصبحت جزءاً من عاداتنا وكما نألف الأزاهير المرسومة على الحائط فى ليالى الأرق .

آلف مثلث الضوء الشاحب الذى يرسمه مصباح الغاز من الطوار على حائط دهليزى فى ليالى الشتاء .

آلف الرائحة المسكينة الباهتة التى تحوم مع الأهوية المختلفة فى أحشاء منزلى . ولو بعثت بعد خمسمائة عام لعرفت هذه الرائحة بين روائح العالم أجمع . لا تسخر منى ، فعساك تعز أشياء أقذر من هذه ، وأعسر على الاعتراف .

وإن اتفق لى أن عدت من نزهة من النزهات التى ينوق فيها المرء لذات كثيرة جديدة ، ويستشعر فيها رغبات لا تحصى ، أو أتفق أن عدت من نهار جميل كما يعود

المرء من حمام مطهر ، فإن دهليزى يضرب على كتفى ويقول لى : « حذار ! فما أنت إلا سلاڤان ! » وتعرونى البرودة لهذا التصريح ، ولكنه يفيدنى ، فمن العبث أن يخدع المرء عن أمر نفسه .

وها أنت ترى أن للدهليز عملا فى قصتى نفسها . فهو يعطلنى ، ويبرد قصتى ، ويشلنى كما كان قميناً أن يفعل فى ذلك اليوم . يوم مغامرتى .

ولكنى ذكرت لك أنى كنت شديد التوثب ، فعبرت الدهليز وكأنى عبرت مستنقعاً مليئاً بالأشواك ، جرّحنى ولكنى مضيت ، ووجدت نفسى قد وصلت بحركة واحدة إلى مَسطح الطابق الأول .

وهناك تعيش بوابتنا العجوز ، فى ظلمة تسكنها روائح المطبخ ، تحت نفثات مصباح غازى لا ينطفئ أبداً ، له أنبوبة يغشاها الماء . ويموت الضوء ويبعث مائة مرة فى الدقيقة ، وبين شهقاته وزفراته ترى نافذة صغيرة تطل على الفناء الداخلى المعتم .

وبوابتنا العجوز تكاد تقضى نحبها فى نفس المكان الذى غرست فيه . وهى تموت مبتدئة برأسها كما تموت أشجار الصفصاف ، فهى شبه مجنونة ، وقد كادت تفقد بصرها من أثر سحابات فى كلتا عينيها أحالت إنسانيهما أبيض اللون ، وعلى الرغم من ذلك فهى تعرفنا جميعاً – نحن ساكنيها – بخطانا ، وتنفسنا ، وبكثير من العلامات الصغيرة الأخرى التى تدلها علينا ، ولا تستطيع هى تحليلها ، فتكاد حساسيتها تلك تشبه حساسية القواقع الساكنة .

دقت البوابة الباب وقالت لى :

– لويس ؛ هناك خطاب لك وجريدة أزياء لمرجريت . فلعلك تسلمها إليها فى طريقك يابنى .

ومرجريت جارتنا ، وهى خياطة . فتناولت الخطاب وجريدة الأزياء ، ومضيت فى صعودى . وكنت أصعد مسرعاً حتى لا أدع لما اعتزمته من الأمور وقتاً تتبدد فيه . وأحدثت لى دورات السلم دواراً خفيفاً كان مألوفاً لى . وعلى الرغم من توتر أعصابى لم أخلف عادتى القديمة قدم حياتى ، فقرأت هذه اللافتة عند مرورى بالطبقة الثانية : « لبارنيو : اختصاصى فى أحذية القماش ونعال الليف » . ولبارنيو صانع بائس يعيش فى فقر مدقع . ولكنى لا أريد أن نضيع الوقت فى الحديث عنه .

حين وصلت إلى مسطح الطبقة الرابعة وضعت جريدة الأزياء على « اللبادة » أمام باب مرجريت ، وأسرعت فنقرت بأصبعى نقراتى الخفيفة على بابنا . ولبابنا جرس ، ومعى مفاتيح ، ولكنى لا أستعمل ذلك كله ، فلى طريقة خاصة فى النقر . إن هذا يبسط الحياة .

وجاءت أمى لتفتح لى ، وفعلتُ وفى ذلك اليوم – أول الأمر – ما ألفت أن أفعله . فإن ساعات الحياة اليومية تكون جهازاً شامل القدرة ، تشدنا أجزاؤه المتتابعة ، وتدفعنا ، وتسيرنا على رغم ما قررناه فى أنفسنا . وأعنى بهذا أنى قبلت أمى ووضعت عصاى فى الأصيص الكبير ، وعلقت قبعتى على المشجب ، وذهبت إلى المطبخ لأغسل يدى ، فكنت أطيع قوى عتيقة مستبدة ، ولكنى لم أفقد شيئاً من غضبى الذى كان يتلوى فى باطنى كما تتلوى قطة فى زكيبة .

وتبعتنى أمى إلى المطبخ ، ورفعت غطاء الوعاء النحاس بطرف المحركة فى لطف ، وقالت لى وهى تهز رأسها :

– لقد صنعت لك يالويس شريحة صغيرة من لحم الضأن . إن اللحم غال فى هذه الأيام ، ولكنى أردت أن أصنع لك شريحة صغيرة من لحم الضأن ، فأنت تحبها !

قل لى ، ماذا جاءت هذه الشريحة لتفعل وسط عذابى ؟ أيجمل الكلام عن المطبخ مع رجل حاق به الظلم ، رجل يتناهبه اليأس والغضب ؟ لقد ملأتنى شريحة الضأن هذه خزياً . لقد جعلتنى هزأة أمام نفسى . لقد جرحتنى جرحاً عميقاً ، وأحسست إحساساً واضحاً أن أمى تسخر منى .

وبعد فلم الكلام عن ثمن اللحم ؟ إنى أعلم جيداً أن اللحم غال . أتكلمنى أمى عن تكاليف الحياة فى اللحظة التى فقدت فيها وظيفتى ؟ أؤكد لك أن عبارتها لطمتنى كأنها صفعة ، ولكنى لم أقل شيئاً ، حتى لا أغيض شيئاً من حنقى ، وحتى أدعه كاملاً مخيفاً لا رد عليه . واستعرضت فى سرعة كل أجوبتى ، فإذا هى مجهزة حاضرة لاذعة ، مصفوفة أمام عينى كالأسلحة .

وتأهبت للذهاب إلى غرفتى حتى أخلع حذائى بحركة مسموعة كما عزمت . لكن خانتنى الشجاعة فى اللحظة الأخيرة ، فقلت لنفسى : « خير لى أن أنتظر فرصة مناسبة ، كأن تحدثنى أمى مرة أخرى عن شريحة الضأن هذه » .

وبدأنا نتغدى . وكانت معدتى مقبوضة متقلصة ، فلم آكل بشهية ، وجعلت أنظر إلى قعر صحفتى ، وأزيح قطع اللحم حتى أرى شقوق الخزف وأنا أعرف بالدقة كل ما فى صحافنا القديمة من شقوق .

وشعرت بنظرة أمى مثبتة على لا تفارقنى ، فقلت لنفسى : لابد أن مظهرى يدل على ، وأن عارى مكتوب بجلاء على وجهى ، واستنتجت من ذلك أنى مخلوق تافه ، عاجز عن إخفاء مشاعره . وزادنى ذلك حنقاً .

وكنت أنظر بين ألوان الطعام دون أن أنبس بكلمة ، ولم أرد أن أضع يدىّ على المائدة ، فقد كنت أحس نوعاً من الخجل من يدى . كنت إذا أضمرت سرًا هامًا خانتنى يداى ، فقد كانتا عاجزتين عن التصنع . لهذا تركت ذراعى مدلاتين - وهما مفرطتا الطول - وجعلت أعبث فى جوربى بأطراف أصابعى ، وتلك لوثة مضحكة لا أستطيع التخلص منها . فقالت لى أمى برقة تنطوى على إهانة بالغة :

- دع جوربك ياولدى المسكين ، فربما خرقته .

فوضعت على المائدة يدىّ المرتعدتين من الغضب . لماذا « ولدى المسكين » ؟ أنا لا أحب أن يُرثى لحالى ، وخصوصاً إذا كنت لا أستحق غير الرثاء . وبعد فلم الحملة على عاداتى وخزعبلاتى ؟ لقد جاوزت السن التى تسمح لامرئ فى مثل طباعى بإصلاح نفسه . لم تبد لى ملاحظة أمى غير مجدية فحسب - فقد أبدتها ألف مرة من قبل - بل بدت لى كذلك مهينة فى تلك الحالة التى كنت فيها . ثم إنى استقبحت أن أوصى بالحرص على جوربى فى لحظة يكاد فيها فقرنا يتحول إلى تعاسة .

أوشكت أن أطلق العبارات المعدة التى زحمت حلقى . ولكن بأيها أبدأ ؟ لقد كانت تتدافع لتخرج ، كالخراف المجنونة التى تريد أن تنفذ كلها - فى وقت واحد - من باب ضيق . وهكذا لم أقل شيئاً فى هذه المرة أيضاً .

وأتممت غدائي وأنا أنظر إلى الأثاث والجدران والمدخنة ، إلى تلك الأشياء التى شهدت على وجودى وائتمرت معى فى أفكار كثيرة باطنية : إلى الأرنبين الخزفيين على خزانة الطعام ، وإلى الساعة الكبيرة التى تحمل تمثالاً صغيراً من البرونز ، والتى تعرف عنى أقاصيص يحسن أن تحتفظ بها لنفسها . ونظرت إلى الرسم التيرولى فى إطاره ، إلى منظر الجبال الذى استنزفت وغيضت فيه أجمل أحلام طفولتى .

لم تشأ إحدى هذه الأدوات أو قطع الأثاث أن تشاطرني ما أنا فيه . كلها نظرت إلى بقحة . وشعرت أنها ستكون جميعاً - عند أول كلمة من النزاع - في صف أمي ، وأنها ستكون جميعاً حرباً على .

وحين فرغنا من الطعام لاحظت على زاوية آلة الخياطة ذلك الخطاب الذي سلمته إلى بوابتنا .

ولابد أن نظرة أمي كانت تواكب نظرتي . فسرعان ما تمتمت :

- لعله خطاب من لانو . أظنني عرفت الخط . إنك لم تفتحه .

وكان ذلك حقًا . فأنا - من أنتظر بقلق محموم ساعي البريد الذي لا يكاد يحمل لي شيئاً ، ومن لا أفتح خطاباً إلا فكرت أنه يحمل الخبر العظيم الذي يمكنه أن يحول مستقبلي - أنا لم أفض هذا الخطاب .

فتحته بحذر عبوس : وما ظننته إلا خبرًا سيئًا ، فقد كنت أبحر في برزخ أجدني فيه معرضاً لضربات القدر ، وقلما يضيع القدر فرصته .

لم يكن فيه شيء . لم يكن فيه شيء على الإطلاق . فلانو يخبرني أنه بدأ عطلته ، ويدعوني أن أذهب لزيارته في أول فرصة : قالت أمي :

- أتذهب هذا المساء ؟

فابتدرت شفتَي عبارة لم أعدها قط ، وأفلتت من بينهما لم أستطع حبسهما . أجبت :

- كلا . سأذهب عصر اليوم .

وما كدت أنطق بهذه الكلمات حتى شعرت باقتراب الأزمة ، ولم يكن في مقدوري أن أتراجع ، فقد أعلنت الحرب . وأحسست وجهي يلتهب ، وصدغيّ يرتعدان ، وشفتي تقلصان كشفتي جرو يتحفز للعراك .

كانت أمي على وشك أن تقول « كيف عصر اليوم ؟ والمكتب ؟ » فلم أدع لها وقتاً ولفظت بقوة منفجرة :

- لن أذهب إلى المكتب عصر اليوم . لن أذهب إلى سوك وسيرو . انتهى ! انتهى ! لقد فقدت عملي .

كنت واقفاً متصلب الأعضاء ، ولكنى أحسست على الرغم من ذلك أنى متحفز متهيئ للوثوب . وكنت أتنفس بمشقة . كنت أنتظر .

وكانت أمى جلسة على مقعدها قرب النافذة ، فرفعت رأسها بغير عجل ونظرت إلىّ .

وأمى تلبس منظاراً لكبر سنها . ولها عينان نواتا زرقة دافئة براقة . وهى حين تريد أن تحسن النظر ترفع عينيها لتنتفع أكبر انتفاع بمنظارها .

هكذا نظرت إلىّ مليًا فى هدوء ، ورأيت نظرتها الحلوة مثبتة علىّ ، تلك النظرة المفعمة بحنان قلق ، تلك النظرة التى لم تفارقنى مذ كنت فى هذه الدنيا . وأحسست ساقى تهتزان ، فتمتمت أمى بصوت طبيعى عميق واثق :

– ما بالك ياولدى لويس ؟ الوظيفة ؟ هنا لك غيرها . ليس هذا بشر كبير .

ياللحكمة القدسية ! ياللطيبة ! إن هذا صحيح . ليس هذا بشر . رأيت ذلك بلمحة . وكان حقًا أنى لم ينزل بى شر . إذن فلم كنت شقيًا ؟ لم كنت تعساً ؟

تقدمت خطوة فخطوة . ثم أحسست أنى لم أعد مالكا لأمرى ، وأن رعيل الحيوانات الثائرة التى كانت تهاجمنى قد ولت الأدبار منهزمة عنى . وانطبع فى نفسى إحساس ممزق بأنى أنقذت وانتشلت من الهاوية . فسقطت على ركبتىّ أمام المرأة المسكينة ، وأخفيت وجهى فى ثوبها وأخذت أنتحب بعنف وجنون ، نحيباً ينبعث من معدتى ، وينبسط كالأمواج الصاعدة من غور البحر ، طارداً كل شىء ، كاسحاً كل شىء ، مطهراً كل شىء .

- ٣ -

فى دنيا الناس عاصفة تهب دائماً . فطوبى للقلوب المحترقة التى ترودها ! طوبى للأرض المقفرة التى ترويها تلك العاصفة !

لا أخفى عنك أنى بكيت . إن الأشياء التى يجب أن أخفيها جد كثيرة ، فلأعترفن بتلك الدموع ، فإنى مدين لها بأحسن لحظة فى حياتى .

قلت لك إنى كنت راكعاً أمام أمى . كنت ساجداً أمام تلك الطيبة السمحة ، أمام تلك البصيرة الرءوف . ولم أكن أتعجل النهوض ، أنا الذى لا أفكر فى شىء إلا أن أغير مكانى . لم تقل أمى شيئاً ، وكانت قد وضعت يديها على رأسى ، ولا بد أنها كانت شديدة التأثر ، ولكنى أحسست على الرغم من ذلك أنها تحك بطرف ظفرها بقعة على ياقة صدريتى . إنها جد معنية بى ، جد مهتمة بأمرى . جد مزهوة بى - المسكينة ! - كأنه فى الإمكان أن يزهو بى أحد !

جمعت خواطرى شيئاً فشيئاً حتى قلت :

- أماه ! نحن نعانى أزمات مالية !

فما كان منها إلا أن أجابت فى بساطة :

- بل إننا لا نعانى أزمة مالية ياولدى لويس .

وكان ذلك حقًا ، فقد كنا فقيرين ، ولكنا لم نكن نعانى أزمة مالية . واضطررت أن أعترف بذلك .

وشعرت شيئاً فشيئاً بأن نوعاً من الفرح المشع يغزونى . وفعلت أمى ما تفعله كل الأمهات فى هذه الظروف : مشطت شعرى ، وربطت رباط عنقى ، وأمرت على وجهى يداً ناعمة لم تستطع أعمال المنزل أن تكسوها خشونة .

ثم فتحت الصوان ذا المرآة ، صوان عرسها ، وأعطتنى منديلاً مطرزاً ، وشيئاً من الماء المعطر ، وملبسة أيضاً .

وأكلت الملبسة وأنا أحبس آخر شهقاتى . كنت صبيًا فى العاشرة ، بل فى الخامسة ، بل كنت صغيراً جدًا حتى وددت لو أننى أهدهد . والحق أعتقد إنى تركت نفسى أهدهد . فلندع هذا الحديث .

كنت فاهما تمام الفهم أن أمى لن تطلب منى إيضاحاً ما . ولو لم يكن غير هذا لوددت أن ألقى بنفسى مرة أخرى عند قدميها ، وأن أقبل حذاءها .

ولكنى فعلت خيراً من ذلك : قدمت إليها كل ما يمكن تصوره من إيضاح . قصصت عليها ما كان منى فى نهارى كله . قصصته عليها بكل تفاصيله لم أحذف منه شيئاً : لا السيد جاكوب ، ولا إصبعى ، ولا أذن الرجل الطيب الضخم . وكانت المسكينة تبتسم . وقد ارتعدت قليلاً لذكر المسدس ، ولكنها سرعان ما تمالكت نفسها . وعادت إلى الابتسام ، بل ضحكت لتؤكد لى أن كل ذلك لم يكن ذا بال ولا خطر .

أما أنا فأعلم أن هذا كله كان ذا بال وذا خطر . وقد أجادت أمى فى محاولتها أن تنسينى الأمر . يا للحظة الجميلة العزيزة ! أترانى كلما أذللت نفسى أمام ذلك الكائن المقدس ، أحسست أننى أسمو وأعظم وأتحرر ! .. هذا أمر غريب لا آخذ نفسى بأن أوضحه لك .

مازلت أرى منظراً من ذلك اليوم المذكور : كنت جالساً على الكرسى الوطىء ذى المسند المرتفع ، وهو من طراز فولتير ، وكنت أتكلم بحرارة وأمى جالسة القرفصاء أمامى ، تخلع حذائى بلطف وتلبسنى كوثى ، لأنها تعلم أنى أحب أن أمكث فى المنزل ساعتين بغير أن ألبس نعلين خفيفتين وملابس عتيقة .

وتابعنا حديثنا ونحن نضحك ضحكات عالية . ولم تبد لى حياتى ولا مستقبلى أنصع مما بدوا فى ذلك اليوم . ولم أشعر نحو الإنسانية بعطف مخلص لا تحفظ فيه كالعطف الذى شعرت به ذلك اليوم .

كل ما لمسته احتفى بى فى أخوة صادقة . وذهبت إلى حجرتى فشعرت أن الأثاث يحيينى بترحاب صامت .

وحجرتى صغيرة مكتظة . هى مملكتى ، وهى وطنى ، وقد ورثت – عن أسلاف مجهولين – أريكة موقرة تشغل ضلعاً كاملاً من الحجرة بين الخزانة والسرير . ولكى أمضى فى قصتى لا أريد أن أتحدث عن تلك الساعات – ماذا أقول ؟ – عن تلك الساعات الجهنمية التى لا تحصى والتى أنفقتها على تلك الأريكة . وبحسبك الآن أن تعلم أن هذه الأريكة فى نظرى مكان مقدس ، فرب مرة ملكت العالم فى الحلم وأنا مستلق عليها .

وبدت لى أريكتى فى ذلك اليوم متألقة تحت كسائها الحائل اللون ، وذكرتنى بكل ما قرأناه معا ، فأنا أقرأ دائما وأنا راقد ، لأنسى جسمى ما استطعت ، ولأكون أشبه بالميت فى حياتى الخاصة ، وأعيش بكل ما فى مع أبطالى .

وأخذت أنبش الحجرة لأجد عقب سيجارة قديمة . فأنا أحب الأعقاب التامة البرودة ، وأتعمد ترك بعض اللفائف دون أن أتم تدخينها لأجدها فى الصباح .

ولـم أجد عناء فـى الحصـول على ما أردت ، وشرعت أدخن وأنا مستلق على ظهرى .

كنت أدخن فى منزلى ، وعلى أريكتى ، عصراً ، وفى غير يوم الأحد . والحق أن هذا كان أمراً خارقاً ، وكان أمراً رائعاً . كانت للتبغ نكهة يزيد طيبها أنك لا تستطيع أن تدخن فى المكتب أثناء النهار . ولست أذكر يوم الأحد ، ذلك اليوم المحترم ، فللتبغ يوم الأحد نكهة الحرية ، وللحياة نكهة كنكهة التبغ .

ورأيت – وأن مستلق على الأريكة – ألواح الخشب الرقيقة التى تنوء بثقل كتبى . وثبت نظرى على كعوب المجلدات فرأيت مجموعها يتموج كماء جدول . وهذا خيال قديم مازلت أسر به أو يقفُ له شعرى . وفى ذلك اليوم طربت له .

أمضيت على أريكتى ساعة غذية روية مركزة . ساعة من تلك الساعات التى يمكنك أن تتحدث عنها عشرين سنة . ثم ذهبت إلى النافذة لأطالع الكون .

كان الشهر أغسطس. فكانت رائحة المجارى الرطبة تتصاعد من وسط الشارع ، مختلطة برائحة الخضر وصياح الباعة ذوى العربات الصغيرة ، الزاحفين بلا انقطاع فى شوارع الحى الذى أقطنه . والشارع يبدو كأنه شق بإزميل بين كتلة صخرية من الأبنية . وكانت النوافذ كلها مفتوحة ، فكنت ترى الناس كما ترى كائنات مستعمرة حيـوانية فـى صخرة عالية مشرفة على البحر ، وقد برزت من مكامنها وقت الجزر .

وإن كنت لا تعرف شارع بوده فير فأصنع معى معروفاً ولا تذهب لتكتشفه . فأنا أعلم أنك سوف تتقزز منه ، ولكنى أكره أن أسمع أحداً يعيبه ويحقره ، وأفضل أن أكون أنا وحدى من يذمه .

واستبنت فى أغوار تلك المساكن تفاصيل شتى كانت تبدو لى من قبل حقيرة قذرة ثم بدت لى فى ذلك اليوم شائقة مؤثرة ، ولو استطعت لخاطبت جيراناً لم يكن يبدو على فى العادة أنى أراهم .

ونادتنى أمى ، فذهبت إليها وأنا أغنى بملء صدرى ، فقالت لى مقالتها التى رددتها ثلاثة آلاف مرة :

- خسارة أنك لا تريد تعلم الغناء ، فإن لك صوتاً جميلاً صداحا .

وأتحفتنى بمفاجأة أخرى . فأخرجت من الصوان كأسين رقيقتين كفقاقيع الصابون ، وقنينة من خمر سنك تير ، وقد أهدى إلينا ذلك الشراب قريب لنا أقام مدة فى إيطاليا .

وليس بى شراهة، ولكن هذه الزجاجة من الخمر القوية كانت متعة لى. قالت أمى :

- اشرب هذه قبل أن تزور لانو ، اشرب هذه حتى يتم نشاطك ومرحك وإذا شئت أن تبقى لتتعشى مع لانو ، فلك أن تفعل .

ونقلت هذه القطرة من الخمر سرورى نقلة ألزمت معها أن أمشى ، وأن أنهك نفسى وأضنيها وأستنزفها .

فغيرت ملابسى وقبلت أمى الطيبة ، ودرت هابطاً الدرج بأقصى سرعة .

ينحدر شارع موفتار من الشمال إلى الجنوب، فيخترق حيًا قذراً مكتظًا صاخبًا، كأنه قناة غذائية تمتد فى أظلم أجزاء المدينة .

وحى موفتار كأنه شد بأرسان إلى جبل سان جنفييف . فكأنه شاطئ صخرى منحدر صمود ، تتكسر عليه أمواج باريس الجديدة .

وأنا أحب شارع موفتار . ففيه مشابه من أشياء كثيرة عجيبة شتى : إنه يشبه مسكن نحل وضعت عليه قدمك . ويشبه تلك السيول التى يجلب النسيانَ هديرها . وهو لاصق بالمدينة كأنه طفيلى نام . وهو لا يحتقر سائر الأرض بل ينكرها . وهو مكتظ قذر كأنه خنزيرة .

ولحى موفتار عاداته الخاصة به وقوانينه التى لا يكون لها معنى ولا سلطان وراء نهر مونج . والغريب القادم من وسط المدينة ، إذا ضل طريقه فى شارع بلانفيل أو فى ميدان كونترسكارب اجتذبته دوارة موفتار كأنه قطعة من القش ، وسرعان ما يندفع مع الشلال .

وشارع موفتار يبدو كأن به نهماً وحشيًا ، فهو يحمل على سرواته وعلى رءوسه وعلى أطراف أذرعه التى لا تحصى ، ألوفا من الأطعمة ذات الروائح القوية . والجميع

يبيعون والجميع يشترون . وبعض الباعة الأدنياء يطوفون ببضاعتهم فى راحات أيديهم : بثلاث ثومات أو بكامخ أو بعود من ثمر الحناء ، فإذا باعوا هذه البضاعة بيعة رابحة اختفوا وانقضى نهارهم .

وعلى حافات السيل تتكدس جبال من اللحم النيئ ، والأعشاب الخضراء ، والدواجن البيضاء ، والبطيخ الضخم ، وتفتت مياه السيل هذه الخيرات وتذهب بها على مجرى النهر ، لتولد من جديد عند مطلع الفجر .

والمنازل مدهونة بألوان غليظة هى وحدها الألوان المناسبة ، وهى وحدها الألوان الممكنة . فكل باب من ورائه بائعة شواء ، ورائحة الدهن المسخن تصعد بين الجدران كأنها بخور محرق بين يدى إله شره .

وأنا أروى لك كل هذا لأن شارع موفتار كان أول مرحلة فى سعادتى بعد أن خرجت من المنزل .

كانت الساعة قرب الخامسة عصراً ، وقد بدأ الشارع يسكن ، فإن هجومه العظيم يكون وقت الصباح .

وأن تمر بشارع موفتار يوماً وأنت مفعم بالسعادة فذلك متعة سخية تركت نفسى أنزلج حتى بحيرة جوبلان ، كما ينزلج رحالة فى زورق على حافة نهر استوائى . كان كل شىء عندى مصدر إلهام ، فوصلت – مع مرور الدقائق – إلى حالة من الغنى والامتلاء .

وكانت فى حوانيت القديد فتيات سمينات يأخذن الحياة مأخذ الرقص وينعمن على الفطائر بإشارات مرسومة ، بل بلمسات حانية رقيقة ، فيا للفطائر الحلوة !

وكانت الشوارع القذرة الضيقة ، كالسرب الذى سلكه موسى باليهود فى البحر ، تكن ظلا بلون قاموس المحيط ، ظلاً شرقيا تندفع فيه أفكارى مستطلعة ظافرة .

وتمليت منظر جميلة تبيع الأعشاب المطهوة : مخلوقة فارعة تبدو دائماً وكأنما أبطأها ثقل حلاها الطبيعية ، قيض لى هذا المنظر فى الطريق ، وفى اللحظة المناسبة وهل كان من الممكن أن أحرم شيئا فى ذلك اليوم ؟

كانت كأس خمر سنك تير تتوهج فى جوفى كأنما هى جذوة . فسرت وكأننى أمشى على الهواء . كنت مشمولاً بالبركات . كنت ميسراً لكل غريبة .

كنت - أكثر من عشرين ثانية - إسكافاً فى حانوت تفوح منه رائحة الجلد الروسى . وكانت عشرون ثانية أخرى نصف قرن من حياة التفلسف ، فى عزلة كاملة كأنها كشتبان الخياطة .

كنت تاجر سمك بين ألف سمكة زاهية اللون ، بين جيش من جراد البحر اصطدته بنفسى عند الفجر من بحر مزبد ترصعه الجزر الصغيرة .

وكنت زارع خضر ، وغارس كرم ، وراعى بقر . وحملنى عثكول من الموز إلى الصحراء فى إثر قافلة ، ولكن رائحة المملحات ما لبثت أن فتحت لى مزرعة دخنة فى ريف سيفان .

ما أطيب السعادة ! وما أيسرها وأسهلها ! أصدقنى القول ياسيدى كيف يدبر الناس أمورهم على ألا يكونوا سعداء ، على الرغم من كل ما منحوه من أسباب السعادة ؟

ولما وصلت إلى كنيسة سان ميدار لمحت زميلاً قديماً يدعى ديلونى ، عرفته حين كنت أعمل ببيت موتييه . وكان يشترى طماطم من إحدى النسوة الثرثارات اللاتى يزحمن بسلالهن رصيف شارع موفتار .

جاءنى والهم باد عليه ، وروى لى قصة طويلة مختلطة ، عن زوجة مريضة ، وطفل ميت ، وأشياء أخرى لست أدريها ..

فأحسست تأثراً مؤلماً ، وطفرت فى عينى الدموع ، ماكان أشد طيبتى فى ذلك اليوم ! ياللّه ! ما كان أعظم شفقتى وطيبتى فى ذلك اليوم !

ولم أستطع كبح جماح قلبى ، فقلت لديلونى :

- أمحتاج أنت إلى نقود ؟ فالأمر كما تعلم ...

فرفض وهو ينظر إلى متعجباً قلقاً . أما أنا فقد نظرت إليه وأنا أفيض عاطفة ، فقد زاد يأسه نشوتى . وربما كان ما أقوله الآن شيئاً فظيعاً . ولكن ألمه آثار فى نفسى عطفاً حاراً لم يخل من لذة . قلت له :

- أأستطيع أن أسدى إليك خدمة ؟ أمحتاج أنت إلى ؟

وجعلت نفسى رهن تصرفه . ووعدته أن أزوره ، وتركته وأنا أقاسمه على الوفاء والولاء .

ولم أزره . بل لا أعلم ماذا كان من أمره ، وما عدت أعنى نفسى بأن أفكر فيه ، وعلى الرغم من ذلك فقد كنت حرياً فى ذلك اليوم أن أضحى بأشياء كثيرة ، حتى لايكون شقياً .

إن الظل الذى ألقاه على سرورى لم يزد ذلك السرور إلا تألقاً . فلم تمض خمس دقائق حتى استحوذ على قلبى من جديد ، وملأه كأنه ورم ، وكاد يصبح مربكا ثقيلاً محمله . إنى أحدثك طويلاً عن ذلك السرور ، فاعذرنى ، فما كان ذنبى أنى كنت مسروراً فى ذلك اليوم وقد ثقل على السرور حتى كدت أبكى .

سار بى ذلك السرور العظيم كما يسير شراع منتفخ بقارب على الماء . فصعد بى فى خفة شارع مونج ، وهو مشعب قوى يمتص وسط المدينة قرب المساء ، ويرسل فيضاً متدافعاً إلى الأحياء الجنوبية .

وبعد قليل رأيت نفسى فى المنطقة المقفرة التى تحيط بهال أو كان . وكانت تسطع بحذاء البوابات رائحة منعشة ، هى رائحة براميل نبيذ مفتوحة ، وكانت هذه الرائحة من أجلى .

ولست أدرى – على التحقيق – أين ذهبت بعد ذلك ، فقد كانت أحلامى تختلط بلا انقطاع بالعالم المحسوس ، حتى أنى لم أعد – فى الواقع – موجوداً فى مكان بذاته ، من ذلك الوقت إلى أن كانت الساعة السادسة .

ولعلى وجدت – فى تلك الأثناء – فى أمكنة كثيرة من العالم ، ولعى لم أوجد فى مكان ما . حتى إذا كانت الساعة السادسة ثبت إلى نفسى وأنا على رصيف طريق بوردون .

وكانت هذه محنة حقاً فطريق بوردون مكان مخوف لمن لا يثق بنفسه ثقة كبيرة . إياك أن تقتحم طريق بوردون فى عصر يوم من أيام الصيف مالم تكن فى حالة من الرضى . فهو كئيب محرق . وروائح القناة والأضواء التى تنعكس عليها تحدث للمتنزه دواراً وغثيانا .

خرجت ظافراً من طريق بوربون وانصببت بعزة إلى ميدان باستيل ، وهو مجلجل كالسندان ريان بالإشعة .

ورأتني ضاحية سان أنطوان وأنا أنساب في ضبابة وهاجة ، كرجل أثمله نصر عزيز . وبعد قليل شارفت شارع كلر حيث يقيم لانو . ومضيت أنفق سعادتي مسرفاً وأنا لا أرقب آخر كيسي .

* * *

- ٤ -

لا نـو رفيق من رفاق الصبا ، وهو البقية الباقية من عالم أدُّرج في الأكفان . لانو مجموعة ذكريات لا تحصى ، وهو بعد ذلك رجل ، رجل أحبه حباً صادقاً فقد كان دائماً شطراً من حياتي . ولم يكن من أولئك الذين قاسمتهم على الصداقة الأبدية وأنا في سن الثانية عشرة ، فهؤلاء لا أدرى الآن أذهبوا أم مازالوا أحياء . لم أرسم خططاً مع لانو ، أو قلما فعلت ذلك ، وهذا - بلاشك - هو السبب في بقائه موصولاً بكل ما يحدث لى .

أنا أحب لانو حبًا هادئاً رقيقاً . أو بعبارة أخرى إن الشعور الذى أجده نحوه يبدو لى صداقة نقية صالحة ... ولكن من الإسراف في الغرور أن أعتقد فى نفسى القدرة على الإحساس بعاطفة حقيقية .

ولا أظن لانو يعلم شيئاً عن كنه صداقتى له . فإن شيئا ما - هو شكل آخر من الغرور - يدفعنى إلى إخفاء أصدق ميولى كأنما هى مظاهر ضعف . ثم إن لانو لا يعلم أنه صديقى الوحيد . فقد تركته دائماً يعتقد أن لى علاقات أخرى ممتعة قيمة لا تحصى . وهل أستطيع أن أعترف للانو بأنى فقير الطبع لا أستطيع أن أصادق الكثيرين ؟

ولانو كاتب عند أحد وكلاء الدعاوى . وقد تزوج المرأة التى أحبها ، والتى سيحبها دائماً ، وله منها طفل جميل أنا عرّابه ... فيالى من عراب !

وكانت الساعة السابعة قد انتصفت حين وصلت إلى منزل لانو . ولم تمض دقيقتان حتى كنت قد صرحت أوضح تصريحاتى . فقد قالت لى مارث زوج لانو :

- أخرجت من المكتب ؟ إن الوقت مبكر ......

فأجبتها :

- أنا لا أذهب الآن إلى المكتب . لقد غادرته ....

وسرعان ما ألقى على لانو أسئلة كثيرة أجبت عنها مرحاً سادراً شارداً ، شأن الرجل الذى تتراءى له صور المستقبل مغرية شتى .

كنت نصف مستلق على الأريكة العريضة التى تجعل من حجرة آل لانو شبه ثوى للزائرين ، أنظر إلى مارث وهى تحم الرضيع قبل أن ترقده فى السرير .

وكان أكتاف لانو يدخن فى غليون صغير من خشب الزيتون ، وقد أمال رأسه الدقيق التركيب الجميل المنظر على كتفه . فكان منظره يعبر عن سعادة هادئة تشبه الغيبوبة أو الخواء أو العدم . كان يعبر عن سعادة مألوفة تشبه سعادة ساعة ذات خطار أديرت مائة عام ، أو سعادة حجر يسقط فى الفراغ سقوطاً أزلياً .

وكانت مارث يبدو عليها الرضى الذى يسبغه وجود خال من الهموم . وكانت على الرغم من ذلك مقطبة الجبين لاتنى تدمدم لعناد عابر يظهره الصغير ، أو لقطرة ماء تقع على الحصير ، أو لقطرة أخرى تصيب مرآة الصوان .

وعجبت لذلك عجباً شديداً ، أنا الذى لا أدرى شيئاً عن السعادة الحقيقية ، أنا الذى لا أظفر بست ساعات ولا بأربع من السعادة كل عام . وفكرت بغضب مكتوم : « ما قيمة هذه القطرة من الماء ؟ لو أطلق نهر سين كله إلى حجرتى اليوم ما انتقص ذلك من سعادتى شيئاً » .

وتأملت الجماعة التى يؤلفها هؤلاء الأصدقاء . فبدا لى أن الصغير وحده يحيا فى سعادته .

وأما الآخران فهما ينامان فيها ، إن صح هذا التعبير . ونظرت إليهما بشىء من الاحتقار ، وبشىء من الشفقة أيضاً . وفكرت : « إن لديهما كل مسببات السعادة ومع ذلك فهما يشبهان الموميات وسعادتهما كأنهما محفوظة فى القش . أما أنا فرجل بائس ، وولد عاق ، وموظف مطرود ، ولكنى أجدنى اليوم ممتلئاً حتى عينى بسعادة صادقة عنيفة عظيمة ، تنظر إلى سعادتهم كما تنظر جبال هملايا إلى ضفدع . إن فى هذا ظلماً ولكن فيه متعة ! هيا ! هيا ! فلننفخ فى هذه البحيرة الراكدة » .

فجعلت أصفر بملء صدرى ، وجعلت أصفر كإعصار . وأخذت أرتكب خزعبلات لا تحصى ، وكل منها كأنها تشبع شهوة شيطان من الشياطين التى استبطنتنى .

حملت الصغير على كتفى لأرقص به رقصات تدير الرأس . وكان هذا المخلوق الصغير وحده فى مستواى ، وفى مثل حالتى من ثورة السعادة ، فكان يصرخ صرخات عالية ، تحدث نوعاً من الارتياح الحاد لأشياء غريبة كانت تجيش فى نفسى .

وأخذ لانو وزوجته يتحمسان قليلاً قليلاً ، حتى استيقظا بعد الغيبوبة وبدا كأنهما يقولان « أحقا أننا سعداء ؟ فلماذا لا نمرح ؟ ولماذا لا نرقص ؟ ولماذا لا نصيح ولا نثب ولا نقهقه ؟ » .

وأما أنا فقد كنت أرقص ، وكنت أصيح . وكان مرحى مخيفاً .

قال لى لانو فجأة .

– أتبقى لتتغدى معنا ؟

وكنت أتيت على هذه النية ، ولكنى أبديت بعض الأعذار ، ليتوسلا إلى أن أبقى . فما إن كف لانو عن الإلحاح حتى نضح صدغاى بالعرق .

فقد تراءت لى أمسية موحشة ، مع ذلك الحمل الثقيل من المرح الذى لا أستطيع حمله وحدى . ولكن لانو واصل إلحاحه ، فقبلت على الفور فى جبن ، وأنا أكاد أتلعثم من الخوف .

وكانت تلك اللحظة عقدة منفكة فى شبكة طربى المشدودة ، ولحسن الحظ التقطت العقدة على الفور ولم يظهر مثلها بعد .

وأرقد الطفل فى احتفال عظيم . وسرعان ما نام . ياللعجب ! إنه انسلخ بلا تردد من وجود ملؤه النشاط ، إلى النوم ، إلى النسيان العميق ، إلى العدم .

لم يكن لدى متسع من الوقت لأغبطه فيه . فقد جرى الحديث عن ألوان الطعام ، ونبتت بذرة المرح التى حملتها إلى المنزل : نبتت الآن من تلقاء نفسها ، وانطلق لانو يهبط إلى القبو ، وهو يقول مقرراً :

– كذا ، كذا ! زجاجة من زجاجات الفوفرى الثلاث !

وزادت مارث :

– هذا يومها ! وهذا أوان فتح صندوق الدجاجة المحشوة بالكمأة .

إن سرور الإنسان ياسيدى شعور غريب غير محض . فهو محتاج دائماً إلى أن يعتمد على أشياء مادية ندخلها فى المعدة ؛ حتى حين يبدو السرور منقطع الصلة بكل هذه التوافه لابد له – إن أراد البقاء – من أن يستعين بقضايا هضمية ، وقلما يعترف بأن هذه القضايا هى السبب الجوهرى فى وجوده ، ولكنه يلتمس فيها تأكيدات

وترشيحات ونتائج ... وقد لا يكون فى هذا مدعاة للخجل ، فهو طبيعي من كائنات شرهة مثلنا . انبش ذكرياتك وانظر . ألم تشعر بالحاجة إلى أن تؤكد أحسن لحظاتك بربط سعادتك بمتعة حارة من متع اللسان أو المعدة ؟ هكذا نحن !

وشاقنى أن أشترك مع مارث فى إعداد المائدة . وكانت حجرة طعام لانو تشرف على مساحة واسعة متنوعة المناظر ؛ ففيها أبنية خفيضة ، ومصانع ومعامل ، وجمع متلاصق غير منتظم من المنازل المختلفة الزوايا . وكانت الشمس الغاربة ترسل من خلال هذا الخليط المهوش شعاعاً أفقيا ، ماضيا كالحسام ، يصل إلى داخل الحجرة فيبهر أنظارنا ، ويثير حماسنا .

وأخرجنا الدجاجة من مكمنها ، وكان صندوقا للحفظ رعى أشهراً ، كما ترعى الأشياء المقدسة ، حتى تحل مناسبة عظيمة . وفتح الصندوق وظهر الطائر ، مبتلا منكمشا بين قطع كبيرة من الكمأة ذات الرائحة النفاذة .

وكانت هناك أطايب أخرى ، فأحصيت فى شره ما يمكن أن تزيده هذه الأشياء على سرورى .

وما بدأ الطعام حتى كان لانو وزوجه قد جنا مثل جنونى ، لقد جذبتهما ورفعتهما ، وصرنا نترجح على درجة واحدة من درجات السلم .. كنا دمى من دمى القره جوز مشدودة شداً واحدا .

وسرعان ما مدت سعادتنا جذورها فى ذكرياتنا : جذور طويلة ترتد إلى مسرات الماضى جميعاً فتمتصها لتشركها معها فى الساعة التى نحن فيها .

وكانت ذكرياتنا الطيبة كثيرة . ثم كان هناك سحر فعل فعله فى حوادث كانت تبدو لنا من قبل وخيمة مؤسفة ، فعادت مختلطة مع الأخريات وأسلمتنا إلى الضحك . واكتظت حاجتنا إلى السعادة وسط روائح الأطعمة والأشربة ، وبين نظراتنا الغائمة ونحن على المائدة ، فكأننا حيوان آكل عشب ، منتفخ البطن ، يستطيع أن يجتر مرعى بحاله .

كم من ضحكات لذلك الماضى الذى يغذوه حاضر كئيب كريه ! لقد كانت لأكتاف موهبة فى المحاكاة فمثل لأعيننا وآذاننا رهطا من الأشخاص المضحكين الذين مسخهم قصص عشرين سنة . وكانت تلك الذكريات قد بليت حتى رثت . ولم يكن لدينا خير منها . فكنت كلما بدا لى أن لانو يريد حذف فكاهة من فكاهاتنا الكبرى لا أتردد

فى أن أذكره إياها ، لأنه ما يزال بها بعض قطرات من الرحيق ، كالليمون القديم الذى عصر مائة مرة ولم تكن مارث التى أعرست منذ خمسة أعوام لتشاركنا دائماً فى بعث هذه الذكريات الفكهة من قبورها ، فكان تتعزى بالابتسام . كان ذلك انتقام الصداقة من الحب .

وكنا نأكل أطعمة شهية سانجة ، فأنخلت فى تلك الصواريخ المتوهجة شعلة حارة .

وكان الليل قد أظلم منذ وقت طويل ، وأضىء مصباحه وعمت رطوبته وإذا بشىء جديد يظهر فىّ دون أقل سبب ظاهر أو مفهوم .

شعرت فى لحظة محددة بأنى أقل مرحاً مما كنت قبلها بدقيقة . هاك وصفى ، فلست بقادر على أن أعبر عن الأمر تعبيراً أوضح !

سيدى ! لقد ركبت البحر ، ورأيت ارتفاع المد . إنه يعلو ويعلو ساعات وهو يزداد جسارة وجرأة مع كل موجه ، فلا يستطيع المرء أن يتخيل وقوفه . ثم تأتى لحظة يتردد عندها الماء ، وعندئذ ينتهى كل شىء ! بعد هذا الوهن ترى الماء ينهزم ويتراجع ويهرب هروباً مخزياً ، وينحسر عن قيعان وعرر، وأغوار كانت قد نسيت، يسلم ذلك كله للنور ، فلا تستطيع له كبحا ولا لهذا الفرار منعاً .

لقد أدركت على الفور أن سرورى يذهب ، وأنى سأبقى وحيداً عرياناً مغدوراً .

ولاحظت اختلالا مفاجئاً فى التوازن . فلانو وزوجه ماضيان فى صعودهما ، وأنا أنظر إليهما يرقيان ، كمسافر كليل لا يستطيع أن يتابع رفاقه إلا بالنظر .

وحاولت أن أصمد ، وعبثاً ما حاولت ! فقد ألقيت بضع أكاذيب لم يفد منها إلا صاحباى ، وبدت لى أنا قبيحة شائنة ، وفقدت الأطعمة مزيتها وفاجأت نفسى وأنا أسر انتقادها نوعاً وإعداداً وملاءمة للحال .

وتملكت عينى وأذنى صحوة لئيمة . وجعلت أراقب لانو ، فأقنط نفسى أنه معجب بما يقوله من سخافات وحماقات ، أمنحها أنا ضحكات شحيحة تشوبها السخرية ، فالقسوة .

وددت لو أصرخ مستغيثاً ، مستنجداً ، كبحار مكروب فى زورق ، محطم وكان ذلك عبثاً من العبث . فالوحدة من حولى تتسع وتتسع ، مظلمة مصمتة مروعة . وبدا لى لانو وزوجه أناساً من عالم آخر ، كما يبدو السنونو للسمكة .

لم تكن لى حيلة فاستسلمت بمرارة ، ونظرت إلى نفسى كطائر يذبح حتى يغيض من الدم ، ويرى دمه يسيل منه ، وكل أمل وكل حياة تتسرب .

وأنتهى القربان فى أقل من نصف ساعة ، وشوهت ونخبت وأضنيت .

وأخطر من ذلك أن خسارة مقلقة تفاقمت واستحال تلافيها . فقد أسرفت فى الإنفاق وبددت سرورى ، فأصبحت مديناً حربيًا إلى أمد طويل . وبدأت أندم على سروى الأحمق فى تلك العشية . وأخذت أفحصه فحصاً منظما لا يرحم ، عاداً هذا السرف الأخرق المغرور جريمة منى .

ولم يلاحظ لانو وزوجه علىَّ شيئًا ، فمضيا وحدهما وكأنهما يسخران منى !

وكنت أبدو حاضراً معهما ، بل يخيل إلى أنى كنت أجيب على حديثهما التافه . ولكنى كنت أضمر لهما حقداً يشبه البغضاء . لئن كنت أضعت ثروتى الباطنية وبددتها وخربتها فما ذاك إلا بجريرتهما . فقد ساعدانى فى حماقاتى ، وزاملانى فى بدواتى ، وقذفا بى فى فاقة أيوب . وجاءت لحظة نفد فيها صبرى فنهضت لأنصرف .

وكان لابد لى أن أكابد نوعاً من الصراع ، فقد تمسك بى صديقاى وعزما على أن أبقى ، فتشددت لأخلص منهما ، كما يخلص محب مخدوع من عشيقة طال بها عهده .

فأذعنا وودعانى فى سرعة ضاعفت حنقى .. ألم يكونا اثنين ففى وسعهما أن ينفسا عن غضبهما ؟

أما أنا فقد آن لى أن أعود إلى الانغماس فى الوحدة ، وبدأت أتقزز مما كان منى فى نهارى ، وكانت أكثر وقائعى مرحاً هى أشدها على احتمالا .

وأسرعت أهبط الدرج الأسود الحار ، بعد أن نطقت ببعض كلمات الوداع .

وكنت أحس أنى فصمت القلاس التى كانت تربطنى ، ووجدتنى على الأقل حرًا . حرًا فى أن أكون شقيا كما أشاء وحملنى الشارع كما يحمل غريق على أواذى الماء ، ورسمت لى الطريق قوى قديمة مجهولة .

رأيت دقائق ذلك اليوم المشئوم دقيقة دقيقة : المكتب . السيد جاكوب . السيد سيرو ، الإغراء . الفعلة الحمقاء ، التى كانت ضرورية على الرغم من أنها حمقاء . عودتى إلى المنزل ، ثورتى ورفق أمى ..... وبعد هذه النقطة لم أجد من العنف والإصرار ما يمكننى من الحكم على رعونتى ، وسرورى الشاذ ، وحماقتى المسرفة .

وأسخطنى على الخصوص أنى لم أر إلى أية هاوية من البؤس كانت تقودنى هذه السعادة المعربدة التى لا أستحقها .

همت بخطى النائم فى باريس مظلمة جافة . وكانت تنفح من الشوارع رائحة خانقة من التراب والروث المحموس . وكان كل مصباح يمسك ظلى وأنا مار به ، ويديره ثم يسلمه إلى المصباح التالى ، حتى كاد ذلك يغثى نفسى .

وأمضيت ساعة مضطربة وأنا مرتفق على جسر سوليّ ، أجمع عناصر يأسى ، وأضمها فى حزمة واحدة . وبذلت جهوداً خارقة لأكون شقيًا شقاء مضبوطا . ولكن هذا أيضاً كان على محظوراً ، فما كنت عظيما ولو فى الشقاء ، بل كنت شيئاً تافهاً شائهاً قبيحاً يثير السخرية .

وأيقظنى جرس منزلى ؛ لا بصوته فهو أجش مطمور فى أعمق أعماق البناء ، بل بالبرودة اللزجة التى أحسستها فى يدى لملمس الزر النحاسى .

وصعدت السلم بخطى بطيئة وقد جللنى العرق ، ودوّختنى أنفاس طسوت الغسالة الرصاصية الموضوعة على نوافذ السلم .

فلما وصلت إلى باب مسكنى بدا لى من الضرورى أن أدخل خلسة بغير أنْ أوقظ أمى . فقد ملأنى اضطرابا تفكيرى فى أن أجد نفسى مرة أخرى وجهاً لوجه أمام المرأة المسكينة .

فتقدمت على أطراف أصابعى كاللص . وكانت أمى قد تركت – كما تعودت – مصباحاً صغيراً مضاء على خزانة الآنية ، فأطفأته بفمي حتي لا يقع بصرى مصادفة على مرآة ، فأرى فيها وجهى الذى كان – ولاشك – وجهاً بشعاً مرعباً .

ومضيت إلى حجرتى . وخلعت حذائى وانطرحت على الأريكة . وكان ضوء مبهم منبعث من أعماق سماء باريس ينعكس فى ضعف واضطراب على نحاس المصباح الصغير المدلى فى ركن بين حائطين . فعلقت عينى بتلك الإشارة المروعة ، وأمضيت الليل وقبضتاى على فكى ، أمضيته فى احتقار نفسى وكراهة ذاتى .

* * *

- ٥ -

منذ هذا اليوم بدأ عصر ، ترك فى نفسى ذكرى لا يمكن تحديدها ، ذكرى مفعمة بالهدوء والخجل . وإنى لأستذكر ذلك الوقت كما أستذكر نعاساً طويلا ، ولا غرو فقد بذلت إذ ذاك جهوداً صادقة لأصهر أيامى وليالى فى خدر واحد وغيبوبة واحدة .

حدثتك بأن أودين أحضر لى غداة وقعة سيرو أدواتى الكتابية القليلة ، فصففت ذلك كله فى ركن من الحجرة ، منتظراً الوقت الذى أنال فيه وظيفة أخرى . وبدأت للتو حياتى الجديدة .

كنت أستيقظ فى الصباح متأخراً . وكانت تعرونى فى الأيام الأولى – حول الساعة السادسة – رجفة مفاجئة تجعلنى أفتح عينى . وهذا أمر طبيعى ، فقد درجت السنين على أن أستيقظ فى هذه الساعة لأذهب إلى العمل وهكذا ظللت بعض الزمن أستيقظ فى نحو الساعة السادسة . وكنت أحس لذلك نوعاً من السرور ، وأقول لنفسى إنه لا فائدة لى من مغادرة الفراش فى مثل هذا الوقت المبكر ، فليس لدى ما أعمله خارج المنزل . وكانت هذه الفكرة السارة غالباً ما تعقبها أفكار أخرى كثيرة أقل منها إمتاعاً . فكنت أفكر فى وظيفتى الضائعة وفى ضرورة الحصول على غيرها . ولأقل فى إيجاز إن الندم كان أحياناً يسمم هذا الفراغ الذى لا أستحقه ، ثم ينتهى بإيقاظى وكنت فى أكثر الأحيان أبذل مجهوداً عكسيا ، وأستمسك بالهمود الذى يشيعه النوم فى أعضائى ، فأطرد هذه الأفكار النابية ، وأغوص بنشوة فى عدم مخيف لذيذ .

كأنى كنت فى جوف فراغ أسود : راقداً ، معلقاً ، مرجحاً ، وكانت كل أفكارى ومشيئاتى ، وكل الأشياء التى تكون نفسى ، محبوسة دائماً فى دائرة الظلام ، وكانت تتراءى لى كرهط مختلط من الديدان ، وكنت مستريحاً . كنت شيئاً جد قليل ! ولعل الموت شبيه بهذا ، فإن كان كذلك فهو شىء حسن .

لا أذكر إلا أنه كان مثبتاً على روحى – بل على البقية الشائهة من روحى – صورة زرقاء مستطيلة لنافذة ، تترائى من بين الأهداب كأنها تتراءى خلف قضبان قفص .

وأحياناً كان يزورنى وأنا فى قلب هذا العدم – كان يلم بى حلم . وكان حلماً مشوهاً ، لاهثاً ، كالقصص التى تعرض فى السينما .

وأكثر أحلامي يدور في صمت مخيف . ونادرة تلك التي تحوي جلبة وكلاما وأغاني ، وهي تترك روحي قلقا أياماً كثيرة . وكثيراً ما أحلم في اليقظة أحلاماً غامضة عنيفة ، فأرى صوراً غير واضحة المعالم ، ولكنها قوية الألوان . ولست أدري لم أحدثك عن هذا ، فأنا رجل لا أختلف في شيء عما ألفه الناس ، رجل يشبه كل الرجال إلى حد مخيف !

وأعجب ما في أحلامي أني لا أحتاج أن أنام لأحلم ... تذكر أنني لا أعني الحلم الذي يحلمه الشعراء ، بل الحلم الذي يحلمه النائم ، أي سقوط المرء فريسة لعالم مخيف متنافر رائع . وكثيراً ما أكون مشغولاً جداً ، فأنا مثلاً جالس أكتب تحت مصباحي الصغير المظلل ، وإذا بي لا أجد وقتا أحس فيه أن روحي قد بدلت سيرها ، وأني دخلت في حياة جديدة . وكانت هذه الحالة تفجؤني أحيانا وأنا سائر في الطريق .. ولكني يجب أن أحدثك عن أحلامي في وقت آخر ، وليست بالقليلة تلك الأشياء التي أريد أن أرويها لك عن هذا العالم ، فلا جدوى من اقتحام العالم الثاني .

وقد حدثتك عن الأحلام التي كنت أحلمها قبل أن أستيقظ . ولو لم أتذكر عند اليقظة شيئاً من هذه الأحلام الصباحية لتنتشر بها حتى تجعل لنهاري عطراً خاصاً ، وتحدد لون نفسي إلى اليوم التالي .

وكنت حين تبلغ الساعة التاسعة أنفض أغطيتي ، ويصل إلى من المطبخ الذي تعمل فيه أمي المسكينة – محدثة جلبة ضعيفة – شذا القهوة ختالا نفاذاً كأنه فكرة . فأنهض وأرتدي ملابسي بتراخ فظيع : تراخي الأشياء التي ينتظر حدوثها .

وأذهب إلى أمي في المطبخ وأقبلها صامتاً ، وأعتقد كل يوم أنها ستبدي لي ملاحظة حكيمة ، وأنها ستؤنبني على نعاسي الدائم ، وعلى هذه الأصباح الدسمة التي تجعل في وجودي فراغات ضخمة معتمة يملؤها الغبار . ولكن أمي كانت تقول لي كل يوم وهي تقبلني بحنان :

– ولدي لويس ، لقد لدنت لك شيئاً من خبز أمس .

فأجلس على كرسي القش المنخفض ، بين بالوعة المطبخ وخزانة الآنية المصنوعة من الخشب الأبيض ، أحتل هناك مكانا ضيقاً كمسالك القدر وأدير ظهري إلى الضوء الشحيح في الفناء الصغير ، وأحس الارتياح حين تسندني كل الأشياء المحيطة بي ، وتثبتني وتدعمني ... أجل ، كنت مرتاحاً على الرغم من كل شيء ، كنت مرتاحا في بلادة وجبن .

وأنا أحب القهوة ، كما أحب الرائحة اللطيفة التى تنبعث من الخبز الملدن . ولذا كنت أستمتع بتلك النعم التى لا أستحقها ، بينما تنظر أمى إلىَّ بلطف وانتباه ، بعينيها اللتين ألفتا قلة الضوء . وكنت أدرك أن وجهى لابد قد مسخه النوم ، فقد كنت أحس فى قسماتى ثقلاً وانتفاخا ، وفى عينى ورما ، وفى شعرى خشونة وتشعثاً ، ولكنى لم أكن أبالى ، فجل همى ألا أقطع ذلك السحر المخمد الذى يسمح لى بأن أعبر من ليلة إلى ليلة بغير هزة ولا صدمة ولا يقظة حقيقية .

فإذا انتهى الفطور عدت إلى حجرتى لأصلح هندامى . وإذا كان وقتى غير محدود فقد كنت أشرع فى الاغتسال بكثير من الفوضى والإهمال ، ومن ثم كان يتفق لى فى بعض الأيام أن أظل إلى المساء أؤجل حلق ذقنى من ساعة إلى أخرى ، حتى تركت حلاقتها تركا ، وأصبحت لى منذ ذلك الحين تلك اللحية التى تراها ، والتى تثير فىَّ اشمئزازاً عميقاً .

آه ! أنا أخبر بنفسى ياسيدى من أن أحكم على الإنسان حكما فيه رفق أو تسامح ؛ هذا الكائن المنفر الذى وقفت حياته على القذارة والعبودية واعذرنى إذ أقول لك هذا صراحة تامة . فكيف يمكن الحديث عنه فى غير غضب ؟ لقد لبثت ثلاثة عشر عاماً أنفق عشرين دقيقة تقريباً فى العناية بنظافة جسمى ؛ وأؤكد لك أنى كنت أنفق هذه الدقائق العشرين كما ينبغى أن تنفق ؛ فقد كنت أتبع نظاما لا يختلف : اليدين فالوجه فالقدمين الخ .... وكانت الحياة سهلة فلم يكن على إلا أن أطيع عاداتى .

ومنذ أخذت أصرف جل نهارى فى هذه الأعمال نفسها لم أعد أحسن عمل شىء من برنامجى . فكنت أؤجل دائماً هذا الشىء أو ذاك ، وأنا أؤنب نفسى مر التأنيب سراً على هذا التأجيل المكرر . وقد اتفق لى فى هذا العهد الغريب أن أمضيت خمسة عشر يوما متتابعة بغير أن أغسل قدمى ، وهذا لأنه كان لدى عشرة أضعاف الوقت الكافى لذلك . ولا تظن أن هذا كان نسيانا . كلا ! فقد كنت أنظر إلى قدمى العاريتين بشرود ، وأفكر أن لا بأس من تركهما إلى الغد أيضاً . وما زلت أؤجل غسلهما من غد إلى غد حتى أصبحتا غاية فى القذارة .

وكنت أشرع فى التدخين أثناء اغتسالى ، أو أفتح كتابا ، ثم أغوص فى ركن من الأريكة وأحلم أحلاماً مضطربة لا تنتهى . وكانت تنبعث من السرير المشعث نفثات

ضخمة من النوم ؛ وكانت أحلام نومى الكامنة تحت الأثاث ، وخلف الأطر ، وفى الأزاهير المرسومة على ورق الجدران ، تطل بعين ثم تخرج فى لطف كأنها الشياطين ، فتسترد سلطانها على الحجرة وعلىَّ ، وتتشابك بالأيدى وتدور حول روحى فى رقصة عاصفة ، ثم يقف الزمن فى عين الآبد ، كسفينة مشلولة على بحر من العسل .

وتدوم هذه الحال حتى تأتى أمى إلى الباب وتفتحه بلطف ، وهى لا تغفل فى أثناء ذلك أن تتنحنح ثلاث مرات أو أربعاً ، فتفر الأحلام كالفيران تحت الخزانة ويفارقنى الخدر ، وتقول أمى :

- لويس ؛ أتحب أن أرتب حجرتك ؟

فأصيح وأنا أسرع بارتداء ملابسى :

- أجل ، أجل ،

ويكون الصابون قد جف على وجنتى ، ولم يبق لى وقت كاف لأحلق ذقنى ، فأسرع بارتداء صدريتى ولبس حذائى ، وأخرج من الحجرة قائلاً :

- إنى ذاهب لأرى وظيفة النساخ التى تعرفينها .. فى مكتب ذلك الوكيل .

فتجيب أمى وهى تطوح مد الذراع بفراش الريش والوسادة ، كأن لم تعمرهما صور كثيرة حية أنا وحدى الذى أعلمها :

- اذهب يابنى .

وأتناول قبعتى وعصاى ، وإن كان بعضهم قد نبهنى فى مناسبة قريبة إلى أن العصا تكسب المستخدم سيماء « الهاوى » التى تزهد فيه الناس ثم أجذب خلفى باب المسكن .

ولا أكاد أغلق ذلك الباب ، حتى أرى نور الدرج الأعشى تجول فيه زحمة من الصور المتسلقة الواثبة المداعبة . إن شياطينى هناك . إنها تنتظرنى ، كالكلاب التى تريد أن تؤخذ للنزهة . فتحيط بى وهى تنبح ، وتلحس يدى وتقفز عند عقبى . وأصطرع - وأنا أهبط الدرج الرطب البالى - بين ألف حلم خرافى ، كغريق يغوص مصوبا فى الماء .

* * *

وأخبط فى الشوارع خبط عشواء . والنهار أمامى كأنه صحراء محرقة لا أفق لها ولا مفاجأة فيها ... يضحكنى أولئك الذين يقولون إن الحياة قصيرة .. أتسمع ؟ إنهم يضحكوننى . يضحكوننى ! إن السنين هى القصار أما الدقائق فطويلة . وما حياتى أنا إلا دقائق .

أسير على الطوار مؤثراً حافته الجرانيتية وأدع طرف عصاى ينغمس فى مسيل الماء جنب الطوار . وأنا أحب مسايل الشوارع ، فهى تجرى على الأرض المرصوفة وتجف فى ساعة محدودة وأنا أعلمها ؛ وهى لا تولد من منبع ، بل من صنبور من الحديد . وأأسفاه ! إن نصيب المرء من الشعر لا يعدو ما يستحق . فقد أمضيت – على الرغم من أمى – شطراً من طفولتى أصطاد الدبابيس الصدئة وأزرار الأحذية الصغيرة من شارع تورنفور وقد انقضى عهدى اليوم بالبطبطة فى الماء الوسخ ، ولكنى ما زلت أراقب الشقف الصغير والحصى والغثاء الذى يغسله السيل ويسحبه قليلاً قليلاً صوب البالوعة . بل إن السيل ليغنى أغنيته الحزينة الصغيرة ، فأفكر فى السهوب والأنهار ، والأقطار التى لن أعرفها أبداً . إنه ماء مدنى آسن ، ولكنه ماء على كل حال ! البحر ... البحيرات العظيمة ... سيول الجبال ! لئن مررت بشارع لاموند فى وقت متأخر من المساء ، ساعة تهمد أصوات باريس وتنام ، لتسمعن من تحتك كل بالوعات جبل سنت جنفييف تغنى برقة وكأنها شلالات بعيدة . إنها الشلالات فى رحلاتى أنا .

وكيف يكون الأمر غير ذلك وأنا لم أغادر باريس ، ولم أر شيئاً ، ولا أعلم شيئاً ؟ أنا رجل نكرة لا يؤبه له . أجل ، أجل ، رجل لا يؤبه له . وليس لدى شىء خارق أحدثك به ، فكل وقائعى حدثت فى باطنى . وإنه لكرم منك أن تستمع إلى أنا الذى ليس لدى ما أقوله لك ، أنا الذى لم أخلق إلا من توافه .

كنت أسير على الطوار إذاً . ولم يكن شقائى شديداً ، فقد كان لى من الروح ما يكاد يعادل روح عذراء دودة القز ، ولم أكن أتعجل تحطيم غشائى . وما كان أشد رغبتى أن أظل حتى المساء فى هذا النوع من الخدر الذى يمد لى فى الليل مدا ، ولكن أجهزة شتى كانت تبدأ عملها . – وأأسفاه ! – فسرعان ما تأتى نهاية ارتياحى .

وكان ذلك يبدأ فى أكثر الأحيان بتلك القصة السخيفة : قصة عدد الخطى ، أتدرك ما أرمى إليه ؟ إن قطع الجرانيت التى تكون حافة الطوار موضوعة طرفاً لطرف . فكنت أمشى فوقها أول الأمر غير مفكر فى ذلك ثم أبدأ ألاحظ أنى أضع قدمى بين كل

خطوتين على الفرجة بين الحجرتين ثم ألتزم - شبه مرغم - أن أخطو خطوتين بالضبط بين كل فرجة وأخرى ألتزم ذلك بغير أن ألتزمه ؛ ألتزمه بغير أن يبدو عليّ أنى أفعله . لأنى - أولاً - أخجل أن أعرض على المارة مشهد حماقتى ؛ ثم لأنى مقتنع كل الاقتناع بأن ذلك لا يعدو لعبة من جسمى ، لايشارك فيها روحى بنصيب .

وإليك ما فى هذا الأمر من جنون : تأتى لحظة لا أستطيع فيها أن أذود فكرى عن قصة الفجوات هذه ، ثم أحس قليلاً قليلاً ، وأنا أتظاهر بأنى لا أقيم للأمر وزنا ، أنى أمد خطوتى أو أقصرها حتى تقع نعلى على الفجوة تماما . وأفعل ذلك بغير اكتراث ، كأنى أود أن أخفى عن نفسى ما أفعل . وتستمر هذه الحالة زمنا . ثم ألاحظ فجأة أن الخيال يبدأ دوره . فأقول لنفسى - لا ، لست أنا الذى أقول بل هو شىء فى نفسى ، بغير أن يكون هو نفسى - أقول لنفسى إنى إذا لم أبلغ ثالث مصباح من مصابيح الغاز وأنا أخطو بانتظام خطوتين على كل قطعة جرانيت ، فسوف يقضى على حياتى بالضياع ، وعلى محاولاتى بالفشل . فإذا وصلت إلى ثالث مصباح عينت لنفسى واجبا آخر ، كأن أصل بتلك الشروط نفسها إلى كشك لبيع الصحف . واحد ، اثنان ، واحد ، اثنان ... أفاهم أنت ؟ ذلك والشيطان يتمتم : إذا سار كل شىء كما ينبغى .. إذا ضبطت خطوتيك ، فلابد أن يصيبك بعض الخير فى يومك هذا » .

آه ! أممكن حقا ياسيدى أن يكون المرء غبيًا إلى هذا الحد ؟ تذكر أنى لا أومن بتة بالخرافات ، وتذكر على الخصوص أنى حين كنت أتصنع هذه الأحاسيس لم أكن أكف عن التأمل فى نفسى تأملا يشوبه الاحتقار بل فى أكثر الأحيان عن التفكير فى أمر بعيد .

وقد تكون هذه القصة المضحكة ، قصة الهاوية . وسأشرح لك ذلك . وإنى لأخجل منه ؛ لكن مادمت قد شرعت أفضى إليك بكل شىء ، فلأفض إليك بكل شىء. وأعنى أنى لن أقول لك أشياء كثيرة ، فإن ذلك الذى يحاول أن يشرح فى عشر مجلدات ما يخطر على قلب إنسان فى دقيقة واحدة ، إنه ليحاول أمراً فوق طاقة البشر .

كنت أسير إذن على حافة الطوار سيراً سهلاً طبيعيًا ، ولا أفكر فى شىء معين . وإذا بى أتخيل - أو هى على الأرجح فكرة أكثر منها خيالاً حقًا - أن على يمين الحافة الضيقة وعلى يسارها هاوية ، وأنه يجب أن أتقدم بلا أدنى عثرة ؛ ويكون ذلك حسبى حتى أتردد ، وتضطرب ساقاى ، وأتعثر فى مشيتى ، ثم ينتهى أمرى بأن أضع قدمى على الطوار أو فى مسيل الماء .

وحينئذ يسرى عنى ، فقد بطل السحر ، وأغير الطوار أو أنتقل إلى وسط الشارع ، وألبث برهة طويلة لا أفكر فى هذه الحماقات .

ثم أصل إلى مفترق طرق ، وهذه قصة أخرى ! فإن تعدد المسالك يسلمنى إلى نوع من الذهول .

ولم يكن يعرونى من قبل وأنا ذاهب إلى المكتب شىء من هذا التردد . فقد كان هناك طريق واحد يبدو لى ممكنا : هو ذلك الذى ثبته اعتياد خمسة أعوام أو ستة ، هو ذلك الذى أقامت صواه علامات كثيرة معهودة . أما النزهات التى أحدثك عنها فشأنها غير هذا الشأن ، فخطاى فى أغلب الأحيان لا تتجه إلى قصد معين ، ووقتى لا أجد فيه ضيقاً . وإذن فأنا أقف عند زاوية منزل ، أمام دكان كئيب المنظر ، أجذب يسرة ، وأدفع يمنة ، موزعاً مذبذباً ، أدور حول نفسى كزورق يسحبه التيار فى وجهة وتحثه الريح إلى ضدها . فأغمض عينى وأستخير الحظ .

وعلى الرغم من ذلك يتفق لى وأنا سائر على هذا النمط أن أصل . أو بعبارة أخرى أنتهى إلى أن أجد نفسى فى مكان لا كسائر الأمكنة . ويكون ذلك مثلاً مكتب الوكيل ، حيث وظيفة النساخ .

فأدخل ، وأنتظر ، ويسار بى إلى موظف كبير ، وأجد دائماً شيئاً معطلا فإما أن الوظيفة قد شغلت منذ البارحة ، وإما أنها لا تصلح إلا لشاب حديث السن ، وإما أنها تتطلب خبرة خاصة تعوزنى .

وربما طلب منى « رئيس الكتبة » ما لدى من شهادات مستخدمى السابقين . فأعده بأن أحضرها فى غد ثم أتدحرج مسرعاً على الدرج .

وينتهى نهارى ، فقد حاولت ، وأثبتت لى محاولتى مرة أخرى أنه من المستحيل على أن أظفر بعمل . وكان هذا اليقين هو عين ما أطلب .

وأذهب بعد الغداء إلى حجرتى الصغيرة ، واثقاً مما ينتظرنى هناك ، وإن تجاهلت هذا الذى أعلم .

آه ! لو أننى – ياسيدى – أخاتل ألد أعدائى نصف ما أخاتل نفسى لكنت فى الحقيقة وغداً .

وأشعل عقب لفيفة ، وأبسط الصحيفة ، وأكتب رسالة تافهة . وأسمع الأصوات التى تحدثها أمى وهى ترفع أدوات المائدة أو تغسل الآنية ، فأقول بصوت عال :

– إنى عازم على أن أذهب وشيكا إلى مصنع مونتروج هذا . أتعرفينه يا أمى ؟

أو أقول :

– لم أتلق بعد رداً من محال مالندوار وسيمونيه إننى أبحث فى مصورة باريس ..

هذه أمثلة من السخافات التى كنت أقولها لأستبعد الأسباب التى اجتذبتنى إلى حجرتى .

ولكنى أرمق أريكتى البالية من طرف خفى ، فأجد فيها الاستهزاء الخبيث المتعالى الذى تجده فيمن ألف الظفر . وأنظر إليها بغيظ قانط . فتكتفى بأن تتثاءب بكل ما فى كسائها من خروق .

وأذهب إلى النافذة وأطالع السحب مهتما . هل يجب أن أحمل مظلة ؟ لا ! وأحكم رباط عنقى أمام المرآة ، وأتصفح مذكرتى . ثم أجد نفسى فجأة ممدداً على الأريكة وأنا لا أدرى كيف حدث لى ذلك . فأسمع بظهرى الأسلاك الحلزونية تكتم ضحة مهينة.

لا ضير ! لقد كنت ممدداً كزورق فى قاع جون . وكانت الأمواج تحملنى ، وكنت أسمع التيارات والنسمات ، وكان شيطان الليل يعقد ذراعيه على صدرى فى عناق وثيق ، فنغوص كلانا فى العالم الآخر ، ونحن متشابكان ووجهى لوجه الشيطان .

وكانت اليقظة فظيعة والجسد أثقل من جبل ، وفى الحلق حموضة الطعام الذى لم يهضم بعد .

وأتناول قبعتى وعصاى ثانية لأعود إلى الشارع .

وكنت أفكر أحيانا فى وظيفة بعينها يقيض لى أن أعثر عليها وأظفر بها ، وأتخيل ألواناً من السعادة لا يقبلها العقل سأحصل على وظيفة سكرتير أجل ، وظيفة سكرتير ! وسيكون لى مكتب مستقل ، له نافذة تطل على شجرة تغمرنى بضوء أخضر حزين ، وسأترك فى وحدة تامة ، بل سينتهى الأمر بأن أنسى بعض النسيان ، وأعيش ثمة فى سلام عميق ، وأظل هادئاً هادئاً كأنى ميت .

سيدى ! ستظن بى ظنا قد لا يكون فيه صواب كثير . ستظن أنى دنىء الخلق وأنى أكره الناس ، أنا أكره الناس ؟ هذا غير معقول . فأنا أحب الناس ولا ألام إذا لم أستطع احتمالهم فى أكثر الأحيان . إننى أحلم بالوفاق ، أحلم بحياة متناغمة واثقة كعناق أبدى . وعندما أفكر فى الناس أجدهم جديرين بالحب حتى إن الدموع لتطفر

إلى عينى . ليتنى لا أخاطبهم إلا بكلمات الود ، ليتنى أفرغ قلبى فى قلوبهم ، ليتنى أشارك فى آمالهم وأعمالهم وأشغل مكاناً فى حياتهم ، وأريهم مبلغ وفائى وثباتى على العهد واستعدادى للتضحية ! ولكن فى نفسى نزقا وحساسية وانفعالا ، فلا أكاد أجد نفسى وجها لوجه مع كائنات حية تشبهنى - لا مع صور خيالية - حتى تغيض شجاعتى، وتهيج حواسى ، ولا أتمنى إلا أن أعود إلى وحدتى، لأسترد محبتى للناس ، كما أحبهم حين يغيبون عنى ولا تقع عليهم عيناى .

ها أنت ذا ترى أنى أبذل ما فى وسعى لأشرح لك أشياء لا يمكن أن تشرح ، ولأبين لك على الخصوص أنه إن بدت منى كراهة للناس فما ذاك إلا لأنى مفرط فى محبة البشرية .

وقد تقول لى إن مثلى ينبغى له أن يلتمس سعادته فى الأشياء . وأنا أفهم ذلك جيداً ، ولكن الضرورة تلزمك أن تبذل للأشياء أولا لكى تجلب لك المسرة ، وأنا فى أغلب الأحيان روح عقيم قاحل لا يستطيع أن يبدأ بالبذل .

وهكذا كنت أسير فى الشوارع أجتر حياتى ، وأقرر فى كل دقيقة تقريباً أن الحياة تروغ منى ، وأنى خذلت ، وأنى فقير حق ، وأنى بائس .

ورأيت ذات يوم فى شارع ألم ، وهو شارع يغلب عليه الهدوء ، عاملا صبيًا يجر عربة يد . وكانت العربة موقرة والعامل كضفدع تسحب سفينة ، وكان يمسك بإحدى يديه إحدى ذراعى العربة ، وبالأخرى .. آه .. احزر ! كان يمسك بالأخرى كتاباً ويقرأ - وهو يجر عربته - بعينين تبرزان من رأسه .

لست أدرى ماذا كان يقرأ هذا الصبى . ولكنى لبثت طوال المساء وقد انطبع فى نفسى إحساس كئيب بالحسد والخزى . فقد بدت لى حياة هذا الفتى الطيب الذى يقرأ بين ذراعى العربة ، حياة مليئة غنية مرموقة ، إذا قيست بحياتى العادية الجوفاء .

وغالباً ما كانت نزهاتى على الطوار تسبب لى حوادث كريهة . وإنى أطلق اسم « الحوادث » مرة أخرى على أشياء ليست من الحوادث فى شىء أى على أشياء لا تجرى إلا فى باطن الكائن .

كنت أسير بخطى منتظمة مستغرقاً فى أفكار قديمة ، وذكريات ، وأحلام بتراء ؛ ولم أك أنظر من يسيرون فى اتجاهى ، ولا من يسيرون فى الاتجاه المقابل له . وإذا بامرأة كانت تمشى أمامى ولم أكد أراها تلتفت مستاءة وتغير الطوار فجأة .

وأؤكد لك أن هذا كان أمراً محنقاً ، وأنه ملأنى مرارة . أأمر فى طريقى التعس فأظن تبع نساء من أولئك الحمقى الذين يسيرون فى الأعقاب ؟ وما ذلك إلا لأنى قد أكون مشيت ثلاث دقائق أو أربعاً كما تمشى هذه الخرقاء . وهاتيك حياة المدن الكبيرة ! يجب أن تكون لك مشيتك الخاصة بك ، وأن تعمل على ألا توافق مشية غيرك ، فإذا مشيت كمشية أحد سواك فقد اعتديت على حريته بعض الاعتداء ، أو لعلك قد روعت حياءه ، علينا أن نعيش مع ملايين من الكائنات أمثالنا ؛ متظاهرين بأننا لا نراهم بل متعمدين الفرار منهم فى أدب وحسن عشرة .

وأعترف لك بأن هذا كله يثير اشمئزازى ، وبسببه تعودت أن أختار الشوارع المقفرة من الناس .

وهذه الشوارع نادرة فى باريس . ولهذا كنت مضطراً – فى أكثر الأحيان – أن أمر على كره بأماكن شديدة الحركة . ومن ثم وجدت نفسى ذات مساء فى سوق ليون ده بلفور بطريق أرجو . وإنى لأذكر ذلك المساء لأنى رأيت شيئاً عجيباً : شيئاً أجده محزنا وقد تجده أنت مروحاً ، إذ كانت الحقيقة أن لا شىء فى محزن على الإطلاق .

ذكرت لك أنى كنت أسير فى طريق أرجو الذى تحف به فى هذا الجزء أخصاص حقيرة قذرة تكون حافة السوق . تلك الأخصاص التى تباع فيها الفطائر « الذائبة » الخضراء والوردية الألوان ، والتى تكسر فيها الأنابيب بطلقات البندقية ، وتعرض فيها أمرأة نصفها سمكة ... أشياء – فى اختصار – تجعل المرء يبكى سأما .

وفجأة رأيت شيئاً كالخيمة ، وضعت عليه قطعة من نسيج القطن ، تعلن أن فى داخل هذه الخيمة « البروفسير مستيناكس . يكشف المستقبل بالطرق المغنطية » . وكان أمام الخص جمع صغير من العمال والجنود والمتبطلين ، كما كان هناك شيخ شريد له لحية بنت خمسة عشر يوما ، بيضاء ناصعة ، وتستر جسمه الأسمال ، ويلوح على وجهه المنهك قنوط ساغب لا أستطيع وصفه . رجل أشفى على الهلاك ، ووهن منه العظم ، تنبعث منه ريح بؤس مقيم .

ثم إنه دخل الخص ياسيدى . دخل وراء الخادمات الصغيرات وعمال المتاجر وصبيانها . وكان قابضا يده بشدة على عشر فرنك لا شك أنه نصيبه من جهد نهار ، فقدمه فى قلق وتردد باديين ليدخل السقيفة حيث يحدث عن مستقبله .

تلك أشياء كنت أراها فى جولاتى .

* * *

- ٦ -

إننى أطيل الوقوف عند تفاهات أرويها لك وأغفل السلك الذى ينظم قصتى .

لقد استمرت الفترة التى حدثتك عنها إلى شهر أكتوبر على وجه التقريب . ولم أكن أحسب الأيام ، بل كنت أحس الزمن ينزلق من تحتى ولا أسأل نفسى أكثر من ذلك . الحياة الحقة ؟ إننى كنت أؤجل الحياة إلى ما بعد ذلك ، إلى التاريخ غير المحدد الذى ستقع فيه الأحداث التى يجب أن تقع لى . أفاهم أنت ؟ على أنى لاحظت تغير الطقس ، فقد جاء البرد وقالت لى أمى ذات يوم :

– لويس ؛ ينبغى أن تلبس ملابسك الشتوية بعد وقت قصير .

وكان عندى للشتاء حلة كاملة عتيقة رمادية ، أحبها كثيراً . وقد أبقت عليها عناية أمى بعض الاحتشام ، ولكن نسيجها كان ناعماً رقيقاً مصقولاً حتى ليبدو عليها الذل والتعاسة . وكان ذلك يسرنى . فقد كانت تلك هى الحلة التى لاءمت بينها وبين روحى ، وكنت ألتمس كل يوم جميع ثنايا هذا الرداء وعاهاته وترميماته ، وكأنها عاداتى الشخصية أو مظاهر فقرى الباطنى وبفضل هذا السروال الأحنف الناحل وبر الركبتين، وبفضل هذه الصدرية الباهتة الحدباء ، كنت أطمئن إلى أنى سأمر غير ملحوظ . وهو نعمة كبيرة من نعم الحياة .

لهذا جعلتنى أمى ألبس ردائى الشتوى وهو هذه السترة المدفئة المائلة إلى السواد ، والتى تراها على اليوم ، وكانت أقرب إلى الجدة آنذاك وكنت أستبشعها ، وما زلت ألعنها .. أنظر إلى أطرافها المضحكة التى تجعلنى أشبه شىء بالخنفساء ! أمن الممكن أن يضطر الإنسان فى سبيل كسب عيشه لا إلى النزول عن وقته فحسب بل إلى تضحية ميوله أيضا وإلى التخلى عن مظهره الخارجى كذلك ؟

كنت ألبس هذه السترة إذن فى جولاتى ونزهاتى ، وكنت لا أحمل فى العادة إلا مقادير تافهة من النقود لا تعدو كسور الفرنك ، إذ لم أكن أجرؤ منذ فقدت وظيفتى على أن أطلب من أمى نقوداً ، ولم تكن المسكينة لتحدثنى قط عن هذه الأشياء ، ولكنى كنت أشترى لها أحيانا بعض الحاجات ، ولا أرد إليها بقية النقود ، فكانت وسيلة مستورة بعيدة تكفى لمدى بالفلوس القليلة التى تفى بضروراتى الضئيلة . ولا تظن أنى كنت أنفق شيئاً ، ولكن الأمر لا يخلو من سيارة عامة أو قطار كهربائى ، أو طابع بريد من حين إلى حين .

وكان هذا النوع من البؤس ، الذى لم أهتم له وأنا فى حلتى البالية ، يبدو لى مروعاً حين أحمل سترة من صوف اسكتلندا تليق ببورجوازى أو موظف رافه . وكانت هذه السترة تبدو لى - فى تنافرها مع حالة جيبى - كذبة لا تحتمل . ولا شك أنى مدين لها بأفكار شتى عارية عن المنطق ، وبسببها أيضاً بدأت أبحث عن العمل بحثاً أكثر نشاطاً وأدنى إلى الواقع .

إن الوظائف كالأفكار ، تجدها حين لا تبحث عنها ، فما أكثر تسرع أصحاب المراكز الطيبة الثابتة من الناس إلى أن يقولوا : « إن الفتى الشجاع القوى العزم حقاً لابد أن يصل .. » آه ! سيدى ! الحظ والنجاح يستطيعان أن يجعلا الناس ظلمة أغبياء !

منذ تلك اللحظة التى قلت فيها لنفسى ، بحسرة الواقع : « هيًّا هيًّا ! يجب أن أحصل على عمل ! » انطبع فى نفسى إحساس مبهم ولكنه ملازم عنيد ، وهو أنى لن أجد عملا ما . وقد كان أن لم أجد عملا ما ، أو عملا يمكننى قبوله دون أن أحط من كرامتى .

جدار ! جدار ! إحساس بأنك أمام جدار شاهق ، شديد الملاسة عظيم السمك ، وأن هذا الجدار هو المستقبل، وأنك لا تستطيع أن تعلوه ولا أن تهدمه ولا أن تنفذ منه . إن الذين لم يجربوا فى حياتهم غير السعادة لا يستطيعون أن يدركوا مثل هذا الإحساس .

لقد اتفق لك - بلا ريب - أنك انتظرت أحداً فى المساء فى ركن شارع تحت مصباح من مصابيح الغاز . وقد اتفق لك أن انتظرت ساعة ثم ساعتين ، ثم علمت أن الشخص الذى تنتظره لن يأتى ، وعلى الرغم من ذلك ظللت تأمل . لقد اتفق لك أن خبرت مثل هذه الأمور ، كما جربت ألم الانصراف والتلفت مرة فى كل عشرة أمتار ، وإن كان جليًّا أنه لن يأتى أحد .. جربت ألم التلفت والنكوص ، وإن كنت موقناً أن ذلك كله لن يجدى عليك فتيلا .

كانت حياتى تشبه من كل وجه هذا الانتظار الذى لا يجدى ، فى ركن الشارع ، تحت مصباح الغاز ووابل المطر . فقد كنت أعلم أن الرجاء عبث كله ، وكنت مع ذلك أصطنع (مرات كثيرة كل يوم) حركات الآمل الراجى ، وأسلك مسلكه .

وكان الشىء العجيب فى أمرى أثناء جولاتى - فى هذه الأوقات من العزلة المتحركة - هو النشاط الزائد الذى تميز به تفكيرى .

.. من العسير أن تعبر بالتحديد عما تريده . فأنا حين أتحدث عن النشاط الذى كان يميز تفكيرى ألاحظ أنى لا أترجم الحقيقة بتّة ، فالقول أنى كنت أفكر بنشاط قد يوهم أنى كنت أعكف على التفكير عكوفاً إرادياً ظافرا . مع أن الأمر خلاف ذلك . فالواقع أن الشيء الذى يسترعى النظر هو - على الأرجح - السلبية التى كنت أفكر بها . فقد كانت تساورنى وتنتابنى وتنغصنى وتأسرنى ألف فكرة أخضع لها ولا أبتعثها أنا بوجه ما . فهل أستطيع القول أنى كنت أفكر ؟ هلى أستطيع أن أدعى هذه الصفة ؟ أليس الأصح أنى كنت الشاهد العاجز ، أو أنى كنت الفريسة ؟ أليس الأصح أنى كنت ساحة المعمعة التى حاق بها الدمار ؟ بلى . الحق أنى ما كنت أفكر ، وما كنت أفعل شيئاً لأفكر ، وإنما كان التفكير يدور فىّ ، وخلالى ، وتجاهى ، وضدى كان التفكير يدور بلا مشقة على حسابى ، كما يقام معكسر فى قطر مغزوٍّ .

هناك - ولا شك - ألبّاء مجددون يعتمدون أن يفكروا فى موضوع بعيد وينفذون ما اعتمدوه . هناك من هم قادرون على أن يسيروا روحهم كالسفينة على بحر تناثرت فيه الصخور ... أناس يفكرون حقا ، أى يفكرون فيما يريدون التفكير فيه ، فيالهم من سعداء !

أما أنا ففى أكثر الأحيان مجرى نهر ! أحس تياراً جياشاً يتدافع ، بيد أنى أحتويه . ثم إنى - وانتبه لكلماتى ! - لا أحتويه دائماً ، فهناك الفيضان .

ولك أن ترى الأمور كما تشاء ، فالحقيقة الواقعة هى أن روحى غدت مسرح ثوران شديد ، وأنا أطوف باحثاً عن هذه الوظيفة التى لا تنال .

وهناك تقع حادثة سأحاول روايتها لك ، ويجب أن أرويها لك ، ولكنى لا أستطيع روايتها فى يسر ولا فى هدوء .

عدت إلى المنزل فى أمسية من أمسيات وسط أكتوبر ، ولعل الساعة كانت السابعة أو الثامنة ، وكان ينزل حينذاك مطر من تلك الأمطار التى لا ينبغى أن نقول عنها إنها تنزل ، لأنها كالتى تنضح من الهواء المُدْنف ، والأرض ، والأشياء ، والناس .

وكنت قد رفضت فى عصر ذلك اليوم عرضين أو ثلاثة عروض شائنة : أعمالا كأعمال العبيد أو الآلات أو الدواب . وكنت أسير فى شارع فوجيرار مقبلا من أقصى

جرينل . وأخذت أسترجع نهارى . فما طالعنى منه إلا وجه كئيب شرس ، ولم يكن فى جيبى ما أركب به السيارة العامة ، فمشيت غير مسرع بين برك الماء والوحل ، وأنا ثمل بيأسى ومراراتى .

فلما حاذيت شارع لتريه – وإنى لأذكر المكان جيداً كما ترى – خطرت لى فكرة . وهى أننى عندما أصل إلى المنزل سأعلم أن أمى قد ماتت فجأة .

وأرجو أن تلاحظ أنه لم يكن ثمة سبب ما – ولا ثمة الآن أى سبب – يجعلنى أخشى هذا الأمر . فليس لأمى من العمر إلا ستون عاما ، ولا أعرف بها علة ، وهى تنعم بصحة طيبة منتظمة. ولهذا لا أفكر فى موتها ألبتة إلا كما أفكر فى حادث بعيد ، أو غير محتمل ... حادث يكفينى تخيله لتمتلىء عيناى بالدموع .

ففى ذلك المساء بينما كنت أنعطف من شارع لتريه ، خلتنى أعود إلى المنزل وأجد أمى ميتة . وحاولت أن أطرد هذه الفكرة غير المعقولة ، وأؤكد لك أنها لم تكن فكرة مزعجة ، إذ لم تكن من جنس الإلهام الذى يستبق الحوادث ، بل كانت مجرد تآليف أفكار .. حاولت كما قلت لك ، ولكنى سرعان ما لاحظت أن هذه الفكرة لم تأت وحدها ، فبينما كنت أحاول ذودها عنى ، كانت تهاجمنى أفكار أخرى شتى الأشكال ، كأنها نتائج للفكرة الأولى . وكانت تهاجمنى مهاجمة منطقية ، كما يكون الهجوم الحسن التركيز .

كانت أمى ميتة . لم ؟ وماذا بعد ؟ ما الذى يحدث ؟ الدفن . ورأيت الدفن ، والنعش ، والشوارع الصغيرة ، والمقبرة . كل ذلك رأيته . ثم ماذا ؟ المنزل الخالى . ثم ماذا ؟ رأيت نفسى ، وحياتى كلها ترسم من جديد .

سرعان ما رأيت حياتى ترسم من جديد ، لا بطريقة معينة بل بطرق كثيرة مختلفة . وكان أول شىء خطر ببالى هو هذا : هنالك الدخل القليل . وقد حدثتك عنه من قبل . إنه مائتان وأربعون فرنكا فى كل ثلاثة أشهر . وهو ملكٌ اسمى لى ، لا يُحاز ولا ينقل ، بل لا يجوز رهنه ، وتلك فكرة غريبة لعم لى مات مفلوجا .

وقصارى القول أنه كان هنالك الدخل القليل . ثمانون فرنكا فى الشهر . فنظمت حياتى ، واستأجرت غرفة ، وصرت حراً .. حرًّا وبائسًا . الخبز والبطاطس . دخلت فى صدَفَة من الوحدة المستوحشة، لم يبق للناس حقوق قبلى. كنت أحيا لنفسى . بمرارة . وهكذا كنت أنتظر الأشياء التى لابد أن تحدث لى فى المستقبل ، وأنا فى استقلال مسكر . آه ؟

آه ! وجدتني فجأة أمام مجلس الشيوخ ، ولم أدر كيف وصلت إلى هناك . وجدتني أمام مجلس الشيوخ ، ورفعت قبعتي التي بلل ظاهرها المطر وباطنها العرق . وتملكتني رعشة شديدة . ونظرت في ضوء المصباح مرعوباً إلى يديَّ النديتين المرتجفتين كيدي سكير أو قاتل خوراً . وعاودت السير على حافة الطوار .

إذن فهذا هو الرجل الذي كنته ! لقد فكرت فيَّ موت أمي ، فكرت فيه بهدوء ، وسرعان ما نظمت حياتي بغير أمي . ألغيتها فكرياً لأتمتع بالدخل القليل . هذا هو الرجل الذي كنته .

لن أستطيع أبداً أن أقول لك ما حدث . لقد نشب في باطن وجودي صراع . وكان صوت جلي رشيد يقول : «هذه أفكار غير معقولة فيجب أن تحتقرها وتطردها . وكان صوت آخر صافر محنق يردد بعناد : « جبان ! جبان ! » . ولكن صوتاً ثالثاً كان يعد بوضوح وهدوء ، على الرغم من تلك الجلبة : « عشرون فرنكا في الشهر للغرفة ، فيبقى فرنكان كل يوم للمعيشة . ثلاثة أرباع فرنك للغداء ، ونصف فرنك للعشاء ، ثم الكتب ، والثياب ، والحرية» .

أمررت يدي على وجهي وأنا أتنفس بصعوبة ، وكانت وجنتاي تتصببان ماء ، ولا أظنه كان دمعاً ، فقد كان يزداد انهماراً ، وكنت أحس إعياء واشمئزازا .

وجلست برهة على السور الحجري الذي تشقه بوابة لكسمبورج وبدا لي أن هذه الراحلة لعضلاتي تهدئ غليان أفكاري ، إن صح أن أسمي « أفكاري » هذه الحشرة التي لا أستطيع قمعها ولا التخلص منها . وشعرت أني أتمالك نفسي قليلاً ، وأني أضطر روحي إلى حالة من السكون ، تذليلك حصاناً حروناً يجذب أعنته جذباً شديدا . كنت أفكر ببطء وأنا أحرك شفتيَّ ، كنت أفكر كلمة كلمة : « إذا ماتت أمي .. » ، وسرعان ما شعرت بحلقي يكظمه الأسى ، وعصر معدتي حزن عميق كنت أعرفه جيداً ، لأني جربته من قبل . وإن جاز هذا التعبير قلت إنني قد سرى عني لهذا الألم أيما تسريه ، ففكرت مرة أخرى : « هذه فكرة نابية كل النبو ، فما من سبب يجعل أمي ترحل عني . » لا ، لم يكن هنالك من سبب ، وأخيراً قلت لنفسي : « لا يمكن أن يصيبني شر أكبر من هذا . » فأجاب حزني كله : « لا ! لا ! لا ! لا شر أكبر من هذا » .

وهكذا استطعت أن أعتقد – بضع ثوان – أننى قد استرددت السلطان ، وأنى استعدت القدرة على توجيه روحى .

وتنبهت فى تلك اللحظة إلى أنى لست وحدى بحذاء بوابة لكسمبورج . فقد كان هناك شيخ بائس على رأسه قبعة مدورة كورها المطر ، وكان يقترب فى هدوء وهو يمشى على حافة الطريق ، وحقواه يحتكان بالجدار الصغير المنخفض . وكان يقول بصوت خفيض : « الصحف ! الصحف ! » فلا يسمعه أحد .

وعرفت فيه الأعمى الذى يقاد ثمة كل مساء . وكان رأسه مائلا بعض الميل ، مردوداً إلى الخلف قليلاً ، ووجهه الجامد المغلق يستقبل المطر ، فلو رأيته لقلت إنه يسير زحفاً ، وقف على قيد خطوتين منى ، وكأنه أحسنى ، أو كأنه شعر بضوضاء حياتى . فنظرت إليه وغمغمت :

– هذا ! هذا ! فيم يفكر هذا ؟

– وكدت أدنو منه وأكلمه . أى كلام ؟ أى كلام ؟ لم يكن هنالك وجه اشتراك بين هُوِّته وهوتى .

وعاودت السير . فرأيت الأعمى بدأ يزحف بحذاء البوابة ، وكأن ابتعادى ترك له الطريق خالياً .

وظللت فى شبه هدوء حتى وصلت إلى ميدان پانثيون . وأعنى أننى كنت فارغاً أو مقفراً من كل فكرة . فلما دخلت فى شارع أُلم إذا بى أحسب : « ثلاثة أرباع فرنك للغداء . نصف فرنك للعشاء . سأغسل ملابسى بنفسى . لا حاجة إلى البحث عن عمل منذ الآن . الوحدة ! » .

ورفعت كتفىّ متألما ، وعزمت على أن أدور دورة صغيرة حتى لا أعود إلى المنزل توّاً . وهذا برهان لك على أنى لم أكن فى الحقيقة أشعر بقلق ، فقد كنت أعلم جيداً وأحس جيداً أن أمى بمنأى من الخطر ، وأنها لم تكن محفوفة بالخطر إلا فىّ ، فىّ أنا وحدى .

رجعت أدراجى أمشى متمهلا صوب شارع كلوفيس . وكنت أفكر بنظام وإلحاح : « إذا بعت أكثر الأمتعة فسوف يكون فى استطاعتى أن أرحل رحلة قصيرة » .

إذن فلا شيء يمكن أن أفعله ! إننى ما عدت أفكر بالجمل الشرطية بل بالأفعال المستقبلة لاشيء يمكن أن أفعله ! لم أكن سيد أفكارى ، فعبث أن أقاوم ، وعبث على الخصوص أن أضلل نفسى عن جريمتى هذه ، فما كان فى طوقى ألا أفكر تفكير المجرمين » .

سرت على مهل فى الشوارع الصغيرة التى توصلنى إلى شارع بوده فير . ونفذت إلى منزلى ، وأنا مقتنع كل الاقتناع بأنى ما زلت أحب أمى حبًا ملؤه الحنان ، ولكنى عاجز كل العجز أن أصد عنها خيالاتى ، وأن أحميها من أن تقتل فى باطنى ، وألا أقتلها فى باطنى .

* * *

كانت المائدة تشغل معظم المساحة الخالية وسط الغرفة ، وقد تجردت من المشمع الذى يغطيها عادة ، وطولت بوصلتيها . وكان مصباحنا القديم ذو القائمة الرخامية ينير قطعاً من النسيج مقصوصة وموضوعة على المائدة ، ونماذج مصنوعة من النسيج الموصلى ، وعلب دبابيس ، وكرات خيط . وكانت امرأتان تخيطان وهما مائلتان نحو المصباح ، وشعرهما يكاد يختلط بعضه ببعض . وكانت هاتان المرأتان هما أمى ومرجريت ، جارتنا الخياطة التى حدثتك عنها من قبل .

وقفت فى إطار الباب ، وعرانى - وأنا أنظر إلى ذلك المشهد الهادئ - انقباض شديد .

ورفعت أمى عينين بهرهما نور المصباح ، والتمست وجهى فى الظلام ، ثم ابتسمت ابتسامة حلوة مستعطفة وقالت :

- أهذا أنت يا لويس ؟ إن عشاءك معد فى المطبخ ياولدى ، وقد تركت الحساء على نار لطيفة .

ودقت بكشتبانها المائدة مرتين أو ثلاثا ، كما تفعل الخياطات غالباً ، وأردفت بصوت فيه شيء من الاضطراب :

- لقد استولينا على غرفة الطعام كما ترى . إن مرجريت مثقلة بالعمل ، ولذا أساعدها قليلا .

فمضيت إلى المطبخ ولم أقل شيئاً . وماذا يقال ؟ ألم أفهم ؟ ألم يكن الأمر واضحاً بحيث أفهم ؟

أمسكت الإناء الذى كان ينشُّ فيه الحساء ، وجلست فى مكانى المعهود بين البالوعة وخزانة الخشب الأبيض ، وشرعت فى الأكل .

هذا إذن كل ما أستطيع أن أفعله أنا : الأكل ، ثم إيواء ألف فكرة مرعبة ، ثم حساب منافع الدخل القليل : وهذا هو السبب الذى من أجله تسهر أمى لتخيط الصدريات .

كفتنى نظرة واحدة لأفهم كل شىء : مرجريت ، والنماذج ، وفضلات النسيج ، وكرات الخيط ، وعينا أمى اللتان ترقبان مسرى الخيط المستبهم فى النسيج الأسود . وفى آخر السهرة فرنك وخمسون سنتيما ، أو فرنك وخمسة وستون سنتيما .

لم أستطع أن أمنع نفسى من الترديد : « ثلاثة أرباع فرنك للغداء ، ونصف فرنك للعشاء ... » وكأنى أود أن أنقش هذه الكلمات على جلدى ، أو أرسمها على قلبى بوخزات الدبابيس .

شربت الحساء كله ثم أكلت شيئاً من العدس كان هناك ، ثم قطعة صغيرة من السجق ، ثم قطعة من الجبن . « نصف فرنك للعشاء ! » لقد التهمت كل ما وجدته ، فكان خزيى لذلك أكبر مما أستطيع أن أقدر .

وكنت أستمع وأنا آكل للعاملتين وهما تتسامران بصوت خفيض . وأحياناً كنت ألمح حركة ، وحفيف ثوب ، وضوضاء آلة خياطة تنخر الصمت بضع دقائق . ثم يسود السكون من جديد ، تتخلله بين لحظة وأخرى هذه الشهقة الصغيرة التى تأتيها النساء ليسترجعن ريقهن الذى يتسرب من بين شفاههن المنفرجة .

ولما انتهيت من طعامى ، عبرت حجرة الطعام ، لم أنطق بكلمة ولم أتوقف ، ودخلت حجرتى ، وخلعت حذاءى المبتلين بالماء ، وانطرحت على الأريكة .

كانت حجرتى مظلمة ، وكان يدخل من الباب الذى ظل منفرجا ضوء قليل حزين ، يكون لوحة من تلك اللوحات التى تبقى حية عميقة فى الذاكرة : ركن من الأرض الخشبية اللامعة ، وشيئان أو ثلاثة شبه مكفنة بالظلام ، والزاوية البارزة لإطار ، والشبح الصلب الأكلف لستار .

كنت هادئاً كل الهدوء . كنت فى تمام الصحو والبرود . وكان الإحساس الغالب علىَّ هو التعب والاستسلام .

لا شىء يمكن أن أفعله ! محال أن أنكر أن فى ثناياى رجلاً قادراً على التفكر فى موت أمه ، رجلاً قادراً على أن يحسب سعادته الحقيرة مقدراً موت أمه أول شىء . وأمى تعمل فى تلك الأثناء لتطعم هذا الشخص ، لتكفل له الحساء والعدس والسجق .

وجرت محاولة للتوفيق : « هون عليك ، هون عليك . لا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من التفكير ، وما الفكرة ؟ أى شىء أبعد عن الوجود الحقيقى من فكرة ؟ » . وكنت على وشك أن أدع هذا الخاطر يهدهدنى ، عندما انبعثت ذكرى مختلسة كأنها فأر يعبر غرفة مسكونة ، ذكرى أذنى رجل ضخم طيب ، يبدو للمرء أن يضع عليها أصبعه ... وينتهى المرء بأن يضع عليها إصبعه .

لا شىء يمكن أن أفعله ! أشعلت لفيفة وتمددت تمدداً ، وذراعاى تتأرجحان ، وساقاى منطرحتان ، وصدرى مكشوف .. حيوان معروض لكلب صيد . حقل قمح مبذول للجراد . جيفة منبوذة للغربان : ساحة عامة . فرج هلوك . أقبلوا ! أقبلوا ولا تخجلوا ! إفعلوا ما بدا لكم ! فماذا أنا – هناك ؟ وأين أنا – هناك ؟

كان الليل قد مضى أكبر شطريه حين نهضت ، فذهبت إلى حجرة الطعام . وعلَى أن المصباح كان مظللا فقد جعل أجفانى تطرف . وجلست إلى المائدة .

كانت مرجريت تصفُّ الصَدريات فى قطعة من النسيج القطنى الرقيق الأسود ، ولمرجريت وجه جميل ممتلئ قليلاً ، وعينان حنونان كأن فيهما شيئاً من الوجل ، عينان بعث فيهما عمل الليل بعض الأحمرار .

جمعت أمى الدبابيس وكرات الخيط . وكنت قد التقطت كشتبانها ، وأخذت أعبث به وأنا شارد اللب ، وكان ساخناً تنبعث منه رائحة خفيفة من العرق والهواء المحبوس .

قالت أمى وهى تشد أصابعها لتريحها :

– إنى راضية ، فقد أنجزنا عملا كثيراً !

واختلط فى هدوء الليل العميق شذا القهوة بنفح الصوف الحار ، المنبعث من قطع النسيج . وكانت الغرفة الصغيرة يسودها هدوء كثيف ، شبه هلامى ، يكتم الأصوات . وكان المصباح يبدو منهوكا ، وشعلته تنام وهى واقفة .

قبلت مرجريت أمى ، وتمنت لى ليلة طيبة وخرجت .

وأرتجت أمى الباب وعاد إلىَّ .

– ينبغى أن تنام الآن يا بنى .

فأمسكت إحدى يديها بين يدى . كان جلد سبابتها جاسياً ثقبه وخز الإبرة . ومسحت أمى بيدها الأخرى على جبينى مرات كثيرة ، فوجدت هذه اليد غضة . ولم أقل شيئاً ... كنت أسمع صوتا كأنه صادر من أعماق غار ، صوت قلبين يدقان .

- ٧ -

كنت ما أزال نائماً فى صبيحة اليوم التالى ، وأنا فريسة للخدر ، حين سمعت همساً فى الغرفة المجاورة . كانت أمى تقول :

– هو ذاك . هو ذاك يامرجريت . أحضرى إلىَّ عدداً منها كل يوم ، مثل عدد الأمس تقريباً ، ونجلس فى غرفة الطعام كأمس ، فهو أروح .

كنت قد نهضت ، وذهب عنى النعاس ، فتناهبتنى الهموم كأنى إجاصة تالفة ازدحمت عليها الزنابير .

فاغتسلت مسرعاً ، وأفطرت ، وأنا أستشعر العزيمة ، بغير أن أدرى ماذا عزمت عليه . لم تعد خططى تشبه ساكنات القواقع ، فقد تكون فى باطنها شىء عظمى صلب ، يشبه العمود الفقرى .

– أرتدِ معطفك يا لويس !

فليكن ! فليكن ! المعطف ، فالباب ، فالسلم ، فالشارع .

كان الصباح مضبباً دامعاً ، والضباب ينتح قطرات كبيرة صافية على سطوح الأشياء ، والرجال يسيرون سراعاً لا يلوون على شىء ، شأن من يعلمون أين هم ذاهبون .

ووجدت نفسى قرب الساعة الثامنة إلا ربعاً فى ميدان هوبير . وكان كشك الصحف مفتوحاً ، ولكن صحيفة الإعلان لم تكن وضعت بعد ، فجعلت أدير بين أصابعى لفيفة نحيلة ، لأظل مالكا زمام نفسى ، ثم انتظرت مع الآخرين .

كنا خمسة هنالك أو ستة نمشى ذهاباً وجيئة وأيدينا فى جيوبنا ، ونتسارق النظر. وبدا لى أن بيننا نوعاً من القربى ، قربى الفقر والقلق والذلة ، كما خيل إلى أننا نتقارض شيئاً من التحدى .

وفى الساعة الثامنة عرضت صاحبة الكشك اللوح الذى بينت عليه طلبات الوظائف . وكنت قد أرشدت من قبل إلى هذه الوكالة المقامة فى الهواء الطلق ، ولكنى

لم أجرؤ – حتى ذلك الحين – على الالتجاء إليها . فتقدمت خلف الآخرين ، وأنا أتصنع نوعاً من الشرود .

لم يكن من السهل قراءة الكلام المطبوع بالغراء على الورقة المبتلة . وكان بعض الرجال يتهجون الكلمات بصعوبة ، وفى صوت مرتفع ، وهم يمضغونها ، إن صح هذا التعبير . فقد كانت أرواحهم تتشرب هذه الكلمات ببطء .

واجتذب الإعلان الثانى عشر اهتمامى : « محام يطلب شخصاً مثقفاً شابًا حسن التعليم ، عازباً ، للأعمال المكتبية . يرسل الرسم الفوتوغرافى » .

وتراءى لى مكتب قليل الضوء. وبساط مخملى مفروشٍ على أرضه، ونار متأججة ، نار حمراء قانية تشتعل فى جوف المدفأة ؛ وأصائل من الوحدة الطويلة ، وشهقات خطار فى الصمت الكثيف اللبد .

هذا عين ما ينبغى لى .

قالت لى صاحبة الكشك وهى تناولنى الظرف الذى يحتوى على عنوان رقم «١٢» :

– هذا بخمسة وعشرين سنتيما .

وحررت – فى مكتب بريد – كتاباً رقيقاً ، يجمع بين الكرامة والاستمالة ، وبين الحزم والإقناع . وقد أزعجتنى كلمتا « شخص مثقف » ، ولكنى فكرت أن لدى إجازتى العلمية على كل حال ، وتناولت من حافظتى الرسم الوحيد الذى كنت أملكه ، وهو رسم مضى عليه ردح من الزمن ، أبدو فيه مزرفن الشعر ، طرير الشارب ، على وجهى سيماء الكآبة والخجل الذى تنطبع على السحنة بين العشرين والخامسة والعشرين . رسم ؟ لماذا طلبُ الرسم ؟ أفى الدنيا مثل هذا الجنون ؟

وما إن رحل الخطاب حتى شعرت بالاطمئنان والرضى . وتراءى لى النجاح مصادفة من تلك المصادفات السعيدة التى تحول مصاير الرجال .... منذ تلك اللحظة كان لى مستقبل . المستقبل ! أليست هذه فكرة تطرأ فجأة فتكفى لتغير طعم الدنيا ؟

قلت لك إن الجو كان شديد الرطوبة . فأمضيت بقية نهارى فى مكتبة سانت جنفييف ، بركنى المحبب عند الطرف الأيسر لمنضدة فى المؤخرة .

هنالك يطيب لى العيش . فالنوافذ العالية ينزل منها ضوء صاف روحانى يغنى على الصفحات المطبوعة كما يغنى قوس على وتر . كل شىء هنالك بقدر واعتدال ، كأنه فى رأس حكيم ، وبخور الأحجار والكتب ينفذ إلى الروح ويطهرها .

أمضيت ذلك النهار كله فى المكتبة ، وعدت إليها فى اليوم التالى ، فقد كنت أنتظر .. ما جدوى تكرار المحاولة ؟ ألست ترى ذلك معى ؟ إن محاولة واحدة حسنة محكمة التنفيذ ....

حين عدت إلى المنزل فى مساء اليوم الثانى ، سلمت إلى البوابة خطابا . أرد سريع هكذا ؟ صعدت مسرعاً إلى الطبقة الثانية ، حيث يخفق مصباح الغاز فى مسرى الهواء .

وجلست على درجة من درجات السلم ، نحتت حافتها وأكلتها أجيال كثيرة من السكان . وكدت أفض الظرف ، وإذا بى أستاء لتسرعى وفرضت على نفسى – وأفلحت فيما فرضت – ألا أقرأ هذا الخطاب إلا فى حجرتى بعد وقت ، وقد هدأت وسكنت ..... لقد كانت يداى ترتجفان ، ولا يفتح المرء باب حظه الجديد بيدين ترتجفان .

وصعدت الطبقتين الباقيتين فى اتزان غير قليل . وكانت أمى ومرجريت تعملان فى حجرة الطعام ، فتمهلت حتى حييتهما تحية المساء ، وخلعت معطفى ، وأشعلت مصباحاً ، ودخلت حجرتى . وأغلقت الباب . ووضعت الخطاب على المنضدة ، لقد آن أن أفض هذا الخطاب وأعلم . كلا ! لما يؤن ! خلعت حذاءى ، فأنا لا أظل ألبتة لابساً حذاءى حين أكون فى منزلى ... فى جحرى ... فى كهفى ، ولبست كوثى الباليين ، ثم أشعلت لفيفة ، وكنت أخزر عينى بين الحين والحين لأنظر إلى ذلك الخطاب الراقد هناك كأنه شىء لا وزن له ، وهو الذى يحتوى على المستقبل نفسه .. مستقبلى . انتظرت ثم انتظرت ، ولما تحقق عندى أنى أستطيع الانتظار ، عرانى شىء من الزهو ، فبدأت أصبح فخوراً بنفسى ، وبدأت أرى فى أخلاقى رأيا كريما .

على أن هذا الرأى لم يتسع له الوقت ليثبت ، إذ انقضضت على الخطاب ، ولاحظت وأنا أفضه زن يدى ترتعشان ، وهو ما أردت جاهداً أن أتجنبه . كانتا ترتعشان ارتعاشاً شديداً حتى كدت أمزق الظرف وما حواه .

ماحواه ؟ لقد عرفت رسمي أول الأمر ، ثم خطي ، خطابي ، وبعرض الصفحة هذه الكلمات مكتوبة بالقلم الأزرق : « المطلوب سكرتيرة . يرد الخطاب والرسم إلى هذا الشاب » .

لقد مرنت على احتمال الخيبة ، ولكن خيبة هذه المرة ملأتني فجأة بخزى غريب ، جعلني أحس أنى أحمر وأكاد أبكى . واسترجعت لتوى نص هذا الإعلان الغريب عن الوظيفة : « شخصاً شاباً ... حسن التعليم .... عازباً ... يرسل الرسم الفوتوغرافى » كيف استطعت ألا أفهم ؟ كيف استطعت أن أخطئ هذه النقطة ؟ وقد أرسلت رسمى ! أنا ! ماذا كان يمكن أن يظن بى ؟

قرأت خطابى ثانية . وبدت لى الكلمات التى رأيتها أمس الأول جلية واضحة – بدت لى فى هذه المرة مفتوحة لكل الريب . وصعدت إلى وجهى دفعات أخرى من الحمرة . رباه ! كيف كنت غبياً ، غبياً ، غبياً ! ... وهزأة ... نعم ، هزأة !

وأمام عينى الجدار مستقيماً أملس كعهدى به . لا شئ .

يمكن أن أفعله. أف لهذا القلب المتردد المتخاذل ! ما أقل أسباب الاحترام عندى ، وما أفظع هذا السيل من القبائح الذى يخترق روحى ! هذه الحرب ! وهذه الهزيمة !

نادت أمى فجأة :

– لويس ؛ تعال ياولدى لتتغدى .

أكان ينبغى لى أن أشكو ؟ أكنت أجرؤ على الشكوى ؟ ألم تكن لى أمى ؟ ألم يكن لدىّ ما أتعشى به ؟ ألم تكن لى هذه الحجرة الصغيرة . هذا المأوى المغيب الخفى كأنه صدفة ؟ آه ؟ إن الحلزون لا يدرى أنه سعيد !

وإذا كانت أدوات الخياطة تزحم حجرة الطعام تعشينا فى المطبخ . وكانت مرجريت قد بدأت تتعشى معنا منذ أمس لتوفر الوقت ، ودبرت ذلك مع أمى . فلندع الحديث عن مرجريت إن كنت لاترى بذلك بأساً .

كانت جالسة عند أحد طرفى المائدة ، وكنت أشغل الطرف الآخر ، وعن يسارى البالوعة وعن يمينى خزانة الخشب الأبيض ، فكان ذلك المكان هو مكانى الحق فى الحياة . وكانت أمى بيننا ، وكانت تتلفت بين آونة وأخرى لتنظر شيئاً ينضج على موقد الغاز .

تابعت المرأتان حديث نهارهما ، ذلك الحديث الذى لا ينتهى كعملهما ، وكان هذا الحوار أشبه شىء بحديث النفس ، إذ كانت مرجريت وأمى جسد متشابهتين . أوه ! لست أعنى التشابه الجسمى ، بل التشابه القلبى ، التشابه فى طرق احتمال الحياة .

وقلما كنت أتكلم ، وقلما كنت أستمع . ولكن كلمة واحدة – كلمة الشقاء – كانت تتردد بلا انقطاع فى كلام المرأتين . فتعلقت بها روحى العابرة ، وفتحت فمى وقلت شيئاً ككل ما يقال . قلت ما يقرب من هذا :

– الشقاء ، الشقاء ! يجب ألا يدوم الشقاء طويلاً ، فلعله إن دام طويلاً أن يبقى إلى الأبد .

وكانت أمى ترفع إلى فمها ملعقة حساء ، فأعادتها إلى صحفتها ، وهزت رأسها بغير أن تنظر إلى ، وقالت بصوت خفيض وكأنها تحدث نفسها :

– وى ! إنه فيما يقول أشبه بأبيه ، أجل إنه أشبه بأبيه .

آه ! لا لا ! فلأعترف بأن عندى دواعى لليأس ! فلأعترف بذلك الآن ما دام لأبى دخل فى الأمر ، فلأعترف بأن لدى ما يدفعنى إلى الجنون ، ما دام أبى الذى لا أعرفه يدخل فىَّ ، وما دام غيره من الناس الذين لا أعرف عنهم شيئاً يدخلون فى . إننى لا أستطيع أن أجد نفسى . وإذا كنت لابد باحثاً عن نفسى وسط حشد لجب فلأرجعنَّ عن هذه المحاولة ! فلأرجعن عن هذه المحاولة !

وغنى عن البيان أنى فكرت فى هذه الأشياء كلها بغير أن أنطق بكلمة واحدة .

على أن بعض أفكارى ظهر – ولابد – على صفحة وجهى ، لأنى حين رفعت عينى لاقيت عينى مرجريت ، وكانتا تفيضان عتابا ، كما خيل إلى أنهما تفيضان عطفا ، فأمسكت لتوى ؛ أعنى أننى أمسكت عما كنت فيه من تفكير ، أمسكت عن التدحرج فوق منحدرى .

لو أن الأرض التى تسبح منعزلة فى الفراغ التقت فجأة بأفكار عالم آخر ، لملكتها ولا شك دهشة كدهشتى ذلك المساء .

* * *

عدت إلى التطواف على مقربة من كشك ميدان موبير فى صبيحة اليوم التالى قبيل الساعة الثامنة . والحق أنى كنت جزعاً أشد الجزع ، فكان جل مرادى أن أصنع شيئاً ما ، أن ألقى بعظمة إلى ضميرى القلق . أجل ... أن أصنع شيئاً ما ! أياً ما كان هذا الشئ ! فذلك خير من هذا التأمل الباطنى الدائم .

وظهرت صفحة الإعلان ، فأمررت عليها نظرة حزينة . وأخذ الرجال الذين كانوا يحلون طلاسمها مثلى ينسلون واحداً واحداً . وسرعان ما بقيت أنا وحدى. لا ، لم أكن وحدى . فقد بدأ شخص ورائى يتكلم ، وكان ألثغ ينطق الجيم زاياً ، وكان صوته مريضاً منخوباً . قال :

– كل هذا معروف ! ليس فى هذا الإعلان كله شى ء واحد يجتذب العين . إن مكاتب باريس كلها لا تشتغل منذ ثلاثة أسابيع إلا بخدع بالية .

أنا ذاهب إلى شارع هال .

إننى قليل الإقبال على التحدث مع من ألقاهم فى الطريق . ولهذا تظاهرت بأنى لم أسمع ذلك الصوت الذى كان يهمس فى أذنى ، وتشاغلت بقراءة الإعلان واجتنبت أن ألتفت .

فعاد الصوت يقول :

– ألا تأتى إلى شارع هال ؟

وكانت فى كلماته نبرة مستعطفة حيية حزينة جعلتنى ألتفت .

ولعلك تعرف هذا الرجل ، فهو كثير التجوال فى حينا ، وإنى لأذكر أنى رأيته يتسكع فى الممرات الصغيرة بالبانثيون .

إنه متوسط القامة ، طويل الجذع ، قصير الساقين ، فى نحول الحيوانات الهزيلة وعلى عينه اليمنى غشاوة كبيرة زرقاء ، وأهدابه متلاصقة ، وأجفانه سمراء كالفاكهة المعطوبة ، وله شعر لا لون له يوصف ، ولا يتفق مع أى ضرب من ضروب النجاح فى المجتمع ، وشارب متهدل أصهب أشعث ، ولحية بنت أربعة أيام ، ولا ترى قط إلا بنت أربعة أيام ، وبقع لا تحصى أشبه بالنخالة ، على جلد بلون لباب الخبز ، وياقة منشاة منفصلة ، ذات بياض لاتستريح إليه النفس ، ويدان شعراوان مقروضتا الأظافر ، ورداء طويل ينبغى أن يكون سترة مذيلة ، ولكنه ليس إلا سترة وحسب ، وحذاء بالٍ فتقه ضغط حُسأ متناظرة ، وقبعة مستديرة مهيضة غير أنها نظيفة ، وتحت ذراعه حافظة من القماش الذى يشبه الجلد .

بدا عليه التردد . وقال مرة أخرى فى شى ء من اليأس :

– تعال معى إلى شارع هال .

فسألته أخيراً :

– ماذا فى شارع هال ؟

– ماذا ؟ ألم تذهب إليه قط ؟ ألا تعرف مكتب باروان لنسخ الجزازات ؟

فهززت رأسى دهشاً ، فقد كنت لا أعرف باروان .

فقال لى رفيقى الغريب فى نبرة مستعطفة :

– تعال معى إلى شارع هال ، تعال ! لست مقيداً بشى ء ، فإذا لم يعجبك العمل فأنت حر تتصرف فى أى وقت تشاء ، أو لا تعود ثانية . إنى لأعجب لك إذ لا تعرف مكتب باروان ، فإنك ضامن هناك أن تحصل على فرنك وربع فرنك ، أو فرنك ونصف فرنك إذا أسرعت فى الكتابة .

ونظر إلىَّ بعينه الوحيدة فى إلحاح وَجل ، وأردف :

– أنت من موظفى المكاتب .

حقاً إنى كنت من موظفى المكاتب ، ولكنى شعرت بشى ء من الخزى ، لأنى ما ظننت قط أن ذلك يبدو علىَّ . قال الرجل مرة أخرى :

– لابد أن لك خطاً جميلاً ، وأنك نشيط فى عملك ، فيمكن أن تعمل بفرنك ونصف . ولكن ينبغى أن نسرع لنجد مكاناً ، فإن مكتب باروان مكان قذر ، ولكنه ملجأ نعمد إليه عند الحاجة .

« نعمد » ! شكت هذه الكلمة جنبى وأحدثت لى ألما يسيراً . أوه ! لقد ذكرت لك أنى لست متكبراً ، فلم أستغرب أن يقول هذا الرجل « نحن » ، ولكنى شعرت أن «نحن» هذه تضمنى إلى رفقة تعيسة . وأردت أن أحس طعم «نحن» هذه فى فمى أنا ، فأجبت بمرارة هادئة :

– لا شك أن وجود هذه الأماكن خير « لنا » .

وأسلمت له قيادى . فعاود الرجل الكلام بطلاقة أهل العزلة الذين يظنون أنهم وفقوا آخر الأمر إلى أذن كريمة :

- أما أنا فسكرتير ، أعنى أننى كنت سكرتيرا . ولكن الوظائف الآن معدومة ، واسمى لويلييه ، وأنى لأذكر لك هذا الاسم من فورى ، وإن كنت لا أذكره عادة ، فقد سبب لى بعض المكاره ، إننى أبحث عن وظيفة أستطيع فيها أن أشتغل لنفسى قليلاً ، وهذا أمر جد عسير ، فباريس ليست واسعة كما يظن .

كان يمشى بجانبى ، وكنت أسمع زحيره بين الجمل ، زحير من أدنفه التهاب شعبى مزمن ، وكان يسعل ويبصق بلا انقطاع .

قال لى وهو يمد يده بلفيفة تبغ :

- أتحب أن تدخن لفيفة ؟

وبينما كنا ندخن لفيفتينا ابتسم ابتسامة ضعيفة :

- هذا من تبغ موبير ، فزميلى فى النوم يجمع أعقاب اللفائف ، وهو يعمل فى مصنع « جرو » الذى بالزقاق . إنه تبغ مخلوط ولاشك ، ولكنه لابأس به على العموم ، وهو لطيف هادئ ، ولعل سبب ذلك أن جزءاً منه قد غسلته الأمطار . لقد رأيت أكواماً من التبغ عدة مرات فى مصنع « جرو » : متراً مكعباً على الأقل فى ركن الحجرة . ليت شعرى كم يلزم من أعقاب اللفائف لعمل هذا التل ؟! هيه ! إنه تبغ على كل حال . وهو زهيد الثمن كما تعلم .

كنت أدخن لفيفتى فى نوع من الرعب : إن قسوة الشقاء هى فى تعلمه ، ولم أكن فيه إلا ناشئاً ، فكنت أنظر إلى رفيقى بين لحظة وأخرى وأفكر : « وى ! وى ! بعد عشر سنوات أصبح مثل هذا » .

وكان الرجل يكردح بجانبى ولايكف عن الكلام ، وكانت فى صوته رنات طفلية حنون ، مرجعها بلاشك إلى لثغته . وكان يكثر من النظر إلىّ ، وكان - لقصره - يستشرف ليرانى ، فتلمع العين الوحيدة لمعاناً مضبباً ضارعاً يعصر قلبى .

بلغنا شارع هال ، حيث المنازل جميعها كأنها أشربت رائحة قذرة من كرنب عطن ، ووقف زميلى أمام باب كبير . قال :

- سأدلك على الطريق ، أنت لم تأت قط .

وكان هناك فناء مزدحم بعربات اليد ، والصناديق ، وبأشياء أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، ثم سلم أسود كريه الرائحة حتى ليبدو كأنه شق فى كتلة من القاذورات .

ولما وصلنا إلى الطبقة الأولى كان رفيقى يلهث . وأمسك بأكرة الباب .

– هنا . لندخل مسرعين . وحذار من الضجة حتى لا يثور بنا الثقيل .

ودخلنا . فتخيلْ قاعة كبيرة تنيرها ثلاث نوافذ ذات ألواح كدرة عليها آثار كآثار الدموع . حجرة درس ، ولكنها لتلاميذ مسنين ، لأشباح تلاميذ يستدرون الإشفاق .

وتخيلْ أن فصلاً من صغار الأطفال نزلت بهم خمس عشرة سنة من الشقاء والمرض والحرمان والكروب ، تخيلها نزلت بهم فجأة وكأنها عاصفة ، فكذلك يكون مكتب باروان وقت العمل .

وصمت كدر ، يتألف من همس مكتوم ، وسعال ، وأنفاس مبهورة ، وأصواتْ أحذية تحتك بالأرض الرطبة .

والجدران المصنة لا يعلوها إلا قطرات الماء التى نتجت من تكاثف كل الأنفاس .

وعلى الكرسى المرتفع – فهنالك كرسى مرتفع – شى ء شبيه بضابط صف ... رجل طيب كله شارب أشهب وعنق وفك ، ولا جبين له ، فشعره فى حاجبيه . وبين هذا الشعر كله عينان داميتان حاميتان . جنوتان فى أرض معشبة .

قال لى زميلى :

– أسرع ! أسرع ! ثمة مكانان ، هنالك قرب النافذة .

فجلسنا جنباً لجنب على طرف « دكة » ، وفتح لويلييه حافظته القماشية وأخرج منها قلمين .

– خذ هذا لك . واذهب الآن إلى الثقيل لتطلب منه جزازات .

وكان الثقيل هو هذا الشىء الشبيه بضابط الصف ، والمستوى على عرشه فى طرف القاعة . أسلمنى سجلا صغيراً وإضبارة من الجزازات البيضاء . فقال لى لويلييه :

– ما عليك إلا أن تنسخ كل العناوين التى بالسجل فى الجزازات هلم ! وهلممت .. ولم أك فاهماً كل الفهم ما حدث لى ، ولا ما كنت أعمله فى ذلك المكان . كنت أعمل جامداً مذهولاً ، وكنت أشعر برغبة قوية فى أن أهرب ، وأخلو إلى نفسى فى شارع مقفر . ولكنى قاومت هذه الرغبة ، وفكرت وأنا أصر بأسنانى : « لا ! لا ! أنت هنا ،

وستبقى هنا . ماذا ؟ إن هذا بدء الانحطاط . إنما هو أول جرعة من الكأس . تجرع ! تجرع ! » وعنيت على الخصوص بألا أدع لشى ء من مشاعرى سبيلا إلى الظهور ، وبألا أبدو دهشاً لأى شئ ، أو مرتاعاً من أى شى ء . وعلى كل حال فإن مجرى تأملاتى لم يمنع أصابعى من الحركة ، فكنت أنسخ وأنسخ ، وأكوم الجزازات المكتوبة إلى يمينى ، حذاء إضبارة الجزازات البيضاء .

وربما توقفت لحظة ورفعت عينى بغير أن أجرؤ على رفع رأسى ، وكانت رائحة الرجال تتحرك وتصطفق بين المناضد ، وكأنها روائح مستنقع تجوس فيه السوائم . ولعلك لم تلاحظ أن رائحة الإنسان هى ملكة الروائح الطبيعية النتنة ... أليست هذه أيضاً سمة من سمات الملكية ؟ وكانت الرائحة التى تنشقناها هناك أشبه بمركب من روائح أخرى كثيرة : من رائحة المدرسة ورائحة المعسكر ورائحة الملجأ ورائحة المستشفى . ولاشك أنه كان فيها من رائحة السجن أيضا ، على أننى لا خبرة لى بذلك .

قلت لنفسى : « إذن فهذه هى رائحتى . أبداً لن أتخلص من تلك الرائحة » .

وكان ضابط الصف يشير من آن لآخر إلى شيخ ضئيل ، حليق اللحية ، حليق الرأس ، كأنه قسيس . وكان يعمل فى الصف الأول . فكان الشيخ الضئيل ينهض من فوره فى مبادرة الخادم ويدس ملء مجرفة من الفحم الحجرى فى تنور صغير يعلوه مرجل .

ظللت لابساً معطفى حتى أخفى سترتى التى كانت نظافتها تخجلنى ، وكان لويلييه يعمل عن يسارى ، وكانت حركاته مثل كلامه ، ثرثارة مرتجفة لا حذق فيها ، وأطراف أصابعه تبرز منها زوائد جلدية ملتهبة ، يقرضها بين آونة وأخرى ، أو يجذبها بأطراف أسنانه ، واستنتجت أن عينه الوحيدة مصابة بقصر نظر شديد ، لأنه كان يقرب الكتابة من عينيه تقريباً ، فيكنس شاربه المنضدة بحركة نشيطة رتيبة ، وكان يعتدل فى أوقات معينة ليبصق بين ساقيه ، فيرانى ويبسم لى بسمة كبسمة الطفل ، فيها من الطهر والحنو ما يجعل الدفء يعود إلى قلبى ، فأتابع عملى وأنا أسائل نفسى كيف تسنى لمثل هذه البسمة أن تزدهر فى مثل هذا المكان .

وحدث عند الظهر شى ء من الاضطراب ، بين المجتمعين . فخرج الشيخ الضئيل الذى يجلس فى الصف الأول ، وسرعان ما عاد إلى « ضابط الصف » بقطعة من الخبز وشريحة فى وعاء معدنى مغطى بصحفة مقلوبة

وأزاح أكثر الرجال أضابيرهم إلي طرف المنضدة وشرعوا يأكلون وسرت بين الموائد رائحة الخبز والسجق ، وتبعتها ضجة الحديث .

وخرج بعض الرجال ، ومن كان منهم خارجاً إلى غير عودة سلم أضابيره إلى الثقيل ، وسوى حسابه ، وسمعت خشخشة الفلوس ، يتخللها أحياناً رنين رقيق لنقد فضى صغير .

وظهرت وجوه جديدة ، ولم تبق شاغرة إلا أماكن قليلة ، ومن ذهب من الرجال حل غيره محله . وكان جلياً أنهم جميعاً يعرفون ناموس الدار ، وكان هناك نوع من النظام المركب من نظام المدرسة ونظام المعسكر ونظام المستشفى ونظام السجن .

ورد لويلييه الدكة إلى الخلف ووقف على ساقيه القصيرتين . قال :

إنى ذاهب لأحضر طعامى . فإذا شئت أحضرت لك طعامك . بم تفضل أن تأتدم مع خبز بفلسين ؟ أتريد شواء بثلاثة أفلس أو سميكات بثلاثة أفلس ؟

فأجبت :

– أفضل الشواء .

وظل لويلييه شاخصاً أمامى . وابتسم مرة أخرى وقال وهو يميل إلى الأمام :

– أعطنى خمسة الأفلس إن لم تر فى ذلك بأساً .

وأتم وهو يبتسم ابتسامة هزيلة :

– معذرة ، فأنا اليوم لا أستطيع النسيئة .

وبينما كنت أعطيه الأفلس الخمسة وأنا أتمتم ببعض كلمات الاعتذار ، همس فى أذنى بصوت كالصفير :

– معى قارورة للماء ... أرجوك .... أنصح لك ألا تتكلم كثيراً مع ذلك الرجل الذى يجلس على طرف الدكة ، فهو رجل غير وقور ، وأنا أعرفه ، لأنه يسكن فى الزقاق . إنه ليس على شاكلتنا ، وهو لا يأتى إلا فى الأيام المطيرة ، أما فى الأيام الأخرى فهو يبيع السيور بلا ترخيص . حسنا ! احرس أشيائى . سأعود .

لم تكن تساورنى أقل رغبة فى الحديث مع من يحيطون بى من الناس . بل إنى لم أكن لأجرؤ على النظر فى وجوههم . فتابعت الكتابة حتى حضر لويلييه ، وأكلنا . قال لى رفيقى :

– إن الشواء طيب ، ولكن السمك الصغير أكثر صموداً فى الجسم . أنا أفضل السمك الصغير .

ومر العصر كما مر الصباح ، أعنى أنه مر ببطء شديد موئس . وكانت فى الفناء مْبولة ، ذهبت إليها عدة مرات ، وكنت فى كل مرة أشعر لسماع ضوضاء الشارع برغبة شديدة فى أن أهرب وأدع كل شئ ء حيث هو : الإضبارة والثقيل وقبعتى التى تركتها على المنضدة ، فتمنعنى ذكرى لويلييه وتردنى فى كل مرة .

ولما كانت الساعة الرابعة ونزلت الظلمة من على الجدران كنسيج العنكبوت الترب ، أضيئت ثلاثة مصابيح غازية . فكانت شعلاتها القلقة تتنزى فى زجاجاتها ، وهى تحشرج حشرجة ضعيفة وتعطس وتختنق . وكان رأس لويلييه المائل يلقى على المنضدة ظلا مستديراً أسود ، يجاهد فيه قلمه ويتعثر ويجمجم .

ولعل الساعة كانت السابعة إلا ربعاً حين قال لى لويلييه فجأة :

– ها قد فرغت ! سأساعدك .

وأمسك لتوه ببعض جزازاتى وعاوننى . وكان يكتب بنشاط محموم ، وعينيه تارة على قلمه وتارة على السجل المفتوح بيننا . وكانت تجف على أصابعه الملتوية بقع كبيرة من الحبر .

ورتب عملى كما كان رتب عمله . فجعل أضابير الجزازات متصالبة بعضها فوق بعض ، ومصنفة أصنافاً مبهمة .

عدّ لى « ضابط الصف » أربعة وعشرين فلساً ، وبلغ ما كسبه لويلييه فرنكاً ونصفاً ، فعراه لتفوقه على شى ء من الارتباك ، ورأى من واجبه أن يعتذر إلىّ .

– حين تكتسب المرانة .....

وانحدرنا ثانية فى شارع هال ، وكان رذاذ دقيق يغطى أرض الشارع المغبرة ،. فكأنه دهنها بغراء ، ويثير رائحة الخضر الفاسدة التى هى فى الحقيقة أنفاس ذلك الحى .

وأخرج لويلييه صندوق تبغه .

– لفيفة ؟

فأحسست أنى جبان جبان . ورفضت كاذباً :

- أنى قليل التدخين .

وكان رفيقى يسرع ليلحق بى . وكان فى مشيته شىء من القفز وشىء من الزحف أيضاً ، شىء من الضنى وشىء من السذاجة . وكان يتكلم بلا انقطاع كشأنه فى الصباح . ولم أسمع كل ما قاله ، فإن ضجة الشارع وضجة أفكارى حجبتا عنى أكثر حديثه . على أن كلمة واحدة - كلمة « المستقبل » - كانت تطفو وسط جمله المضطربة ، وكأنها فلينة فى زبد شلال . قال لى لويلييه :

- أنا الآن أنام فى « عنبر » بفندق الزقاق ولست أحب « العنبر » .

فأنا لا أستطيع أن أشتغل فيه بشغل يخصنى . ولكنى سأستأجر حجرة صغيرة إذا وفقت إلى وظيفة . فإن لدى أشياء كثيرة أريد أعملها .

وجعل يحدثنى عن مشروعاته حتى وصلنا إلى مدخل زقاق موبير .

وكانت تغمر الزقاق ظلمة كظلمة المياه فى أغوار البحر ، وكان يهتز فى أقصاه مصباح ، تقرأ على زجاجه الذى ذهب طلاؤه كلمة « فندق » .

وقف لويلييه ، وجعل يدبدب وهو يتكلم ، وكنت أسمع نعليه تمتصان الوحل وتمجانه على التعاقب . غمغم فجأة وهو يأخذ بيدى :

- قل لى . قل لى . أتأتى إلى شارع هال ؟ أتأتى معى ؟

وأردف بصوت خفيض متوجع متغير :

- إنى أشعر بوحشة شديدة .

وأحسست ارتجاف يده الندية البطن الشعراء الظهر وهى بين أصابعى . فوعدته أن أعود ، بل وعدته أن أعود من غدى . ونظرت مليًا إلى لويلييه ، وكان يغشيه على فترات متقطعة ضوء مصباح من مصابيح الشارع . ثم ذهبت . وأتبعنى بصره حتى انعطفت عند زاوية الشارع .

صعدت - غير مسرع - فى شارع جبل سنت جنفييف . وكان انحداره يحنينى صوب الأرض ، فأشعر أن نوعاً من الكآبة التى تشبه الخوف يهزمنى ويهدمنى

وينخرنى . وكدت لا أجرؤ على العودة إلى منزلى . فقد خيل إلىَّ أن ملابسى وجلدى وروحى فيها ولا شك رائحة مكتب باروان . فجعلت أجترُّ فتات أفكار غريبة : « أنا لم أخلق لأعانى هذا اللون من الشقاء » . لقد كان لى – ولا شك – لونى الخاص من الشقاء ، لونى الدى اخترته بنفسى ، وعلى ذوقى !

ويجب أن أصارحك بأننى قررت قراراً أكيداً وحشّيا أن الموت جوعاً خير من عودة إلى باروان .

أما لويلييه فيخجلنى أن أقول لك إنى مازلت ألقاه فى هذا الحى ، فما إن أراه من بعيد حتى أغير الطوار .. وأعلم أنه لن يعرفنى ، فنظره جد قصير ثم .... ثم إنى غير جدير بهذا الرجل .

- ٨ -

كثيراً ما مرضت ، وكان مرضى شديداً ، ولكن أوقات النقه تشفع للمرضى عندى . الحياة ! الحياة ! إنهم يضحكوننى بهذه الكلمة . إنما السعادة فى العودة إلى الحياة ، والحياة - ولا شك - ليست سوى الإفلات من الموت . يخيل إلىَّ أننى فى أيام نقاهتى جربت الحياة .

وينبغى أن أقول لك إننى حين أجد نفسى فى بيتى ، بل فى أحضان أريكتى ، بل فى مكمنى ، يخالجنى إحساس كإحساس الناقهين .

ما أزال أنا إياى : سلاڤان ، الرجل المسكين ، ولكنى لست الآن كما كنت طوال النهارة لست دودة وحطاماً وسؤراً .

كانت أمى ومرجريت تنتظرانىً للعشاء . ولما وجدتنى فى المطبخ الدافىء النظيف مرة أخرى لم أستطع أن أمنع نفسى من تذوق طعم الرضى والراحة والاستسلام . قالت لى أمى :

- ما أشد إعياءك يالويس !

فلم أجب إلا بهزة غامضة من كتفىً . وكنت منكس الرأس أعد بطرف شوكتى بعض حبات من اللوبياء متناثرة على أزهار الصحفة الخزفية الملوَّنة . وغنى عن البيان أن طعامنا كان فى غاية من السذاجة ؛ بيد أنه كان فيه طعم خاص لا يكون إلا فيما تطهوه الأمهات ، طعم يستحيل علىَّ أن أصفه لك ، ولكنى أستطيع تمييزه بين ألف من الطعوم ، كما أميز وجهاً أعرفه بين ألف من الوجوه .

واستأنفت أمى قولها :

- إنك تضنى نفسك ، ينبغى لك أن تشرب معنا الساعة قدحاً من القهوة .

فوافقت مبتسماً . إن أمى لا تراني ألبتة رجلاً . فهى تتمتم حين تراني حزيناً يائساً :

- هل لك فى قطعة صغيرة من الشكولاتة ؟

ولو كنت قائداً وخسرت معركة لقالت لى أمى : « لا تبكِ ياولدى لويس ، فسأصنع لك شيئاً من القشدة بالسكر المعقود » . والغريب يا أخى أن قطعة الشكولاتة أو القشدة بالسكر المعقود يكون فيها عندئذ كل مزّية تنسبها إليها المرأة المسكينة ....

فلنعدْ عن هذا ، ولأحدثك عن أمر شاذ . لقد كنت أستمع لحديث أمى اللطيف السلسال وأنا مكب على صحفتى ، فأحسست أن قلقاً جديداً مبهماً ينفذ إلى نفسى.

لقد ألفت أن أعيش تحت عين أمى . ألفت هذه النظرة التى تحيط بى ، وتنفذ فىَّ ، وتنزلق على وجهى ، وتضل فى شعرى ، كأنها يد أو نفس .

لهذا لم أستطع أن أرفع رأسى ذلك المساء ، لأننى أحسست إحساساً جليًا أن هذه النظرة لا تتبع وحدها ارتجاف يدى على المشمع ، ولا تعد وحدها قطيرات العرق التى تنتح على صدغى ، ولا تقرأ وحدها فى قسمات وجهى اضطراب قلبى .

أسرعت بطىءٍ منشفتى ودخلت حجرتى .

ولعلى لم أذكر لك من قبل أنى أوقع على الناى . ولا شك أنى أبالغ حين أقول « إنى أوقع » . فعندى ناىٌ من الخشب ذو مفاتيح ، علمنى أحد رفاق الجندية أن أضع أصابعى عليه ، ودرست عامين فى أوقات فراغى دراسة تكفى لقراءة الصفحات المتوسطة الصعوبة ، ثم انقطعت عن الدرس ، وانقطع بذلك استكمالى الفن ، ولهذا تجدنى أعزف عزفاً رديئاً ، ولعلك حزرت ذلك ، فلو أنى أتقن شيئا من الأشياء . ماكنت هذا الرجل الذى تراه .

والمؤلم أنى لنقص الدربة والدراية والدرس أوقع بطريقة عاجزة صبيانية قطعاً أحسها إحساساً طيباً . إذ ينبغى أن أقول – لأكون عادلاً فى الحكم على نفسى – إنى مشغوف بالموسيقى ، وإنى أدين لها بأنبل مشاعرى . ولكنى حين أجاهد آلتى يبدو على أننى لا أفهم شيئاً مما أعزفه ، على حين أن أودين مثلاً – وهو يصفر بالناى أيضاً – أودين هذا الذى لا يفهم شيئاً من الموسيقى ، ولكن له أصابع متمرنة ، يخيّل إلى من يسمعه أنه مشبوب الوجدان .

وخلاصة القول أنى شرعت أنفخ فى الناى ذلك المساء ، وبدأت بصفير خافت ثم صفرت ملء أنفاسى . فسمعت أمى تقول :

– حسناً تفعل يالويس ! اصفر قليلاً ، فقد بعد عهدك بالناى !

وكنت قد أضأت المصباح ، ووضعت كراستى الموسيقية على الخزانة ، مستندة إلى القارورة الزجاجية الزرقاء .

اجتهدت فى التوقيع وأنا أضغط شفتى بعناية وأضبط أنفاسى . أجتهدت فى أن أوقع أنغاماً جميلة ، فخيل إلىَّ أن جزءاً من عذابى فر من تحت أصابعى ، وذاب فى الجو مع رنين الآلة . أديت القطع التى أعرفها أحسن معرفة ، والتى ألفتها منذ عهد بعيد ، والتى امتزجت بجميع أفكارى .

وسرعان ما لاحظت أن المرأتين قد عادتا تتكلمان فى الحجرة المجاورة بصوت خفيض ، بعد أن صمتتا صمتاً طويلاً . فأحدث كلامهما غمغمة ضعيفـــة متصـــلة . لم أستطع ألا أسمعها وأنا أوقع .

ومعلوم أنى عديم الموهبة ، ولكننى استأت ، وإن بدا لك هذا الاستياء مضحكاً . لم أسخط على أمى ، بل سخطت على الأخرى . أجل ، سخطت على مرجريت ، لأنها لم تتذوق تلك الأشياء الرائعة التى أوقعها هذا التوقيع الردىء ، والتى أوقعها – على الرغم من ذلك – لأجلها هى .

وعزوت سخطى في تلك اللحظة إلى العجز عن تقدير الفن والفنانين . على أنى يجب أن أعترف بأن كبريائى – بخاصة – قد تفاعلت فى ذلك السخط ، كما تفاعلت فيه مشاعر أخرى غامضة لم يحن الوقت للتحدث عنها ، ولكنى إذ أروى لك هذه التفاصيل كلها فإنما أفعل ذلك لأثبت لك أن لدى أسباباً لا تحصى تجعلنى عنيفاً فى الحكم على نفسى .

وضعت نايى ودخلت حجرة الطعام . وجلست أولا تجاه الموقدة ، ثم غيرت كرسى حتى لا أضطرَّ إلى أن أتأمل فى المرآة ذلك الوجه الذى يسوءنى كثيراً فى بعض الأحيان ، وجهى المسكين .

وارتفقت المائدة وصُدْغَاى بين راحتىَّ ، ولبثت كذلك لحظات طوالا ، أنظر إلى المرأتين وهما تعملان . وتمتمت مرجريت وعيناها لا تريمان عن عملها :

– ما أجمل ما وقعته الليلة !

فابتسمت ابتسامة مغتصبة وقلتُ :

– أجل ، إنه جميل ، ولكن توقيعى جد ردئ !

قالت وهى ترعش أجفانها أمام المصباح لتسلك الخيط فى الإبرة :

– أوه ، كلا ! ليس توقيعك رديئاً .

فشكرت لها هذه القطيرات من البلسم المسكوبة على كبريائى ، وشكرت لها بخاصة نبرتها وهى تلفظها . إنها كانت تستطيع – على كل حال – أن تسمع ما أوقعه وهى تجيب أمى التى كانت تحترمها احتراماً عظيماً .

وكانت مرجريت تخيط بسرعة عظيمة ، بغير أن تضل عينها أو تجمح أصابعها ، ولا شك أن حرصها على الإسراع هو الذى جعلها تتجنب التنفس من الأنف ، فكانت تتنفس من فمها ، وكثيراً ما كانت تستنشق مخاطها فى غير شدة . ومن العجيب أن ذلك لم يسؤنى . بل جعلت أنظر إلى أصابعها وهى تذهب وتجى ء ، وإلى الظل الذى تلقيه على خدها خصلة شرود تلتوى أمام أذنها .

وسرى فىَّ فتور كسل دافئ ، وارتدَّت أحداث اليوم ووجوهه إلى ماض ملؤه التسامح : لويلييه ، ومكتب باروان ، وضابط الصف ، والبائع الذى لا رخصة له .

وأويت إلى مضجعى قبل أن تقوم الحائكتان بوقت طويل . وكانت أفكارى الأخيرة أفكاراً مطمئنة . لم يضع شى ء : أربعة أشهر فى البطالة ليست بشى ء . ومامن رجل إلا حدث له ذلك مرة على الأقل . سيعود كل شي ء إلى موضعه ، وستنسى أمى هذه الفترة المحزنة ، ولن تسى ء مرجريت الظن بى .

ونمت على هذه الوسادة اللينة .....

واستيقظت فجأة فى جوف الليل وأنا أفكر فى لويلييه . لم أكن أحلم ، ولكن كل الأفكار التى خطرت ببالى كانت مصبوغة بتلك الصبغة الشاذة المشوهة المفزعة التى يضفيها تفكيرى الليلى على أهون الأشياء .

استرجعت كل ما قررته فى المساء قراراً قرارا. فبدت لى جميعها خلواً من العقل، وغدا الموقف مرة أخرى لا مخرج منه ، فلما نهضت من الفراش فى الصباح كنت أحس أنى أشد تعاسة وشقوة وإجراماً مما كنت فى أى وقت مضى .

على أن شيئاً واحداً ظل ثابتاً فى تفكيرى : لن أعود إلى مكتب باروان . سأنتظر ، سأبحث فى أمكنة أخرى ، سأعيش فترة على عمل أمى ، ولكنى لن أعود إلى هذا المكتب .

واطمأننت – وأنا أغمس قطعة من الخبز فى القهوة – إلى هذه العقيدة المؤسة : « انظر ! أنت رجل بلا نخوة ، وروح بلا قوام ، وقلب بلا كبرياء ! هكذا أنت ! » .

كنت أفكر هذه الأفكار . كنت أفكر وحسب ، وإن كان تفكيرى عنيفا . وإذا بشىء يصعب تصديقه . إذا بشىء يشدهنى ويفزعنى . لقد قالت لى أمى فجأة بصوت مرتفع :

– لا لا ! لا ياولدى لويس !

ماذا ؟ لماذا « لا لا » ؟ أؤكد لك أنى لم أزد على أن فكرت ، بل أؤكد لك أننى لم أحرك شفتىَّ .

وعندئذ أخذت أمى بيدى وجعلت تلاطفهما . وقالت لى قولاً طيباً حكيماً :

– إنك تضنى نفسك بحثا . هذه فترة عصيبة . انتظر حتى تسنح فرصة . لا شىء يعجلك . استرح واهدأ . زر أصدقاءك .

وأؤكد لك أننى ما فتحت فمى ، ولا بدرت منى أقل إشارة .

وكررت أمى وهى تقبل يدى :

– زر أصدقاءك .

* * *

أصدقائى ! ليس لى أصدقاء . نعم ! إن لى صديقاً واحداً ، وهو لانو . وليس « صديق واحد » كأصدقاء ، لقلب طموح .

ولى أقارب قليلون ، مبهمون ، بعداء . وأنت تعلم هذا النوع من الأقارب الذين يكاد المرء يخاف حين يسمع الحديث عنهم . آه ! لو كان لى أخ واحد ، أخ واحد طيب ! ماذا ! ولكنه لو لم يشبهنى ما تفاهمنا ، ولو أشبهنى ما احترمته ، ويعد فمن العبث أن أبتعث هذا الحلم ، فليس لى أخ .

ولنعد إلى ذكر الأصدقاء . هناك أولئك الذين أميل إلى إعزازهم ولا يستطيعون هم احتمالى ، وهناك أولئك الذين يبحثون عنى راغبين ، ولكننى لا أطيق صحبتهم .

ولا تحسبنّ أنني امرؤه طلق اللسان لأنى قد عزمت الليلة على أن أقص عليك قصتى . بل أنا صموت . أو على الأقل أن الظاهر - إذا كنت أحسن فهم ما يقال عنى - هو أنى صموت . ولا حظ أننى أحتاط كل الحيطة حين أعبر لك عن أفكارى ، فلا تظن أنى من البلاهة بحيث أنسب إلى نفسى بعض الفضائل ، على حين أنى لا أحس إلا التقزز من نفسى .

ولماذا لا تعدنى على الحقيقة أبله ؟ هذا أمر عسير التصديق : فى عين اللحظة التى أتهم فيها نفسى تستعد كبريائى لتنقذ بضاعتها الحقيرة من الإفلاس . وكيف يكون المرء صادقاً أميناً وله هذا اللسان الذى لم يجعل إلا ليخون قلوبنا ؟

وبعد فليس من المحتَّم أن « كونَ المرء صموتاً » يدل على فضيلة من الفضائل . فالنساء اللائى يشوب جلودهن الكلف يتعزين بقولهن : « إنى رقيقة الإهاب » . كذلك الرجال الذين هم على شاكلتى غفل من كل ذكاء وبديهةً وتألق يدارون عجزهم بقولهم «إنى صموت » ، يعنون بذلك : « إن لى عقلاً رزيناً جادا يقظاً . أجل ، إن لى عقلاً عظيماً » .

والحق أنى بفضل هذه الخليقة فىَّ ، حسبت أبله فى كل بيئة عشت فيها . ومن المحزن ألا يكون العباقرة بلهاء فى الوقت عينه . فهؤلاء الذين سألتهم أن يتأملوا ويدرسون بنى جنسهم ينتقص ذكاؤهم وشهرتهم من قيمة محاولاتهم . وأعتقد أنهم دون غيرهم تمكنا من مفاجأة الطبيعة . فالأشخاص الذين هم موضوع دراستهم يجمدون إذا اقتربوا منهم ، ويتكلفون أوضاعاً خاصة كأنهم أمام رسام ، ويحاولون أن يظهروا لأول وهلة بمظهر يعلى قدرهم .

أما الأبله فلا جدوى من التكلف معه ، وهل يستحيى المرء أن يبدو عارياً أمام كلبه ؟ لو فهمت الكلاب والبلهاء ما نتركهم يرونه لوقذهم الحزن .

أما أنا الذى لأمارس ملاحظة الناس ، فأفضِّل أن أتجاهل الشرف المُر الذى يضفى علىَّ بمعاملتى معاملة شاهد لا يؤبه له . ولو كان علىَّ أن أختار بين الخبرة المشئومة التى أكتسبها كل يوم على الرغم منى ، وبين الكذب الخلاب الذى لا يعنى أحد بتقديمه إلىَّ - لو كان علىَّ أن أختار لاخترت الكذب من غير شك . ولكنى - وياللأسف ! - ليس لى أن أرغب .

فأودين جارى القديم فى المكتب – وقد حدثتك عنه من قبل ببضع كلمات – فتى متوسط الذكاء ، نورمندى فيه جفوة وحدة ، ونزق وعصبية ، فهو من طراز خاص ببنى جلدته . وله عينان خضراوان تميلان إلى الزرقة ، تضحكان آونة وتجمدان كالثلج آونة أخرى ؛ كما أن له جواباً كلسعة السوط .

آه ! هاك رجلاً كنت أود لو أحببته ! ولكن لم هذه الحاجة إلى التسلط ، ولم هذه الرغبة الشديدة التى تستحوذ عليه ، فى أن يضع الناس عند كل مناسبة « فى جيبه » ، بدلاً من أن يحملهم بطيبة فى قلبه ؟

إن كلامه أمر سريع ، قاطع كلما أراد . وهو لا يجيز المناقشة إلا إذا كانت لتأييد رأيه ، ولا يعرف تسامحاً ولا حسنى ، أف ! هذه أشياء كنت قميناً أن أغتفرها له ، ولكن أبعد الأشياء عن القبول ميله الظاهر إلى تغفُّل غيره ، أى عادته من المجازفة ببلاهة رفيقه . فإن شعوره البدهىَّ بغلبته علىَّ فى المجادلة يجعله يستهين بقهرى ، فلا يكفيه أن يهزمنى بل يتعجل ذلك ويريد أن يكون ثمنه عليه هيناً . وعباراته المصوغة فى قوالب من التأدب الغليظ ، محملةً بألوان من التعريض المهين والتلويح الجارح يظننى عاجزا عن إدراكها . وكذلك الأمر فى مكاتباته ، بل فى خلواته ، فهو يمثل لنفسه إن أعوزه المشاهدون .

والغريب أنى أستسلم لهذه التجارب فى قنوط آثم ، حتى حين يستطيع أودين أن يشك – وحين يتحتم عليه أن يشك – فى نجاح مناوراته . فأنا حينئذ أستشعر سروراً شنيعاً بأن أؤكد له أنى أبله ، وأن له أن يضاعف الجرعة ، وأن يعيد الكرة آمناً من العقاب ، وأن يغوص بقدميه فى ثقتى وأطمئنانى . فلا يقصِّرُ فى شى ء من ذلك .

ولو أنى كنت أضعف بصيرة ما سلك أودين معى غير هذا المسلك .

ولكنه كان من المستطاع أن يتاح لى صديق آخر ، أو – إن شئت – كان من المستطاع أن يتاح لى إنسان آخر أحبه .

لم أحدثك بشى ء عن يوبير . وجلىٌّ أنه موظف ببيت سوك وسيرو . فحين يكون للحصن أصدقاء لا يكونون إلا من رفاق القرن . وكذلك نحن : عسير علينا أن نعرف غير رفاق المكتب أو المصنع ، لأن حياتنا كلها تتقضّى فى العادة هناك .

ويوبير فتى من أهل الشمال ، نزلت به كل المصائب التى تخطر على البال ، فخانته امرأته ، وخانته صحته ، وخانته أسرته ، وخانته شجاعته ، وغدا كأنه إخصائى

فى نكد الطالع . وإنى لأجد من الطبيعى جدًا أن يستشعر لذلك نوعاً من الكبرياء ، لكن يشق علىَّ أن أفهم رغبته فى أن يجعلنى مسئولاً عن شقائه . وأعجب ما فى الأمر أنه يخاشننى أنا بخاصة ، أنا الذى لا أكف عن إظهار عطفى الصادق عليه ، والذى أسدى إليه بعض المعروف حين تسنح الفرصة .

وهناك دفرينى ، وهو باريسى قح ، ثرثار ، دموى ، أحمر الشعر ، أحمر المزاج ، لم يعرف أحد أنه جد فى حديثه مرة واحدة ، فهو لا يفكر إلا فى مضاجعة النساء ولا ينظر إلى صيْده ألبتة عن قرب . وليس دفرينى غبيًا ، ولكنه من أولئك الفتيان الذين لو خيروا بين صحبة فكتور هيجو وصحبة فريز بو بو خادمة حانة ماركية ، لفضل - بلاشك - صحبة الخادمة ، على ما فيها من أمراض . وأتوسل إليك ألا تظن أنى أقول هذا لأنى بدفرينى تركنى أكثر من مائة مرة ونحن مصطحبان ليتعقب بعض الخادمات الصغيرات اللائى غشين على عقله ، ولن يزلن به حتى يخمد . فلنعدْ عن هذا ! فإن هذا الرجل يتبع هواه ، ويفعل ما بدا له .

وأستطيع أيضاً أن أذكر لك فيتيه ؛ وقد كان رفيقاً لى فى الجيش ، وكاد يصبح صديقى ؛ وقد ألحق بى فيتيه أذًى كثيراً . وأنا أقابله بانتظام منذ سبع سنوات ، أى منذ انقضت خدمتنا العسكرية ، فهو موظف فى البريد ، يسافر مرتين كل أسبوع بين نيفير وباريس . فإذا اتفقت ساعات فراغنا جاء ليراني ، كلما بدا له أن يعذب أحداً ، أو أذهب أنا لا سأل عنه ، إذا شعرت بحاجة إلى العذاب ، وهو أمر يحدث لى بين الحين والحين ، كما يحدث للناس جميعاً ، مهما يكن الرأى فيه .

ولفيتيه خُلق لعين ولكنه مستو . إنه عنيف عنفاً رزيناً مستمراً . فإذا عذبك حماس فياض ، أو حفزتك رغبات شدادٌ ، أو أثارتك نيات طموح ، فاذهب لترى فيتيه ، وإنى لأستكثر عليه عشر دقائق حتى ينظف روحك ويطهر قلبك من كل أطماعك الحلوة ، ويخلفك أشد عراء وفقراً وحرماناً مما كنت فى أى وقت مضى .

ولو حضرتنى يوماً من الأيام فكرة فيها من القوة والحرارة ما يجعلها تصمد لساعة من فيتيه ، ما بقى لثقتى بنفسى حد . فيتيه ! إنه محطِّم ! وسلاحه المفضَّل كلمة تبدو لا شأن لها ، ولكنها أقطع من مشروط ، وأحدُّ من حمة . فإذا استسلمت إلى الرضى أو الأمل أو الحبور نظر إلىَّ فيتيه لحظة بعينيه اللتين يحيط بهما هُدْب أشقر ، ولا يزيد على أن يقول : « اجرِ ! » وإنى لأسائل نفسى أحياناً ألم تفسد هذه الكلمة حياتى كلها ؟

وعلى نقيض فيتيه لِديو . وهو موظف كان يجاورنى فى عملى الأول ببيت موتييه . ليس لديو بغيضاً دائما ولكنٍ تنتابه نوبات . فهو فى فتراته الطيبة – التى تـــدوم أربعاً وعشرين ساعة أو ثمانياً وأربعين ساعة – كله لطف وصفاء وبراءة وتســـامح ؛ ثم تحتجب السماء فجأة ويظلم كل شىء ، ويغدو لديو كئيباً شَكِساً ضيق العطن . إنه روح بائس قلق ، كتلك الأقطار التى تغمرها كل عام فيضانات مفاجئة ، والتى تحاول فى كل فترة بين فيضانين أن تعمر ما تخرب منها وتصلح ما فسد .

وإنى لأراه أحياناً خاشعاً متصدعاً فأذل نفسى أمامه حتى لا يبقى وحيداً فى تعاسته . وما إن أنال من نفسى واسقطها حتى يستغل لديو ذلك ليتعالى على ويصعد فوق ظهرى ويركلنى ، فلا أنال منه إلا الإحناق والتحطيم والغدر . ولو أنى كنت خيراً مما أنا لكنت أقنع بهذه النتيجة ، وأرضى بأنى نقلت إليه شيئاً من دمى . ولكنى لست على شىء، وإنى لأسائل نفسى أليست نوبات تواضعى ناشئة هى الأخرى عن نوع من الغرور ؟

وبعد فلديو لا يستطيع أن يحتمل وحده أتراحه ولا أفراحه . فحين أراه قادماً إلىَّ أنظر فى وجهه لأحاول أن أحدس ما يفعم قلبه : أخيبة أم فوز ؟ ومع ذلك فهو إذا كان سعيداً أسرَّ إلىَّ : « إننى وفقت فى هذا الأمر أو ذاك » . أما إذا ارتكب حماقة أو غلبه ضعف أو صدر عن جبن ، فهو يصيح بمرارة ، « نحن أغبياء . نحن ضعفاء ، نحن جبناء » وى ! أليس لدىَّ من نفسى ما يكفينى ؟

وقد أستطيع أن أحدثك عن جاى ، الذى تكاد صحبته تقذنى ، جاى الذى تجعلنى غيبته الهادئة أنفر من جلٍّ من أعرفهم ، جاى الذى هو على الرغم من ذلك رجل طيب قدير على الولاء والحب .

وقد أستطيع أن أحدثك عن بِتْسر ، الذى كان رفيق صباى ، والذى أفسدته علىَّ زيجة مضحكة ، وقد أستطيع أن أحدثك عن كوى ، ولكن ما جدوى ذلك ؟ لن أفلح إلا فى تأكيد رأيك السيئ الذى كوَّنته عنى منذ الآن . وعلى الرغم من كل شىء أؤكد لك أن رغبتى الوحيدة هى أن أحب ، وأن أحب حبًا كاملاً مطلقاً . فهل ذنبى أن عينى بصيرة ؟ ومن ذلك الأحمق الذى قال : إن الحب أعمى ؟

ولعلك تعترض عليَّ بأن الناس ليسوا كلهم كلديو وجاى وفيتيه ودفرينى . آه ، مهلاً ! لست أدرى فذلك مبلغ علمى ، لقد كنت أعرف فتى يدرس طب الأسنان ، صحبنى يوما إلى مشرحته فى « كلامار » - ولعلك تعرف شارع فير آمولان . وكان الطلاب جميعاً مصطفين حول مناضد من الإردواز يقطِّعون رءوساء بشرية ، ليتعلموا تشريح الوجه والغالب ألا تقدَّم إليهم رءوس كاملة ، فذلك يكون إسرافاً ، بل تنشر من الوسط رءوس حُلِق من قبل شعرها كله ، من شارب ولحية وشعر رأس . وخلاصة القول أن أنصاف الرءوس هذه ، المصفوفة كالأوسمة ، والتى أذهبت الحوامض لونها ، وأرخاها الموت - أنصاف الرءوس هذه كانت متشابهة تشابها مخيفا .. إن ما رأيته هنالك كان الرسم البارز للإنسان .. القالب واحد تُصَبُّ فيه ملايين النسخ .

* * *

- ٩ -

ولكن هل يكون لى أن أشكو ولدىّ لانو ، لانو الذى لا أعيب عليه إلا شيئاً واحداً ، هو أنه لا عيب فيه ؟ أو لا تعترف معى بأن هذه فضيلة تبعث على الضيق ؟

لقد سمعت نصيحة أمى وذهبت إلى لانو . وسَرَّت عنى هذه الزيارة بعض ما بى .. أتراها صائبة الرأى دائماً فى كل مايتعلق بى ؟

ومضت أيام كثيرة وأقبل شهر نوفمبر . وأحب ما يكون إلىَّ هذا الشهر حين يبدو الجو أكدر مضباً ، والسماء مسَّفة معجلة لَهِجة كأنها قطيع من كلاب الصيد يتعقب فريسته .

وإذا كان الحظ يزدرينى عزمت ألا أتعقبه ، بل أترصد له . فتركت كل محاولة .

وقسَّمت وقتى أجزاء ثلاثة مختلفة . فقسم منها أقضيه جائلاً ، وقسم أمضيه عند لانو ، والقسم الثالث أقضيه فى المنزل ، ولم يكن لطوافى من هدف إلا نفسى . فكنت أرتاد شوارع جبل سنت جنفييف الصغيرة ، أو دروب لكسمبورج ، وخصوصاً فى الصباح حين تشبه الحديقة الموحشة جزيرة صامتة فى حضن المدينة المختلجة . ولكننى على معرفتى التامة بصور الأشجار ، وهيئة المناظر ، ووجوه الناس الذين يتنزهون فى ساعات معينة على الحشائش الذابلة ، ومعرفتى بمشيتهم ومقاصدهم ، كانت أفكارى مع ذلك كله تظل عاكفة على جو آخر ، ومناظر أخرى . كنت أبحث عن نفسى وأتتبع نفسى وسط ألف فكرة أشد هوجاً من قطيع من الجاموس فى عهد هجرته .

ثم أعود إلى شارع پوده فير ، فأستمرئ فى مسكننا هدوءاً يزداد عمقه كل يوم ، ولا أحسن تعليله . وكانت حجرة الطعام قد أصبحت أشبه شىء بمعمل حياكة ، وأمى التى مارست الخياطة من قبل كثيراً قد أقبلت على مهنة عاملة البيت . فكانت مرجريت تذهب فى البكور إلى المشغل ، تحمل إليه ما تم من عمل ، وتأتى بنسيج ونماذج ، وأمى تعد فى تلك الأثناء أطعمة النهار .

وكنت أجد المرأتين تعملان مهما تكن الساعة التى أقدم فيها . ولم أعد أخجل من بطالتى ، فقد أصبحت أمراً عادياً مسلماً به . بل إننى كنت أستشعر لذة غريبة إذ أرقب جهداً لا أشارك فيه أدنى مشاركة . وكانت تُشْعَل فى السهرات الطويلة نار ضئيلة فى الموقدة البروسية بحجرة الطعام .

وسرعان ما اعتدت أن آتى إلى هذه الحجرة لأقرأ .

وكنت أعالج الصفير فى الناى أحياناً، وأوقع بانتباه شديد متصل ؛ حتى تقدمت فى هذه الفترة تقدما محسوسا . وألقانى شعورى بهذا التقدم فى أحلام شرود : سأغدو موسيقيا ، وقد أصير ملحنا ، وتراءت لى حياة رائعة تتألق بالتوفيق ، وتزدهى بإعجاب الجماهير . وهأنذا أخيراً أطلق هذه الروح الأسير التى تذوى وتستسلم لليأس فى غور مكمنها .

وحتى توجد جماهير المستقبل كان يبدو من مرجريت على الأقل سرور بمحاولاتى . وكانت تذكر جيداً ألحانى المحببة ، وتدندنها وهى تسحب إبرتها ، وترجونى مرة بعد مرة أن أوقعها لها .

فرغت ذات يوم من أداء قطعة وقعتها بكثير من الصدق والعناية – لما أعوزتنى الموهبة – فرفعت إلىَّ مرجريت عينين شكراوين . فاضطربتُ لذلك ، وبخاصة أن كانت لمرجريت عينان جميلتان ذابلتان ، تضفى عليهما الدموع بريقاً مؤثراً يكاد يشبه بريق عيون الأطفال .

ولو كنت رجلاً عاقلاً لقلت لنفسى : « هذا تأثير الموسيقى فى روح حساس رقيق » ولكنى عزوت كل الفخر إلى نفسى ، وأمسكت قبعتى وأسرعت إلى الطريق وأنا أحس كبرياء يستحيل وصفها . لم يبق عندى شك فى أنى غدوت مالكا لقوى جديدة ، وشعرتُ بأن هذا التجاوب بين روحى وروح أخرى إرهاص مبين من إرهاصات القدر ، فتمتمت وأنا أصر بأسنانى : « أنا على الرغم من هذا كله شى ء ! شى ء ! وليَعْلَمُنَّ أنى لست رجلاً كسائر الرجال » .

ياللطموح ! ياللجنون ! إننى لست رجلاً كسائر الرجال ! وهذه المهزلة كلها أصلها لحن بالناى ودموع مرجريت .

كانت الساعة حول الثالثة بعد الظهر . فهمت بضع لحظات من شارع إلى شارع حتى وجدت نفسى عند سفح كنيسة نوتردام ، وتمخض حماسى عن شى ء عجيب : وذاك أنى غصت فى سلم الأبراج وصعدت لم أتوقف حتى بلغت القمة ، وعجبت إذ وقفت هناك ولم أنقذف فى الفراغ من تلك الأنبوبة الحجرية الشاهقة ، كما تنبعث قذيفة من مدفع .

كانت ساعة مذكورة . كنت وحدى مع السحب والريح العاتية ، فلقيت سلاڤان وجها لوجه ، محرراً مخلصا من هذا الحشد من الأفكار الطفيلية القذرة التى يعيش بينها كنبات مهتضم ، وثقت بنفسى ساعة ، وأخذت على نفسى مواثيق ، واحتملت أعباء ، وأقدمت على تضحيات . وخلاصة القول إننى أنجزت أعمالا جديرة برجل حق . ولتعلم أننى فعلت ذلك كله فى قلبى .

ولو كتبت تاريخ حياتى لسميت هذه الساعة نصر خامس نوفمبر أو نصر نوتردام . فإنها كانت نصرا : نصراً صغيرا شعرت بآثاره أياماً كثيرة .

وكنت أحياناً أتناول كتاباً ،وأزايل أريكتى لأجلس على مقعد صغير ، فى ضوء السُّجُف اللبنى قبر الحائكتين . وأستغرق فى قراءتى فكأنى مستغرق فى نعاس متأشِّبٍ .

وأنا – كما ترى – أقرب إلى الطول والنحول ، وقد قوست ظهرى مهنة الكاتب واحتقار الرياضة البدنية ، و« أقف بشىء من الميل » كما تقول أمى . وحين أقرأ وأنا جالس القرفصاء على كرسىٍّ الذى لا مسند له ، أحس أن كل نقص فى مظهرى العادى يزداد شناعة : فأنا أتداعى وأنكمش ، وكأن حياتى تهرب وتغادرنى لتذهب مع حياة أولئك الرجال والنساء الذين أشاطرهم بفكرى وقائعهم الغريبة ، وفى هذه الأثناء تيبس جثة سلاڤان شيئاً فشيئاً . ألا تعتقد أننا لو استطعْنا أن نحلم فى قوة كافية ، لكانت صدمة جد صغيرة ، أو استسلام ثانية واحدة ، كافياً لنا فى مثل هذه اللحظات كى نموت ؟

وكان ينتشلنى من هذه الهوة عادة صوت أمى التى كانت كلماتها تصل إلىَّ وكأنها آتية من خلف حجب سميكة من اللبد ؛ فلا أصل إلى سطح الدنيا إلا بعد أن تنادينى مرات عديدة . ولقد كنت أظن دائماً أنها تحدس بفطرتها هيمان روحى ، فكأن نداءها صرخة أنثى الحيوان التى تحس أن خطراً يتهدد صغارها .

على أن ما كانت تقوله آنذاك كان يسيراً جداً. فكانت – مثلا – تكلفنى أمراً ، فأضع الكتاب وقد بطل السحر ، وأصدعُ بما أمرت . وكنت قد أصبحت مطواعاً ، والطاعة – بهذه المناسبة – ليست من فضائلى الطبيعية . وأرجو ألا تعزو هذا التغير فى خلقى إلى الرغبة فى التكفير عن تبطلى ؛ فقد كان له دواع أخرى لا أشك أنك قد بدأت تفهمها .

وكانت أمى تطلب منى أحياناً أخرى أن أواصل جهرة ما كنت أقرؤه سراً . وقلما تغفل أمى أن تضيف :

– لعلك تعلمين أنه كان أيام تلمذته ، ينال دائماً جائزة المطالعة والمحفوظات . فأجيب باستحياء :

– ما هذا ياأماه ؟ اصمتى يا أماه ! لماذا تتحدثين عن هذه الأشياء ؟

إن أمى المسكينة لا تستطيع أن تعلم ذلك الارتباك الذى يوقعنا فيه ، نحن الرجال ، امتداحنا علانية لمهارتنا أو شجاعتنا أيام أن كنا صبياناً .

وتؤكد مرجريت من فورها ما قالته أمى :

– ما أحسن قراءتك !

فلا أنتظر مزيداً من الطلب ، وأقرأ ساعات كاملات ، والمرأتان تصغيان بغير أن تقطعا عملهما : ولكنهما تكتمان – جاهدتين – كل صوت . وربما تنشقت أمى قبصة صغيرة من النشوق ، تفعل ذلك محاذرة ، شبه مختلسة ، لأنها تعلم أنى أكره أن أراها تتنشق ، أنا الذى أدخن طوال النهار ، والذى أفسدتنى ألوان من الرذائل والنزغات ، وقبيح العادات .

وبين الحين والحين تكف إبرة مرجريت عن الرفيف فكأنها شعلة دقيقة زرقاء جبست فى رسن . وتصغى مرجريت ويداها فى حجرها ، وألمح فاها مفتوحاً وعينيها مثبتتين علىَّ .

ولا أزل حتى أثمل من هذه الكلمات التى لم أقلها ولكنها تنحدر من شفتى ، ولا أوقن بعدُ أنى لم أفكر أنا نفسى فى هذه الأشياء الجميلة التى يعبر عنها صوتى . فإذا تمتمت مرجريت وقد بلغ منها الانفعال مبلغه ، « ما أجمل هذا ! ما أجمل هذا ! » تقبلت هذا الإطراء كأنه تكريم أستحقه .

وقليلاً ما كنت أكلم مرجريت فى العادة . على أن أمى اضطرت يوماً أن تغيب عن المنزل بعد الظهر ، فبقيت مع مرجريت وحدى ، وجلست فى حجرة الطعام وفق عادتى ، ولبثت ساعة وعيناى مثبتتان على الكتاب لا تريان شيئاً . أحسست جيشانا فى قلبى ، وارتعاشا فى يدى ، واستشعرت رغبة ملحة فى أن أتحدث إلى مرجريت ، وأقول لها قولاً رقيقاً . ولكن الأقوال الرقيقة شىء لا أحسنه ، فتركت العصر ينقضى بغير أن أفتح فمى واستبد بى اليأس حتى إذا أقبل المساء جرى لسانى بكلام مر مثبط

موئس أجل ، ! إن لسانى لينطلق وحده إذا أردت أن أقول كلمات كريهة قاسية ، ولذلك لم ألق أى عناء فى إدخال الحزن والغم على قلب مرجريت ، وفى إرهاقها بسيل من كلمات كانت مناقضة كل المناقضة لما أحسست حاجة شديدة إلى مكاشفتها به .

استمعت بغير جواب ، ثم بدا فى نظرتها حزن وعتاب ، فنكست رأسى وسألتها العفو وأنا متلعثم . قالت :

– أوه ، لابأس . أنا أعلم أنك طيب ،

وأنك لاتعتقد كل ماقلته لى الآن .

– « طيب ! » أنا ؟ أنا طيب ! أنا ؟ آه ! جميل والله ! وسرعان ما تابعت الكلمات المرة مجراها ، حتى امتلأتُ تقززاً من نفسى ، فتناولت قبعتى وخرجت .

لا ينبغى التسرع فى الصفح عن سلاڤان .

* * *

ولكننى أعتقد أنى لم أعذب مرجريت كثيراً فى هذه الفترة . أعتقد ذلك ، ولست واثقاً من شى ء ، فالذين يسببون لنا أشد الآلام قلما يشعرون بقسوتهم ، ومن هؤلاء من يظنون أنهم غمرونى بإحسانهم وأراهم فى الحقيقة أرواحاً شريرة موكلة بى .

كانت لى فى أيام مراهقتى علُقة بابن عم لى ، أحببته كثيراً. فكنت أجاريه فى محاولاته ، وأثنى على حسناته ، وأغضى عن سيئاته . ومهما حاسبت نفسى لم أجدنى أسأت إليه أية إساءة . ثم كان بيننا ذات يوم شجار ، ففتح لى ابن عمى قلبه ، واطلعت منه على أحقاد معمَّرة ؛ أحقاد طويت زمناً طويلاً ، فلم يزدها ذلك إلا أوارًا ؛ أحقاد رأيتها – وأسفاه ! – لا ترتكز علَى غير أساس . وخلاصة القول أنى اكتشفت فى ذلك القلب كنزاً من البغضاء وجدتنى أنا هدفه المحتوم ووجدتنى أنا سببه .

كيف يكون لنا أن نؤكد أنا لم نسبب أذى لإنسان نظرنا إليه ، ولو مرة واحدة ، ومررنا بحياته ، ولو فى التفكير ؟

أما الأمر الذى يجعلنى أعتقد أنى لم أعذب مرجريت فى شهر نوفمبر هذا ، فهو أنى كنت أدخر كل تقلبات مزاجى للانو .

كنت أزوره كل يوم ، ولعلى ذكرت لك ذلك من قبل . فإما ذهبت إليه وقت الغداء ، وإما ذهبت إليه مساء بعد العشاء ، لأن لانو لم يفقد وظيفته مثلى ، وهو يذهب بانتظام إلى مكتب وكيل الدعاوى الذى يعمل عنده .

والغالب أن أجد لانو وزوجه يطعمان . فأجلس على كرسى هزاز قرب النافذة ، وأشرع فى الترجح ، كما أشرع فى البغى الفظيع .

ومن حسن الطالع أن لانو صديقى ! ومن حسن الطالع أنى أحبه ! فلو لم أكن أحبه لضقت به أشد الضيق .

ولولا الحب ولولا الصداقة لنفرنى من الإنسان كل شى ء . انظر إليه وهو يأكل ! انظر إليه وهو يشرب !

إن أكتاف لانو فتى هادئ ، بطى ء الاستجابة ، لا تعوزه الثقافة ولا الظرف ، ورث عن أبوته عادات ريفية ، وعَسَراً فى السلوك ، ولذا فقد يتفق لى أن أعاتبه معاتبة الصديق لصديقه ، ولكننى لا أطيق أن يقحم غيرى نفسه فى ذلك ، فالسخرية من لانو امتياز لى لأنى صديقه ، وهى امتياز أغار عليه غيرة شديدة .

كنت أستلقى على الكرسى الذى يهتز اهتزازاً ضعيفاً ، وقد وضعت ساقاً على ساق وأملت رأسى إلى الوراء ، وأدخنُ لفيفة بعد لفيفة وأنا أنظر بعين شبه مغمضة إلى لانو وزوجته وطفله وهم يأكلون .

وكان الصغير يبطبط فى صحفته ، وأكتاف ومارث يأكلان وهما جالسان وجهاً لوجه - ولا تظن أنهم كانوا يختلفون فى طريقة أكلهم عن غيرهم من الناس . أما أنا فما كان لى إلا أن ألاحظهم ، وهو موقف مؤلم لنا جميعاً .

إذا أردت أن ترعى هيبتك فإياك أن تأكل فى حضرة إنسان لا يشاطرك الجوع ولا الطعام .

لأى شى ء مَلْء الملعقة حتى يسقط جزء مما تحتويه على الصحفة قبل أن يبلغ الشفتين ؟ ولأى شى ء إمالة الملعقة ودسها فى الحنك ؟ ولم هذا الصوت المرتفع عند ارتشاف الحساء ؟

كان يشق علىَّ التغلب على تقززى ، ولكن لانو وزوجه لم يكونا يرتابان فى شى ء . ألستُ صديقهما ؟ ألم أثبت لهما ذلك من قبل ؟ ألست أنا أيضاً إنساناً فى كل نقائص الإنسان ؟

كان تفكيرى فى أنى حين أشبع شهواتى أستصحب مثل هذه القذارة الساذجة ومثل هذا العسر - كان هذا التفكير يزيد ضيقى ولا يبدده . ولكننى كنت أضطر إلى الاعتراف بأن فكى أيضاً يطقطق حين أمضغ الطعام ، وبأنى - ولاشك - آكل أيضاً

وفمي مفتوح ، وأتمطق وأخضم ، ولابد أن عين الناظر ترى حركة لسانى ، وتتتبع استحالة الطعام بجهد أسنانى ، ولا شك أن أنفى - وكثيراً ما يسده الزكام - ينفخ ويصفر عندما يبدأ الفكان فى العمل .

كان المنظر يكربنى وأفكارى تخجلنى ، فأنهض لأنصرف ، فينظر إلىَّ لانو بعين صافية تتجلى فيها الدهشة ، ويقول لى باسطاً :

- لماذا ؟ لا شىء يعجلك .

فيفتر عزمى وأجلس .

ولو استطاع لانو أن يدهم مجرى أفكارى ، لوقعت فى اضطراب وحيرة . ولكن أحداً لا يستطيع أن يعرف مجرى أفكارى . على أننى أوشكت مائة مرة أن أفضح نفسى وأقول لصديقى : « أمن الضرورى إذن أن يحرك المرء أرنبة أنفه وهو يأكل اللوبياء ؟ » .

فإذا ماانتهى الطعام أشعل أكتاف غليونه الصغير ، وجعلنا نتسامر ونحن نحتسى القهوة ، فأرتجل بعض التعليقات المبهمة على أحداث اليوم . لكى أتخلص من تأملاتى الصارمة ، ويصغى إلىَّ لانو بانتباه مجامل ، ويتمتم عند كل عبارة أقولها :

- إنى أوافقك تماماً على ماتراه .

فلا يلبث هذا الإصرار على الإقرار أن يضجرنى . ماذا ؟ إنى لأنطق بأكاذيب وتفاهات فيوافقنى لانو تماماً على ما أراه . لانو الذى أعده ذكيا ، صديقى لانو ، صديقى الوحيد !

ويبلغ بى الأمر أن أفتقد مرارة فيتيه الذى لا يدعنى أتم مقطعا إلا ويقذف بعبارة لاذعة ، كأن يقول : « أنا لا أقرك ألبتة على ما تراه » .

فأعود إلىِ صمتى وتأملى الشانئ الأليم . وأضع ركبتىَّ بين يدىَّ وأسرع فى ترجيح الكرسى الهزاز ؛ وكان تفكيرى فى أن هذا الترجيح المستمر قد يغثى نفس أكتاف ومارث يسبب لى شيئاً من الاضطراب ، ولكنه لا يمنعنى من المضىِّ فيه .

وإذ يشبع الطفل يرقد فى المسرير . وهو جميل وعلى حظ كبير من القوة ، فى لحمة شفافية ولدونة ، ومن المؤسف أن خنصر يده اليسرى شاذ التركيب ولادة ، فهى مثنية نحو راحته .. إنك لتستطيع أن تفتش عن النقص فى الكائن الجميل ، فالنقص موجود دائماً ، ولو كنت كسلاڤان لعجز بصرك يوما أن يرى غير هذا النقص ، ولأفسد عليك هذا النقص بعدئذ كل ما عداه .

وكنت أقبل الطفل – وأنا عَّرابه – وأحمله على كتفى إلى غرفة النوم . وكنت أتخيل أحيانا – وأنا أنظر إلى ذلك الوجه الحلو الذى لم تكد تتميز قسماته ، والذى يبدو كأن ملامحه كلها ما تزال مخبوءة فى جراب رقيق ، كنت أتخيل فيه وجه الشيخ الذى سيغدو إياه فى المستقبل ، فأحس الكآبة تنهشنى .

وينام الطفل ، فنعود إلى أحاديثنا التافهة وإلى تبغنا . وأصغى من خلال الباب نصف المفتوح إلى تنفس الطفل ، وإلى صيحاته وهو يحلم ، وإلى كل ما يصدر عن هذا الوجود الصغير النائم من صوت . وأحياناً كانت هذه الأصوات لا تبدو لى طبيعية، فيساورنى القلق ، ولكن لانو وزوجه يظلان هادئين ، فأقدِّر أنهما عديما الإكتراث ، جامدا الإحساس ، غير جديرين بحمل الواجب الأبوى الثقيل .

وأحياناً أخرى كان لانو يخوض مع زوجه فى حديث طويل عن شئونهما الخاصة . وكل يقول : « أتسمح ؟ » فأجيب : « كيف لا ؟ » على أنى لا ألبث أن أجد كل هذه الأسئلة التى يثيرانها غريبة علىَّ تماماً . فكثير من الأشياء فى حياة صديقى الوحيد كانت مغيَّبة عنى ، وكثير من لانو كان مسلوباً منى . لقد كانت تعصر قلبى سورة الغيرة .

فى مثل هذه اللحظات كنت أفكر فى ألوان من الانتقام ، فكنت مستعداً كل الاستعداد أن أصب على لانو – إذا ترك لى أدنى فرصة – سيلاً من الفظائع التى كنت أجترها اجتراراً .

ويمضى الوقت وهو لا يقدم إلىَّ سوى كلمات لطيفة ، فأزدرد غيظى . ثم أتخيل وأنا أهبط السلم بعد أن صافحت لانو وزوجه – أتخيل فى فزع أنه يقول لها :

– للّه دَرُّ سلاڤان ! ما أحسنه من فتى !

فأحنى رأسى ، ولا أشعر بكبرياء ، لأن كل هذه القبائح التى لا أملك ألاَّ أراها فى صديقى ، كل هذه القبائح ليست فيه ، بل فىَّ أنا ، فىَّ أنا وحدى .

* * *

- ١٠ -

أصيبت مرجريت فى شهر ديسمبر بذبحة ألزمتها الفراش عشرة أيام متعاقبة . وكانت أمى تحمل إليها المرق والأشربة والدواء .

واختل نظام المنزل أيما اختلال ، فقد اجتمعت على أمى رعاية المريضة ونظافة المنزلين وإعداد الطعام ، وكانت مع ذلك تخصص بعض الوقت للحياكة ، ولكنها كانت تقتطعه من راحتها . وكنا نجلس إلى الطعام جنباً لجــنب ، ونأكــل مسرعـــين . وكان يخيل إلىَّ أن هوة عريضة تنفغر بيننا .

على أننا هكذا عشنا سنين طوالا ... وإذن فقد كان تعودنا شهرين اثنين عادات جديدة كافياً لأن يعطل عادات قديمة قدم الحياة .

وحاولت أن أُغْنَى بعض الغناء ، وأصابتنى تلك المبادرة الطائشة التى يظهرها الرجال وسط المتاعب البيتية . فكنت أتنقل من حجرة إلى حجرة ، أجلس على مقعد ، وأتكئ على كل قطعة من الأثاث ، وأفتح الأبواب وأغلقها ، وأنقل الأشياء من أمكنتها بلا غرض . وكانت أمى ترفع منظارها بظفر سبابتها من حين إلى حين وتنظر إلىَّ ، وعلىَّ أن نظرتها كانت هادئة وطبيعية جداً فقد كنت أشعر بالخجل وأحول رأسى ، وأتشاغل بشى ء لا يلبث أن تسأمه نفسى .

وعندما كانت أمى تذهب إلى مرجريت وبين أصابعها وعاء يتصاعد منه البخار - وكانت مرجريت كما ذكرت لك تعيش فى حجرة مجاورة لمسكننا - كنت أذهب إلى مسطح السلم وأسند الباب بقدمى وأنتظر وأنا أقرض أظفارى .

وتعود أمى فتقول :

- إن صحتها تتقدم .

فأجيب :

- آه ! حسناً ، حسناً !

وأردت أن أظهر قلة ! اكتراثى بالأمر ، فنجحت فى ذلك بعناء .

وزارها الطبيب مرة ، وكانت زيارته مطمئنة على وجه الإجمال ، فلم تكن حالة مرجريت خطرة ، وكتب الطبيب تذكرته عندنا ، وقال لى وهو ينصرف :

– لا تقلق ياسيدى ، فستشفى أختك بعد أسبوع .

ولم يخطر ببالى أن أفهم الطبيب حقيقة الأمر . فقد سرنى التفكير فى أنه كان يمكن أن تكون لى أخت كمرجريت ، وملأتنى هذه الفكرة بأشواق حزينة .

وفى ليلة مسهدة قضيتها كلها أحاسب نفسى ، لاحظت متعجباً أنى غيرت أياما أربعة لاتساورنى فكرة من تلك الأفكار النابية التى كانت تشوه روحى ، وتعذب حياتى . فشعرت لذلك بنشاط عظيم أبقانى يقظان حتى الفجر .

وجاءت المسرات تترى . ففى اليوم التالى قدم لانو إلى شارع پده فير ، وكنت قد تركت زيارته منذ مرضت مرجريت . وأحضر إلىَّ فى ذلك اليوم عملاً : ملخصاتٍ قضائية مذيلة بالأحكام تكفل هو باستنساخها وفى نيته أن يجلب لى بعض النفع .

ولعلك لا تعرف « التذييل بالأحكام » فى عرف التقاضى . فإليك معناه : يضيف وكلاء الدعاوى إلى أوراق عملائهم خلاصات مكتوبة على ورق مدموغ ، تحصَّل عليه ضريبة عالية ، وهدفهم من ذلك أن يزيدوا أجرهم . وقد جرت العادة بأن يوكل عمل هذه الملخصات إلى صغار الكتبة فيكتبوا بضع صفحات عن القضية التى حُكم فيها ، ثم يستنسخون ما يتفق لهم من المدونة القانونية . أربعُ كلمات أو خمسٌ فى كل سطر عن الأمر المُلَهْوَج . تمحل بين . ويتفضل وكيل الدعاوى الذى يربح من ذلك ربحاً كبيراً ، فيدفع أجراً طيباً لقاء هذا العبث الذى ينجزه الكتبة فى غير ساعات عملهم . إنه أمر مضحك ، ولكنه هو الكائن .

وحَمَل إلىَّ لانو مدَّونة ، وإضبارة من الأوراق . فشرعت فى العمل بهمة ، وعزمت على أن أقوم بحاجات المنزل ، وقد مرضت مرجريت ، وتكاثرت على أمى الأعباء .

فكنت أقضى النهار وشطراً من الليل أستنسخ بقلم محموم قانون إصابات العمل بحذافيره ، وكنت أعد سرا : ثمانية أفلس ، ستة عشر فلساً ، أربعة وعشرين فلساً . ووجدت فى ذلك العمل المضحك دوافع للفخر ، ودواعى كثيرة لتقدير النفس ، وكما قلتُ لك أحسست أنى أصبح إنساناً آخر . لقد غُير سلافان .

أما التماس أسباب هذا التحول ، فقد حاذرته محاذرة فيها خوف وتطير وعددت هذا التعليق لقدرتى المؤسة على التحليل ، عددت هذه الهدنة وهذا السبات نعمة .

ولكنْ أتى يوم تجلى الأمر فيه دون أن أتجشم لذلك عناء .

كنتُ فى حجرة الطعام وقد شرعت فى الكتابة ؛ وكانت أصابعى الملوَّثة بالحبر تركض على الورق الأزرق ، وعْيناى تصاحبان أصابعى نشطتين ، ففتح الباب ، ودخلت أمى تدفع أمامها مرجريت .

كان عنق مرجريت ملفوفاً بسبيبة حريرية بيضاء ، وشعرها الجميل مضفوراً ، ووجهها يعلوه بعض الشحوب ، فبدت فى ذلك البَهَر الحلو الذى يختص به الناقهون .

جلستّ فى ركن المدفأة على كرسينا الكبير الموقر . وفى هذا اليوم وحده فهمت ما حدث لى .

* * *

هكذا أصبح لحياتى معنى . ألق إلى بالك . لقد أصبحت لحياتى وجهة ، فلم تبق مبددة كقطيع بغير قانون ، بل غدت مجتمعة موجهة . أصبحت نهراً ، ولم تبق مستنقعاً . أصبحت أغنية رصينة ، بعد أن كانت ضجيجاً متنافراً .

وبدا لى أن فى الدنيا أناساً تدور أفكارهم كلها حول قطب واحد لا تفارقه ، كما تدور الثعابين حول عصا الإله .

فى الدنيا أناس يعيشون فى حالة من الرضى ، وقلوبهم نقية تعتادها الأمانى الحلوة . فسأعيش أنا أيضاً فى حالة من الرضى .

فى الدنيا أناس يملكون العالم ، ولو كانوا فى حضيض الفقر ، فسأملك العالم ، سأملك نفسى آخر الأمر . لقد خُلصتُ وأصبحت قادراً على الحب ، وكل شئ يثبت لى ذلك : التسامح فى الوجوه ، والضوء الخالص على الأشياء ، والانبعاثات والسكنات ، والثقة بالمستقبل ، والظمأ إلى التضحية ، وارتعاش يدى .

وصح عزمى ألا أبوح بهذا اليقين . ألا أخشى إذا اعترفت به وأذعته أن أغيره ، بل أمحوه ؟ ألا يحتاج إصلاح سلاڤان أعواما طويلة ، ليألف نفسه ويألف ثراءه ، ويصبح جديراً بحظه الجديد ؟

ليكن هذا الحب الصامت سعادة أو شقاء ،. فهذا شئ لم أفكر فيه قط . وكان ظنى أنى قد أبادل هذا الحب يزعزع أرسخ أفكارى ، فأفضل أن أنحيه . وعلى العكس

كنت أميل ميلاً شديداً إلى أن أتأمل الفكرة المضادة ، فما كان لينتقص من معنى الحب عندى أن يكون حباً منكوراً مزدرى ، بل إن السعادة التى كنت أتوق إليها كانت سعادة تتغذى بفيض من الآلام .

لا شك أنك ستضحك ،، فإن لديك عن الهناءة آراء معقولة محددة أعجز كل العجز عن دحضها ، بل عن فهمها . وأنا فى الحقيقة لا أدافع عن نفسى ولا أنتصر لقضيتى - وقد علمت ذلك من قبل - وإنما أحاول أن أمكنك من الاطلاع على ما كان يجرى فى باطنى . ثم إنى ليس فى نيتى أن أسهب فى هذا الجزء من قصتى ، وقد أستطيع أن أعبر عن أضطراباتى وسخافاتى وانحرافاتى ، أما السعادة .. ؟ أيمكن أن ترو يالسعادة ؟ أيمكن أن تثير أهتمام أحد من الناس بسعادتنا ، بهذا الشئ المضجر الذى يبدو لعيون غيرنا من الناس راكداً كل الركود ، تافهاً كل التفاهة ؟

حسبى أن أقول لك إننى كنت سعيداً بلا حذر . ولم يبق لى شىء من جلاء البصر لألاحظ أن أندفاعى شبيه بيأسى ، وأنه محموم مسرف أعسر مثله ، وأخيراً أنه كان يعوزه الاتساق .

وكان من العسير - حتى على المراقب اليقظ - أن يتبين نوع الانقلاب الذى يتم فى . فإن شيئًا من مظاهر وجودى لم يتغير ، وقد عادت مرجريت حين شفيت إلى مجلسها قرب أمى ، كان يسمع صوت آلة الخياطة وهى تدور ، وصوت قلمى من حين إلى حين إذا ينقر قعر المحبرة ، وكنا نتناول طعامنا مجتمعين فى المطبخ الممتلئ بالبخار والروائح الشذية .

وكانت عاطفتى تثقلنى ، وكنت أرمقها باضطراب وخجل ، وكأنه شىء هش يخشى المرء أن يحطمه وهو يحمله .

كنت أردد فى نفسى بين كل دقيقة وأخرى : « تنبهً ! فهاتيك الحياة الحقة تبدأ !» وأحياناً كان يستولى على القلق من مفاجآت المستقبل فآمل ، كما يأمل كثير ممن عزتهم السعادة ، ألا يكون الأبد كله سوى إشباع للحظة الرضى التى أنا فيها . وأحياناً كانت تعذبنى الأحلام الطامحة ، فأرانى أصعد نحو قمم الفضيلة ، نحو الكمال ، وروحى مجللة بالبركات نشوى بالغبطة الربانية، مخلصة مطهرة. أجل ، حياة قديس ، ! ولم لا ؟ ألم يُجْتَبَ السعداء من بين قطيع الخراف الجرباء ؟ وهل فى الفردوس مكان جدير بالملك الساقط الذى مسته على حين فجاة رحمة الله ؟

تلك كـانت أفكـارى وأنا أستنسخ - بقلم مترنح - قانون إصابات العمل مادة مادة .

وأحياناً كانت أمي ترجونى فى أمور صغيرة ، فأؤدى لها ما تطلبه فى عجلة كنت أود أن تكون أقل ظهوراً ، ولكن المرء لايستطيع أن يستحوذ على كل شئ : على الحبور وعلى امتلاك الأعصاب .

وأحياناً كانت مرجريت تغنى ، فأصاحبها بفكرى ، مراعياً أن يظل غنائى باطناً حتى لا يفتضح أمرى .

وكنت أتجنب النظر إلى مرجريت الحقيقية الحية ، ففى نفسى كنت أتأملها ، وفى نفسى كنت أتوجه إليها بدعاء صامت .

لا تبتسم ! لا تسخر منى ! فلو أننى حققت الحياة التى كنت أحلم بها لكان ذلك شيئاًجميلاً .

وكان يتفق لى أيضاً أن أفكر فى أصدقائى ، فى أولئك الرجال الذين سمعتنى أتحدث عنهم بعبارات الازدراء ، فكان أودين يبدو لى عندئذ شخصية ممتازة ، ونفسية عالية ، كان لها فى أثر طيب دائم . وكانت أحزن بوبير تبعث فى نفسى عطفاً لا تردد فيه ولا تحفظ ، لأعين هذا الرجل ، ولأواسيه، ولأردن إليه الهدوء والسعادة . ودفرينى ! إنه الحياة نفسها ، إنه الصحة والقوة الفياضة ، ما أمرحه صاحباً ! وفيتية .. أية حكمة نصوح لم يعلمنى إياها ؟ لقد علمنى أن أؤدب غرورى ، وأن أتواضع فى تقدير فضائلى وقوتى . وقد قاسمنى لديو أفراحه فى كرم ، ولم يكن جاى قط غياباً كما ظننته - وإنه لظن أخزانى - ولكنه كان ذكياً نافذ البصيرة . وقد أسأت الحكم على إمرأة بتسر ، وأسأت تفسير أفعال كوى .

أما لانو أخى المحبوب وصديقى المجتبى وولى نعمتى فلم أك أستطيع التفكير فيه إلا بحنو واضطراب وندم .

وأخيراً كانت أفكارى ترتد دائماً إلى أمى وإلى مرجريت ، إلى تينك العزيزتين اللتين سأقضى بينهما حياتى الجديدة . فيا للنور الدافئ ويا للعطر ويا للموسيقى الناعمة !

كان ذلك كما ترى جميلاً ومؤثراً جداً . وهكذا دامت الحال بلا انقطاع من السابع عشر من ديسمبر إلى الخامس والعشرين منه .

- ١١ -

خرجت يوم عيد الميلاد لأتغدى مع لانو ، وكان قد دعانى إلى وليمة صغيرة خاصة .

كان البرد جافاً لاذعاً منشطاً ، وكان المشى متعة ، ولو كانت نعلاك مثقوبتين . فزررت على معطفى البالى وخرجت مبكراً . ألا يزداد الغداء مع الصديق حلاوة حين يسبق بحديث طويل ؟

كان الطريق مألوفاً لدى ، وكانت أقدامى كأقدام الدوابّ المسرَّحة تدب دائماً على آثارها المرسومة . إن باريس كبيرة ، ولكن لى فيها قريتى ، فأنا كأكثر الناس لابد لى من وطن صغير . ولقد يظن أولئك الذين يطوفون بالعالم أنهم تخلصوا من هذه العبودية، فهلا ترى أنهم محتاجون إلى أرتجال وطن لهم فى طبقة السفينة ، أو فى عربة القطار ؟ إنهم ليضطرون أحياناً أن يحملوا هذا الوطن المصغر فى حقيبتهم أو فى جيبهم ، أو فى نظرة رفيق عزيز .

يلذ لى أن أهبط فى شارع الكردينال ليموان ، فهو ينحدر إلى النهر وذراعاه مبسوطتان ، وهو يحملنى كرغبة تطلب الإشباع ، وهو مسرع كما تندفع قوى مركومة .

ثم السهل ، والأفق الممتد على نهر سين وأرصفته ، والمعبر الضيق ، والجزيرة ، وهذا الشاطئ الإقليمى الذى تنسى عليه باريس ضجيجها العنيف .

رأيت مرة أخرى كل هذه المناظر الحلوة بعينى رجل سعيد . فياليت هذه الصورة تبقى لى دائماً فى أيام البأساء !

وكان لانو قد خرج مبكراً لشسترى بعض الحُوَيْجات ولم يعد بعد . وكانت مارث مشغولة بإعداد وليمتنا الصغيرة ، فاستقبلتنى فى ثياب المنزل ، وهى قلنسوة من المخرَّم وقميص قصير . ألا أُعَدّ فرداً من الأسرة ؟

وأمسك الصغير بيدى ليرينى الكنوز التى وجدت بمعجزة على المدفأة عند الفجر . وكان كل ما فى المسكن الضيق ينسم هذه السعادة العائلية التى كنت أحلم بها كأنها أرض محرّمة .

وشاقتني إدارة اللعب الميكانيكية ، وتصنيف المكعبات الملوَّنة ، ورعى الخراف الصنوبرية - شاقنى ذلك كله إلى الساعة الحادية عشرة . أما كيف نزل البلاء بعدئذ ، وكيف بدت أمارات انهيارى الباطنى، فذلك ما لا أستطيع أن أصفه لك على وجه الدقة . وربما كان سبب ذلك كله هو هذا القميص الكمين .. ما من شئ إلا يصلح عذراً للنفس غير الحصينة .

ومارث إنسانة جميلة ، سمراء ممكورة ، رزان فى مرح ، متحفظة وإن لم تكن مرتابة ، وهى زوج صديقى ، فلم تستهدف حتى ذلك اليوم لخيالى الجامح .

اتفق أن انحنت مارث عن المائدة لتصلح شيئاً فى الثريا ، ورفعت ذراعها ، وكان كم قميصها قصيراً هفهافاً فضفاضاً ، فاجتُذِب بصرى ذلك الكم وصعد على الذراع إلى ظلمة الإبط المبتل اللبد .

وفرغت مارث من شأنها وثنت ذراعها والتفتت وغادرت الحجرة .

أما أنا فكنت جالساً على الكرسى الهزاز أترجح وقد لففت ساقى ، وكان الطفل يلعب على البساط ، فلم يدرك أحد ما حدث .

سيدى ، أنت رجل ، فلستُ بحاجة أن أسهب لأشرح لك كنه الأفكار التى احتشوتنى ، ولا كنه الحادث الذى مر بروحى .

وحشيةٌ فظيعة . اغتصاب . هياج . هذيان . ثياب ممزقة ، توسل ونحيب . لاشىء بقادر على أن يصد العاصفة . لا الشرف ولا الصداقة .

كُنت ثائراً مستبداً ، ثملا . ولم تخف على بصرى خافية من ذلك الجسم الذى بين يدى ، ولا من أفعالى .

وعبرت مارث الحجرة المجاورة . فكشف لى ضوء النافذة لحظة عن حدود جسمها الذى كاد يكون عارياً فى ثوبه الهفهاف . ضربة سوط أخرى . هياج جديد . ورفعت رأسى إلى السقف حيث صورت قصة من وحى الخيال الجموح : لقد سرقتُ هذه المرأة وحملتها إلى غرفة مظلمة عطرة فيها سررٌ مشعثة ، تحت مصباح تسجسه تشنجات عصبية .

وبعد ذلك رحلة . الرحيل ! نستطيع أن نرحل ! حياة لاهثة لعينة رائعة ، عبر قارات مجهولة . أسيا ! أو جزائر المحيط ، أو أنتيل !

وكان الطفل قد بدأ يغنى عند قدمي وهو يهز ناقوساً . من الخشب . حسناً ، سيُترك الطفل للانو ! سيكون هذا الطفل عزاء لانو ، وسأكتب إليه كتاباً أوضح فيه كل شيء . وكتبتُ الكتاب من أوله إلى آخره على طلاء السقف الناعم الصقيل .

وتراءت لى قمرة فى سفينة ، لها نافذة مدهامة ، يصدعها أفق البحر ، وعناق يهتز مع رجه الآلات ، وينقلب مع اضطراب السفينة ، وأيد متشبثة بالمتراس ، أيد يشنجها الأسى ، وندم اثنين ، يسحق فى عناق مخيف .

ولكى أبين كل شيىء يجب أن أضيف أن ماخالجنى لم يكن يصدق عليه تماماً اسم الشهوة . فقد كان خيالاً من تلك الخيالات التى تشبع نفسها بنفسها . وما كنت لأجى بأدنى حركة لكى أحقق خواطرى المجنونة . كلا ، فهذه السورة كلها . طلت تتمرغ فى الروح ولم تكد تتصل بموضوعها . فحشٌ جبان ، متستر ، منعزل .

.. أوشكت أن أتم كتابى إلى لانو ، وإذ بنقش من تلك النقوش المبهمة الزائدة التى تطفو كالثبج وتتتابع كالموج على إطار السقف – إذ بهذاالنقش يغدو فى غفلة منى تلك الخصلة الشقراء الجميلة التى تنوس وتتلوى أمام أذن مرجريت حين تخيط منحنية على عملها ، وبدا وجه مرجريت الحلو كله على السقف ، وله تلك النظرة التى تستغنى بها أن تتمتم « أوه إننى أعلم أنك طيب » .

حسنا ، ستنسى مرجريت .

مرجريت ! أبهذه السرعة . . ؟ ووقف حلمى لاهثاً كالجواد المنهوك إذا عثر وكاد يكبو ، وغاص من الحلم كل ما كان فيه من حرارة وحياة .

وعندئذ رَنّ صوت مارث ، وإخالنى أذكر أنها قالت عبارة من أيسر العبارات :

– لقد تأخر عنك أكتاف . سوف يسوءه ذلك :

فغاصت الصور جميعاً فى سحابة غبراء ، وأحسستُ ارتعادا وتعابٌ وحزناً ، كمن خنق أوهامه على أريكة فندق : ضعف فى الساقين ، ودوار فى الرأس ، وتهافت فى القلب ، وفوق ذلك كله رغبة عنيفة فى البكاء والأنين .

ونهضت ، وذهبت إلى الردهة ، وتناولت معطفى ، فقالت مرجريت وقد ظهرت على عتبة المطبخ :

ماذا تفعل ، هل نسيت شيئاً ؟

– أجل ، نسيت ... نسيت ....

ووجدتُ نغمة صوتى جديرة بالرثاء ، فلم أزد حرفا ، وفتحت الباب وانطلقت أهبط الدرج . وما زلت أذكر وجه مارث وقد شاع فيه التعجب وهى تتقدم فى القمة وتنحنى على حاجز السلم .

ولما وصلت إلى الطبقة الأولى وجدتنى وجهاً لوجه مع لانو . وعلت وجه - وهو يمد إلى يده - بسمة حلوة رقيقة ، فقلت له وأنا أتحاشاه :

- ياأكتاف ، معذرة ، فلن أبقى معك . أنا لا أستحق البقاء . أنا لا أستحق أن يهتم بى أحد .

وقف لانو مذهولاً ، وكدتُ أوقعه وأنا أحاول الإسراع لأخرج من المنزل ، وهبطتُ الدرجات الأخيرة قفزاً وأنا أصيح :

- لا لا يا أكتاف ، يجب ألا تحبنى !

وبينما كنت أرد باب الدهليز سمعت على الدرج من خلفى وقع خطى مسرعة . وكان لانو ينادى بصوت متغيرٍ :

- لويس ! لويس ! اسمع يالويس ..

وكنت قد بلغت الشارع فمضيت فى طريقى بغير أن ألتفت .

* * *

لاينبغى للمرء أن يُسَرّ ، فزوال السرورِ عذاب شديد . كان الوقت ظهراً ، وبدت الحديقة النباتية مقفرة .. أرض جاسية تصرُّ من البرد ، ومقاعد يغشيها الصقيع . ولكنى جلست على أحد هذه المقاعد ، وكانت على يمينى شجرة مدت أذرعها جميعاً ، وكأنها تحلف يميناً فى جلال ووقار .

نظرت إلى جذعها الأعجر ، وإلى أفنانها التى لا تحصى ، وإلى جذورها الضخمة التى تبرز وهى فى مكانها قبل أن تغوص إلى غير رجعة ، فكأنها فقار الدُّخَس ، وفكّرت :

- هذه الشجرة غير مقيدة الإرادة ، فهى تستنبط الأرض حيث تجد مقداراً معيناً من العصارات ، أو مقداراً معيناً من الخلاصات ، أو مقداراً معيناً من الأغذية أو السموم ، أو مقدار معيناً من المواد المتراكمة منذ بدء الخليقة ، وهى تستنبط ولا تأخذ إلا ما تحتاج ، أما سواه فتنبذه ، إنها تنتقى ما ترغبه من بين هذا الخليط .

أما أنا فمقيد الإرادة .. فكل فكرة هائجة تجد فى روحى المأوى . وكل بذرة تسقط على وجودى تستطيع أن تنبت . فأين أنا ثمة ؟ أين أنا بين هذا الحشد ؟ أيمكن أن أحظى بشئ من الهناءة بين هذا الرهط من الشياطين التى تناصبنى العداء ؟ كيف أعرف نفسى أو أسميها أو أناديها من بين هذه الوجوه كلها ؟

لا تقل لى : « إن هذه الأفكار عندك ولكنها ليست إياك » ماذا ؟ ألست أنا الذى أفكر ؟ ألست أنا الذى أغذوه هذه الأفكار ؟

ولا تقل لى بخاصة : « إن هذا كله لا يعيش إلا فى عقلك » إذلا أهمية إلا لما يجرى فى العقل .

ما كنت لأجعل من حياتى شيئاً طاهراً نقياً .

إننى عاجز عن الحب ، عاجز عن الصداقة ، إلا أن يكون الحب والصداقة عاطفتين تافهتين حقيرتين .

أنا أبن عاق ، وصديق خائن ، ومحب غادر ، فى أعماق قلبى تمنيت موت أمى ، وخنت أكتاف وأخزيته ، واغتصبت مارث ودنستها ، وغدرت بمرجريت . وفعلت ألف جريمة أخرى ، أنمحت من ذهنى حتى ذكراها ، وهذا أشد الأمور إقناطا .

أنا لا أوقِّر شيئاً من أعماق قلبى ، وعلى الرغم من ذلك ... !

وعلى الرغم من ذلك كنت أحلم أحياناً بحياة لو عشتها لكانت أجمل حياة وأنبلها : ولستُ مذنباً ، فما أنا بالسيد المطاع .. لا تتهمنى قبل أن تراجع نفسك .

أنا عبد قن ، فمن يمنحنى الحرية ؟ من ينقذنى من الهوان ؟ من يستطيع أن يردّ علىّ كرامتى المفقودة ؟

إن العالم يروغ منى ، فأضطرب بين الأشباح . فمن يستطيع أن يتقدم لينقذنى ؟

هكذا كنت أفكر وأنا جالس على مقعد حديقة النباتات . وكنت مقروراً ، وسرعان ما أحسست جوعاً ، ولست أخلو من مرارة إذا أقرر أنى أستطعت أن أحس البرد والجوع على الرغم من ألمى ... هذا جرح جديد للكبرياء .

حاربت البرد بالسير ، والجوع برغيف من تلك الأرغفة الصغيرة المرصعة بالزبيب برغيف من أرغفة الجويدار الصغيرة التى كانت متعة صباى .

وكـذلك همت طوراً أجـوس فى دروب الحـديقـة ، وطوراً أضـرب فى الشـوارع المجـاورة ، حـتى مـال ميزان النهار وغُمَّت الشـمس ، فمـا بدت لى قط أشـد ضـغناً ولا نحساً . وكان ذلك وهـمـا خـالصاً ، فلقد عرفت من بلايا العرق تحت لازورد يـولية ما تقصر عن شأوة بليات الشتاء .. لا شمس إلا فى سلام القلب .

أين أذهب ؟

احلو لك الليل ، وبدأ الثلج يتساقط ، وكنت إذ ذاك فى شـارع بيفون ، فعدت إلى سطح الدنيا لحظة لأقرر لنفسى أن الثلج يتساقط ، ثم غصت ثانية إلى الأعماق .

وبعد ربهة وجدتنى محـاذياً خفر البلدية بشارع مونج ، ميممًا شارع پوده فير . كان الوحش يعود إلى مثواه . كان يعود وحده إلى المأوى ، حيث الدفء والطعام .

كل شئ كما كان . كل شئ علي وتيره واحدة . خروج فإياب . فإلى المنزل بحمل من الغضب والأشمئزاز .

- ١٢ -

سيدى ، لقد جاوز الليل على منتصفه ، واستمعت إلى حتى الآن بكثير من الصبر والكرم ، فلأ سرف على رحمتك ، ولأفرغ من قصتى .

انقضت سبعة أيام منذ تلك الأحداث التى ارتبطت ، عندى ، بيوم عيد الميلاد ، وإنى لأستمحيك العذر مرة أخرى ، إذ أصر على تسمية هذه الأشياء التى لم تتجاوز حدود نفسى بالأحداث ، فللعالم تاريخان : تاريخ أعمالنا وهو ذلك الذى ينقش على البرُنز ، وتاريخ أفكارنا وهو ذلك الذى لا يبدو أن أحداً يعنى به . وإن شئت الحقيقة فما قيمة أفعالى إذا لم تكن أفكارى إلا نكثا لها ، وسخرية منها ؟

قضيت الأيام الأربعة الأولى فى قلق متزايد ، وكان المقام فى المنزل يؤلمنى ، لأسباب يسهل عليك حدسها .. كثرة الذكريات ، ونظرة تينك المرآتين ، ومين وجهى وكلامى وحركاتى .

فكنت أخرج صباح كل يوم ولا أعود إلا بعد أن يتقدم الليل ، ويحين وقت النوم . وكانت أمى تقول كل مساء إن لانو أتى وانتظرنى ساعة أو ساعتين بغير أن يوضح غرضه من الزيارة .

وكنت أقضى الليل على أريكتى أدخن وأحارب شياطينى .

وفى صباح أمس الأول جرى بينى وبين أمى حديث قاطع . أكان ذلك حديثاً ؟ الحق أن أمى تكلمت وحدها .

كنت موشكاً أن أخرج ، وكانت مرجريت قد خرجت لتحضر من المشغل عملاً ، وأمى ترتب المسكن ، فقالت .

– لويس ؛ أجلس لحظة بجانبى .

وجلست . ولابد أن وجهى كان مغلقاً شاحباً تعروه التواءات صغيرة غير إرادية لا أستطيع كبحها . لقد كنت قلقاً مضنى فى وقت معا . قالت لى أمى :

– لويس ؛ ستبلغ الثلاثين بعد شهرين .

ففهمت لتوى . وتكلمت أمى نصف ساعة . لقد آن أن أتزوج . يجب ألا أتأخر فى الحصول على عمل . إن أمى كانت مشغولة بهذا الأمر أيضاً . لقد آن لى أن أختار رفيقاً . أليس على مقربة منى ...

آه ! يا أمي ؛ يا أمي ؛ ما أشد حبك لي ! وما أحسن معرفتك بي ! وما أسوأ فهمك لي !

تركتها تتكلم . وكانت تهز يديّ برفق ، فتسقطان لاحراك بهما . فإذا ألحت على بالأسئلة هززت رأسي ولم أجب .

ودق الجرس فأنجدني ، ودخلت مرجريت ، وسرعان ما تناولت ملابسي وخرجت مبتدراً الباب ، وأنا أنظر في عبوري - بشئ من الغيظ - إلى تلك الفتاة التي تحلم بأن تهب السعادة لرجل مثلي .

وقد مضى على ذلك أكثر من ثمان وأربعين ساعة ، ولم أعد إلى المنزل ، ولن أعود إليه ، فما بقيت لدي قدرة على أن أعود .

كتبت لأمي كتاباً لا يوضح شيئا . كيف توضح مثل هذه الأشياء ! كتبت إليها : «أمي ؛ أنت لاتعلمين أي رجل أنا ، فلا تسأليني أن أعود إليك ، ولا تطلبي مني أن أكون سعيداً» وأشياء أخرى كثيرة تافهة كهذه، كانت ولاشك عذاباً ، ولم توضح شيئاً .

وهاقد كادت تمضي على ثلاثة أيام وأنا أهيم في باريس بلا غاية ولا مأوى . لقد هدأت نفسي ، ولكن تعاستي شديدة .

لست أبحث عن الموت . فإني لم أستعد بعد للموت .

ولديَّ نقود تكفيني يومين ، ثم أعملُ أعمالا تافهة لأجد طعاما .

لا تحدثني عن تينك المرأتين ، اللتين أظنهما جالستين الآن في حجرة الطعام تخيطان . فيم تفكران ؟ ماذا تقولان ؟ لا تحدثني عن ذلك ، فلقد سئمت التفكير فيه طوال هذه الأيام الثلاثة .

إن القدر ساقني الليلة إلى هذه الحانة ، حيث عَنَّ لي أن أقابلك .

ولم أشرب من الخمر إلا قليلاً ، ولا شك أنك لاحظت ذلك ، وكنت أود لو أكثرت من الشراب ، غير أن معدتي مريضة .

لا ترو لأحدٍ هذه القصة التي ليست بقصة . فكل إنسان يحمل عبئه من العذاب ، وعبث أن تثقل عليهم بقصة سلاقان ، وعبث كذلك أن تضحكهم منها .

لست أدرى ماذا أفعل من بعد ، ولا ماذا أصير . قد أرحل إن عطفت علىّ الريح وحملتنى ، وقد أبقى . ربما ....

أنت ياسيدى، يامن تبدو سمحاً طيباً ، ويامن تركتنى بهذا الرفق العظيم أتكلم .. لعلك تدلنى على ما ينبغى أن أفعل .

الكتاب الرابع

إيڤان تورجنيف

دخـــان

ترجمة

شكرى محمد عياد

تــقــديم

حوالى منتصف القرن التاسع عشر كان يلوح على الأفـق الأوربى ظل كبير .. ظل الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت . لقد عاد آل بوربون إلى فرنسا كما كانوا قبل الثورة ، ومات نابليون ، شبه مجنون ، فى جزيرة سانت هيلانة ، ولكن كلمة الحرية ظلت تتردد فى أرجاء أوربا فتتلقفها الملايين . وعلى الرغم من « الحلف المقدس » وهجمات الرجعية المستأسدة فقد استمرت ثورات التحرر الوطنى ، كما استمرت حركات المطالبة بالحكم النيابى ، فتحررت إيطاليا ، وتكررت الثورات الوطنية فى المجر، وبولندا ، وعادت الجمهورية فى فرنسا ، وفرض الأحرار الألمان حكومة ديمقراطية .

وفى هذا الجو كانت « روسيا المقدسة » ، وريثة الامبراطورية البيزنطية ، وحامية الدين المسيحى ، هى المعقل الأول للرجعية . وكان دور القيصرية فى مقاومة الحركات التحررية دوراً متعدد الأوجه . كانت تفرض على بولندا وسائر مستعمراتها فى أوربا ، وآسيا عبودية أبدية ، وتخمد ثوراتها بعنف دموى. وكانت تضع جيوشها فى خدمة الرجعية الأوربية المرتبكة ، كما فعلت فى ثورة المجر وكانت – فى روسيا نفسها – تقمع بقسوة كل نزعة فكرية تشتم منها رائحة الحرية ، وكل دعوة إصلاحية تحبذ – سرًا أو علانية – الحكومة الشعبية .

وفى حمى القمع والإرهاب لم تكن الرجعية تفرق بين الأفكار المعارضة لمصالحها حقيقة وبين الأفكار التى يمكنها أن تستغلها وتستخدمها . كان « السلافوفيل » فى كثير من الأحيان يلقون من التنكيل مثلما يلقاه « الغربيون » مع أن السلافوفيل كانوا يقدمون إلى الرجعية الروسية تكئة قوية لمقاومة الثورة ، وأساساً نظرياً للمحافظة على القديم ، فقد كانوا يذهبون إلى أن الحضارة الأوربية قد دب فيها الفساد ، فلا ينبغى أن تستعير روسيا من الغرب ، بل يجب عليها أن تحافظ على نظمها « السلافية » الأصيلة . وكان خصومهم الغربيون – على العكس – يدعون إلى الاقتباس من الغرب والتلمذة له ، ومعنى ذلك ، فى ذلك الوقت ، اقتباس وسائل الإنتاج الحديث ، ونظم الحكم الديمقراطى ، وتراث العلم العالمى وأشكال الفن المتطور .

وكان تورجنيف من هذا الفريق الأخير . وقد ذهب إلى أوربا شابًا ليدرس الفلسفة فى إحدى الجامعات الألمانية ، وليتنفس بحرية فى جو فكرى بعيد عن إرهاب القيصرية

ولكنه لم يكن « هارباً » ولم يكن متنكراً لوطنه ، بل لعله كان ، في فراره من بلاده ، وطنياً حاد الوطنية . وعاطفة تورجنيف نحو وطنه – وهي العاطفة التي تجلت في «دخان» وعبر عنها أصدق تعبير على لسان « بوتوجين » – تظهر في هذه الكلمات التي وصف بها حالته في صدر شبابه .

« إن الحركة التي كانت تدفع بأترابي من الشبان إلى البلاد الأجنبية كانت تعيد إلى الذاكرة صورة أولئك الصقالبة الأقدمين الذين ذهبوا يبحثون عن أمراء لهم بين «الفارج» وراء البحار [1] . فكل منا كان يحس إحساساً عميقاً أن «أرضه» (ولا أعني الوطن على التعميم بل تراث الآباء الخلقي والفكري) «أرض عظيمة غنية ولكنها خلو من النظام» . وأستطيع أن أقول عن نفسي أنني شعرت شعوراً أليماً بمساوئ هذا الانتزاع من منبتي الأصلي ، وهذا القطع العنيف لكل صلة تربطني بالبيئة التي شببت فيها .. ولكني لم أكن أستطيع غير ذلك . فإن هذه الحياة ، وهذا الوسط ، وبخاصة هذه الدائرة التي كنت منتمياً إليها دائرة ملاك الأرض وأصحاب العبيد ، لم يكن فيها ما يدعوني إلى البقاء . بل على العكس ، كان كل ما أراه حولي تقريباً يبعث في نفسي شعور القلق والثورة ، أو باختصار شعور الاشمئزاز . فلم أستطع التردد طويلاً ، إذ لم يكن بيد من أحدى اثنتين : إما أن أخضع وأسير بهدوء في الدرب المطروق ، وإما أن أنتزع نفسي دفعة واحدة ، وأتخلص من كل شيء وكل إنسان ، وإن أدى ذلك إلى حرماني من أشياء كثيرة حبيبة إلى قلبي . وكان ذلك هو السبيل الذي اخترته . فألقيت بنفسي في «الخضم الألماني» ليطهرني ويجدد حياتي ، حتى إذا خرجت من مياهه وجدت نفسي « غريباً » ، وكذلك بقيت . فلم أستطع أن أتنفس وأعيش وجهاً لوجه مع ما كنت أكره ، ولعله كان يعوزني السيطرة على النفس وقوة الشخصية اللازمتان لذلك . كان على أن أبتعد عن عدوي مهما يكن الثمن ، كي أسدد إليه عن بعد ضربات أشد قوة . وقد كنت أرى لهذا العدو وجهاً واضح القسمات ، وكان له عندي اسم معروف . كان عدوي هو حق الاسترقاق . وتحت هذا الاسم جمعت كل ما كنت عازماً على مصارعته إلى النهاية ، كل ما أقسمت على محاربته بغير مهادنة .

(١) يشير تورجنيف إلى نزوح إحدى قبائل اسكندناوة إلى روسيا في مستهل القرن التاسع وتأسيسهم الإمارات هناك . وقد ورد ذكر هذه الوقعة في «دخان» . والعبارة الموضوعة هنا بين أقواس هي العبارة التي يروى أن مبعوثي الصقالبة قالوها لأمراء الفارج .

كان ذلك عندى هو قسم هانيبال . ولم أكن وحدى صاحب هذا القسم . وذهبت إلى الغرب كى أبر بقسمى .. » .

وحوالى سنة ١٨٤٧ ، كان تورجنيف فى روسيا . وبدأ ينشر صوراً من حياة الفلاحين كانت معولاً من المعاول القوية التى وجهت إلى نظام الرقيق . وكانت قوتها فى واقعيتها الإنسانية التى أظهرت هؤلاء الفلاحين الأرقاء ، لأول مرة فى تاريخ الأدب الروسى ، فى مشاهد حياتهم العادية القاسية ، وصورت آمالهم وآلامهم ، فكأنها نبهت إلى أنهم بشر كغيرهم من الناس ، وقد جمع تورجنيف هذه الصور فى كتابه « مشاهد من حياة صياد » (١٨٥٢) وعوقب بالنفى إلى الريف . ولكن الرجعية لم تستطع أن تمضى فى استبدادها إلى النهاية . فإن الفلاحين أنفسهم بدأوا يثورون ، وتكررت حوادث العصيان الجماعى حتى بلغ عددها فى سنة ١٨٤٨ وحدها أربعة وستين . وأدت سياسة القيصر نيكولاس الأول العدوانية إلى حرب القرم سنة ١٨٥٤ ضد الدولة العثمانية ، وحاربت انجلترا وفرنسا فى صف العثمانيين وهزمت روسيا هزائم متلاحقة حتى اضطر القيصر ألكسندر الثانى الذى تولى العرش سنة ١٨٥٥ إلى عقد الصلح بعد خسائر جسيمة لم تحصل البلاد من ورائها على فائدة ما . ثم بدأ سلسلة من الإصلاحات كان أولها وأهمها إلغاء الرق سنة ١٨٦١ ، وجاءت بعد ذلك قوانين التجنيد الإجبارى ، وفتح الجامعات أمام أبناء الشعب ، وإدخال نظام المحلفين فى المحاكم الروسية ، ولكن الرجعية كانت تنظر شزراً إلى هذه الإصلاحات ، وتحيطها بمختلف العراقيل ولم تلبث أن كشفت وجهها ثانية ، ففى سنة ١٨٦٥ رفض القيصر طلب النبلاء تأسيس مجلس نيابى ، وتلا ذلك تعطيل الصحف الحرة ، وإذاعة منشور رسمى بدعوة الشعب إلى « مقاومة الأفكار الخبيثة التى تهدم الدين والنظام والملكية الخاصة » . وبينما كانت الرجعية تشدد قبضتها بدأ الفكر الروسى يتحول من التحرر إلى الثورة . وكما هى العادة دائماً فى مثل هذا التحول امتلأت أجواء المثقفين بالبدع الفكرية ، والدعوات الكاذبة ، والمغامرات الصبيانية . وكان هذا هو الجو الذى كتب فيه تورجنيف « دخان » سنة ١٨٦٨ .

صور تورجنيف فى « دخان » جماعات من المغتربين الروس فى مصيف ألمانى . فصور المجتمع الأرستقراطى بأناقته وتفاهته وفراغه وانحلاله . كما صور منتديات

أكثر شعبية ، منتديات أدعياء التحرر بمناقشاتهم العقيمة وخضوعهم الأعمى لشعار أو قائد . والتقط عيوب هؤلاء وأولئك بعين نافذة خبيرة ، وصورها بدقة حفار ، فجعلها نماذج رائعة للهجاء الواقعي . على أن هذه الصور ليست مجرد هجاء سياسي ، بل إن وراءها إحساساً مراً ، إحساساً تراچيدياً بضياع الجهد الإنساني واضطراب الفكر الإنساني ، وغموض المصير الإنساني . وقد لخص الروائي هذا الإحساس في عنوان الرواية « دخان » الذي أخذه من هذه الفقرة قرب الخاتمة ، وهي تذكرنا تذكيراً قوياً بسفر الجامعة :

« وجعل ينظر من نافذة القطار . كان الجو أغبر رطباً ، لا مطر فيه ، ولكن الضباب لا ينكشف ، والسحب الدانية تحجب السماء . وهبت الريح في مواجهة القطار، فاندفع أمام النافذة التي جلس إليها لتفينوف موكب متلاحق من أمواج البخار البيضاء ، بعضها خالص وبعضها ممتزج بسحب الدخان القاتمة . وأخذ لتفينوف يرقب هذا البخار والدخان . كانت السحب تمر بعد السحب ، ولا تزال تصعد ، وتعلو وتهبط ، وتتلوى وتتعلق بالأعشاب والشجيرات ، وكأنها تلعب في إحدى المساخر . ثم تتمدد وتذوب في الفضاء .. كانت تتبدل دائماً وهي لا تزال كما هي .. لعبة سريعة سخيفة مكررة ! وكانت الريح تتغير حين ينحرف الخط يمنة أو يسرة ، فيتلاشى الرعيل كله فجأة ، وسرعان ما يبدو مرة أخرى من النافذة المقابلة . ثم ينتشر الذيل الضخم مرة أخرى فيحجب عن بصر لتفينوف سهل الدين الفسيح . حدق وحدق ، واستولى عليه شرود غريب .. كان وحيداً في المقصورة ، لم يكن هناك من يزعجه ، فردد مرات عديدة : دخان . وفجأة بدا له كل شيء دخاناً - كل شيء : حياته هو ، والحياة الروسية ، وكل ما هو بشري ، وعلى الخصوص كل ما هو روسي . الكل دخان وبخار - هكذا قال لنفسه - كل شيء يبدو دائم التغير ، في كل مكان أشكال جديدة ، أحداث بعد أحداث ، وكل شيء كما هو في الصميم . كل شيء يسرع طائراً إلى وجهة ما ، وكل شيء يتلاشى دون أن يترك أثراً أو يبلغ أمراً وتتغير الريح ، فيسرع كل شيء في الاتجاه المضاد ، وهناك تبدأ نفس اللعبة المستمرة القلعة العقيم . وتذكر كثيراً مما شاهده بنفسه في السنوات الأخيرة من أحداث أحيطت بالضجيج والتهريج ، فهمس : دخان ، دخان . وتذكر الجدل العنيف والصياح والنقاش عند جوباريوف ، وعند أناس آخرين منهم الشبان والشيوخ ، والبسطاء والعظماء ، التقدميون والرجعيون .. فردد . دخان ، بخار ودخان . وتذكر أخيراً تلك النزهة الأنيقة ، وتذكر خطباً وتصريحات وأشخاصاً آخرين يعدون أنفسهم لأكبر المناصب حتى كل مواعظ بوتوجين .. دخان ،

دخان و لا شيء أكثر من دخان وجهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه ؟ لم يستطع لتفينوف إلا أن يلوح بيده فى قنوط » .

ولكننا ننسى أن « دخان » رواية وليست سياسة . فالسياسة فى « دخان » ، كما هى فى معظم الروايات ، مرتبطة بقصة حب ، والكاتب البارع هو الذى يجعل الحب والسياسة وحدة ، فتتداخل الحوادث السياسية فى حوادث الحب ، وتؤثر فيها ، وقد تتأثر بها . ولكن الكاتب الأبرع لا يحتاج دائماً إلى اصطناع مثل هذا الربط فى العقدة - وكثيراً ما يكون متكلفاً - بل يقدمهما معاً كعنصرين فى جو واحد ، ويحقق التلاؤم بينهما بمبادىء شكلية غير تسلسل الحوادث التى يؤثر بعضها فى بعض . وهذا ما نجده فى « دخان » .

فلتفينوف ، الشاب الأمين المثابر الذى يقع تحت سلطان عاطفة غشوم مستعرة نحو امرأة أرستقراطية نارية ، وهو فى الوقت نفسه قد خطب قريبة له يتمثل فيها نموذج الفتاة الطيبة الحنون فى أسر نبلاء الريف المتوسطى الحال - لتفينوف لا يشارك فى المناقشات السياسية وغيرها إلا متفرجاً ، ولا يحتك بالشخصيات الارستقراطية أو بأدعياء التحرر ألا مرغماً . لأنه « إن شئت الحقيقة ليس لى آراء سياسية » . على أن الحقيقة هى أنه ضنين باستعمال كلمة السياسة لمثل هذا الضجيج المتنافر الذى يسمعه عند أدعياء التحرر وأقطاب الأرستقراطية جميعاً . ولكن كبرياءه الشعبية النظيفة تثور إذا سمع هجوماً على حق الشعب فى التعلم أو فى التملك أو فى الحرية . إن السياسة عنده تتلخص فى كلمتين : « الحرية ، والعمل » . وحين يعود إلى بلاده يجد أن آراءه هذه التى رفض أن يسميها آراء سياسية كانت أقرب إلى الصواب من كل ما سمعه من أولئك « الثوريين » الذين تنكروا لمبادئهم بعد قليل . فقد « كانت المبادىء الجديدة (مبادىء الإصلاح) لم ترسخ أصولها بعد ، والمبادىء القديمة قد فقدت كل قوة . كان الجهل يرتطم بالخيانة ، ونظام الحياة الذى اهتز من أساسه يضطرب كوحل زلق ، ولم تكن هناك إلا كلمة واحدة عظيمة ترف كروح الله على الماء : كلمة الحرية » . ولعل هذا هو الدرس السياسى الذى أراد تورجنيف أن يؤديه فى «دخان ». ولكن هذا الدرس ، والأجواء السياسية التى مهدت له ، لا تكاد تتصل بالقصة العاطفية بالمعنى الشائع من الاتصال وهو التأثير المتبادل بين نوعين من الأحداث . فكيف ربط تورجنيف بينهما ؟

إن الرباط هنا رباط شعورى يظهر فى الفقرة التى سبقت الإشارة إليها . لقد فكر لتفينوف فى « جهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه » بعد أن مرت بمخيلته ذكريات الأحداث السياسية التى أحيطت بالضجيج والتهريج ، والجدل العنيف والصياح والنقاش عند أناس كثيرين منهم الشبان والشيوخ ، والبسطاء والعظماء ، والتقدميون والرجعيون . كأنما « جهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه » كانت تحمل ، عن غير وعى منه ، صدى هذا الضجيج والجدل العنيف . وكأن الرواية كلها تمثل أمل تورجنيف فى أن تخرج بلاده ، أن يخرج أحرار بلاده من الضجيج السياسى إلى العمل الصبور المثمر ، كما خرج لتفينوف من ضجيجه العاطفى إلى حب عطوف مستقر . ولابد لهذا الخروج من تضحيات . لابد من تضحية وهج العاطفة ، ونشوة البطولة ، وسكرة الحلم ، من أجل حقيقة أكثر ثباتاً ، ولابد للروائى إذن أن يضحى بقمة شامخة مثل « بازاروف » بطل « الآباء والأبناء » التى كتبها سنة ١٨٦٢ ، ليجعل بطله فى « دخان » تلا صغيراً ، هو لتفينوف . وهذه هى الملاحظة التى أبداها الزعيم الثورى بيساريف – على سبيل النقد حين سأله تورجنيف عن رأيه فى « دخان » . ولكن التل الصغير ، « لتفينوف »، لازم للتعبير عن الجوهر التراچيدى فى روايتنا هذه . الحياة تتقدم ، ويجب أن تتقدم . وحين تتقدم الحياة يكسب الأحياء ، ولكى يكسبوا يجب أن يخسروا . لن يعرف لتفينوف مع تاتيانا تلك النشوة التى وجدها بين ذراعى أيرينا ، ولكنه سيذهب إلى تاتيانا . ولن يصنع الشعب الروسى معجزة بين عشية وضحاها ولكنه سيتقدم بمثابرة وصبر ليؤدى دوره المقسوم . هذه هى حكمة تورجنيف فى «دخان» ، وهى حكمة كسبها ، فى مجال التفكير السياسى والعاطفة الشخصية على السواء ، بتجربة السنين المريرة ، لقد هاجر تورجنيف فى شبابه ليستطيع أن يضرب عدوه بقوة أكبر ، ولكنه تعود بعد ذلك أن يقيم بعيداً عن وطنه ، ولعله كان ينزلق أحياناً إلى مناقشات جوفاء عن مستقبل روسيا كهذه المناقشات التى يصورها فى « دخان » . وقد أحب تورجنيف المغنية الفرنسية ، الأسبانية الأصل ، بولين فياردو : أحبها بلا سعادة ، كما أحب بوتوجين أيرينا ، من شبابه إلى كهولته ، ولم يستطع قط أن ينجو من أسر هذه العاطفة الجبارة كما نجا لتفينوف .

وحين جاءته فكرة « دخان » ، وهو يدلف إلى الخمسين ، لم يستغرق فى كتابتها وقتاً طويلاً ، وكأنه وجد سريعاً « البديل الموضوعى » لحالته النفسية . ومع أنه شكا فى بعض خطاباته من الصعوبة التى وجدها عند بدء العمل ، لطول انقطاعه عن الكتابة

قبل ذلك ، فإننا نجد فيها فنه الكامل ، الذى جعل « تين » يقول عنه : « أنه أعظم فنان عرفته أوربا منذ سوفوكليس »[٤] . فمهما سخر أو هجا فإن شخصياته تظل حية حياتها الخاصة ، ولا تتحول قط إلى صور خشبية . ومهما ملأ حواره السياسى بالإشارات إلى حوادث معاصرة فإنه يعرف كيف وأين يضع هذا الحوار ليظل جزءاً متمماً لبناء الرواية الفنى ، وإن نسيت المناسبات التى يشير إليها . ويستطيع القارئ أن يمر بالهوامش التى أضفناها إلى هذه الترجمة ليتمثل الجو التاريخى للرواية ، ويستطيع أن يتركها دون أن يحس أنه ترك شيئاً لابد منه لفهم الرواية نفسها . فالمناقشات السياسية والاجتماعية الخارجة عن الأحداث الرئيسية تؤدى وظيفتها الفنية الكاملة عن طريق التقابل وتخفيف التوتر والهارمونية ، وما إليها من مبادئ شكلية أخرى يمكن أن تكون محلاً للدراسة المفصلة ، وتفهم فى ضوء هذه التقابلات وإن لم يتحدد كل ما تشير إليه .

أما شخصية إيرينا فهى كما يقول عنها الناقد الإنجليزى أدوارد جارنت :

« إن سر هذا الخلق الممتاز هو أنها تجمع بين الخير والشر على سواء حتى لتبدو النسوة الخيِّرات بجانبها تافهات والنسوة الشريرات مصنوعات . وقد حبتها الطبيعة فتنة آسرة يزيدها الخيال أسراً بذلك الموقف الذى تستجده بينها وبين لتفينوف . فهى ترغب فى السمو رغبة صادقة وتود لو تبلغ مثل الحب الأعلى الذى يتصوره قلب المرأة . ولكنها لا تقوى إلا على هدم الرجل الذى تحبه .. هل تستطيع أن تكون له بديلاً من تاتيانا ؟ كلا ، أنها لا تستطيع أن تكون كذلك لأى رجل ، فقد خلقت لتفسد دون أن يمسها الفساد ، وأنها لتسترد سلطانها على نفسها بعد لحظات اللذة الأولى ، وأنها لتظل مشتهاة وإن لم تمنح قلبها كاملاً للحبيب » .

هذه شخصية مليئة بالحياة . ومع ذلك فقد نتساءل : هل مصدر هذه الحياة أن لها شخصيتها الفردية المتميزة التى نتمثلها فى مواقف الهوى والغيرة والعناد والكبرياء والاندفاع والخيانة ، أم مصدره أنها نموذج خيالى عام للمرأة الخالدة التى ترمز للحياة نفسها : « المرأة التى تفسد دون أن يمسها الفساد ... وتظل مشتهاة وإن لم تمنح قلبها كاملاً للحبيب » ؟ إن الجمع فى إيرينا بين طرفى الخصوص والعموم مثل من أمثلة فن تورجنيف الناضج ، وهو وحده كفيل بأن يحفظ لهذه الرواية مكانة ممتازة بين ذخائر الأدب الخالد .

شكرى محمد عياد

- ١ -

حول الساعة العاشرة من عصر ١٠ أغسطس سنة ١٨٦٢ كنت ترى كثيراً من الناس محتشدين أمام « بهو السمر » الشهير في بادن بادن . وكان الجو رائقاً وكل ما يطيف بالمكان يرتع جذلان في أشعة الشمس الحنون : الأشجار الخضراء ، البيوت الزاهية الألوان في المدينة الأنيقة ، الجبال المشرفة بقممها التي تشبه الموج . كل شيء كان يبتسم في سرور مطمئن غافل ، فتمس هذه البسمة الحنون الغامضة وجوه البشر شابة وهرمة ، حساناً ودميمة . حتى وجوه بنات الهوى الباريسيات المبدرة المزوقة لم تكن لتفسد هذا الجو المرح السعيد . وكانت أشرطتهن وريشهن ، وشذرات الذهب والمعدن التي تلمع في قبعاتهن وبراقعهن ، تمثل للعين أزهار الربيع المتألقة تميل في خفة ، وأجنحة الطيور ترف بألوان قوس قزح . ولكن الرطانة الفرنسية الصارخة التي كانت تسمع من كل ناحية لم تكن لتماثل تغريد الطيور ولا لتقارن به .

على أن كل شيء كان يسير وفق العادة . فكانت الفرقة الموسيقية في شرفة البهو تعزف مزيجاً من « الترافياتا » ، وفالسا لشتراوس ، ثم « أخبريها » وهي أغنية روسية أعدها للعزف على الآلات موسيقار كريم . وحول الموائد الخضراء في غرف القمار كانت تحتشد نفس الوجوه ، وعليها نفس التعبير : تعبير الغباء والتحفز والخوف الذي تطبعه حمى القمار على أنبل الوجوه كان هناك ذلك الشريف الروسي القادم من تامبوف ، في ثيابه الفخمة بغير ذوق وقد انحنى على مائدة القمار بعينين جاحظتين ، غير مبال بابتسامات الكروبييه الباردة وهم ينادون Rien ne va plus [١] ، بينما يضع الجنيهات الذهبية بلا روية – ويده تتصبب عرقاً – على أركان المائدة الأربعة ، فيحرم نفسه كل فرصة للرمح ... حتى لو حالفه الحظ . ولم يكن جهله بالقمار ليمنعه من أن يردد في حماسة كلمات الأمير كوكو أحد زعماء المعارضة الأرستقراطية المشهورين ، والأمير كوكو هو صاحب تلك الكلمة المأثورة التي قالها في باريس في صالون الأميرة ماتيلد ، وعلى مسمع من الأمبراطور نفسه : « سيدتي ، إن مبدأ الملكية في روسيا مزعزع من الأساس » . وكان أبناء وطننا الأعزاء وبنات وطننا العزيزات مجتمعين كعادتهم حول الشجرة الروسية – à l'arbre russe ، كما يقولون . كانوا يتوافدون وهم يمشون الهوينى مترفعين غير مكترثين كبدع هذا العصر ، ويتهادون

(١) عبارة عندهم معناها أن المراهنة قد انتهت ، يقولونها قبل أن تدار « الروليت » .

التحايا فى سمت أنيق كما ينبغى لأناس فى الدرجة العليا من المجتمع . ولكن الجمع لا يكاد يلتئم حتى يحاروا كل الحيرة فيما يقول بعضهم لبعض ، فيقنعون بتسقط التافه من الكلام ، أو ببذاء محدث فرنسى سخيف كان فيما مضى صحفياً ، وهو الآن مهرج ثرثار : فى ساقيه الصغيرتين الهزيلتين حذاء غليظ ، وفى وجهه الصغير الدنىء لحية صغيرة حقيرة . فيروى لهم كل ما حوته التقاويم الهزلية القديمة مثل « التشاريفارى » و « التنتامار » من بارد الفكاهات ، وينفجر « هؤلاء الأمراء الروس » ضاحكين فى رضا وامتنان كأنهم مرغمون على أن يعترفوا بروعة الفكاهة الأجنبية ، وبعجزهم عن ابتكار أى شىء طريف . ومع ذلك فهؤلاء هم « زهرة » مجتمعنا ، ونماذج البدع والأناقة عندنا .. هذا هو الكونت « س » محب الفنون ذو الطبع الموسيقى الحساس الذى يستطيع أن يترنم بأجمل الأغانى ، ولكن أصابعه تضل على مفاتيح البيان ، والذى يغنى بطريقة وسط بين طريقة مغن غجرى بائس وطريقة حلاق باريسى . وهذا هو البارون « ك » الساحر ... أستاذ فى كل فن : فى الأدب والإدارة والخطابة والغش فى القمار . وهذا أيضاً الأمير « ى » صديق الدين والشعب ، الذى جمع لنفسه ثروة طائلة ببيع الفودكا مغشوشة بالبلادونا فى تلك الأيام المباركة التى كانت تجارة الخمور فيها احتكاراً . والجنرال الذكى « و . و . » الذى هزم أحداً ما وأخضع شيئاً ما ، ولكنه لا يزال نكرة ولا يدرى ماذا يصنع بنفسه . و « ر . ر . » ذلك الرجل المسلى الذى يظن نفسه مريضاً جداً وظريفاً جداً ، مع أنه قوى كالثور ومصمت كاللوح ... هذا الـ « ر . ر . » يكاد يكون الرجل الوحيد فى زماننا الذى حافظ على تقاليد فتيان العقد الخامس ، والأيام « فتى العصر» (١) ، والكونتيسة فوروتنسكى – حافظ على تلك المشية الخاصة المترجحة على الكعبين ، كما حافظ على « فن الإشارة » – Le Culte de la Pose – ومعذرة إذا كانت كل ترجمة قاصرة عن أداء المعنى . أنه فن التكليف فى الحركات . والتثاقل فى التعبير ، والجمود المترفع فى الأسارير ، ومقاطعة أحاديث الناس بالتثاؤب. فن التحديق فى أظافر اليدين ، والضحك من الأنف ، ودفع القبعة من مؤخر الرأس إلى الحاجبين . إلخ . وهنا أيضاً رجال من ذوى المراتب العالية فى الحكومة : سياسيون أولو شأن خطير ، وأسماء أوربية ، ورجال ذوو علم ومعرفة ، يحسبون أن « الثور الذهبى » مرسوم أصدره البابا ، وأن ضريبة الفقراء فى انجلترا ضريبة تجبى من الفقراء . وهنا عباد

(١) مجموعة قصص للشاعر الروسى ليرمنتوف ، ظهرت سنة ١٨٤١ ، وتمثلت فيها قمة الرومانسية الروسية . بطلها « بيكورين » شاب فاتك لا يعرف الحب ولكنه مغرم بأن يوقع النساء فى هواه .

« غادات الكاميليا » الدائرو الرءوس المعقودو الألسنة .. فتيان غنادير شعورهم مفروقة بأناقة حتى مؤخر الرأس ، وعوارضهم الجميلة مرسلة على صفحتى الوجه ، يلبسون ثياباً لندنية أصيلة .. ظباء لا يعوزهم شىء لينافسوا ذلك المحدث الفرنسى الشهير . ولكن لا ! إن منتجاتنا الوطنية ضئيلة الحظ من تشجيع أهل البدع والأناقة . فالكونتيس « س » ملكة الأزياء المبتدعة و «الجران جنر» ، التى تلقبها الألسنة الحاقدة بملكة الضبابير، وبميدوزا ذات القبعة (١) – هذه الكونتيس « س » تفضل إذا غاب الفرنسى الظريف أن تتحدث مع الإيطاليين أو المدافيين ، أو محضرى الأرواح الأمريكيين ، أو سكرتيرى المفوضيات الأجنبية المتأنقين، أو النبلاء الألمان نوى السحر التى تجتمع فيها النعومة والحصافة المبكرة ، والمكان حافل بكل هؤلاء . وتقتدى بالكونتيس الأميرة بابت التى مات شوبان بين ذراعيها (وفى أوربا تعد أكثر من ألف امرأة مات شوبان بين أذرعهن) والأميرة آنت التى لا يغض من فتنتها إلا تلك الغسالة القروية الساذجة التى تطل من أهابها بين الحين والحين ، كرائحة كرنب تختلط بأرق العطور ، والأميرة باشت التعسة الحظ التى ظفر زوجها بوظيفة ممتازة ثم إذا هو – Dieu sait pourquoi ، يضرب عمدة المدينة ويسرق عشرين ألف روبل من مال الدولة ، والأميرة زيزى الضاحكة ، والأميرة زوزو الباكية – فكلهن يمنحن بنى وطنهن صدا وإعراضاً . فلنعرض نحن أيضاً عن هؤلاء السيدات الحسان ، ولنبتعد عن الشجرة الذائعة الصيت ، التى يجلسن حولها فى ثياب غالية ولكنها لا تخلو من سماجة . وعسى الله أن يتوب عليهن من ذلك الملل الذى يفرى منهن النفوس !

(١) « ميدوزا » اسم سعلاة أو امرأة غول فى الأساطير اليونانية ، شعرها ثعابين ملتفة ، ووجهها مدور ، وأنفها أفطس ، ولسانها دالع ، وأسنانها بارزة .

- ٢ -

على مسيرة خطوات من « الشجرة الروسية » كان يجلس إلى منضدة أمام قهوة فيبر رجل وسيم يناهز الثلاثين من العمر ، نحيل ، أسمر ، متوسط القامة ، فى محياه بشاشة ورجولة ، وكان منحنياً إلى الأمام وقد اعتمد بكلتا ذراعيه على عصاه ، فى هدوء الرجل الذى لا يخطر بباله أن أحداً من الناس يعنى به أو يراعيه . وكانت عيناه العسليتان المعبرتان تحدقان فيما حوله ملياً ، ويخزرهما أحياناً ليتقى ضوء الشمس ، ثم يتأمل بعض من يمرون به من تلك الشخوص الغريبة ، فيختلج شاربه وشفتاه وذقنه البارز الصغير بابتسامة فيها من الطفولة شىء كثير . وكان يلبس معطفاً ألمانياً ضافياً ، ويغطى نصف جبهته العريضة بقبعة من الصوف الرمادى . وكان يبدو للنظرة الأولى شاباً أميناً رزيناً معتداً بنفسه ، ككثير من الشبان فى هذا الوجود . كما كان يبدو أنه يستجم بعد عمل طويل شاق ، وأن أفكاره الشاردة التى تجول فى عالم بعيد عن ذلك الذى يحيط به لا تزيده إلا التذاذا بريئاً بهذا المنظر المنبسط أمام عينيه . وكان روسيا . وكان اسمه جريجورى ميهالوفتش لتفينوف .

وإذ لم يكن لنا بد من معرفته فلنرو ماضيه فى بضع كلمات ، ولن نجد فى ماضيه كثيراً من الغرابة ولا التعقيد .

كان أبوه موظفاً فى المعاش ، وكان ينتمى إلى طبقة العامة ، ولكن الابن لم يتلق تعليمه فى المدينة كما يتوقع فى مثل هذه الحال بل تلقاه فى الريف . أما أمه فكانت سليلة أسرة من النبلاء ، تعلمت فى إحدى المدارس الرسمية ، وكانت إنسانة سليمة الطوية سريعة التأثر ، ولكنها لم تكن تافهة الشخصية ، فعلى الرغم من أنها كانت تصغر زوجها بعشرين عاماً فقد غيرته قدر الإمكان ، وأخرجته من وضاعة حياة الموظف الصغير إلى عيشة المالك الكبير ، ورققت من عنفه ، وهذبت من عناده ، وبفضلها أصبح يعتني بهندامه وشارته ، وصار يحترم العلم والعلماء – ولو أنه لم يفكر قط فى أن يقرأ كتاباً – وترك السباب وحاول بكل وسيلة أن يكتسب مظاهر النبل ، حتى أنه صار يمشى متئداً ويتحدث بصوت خفيض . وكثيراً ما كان يتحدث فى موضوعات جليلة ، وكان ذلك يجشمه عناء غير قليل ، فكان يقول فى نفسه : « والله يا هذا ما حقك إلا الضرب » ولكنه يرفع صوته قائلاً : « نعم ، هذا صحيح . بالطبع. إنها مسألة مهمة» . وقد جعلت أم لتفينوف منزلها أوربى الطراز أيضاً ، فلم

تكن تشتم الخدم ، ولم تكن تسمح لأحد بأن يكتظ على مائدتها حتى يكبسه النعاس . أما الأرض التى كانت تملكها فقد عجزت هي وزوجها كل العجز عن العناية بها ، فبقيت مهملة زمناً طويلاً ، مع أنها كانت أرضاً واسعة تضم مراعى وغابات وبحيرة ، وكان يشرف على البحيرة فيما مضى من الزمان مصنع أقامه مالك متحمس ولكنه لا يألف النظام ، وراج على عهد تاجر مخادع ، وخرب بإشراف مدير ألمانى مدقق . وكانت مدام لتفينوف راضية قانعة بأنها لا تبيع أرضها ولا تستدين ولكنها لم تكن موفورة الصحة ، فماتت بالسل فى السنة التى دخل فيها ابنها جامعة موسكو . ولم يتم الفتى دراسته لأمور سيعلمها القارئ فيما بعد ، فعاد إلى منزله الريفى حيث قضى فترة من الزمان بلا عمل ولا واجب ولا صديق . وجند فى سنة ١٨٥٥ ، والفضل فى ذلك لنبلاء إقليمه الذين كانوا لا يحبونه ، وكانوا يؤمنون بالحكمة الشائعة : « خلص نفسك وارم جارك » وأكثر إيمانهم بالنظرية الأجنبية التى تقول : إن المالك يجب أن يقيم فى أرضه . وكاد يهلك بالتيفوس فى القرم حيث قضى ستة أشهر فى كوخ من الطين على شاطئ البحر الأسود دون أن يقع بصره على رجل واحد من « الحلفاء » . واشترك بعد ذلك فى مجالس النبلاء ، ولم تخل هذه الفترة من حياته من تجارب أليمة ولكنه أغرم بالزراعة بعد أن عاش فى الريف زمنا قصيرا . وأدرك أن ثروة أمه كانت فى يد أبيه العاجز الضعيف الكسلان لا تغل عشر ما يمكن أن تغله ، وأنها إذا تعهدتها يد مجربة ماهرة أصبحت منجما من الذهب . إلا أنه أدرك أيضا أنه لا يعوزه شىء كما تعوزه المهارة والتجربة . فسافر إلى الخارج ليتخصص فى الزراعة والتكنولوجيا أو على الأصح ليتعلمهما من مبادئهما الأولى . وأمضى أكثر من أربع سنوات فى مكلنبورج وسيليسيا وكارلسروهة . وسافر إلى بلجيكا وانجلترا . وعكف على العمل . وحصل كثيراً من المعارف . وما كان ذلك بالأمر اليسير . ولكنه ثابر وقاوم الصعاب إلى النهاية . وقد أخذ يتأهب الآن للعودة إلى وطنه ، مؤمنا بنفسه ومستقبله وبنفعه لجيرانه ، بل ربما للإقليم كله ، تستحثه دعوات أبيه اليائسة الضارعة ، وقد حار فكره فى تحرير الرقيق ، وإعادة توزيع الأرض ، وشروط حيازتها .. إلخ . أو باختصار فى النظام الجديد .. ولكن لماذا كان فى بادن ؟

لقد كان فى بادن لأنه كان ينتظر من يوم إلى يوم قدوم ابنة خالته وخطيبته « تاتيانا بروفنا شستوف » التى عرفها منذ الصغر ، وأمضى الربيع والصيف معها فى درسدن حيث كانت تعيش مع عمتها . وقد أحس لهذه القريبة الشابة حبا صادقا واحتراما عميقا . فلما انتهى من أعماله التمهيدية المملة وأخذ يستعد لاقتحام ميدان

جديد - ميدان العمل الحقيقى الحر - رأى فيها المرأة الحبيبة والرفيق والصديق . فتقدم إليها يسألها أن تربط حياتها بحياته . على السعادة والشقاء . على الجهد والدعة. على الخير والشر . فوافقت . وعاد إلى كارلسروهة حيث كان قد خلف كتبه وأوراقه وأمتعته . ولكنك تسأل مرة ثانية : لماذا كان فى بادن ؟

حسنا . لقد كان فى بادن لأن عمة تاتيانا ، كابيتولينا ماركوفنا شستوف ، وهى سيدة عانس فى الخامسة والخمسين ، متقلبة الطبع على الرغم من طيبتها وإخلاصها ، مفكرة حرة تشتعل رغبة فى التضحية ، « عقلية ثورية » (فقد كانت تقرأ شتراوس [1] وإن أخفت هذه الحقيقة عن ابنة أخيها) ، ديموقراطية ، خصم لدود للأرستقراطية والمجتمعات الراقية - كابيتولينا ماركوفنا هذه لم تستطع أن تقاوم الرغبة فى إلقاء نظرة واحدة على بادن الأنيقة ومجتمعها الراقى . فقد كانت كابيتولينا ماركوفنا لا تلبس « رواقع » [2] ، وكانت تقص شعرها الأبيض قصة مدورة بسيطة ، ولكن الترف والفخامة كان لهما تأثير خفى فى نفسها ، فكانت ملهاتها المحببة أن تسخر منهما ، وتبدى احتقارها لهما ! .. فكيف يستطيع المرء - بعد هذا كله - أن يرفض للعجوز الطيبة رغبة ؟

لهذا كان لتفينوف هادئاً كل الهدوء ، وكان ينظر حواليه واثقاً بنفسه كل الثقة ، لأن مستقبله كان مبسوطاً أمامه كخريطة ظاهرة المعالم ، ولأن حياته كانت مرسومة محدودة ، وكان بهذا المستقبل فخوراً وسعيداً ، لأنه كان من صنع يديه .

(١) د. ف. شتراوس (١٨٠٨ - ١٨٧٤) مفكر ألمانى من تلاميذ هيجل . كانت دراسته الأولى دينية ، ولكنه أثارضجة كبيرة فى العالم المسيحى واتهم بالمروق حين أصدر كتابه عن حياة المسيح (١٨٣٦) ، الذى حاول فيه أن يخضع العقيدة المسيحية للنقد العقلى ، فأنكر معجزات المسيح ، واعتبر الجانب الأكبر من تاريخه المروى فى الأناجيل أسطورة ترمز إلى الحقيقة ولا ينبغى أن تؤخذ على ظاهرها .

وقد كان لشتراوس تأثير كبير فى تحرير الفكر الدينى وبخاصة فى العالم البروتستانتى .

(٢) قطعة من الملابس من نسيج مقوى ، كانت النساء يلبسنها تحت الملابس ، لترفع الجزء الأسفل من الجسم .

- ٣ -

وفجأة سمع صوتاً رفيعاً ينبعث بالقرب من أذنه :

- أمسك ! ضبطتك !

وحطت يد سمينة على كتفه ، فرفع رأسه ، وإذا هو بصاحب من أصحابه المسكوفين القليلين يدعى بمبايف . مخلوق طيب من ذلك الصنف الفارغ العقل ، تخطى سن الشباب ، له أنف منتفش وخذان مسترخيان كأنما أغليا فى ماء ، وخصل شعثاء ملبدة ، وجسم قصير سمين ، كان روستيسلاف بمبايف لايزال يقطع وجه أمناً الصبور - الأرض - بلا هدف ولا غاية ، ولكن فى ضجيج كثير . وكان مفلساً دائماً ، ومتحمساً دائماً لسبب من الأسباب .

ظل يردد وقد فتح عينيه الغائرتين ، ومط شفتيه الغليظتين ، اللتين بدا عليهما الشارب الهزيل المصبوغ شيئاً مقحماً :

- أهلاً أهلاً ! أى مصادفة غريبة !

ثم أردف :

- آه ! شكراً لك يا بادن ! إن الناس جميعاً يجرون إلى هنا كالخنافس خلف الموقدة ! ماذا جاء بك يا جريشا ؟ (ولم يكن فى العالم أحد لا يناديه بمبايف باسم التدليل) .

- أنا هنا من ثلاثة أيام .

- وأين كنت ؟

- لماذا تريد أن تعلم ؟

- لماذا أريد ! اصبر على قليلاً . لعلك لا تعلم من قدم إلى هنا أيضاً؟ جوباريوف ! إنه جوباريوف نفسه .. تصور ! لقد جاء أمس من هيدلبرج . طبعاً أنت تعرفه ! .

- سمعت عنه ....

- سمعت عنه فقط ؟ يا عزيزى ! يجب أن نأخذك إليه حالاً ، فى هذه الدقيقة كيف لا تعرف رجلاً مثله ؟ أنظر . لعلك لا تعرف هذا أيضاً ؟ يسرنى أن أعرفكما ، فكلاكما من رجال العلم ! إنه من الأفذاذ ! تعانقا !

والتفت بمبايف وهو ينطق بهذه الكلمات إلى شاب وسيم واقف بالقرب منه ،له وجه ناضر مورد ، ترتسم عليه رزانة مبكرة . ووقف لتفينوف ، ولم يعانق « الفذ » بل اكتفى بأن تبادل وإياه انحناءة مبتسرة ، إذ كان مظهره الصارم العبوس يدل على أنه لم يسر كثيراً بهذا التعريف المفاجىء .

واستمر بمبايف يقول :

– قلت لك أنه من الأفذاذ ، وهذا صحيح . اذهب إلى المدرسة الحربية فى بطرسبرج ، وانظر إلى لوحتها الذهبية .. فمن عساك ترى اسمه فى أول القائمة ؟ إنه فوروشيلوف ، سيميون ياكوفليفتش فوروشيلوف ! ولكن جوباريوف .. جوباريوف يا صديقى هو من يجب أن نطير إليه ! إننى أعبد ذلك الرجل عبادة ! ولست وحدى الذى أعبده ! كلهم ، كلهم ! آه ، ما أعظم هذا الكتاب الذى يؤلفه ! أووو ...

فسأله لتفينوف :

– عن أى شىء ؟

– عن كل شىء يا بنى . يشبه كتب « بكل » تقريباً [1] ، إلا أنه أعمق .. أعمق .. سيقرر كل شىء ويوضح كل شىء .

– هل قرأت هذا الكتاب ؟

– لا ، لم أقرأه ، والحقيقة أنه لا يزال سراً . ولكن جوباريوف لا يعجزه شىء ! أجل ! – وتنهد بمبايف وضم ذراعيه – آه لو كان لدينا عقلان أو ثلاثة كهذا ! إذن لرأينا منهم العجب ! – سأقول لك شيئاً واحداً يا جريشا : مهما تكن أعمالك فى هذه الأيام – فأنا لا أعرف عنها شيئاً – ومهما تكن معتقداتك – فأنا لا أعرف عنها شيئاً أيضاً – فسوف تتعلم من جوباريوف . إنه لسوء الحظ لن يطيل إقامته هنا ، فيجب ألا نضيع وقتاً قبل رؤيته . إليه ! إليه !

(١) « بكل » (١٨٢١ – ١٨٦٢) مؤرخ انجليزى اشهتر بكتابه « تاريخ الحضارة » الذى صدر جزؤه الأول سنة ١٨٥٧ والثانى سنة ١٨٦١ ، وحاول فيه أن يضع فلسفة للتاريخ توضح القواعد العامة للتقدم البشرى .

وبينما كان يتحدث مر فتى متأنق ذو خصل صهباء مجعدة ، يلبس قبعة قصيرة مزينة بشريط أزرق ، وجعل يحدق فيه من خلال عوينته وعلى وجهه ابتسامة ساخرة . فقال لتفينوف مغيظاً :

– لماذا تصرخ هكذا ؟ من يسمعك يحسب أنك تزعق على كلاب صيد ! إنني للساعة ما تعشيت .

– حسناً ! عندى فكرة . نذهب حالاً إلى مطعم فيبر .. ثلاثتنا معاً ...

ثم أضاف همساً :

– معك نقود لتدفع حسابى ؟

– نعم نعم . ولكن فى الحقيقة لا أدرى ...

– كيف ! .. ستتشكر لى هذا الجميل . سيسر بمعرفتك ...

ثم صاح فجأة :

– يا للسماء ؟ إنهم يعزفون ختام هرنانى .. ما أروعه ! آسوم موكارلو ... يالى من رجل ! ما أقرب دمعتى ! ألا تأتى معنا يا سيمون باكوفليفتش ؟

وكان فوروشيلوف قد ظل واقفاً فى وضع مهيب ، فلم يلطف شيئاً من سيمائه المتكبرة ، بل عقد حاجبيه ، وخفض عينيه ، وتمتم شيئاً بين أسنانه ... ولكنه لم يرفض. وقال لتفينوف فى نفسه : « لا ضرر من هذا . عندى وقت » . وأمسك بمبايف بذراعه ، ولكنه لم يمض به إلى المطعم إلا بعد أن أشار إلى ايزابل بائعة الأزهار الشهيرة فى نادى الفروسية ، فقد بدا له أن يشترى منها طاقة زهر . غير أن بائعة الأزهار الأرستقراطية لم تتحرك من مكانها ... فما الذى يرغمها على الدنو من سيد بغير قفاز، يلبس سترة من القطن ، ورباط عنق مخططاً ، وحذاء مكعوباً – سيد لم تر مثله حتى فى باريس ؟ وعندئذ أشار إليها فوروشيلوف بدوره ، فاقتربت ، وتناول من سلتها طاقة صغيرة من البنفسج ورمى إليها فلورينا . وكان يحسب أنه سيدهشها بكرمه ، ولكن هدباً واحداً لم يهتز على وجهها ، بل زمت شفتيها باحتقار بعد أن التفت منصرفاً ... فقد كان فوروشيلوف يرتدى ثياباً أنيقة فاخرة ، ولكن الفتاة الباريسية لمحت بعينيها الخبيرة أن هندامه ومسلكه ومشيته التى لم يخف طابعها العسكرى – كل ذلك كان خالياً من « الأناقة » الحقيقية الأصيلة .

وبعد أن جلس أصحابنا فى قاعة الطعام العامة وطلبوا طعاماً أخذوا يتحدثون . وتكلم بمبايف بصوت مرتفع وحماسة بالغة عن مناقب جوباريوف ، ولكنه سرعان ما كف عن الحديث وجعل يصب كوباً فى أثر كوب وهو يشهق ويزفر . أما فوروشيلوف فقد أكل قليلاً وشرب قليلاً ، وكأنه لم يشارك فى الطعام والشراب إلا مرغماً . ثم سأل لتفينوف عن طبيعة أعماله ، وأخذ يدلى بأرائه فى شتى المسائل العامة أكثر من هذه الأعمال ذاتها . وما لبث أن أخذته الحماسة ، فانطلق كالحصان الأرن ، ومضى ينبر المقاطع والحروف كتلميذ واثق بنفسه قد ذهب ليؤدى الامتحان النهائى . وكان يصحب حديثه بإشارات حماسية لا داعى لها ، ولم يقاطعه أحد فزاد اندفاعاً وتأكيداً ، حتى كأنه يتلو بحثاً أو محاضرة وكانت تنهمر من فمه أسماء أحدث العلماء الثقات ، مع تاريخ ميلاد كل منهم أو تاريخ وفاته ، وعناوين الرسائل التى ظهرت حديثاً فى أفق البحث العلمى ، وأسماء وأسماء وأسماء ... وكانت هذه الأسماء تهبه رضا عميقاً ينعكس على عينيه اللامعتين . كان فوروشيلوف فيما يظهر يحتقر كل قديم ، ولا يقدر إلا زبدة الثقافة ، أى أحدث المسائل العلمية وأرقاها . كان يلذ له ويسعده أن يشير — ولو بغير مناسبة — إلى كتاب لشخص يدعى الدكتور تساوربنجل عن السجون البنسلفانية ، أو إلى مقالات ظهرت بالأمس فى « الاسياتك جورنال » عن الفيدات والبورانات (وكان ينطق كلمة « جورنال» نطقاً إنجليزياً مع أنه لم يكن يعرف الإنجليزية) . وأصغى إليه لتفينوف ثم أصغى بغير أن يستطيع معرفة ناحية اختصاصه . فقد أفاض فى الحديث عن الدور الذى لعبه الجنس الكلتى فى التاريخ ، ثم شطح إلى التاريخ القديم فتحدث عن الألواح الأيجينية ، وتكلم بحماسة عن المثال الذى عاش قبل فيدياس — وهو أناتاس — وسماه « جوناثان » فجعل للحديث كله نكهة بين نكهة الكتاب المقدس والنكهة الأمريكية . ثم قفز فجأة إلى الاقتصاد السياسى وسمى باستيات أبله أو غبياً « مثل آدم سمث وسائر الفزيوقراطيين » ، فتمتم بمبايف : « الفزيوقراطيين ؟ .. الأرستقراطيين ؟ » وأثار علائم الحيرة على وجه بمبايف بقوله عن ماكولى — عرضاً وفى ثنايا الحديث — إنه كاتب عتيق لم تعد له قيمة بعد ما وصل إليه علم التاريخ الحديث . أما جنايست ، فقد صرح أنه ليس بحاجة حتى إلى ذكر اسمه ، وهز كتفيه ، فهز بمبايف كتفيه . وقال لتفينوف لنفسه وهو ينظر إلى صاحبه الجديد ، بشعره الأصفر وعينيه الصافيتين وأسنانه البيضاء (وقد ضايقته على الخصوص هذه الأسنان الكبيرة الناصعة البياض وهاتان اليدان بإشاراتهما النابية) : « هكذا بلا ترو ولا مناسبة ، وأمام غرباء .. فى مطعم ! ولكنه يبدو فتى طيباً ساذجاً » . وأخيراً بدأ

فوروشيلوف يهدأ ، ويكسر صوته الرنان الصحل كصوت ديك صغير ، وانتهز بمبايف الفرصة فأنشد أبياتاً من الشعر ، وتهدج صوته بالبكاء حتى روع مائدة قريبة كانت تجلس حولها أسرة إنجليزية ، وأضحك مائدة أخرى كانت تجلس إليها غانيتان فرنسيتان مع مخلوق يشبه طفلاً من عصر قديم فى شعر مستعار . ثم أحضر النادل التذكرة ودفع الأصدقاء الحساب ..

ونهض بمبايف عن مقعده متثاقلاً . قال :

– حسناً ... نشرب الآن قدحاً من القهوة ، ثم نمضى مسرعين . وزاد وهو يجتاز العتبة ويشير فى شىء من المرح بيده الحمراء اللينة إلى فوروشيلوف ولتفينوف :

– هذه هى روسيا .. بلادنا . ما قولكما فيها ؟ ..

فقال لتفينوف فى نفسه : « حقاً إنها روسيا » ، أما فوروشيلوف الذى استعار وجهه مظهر التفكير العميق ، فقد ابتسم ثانية فى ترفع ودق عقبيه دقاً خفيفاً .

وبعد خمس دقائق كان ثلاثتهم يصعدون درج الفندق الذى يقيم فيه ستيبان نيكولايتش جوباريوف .. وكانت تنحدر على السلم نفسه سيدة فارعة القامة ، رشيقة القد ، تلبس قبعة ذات نقاب أسود قصير . فما إن بصرت بلتفينوف حتى التفتت إليه بغتة ووقفت وكأنما تملكها الذهول ، وأحمر وجهها ثم شحب سريعاً تحت نقابه الأسود الكثيف . ولكن لتفينوف لم ينتبه إليها ، فانطلقت تهبط الدرج مسرعة .

- ٤ -

صاح بمبايف وهو يقدم لتفينوف إلى رجل ربعة له هيئة شريف من أشراف الريف، يلبس خفاً وسترة قصيرة وبنطلوناً صباحياً رمادى اللون ، ويقف فى وسط حجرة ساطعة الضوء حسنة الرياش : « جريجورى لتفينوف . جلمود صخر . قلب روسى حق. أوصيك به خيراً » . ثم أردف مخاطباً لتفينوف : « وهذا هو . هو نفسه . أنه جوباريوف وحسب » .

وحدق لتفينوف فيه « هو نفسه » بدهشة وتطلعٍ ، فلم ير فيه للوهلة الأولى شيئاً غير عادى . رأى رجلاً وقور المظهر فى شبه بلاده عريض الجبين ، واسع العينين ، غليظ الشفتين مرسل اللحية ، مكتنز العنق . له نظرة ثابتة يصوبها إلى الأرض . ابتسم ذلك السيد وهمهم قائلا : « آه .. إننى سعيد جداً » . ثم رفع يديه إلى وجهه وأولى لتفينوف ظهره وسار بضع خطوات على البساط فى مشية بطيئة منحرفة ، كأنه يحاول أن ينسل غير ملحوظ . وكان من عادة جوباريوف أن يديم السير ذهاباً وجيئة ، ممسكاً لحيته بين لحظة وأخرى ، يمشطها بأطراف أظافره الطويلة الصلبة . وكان فى الحجرة مع جوباريوف سيدة فى نحو الخمسين ، تلبس ثوباً حريرياً بالياً ، ولها وجه أصفر كالليمونة مفرط الحركات ، وشعر أسود كثيف على شفتها العليا ، وعينان سريعتا الدوران حتى لكأنهما تقفزان من رأسها ، ثم رجل ضخم يجلس منحنياً فى ركن .

تكلم جوباريوف مخاطباً السيدة ، دون أن يرى - فيما يبدو - ضرورة لتعريفها بلتفينوف :

- حسناً يا عزيزتى ماترونا سميونوفنا زوهانتشيكوف . فيما كنت تحدثيننا ؟

فشرعت تلك السيدة - وكانت أرملة عاقراً رقيقة الحال ، قضت عامين متنقلة من قطر إلى قطر - شرعت تقول بحدة لاهثة غريبة :

- نعم . لقد ذهب إلى الأمير وقال له : « إن مركزك يا صاحب السعادة يمكنك من رفع الظلم عنى . أظنك تقدر نبل أفكارى ! وهل يمكن أن يضطهد إنسان فى هذا العصر من أجل أفكاره ؟ » فماذا تظن الأمير قد فعل ... ذلك السيد المثقف ذا المركز الممتاز ؟

فسأل جوباريوف وهو يشعل لفيفة وعلى وجهه سيماء التفكير :

– نعم . ماذا فعل ؟

فنصبت السيدة قامتها ومدت يمناها المعروقة وقد باعدت بين سبابتها وسائر أصابعها :

– لقد نادى خادمه وقال له : « هيا انزع معطف هذا الرجل وخذه لنفسك فهو هدية لك ! » .

فسأل بمبايف ملوحاً بذراعيه :

– وهل نزعه الخادم ؟

– لقد نزعه وأخذه ... هذا ما فعله الأمير بارنولوف . ذلك الشريف الثرى المعروف .. رجل الحكومة ذو المنصب الرفيع ! فماذا يتوقع المرء بعد ذلك ؟

وكان جسم مدام زوها نتشيكوف يرتعد كله غضباً ، ووجهها يتقلص بحركات تشنجية ، وصدرها الذاوى الأمسح يعلو ويهبط محتدماً تحت صديريتها . أما عيناها فكادتا تقفزان من رأسها قفزاً ... ولكن الحقيقة أنهما كانتا تقفزان مهما يكن الموضوع الذى تتحدث فيه . وصاح بمبايف :

– فضيحة صارخة ! فضيحة صارخة ! أى عقاب يكفى ؟

فهمهم جوباريوف معقباً :

– الفساد شامل . العقاب ... ليس هو المطلوب فى هذه الحالة . بل ... أمور أخرى .

وسأل لتفينوف معلقاً على القصة :

– ولكن هل حدث هذا حقاً ؟

فانفجرت مدام زوها نتشيكوف صائحة :

– حدث حقاً ، كيف ؟ إنه فوق كل شك ! كل شك – ك ! « ونطقت بهذه الكلمات فى حماسة بالغة جعلتها ترتجف من الجهد » لقد سمعته من رجل ثقة . أنت تعرفه ياستيبان نيكولايتش . إنه اليستراتوف ، كابيتون الستراتوف . وقد سمعها بنفسه من شهود عيان رأوا ذلك المنظر المخزى .

فسأل جوباريوف :

– اليستراتوف ؟ .. أهو ذلك الذى كان فى قازان ؟

– نعم . إننى أعلم ياستيبان نيكولايتش ما أشيع عنه من أخذ الرشى من بعض التجار أو مقطرى الخمور هناك ... ولكن من الذى زعم هذا ؟ إنه بليخانوف ! وكيف يصدق المرء بليخانوف وكل إنسان يعلم أنه ... جاسوس ؟

فقاطعها بمبايف قائلاً :

– كلا . اسمحى لىَ يا ماترونا سميونوفنا . إن بليخانوف صديقى ، ولا وجه لاتهامه بالجاسوسية .

– أجل ، أجل ، إنه جاسوس !

– مهلاً ... أرجوك ! ..

فصرخت مدام زوها نتشيكوف :

– جاسوس ! جاسوس !

فصرخ بمبايف بدوره :

– لا ، لا . دقيقة واحدة ... سأخبرك بالحقيقة ... فأصرت مدام زوها نتشيكوف على صياحها :

– جاسوس ! جاسوس !

وزأر بمبايف بكل ما فى رئتيه من قوة :

– كلا ، كلا . إن كنت تقصدين تنتليف فهذا شأن آخر .

فصمتت مدام زوها نتشيكوف برهة ، واستمر بمبايف يقول بصوته العادى :

– إننى أعلم من مصدر وثيق أن هذا السيد حين استدعاه البوليس السرى سجد عند قدمى الكونتة بلازنكرامبف ومضى يئن وينتحب قائلاً :

« انقذينى ! ساعدينى ! » ولكن بليخانوف لم يهبط قط إلى هذا الدرك .

فتمتم جوباريوف :

– مم ... تنتليف ... يجب ... يجب ألا ننسى هذه .

وهزت مدام زوها نتشيكوف كتفيها باحتقار وقالت :

– كلاهما شر من أخيه . ولكننى أعلم عن تنتليف هذا قصة أبدع . إنه كان – كما يعلم الجميع – مستبداً طالماً لرقيقه ، على الرغم من دعواه أنه من أنصار التحرير . وقد حدث مرة أنه كان فى صالون إحدى السيدات فى باريس ، ودخلت مدام بيتشرستو ، وهى كما تعلمون صاحبة « كوخ العم توم »[1] ، فألح تنتليف على مضيفته – وتنتليف شخص ملحف رذل – كى تقدمه إليها ، ولكنها ما كادت تسمع اسمه حتى قالت : « ماذا ؟ أيطمع أن يقدم إلى مؤلفة كوخ العم توم » ؟ وصفعته على خده قائلة « اخرج ! » فماذا تظنه فعل ؟ لقد تناول قبعته وانسحب كالكلب الذليل .

فقال بمبايف :

– أظن أن فى هذه القصة بعض المبالغة . لقد قالت له : « اخرج » ، هذا صحيح، ولكنها لم تصفعه .

فجعلت مدام زوها نتشيكوف تكرر بعنف عصبى :

– أجل! لقد صفعته على وجهه ! إننى لا أختلق الأخبار ! .. هؤلاء هم أصدقاؤك !

– معذرة يا ماترونا سميونوفنا . إننى لم أقل قط أن تنتليف صديق لى . لقد كنت أتحدث عن بليخانوف .

– تنتليف أو واحد من أمثاله ... عندك مينوف مثلاً ...

فسأل بمبايف وقد ظهرت على وجهه أمارات الفزع :

– ماذا فعل مينوف ؟

– ماذا ؟ أتراك لا تعرف ؟ .. لقد صاح فى شارع بوزنسنزكى بحيث سمعه الناس جميعاً . « إن الأحرار كلهم يجب أن يرموا فى السجون ! » وواحدة أخرى : زاره زميل له من أيام التلمذة – رجل فقير بالطبع – وسأله : هل يستطيع أن يبقى معه إلى العشاء ؟ فأجابه مينوف : « لا يمكن .. سيتغذى معى اليوم كونتان . أعفنا من وجودك ! » .

(١) هاريت بيتشر ستو كاتبة إنسانية وزعيمة من زعيمات الحركة النسائية فى الولايات المتحدة الأمريكية فى القرن التاسع عشر . روايتها « كوخ العم توم » (١٨٥٢) كان لها أثر كبير فى حركة تحرير العبيد . قامت برحلة إلى أوربا سنة ١٨٥٣

فزعق بمبايف :

– أقسم أن هذا تشنيع !

– تشنيع ؟ تشنيع ؟ أولاً إن الأمير فاروشكن الذى كان هو أيضاً مدعواً للعشاء على مائدة صديقك مينوف ..

فقاطعها جوباريوف بشدة :

– إن الأمير فاروشكن قريبى ، ولكنى لا أسمح له بدخول منزلى ... فلا ضرورة أيضاً لذكر اسمه .

فاستمرت مدام زوها نتشيكوف تقول وهى تحنى رأسها بخضوع نحو جوباريوف:

– وثانياً : أن براسكوفيا ياكوفلفنا نفسها أخبرتنى بذلك .

– لقد وقعت على راوية أمينة ! كيف ! أنها هى وزاكيزوف أكبر مشنعين على وجه البسيطة !

– معذرة . إن زاكيزوف كذاب بلا شك. لقد سرق الكفن الحريرى من تابوت أبيه . أنا لا أجادل فى هذا . ولكن براسكوفيا ياكوفلفنا ... شتان ما بينهما ! أنسيت كيف كان فراقها لزوجها فراقاً كريماً ؟ ولكنك دائماً ...

– كفى . كفى ياماترونا سميونوفنا . لنترك هذه الثرثرة ولنتحدث فى موضوع أسمى . إننى لست ضئيل الخبرة بهذه الموضوعات كما تعلمين . هل قرأت « مدموازيل دلاكنتينى » ؟ هذه رائعة بلا ريب ! وهى فى الوقت نفسه تتفق مع مبادئك كل الاتفاق !

فأجابت مدام زوها نتشيكوف بجفاء وحدة :

– إننى لا أقرأ الروايات الآن مطلقاً .

– لماذا ؟

– لأنى لا أجد وقتاً لذلك . أنا لا أفكر إلا فى شىء واحد : مكنات الخياطة .

فسأل لتفينوف :

– مكنات ماذا ؟

– الخياطة ... الخياطة . يجب أن تحصل النساء جميعاً على مكنات خياطة ، وأن يؤلفن جميعات ، فبهذه الطريقة يستطعن إن يكسبن قوتهن ويظفرن باستقلالهن فى أقصر وقت . وبغير هذا لن يحصلن على حريتهن . هذه مسألة اجتماعية هامة جداً. لقد تناقشت فيها مع بولسلاف ستاد نتسكى . إن بولسلاف ستاد نتسكى شخصية ممتازة ولكنه يستخف بهذه المسائل ... لا هم له إلا الضحك . أحمق !

فتكلم جوباريوف ببطء وفى نبرة تشبه نبرة حكيم أو نبى :

– سيأتى يوم يحاسب فيه الجميع ، ويوفون ما عملوا .

فردد بمبايف :

– أجل ، أجل . سيحاسبون . بالضبط .

ثم أردف بصوت خفيض .

– ولكن خبرنى يا ستيبان نيكولايتش ... ماذا فعلت فى كتابك الكبير ؟

فأجاب جوباريوف عاقداً حاجبيه :

– إننى أجمع المواد .

ثم التفت إلى لتفينوف الذى بدأ رأسه يدور من ضجة الأسماء الغربية والتشنيع المحموم ، وسأله عما يعنى به من الموضوعات ، فأجابه لتفينوف عما سأل .

– آه . بلا شك . العلوم الطبيعية . إنها نافعة إذا كانت نوعاً من التدريب ، لا غاية فى ذاتها . إن الغاية يجب أن تكون ... مم ... يجب أن تكون ... شيئاً آخر . هل تسمح لى أن أسألك عن آرائك الخاصة ؟

– أى آراء ؟

– آرائك . أو بالأحرى آرائك السياسية . ما آراؤك السياسية ؟

فابتسم لتفينوف وقال :

– إن شئت الحقيقة فليس لى آراء سياسية .

فرفع الرجل الضخم الجالس فى الركن رأسه عند سماع هذه الكلمات ونظر إلى لتفينوف ملياً . وسأله جوباريوف بلطف :

– كيف ؟ ألم تفكر فى الأمر بعد ، أم تراك تعبت من التفكير فيه ؟

– لا أدرى كيف أقول . ولكن يبدو لى أننا نحن الروس مازلنا بعيدين عن أن تكون لنا أفكار سياسية ، أو أن نتوهم أن لنا مثل هذه الأفكار . وأود أن أنبهك إلى أنى أريد « بالسياسة » ذلك المعنى الذى تختص به هذه الكلمة ، وأن ...

فقاطعه جوباريوف بلطف أيضاً :

– آه ! إنه لم ينضج بعد .

واتجه إلى فوروشيلوف وسأله هل قرأ البحث الذى أعطاه أياه ؟ وكان الأمر الذى أدهش لتفينوف أن فورشيلوف لم ينبس بكلمة منذ قدم ، بل زوى حاجبيه وجعل يدير حدقتيه . (ويظهر أنه كان معتاداً أن يخطب أو يلزم الصمت) . فلما وجه إليه جوباريوف ذلك السؤال شد صدره بحركة عسكرية وأومأ إيجاباً وهو يدق عقبيه .

– حسناً . وكيف وجدته ؟ هل أعجبك ؟ ..

– أما من حيث المبادىء الأساسية فقد أعجبت به ، غير أنى لم أسلم بالنتائج .

– مم ... ومع هذا فقد امتدح أندريه أيفانتش هذا البحث . يجب أن توضح لى مآخذك فيما بعد .

– أتحب أن أكتبها لك ؟

فتجلت الدهشة على وجه جوباريوف ، ولكنه أجاب بعد تفكير قصير :

– فلتكن مكتوبة . وأريد منك بهذه المناسبة أن تشرح لى آراءك أيضاً .. فى موضوع ... الاتحادات .

– على نظام لاسال أو على نظام شلتسه ودليتزش ؟

– على النظامين كليهما . فالناحية الاقتصادية هى التى تهمنا نحن الروس . ثم هناك الارتل [1] .. وهو النواة .. يجب أن ننظر فى هذا كله .. لا تترك شيئاً ... ولا تنس مسألة تقسيم الأرض بين الفلاحين .

فسأله فوروشيلوف وفى صوته نبرة إجلال :

– وما رأيك أنت يا ستيبان نيكولايتش فى العدد المناسب من الأفدنة ؟

(١) « الأرتل » نوع من الارتباط بين العمال على أساس المشاركة فى الأرباح وفى المسئولية .

ولكن جوباريوف كان يتمتم مستغرقاً فى تفكيره ، وهو ينظر إلى المنضدة ويقرض خصلة من لحيته :

– مم ... وكوميون القرية ! الكوميون [١] ! فاهم ؟ إنها كلمة عظيمة ! ثم ما معنى هذه الحرائق ... وهذه ... هذه الإجراءات الحكومية ضد المدارس الليلية ، ودور المطالعة، والصحف ؟ ولم رفض الفلاحون أن يوقعوا على الوثائق التى تثبت استقلالهم عن سادتهم الأقدمين ؟ ولماذا يجرى ما يجرى فى بولندا ؟ ألا ترى أن .. مم .. أننا .. أننا يجب أن نتصل بالشعب .. وأن نتعرف .. نتعرف آراءه ..

وكأنما تملك جوباريوف فجأة انفعال عنيف يوشك أن يكون حقداً وغضباً فاكفهر وجهه ، وثقلت أنفاسه ، ولكنه مع ذلك لم يرفع عينيه بل ظل يقرض لحيته :

– ألا ترى . ،

وفجأة انفجرت مدام زوها نتشيكوف صائحة بصوت مزعج :

– أن يفسيف نذل !

وكان بمبايف يروى لها شيئاً بصوت خفض منه احترام مضيفهم فدار جوباريوف على عقبيه مسرعاً ، وعاد يطلّع فى أرجاء الحجرة .

وظل الضيوف يتوافدون . فلما تقدم الليل كان كثير من الناس مجتمعين ، وكان من بينهم السيد يفسيف الذى سبته مدام زوها نتشيكوف بذلك اللفظ القاسى ، وقد حادثته فى شوق وترحاب وسألته أن يرافقها إلى منزلها . كما حضر شخص يدعى بشتشالكن ، وهو قاضى تحكيم [٢] ممتاز ، من أولئك الرجال الذين قد تكون روسيا أحوج إليهم من غيرهم : فهو ضيق الأفق ، محدود الثقافة ضئيل المواهب ، إلا أنه دقيق صبور أمين ، يكاد الفلاحون فى أقليمه يعبدونه ، وهو يحترم نفسه لأنه جدير حقاً بالاحترام . وكان هناك أيضاً ضباط قليلون ، فروا بإجازات قصيرة إلى أوربا ، وراحوا يستمتعون – فى حذر ودون أن تفارق أدمغتهم صورة قائدهم – بمعابثة أهل الفكر الذين لا يخلون من خطر ، وطالبان من هيدلبرج مفرطا النحافة ، دخلا مسرعين ، وكان أحدهما ينظر إلى من حوله باحتقار شديد والآخر يضحك ضحكات عصبية ،

(١) نظام القرية الروسية فى العهد القيصرى . وهو أشبه بالنظام القبلى ، اذ كان أساسه التعاون الوثيق بين أهل القرية فى إحراز المنافع ورفع المضار ، وكانت الأرض ، أو قسم كبير منها ، وهو الذى يترك للمراعى والغابات ، ملكاً مشاعاً بين أهل القرية .

(٢) «قاضى التحكيم » وظيفة أنشئت فى فترة تحرير الرقيق ، ومهمته التوسط بين النبلاء والفلاحين .

وكانا كلاهما شديدى الارتباك . وانحشر بعدهما فرنسى ممن يسمونهم Petit jeun homme مخلوق صغير حقير غبى كريه .. يحظى ببعض الشهرة بين زملائه من سماسرة دور السياحة لزعمهم أن الكونتات الروسيات يذبن فى هواه ، والحقيقة أن همه الأكبر هو الحصول على عشاء مجانى . وكان آخر من ظهر هو تت بنداسوف ، وهو رجل له مظهر طالب ألمانى ماجن ، أما فى الحقيقة فهو بلطجى محتال ، صديق لزوجات التجار الروس ولبنات الهوى الباريسيات . أصلع ، أدرد ، سكير . جاء أحمر الوجه مخموراً ، وجعل يؤكد لكل من رآه أن ذلك الوغد بنازت « قشطه » من كل ما معه، والحقيقة أنه ربح ستة عشر جلداً .. كان هناك - باختصار عدد كبير من الناس . وكان عجيباً حقاً ذلك الاحترام الذى يبدونه جميعاً لجوباريوف كأنه مرشد أو زعيم . كانوا يعرضون عليه أفكارهم ، ويخضعونها لحكمه ، فيجيب بالتمتمة ، ونتف لحيته ، وتحويل عينيه ، أو بكلمات جوفاء متقطعة تتلقف كأنها نطق حكمة سامية . وقلما كان جوباريوف نفسه يشترك فى المناقشة ، ولكن الآخرين كانوا يكدون صدورهم ليعوضوا ذلك . وقد حدث غير مرة أن اشترك ثلاثة أو أربعة فى الصياح . وكانوا كلهم راضين ، وكانوا كلهم مفهومين . واستمر الحديث حتى كاد الليل ينتصف ، وامتاز- كالعادة - بتعدد الموضوعات المطروقة وتنوعها . فتحدثت مدام زوها نتشيكوف عن غار يبالدى ، وعن شخص يدعى كارل ايفانوفتش جلده عبيد داره ، وعن نابليون الثالث ، وعن اشتغال النساء بالأعمال ، وعن تاجر يدعى بلسكاتشوف تسبب عامداً فى موت اثنتى عشرة عاملة ونال جزاء ذلك وساما نقش عليه « لأعماله الجليلة » . كما تحدثت عن البروليتاريا ، وعن الأمير الجرجانى تشكتشيولدزوف الذى قتل زوجته بمدفع ، وعن مستقبل روسيا . وتحدث بشتشالكن أيضاً عن مستقبل روسيا ، وعن احتكار الخمور ، وعن معنى القوميات ، وعن كراهته لكل حديث معاد . ثم كان انفجار مفاجىء من فوروشيلوف ، فذكر فى نفس واحد - وكاد يختنق من إسرافه على رئتيه - أسماء درابر ، وفرتشو ، وشلجونوف ، وبيتشات ، وهلمهولتز ، وشتار ، وسنت رايموند ، وجوهان ميلر الفسيولوچى ، وجوهان ملر المؤرخ - وكان واضحاً أنه يخلط بينهما - وتين ، ورينان ، وشتشابوف ثم توماس ناش ، وبيل ، وجرين .. فتمتم بمبايف حائراً : « من هؤلاء يا ترى ؟ » فأجابه فوروشيلوف منتهراً : « أنهم أسلاف شكسبير ، وهو بينهم كالجبل الأبيض بين سلاسل الألب . » وواصل الحديث عن مستقبل روسيا . وتحدث بمبايف أيضاً عن مستقبل روسيا ، وأضفى عليه ألواناً زاهية ، وابتهج بخاصة عندما ذكر الموسيقى الروسية ، فقد كان يراها « آه ! رائعة حقاً ! » ولكى يؤيد ذلك

جعل يترنم بأغنية لفارلاموف ، ولكنه قوطع بصيحة إجماعية : « إنه يغنى الميزيريرى ، من التروفاتورى ، وغناؤه يصك الأسماع . » وبين هذه الضجة كان ضابط صغير يذم الأدب الروسى ، وآخر ينشد قصيدة من « اسكرا » [1] ، وتطرف بنداسوف فأعلن أن هؤلاء المخادعين جميعاً يجب أن تهشم أسنانهم ، وهذا كل ما هنالك .. ولكنه لم يعين من هم المخادعون الذين يعينهم . وأصبح دخان السجائر خانقاً ، وأحس الجميع الحر والإعياء ، وبحت الأصوات ، وغامت العيون ، ولمعت قطرات العرق على كل وجه ، وأحضرت زجاجات الجعة فأفرغت فى الحال ، وسأل أحدهم : ماذا كنت أقول ؟ وسأل آخر : من كنت أناقش وفيم كنت أناقش ؟ وبين الضوضاء والدخان كان جوباريوف يسير كدأبه بلا ونى ، وهو يترجح من ناحية إلى ناحية ، ويجذب لحيته ، ومرة يصغى إلى مناقشة ، ومرة يلقى بكلمة ، وكل إنسان لا يملك إلا أن يشعر أنه هو - جوباريوف - مصدر هذا كله ، وأنه سيد المكان وأبرز الحاضرين ..

وكان لتفينوف قد بدأ حول الساعة العاشرة يحس بدوار فظيع . فانسل خارجاً دون أن يشعر به أحد ، منتهزاً فرصة احتدام عام حين تذكرت مدام زوها نتشيكوف مثلاً جديداً على ظلم الأمير بارنولوف . إذ كاد يأمر بقرض أذنى أحد الناس .

وغمر هواء الليل النقى وجه لتفينوف المحرور ، ورطبت أنفاس النسيم العطر شفتيه الجافتين ، ففكر وهو يقطع الشارع المظلم : « ما هذا الذى كنت أشهد ؟ فيم كان اجتماعهم ؟ وفيم كان صياحهم وضجيجهم ؟ فيما كل هذا ؟ » وهز لتفينوف كتفيه وعرج على قهوة فيبر فتناول صحيفة وطلب مثلجة . فكانت الصحيفة مشحونة بالحديث عن المسألة الإيطالية كما كانت المثلجة كريهة المذاق . وكان يهم بالعودة إلى فندقه عندما اقترب منه فجأة شخص مجهول يلبس قبعة عريضة ، وجلس إلى منضدته قائلاً بالروسية : « لعلى لا أزعجك » . وأطال لتفينوف النظر إلى ذلك الغريب قبل أن يعرف أنه السيد الضخم الذى كان متواريا فى ركن عند جوباريوف ، والذى حدق فيه بانتباه بالغ عندما دار الحديث حول الآراء السياسية . أن ذلك السيد لم يفتح فاه قط طيلة المساء .. وها هو ذا قد جلس على مقربة من لتفينوف ، وخلع قبعته وهو ينظر إليه متودداً فى شىء من الارتباك .

(١) « الشرارة » مجلة ثورية .

- ٥ -

بدأ ذلك الغريب حديثة قائلاً :

- إن السيد جوباريوف الذى تشرفت بمقابلتك فى داره اليوم لم يعن بتعريفك بى. فاسمح لى أن أعرفك بنفسى . أنا أدعى بوتوجين ، وكنت موظفاً فى وزارة المالية بسنت بطرسبرج . أرجو ألا تدهش .. فليس من عادتى أن أصادق الناس بهذه السرعة .. ولكن معك ...

وهنا انعقد لسانه ، فسأل النادل أن يحضر له كأساً صغيرة من « الكرشفاسر » وأضاف مبتسماً : « لكى أتشجع » .

ونظر لتفينوف فى اهتمام مضاعف إلى آخر من قسم له أن يعرفهم فى يومه ذاك من الغرباء . وكان أول ما خطر بباله : « أنه لا يشبه الآخرين » .

إنه لا يشبههم ما فى ذلك ريب . فقد كان هذا الجالس أمامه ينقر على حافة المنضدة بأصابع ناعمة ، رجلاً عريض المنكبين ، ممتلىء الجذع ، قصير الساقين ، منحنى الرأس ، جعد الشعر مشعثه ، له عينان واعيتان حزينتان يظللهما حاجبان كثيفان، وفم غليظ حسن القطع متراكب الثنايا ، وأنف من تلك الأنوف الروسية الصميمة التى يشبهونها بالبطاطس . رجلاً يبدو فى مسلكه عسر ونبو عن المألوف ، وأقل ما يقال فيه أنه لم يكن من طراز عادى بين الناس . وكان هندامه مهملاً ، فسترته العتيقة الطراز معلقة عليه كالزكيبة، ورباط رقبته ملفوت . ولم يضق لتفينوف بإقدامه المفاجىء ولم يحسبه تطفلاً ، بل أحس له شيئاً من الزهو الخفى ، فقد كان من الجلى أن ذلك الرجل لم يألف التقرب إلى الغرباء . وقد أثر فى لتفينوف تأثيراً عجيباً ، وأثار فيه حباً واحتراماً وعطفاً صادقاً .

كرر فى صوت رقيق فيه شىء من الخدر والضعف ، صوت كان متسقًا اتساقاً غريباً مع شخصيته كلها :

- إذن فأنا لا أضايقك ؟

فأجابه لتفينوف :

- البتة . بل إننى جد سعيد .

– حقاً ؟ إذن فأنا سعيد أيضاً . لقد سمعت عنك الكثير ، وعرفت أعمالك ومشروعاتك . إنه لخير ما عزمت عليه ، فلا عجب أن بقيت الليلة صامتاً .

فأجابها لتفينوف :

– نعم . وأراك أيضاً لم تتكلم إلا قليلاً .

فتنهد بوتوجين :

– لقد قال الآخرون ما يكفى وزيادة . كنت أستمع لهم .

ثم عقب بعد لحظة وهو يرفع حاجبيه ممازحاً :

– هل أعجبك برج بابل الذى كنا فيه !

– برج بابل ! لقد أحسنت التعبير . طالما وددت أن أسأل أولئك السادة لماذا يثيرون كل هذه الضجة .

فتنهد بوتوجين مرة أخرى :

– الحق أنهم هم أنفسهم لا يعلمون . وقد كان يقال عن أمثالهم قديماً : « إنهم آلات مسخرة بين يدى قوة قاهرة » ، ولكن لدينا الآن أوصافاً أكثر وضوحاً . ولا أقول ذلك رغبة فى انتقادهم ، بل إنى لأغلو فأقول أنهم كلهم من خيار الناس . فمدام زوها نتشيكوف – مثلاً – أعلم عنها خيراً كثيراً ، فقد منحت آخر ما تبقى من ثروتها لقريبتين فقيرتين . حتى أن قلنا أنها لم تخل من تأثير التظاهر والرغبة فى الظفر بإعجاب الناس فقد كان عملها على أى حال تضحية رائعة من امرأة ليست فى نعمة كبيرة ! وناهيك بالسيد بشتشالكن ! فسيأتى يوم يقدم إليه فيه فلاحو إقليمه كأساً من الفضة على شكل القرعة ، أو أيقونة لقديسه الراعى ، وسيقول لهم فى خطبة الشكر أنه لا يستحق هذا الشرف ، ولكنه لن يكون صادقاً فى ذلك ، فإنه يستحقه ولا ريب . وصديقك السيد بمبايف قلب من ذهب ، وإن كان أمره كأمر الشاعر يازيكوف الذى ذكروا أنه كان يتغنى بمديح باخوس وهو جالس إلى كتاب يرشف الماء ! .. فحماسته ليس لها هدف محدود ، ولكنها حماسة على كل حال . والسيد فوروشيلوف من أطيب خلق الله نفساً ، وهو كسائر انداده من أصحاب « لوحة الشرف » يعد نفسه « أركان حرب » للعلم والحضارة ، وهو كثير الجعجعة ، ولكنه صغير السن كما ترى . نعم نعم ، إنهم جميعاً من خيار الناس ، ولكنك إذا حققت النتائج لم تخرج بشىء . المواد كلها من الطراز الأول أما الطبخة فكريهة المذاق !

أصغى لتفينوف إلى بوتوجين ملياً . وكان حديثه المطمئن الواثق ينبىء بأنه ممن يحسنون الكلام ويلنونه . أجل . إن بوتوجين كان يحب الكلام ويحسنه . ولكنه كان رجلاً ذهبت بخيلائه تجاريب الحياة . فهو ينتظر فى هدوء فلسفى حتى تسنح له فرصة اللقاء مع روح يوافق روحه .

تابع حديثه بنبرته الحزينة التى لا تشوبها مرارة :

– أجل ، إن هذا كله جد غريب . وأمر آخر أود أن تلاحظه : إذا اجتمع عشرة من الإنجليز مثلاً فإنهم سرعان ما يتحدثون عن التلغراف البحرى ، أو عن ضريبة الورق ، أو عن طريقة لدبغ جلود الفيران – أى عن شىء واقعى محدد . وإذا اجتمع عشرة من الألمان فثمة الحديث عن شلزفج هولشتين ووحدة ألمانيا . فإذا اجتمع عشرة من الفرنسيين فالحديث دائر – مهما تحاول أن تغير مجراه – حول أحاديث الغرام . أما إذا اجتمع عشرة من الروس فسرعان ما يتناقسون – كما رأيت هذا المساء – فى عظمة روسيا ومستقبلها فيتحدثون بعبارات غامضة كل الغموض ، بادئين مع بدء الخليقة ، غير مستندين إلى حقائق ولا منتهين إلى نتائج . بل إنهم يبدئون ويعيدون فى ذلك الحديث الممجوج كما يلوك الأطفال قطعة من المطاط لا تسمن ولا تغنى من جوع. ثم يأتى موضوع الغرب المتعفن لينال نصيبه . وعجيب أمر هذا الغرب ! فنحن نعلن أنه متعفن مع أنه يفوقنا فى كل شىء . وياليتنا نحتقره حقاً ! ولكن الأمر لا يعدو الدجل والتهويش . ومهما نذم فإننا لا نقدر سوى رأى الغرب ، أعنى رأى صعاليك باريس .. أعرف رجلاً من الفضلاء – رب أسرة جاوز طور الشباب – لازمه الحزن عدة أيام لأنه صاح فى مطعم فرنسى يطلب une portion de biftex aux pommes de terre ثم إذا برجل فرنسى أصيل ينادى : garçon, biftex pommes فمنذ ذلك الحين أخذ ينادى فى كل مكان bifetx pommes وعلم رفاقه أن ينادوا مثله . بل أن بنات الهوى ليعجبن لتلك الرهبة التى تغشى شبابنا الأجلاف حين يدخلون مخادعهن المنكودة ، وكأنهم يقولون لأنفسهم :

« يالله ! أحقاً إنى هنا مع أنا ديليون نفسها ! » .

فسأله لتفينوف :

– وإلى أى شىء تعزو نفوذ جوباريوف الظاهر على كل من حوله ؟ أهى موهبته ؟ أهى ملكاته ؟

– لا لا . لا شىء فيه ما تقول .

– أتراها شخصيته !

– ولا ذلك أيضـاً . إنما هـى قـوة إرادته . قـوة الإرادة سلعـة نادرة عندنا نـحن الصقالبة ، ولهذا نخشع أمامها خشوعاً . إن جوباريوف يريد أن يكون سيداً فيسلم له الجميع بذلك . ماذا تظن ؟ لقد حررتنا الحكومة – وهى مشكورة – من ربقة العبودية ، ولكن عادات العبودية ما زالت متأصلة فى نفوسنا بحيث لا نستطيع أن نتخلص منها . إننا نريد سيداً فى كل شىء وفى كل مكان . وهذا السيد قد يكون شخصاً حياً وقد يـكون «اتجاهاً» يسيطر علينا .. فنحن فى هذه الأيام مثلاً عبيد أرقاء للعلوم الطبيعية . أما لماذا نقبل على أنفسنا هذا النوع من الرق فأمر لا يسهل فـهمه ، ولكنه يبدو أنه بعض طبيعتنا . وأهم شىء على كل حال هو أن يكون لنا سيد . فإذا كان بيننا هذا السيد فمعنى ذلك أنه لنا، ولا علينا بعد ذلك من شىء ! عبيد ! وكبرياؤنا كبرياء العبيد، وخضوعنا خضوع العبيد .. فإذا ظهر سيد جديد فقد انتهى أمر السيد القديم . كان زيداً ثم أصبح عمراً ، فنحن نلكم زيداً ونسجد لعمرو ! تذكر كم مرة لعبت فينا هذه اللعبة ! ونحن نزعم أن الشرك هو خصيصتنا الأصلية ، ولكننا حتى عندما نشك لا نكون كمحارب يقاتل بسيفه بل كخادم يضرب بقبضته ، ولعله إنما يفعل ذلك طاعة لأمر سيده . ثم أننا شعب لين العريكة ، وليس من العسير أن نبقى ملجمين . وهكذا أصبح السيد جوباريوف قوة بيننا . لقد ظل يدق فى موضع واحد حتى نفذ منه . الناس يرون رجلاً معتداً بشخصيته ، يؤمن بنفسه ويلقى الأوامر – وهذا أهم ما فى الأمر ، إنه يلقى الأوامر ! – فلابد إذن أن يكون على صواب ، ولابد أن نطيعه . هكذا نشأت الفرق الدينية عندنا ، الأونفريون والاكولينيون وغيرهم . من أمسك العصا فهو القائد .

كان بوتوجين غائم العينين ، مشتعل الوجنتين ، ولكن العجيب أن حديثه على قسوته وعنفه لم يكن فيه شىء من المرارة ، بل كان يشف عن حزن صادق عميق .

سأله لتفينوف :

– كيف عرفت جوباريوف ؟

– عرفته منذ زمن طويل .. إليك خاصة أخرى من خصائصنا : الكاتب الذى أمضى حياته كلها يحارب المسكرات بالشعر والنثر ، ويهاجم شركات الخمور بحرارة وعنف ، هذا الكاتب لا جناح عليه أن اشترى معملين للتقطير وافتتح مائة حانة ! ولو فعلها رجل غيره لمحى من وجه الأرض ، أما هذا فلا يلومه ولا يعتب عليه أحد ! وكذلك السيد جوباريوف فهو سلافوفيل وديموقراطى واشتراكى وما شئت فسمه ، ولكنه كان

- وما زال - يكل إدارة ممتلكاته لأخيه ، وهو سيد من طراز السادة الأقدمين الذين يلقبون « بالجلادين » . ومع ذلك فمدام زوها نتشيكوف تعفر رأسها في التراب عند قدمي جوباريوف ، وهي التي طربت لأن مسز بيتشر ستو صفعت تنتليف على خده ! وما ذاك إلا لأن جوباريوف يوهم الناس أنه يقرأ كتباً قيمة ! هذا كل ما له من فضل ! لقد رأيت بعينيك اليوم مبلغ قدرته على التعبير والحمد لله على قلة كلامه وانطوائه على نفسه . فهو حين يتبسط وينطلق لا يطيقه أحد ولو كان صبوراً مثلي . إنه يسترسل في النكات الغليظة والنوادر البذيئة .. أجل ، إن السيد جوباريوف المبجل يروي نوادر مكشوفة ويقهقه قهقهة صاخبة وهو يرويها .

قال لتفينوف :

- أصبور أنت ! لقد كان يخيل إليّ عكس ذلك . ولكن اسمح لي أن أسألك عن اسمك .

فرشف بوتوجين قليلاً من الكرشفاسر .

- اسمي سوزونت .. سوزونت إيفانتش . وقد سموني بهذا الاسم تيمناً بقريب لي أرشمندريت [1] لا أدين له بغيره . وأنا من بيت دين إن جاز لي أن أقول هذا . أما شكك في صبري فلا أساس له . فأنا جد صبور . وقد خدمت الدولة اثنتين وعشرين سنة . وكنت مرءوساً لعمي . وهو الآن مستشار . واسمه أيرينار بوتوجين. هل تعرفه ؟

- لا .

- إذن أهنئك . أجل . إنني صبور . ولنعد إلى الأصل - كما كان يقول منذ بضعة قرون زميلي المطران يواقيم[2] الذي أحرق في عهد القيصر تيودور . إنني أعجب يا سيدي لأبناء وطني . فكلهم شديدو الكآبة يمشون ناكسي الرءوس . وهم مع ذلك مفعمون بالأمل . فما أسرع ما تطيش عقولهم وإذا هم ينتفضون حماسة ! انظر إلى السلافوفيل الذين يعد جوباريوف نفس واحداً منهم . إنهم من خيار الناس . ولكن فيهم هذا المزاج نفسه من اليأس والاندفاع . ولهذا تراهم يعيشون في الزمن المستقبل . كل شيء سوف يكون . وإياك أن تنسى أنه سوف يكون ! أما عن الحاضر فإننا لم نعمل

(١) الارشمندريت في الكنيسة الروسية شيخ دير أو مجموعة من الأديرة . وقد اضطهدوا اضطهاداً عظيماً ، ونفي كثيرون منهم إلى سيبيريا ، واشتهروا بجدهم وتقواهم وتقشفهم .

(٢) شيخ « السلفيين » Raskolnik في القرن السابع عشر ، وكانوا فرقة رفضت الإصلاحات الدينية التي أدخلها بطرك الكنيسة الروسية نيكون (١٦٠٥ - ١٦٨١) .

شيئاً . ولم تخلق روسيا شيئاً من إنتاجها الشخصى ، لا فى السياسة ولا فى القانون، ولا فى الفن . بل ولا فى الصناعة اليدوية ! .. ولكن مهلاً مهلاً . والصبر الصبر . فكل شىء سوف يكون . ولماذا ! اسمحوا لى أن أسألكم هذا السؤال !

عجباً ! لأننا نحن المثقفين لا خير فينا . أما الشعب .. آه ! الشعب العظيم . أرأيت إلى قميص هذا الفلاح ؟ إنه المنبع الذى سيصدر عنه كل شىء . لقد تحطمت كل الأصنام الأخرى ، فعلينا أن نؤمن بالقميص . حسناً ! فماذا إذا أخلف القميص ظننا .. ! كلا ، إنه لن يخلف الظن . اقرأ مدام كوهانوفسكا وارفع عينيك إلى السماء ! حقاً لو كنت رساماً لرسمت صورة كهذه : رجل مثقف راكع أمام فلاح وهو يقول له : اشفنى يا سيدى الفلاح ، فإن المرض يفتك بى ، وفلاح راكع بدوره أمام الرجل المثقف وهو يقول له : علمنى يا سيدى الشريف ، فإن الجهل يفتك بى .. كلاهما باق – طبعاً – حيث هو . إن واجبنا هو أن نستشعر شيئاً من التواضع – فعلاً لا قولاً – وأن نستعير من أخوتنا الكبار ما ابتكروه قبلنا وأتقنوه أكثر منا ! Kollner, noch ein glaschen kirsch [1] لا تظن أنى سكير ، ولكن الخمر تطلق لسانى .

فقال لتفينوف مبتسماً :

– لا حاجة بى – بعد ما قلته لى الآن – إلى سؤال عن الفريق الذى تنتمى إليه ، ولا عن رأيك فى أوربا . ولكن دعنى أوجه إليك ملاحظة واحدة تقول : إننا يجب أن نستعير من أخوتنا الكبار . ولكن كيف نستطيع أن نستعير بغير أن نراعى ظروف المناخ والأرض ، وخصائص البيئة والأمة ؟ أذكر أن أبى اشترى من « بوتنوب » مكنة للدراس من الحديد الصب – مكنة مشهورة وممتازة فى الحقيقة . أتدرى ما الذى حدث؟ لقد بقيت فى الجرن خمس سنوات طوالاً بلا فائدة حتى استبدلت بها أخرى أمريكية مصنوعة من الخشب ، وأقرب إلى أساليبنا وعاداتنا كأكثر المكنات الأمريكية . لا فائدة من أن نستعير دون تدبر ياسوزونت ايفانتش .

فرفع بوتوجين رأسه ، وبقى لحظة صامتاً ، ثم قال :

– لم أكن أتوقع مثل هذا النقد منك يا عزيزى جريجورى ميهالوفتش . ما الذى يدعوك أن تستعير شيئاً ما بدون تدبر ؟ أنت تأخذ ما ليس لك لا لأنه ملك لغيرك ، بل لأنه يناسبك . وإذن فأنت تراعى وتختار . أما عن النتائج فلا نظلمن أنفسنا ، فسوف يكون لها حظ كاف من الأصالة بفضل تلك الظروف والبيئة المناخية وغيرها مما

(١) « جرسون ! كأساً أخرى من الكرش ! » .

ذكرته أنت . ما عليك إلا أن تضع أمام المعدة الطبيعية غذاءً طيباً فتهضمه بطريقتها الخاصة ، وعندما يمر الزمن ويزداد الكيان قوة يمنحه من عنده لوناً جديداً . خذ لغتنا نفسها مثلاً . لقد غمرها بطرس الأكبر بسيل من آلاف الكلمات الأجنبية ، من هولندية، وفرنسية ، وألمانية ، وكانت تلك الكلمات تدل على أفكار يجب أن يألفها الشعب الروسى، فصبها بطرس علينا بلا تردد ولا تلطف . وكا النتاج الأول بالطبع نتاجاً هجيناً مختلطاً . ثم بدأت عملية الهضم التى أشرت إليها . لقد ثبتت الأفكار وهضمت ، فتبخرت الصيغ الأجنبية بالتدريج ، ووجدت اللغة فى نفسها ما يغنى عن هذه الصيغ . والآن يستطيع أى كاتب عادى أن يترجم لك أية صفحة تريد من هيجل - أجل ، من هيجل نفسه ! - دون أن يستعين بكلمة واحدة غير صقلبية . وما حدث فى اللغة يجب أن نأمل حدوثه فى النواحى الأخرى : فمرد الأمر كله إلى سؤال واحد : ألنا طبيعة ذات حيوية قوية ؟ .. حسناً ، إننى أقول إن طبيعتنا .. حسناً ، إنها سوف تثبت للتجربة ، فقد اجتازت محناً أعظم من هذه . إنما تخشى على سلامتها واستقلالها الأمم الضعيفة المنحلة ، وإنما يتباهى « بالأصالة الروسية » ضعفاء العقول منا . فقد يكون المرء معنياً كل العناية بصحته ولكن ذلك لا يحمله على أن يتحمس فى الحديث عنها ، ولو فعل ذلك لحق له أن يخجل من نفسه .

- هذا كله صواب محض ياسوزونت ايفانتش . ولكن لماذا لا نعفى أنفسنا من التعرض لمثل هذه التجارب ! أنت نفسك تقول أن النتاج الأول كان هجيناً مختلطاً ! فماذا لو بقى ذلك النتاج الهجين ! لقد بقى بالفعل كما تعلم أنت نفسك .

- ولكنه لم يبق فى اللغة - وليس هذا بالشىء القليل ! ثم إن الشعب هو الذى استبقاه لا أنا ، فلست ملوماً إذا كان مقدوراً على هذا الشعب أن يتبع مثل هذا النظام . يصيح السلافوفيل : « لقد تطور الألمان تطوراً عادياً ! » ولكن أنى لنا ذلك إذا كانت أول خطوة خطاها جنسنا - أعنى استدعاء أمير من وراء البحار ليحكمهم - خطوة شاذة غير عادية ، لا تزال تتكرر إلى اليوم فى كل امرىء منا ! كل منا بلا ريب قد قال لشىء أجنبى - ولو مرة واحدة فى حياته - « تعال ، احكمنى وسدنى ! » أنا بالطبع على استعداد لأن أسلم لك بأننا حين نضع مادة أجنبية فى جسمنا لا نستطيع أن نحكم حكم اليقين أى مادة تلك التى نضعها فيه ، أدسم أم سم . ولكن من المعروف أن الانتقال من السيىء إلى الحسن لا يكون بشىء أحسن نسبياً ، بل بشىء أسوأ . والسم نفسه ينفع فى الطب . لا يجدر بغير البله أو اللئام أن يحتجوا بفقر الفلاحين بعد التحرير ، أو بانتشار السكر منذ إلغاء احتكار الخمور ، فالقاعدة دائماً : من الأسوأ إلى الأحسن ..

مرر بوتوجين يده على وجهه ، واستطرد قائلاً :

– سألتنى عن رأيى فى أوربا . وأقول لك : إنى معجب بها ، ومناصر لمبادئها إلى أبعد حد ، ولا أرى حاجة إلى إخفاء هذه الحقيقة . لقد تعلمت من زمن طويل – لا ، ليس من زمن طويل – لقد تعلمت من زمن ألا أهاب التعبير عن معتقداتى بجلاء . وقد رأيتك أنت أيضاً لا تتردد فى اطلاع جوباريوف على طريقتك الخاصة فى التفكير . إننى أحمد الله على أنى لم أعد أعبأ بآراء الرجل الذى أحادثه ولا بوجهات نظره ولا بعاداته . والحق أنى لا أعلم شيئاً أقبح من هذا الجبن الذى لا داعى له – هذه الرغبة فى الإرضاء التى تنبعث عن الملق ، وتجعلك ترى أحياناً رجلاً من ذوى الشأن بيننا يحاول أن يتحبب إلى طالب صغير ليس بشىء فى عينيه ، فيهبط معه إلى نوع من العبث الفكرى ، ويلجأ إلى الخداع والحيلة . هب أن ذوى الشأن قد يلجئون إلى ذلك رغبة فى الشهرة ، ولكن مال الذى يجبرنا نحن العاديين من الناس على أن نتزحزح عن آرائنا ، ونتنزل عن كرامتنا ؟ أجل ، أجل ، إننى غربى أدين بالولاء لأوربا . ومعنى ذلك – إذا شئت التحديد – أنى أدين بالولاء للحضارة . تلك الحضارة التى يهزأ بها أصحابنا الآن هزءاً شنيعاً . معنى ذلك أنى أدين بالولاء للمدنية . أجل ، للمدنية ، فهذه كلمة أفضل . وأنى أحبها وأومن بها من صميم قلبى ، وأنى لا أومن ولن أومن بشىء سواها . هذه الكلمة « المدنية » (ونطق بوتوجين بكل مقطع فى جزم وتأكيد) كلمة واضحة نقية مقدسة ، وكل ما عداها من المثل كالقومية والمجد وما إليهما – كل هذه المثل تنبعث منها رائحة الدم .. سحقاً لتلك المثل !

– هذا حسن . ولكن ألا تحب روسيا – وطنك – ياسوزونت ايفانتش !

فمرر بوتوجين يده على وجهه قائلاً :

– إننى أحبها حباً عنيفاً وأكرهها كرهاً عنيفاً .

فهز لتفينوف كتفيه مردداً :

– هذه عبارة قديمة يا سوزونت إيفانتش . هذه عبارة مبتذلة .

– وأى شىء فى ذلك ؟ أتراه يخيفك ؟ عبارة مبتذلة ! إننى أعرف كثيراً من العبارات المبتذلة الرائعة . « النظام والحرية » مثلاً . هذه عبارة مبتذلة جد معروفة ، فهل تظن أننا لسنا بحاجة إليها مع ما نحن فيه من تحلل من القوانين ، ومن استبداد بيروقراطى ؟ ألا تجد أن كل العبارات تدير رءوساً كثيرة شابة ، من مثل « البورجوازية

العفنة » و « سيادة الشعب » و « حق العمل » - ألا تجد أن هذه العبارات أيضاً عبارات مبتذلة ؟ أما الحب الذى لا يمكن أن ينفصل عن الكره ...

فقاطعه لتفينوف قائلاً :

- بيرولزم .. رومانتيكية العقد الرابع .

- معذرة إذا قلت أنك مخطىء . إن مثل هذه الانفعالات المختلطة قد سبق إلى الإشارة إليها كاتلس - الشاعر الرومانى كاتلس - منذ ألفى سنة . وقد قرأت ما كتبه فى ذلك ، فإنى أعرف شيئاً من اللاتينية بفضل دراستى الدينية . أجل ، إننى أحب روسيا وأكرهها فى وقت واحد . روسيا ، بلادى الغريبة الحلوة الكريهة العزيزة ! لقد غادرتها منذ قليل لأنى بحاجة إلى شىء من الهواء النقى بعد أن جلست عشرين عاماً على كرسى كاتب فى إدارة حكومية . لقد غادرت روسيا وإنى لأحمد المقام هنا ، ولكننى أشعر أنى سأعود إليها عما قريب . هذه الأرض طيبة للحدائق ، ولكنها لا تصلح لثمارنا البرية .

قال لتفينوف :

- أنت تحمد المقام ، وأنا أيضاً أحب هذه البلاد ، وقد جئت إليها لأتعلم ، ولكن ذلك لا يمنعنى أن أرى مثل هذه الأشياء ...

وأشار إلى فتاتين من بائعات الهوى تسيران وقد أحاطت بهما ثلة من أعضاء نادى الفروسية وهم يحاولون أن يتكلموا الفرنسية بلهجة باريس ، وإلى بهو القمار وقد غص بالناس على الرغم من تقدم الليل .

فقاطعه بوتوجين قائلاً :

- وما أدراك أنى لا أرى هذه الأشياء ؟ معذرة إذا قلت لك أن ملاحظتك تذكرنى بتهليل صحفيينا المساكين أثناء حرب القرم كلما وصفت جريدة التيمس سيئة من سيئات مجلس الحرب الإنجليزى . أنا نفسى لست متفائلاً . أن البشرية كلها ، وحياتنا كلها ، وهذه المهزلة كلها بخواتيمها المحزنة ، لا تبدو أمام ناظرى فى ألوان وردية . ولكن لماذا نلصق بالغرب ما لعله أن يكون متأصلاً فى طبيعتنا البشرية نفسها ؟ إن كان بهو القمار هذا يقذى العين فهل تراك تجد مقامرينا الوطنيين أحسن منظراً ؟ لا يا عزيزى جريجورى ميهالوفتش . يجب علينا أن نتواضع قليلاً ، ونتراجع قليلاً . إن التلميذ النجيب يرى أخطاء أستاذه ولكنه يلزم الصمت إزاءها لأنه يحترم هذا الأستاذ.

وهذه الأخطاء نفسها تنفعه وترشده إلى الطريق السوى . إما إن أبيت إلا أن تسلق الغرب بلسانك ، فهذا هو الأمير كوكو يعدو إلى بهو القمار عدواً ، ولعله سيخسر على المائدة الخضراء فى ربع ساعة الإيجار الذى انتزع من مائة وخمسين أسرة شقيت فى كسبه . إن أعصابه ثائرة ، فقد رأيته اليوم فى قهوة ماركس يتصفح رسالة لفايو (١) ... ستجده خير مخلوق تتحدث معه !

فأسرع لتفينوف يقول حين رأى بوتوجين ينهض من مكانه :

– لا لا . معذرة . أنا لا أكاد أعرف الأمير كوكو . ثم إنى أفضل أن أتحدث معك.

فقاطعه بوتوجين وهو ينهض وينحنى :

– أشكرك كثيراً . ولكننا تحدثنا طويلاً ، أعنى إننى تحدثت وحدى فى الحقيقة . ولعلك لاحظت من قبل أن المرء يعتريه دائماً شبه خجل وارتباك حين يجد أنه تكلم وحده، وخصوصاً إذا كان ذلك فى مقابلة أولى ، فكأنه يريد أن يظهر براعته لصاحبه . إلى لقاء قريب . وأكرر لك أنى سعيد جداً بمعرفتك .

– لحظة واحدة يا سوزونت إيفانتش . أخبرنى على الأقل أين تسكن ، وهل تنوى أن تبقى كثيراً ؟

فبدا على بوتوجين شىء من الارتباك :

– سأبقى نحو أسبوع فى بادن . نستطيع أن نلتقى هنا على كل حال . فى قهوة فيبر أو فى قهوة ماركس . وقد أزورك .

– أريد عنوانك على كل حال .

– إننى أعيش وحيداً .

فسأله لتفينوف بغتة :

– أمتزوج أنت ؟

– لا . معاذ الله من ذلك ! ولكن معى بنتاً ...

– آه !

(١) ليرى فايو (١٨١٣ – ١٨٨٣) كاتب وصحفى فرنسى ، عرف بتعصبه الشديد للكاثوليكية وعدائه العنيف لكل ألوان التفكير الحر .

وكان فى نبرة لتفينوف معنى الاعتذار ، وفى ملامحه تأدب مقصود ، فمضى بوتوجين يقول :

- إن عمرها لا يتجاوز ست سنوات . إنها يتيمة ... أبنة سيدة ... صديقة حميمة لى . يحسن بنا إذن أن نلتقى هنا . وداعاً .

وكبس قبعته على رأسه الجعد الشعر واختفى سريعاً . ولمح لتفينوف شبحه مرتين تحت فوانيس الطريق المعتم المؤدى إلى طريق لختنتالر .

- ٦ -

– رجل غريب ! يجب أن أبحث عنه !

هذا ما جال بخاطر لتفينوف وهو عائد إلى فندقه . ودخل حجرته فاستوقفت نظره رسالة على المنضدة . فقال فى نفسه : « آه ! تانيا ! » واستخفه الفرح ، ولكن الرسالة كانت من بلده – من أبيه . وفض لتفينوف الخاتم العائلى السميك ، وكاد يبدأ فى قراءة الرسالة عندما نبهه شذا قوى ممتع مألوف لديه ، ورأى فى النافذة طاقة كبيرة من الهليوتروب الغض فى كوب ماء . فانحنى عليها بشىء من الدهشة ، وشمها ... وكأنما نبض فى ذاكرته شىء سحيق البعد ... ولكن أى شىء هو ؟ لم يستطع أن يعرف . فدق الجرس يدعو الخادم ، وسأله من أين جاءت هذه الأزهار . فأجابه الرجل أن سيدة أحضرتها وأبت أن تذكر اسمها ، وقالت : إن « الهرتسليتنهوف » سيعرفها من هذه الأزهار . وعاد ذلك الشىء ينبض فى ذاكرة لتفينوف . وسأل الرجل كيف كان شكل السيدة ، فأخبره أنها كانت فارعة الطول رائعة الملبس تسدل على وجهها نقاباً . وأضاف : « لعلها كونتة روسية » . فسأله لتفينوف :

– لماذا تظن ذلك ؟

فأجابه الخادم باسما عن نواجذه :

– لأنها أعطتنى جلدين .

وصرف لتفينوف الخادم ، وظل واقفاً أمام النافذة وقد غرق فى تفكير عميق ، ثم لوح بيده وانصرف ثانية إلى الخطاب الآتى من الريف . كان أبوه يصب عليه شكاواه المعتادة ، مؤكداً له أن القمح قد بار إذ لم يرض أحد أن يأخذه ولو بغير ثمن ، وأن الناس قد خرجوا تماماً عن حدود الطاعة ، وأن نهاية العالم ربما كانت وشيكة الوقوع. جاء فى رسالته : « أتذكر سائقى الأخير – ذلك الفتى الكالموكى ؟ لقد أصيب بمس من الجنون وأشرف على الموت المحقق ، وكدت أصبح بلا سائق لولا لطف الله . فقد أشار علىَّ بعض أولى الخير أن أرسل الفتى المريض إلى ريازان حيث يقيم قس مشهور ببراعته فى إفساد السحر ، فنجع علاجه على قدر الإمكان . وإليك رسالة الأب الطيب تأييداً لما أقول وتذكاراً لهذا الحادث . » وأجال لتفينوف بصره فى تلك الوثيقة العجيبة فوجد فيها : «أن الخادم نيكافور ديمتريف قد أصابته علة لا ينفع فيها طب ،

وكانت هذه العلة من فعل أناس أشرار ، ولكنه هو نفسه ، أى نيكافور ، كان السبب فيها ، إذ حنث فى وعده فتاة معينة ، فاستعانت بغيرها حتى جعلته لا يصلح لشىء ، ولو لم أظهر أنا لمساعدته فى هذه الحال لقضى عليه بأن يهلك كما تهلك الديدان ، ولكنى بإيمانى العميق بالعين المطلعة على كل شىء كنت سبباً لامتداد أجله . ولست فى حل من البوح بالطريقة التى سلكتها لشفائه ، ولكنى أسأل سعادتكم ألا تعطفوا على هذه الفتاة الماكرة ، بل إنه لا ضرر من انتهارها حتى لا تعود إلى إصابته بأذى».

شرد ذهن لتفينوف فى هذه الوثيقة . فقد حمل إليه نفحة من الصحراء ، من المروج ، من الظلمة العمياء التى تخيم على الحياة المتعفنة هناك . وبدا له غريباً أن يقرأ مثل هذه الرسالة فى بادن دون غيرها من المدن . وكان الليل قد جاوز منتصفه بكثير فأوى إلى فراشه وأطفأ النور . ولكنه لم يستطع نوماً . فقد ظلت الوجوه التى رآها والأحاديث التى سمعها تتوارد عليه وتدور وقد تشابكت واختلطت اختلاطاً غريباً فى رأسه الملتهب المصدع من أدخنة التبغ . فمرة كان يخيل إليه أنه يسمع جوباريوف يهمهم ، ويرى عينيه مثبتتين على أرض الغرفة بتحديقهما البليد العنيد . ثم إذا بهاتين العينين تلمعان وتقفزان وإذا هو يرى وجه مدام زوها نتشيكوف ويسمع صوتها الحاد ، فيردد هامساً دون وعى : « أجل ، أجل ، لقد صفعته على وجهه » ثم يمر أمامه وجه بوتوجين المتنافر الملامح ، ويسترجع للمرة العشرين كل كلمة قالها . ويقفز فوروشيلوف كعفريت العلبة ، فى سترته الأنيقة المحبوكة كأنها حلة عسكرية جديدة . ويومىء بشتشالكن – فى جد ورزانة – برأسه المشذب الذى لا يفكر إلا فى الخير ، ويجأر بنداسوف ويقسم ويبكى بمبايف من شدة الطرب ... وفوق كل شىء هذا العطر ... هذا العطر الملح الثقيل لم يترك له راحة ، بل أخذ يقوى ويقوى فى الظلام ، مذكراً إياه فى دأب بشىء ما زال يند عن ذاكرته .. وخطر للتفينوف أن رائحة الأزهار فى حجرة النوم يمكن أن تضره ، فنهض وأخذ يتلمس طريقة إلى الطاقة حتى نقله إلى الغرفة الأخرى. ولكن الشذا المتهالك ظل ينفذ من هناك إلى وسادته ، وتحت ملاءته ، وهو يتقلب على جنبيه فى ألم . وبدأت تستولى عليه أحلام محمومة ، فاعترض طريقه مرتين ذلك القس « المشهور ببراعته فى إفساد السحر » على هيئة أرنب لعوب له لحية وذيل كذيل الخنزير . وغرد فوروشيلوف أمامه وهو جالس فى قبعة جنرال بريشة ضخمة ، وكأنه بلبل فى شجيرة ... وفجأة قفز من سريره وصاح وهو يضرب يداً بيد : « أمعقول أنها هى ؟ .. غير معقول ! » .

ولكى نوضح صيحة لتفينوف هذه يجب أن نسأل القارئ السمح أن يكر معنا بضع سنوات إلى الوراء .

في أوائل العقد الخامس كانت أسرة الأميرين أوزينين تعيش فى موسكو بأفرادها العديدين ، فى ضيق يقرب من الفقر . وكانوا أمراء روسيين أصلاء من نسل روريك الخلص لا من تتر جورجيا ، واسمهم يرد فى التواريخ القديمة التى ترجع إلى عهد أمراء موسكو الكبار الأول الذين ضموا أطراف الأراضى الروسية . وقد ملكوا إقطاعات وراثية واسعة ، وكوفئوا مرات كثيرة على « بلائهم وحسبهم وتضحياتهم » ، وجلسوا فى مجلس البويار [١] . بل إن أحدهم أبيح له أن يستعمل اسمه كاملاً طبقاً لسلسلة النسب . ولكن أعداءهم نسبوا أليهم « استعمال السحر والرقى المؤذية » ، فحلت عليهم لعنة الامبراطورية ، ونكبوا « نكبة مروعة لم يستطيعوا النهوض منها » . وجردوا من رتبهم ، ونفوا إلى جهات نائية . لقد هوى آل أوزينين ثم لم يرتفعوا ثانية . وقد رفعت عنهم اللعنة بعد أزمان ، وردت إليهم ممتلكاتهم المصادرة ، وتبوأوا منزلهم القديم فى موسكو . ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً . فقد افتقرت أسرتهم ، ونضبت مواردها ، ولم تنتعش فى عهد بطرس ولا فى عهد كاترين ، ومازالت تضمحل وتنحدر حتى أصبح من بين أعضائها رؤساء خدم فى المنازل الكبيرة ، ومديرو حانات ومفتشو بوليس .

وكانت الأسرة التى أسلفنا ذكرها زوجاً وزوجة وخمسة أبناء . وكانوا يعيشون قرب « ساحة الكلاب » فى منزل خشبى صغير ذى طبقة واحدة ، له مدخل منقوش مطل على الشارع ، وأسود خضر على البوابات ، إلى آخر ما هنالك من شعائر النبل ، على الرغم من أنهم كانوا لا يستطيعون تدبير معاشهم إلا بجهد شديد ، وكانوا دائماً مدينين للخضرى ، وربما أعوزهم الشمع والوقود فى الشتاء . وكان الأمير نفسه رجلاً غبياً خاملاً ، كانت له فى شبابه شهرة بالغندرة والأناقة ثم انحدرت به الحال حتى منح وظيفة من وظائف موسكو العتيقة ذات الراتب الصغير والاسم الطنان ، والتى لا عمل فيها على الإطلاق . وكانت هذه المنحة تقديراً لزوجته - التى كانت وصيفة شرف - أكثر مما كانت تكريماً لاسمه .. ولم يكن الأمير يشغل نفسه بشىء ، ولم يكن له عمل إلا أن يجلس متدثراً بمعطفه ويدخن ويزفر بشدة من الصباح إلى المساء . وكانت

(١) « البويار » لقب كان يطلق منذ أقدم عصور التاريخ الروسى على السادة المقربين من أمراء روسيا ، وكانوا أصدقاء الأمير ومستشاريه وقادة حرسه ، والأعضاء البارزين فى مجلسه الاستشارى ، وقد تطوروا حتى أصبحوا طبقة أرستقراطية لها حق امتلاك الأراضى والرقيق .

زوجته امرأة عليلة حادة الطبع ، دائمة الاهتمام بتوافه البيت ، وبإدخال أولادها المدارس الأميرية ، والمحافظة على صلاتها فى بطرسبرج . ولم تستطع قط أن تألف حياتها . ولا بعدها عن البلاط .

وكان والد لتفينوف قد عرف آل أوزينين فى أثناء إقامته بموسكو ، وأتيح له أن يسدى إليهم بعض الخدمات ، وأقرضهم مرة ثلاثمائة روبل . وكان ابنه يتردد عليهم وهو طالب ، وقد اتفق أن مسكنه لم يكن بعيداً عن منزلهم . ولكن الذى اجتذبه لم يكن قرب دارهم ، ولا خشونة معيشتهم ، إنما أخذ يكثر من زيارتهم بعد أن أغرم بابنتهم الكبرى إيرينا .

كانت وقتئذ فى السابعة عشرة من عمرها ، حديثة عهد بالمدرسة الداخلية الأرستقراطية التى أخرجتها منها أمها لسخطها على المديرة . وكان منشأ هذا السخط أن إيرينا اختيرت فى الحفلة السنوية لتلقى أبياتاً بالفرنسية فى تكريم المراقب ، وقبيل الاحتفال أحلت محلها فتاة أخرى كان أبوها من كبار موردى الخمور ، ولم تستطع الأميرة أن تسكت على هذه الإهانة . والحقيقة أن إيرينا نفسها لم تغتفر للمديرة قط هذا الظلم ، فقد كانت تحلم كيف أنها ستقف أمام الجميع لتلقى أشعارها ، فتتعلق بها الأنظار، ثم تتحدث عنها موسكو ... والحق أنها كانت جديرة أن تتحدث موسكو عنها . فقد كانت فارعة رشيقة ، ذات صدر لم يكد يمتلىء ، وكتفين ضيقتين لما تستديرا ، وبشرة بيضاء مرمرية نادرة فى مثل سنها ، صافية ملساء كالقاشانى ، وشعر أثيث أشقر تتخلله خصل داكنة تمنحه طرافة عجيبة . وكانت قسماتها الرائعة الدقة – إلى حد الكمال المفرط – لم تكد تفقد سذاجة الصبا ، ولكن استدارة جيدها البديع ، وابتسامتها الحالمة الشاردة ، كانا يحدثان عن سيدة شابة حادة المزاج . وكان فى تقويس هاتين الشفتين اللتين لا تكادان تنفرجان بالابتسام ، وفى ذلك الأنف الصغير الأقنى الأقرب إلى الضيق ، شىء من العناد والاندفاع يوشك أن يوردها وغيرها الموارد. وعيناها كانتا رائعتين، ناعستين حالمتين ، لوزيتين كعينى آلهة مصرية ، رماديتين فى خضرة ، وطفاوين مقرونتى الحاجبين وكان لتينك العينين تعبير غريب ، كأنما تتأملان بانتباه من عمق بعيد مجهول .

وكان المشهور عن إيرينا فى المدرسة أنها من أذكى الطالبات وأقدرهن ، ولكنها متقلبة المزاج ، مشغوفة بالسلطة ، متشبثة برأيها ، وقد تنبأت لها إحدى مدرساتها بأن عواطفها ستكون سبباً فى شقائها (Vos passions vous Perd Eront) على حين

عابتها مدرسة أخرى ببرود الطبع وجمود الإحساس ، ووصفتها بأنها « فتاة بلا قلب ». وكانت أترابها يرينها متكبرة منقبضة ، وأخوتها يكادون يرهبونها ، وأمها لا تثق بها ، وأبوها يجزع حين تثبت عليه نظراتها الغامضة . ولكن أباها وأمها كليهما كانا يشعران نحوها شعوراً غير إرادى بالاحترام ، لا لشخصيتها بل لآمال غريبة مبهمة كانت تبعثها فى نفسيهما .

قال الأمير الشيخ يوماً وهو يخرج غليونه من فمه :

– سوف ترين يابراسكوفيا دانيلوفنا أن صغيرتنا إيرينا سترفعنا من هذا الحضيض .

فغضبت الأميرة وقالت لزوجها إن له (des expressions insupportables) [1]، ولكنها أخذت تحلم بكلماته بعد ذلك ، وتمتمت بين أسنانها : آه ! ليتنا نرتفع حقاً من هذا الحضيض !

وكانت إيرينا فى بيت أبويها لا يكاد يحد من حريتها شىء . لم يكونا يدللانها بل لعلهما كانا يتجنبانها شيئاً ما ، ولكنهما كانا لا يعترضان سبيلها ، ولم تكن تريد غير هذا . وعندما كان يحدث أمر شديد الإذلال ، كأن يأتى أحد الباعة ويظل يصيح ليسمعه أهل الفناء كله ، قائلاً إنه مل المجىء للمطالبة بنقوده ، أو يبدأ الخدم أنفسهم يغلظون القول لسادتهم « إنكم أمراء مدهشون حقاً ، يمكنكم أن تصفقوا فى طلب العشاء وتذهبوا جياعاً إلى الفراش » ... كانت إيرينا تلزم كرسيها دون أن تحرك ساكناً ، ولكن وجهها العابس تنزلق عليه بسمة شريرة أمر على أبويها من كل تأنيب . كانا يشعران بأنهما مذنبان – وإن لم يذنبا – نحو هذه الإنسانة التى وهبها مولدها وحده الحق فى الثراء والترف والتكريم .

وقد أحب لتفينوف إيرينا من النظرة الأولى . ولم يكن يكبرها إلا بثلاث سنوات . ولكنه لبث مدة طويلة عاجزاً عن الفوز بحبها بل عن جذب انتباهها . وكان فى سلوكها نحوه شىء من العداوة ، وكأنما أهانها فانطوت على الجرح إلا أنها لم تستطع أن تغفر أبداً وكان فى ذلك الوقت أصغر سناً وأكثر تواضعاً من أن يفهم ما قد يمكن تحت هذه الجفوة التى تشبه الازدراء .. وربما نسى محاضراته وواجباته وبقى جالساً فى صالون آل أوزينين الكئيب ، يرقب إيرينا خلسة وقلبه يدق دقاً بطيئاً مؤلماً يكاد يخنقه . فكان يبدو عليها حينذاك شىء كالغضب ، فتغادر مجلسها وتتمشى وتنظر إليه نظرات

(١) « ألفاظاً لا تحتمل » .

باردة وكأنه منضدة أو كرسى ، ثم تهز كتفيها وتشبك ذراعيها . وربما تجنبت النظر إليه أيضاً طول المساء ، حتى عندما يتحادثان ، فكأنها تحرمه حتى نعـمة النظـر ! .. وربما عمدت إلى كتاب تحدق فيه دون أن تقرأ ، وقد زرت حاجبيها وعضت على شفتيها ، ثم تسأل أباها أو أخاها فجأة بصوت مرتفع : «ما معنى الصبر بالألمانية ؟» وحاول أن ينتزع نفسه من الدائرة المسحورة التى كان يضطرب فيها عاجزاً معذباً كطائر فى فخ ، وغاب عن موسكو أسبوعاً حتى كاد يجن من الشوق والألم . ثم عاد إلى منزل آل أوزينين نحيلاً مريضاً.. والعجيب أن إيرينا كانت قد نحلت هى الأخرى نحولاً ظاهراً خلال تلك الأيام ، وشحب وجهها وذبل خداها .. ولكنها قابلته بمزيد من البرود ، وإهمال يكاد ينطوى على البغض ، وكأنه نكأ ذلك الجرح الخفى الذى طعنه فى كبريائها .. وهكذا عذبته شهرين . ثم انقلب الحال كله فى يوم واحد . اشتعل الحب كالنار ، انقض عليهما كالصاعقة . كان جالساً – لقد ظل يذكر هذا اليوم سنين – فى صالون آل أوزينين قرب النافذة ، ينظر إلى الشارع ولا يعى ، وقلبه يعتلج فيه الغيظ والسأم ولكنه لا يستطيع أن يتحرك من مكانه .. وفكر أن لو كان يجرى تحت النافذة نهر لرمى نفسه فيه برعشة خوف ، لكن بغير ندم . وكانت إيرينا جالسة غير بعيدة منه فى صمت وسكون غريبين . وكانت قد لبثت أياماً عدة لا تكلمه بل لا تكلم أحداً ما . ظلت جالسة معتمدة برأسها على يدها وكأنها فى حيرة ، وهى تنظر حولها ببطء بين الفينة والفينة . وأخيراً أصبح هذا العذاب البارد أعظم مما يستطيع لتفينوف أن يحتمل . فنهض ، وبدأ يبحث عن قبعته دون أن يسلم . وإذا بصـوت رقـيق يهـمـس : «ابق» .

وخفق قلب لتفينوف ، ولم يعرف لتوه صوت إيرينا ، فقد كانت فى تلك الكلمة الواحدة رنة لم تكن فيه من قبل . ورفع رأسه فذهل ... لقد كانت إيرينا تنظر إليه بشغف ، أجل بشغف ! ورددت قولها : « ابق ، لا تذهب ، أود أن أكون معك » وأردفت وقد زاد صوتها انخفاضاً : « لا تذهب . إنى أريد ذلك » . اقترب منها دون أن يفهم شيئاً ، ومد إليها يديه وهو لا يكاد يعى ما يفعل ... فأسلمته يديها ، ثم التفتت باسمة وقد أحمر وجهها احمراراً شديداً وخرجت من الحجرة وهى لا تزال تبتسم . وعادت بعد دقائق قليلة مع أختها الصغرى، ونظرت إليه مرة أخرى تلك النظرة الطويلة الحنون، وأجلسته بجانبها .. ولم تستطع أول الأمر أن تقول شيئاً ، بل ظلت تتنهد ووجهها يحمر خجلاً ، ثم تشجعت فأخذت تسأله عدة مرات أن يصفح عنها لأنها لم تنصفه فيما مضى ، وأكدت له أنها قد تغيرت تماماً، وأدهشته إذ تحمست فجأة للنظام الجمهورى (وكان فى ذلك الوقت يعبد روبسبير عبادة ، ولا يستبيح لنفسه أن يجاهر

بانتقاد ماراً) . ولم يعرف أنها تحبه إلا بعد أسبوع . نعم ، لقد ظل يذكر ذلك اليوم الأول طويلاً ... ولكنه لم ينس الأيام التى تلته أيضاً ، تلك الأيام التى رأى فيها – وهو لا يزال يقهر نفسه على الشك ويذودها عن اليقين – رأى فيها بجلاء وفى نشوة من الحبور تكاد تمازجها نشوة الخوف ، تلك النعمة التى يئس منها تبعث إلى الحياة ، وتزكو وتجرف كل شىء أمامها حتى تصل إليه . ثم جاءت لحظات الحب الأول ببهجتها وإشراقها . لحظات لا تتكرر فى حياة واحدة ، ولا ينبغى لها أن تتكرر . أصبحت إيرينا على غير انتظار هادئة كالحمل ، ناعمة كالحرير ، عطوفاً كل العطف . أخذت تعطى أخوتها الصغار دروساً فى الفرنسية والإنجليزية إلا البيان فإنها لم تكن موسيقية – وكانت تقرأ معهم كتبهم المنزلية ، وتعنى معهم بشئون المنزل . كانت تجد فى كل شىء طرافة ومتعة ، وكانت إما تثرثر بلا انقطاع وإما تسبح فى حنان صامت . وكانت تفكر فى شتى الخطط ، وتهيم فى الحلم بما سوف تعمله عندما تتزوج لتفينوف (لم يرتابا قط فى أن زواجهما سيتم يوماً) ، وكيف أنهما معاً سوف ... فيقول لتفينوف مسرعاً : « نعمل ؟ » فتردد إيرينا : « أجل نعمل ، ونقرأ ، ولكن السفر أولاً » وكانت شديدة الرغبة فى أن تغادر موسكو بأسرع ما يمكن . وعندما كان لتفينوف يذكرها بأنه لم يتم دراسته فى الجامعة بعد ، كانت تجيبه دائماً بعد تفكير قصير : إنه من الممكن جداً أن يتم دراسته فى برلين أو .. فى مكان ما . وكانت إيرينا قليلة التحفظ فى التعبير عن مشاعرها ، فلم تخف علاقتها بلتفينوف طويلاً على الأمير والأميرة ، اللذين وإن لم يفرحا – فإنهما حين قدرا جميع الظروف لم يجدا ضرورة لبتها . فقد كانت ثروة لتفينوف جسيمة .

– ولكن ، أسرته ، أسرته !

هكذا كانت تحتج الأميرة فيجيبها الأمير : « نعم ، أسرته بالطبع ولكنه من النبلاء على كل حال . وأهم ما فى الأمر أن إيرينا لن تصغى إلينا كما تعلمين . ومتى لم تعمل كما تهوى ؟! ...

Vous connaissez sa violence (١) وبعد فلم يتحدد شىء بعد » هكذا كان الأمير يجادل ، ولكنه كان يتبع ذلك فى سره : « مدام لتفينوف – أهذا كل شىء ؟ لقد كنت أتوقع شيئاً آخر » . وقد سيطرت إيرينا على خطيبها المستقبل سيطرة تامة ، والحق أنه هو نفسه انقاد لها راضياً وكأنه سقط فى دوامة ، ولم يعد يملك نفسه ...

(١) « أنت تعرفين استبدادها » .

كان ذلك رهيباً وحلواً ، لم يكن ثمة ما يندم عليه ، ولم يكن ثمة ما يضن به . لم يستطع أن يفكر فى معنى الزواج ومسئولياته ، أو يقرر هل يستطيع رجل خاضع كل هذا الخضوع أن يكون زوجاً صالحاً ، وأى طراز من الزوجات سوف تصبح إيرينا ، وهل يقف كل منهما فى الموضع الذى ينبغى أن يقفه من صاحبه ؟ .. كان أسير هواه ، كل ما يعلمه أنه يحب أن يتبعها ، أن يكون معها - هكذا دائماً - وليكن ما يكون !

ولكنه ، وإن لم يبد مقاومة ، وإن فاضت إيرينا حناناً دافقاً ، فإن علاقتهما لم تخل من سوء تفاهم ونزاع . فذات يوم ذهب إليها تواً بعد خروجه من الجامعة وعليه سترة بالية ، ويداه ملطختان بالحبر ، وأسرعت لتلقاه بترحابها المألوف ، وإذا بها توقف فجأة، وتقول بغير تمهيد :

- أين قفازك ؟ .. ثم أضافت مسرعة : يا للخجل ! إنك لا تختلف عن أى - طالب!

فقال لتفينوف :

- أنت تسرفين يا إيرينا ..

فكررت :

- إنك لا تختلف - عن أى طالب (١) .Vous n'ête pas distingué وأولته ظهرها وخرجت من الحجرة .. إلا أنها استغفرته بعد ساعة . وكانت سريعاً ما تندم وتسأله أن يسامحها ، ولكن العجيب أنها كثيراً ما كانت تتهم نفسها بشرور لا أصل لها إلا فى خيالها ، وتنكر بعناد نقائصها الحقيقة . ومرة أخرى وجدها تبكى ، ورأسها بين يديها وشعرها مشعث ، وعندما سألها فى اضطراب عن سبب حزنها ، أشارت بأصبعها إلى صدرها ولم تتكلم ، فلمعت فى ذهنه كلمة « السل ! » وأمسك بيدها ، وغمغم بصوت مرتعش :

- أأنت مريضة يا إيرينا ؟ (وكانا قد اعتادا أن ينادى الواحد منهما الآخر باسمه الأول فى المناسبات الكبرى .) سأذهب حالاً لأحضر الطبيب .

ولكن إيرينا لم تدعه يكمل ، بل دقت الأرض بقدمها فى غيظ :

- إننى بصحة تامة .. . ولكن هذا الثوب .. ألا تفهم ؟

فردد فى حيرة :

- ماذا ؟ .. هذا الثوب ؟ ..

(١) « أنت غير أنيق » .

– ماذا؟ ماذا ؟ أنا لا أملك غيره ، وهو قديم كريه ! ولابد لى أن ألبسه كل يوم ... حتى عندما تأتى أنت يا جريشا – يا جريجورى – إلى هنا ... ستزهد فى حبى أخيراً حين تجدنى بهذه الرثاثة !

– يالله ! مـاذا تقـولين يا إيرينا ؟ إن هذا الثـوب ظريف جـداً ... وهو عـزيز لدى أيضاً لأنى رأيتك فيه أول مرة يا حبيبتى ...

فاحمر وجهها خجلاً :

– أرجوك ألا تذكرنى يا جريجورى ميهالوفتش بأنى لم يكن لدى ثوب غيره حتى فى ذلك الحين .

– ولكنى أؤكد لك يا إيرينا بافلوفنا أنه جميل عليك جداً !

– لا ، أنه كريه ، كريه .. وألحت فى قـولها وهـى تشد خصـلات شـعـرها الطويلة الناعـمـة بحـدة عصـبـيـة – أف ! هذا الفـقـر ! هـذا الفـقـر وهذه القـذارة ! كيف يهرب الإنسان منه ؟ كيف ينجو الإنسان من هذا المستنقع !

ولم يدر لتفينوف ماذا يقول ، وتحول عنها قليلاً .

وفجأة وثبت إيرينا من مقعدها ، ووضعت كلتا يديها على كتفيه ، وتمتمت وهى تقرب وجهها منه ، وعيناها اللتان مازالتا مليئتين بالدموع تلمعان بنور السعادة :

– ولكنك تحبنى يا جريشا ؟ أنت تحبنى ؟ أنت تحبنى أيها العزيز حتى فى هذا الثوب الكريه ؟ ..

فركع لتفينوف عند قدميها . فهمست وهى تنحنى عليه :

– آه . أحبنى يا جميلى ! يا منقذى !

وهكذا كانت الأيام تعدو ، والأسابيع تمر . ولم يعلن شىء رسمى . وظل لتفينوف يؤجل طلب يده . ولم تكن تلك رغبته طبعاً ، ولكنه كان ينتظر ما تشير به إيرينا (فقد كانت تلاحظ أحياناً أنهما كليهما صغيران إلى درجة مضحكة ، وأنهما يجب أن يزيدا على الأقل بضعة أسابيع على سنيهما) إلا أن كل شىء كان يتجه إلى خاتمة ، وكان المستقبل فى اقترابه يزداد وضوحاً وتحدداً ، عندما حدث فجأة حادث بعثر كل أحلامهما وخططهما كأنها غبار الطريق .

- ٨ -

في ذلك الشتاء زار البلاط موسكو ، وتتابعت الاحتفالات تترى ، حتى جاء دور الحفلة الراقصة التقليدية الكبرى فى بهو النبلاء . ووصل نبأ تلك الحفلة إلى المنزل الصغير فى ساحة الكلاب وإن لم يصل إليه إلا عن طريق إعلان فى « الجريدة الرسمية » . وكان الأمير أول من أثاره النبأ ، فقرر على الفور أنهما يجب أن يذهبا ومعهما إيرينا ، وأن من الإثم ألا ينتهز هذه الفرصة لرؤية مليكيهما وأن هذا ليس إلا نوعاً من الواجب على أبناء الأسر العريقة . ودافع عن رأيه فى حرارة ظاهرة غير مألوفة منه ، ووافقته الأميرة إلى حد ما ، ولم يكن ضجرها إلا حسرة على ما يقتضيه ذلك من نفقات ، ولكن إيرينا أظهرت معارضة شديدة ، وأجابت على كل حجج والديها بأن « لا ضرورة للذهاب ، وأنها لن تذهب » وبلغ عنادها حداً جعل الأمير يقرر آخر الأمر أن يرجو لتفينوف ليحاول هو إقناعها ، بأن يذكرها - بين ما يسوقه من الأسباب - إنه لا يحسن بفتاة صغيرة أن تتجنب المجتمع ، وأنها ينبغي أن « تمر بهذه التجربة » ، وأن أحداً لم يرها قط فى أى مكان - وكان هذا صحيحاً . وأخذ لتفينوف على نفسه أن يعرض عليها « الحيثيات » فنظرت إليه إيرينا نظرة ثابتة فاحصة جعلته يرتبك . ثم قالت بهدوء وهى تعبث بطرفى زنارها :

- أتريد أنت ذلك ؟

فأجاب لتفينوف متردداً :

- نعم . أظن هذا . إنى أوافق أباك ... حقاً لماذا لا تذهبين ؟ .وضحك ضحكة قصيرة وأضاف : لترى الناس ، ويروك ... فكررت ببطء :

- يرونى ؟ حسن جداً . سأذهب إذن ... ولكن تذكر أنك أنت الذى أردت ذلك .

- إننى ...

- إنك أنت الذى أردت ذلك . وهاك شرطاً آخر : يجب أن تعدنى بألا تحضر هذه الحفلة .

- لماذا ؟

- إنى أرغب فى ذلك .

فرفع لتفينوف يديه :

– سمعاً وطاعة ... ولكنى أعترف بأنى كنت أود أن أستمتع برؤيتك فى كامل بهائك ، وملاحظة الإعجاب الذى لابد أنك ستثيرينه ..

وأضاف وهو يتنهد :

– وإذن كم كنت أفخر بك ...

فابتسمت إيرينا :

– إن كامل البهاء لن يكون إلا ثوباً أبيض . أما الإعجاب ... حسناً ، لا أريد أن تكون هناك على كل حال .

– إيرينا أيتها الحبيبة ، كأنك غاضبة !

فابتسمت ثانية :

– أوه ، لا ، لست غاضبة . ولكن يا جريشا (وثبتت عينيها عليه ، وظن أنه لم ير قط مثل هذا التعبير فيهما ، وأضافت هامسة) .. لعله لابد أن يكون ..

– ولكنك تحبيننى يا إيرينا ، يا عزيزتى ؟

فأجابت فى جد يوشك أن يكون حزيناً ، وشدت على يده بقوة كأنها رجل :

– إنى أحبك !

وظلت إيرينا طيلة الأيام التالية منصرفة إلى ثوبها وتزيين شعرها . وفى اليوم السابق للحفلة أحست بوعكة ، ولم تستطع أن تستقر وانفجرت بالبكاء مرتين فى وحدتها ، أما أمام لتفينوف فقد تكلفت تلك الابتسامة التى لا تتغير ... لم يتبدل حنانها المعهود ، ولكنها كانت شاردة اللب ، دائمة النظر إلى نفسها فى المرآة . وفى يوم الحفلة ظلت صامتة شاحبة ، ولكنها كانت مالكة زمام نفسها . وجاء لتفينوف فى الساعة التاسعة مساءً ليراها ، فلما أتت لتقابله فى ثوب من حرير أبيض شف ، وفى شعرها المرفوع قليلاً عنقود أزهار صغيرة زرقاء ، كادت تبدر منه صيحة ، فقد بدت أجمل وأروع من سنها كثيراً ، وقال فى نفسه : «أجل ، إنها كبرت منذ الصباح ! وكم تبدو شامخة ! هذا ما تصنعه الوراثة !» ووقفت إيرينا أمامه ، ويداها مسترخيتان ، لا تبتسم ولا تتصنع ، وهى تنظر فى ثبات يشبه التحدى ، لا إليه بل إلى الفضاء البعيد أمامها .

قال لتفينوف أخيراً :

– لكأنك أميرة فى كتاب قصص . أنت تشبهين محارباً قبل المعركة ، قبل النصر ... واستمر فى قوله وهى لا تزال واقفة بغير حراك ، وكأنها تصغى ... لا إليه بل إلى صوت آخر فى أعماق نفسها : إنك لم تسمحى لى بأن أذهب إلى هذه الحفلة ، ولكن لعلك تقبلين هذه الأزهار وتأخذينها معك ؟

وأهدى إليها طاقة من الهيلوتروب ، فلحظته لحظاً سريعاً ، وأمسكت فجأة طرف العنقود الذى كان يزين شعرها ، وقالت :

– أتريدنى أن أبقى ؟ قلها فأمزق هذا كله ، وأبقى فى المنزل ! وخيل إلى لتفينوف أن قلبه ينشق . وكانت يد إيرينا قد سبقت إلى انتزاع العنقود ...

فبادر يقول مسرعاً ، فى فيض من الكرم والسماحة :

– لا ، لا . لماذا؟ أنا لست أنانياً ... لماذا أحبس حريتك ، فى حين أعلم أن قلبك ..

فقالت مسرعة :

– حسناً ، لا تقترب منى وإلا كسرت ثوبى .

واضطرب لتفينوف ، وسأل :

– ولكنك ستأخذين الزهور ؟

– طبعاً . إنها جميلة جداً . وأنا أحب هذه الرائحة . شكراً .سأحفظها ذكرى ...

– فحفلتك الأولى . لانتصارك الأول .

ونظرت إيرينا من فوق كتفها إلى نفسها فى المرآة ، وهى تثنى قوامها ولا تكاد .

– وهل أبدو جميلة حقاً ؟ ألا تغالى ؟

فأفاض لتفينوف فى الثناء الحار بينما كانت إيرينا غير منصتة إليه ، وقد قربت الأزهار من وجهها وجعلت تنظر مرة أخرى إلى الفضاء البعيد بعينين غريبتين كأنما زادتا دكنة وسعة . وارتفع شريطاها الرقيقان خلفها قليلاً وقد حركهما تيار خفيف من الهواء فكانا أشبه بجناحين .

وظهر الأمير فى رباط عنق أبيض وسترة سهرة سوداء باهتة ، وقد صفف شعره ووضع وسام النبالة على شريط فلاديمير فى عروة سترته . وجاءت الأميرة بعده فى فستان حرير صينى عتيق الطراز ، وبتلك الصرامة القلقة التى تحاول الآمهات أن

تخفين بها اضطرابهن أصلحت هيئة ابنتها من خلف ، بأن هزت ثنيات ثوبها دونما ضرورة . وزحفت عربة أجرة مقفلة عتيقة بأربعة مقاعد ، يجرها حصانان هرمان أشعثان ، إلى مدخل الدار ، على الأكوام المتجمدة من الثلج المتراكم . وأطل من باب الصالون سائس عجوز فى حلة غريبة الشكل ، وأعلن بنوع من المخاطرة أن العربة معدة .. وبعد أن استودع الأميران الله أبناءهما الباقين بالمنزل إلى الصباح ، لبسا معطفيهما وخرجا إلى الدرج . وتبعتهما إيرينا وقد التفت بحرملة شديدة الرقة شديدة القصر - كم كرهت هذه الحرملة الصغيرة فى تلك اللحظة ! - وصحبها لتفينوف إلى الخارج طامعاً فى نظرة أخيرة من إيرينا ، ولكنها جلست فى مقعدها من العربة بغير أن تلتفت .

وحول منتصف الليل سار تحت نوافذ بهو النبلاء . وكانت أضواء لا تحصى من شمعدانات ضخمة تبدو من خلال الستائر الحمراء أشبه شيء بوشى معدنى لامع ، وأنغام فالس لشتراوس تطير مرحة فاضحة متحدية فوق الميدان الذى ازدحم بالعربات.

وفى الساعة الواحدة من اليوم التالى ذهب لتفينوف إلى منزل آل أوزينين . فلم يجد فى المنزل أحداً سوى الأمير ، الذى أخبره على الفور بأن إيرينا أصابها صداع واعتكفت فى سريرها ، وأنها لن تغادره حتى المساء ، لكن مثل هذه الوعكة غير مستغربة بعد أول مرة تذهب فيها الفتاة إلى حفلة راقصة . ودهش لتفينوف حين أردف الأمير بالفرنسية :

C'est trés naturel, vous savez, dans les jeunes filles (١)

ولاحظ فى الوقت نفسه أنه لا يرتدى ثوب المنزل كعادته ، بل يلبس سترة رسمية . وأضاف الأمير :

- ثم إنها كانت مضطربة قليلاً بعد أحداث البارحة !

فتمتم لتفينوف :

- أحداث ؟

- أجل ، أجل ، أحداث ، أحداث des vrais événements إنك لا تستطيع أن تتخيل يا جريجورى ميهالوفتش quel sucеés

elle a eu (٢) لقد استرعت أنظار البلاط كله ! وقال الأمير ألكسندر فيدوروفتش

(١) « هذا طبيعى جداً عند الفتيات كما تعلم » .

(٢) « أى نجاح نالته ! » .

أن مكانها ليس هنا ، وأنها تذكره بالكونتة ديفنشير [١] : أنت تعرف ... هذه ... السيدة المشهورة ... وأعلن بلازنكراميف العجوز على مسمع من الجميع أن إيرينا هى ملكة الحفلة ، ورغب فى أن يقدم إليها . وقدم نفسه إلى . أعنى قال لى أنه يذكرنى عندما كنت فى سلاح الفرسان ، وسألنى : ماذا تعمل الآن ؟ .. أنه ظريف جداً ذلك الكونت ... ياله من [٢] ! adonateur du beau sexe . ولم يكتفوا بى ... زوجتى أيضاً لم يتركوها فى حالها – لقد تحدثت معها نتاليا نيكتشنا نفسها .. هل كنا نطمع فى أكثر من ذلك ؟ لقد رقصت إيرينا [٣] ! avec tous les meilleurs cavaliers كانوا يحضرونهم إلى باستمرار . لم أستطع فى الحقيقة أن أذكر عددهم . أتصدق؟ لقد كانوا جميعاً يتزاحمون حولنا . وأرادوا كلهم أن يرقصوا معها المازوركا. وعندما سمع أحد الدبلوماسيين الأجانب أنها فتاة من موسكو قال للقيصر : Sire, dé-cide ment c'est Moscou qui ést le centre de votre empire [٤] وأضاف دبلوماسى آخر [٥] C'est une vrais revolution, sire, لعله قال : [٦] révélation أو [٧] revolution . شيئاً كهذا . أجل . أجل . لقد كانت ... لقد كانت فوق التصور !

سأل لتفينوف وقد سرت برودة فى يديه وقدميه لسماع حديث الأمير :

– حسناً : وإيرينا بافلوفنا نفسها ؟ هل استمتعت بالحفلة ؟ هل كان يبدو عليه السرور ؟

– طبعاً استمتعت بالحفلة . السرور ؟ ! لابد أنها كانت مسرورة ! ولكنك تعرفها ... لا يمكنك أن تعرف دخيلة نفسها . ! لقد كان كل إنسان يقول لى البارحة « هذا عجيب Jamais on ne dirait que

(١) دوقة ديفونشير (١٧٥٧ – ١٨٠٦) انجليزية كانت من أجمل وأذكى نساء عصرها وكان لها جيش من المعجبين وصالون يتردد عليه مشاهير العصر ، وكانت تقول الشعر وتشتغل بالسياسة .

(٢) « عابد للجنس اللطيف » .

(٣) « مع كل الفرسان البارزين » .

(٤) « مولاى ! لا شك أن موسكو هى قلب إمبراطوريتكم ! » .

(٥) « هذه ثورة حقاً يا مولاى ! » .

(٦) إلهام .

(٧) ثورة .

. mademoiselle votre fille est á son premier bal » [١]

الكونت ريزنباخ مثلاً .. أظنك تعرفه ؟

– لا . لا أعرفه مطلقاً . ولم أره فى حياتى .

– من أقرباء زوجتى .

– إنى لا أعرفه .

– رجل ثرى . من أمناء القصر . يعيش فى بطرسبرج . فى ذروة السلطان وهو الحاكم بأمره فى ليفونيا . لم يكن يهتم بنا قبل اليوم .. ولكن لا تظن أنى حانق عليه لهذا . [٢] .J'ai l'humeur facile, comme vous savez. حسناً ، هذا هو الرجل . لقد جلس بجانب إيرينا وكلمها ربع ساعة لا أكثر ، وبعد ذلك قال لأميرتى : [٣] ma cousine. votre fille est une perle, c'est une perfection. « إن كل امرىء يهنئنى بقرابتها ... » وبعد ذلك رأيته يذهب إلى ... إلى شخصية عظيمة جداً ، ويكلمه وهو ينظر إلى إيرينا ... وكان الآخر ينظر إليها أيضاً ...

فسأل لتفينوف مرة أخرى :

– وإذن فلن تظهر إيرينا بافلوفنا طول اليوم ؟

– بالضبط . فهى تعانى صداعاً شديداً . وقد سألتنى أن أبلغك تحيتها ، وأن أشكرك على أزهارك [٤] qu'on a trouvé charmants. إنها بحاجة إلى الراحة ... لقد خرجت الأميرة لتؤدى بعض الزيارات ... وأنا أيضاً ... كما ترى ...

وتنحنح الأمير ، وأخذ يتململ فى مجلسه كأنه لا يدرى ماذا يقول بعد الذى قاله . فتناول لتفينوف قبعته وخرج ، قائلاً : إنه لا يريد إزعاج الأمير ، وأنه سيأتى مرة أخرى ليسأل عن صحة إيرينا .

(١) « من يقول أن هذه أول حفلة راقصة تذهب إليها الآنسة كريمتكم ! » .

(٢) « إننى طيب القلب كما تعلم » .

(٣) « يا عزيزتى ، إن ابنتك جوهرة ، إنها تحفة » .

(٤) « التى لقيت الاستحسان » .

وعلى مسيرة خطوات من منزل آل أوزينين رأى عربة أنيقة ذات مقعدين واقفة أمام كشك رجل الشرطة.. وكان سائس فى حلة أنيقة أيضاً ينحنى بتراخ ويسأل الشرطى الفنلندى عن مسكن الأمير بافل فاسيليفتش أوزينين . ورمق لتفينوف العربة . كان يجلس بداخلها رجل متوسط العمر ، مترهل الجلد ، ذو وجه مغضن شامخ وأنف مقوس وفم قاس ، متدثر بفراء ثمين ، تدل جميع المظاهر على أنه حقاً رجل عظيم جداً .

- ٩ -

لم يف لتفينوف بوعده أن يعود فيما بعد ، فقد فكر أن يؤجل زيارته إلى اليوم التالى . وعندما ذهب فى الساعة الثانية عشرة إلى الصالون المألوف وجد هناك الأميرتين الصغيرتين فكتورنكا وكليوباترنكا . فحياهما ، وسأل : هل تحسنت حال إيرينا بافلوفنا ، وهل يستطيع أن يراها ؟

فأجابته فكتورنكا ، وكانت على الرغم من لثغتها أسرع جواباً من أختها :

– إيرينوتشكا ذهبت مع مامى .

فردد لتفينوف :

– ذهبت ؟ كيف ؟ – وأحس فى قرارة قلبه شبه رعشة حبيسة – أليست .. أليست تعطيكما دروساً فى مثل هذا الوقت ؟

فأجابت فكتورنكا :

– إيرينوتشكا لن تدرس لنا بعد الآن .

وكررت كليوباترنكا بعدها :

– لن تدرس لنا بعد الآن .

فسأل لتفينوف :

– هل بابا فى المنزل ؟

فمضت فكتورنكا تقول :

– بابا ليس فى المنزل . وأيرنيوتشكا مريضة . طول الليل هى تبكى ، تبكى ...

– تبكى ؟

– نعم تبكى . هكذا أخبرنى يجوروفنا . وعيناها حمراوان جداً . إنهما ملـ .. ملـ .. تهبتان جداً .

ومشى لتفينوف فى الغرفة جيئة وذهاباً مرتين ، وهو يرتجف كأنما أصابه برد ، ثم عاد إلى منزله ، وخالجه إحساس كذلك الذى يتملك الناظر من برج عال . تهافت كل شىء فى باطنه ، واستولى عليه دوار بطىء ممرض . حيرة خرساء ، وأفكار تركض كالفيران ، وفزع مبهم ، وتوقع أشل ، ودهشة غريبة توشك أن تكون وحشية . وفى حلقه مرارة الدموع المحتبسة ، وعلى شفتيه بسمة فارغة مغتصبة . ثم دعاء ضارع بغير معنى ، لغير أحد ... آه ، ما أقسى وما أذل وما أفظع ! « إيرينا لا تريد أن ترانى » - كانت هذه هى الفكرة التى ظلت تدور فى رأسه . « هذا واضح . ولكن ما سببه ؟ ليت شعرى ماذا حدث فى تلك الحفلة المشئومة ؟ وكيف يمكن أن يتم هذا التحول فجأة ... فجأة هكذا ؟ » إن الناس يرون الموت يأتى دائماً فجأة ، ولكنهم لا يمكن أن يألفوا مفاجآته ، بل يجدون هذه المفاجأة شيئاً لا يقبله العقل . « إنها لم تكتب إلىَّ . لم تفسر لى شيئاً ! » .

وسمع لتفينوف صوتاً مرتفعاً يناديه بالقرب من أذنه : « جريجورى ميهالتش ! » فانتفض ، ورأى أمامه الخادم وفى يده ورقة . وتبين فيها خط إيرينا . وأحس قبل أن يفض الخاتم بالويل المحيق ، وثنى رأسه على صدره وحدب كتفيه كأنه يتقى الضربة النازلة .

ثم استجمع شجاعته أخيراً ، وفض الغلاف ، فوجد على قصاصة صغيرة من الورق هذه الأسطر :

« سامحنى يا جريجورى ميهالتش . لقد انتهى كل شىء بيننا . سأذهب لأعيش فى بطرسبرج . إننى شديدة التعاسة - ولكن المسألة كلها مقررة الآن . يبدو أن هذا هو القدر المكتوب على ... ولكن لا . أنا لا أريد أن أبرىء نفسى . لقد تحققت مخاوفى . سامحنى ، وانسنى . إننى غير جديرة بك . كن كريماً لا تحاول أن ترانى . «إيرينا» .

قرأ لتفينوف هذه الأسطر وتهافت على الأريكة كأن أحداً صك صدره . وسقطت منه الورقة ، والتقطها وقرأها مرة أخرى ، وتمتم : « فى بطرسبرج » ثم سقطت منه ثانية . وانتهى الأمر . بل قد هبط عليه شعور بالسلام . بل إنه سوى بيديه المنطرحتين خلفه الوسادة التى تحت رأسه . وقال فى نفسه : « من يطعن طعنة الموت لا يترنح . كما جاءت ذهبت . كل هذا طبيعى . لقد كنت أتوقعه دائماً (كان يكذب على نفسه ، فإنه لم يتوقع قط شيئاً كهذا .) تبكى ؟ .. ! هى كانت تبكى ؟ .. علام ؟ إنها لم تكن تحبنى ! ولكن هذا كله مفهوم ، متفق مع شخصيتها ... هى - هى غير جديرة بى ...

أجل أجل (وضحك بمرارة) إنها لم تكن تعلم القوة الكامنة فى نفسها ، ولكنها تبينت تأثيرها فى الحفلة ، فهل يعقل أن تبقى مع طالب متواضع ؟ .. كل هذا طبيعى . »
ولكنه لم يلبث أن تذكر ألفاظها الرقيقة ، وتلك البسمة وتلك العينين ، العينين اللتين لن ينساهما ، العينين اللتين لن يراهما أبداً ، العينين اللتين كانتا تسطعان وتنوبان كلما قابلتا عينيه ! وتذكر قبلة واحدة سريعة وجلة مشتعلة ... وإذا هو ينتحب ، ينتحب انتحاباً متشنجاً عنيفاً خانقاً . ثم انقلب على وجهه يكاد يخنقه انفعاله المجنون ، كأنه يود لو يمزق نفسه وكل ما حوله إرباً ، ودس وجهه المحرور فى وسادة الأريكة وراح يعضها بأسنانه .

يا حسرتاه ! إن السيد الذى رآه لتفينوف بالأمس فى العربة لم يكن إلا قريب الأميرة أوزينين ، أمين القصر الكونت ريزنباج . فإن الكونت لما رأى الإعجاب العظيم الذى أثارته إيرينا فى شخصيات عليا ، فكر لساعته فى المزايا التى يمكن الظفر بها من ذلك[1] mit etwas akkuratesse. وكان رجلاً سريع التصرف يعرف من أين تؤكل الكتف ، فوضع خطته من فوره ، وصمم على أن يعمل عملاً نابليونياً خاطفاً ، قال لنفسه : « سأخذ هذه الفتاة النادرة إلى منزلى فى بطرسبرج ، يا للشيطان ! سأجعلها وريثتى ، بل وريثتى الوحيدة ، فليس لى ولد . إنها قريبتى وقرينتى الكونتة تعيش فى وحدة مملة ... الأفضل على كل حال أن يكون فى صالون المرء وجه جميل . نعم ، نعم ... هذا هو الصواب ! [2] Est ist eine Idee, Est ist eine Idee . المهم أن ينبهر الأبوان ويذهلان فيسلما أمرهما . وتابع الكونت تفكيره وهو فى العربة فى طريقه إلى ساحة الكلاب . « إنهما يعيشان عيش الكفاف ، وما أظنهما يتشددان . ثم إنهما من طراز لا يمتاز بحنانه المفرط . ويمكننى أن أعطيهم فى الصفقة مقداراً من المال. وهى ؟ أنها ستوافق . الشهد حلو . وقد ذاقت طعمه فى الليلة الماضية . لعلها نزوة منى ، فليستغلوها ... هؤلاء الحمقى ! سأدخل عليهم من كل باب ... ويجب أن تقرروا، وإلا فإنى أتبنى فتاة أخرى – يتيمة ، لعل هذا أفضل . نعم أو لا . ولكم أربع وعشرون ساعة لتفكروا ، [3] und damit Punctum

وقابل الكونت الأمير وهذه الكلمات نفسها على شفتيه ، وكان قد أعلمه بزيارته فى الليلة الماضية أثناء الحفلة . ونحن فى غنى عن إطالة القول فى نتائج هذه الزيارة .

(١) « بشىء من المهارة » – بالألمانية .

(٢) « إنها فكرة ! فكرة ! » .

(٣) « ولا كلام بعد ذلك »

فإن الكونت لم يكن مخطئاً فى تنبؤاته ، وقد كان الأمير والأميرة حقاً غير عنيدين ، وقبلا مبلغاً من المال ، ووافقت إيرينا قبل أن تنتهى الأربع والعشرون ساعة . ولم يكن يسيراً عليها أن تقطع ما بينها وبين لتفينوف ، فقد كانت تحبه ، وبعد أن أرسلت إليه كلمتها كادت تمرض ، ولزمت فراشها معظم الوقت وظلت تبكى ، ونحلت وشحبت . ورغم هذا كله فقد رافقتها الأميرة بعد شهر إلى بطرسبرج ، واستودعتها منزل الكونت، ووكلتها إلى عناية الكونتة ، وهى امرأة فى غاية الطيبة ، ولكن لها مخ دجاجة ، وشكل دجاجة أيضاً .

وانقطع لتفينوف عن الجامعة . وعاد إلى أبيه فى الريف . وأخذ جرحه يندمل رويداً رويداً . ولم تكن تصل إليه أنباء عن إيرينا فى أول الأمر ، وكان فى الحقيقة يتحاشى كل حديث عن بطرسبرج ومجتمع بطرسبرج . ثم أخذت تنتشر حولها الإشاعات – إشاعات لا نقول إنها فاضحة ولكنها غريبة على كل حال ، واشتغلت الألسن بالحديث عنها ، وأخذ اسم الأميرة أوزينين الشابة يتردد بكثرة متزايدة حتى فى مجتمعات الأقاليم ، حيث كان ينطق فى شغف واحترام وحسد ، وقد أحاطت به هالة غريبة من المجد ، كما كان اسم الأميرة فوروتنسكى فى يوم من الأيام . وأخيراً جاء نبأ زواجها . ولكن لتفينوف لم يكد يهتم بهذا النبأ الأخير ، اذ كانت خطبته لتاتيانا قد تمت .

والآن يستطيع القارئ بلا شك أن يفهم بسهولة وعلى وجه الدقة ما تذكره لتفينوف حين صاح : « أيمكن أن تكون هى ؟ » .

إلى بادن إذن لنصل ما انقطع من قصتنا !

نام لتفينوف متأخراً ، ولم تطل نومته ، فحين استيقظ كانت الشمس قد أشرقت ولما تكد ، وكانت قمم الجبال السود التى تبدو من نوافذ حجرته ترتسم وردية باهتة على صفحة السماء الصافية . فقال فى نفسه : « لا شك أن الجو لطيف هناك تحت الأشجار . » ولبس على عجل ، ونظر بلا اهتمام إلى الطاقة التى ازدادت تفتحاً أثناء الليل ، ثم تناول عصا وبدأ السير قاصداً إلى « القلعة القديمة » على « الجبال » الشهيرة . واحتواه الصباح فى أحضانه اللطيفة المنشطة . وتنفس أنفاساً طويلة ، وأخذ يخطو بحماسة ، وكل عرق من عروقه يتنزى بقوة الشباب ، وكأن الأرض نفسها تميد تحت خطواته الخفيفة . وكانت كل خطوة تزيده مرحاً وسعادة وسار فى الظل المطلول على حصباء الدروب الصغيرة ، بجانب أشجار الشربين التى زهت أطراف أغصانها ببراعم الربيع الناشئة . وظل يكرر لنفسه : « ما أبدع وما أروع ! » وفجأة سمع نبرات مألوفة ونظر أمامه فرأى فوروشيلوف وبمبايف قادمين نحوه . فأزعجه مرآهما ، وابتعد مسرعاً كتلميذ صغير يتحاشى رؤية معلمه ، واختبأ خلف شجيرة ... ودعا فى سره : « اللهم برحمتك أبعد عنى بنى وطنى ! » وهان عليه أن يدفع أى مقدار من المال ولا يرياه ... وكان الله رحيماً به فمر مواطناه دون أن ينتبها إليه . وكان فوروشيلوف يحاضر بمبايف بصوته الصبيانى المعجب بنفسه عن « الأطوار » المختلفة لفن العمارة القوطية ، وبمبايف يكتفى بأن يزمجر مستحسناً ، وكان واضحاً أن فوروشيلوف قد أمتعه طويلاً بالحديث عن هذه الأطوار ، حتى بدأ المتحمس الطيب القلب يشعر بالملل . وأنصت لتفينوف برهة طويلة إلى وقع خطاهما المبتعدة ، وقد زم شفتيه ومد عنقه . وظلت الأنغام الحلقية والأنفية من محاضرة فوروشيلوف تصل إلى أذنيه مدة ، ولكن السكون عاد فشمل كل شىء . وتنهد لتفينوف مرتاحاً ، وغادر مخبأه ، وواصل المشى . وظل يتجول بين الجبال ثلاث ساعات . وكان يبتعد عن الدرب أحياناً ويثب من صخرة إلى صخرة ، منزلقاً بين الحين والحين على الطحلب الناعم ، أو يجلس على نتوء من الجبل تحت سنديانة أو زانة ، ويسبح فى خيالات لذيذة ، على خرير الجداول التى حنا عليها نبات السرخس ، وحفيف الأوراق اللطيف ، وأنغام ضحلة يهتف بها شحرور وحيد . وأخذ يتسلل إليه نعاس خفيف لذيذ ، وكأنه يقترب منه ملاطفاً ، ثم غلبه النوم ... ولكنه ابتسم فجأة ونظر حواليه ، فداعب عينيه ذهب الغابة وخضرتها ، وأوراق الشجر المتحركة ، فأغمضهما ثانية وهو لا يزال يبتسم . وأخيراً

شعر بالرغبة فى الإفطار ، فقصد إلى القلعة القديمة حيث يستطيع ببضع «كرويتزرات» أن يحصل على كوب من اللبن الجيد والقهوة . ولكنه لم يكد يستقر على إحدى الموائد البيضاء الصغيرة فى الشرفة أمام القلعة حتى سمع وقع حوافر جياد ، أقبلت ثلاث عربات مكشوفة ، نزلت منها جماعة كبيرة من السيدات والسادة .. وعرف لتفينوف للحال أنهم روس ، وإن كانوا كلهم يتكلمون الفرنسية ... بل لأنهم كانوا كلهم يتكلمون الفرنسية . وكانت ملابس السيدات تمتاز بأناقة مسرفة ، أما السادة فكانوا يلبسون سترات محبوكة مخصرة غير مألوفة فى هذه الأيام ، وسراويل رمادية منقطة ، وقبعات مدنية صقيلة . وكان رباط عنق أسود منخفض يقبض بشدة على عنق كل واحد من هؤلاء السادة ، وشىء عسكرى يبدو فى هيئتهم وتصرفاتهم كلها . والحقيقة أنهم كانوا رجالاً عسكريين . لقد التقى لتفينوف بصحبة من الچنرالات الشبان ذوى المكانة العالية فى المجتمع ، والنفوذ البارز فى الحكومة . وكانت أهميتهم تنجلى فى كل شىء . فى مرحهم المتحفظ ، وتهاتفهم الساحر ، ونظراتهم الشاردة المتكلفة واهتزازات أكتفاهم الصغيرة المخنثة ، وطريقتهم فى تحديب أجسامهم وثنى ركبهم . وكانت تنجلى فى نبرات أصواتهم نفسها ، فكأنهم يشكرون فى تلطف متكلف جمهوراً ذليلاً من الناس . كان هؤلاء المحاربون كلهم ملمعين محففين مضمخين بعطر النبلاء والحرس الأصيل- وهو مزيج من دخان أفخر أنواع السيجار وأجمل عطور الباتشولى . وكلهم كانت لهم أيدى النبلاء أيضاً - أيد بيضاء كبيرة ، ذات أظافر صلبة كالعاج ، وكلهم كان لهم شوارب مصقولة ، وأسنان لامعة، وبشرات رقيقة ، وردية على الخدود ، زرقاوية على الذقون . وكان بعض الچنرالات الشبان ممراحاً ، وبعضهم جاداً ، ولكن طابع الأدب العالى كان مرتسماً عليهم جميعاً . كان كل واحد كأنما هو شاعر شعوراً عميقاً بكرامة شخصه ، وبأهمية الدور الذى سيلعبه فى الحكومة فى المستقبل ، وكان يمازج هذا الإيمان شىء من النزق والاستهتار اللذين يتعودهما المرء بالضرورة خلال تجواله فى بلاد أجنبية . وبعد أن جلسوا بكثير من الضوضاء والأبهة نادوا الندل الذين بادروا إلى تلبية أوامرهم . وأفرغ لتفينوف كوب لبنه ، ودفع ثمنه ، ولبس قبعته ، وبينما كان ماراً بجماعة الچنرالات سمع صوت امرأة تناديه :

- جريجورى ميهالتش ... ألا تعرفنى ؟

فوقف بلا وعى . ذلك الصوت ... ذلك الصوت كثيراً جداً ما خفق له قلبه فى الأيام الخالية ... والتفت حوله ورأى إيرينا . كانت جالسة إلى مائدة ، معتمدة بيديها على ظهر كرسى قد قربته منها ، تنظر إليه وهى تبتسم ورأسها مائل إلى ناحيته .. نظرات فيها حنان يكاد يكون فرحاً بلقائه .

عرفها لتفينوف من أول نظرة ، وإن كانت تغيرت منذ رآها للمرة الأخيرة قبل عشر سنين ، واستحالت من فتاة إلى امرأة . كان قوامها النحيل قد امتلأ وتفتح ، وكتفاها اللتان كانتا ضيقتين تذكرانك الآن بصور الألهات على سقوف القصور الإيطالية القديمة . ولكن عينيها بقيتا كسابق عهده بهما .. وخيل إلى لتفينوف أنهما تنظران إليه تماماً كما كانتا تنظران قديماً فى ذلك المنزل الصغير فى موسكو .

قال فى تردد :

– إيرينا بافلوفنا ...

– هل عرفتنى ؟ ما أسعدنى ! ما أسعدنى ! ..

وصمتت فجأة ، واحمر وجهها قليلاً ، واعتدلت فى جلستها واستمرت تقول ، ولكن بالفرنسية :

– إننى سعيدة بلقائك . دعنى أقدمك إلى زوجى . فاليريان ! هذا هو السيد لتفينوف ، صديق من أصدقاء الطفولة . فاليريان فلاديميروفتش راتميروف ، زوجى .

ونهض أحد الجنرالات الشبان من مقعده – ولعله كان أشدهم تأنقاً – وانحنى للتفينوف بأدب بالغ ، بينما زوى بقية رفاقه حواجبهم ، أو بالأحرى انكمش كل واحد منهم لحظة فى نفسه ، وكأنه يحتج مقدماً على أى اتصال بمدنى غريب . ورأت السيدات الأخريات المشتركات فى النزهة أن يخزرن عيونهن قليلاً ويبتسمن ببلاهة ، بل يتكلفن مظاهر الحيرة والدهشة .

سأل الجنرال راتميروف وهو يتقصع بحركات غير روسية مطلقاً – وكان بيناً أنه لم يدر فيم يتحدث مع صديق طفولة زوجته :

– آ ... أأنت فى بادن من زمن طويل ؟

فأجابه لتفينوف :

– لا ، ليس من زمن طويل .

فاستمر الجنرال المهذب سائلاً :

– وهل تنوى البقاء طويلاً ؟

– لم أفكر فى الأمر بعد .

– آه ! جميل . جميل جداً ...

وسكت الچنرال . ولم يجد لتفينوف هو الآخر ما يقوله . وكان كلاهما ممسكاً قبعته فى يده ، منحنياً إلى الأمام بابتسامة ، يحدق فى قمة رأس صاحبه .

ويدأ أحد الچنرالات يدندن – بنغم مضطرب طبعاً ، ولم تر قط نبيلاً روسياً إلا يدندن بنغم مضطرب :

« I say, Velerien, give me som fire » (١)

وكان أرمد العينين أصفر الوجه ، ينم تعبير وجهه عن حنق دائم ، كأنه لا يستطيع أن يغتفر لنفسه سوء منظره . وكان ممتازاً عن رفاقه جميعاً بأن بشرته لا تشبه الوردة.

وأخيراً قالت إيرينا :

– لماذا لا تجلس يا جريجورى ميهالتش ؟

فأطاع لتفينوف وجلس .

وقال چنرال آخر بالإنجليزية (٢) I say, Velerien, give me som fire « وكان هذا الچنرال صغير السن أيضاً ، وإن ظهرت عليه البدانة قبل الأوان ، وكانت عيناه ثابتتين كأنهما تحملقان فى الهواء ، وعارضاه غزيرين ناعمين كالحرير يدس فيهما ببطء أصابعه الناصعة البياض .

وأعطاه راتميروف علبة كبريت فضية .

وسألت إحدى السيدات :

– Avez vous des papiros ?

وكانت تلثغ الراء كالنطق الباريسى .

– (٣) « Des vrais papelitos, contesse »

ودندن الچنرال الأرمد العينين مرة أخرى بغيظ شديد :

Deux gendarmes un beau dimanche

(١) « كان شرطيان ذات يوم أحد » .

(٢) « بالله يا فاليريان أعطنى شعلة » – وتلاحظ ركاكة العبارة الإنجليزية .

(٣) سوء تفاهم حول اسم نوع الكبريت أو اللفائف لا تمكن ترجمته .

وكانت إيرينا تقول للتفينوف فى الوقت نفسه :

– يجب أن تأتى لتزورنا ، نحن نقيم فى فندق أوربا . وأنا فى المنزل دائماً من الساعة الرابعة إلى السادسة . إننا لم نتقابل من زمن طويل .

ونظر لتفينوف إلى إيرينا ، فلم تغض بصرها .

– أجل يا إيرينا بافلوفنا . إنه لزمن طويل ، مذ كنا فى موسكو .

فردت باختصار :

– فى موسكو . نعم ، فى موسكو . تعال . سنتكلم ونتذاكر الأيام الخالية ، أتدرى يا جريجورى ميهالتش أنك لم تتغير كثيراً ؟

– حقاً ؟ ولكنك أنت تغيرت يا إيرينا بافلوفنا .

– لقد كبرت .

– لا ، لم أعن هذا .

– « إيرين ؟ » نادتها سيدة ذات قبعة صفراء وشعر أصفر ، بعد أن مهدت لذلك بهمس وضحك مع الضابط الجالس بجانبها . وكان فى صوتها نبرة الاستفهام .

– إيرين ؟

ومضت إيرينا تقول بغير أن تجيب السيدة :

– إننى أكبر مما كنت ، ولكنى لم أتغير . لا ، إنى لم أتغير فى شىء .

– « Deux gendarmes un beau dimanche »

سمع اللحن مرة أخرى . وكان الچنرال الضيق الصدر لا يذكر غير السطر الأول من الأغنية المشهورة .

« إنها لا تزال تخز قليلاً يا صاحب السعادة . » قالها الچنرال السمين ذو العارضين ، فى نبرات عالية ممطولة ، مستعيداً – على ما يظهر – عبارة من قصة مسلية ، معروفة فى « المجتمع الراقى » بأسره . ثم ضحك ضحكة قصيرة جافة وعاد يحدق فى الهواء من جديد . وضحك سائر الجماعة أيضاً . وقال راتميروف هامساً : « يالك من جرو حزين يا بوريس ! » وكان يتكلم بالإنجليزية ، ونطق اسم بوريس نفسه كأنه اسم انجليزى .

قالت السيدة ذات القبعة الصفراء مستفهمة للمرة الثالثة :

– إيرين ؟

فالتفت إليها إيرينا بحدة :

– (١) Eh bien ? quoi ? que me voulez-vous ?

فأجابات السيدة ، وهى تعبث بالحروف وتتغامز :

– (٢) Je vous le dirai plus tard.

وكانت تلك السيدة على قبحها لا تزال تتعابث وتتغامز . كانت تغامز الهواء ، كما قال عنها أحد الظرفاء .

وقطبت إيرينا جبينها وهزت كتفيها بصبر نافد . وصاحت إحدى السيدات بتلك النبرة المطوطة التى اختص بها أهل روسيا الكبرى ، والتى لا تكاد تطيقها الأذن الفرنسية :

– (٣) Mais que fait donc monsieur Verdier? Pourquoi ne vientil pas ?

فزفرت سيدة أخرى ، كان مسقط رأسها أرزاماس :

(٤) Ah wooi, ah wooi, M'sieur Verdier, M'sieur Verdier

وتدخل راتميروف فى حديثهما قائلاً :

Tranquillisez-vous, mesdames, Monsieur Verdier ma promis de venir se mettre á vos pieds (٥)

– هى هى هى !

وحركت السيدات مراوحهن .

(١) « حسناً ، ماذا ؟ ماذا تريدين منى ؟ » .

(٢) « سأقول لك فيما بعد » .

(٣) « ترى ماذا يفعل مسيو فردييه ؟ لماذا لا يأتى ؟ » .

(٤) « آه نعم ، آه نعم ، مسيو فردييه ، مسيو فردييه » .

(٥) «صبراً يا سيداتى ، لقد وعدنى مسيو فردييه بأن يأتى ليرتمى عند أقدامكن» .

وأحضر النادل بضعة أكواب من البيرة ، فسأل الچنرال ذو العارضين ، مصطنعاً صوتاً أجش :

– (١) Baierisch-Bier ? guten morgen !

وسأل چنرال شاب چنرالاً آخر فى برود وتراخ :

– حسناً ، ألا يزال الكونت بافل هناك ؟

فأجابه الآخر بمثل ردوده :

– نعم . (٢) Mais c'est provisoire. يقولون أن سرج سوف يحل محله .

فنفث الأول من بين أسنانه :

– آها !

ونفث الثانى :

– آه . نعم ..

وبدأ الچنرال الذى كان يدندن بالأغنية يقول :

– إنى لا أفهم ما الذى جرى لعقل بول ، لماذا يحاول تبرئة نفسه ، ويحتج بشتى الأسباب ؟ صحيح أنه كان قاسياً على التاجر (٣) Li lui a fait rendre gorge ولكن أى بأس فى ذلك ؟ لعل له دوافعه الخاصة .

فتمتم واحد منهم :

– لقد خاف ... أن تتحدث عنه الصحف .

فاحتد الچنرال الحنق :

– لم يبق إلا هذا ! الصحف ! تتحدث عنه ! لو كان الأمر بيدى لما تركت شيئاً يطبع فى هذه الصحف إلا الضرائب على اللحم والخبز ، والإعلانات عن بيع الفراء والأحذية .

(١) « بيرة بافارية ! صباح الخير ! » (بالألمانية) .

(٢) « لكن هذا مؤقت » .

(٣) «وطفحة الدم» .

فأضاف راتميروف :

– وممتلكات النبلاء المعروضة فى المزاد .

– نعم ، ربما ، فى هذه الأوقات .. ولكن هذا ليس موضوعاً نتكلم فيه فى بادن ، au vieux château (١)

فأجابت السيدة ذات القبعة الصفراء :

– Mais pas du Pas du tout ! أننى Jadore les questions Politiques tons politiques

وزاد چنرال آخر نو وجه طلق أشبه بوجوه الفتيات :

– (٢) Madame a raison . لماذا نتجنب هذه الموضوعات ... وإن كنا فى بادن؟ (ونظر إلى لتفينوف متلطفاً وابتسم فى تسامح ، إن الرجل الشريف يجب ألا ينكر معتقداته مهما تكن الظروف . ألا ترى ذلك ؟

فأجاب الچنرال الحنق ، وهو يرمى لتفينوف بنظرة ، وكأنه يهاجمه من طريق خفى :

– طبعاً . ولكنى لا أجد ضرورة ...

فقاطعه الچنرال المتسامح بتلك الرقة عينها :

– لا لا . إن صديقك فاليريان فلاديميروفتش قد أشار منذ برهة إلى بيع ضياع النبلاء . أليست هذه حقيقة واقعة ؟

فصاح الچنرال الحنق :

– ولكنها لا تباع فى هذه الأيام . فلا أحد يرغب فيها !

– ربما ... ربما . هذا أدعى إلى أن نقرر الحقيقة – المحزنة – فى كل مناسبة . إننا نفتقر ، نعم ، وتضيع هيبتنا ، هذا لا شك فيه ، ولكننا ، نحن الملاك الكبار . نمثل مبدأ : un principe وواجبنا هو أن نحافظ على هذا المبدأ . Pardon, Madame

(١) «أبداً أبد . إننى أعبد الموضوعات السياسية» .

(٢) «السيدة على حق» .

أظن أن منديلك وقع . عندما تشتبه الأمور على أكبر العقول يجب علينا – بوصفنا مواطنين – أن نشير فى تواضع إلى الهاوية التى ينحدر إليها كل شىء (وأشار الجنرال بأصبعه) . يجب أن نقول فى أدب وحزم : « ارجعوا ، ارجعوا ... » هذا ما يجب أن نقوله .

فقال لتفينوف ساهمًا :

– ولكنك تعلم أن الرجوع مستحيل .

فلم يزد الجنرال المتسامح على أن أبتسم وقال :

الرجوع ، الرجوع ، (١) mon trés cher وكلما رجعنا وجدناه خيراً .

ونظر الجنرال مرة أخرى إلى لتفينوف متلطفاً . فنفد صبر لتفينوف .

– أترى سعادتك أن نتراجع حتى البويار السبعة ؟

– لم لا ؟ إننى أقول رأيى بصراحة تامة . كل ما عمل يجب ، نعم ، يجبِ إلغاؤه .

– و ١٩ فبراير ؟ (٢)

– و ١٩ فبراير – كلما أمكن (٣) On est patriote ou on ne l'est pas. تسألوننى : « والحرية ؟ » ولكن هل تظنون أن الشعب يقدر هذه الحرية ؟ سلوهم ...

فقاطعه لتفينوف :

– حاولوا إذن أن تنتزعوا تلك الحرية مرة أخرى !

فهمس الجنرال مخاطباً راتميروف :

Comment nommez-vous ce monsieur ? (٤)

وانطلق الجنرال السمين فجأة يقول :

(١) « يا عزيزى » .

(٢) صدر مرسوم تحرير الأرقاء فى ١٩ فبراير سنة ١٨٦١ .

(٣) « إما أن يكون المرء وطنياً أو لا يكون » .

(٤) « ما اسم هذا السيد ؟ » .

– فيم تتناقشون هنا ؟ – وكان جلياً أنه يمثل بين أصدقائه دور الطفل المدلل – أكل هذا عن الصحف ؟ عن الجرنالجية ؟ سأخبركم بحكاية لى مع كاتب صغير – لذيذ جداً . قيل لى أنه كتب يشهر بى . أمرت بشده حالاً . فشدوه . قلت له : « كيف حدث أنك شهرت بى ؟ هل حتمت عليك الوطنية هذا ؟ » قال : « نعم . » قلت له : « والنقود يا حضرة الجرنالجى ؟ هل تحبها ؟ » قال : « نعم » . عند ذلك يا سادتى الأعزاء وضعت مقبض عصاى تحت أنفه ، وقلت له : « وهل تحب هذا يا ملاكى ؟ » قال : « لا ، إنى لا أحب هذا . » قلت له : « شمه جيداً . إن يدى نظيفتان . » فما قدر إلا أنه كرر : « لا ، إنى لا أحبه . » قلت : « أما أنا فأحبه جداً يا عزيزى . ولكنى لا أحبه لنفسى . أتفهم هذا المثل يا كنزى ؟ » قال : « نعم . » قلت : « إذن فاعمل على أن تكون غلاماً طيباً فى المستقبل . والآن هاك روبلا فضياً جميلاً من أجلك . اذهب وسبح بحمدى آناء الليل وأطراف النهار . » وهكذا ذهب الجرنالجى .

وانفجر الچنرال ضاحكاً . وحذا الباقون حذوه مرة أخرى ، إلا إيرينا فإنها لم تبتسم بل نظرت إلى المتكلم نظرة سوداء .

وضرب الچنرال المتسامح بيده كتف بوريس :

– هذا كله من خيالك يا صديقى العزيز ... أأنت تهدد أى إنسان بعصا ؟ بل أنت لا تحمل عصا (١).est pour faire rire ces dames إنما تريد أن تروى قصة مسلية. ولكن ليس هذا هو المهم . لقد قلت منذ برهة أننا يجب أن نرجع إلى الوراء تماماً . افهمنى . إننى لست عدواً لما يسمى التقدم . ولكن كل هذه الجامعات والمعاهد والمدارس – كل هؤلاء الطلاب أبناء القسس والعوام ، كل هذا الفقس الصغير ، tout se fonddu sac, la petite proprieté pire que la proletariat (نطق الچنرال هذه العبارة بصوت متراخ يكاد يكون متهالكاً) (٢) Voilá ce qui meffraie . هنا يجب على المرء أن يقف ، ويضع حداً فاصلاً . (ونظر إلى لتفينوف مرة أخرى نظرة لطيفة .) نعم ، يجب أن نضع الحد الفاصل – تذكروا أننا لا نريد شيئاً . ليست لنا أى مطالب . الحكم الذاتى مثلاً – من يطلبه ؟ أتطلبه أنت ، أو أنت ، أو أنت ، أو أنتن ياسيداتى ؟ إنكن لا تحكمن أنفسكن فقط ، بل تحكمننا جميعاً أيضاً . (وأشرق وجه الچنرال بابتسامة رضا.) إذن لماذا نجامل يا أصدقائى الأعزاء ؟ إن الديمقراطية

(١) « إنما أردت أن تضحك السيدات » .

(٢) « كل هذه الحثالة : صغار الملاك الذين هم شر ممن لا يملكون – هذا ما يرعبنى » .

ترحب بكم ، إنها تتملقكم ، إنها مستعدة لتحقيق أهدافكم ... ولكنها سلاح ذو حدين . خير من هذا أن نعود إلى طريقنا القديم ، طريقنا المجرب .. إنه أكثر أمناً . لا تتركوا الغوغاء يجترئون عليكم ، بل ثقوا بالآرستقراطية ، ففيها وحدها القوة ... لا شك أن هذا أفضل . أما التقدم .. فأنا لا أعارضه فى الحقيقة بشرط ألا تعطونا محامين ومحلفين وموظفين منتخبين .. بشرط ألا تمسوا النظام . النظام قبل كل شىء . تستطيعون أن تبنوا الجسور ، والأرصفة ، والمستشفيات ، ولا بأس أيضاً بأن تضيئوا الشوارع بالغاز ...

فتنحنح الچنرال الحنق :

– إنهم يضرمون الحرائق فى بطرسبرج من كل ناحية . هذا هو التقدم الذى تتحدث عنه !

وقال الچنرال السمين ، وهو يترجح فى كرسيه ببلادة :

– أنت شديد المرارة . هذا واضح . يجب أن يجعلوك نائباً عاماً ، ولكنى أعتقد أن Avec (Orphée aux enfers) le progrés a dit son dernier mot. (١)

فقالت السيدة التى من أرزاماس ضاحكة :

Vous dites toujours des bêtises. (٢)

فأظهر الچنرال الغضب :

Je ne suis plus serieux, madame, que quand je dis dee bêtises. (٣)

فقالت إيرينا بصوت خفيض :

– لقد قال السيد فردييه هذه العبارة نفسها عدة مرات من قبل .

وصاح الچنرال السمين :

– De la poigne et des formes, de la poigne surtout.

(١) التقدم قال كلمته الأخيرة عندما ظهرت « أورفى فى الجحيم » (أوبرا هرابة للموسيقى الألمانى أوفنباخ – ١٨٥٨) .

(٢) « أنت دائماً تهزل » .

(٣) « أنا أكثر ما أكون جداً يا سيدتى عندما أهزل » .

أو بالروسية : « كن مؤدباً لكن استعمل قبضتيك . »

فقاطعه الچنرال المتسامح :

ـ آه . أنت شيطان ، شيطان خبيث . سيداتى ، لا تستمعن إليه . إن الكلب النابح لا يعض . إنه لا يهتم بشىء سوى الغزل .

وبدأ راتميروف يقول ، بعد أن تبادل مع زوجته نظرة :

– أنت مخطىء يا بوريس . لا بأس بأن تكون ماجناً ، ولكنك تبالغ كثيراً . إن التقدم ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية ، وهذا ما لا يجب أن ننساه . إنه بادرة يجب علينا أن نراقبها .

فأجاب الچنرال السمين مجعداً أنفه :

– حسناً . نحن جميعاً نعلم أنك طامع فى الوزارة .

– كلا ، مطلقاً ! تقول الوزارة ! ولكن المرء لا يسعه أن يغمض عينيه عن الحقيقة .

ودس بوريس أصابعه فى عارضيه مرة أخرى ، وحدق فى الهواء .

– .. الحياة الاجتماعية مهمة جداً . فى تطور الشعب ، وفى مصاير البلاد إن صح التعبير ...

فقاطعه بوريس مؤنباً :

– Valerien, il y a des dames ici.(١) لم أكن أتوقع هذا منك . أم أنت تريد أن تصبح عضواً فى لجنة ؟

فعلق الجنرال الحنق على ذلك قائلاً :

– ولكن هذه اللجان حلت كلها الآن والحمد لله .

وأخذ يدندن مرة أخرى :

Deux gendarmes un beau dimanche

(١) « فاليريان ، هنا سيدات ! » .

ورفع راتميروف منديلاً من الكتان الكبرى الرقيق إلى أنفه وانسحب من المناقشة . واستمر الجنرال المتسامح يكرر : « شيطان ! شيطان ! » ولكن بوريس التفت إلى السيدة التى « تغامز الهواء » ، وبغير أن يخفض صوته أو يغير تعبير وجهه ، أخذ يلح عليها بالسؤال « متى تقدر إخلاصه » ، لأنه يحبها . ويقاسى العذاب من جراء ذلك .

وفى أثناء هذا الحديث كان لتفينوف يزداد ضيقاً فى كل لحظة وثارت كبرياؤه ، كبرياؤه الشعبية النظيفة ، ثورة بالغة . فى أى شىء يشارك هو ، ابن الموظف البسيط، أولئك الآرستقراطيين العسكريين من بطرسبرج ؟ إنه يحب كل ما يكرهون ، ويكره كل ما يحبون . وإن شعوره بذلك لقوى حاد ، يحسه فى كل جزء من كيانه . إنه يجد نكاتهم سمجة ، ونبراتهم ممجوجة ، وكل إشارة من إشاراتهم كاذبة مصطنعة . وحتى نعومة حديثهم كان يجد فيها نبرة احتقار تثير كراهيته . ولكنه كان كالخجل أمامهم ! أمام هذه المخلوقات ، هؤلاء الأعداء ! « أف ! يا للخزى ! إن وجودى يضايقهم . إنهم يروننى أضحوكة . » كانت هذه هى الفكرة التى ظلت تدور برأسه . لماذا أبقى ؟ فلأذهب ، فلأنج الآن ! » وما كان وجود إيرينا ليستبقيه ، فإنها هى أيضاً كانت تثير فيه انفعالات سوداوية . فنهض عن مقعده وبدأ يستأذن فى الانصراف . فقالت إيرينا :

– أذاهب الآن ؟

ولكنها بعد قليل من التفكير لم تلح عليه فى البقاء ، بل انتزعت منه وعداً بأن يزورها . وودعه الجنرال راتميروف بتلطفه البالغ ، وصافحه ورافقه إلى نهاية الشرفة .. ولكن لتفينوف لم يكد يعرج فى أول منحنى من منحنيات الطريق حتى سمع ضحكاً صاخباً خلفه . ولم يكن لهذا الضحك صلة به ، بل أثاره مقدم السيد فردييه المرتقب ، وقد ظهر فجأة على الشرفة ، لابساً قبعة تيرولية وجلباباً أزرق ، وراكباً حماراً . ولكن الدم اندفع إلى خدى لتفينوف اندفاعاً ، وأحس بمرارة فظيعة ، وانطبقت شفتاه كأنه تجرع علقماً . وتمتم : « مخلوقات سافلة حقيرة » ، ولم يفكر أن الدقائق القليلة التى أمضاها فى صحبتهم غير كافية لأن يصدر عليهم مثل هذا الحكم القاسى . هذه هى الدنيا التى سقطت فيها إيرينا ! إيرينا التى كانت له فى يوم من الأيام ... فى هذه الدنيا كانت تتحرك ، وتعيش ، وتحكم . لأجلها ضحت بكرامة نفسها ، وأنبل مشاعر قلبها ... هذا بلا ريب ما كان يجب أن يكون . لاشك أنها ما كانت تستحق مصيراً أفضل ! ما أسعده لأنها لم تسأله عما ينتويه ! لعله كان يفتح قلبه

«أمامـهـم» ، « فى محضرهم » ... وتمتم لتفينوف وهو يستنشق أنفاساً عميقة من الهواء النقى ، ويهبط فى الطريق المنحدر إلى بادن يكاد يعدو : « لا يمكن ! أبداً ! أبداً ! » وفكر فى خطيبته .. فى تاتيانا الحلوة الطيبة النقية ، وفى طهرها ونبلها وصدقها ، فبأى حنان صادق تمثل ملامحها وكلماتها وعاداتها ، وبأى شوق تمنى عودتها !

وهذا المجهود السريع آثار أعصابه . فلما عاد إلى مسكنه جلس إلى منضدته وتناول كتاباً ، وفجأة تركه يسقط ، وقد أصابته رعدة ! ماذا جرى له ؟ لا شىء ، ولكن إيرينا ... إيرينا ... وعلى حين غرة بدا له لقاؤه وإياها شيئاً مدهشاً ، غريباً – غير عادى . أهذا ممكن ؟ لقد رأى إيرينا نفسها ... لقد تحدث معها ... وكيف لم يجد فيه أثراً من تلك الدنيوية البغيضة التى كانت تتجلى فى كل أولئك الآخرين ؟ لماذا خيل إليه أنها كالضجرة أو كالحزينة أو كالساخطة على ما يحيط بها ؟ إنها فى معسكرهم ، ولكنها ليست بعدو . وماذا يجبرهم على أن تبش له وتدعوه لزيارتها ؟

وذعر لتفينوف ، وصاح بحرارة : « تانيا ! تانيا ! أنت وحدك ملاكى الحارس – ملاكى الطاهر ، إنى أحبك وسأحبك دائماً . ولن أذهب إليها ... سأنساها نسياناً .. ! فلتسل نفسها مع چنرالاتها ! » .

وعاد لتفينوف إلى كتابه .

- ١١ -

تناول لتفينوف كتابه ثانية ، ولكنه لم يستطع أن يقرأ ، فغادر المنزل ، وسار قليلاً ، واستمع إلى الموسيقى ، وشاهد القمار ، وعاد مرة أخرى إلى غرفته ، وحاول أن يقرأ ، فلم يفلح فى هذه المرة أيضاً . كان الزمن يمر متثاقلاً كئيباً . وجاء بشتشا لكن - قاضى التحكيم الطيب - وجلس ثلاث ساعات كاملة . وكان يتكلم ويجادل ، ويثير مسائل ، ويحاضر من حين إلى حين . وكانت محاضراته فى موضوعات فكرية عالية أول الأمر ثم فى موضوعات عملية بعد ذلك . وقد نجح فى أن يشيع حوله جواً من الملل الفظيع ، حتى أن لتفينوف المسكين كاد يصرخ . كان بشتشا لكن لا يجارى فى قدرته على أن يرفع الإملال - الإملال المؤلم المروع المؤيس - إلى فن جميل ، ولم يكن له نظير فى ذلك حتى بين ذوى الأخلاق الممتازة أنفسهم ، وهم أساتذة ذائعو الصيت فى هذا الباب . وكان مرأى رأسه المشذب يبعث فى النفس قنوطاً لا فكاك منه ، ونبرات صوته الوئيدة الكسلانة كأنها لم تخلق إلا لتقرر فى يقين وجلاء حقائق من طراز أن اثنين فى اثنين تساوى أربعة لا خمسة أو ثلاثة ، وأن الماء سائل ، وأن العفو من شيم الكرام، وأن نظام الائتمان ضرورى فى المعاملات المالية - ضرورى للدولة كضرورته للأفراد ، وضرورى للأفراد كضرورته للدولة . وكان على الرغم من هذا كله رجلاً من خيار الناس ! ولكن هذا هو ما حكمت به الأقدار على روسيا . أن خيار الناس أغبياء .

وأخيراً ذهب بشتشا لكن وجاء بنداسوف ، وسأل لتفينوف من فوره - بصفاقة غريبة - أن يقرضه مائة جلد . وأعطاه لتفينوف ما طلب ، مع أنه لم يكن يميل إلى بنداسوف ، بل كان يبغضه ويحتقره ، وكان واثقاً أنه لن يرى نقوده ثانياً ، وكان هو نفسه فى حاجة إليها . وسوف يسأل القارئ : فما الذى جعله يعطيه النقود إذن ؟ الشيطان وحده يعلم ! فهذه ناحية قد برز فيها الروس أيضاً . وليضع القارئ يده على قلبه وليتذكر كم عملاً أتاه هو نفسه فى حياته بلا سبب ما . لم يعن بنداسوف حتى بأن يشكر لتفينوف بل طلب كوباً من الافنتالر (نبيذ بادن الأحمر) ، وانصرف دون أن يمسح شفتيه ، وهو يدق الأرض بقدميه دقاً عالياً مثيراً . وما كان أشد سخط لتفينوف على نفسه وهو ينظر إلى قفا البلطجى الغليظ الأحمر وهو خارج !

وقبل المساء تلقى لتفينوف رسالة من تاتيانا تخبره فيها بأن عمتها مريضة ، وأنهما لا تستطيعان الحضور إلى بادن إلا بعد خمسة أيام أو ستة . وكان لهذا النبأ

أثر سيىء فى نفس لتفينوف ، فزاد غيظه ، وأوى إلى سريره مبكراً وهو ضيق الصدر . ولم يكن اليوم التالى خيراً من سابقه ، بل لعله كان شراً منه . فقد امتلأت حجرة لتفينوف من الصباح الباكر بأبناء وطنه : بمبايف ، وفورشيلوف وبشتشالكن ، والضابطين ، والطالبين من هيدلبرج ، تكاثروا عليه جميعاً دفعة واحدة ، ولم ينصرفوا ألا وقت العشاء ، مع أنهم كانوا قد أفرغوا سريعاً ما عندهم من حديث وبدا عليهم الملل .

والحقيقة أنهم كانوا لا يعلمون ماذا يصنعون بأنفسهم ، فلما وجدوا فى مسكن لتفينوف « لزقوا » فيه كما يقولون . تكلموا أولاً عن عودة جوباريوف إلى هيدلبرج ، وضرورة رحيلهم فى أثره . ثم تفلسفوا قليلاً ، وذكروا المسألة البولندية ، ثم عرجوا على القمار وبنات الهوى ، واستطردوا إلى نوادر فاحشة . وأخيراً هبطوا إلى حكايات « الدباغين » وذوى القوة المفرطة . فتذاكروا أولاً كل ما كان يروى عن لوكيه ، وعن ذلك الشماس الذى التهم فى رهان أكثر من ثلاث وثلاثين « رنجة » ، وعن الأولانى أزيدينوف المشهور بفرط بدانته ،وعن ذلك الضابط الذى كسر عظمة ساق على جبهته . ثم تلا ذلك كذب صراح . فروى بشتشالكن نفسه وهو يتثاءب أنه عرف امرأة فلاحة فى روسيا الصغرى ، وجد عند وفاتها أن وزنها أكثر من نصف طن ، وعينا أفطر بثلاث وزات وسمكة ضخمة . وتحمس بمبايف فجأة وأعلن أنه يستطيع أن يأكل شاة كاملة – بشرط أن تكون « متبلة » طبعاً . وانفجر فوروشيلوف يروى شيئاً عن رفيق له فى المدرسة شديد الأيد ، وكانت روايته مختلطة اختلاطاً ألزمهم الصمت ، وبعد برهة نظر بعضهم إلى بعض وتناولوا قبعاتهم وانصرفوا .

وحين فرغ لتفينوف لنفسه حاول أن يعمل ، ولكنه أحس كأن رأسه ملىء بأبخرة متكاثفة ، فلم يستطع أن يعمل شيئاً ، وضاعت منه الليلة كما ضاع النهار . وفى صبيحة اليوم التالى لم يكد يتأهب لتناول فطوره حتى طرق بابه، فقال لتفينوف فى نفسه : يالله ! إنه واحد من أصدقاء الأمس أيضاً » . ونطق بشىء من الوجل :

– Herein ! (١) .

فانفتح الباب ببطء ودخل بوتوجين . وسر لتفينوف برؤيته سروراً عظيماً ، وجعل يقول وهو يشد بحرارة على يد ضيفه غير المنتظر :

– أهلاً أهلاً ! لقد أحسنت صنعاً بمجيئك ، كنت أود أن أذهب إليك ، ولكنك لم تشأ أن تخبرنى بمثواك . تفضل بالجلوس . ضع قبعتك . اجلس .

(١) « ادخل ! » (بالألمانية) .

ولم يجب بوتوجين على ترحاب لتفينوف الحار ، وظل واقفاً وسط الغرفة وهو يبدل ساقيه ، ولم يزد على أن ابتسم وهز رأسه ، وكان جلياً أن استقبال لتفينوف الحفى قد مس قلبه ، ولكن تعبير وجهه نم بشىء من الارتباك .

بدأ يقول فى تردد :

– هناك ... سوء تفاهم بسيط . طبعاً .. يسرنى دائماً أن أراك . ولكن الحقيقة ... أنى رسول إليك .

– أتعنى أنك ما كنت لتأتى إلى هنا من تلقاء نفسك ؟

– بلى ! ولكنى ... لا أظننى كنت أقدم على أن أتطفل عليك اليوم ، لولا أنى سئلت المجىء إليك . أجل ، إننى أحمل رسالة إليك .

– أأستطيع أن أعلم مرسلها ؟

– شخص تعرفه . إنها من إيرينا بافلوفنا راتميروف . لقد وعدتها منذ ثلاثة أيام أن تزورها ولم تفعل .

فحدق لتفينوف فى بوتوجين دهشاً :

ـ أتعرف مدام راتميروف ؟

– كما ترى .

– وتعرفها جيداً ؟

– يمكننى أن أقول إنى صديق لها .

وصمت لتفينوف برهة . وأخيراً قال :

– اسمح لى أن أسألك : هل تعلم لماذا تريد إيرينا بافلوفنا أن ترانى ؟

فمشى بوتوجين إلى النافذة :

– إلى حد ما . لقد سرت برؤيتك سروراً عظيماً على ما يبدو لى . وهى تريد أن تجدد علاقتها القديمة بك .

فردد لتفينوف :

– تجدد ... معذرة إذا أثقلت عليك . ولكن اسمح لى أن أسألك سؤالاً آخر : أتعلم أنت ماذا كانت طبيعة تلك العلاقة ؟

– لا ... لا أعلم فى الحقيقة .. وأضاف بوتوجين وهو يلتفت إلى لتفينوف فجأة وينظر إليه بعطف : ولكنى أظنها كانت علاقة وثيقة . لقد أثنت عليك إيرينا بافلوفنا ثناء عظيماً ، واضطررت أن أعدها بإحضارك . فهل تأتى ؟

– متى ؟

– الآن . حالاً .

فرفع لتفينوف يديه دهشاً . وأضاف بوتوجين :

– إن إيرينا بافلوفنا تظن أن الـ ... لا أردى ماذا أقول ... إن الملابسات التى صادفتها فيها أول أمس ما كانت تسر كثيراً . ولكنها كلفتنى : إن أقول لك إن الشيطان ليس حالك السواد كما يصورونه .

– م – م ... أهذا القول عن الملابسات ذاتها ؟

– نعم .. وعلى العموم أيضاً .

– م – م ... حسناً ، وما رأيك أنت فى الشيطان ياسوزونت إيفانتش ؟

– أظن يا جوريجورى ميهالتش أنه ليس كما يصورونه على أية حال .

– أهو خير مما يصورونه ؟

– لا أدرى إن كان خيراً أو شراً ، ولكنه مختلف . حسناً . هل نذهب ؟

– أرجو أن تجلس قليلاً أولاً . يجب أن أعترف بأن الأمر ما زال يبدو غريباً .

– أى غرابة ، إن جاز لى أن أسأل ؟

– كيف أمكن أن تصبح صديقاً لإيرينا بافلوفنا ؟

فأخذ بوتوجين يفحص نفسه بنظرة . ثم قال :

– حقاً إن الأمر يبدو بعيد التصديق بالنسبة إلى منظرى ومنزلتى فى المجتمع ولكنك تعلم أن شكسبير قال : إن فى السماء والأرض ياهوراشيو ... إلخ . ليست الحياة سهلة . وإليك هذا المثل : هذه شجرة قائمة أمامك والريح ساكنة ، فكيف تتلقى ورقة من غصن منحط مع ورقة من غصن عال ؟ هذا محال . ولكن العاصفة تهب ، فيتغير كل شىء ، وتتلقى الورقتان .

– أيه ؟ إذن فقد كانت ثمة عواصف ؟

– كيف لا ؟ هل تمر الحياة بغير عواصف ؟ ولكن كفانا فلسفة فقد آن أن نذهب .

وكان لتفينوف لا يزال متردداً ، فصاح بوتوجين وقد جعد وجهه ليثير الضحك :

– يالله ! ماذا جرى للشبان فى هذه الأيام ؟ سيدة رائعة الجمال تدعوهم إلى زيارتها ، وتبعث إليهم الرسل ، وهم يتهيبون ويترددون ! يجب أن تخجل يا سيدى العزيز . يجب أن تخجل . هذه قبعتك . خذها و « إلى الامام » كما يقول أصدقاؤنا الألمان المتحمسون !

وطال تردد لتفينوف برهة أخرى ولكنه تناول قبعته أخيراً وخرج من الحجرة مع بوتوجين .

- ١٢ -

ذهبا إلى أحد الفنادق الكبرى فى بادن وسأل عن مدام راتميروف . وسألهما الحارس أولاً عن اسميهما ، ثم أجاب على الفور أن « الأميرة بالمنزل » ، وصعد هو نفسه الدرج معهما ، وطرق باب المسكن ، وأنبأ بحضورهما ، فخفت الأميرة إلى استقبالهما . وكانت منفردة ، فقد سافر زوجها إلى كارلسروهة ليقابل شخصية رسمية كبيرة كان ماراً بتلك المدينة .

وكانت إيرينا جالسة إلى منضدة صغيرة تطرز حين عبر بوتوجين ولتفينوف عتبة الباب . فألقت بسرعة ما كانت تطرزه ، وأزاحت المنضدة الصغيرة ونهضت وقد غمر وجهها سرور صادق . وكانت تلبس رداء صباحياً مرتفعاً عند العنق ، يشف نسيجه الرقيق عن تعاريج كتفيها وذراعيها ،. وكان شعرها المعقوص بغير اعتناء قد تهدل على جيدها النحيل . ورمقت إيرينا بوتوجين بنظرة سريعة وتمتمت : Merci ، ومدت يدها إلى لتفينوف وهى تؤنبه برقة على نسيانه .

وأضافت :

– وأنت صديق قديم !

وبدأ لتفينوف يعتذر . فأسرعت تقول C'est bien, c'est bien (١) وأخذت منه قبعته وألحت عليه بلطف حتى جلس . وكان بوتوجين قد جلس أيضاً . ولكنه نهض مسرعاً ، واستأذن فى الذهاب قائلاً أنه على موعد لا يستطيع تأجيله وأنه سيأتى ثانية بعد الغداء . ورمقته إيرينا مرة أخرى بنظرة سريعة ، وأومأت إليه برقة ، ولكنها لم تحاول أن تستبقيه وما كاد يختفى خلف ستر الباب حتى ألتفتت بتلهف نحو لتفينوف ، وقالت : بالروسية فى صوتها الموسيقى الرقيق :

– ها قد أصبحنا وحيدين أخيراً . وأستطيع أن أقول لك كم أنا مسرورة برؤيتك . لأنها ... لأنها تمنحنى فرصة ... (وثبتت إيرينا عينيها بغير اضطراب) لأن أسألك المغفرة .

واجفل لتفينوف على الرغم منه . أنه ما كان يتوقع مثل هذا الهجوم السريع ما كان يتوقع أن تدير هى نفسها الحديث على الأيام الخالية . فتمتم :

– المغفرة ... عمه ؟

(١) « حسن ، حسن » .

فاحمر وجه إيرينا . وقالت :

– عمه ؟ أنت تدرى عمه – وأشاحت بوجهها قليلاً – لقد أسأت إليك يا جريجورى ميهالتش ، وإن كان ذلك قدراً كتب على (وتذكر لتفينوف رسالتها) ولست آسفة على شيء ... وعلى كل حال فقد فات أوان الأسف . ولكنى حين التقيت بك ذلك اللقاء المفاجيء ، قلت لنفسى أننا يجب أن نصبح صديقين ، لابد من ذلك ... وسوف أتألم كثيراً إن لم يتم ... ويبدو لى أن أول ما يجب هو أن نفسر مافات ، ولا نؤجل ذلك ولا نترك شيئاً لما بعد ، حتى لا يكون هناك أى ... gêne ... أى ارتباك ... يجب أن نفرغ من ذلك سريعاً يا جريجورى ميهالتش ، ويجب أن تقول أنك عفوت عنى ، وإلا خلتك تحس ... de la rancune Voila (١) . لعله غرور منى ، ولعلك نسيت كل شيء منذ زمن طويل جداً ، ولكن لا بأس قل لى أنك عفوت عنى .

نطقت إيرينا بهذا الحديث كله دون أن تتوقف ، واستطاع لتفينوف أن يرى دموعاً تلمع فى عينيها ... أجل ، دموعاً . فأخذ يقول مسرعاً :

– كيف هذا يا إيرينا بافلوفنا ؟ كيف تسألينني العفو والغفران ؟ إن كل هذا قد مضى وانقضى ، وإنى لا أملك إلا أن أدهش حين أراك – فى كل ما يحيط بك من مظاهر البذخ – مازلت تذكرين رفاق شبابك الخاملين ...

فقالت إيرينا برقة :

– أيدهشك هذا ؟

فأضاف لتفينوف :

– إنه يهزنى . لأنى ما كنت أظن ...

فقاطعته إيرينا :

– ولكنك لم تقل لى أنك عفوت عنى ...

– إنى مسرور بسعادتك سروراً صادقاً يا إيرينا بافلوفنا . وإنى لأتمنى لك من صميم قلبى كل خير ...

– ولن تذكرنى بشر ؟

(١) بعض الموجدة . هذا هو ! .

– لن أذكر شيئاً إلا اللحظات السعيدة التى كنت مديناً لك بها فى وقت من الأوقات .

ومدت إيرينا إليه كلتا يديها ، فقبض عليهما بحرارة ، وأبقاهما بين يديه زمناً ... وكأنما تحرك فى قلبه لتلك الملامسة الرقيقة شىء لم يحس به منذ زمن طويل . وكانت إيرينا مثبتة عينيها على وجهه مرة أخرى ، ولكنها كانت تبتسم هذه المرة ... ونظر هو إليها للمرة الأولى نظرة طويلة فاحصة ... فعرف ثانية تلك القسمات التى كانت عزيزة عليه زمناً ، العينين العميقتين بأهدابهما الرائعة ، الشامة الصغيرة على خدها ، منبت شعرها العجيب على جبينها ، عادتها فى عقد حاجبيها ولى شفتيها بطريقة فاتنة بديعة .. كل ذلك عرفه . ولكن أى جمال ! أى سحر أنثوى وأى حميا شباب فى جسمها الفتى ! ولا طلاء ولا مساحيق على الوجه النضر النقى ... نعم ، إن هذه امرأة جميلة . وغمرت لتفينوف موجة من التفكير ... ظل ينظر إليها ، ولكن أفكاره كانت بعيدة ... ولاحظت إيرينا ذلك ، فقالت بصوت مرتفع :

– حسناً . هذا جميل جداً . الآن استراح ضميرى . ويمكننى أن أرضى تطلعى . فرد لتفينوف شبه حائر :

– تطلعك ؟

– أجل ، أجل . إنى أود قبل كل شىء أن أعرف ماذا كنت تعمل كل هذا الوقت ، وماذا تريد أن تعمل فى المستقبل ، أريد أن أعرف كل شىء . كيف وماذا ومتى ... كل شىء . وحذار أن تخفى عنى الحقيقة ، فإن أخبارك لم تنقطع عنى ... بقدر استطاعتى ...

– أخبارى لم تنقطع عنك .. أنت .. هناك .. فى بطرسبرج ؟

– بين مظاهر البذخ التى تحيط بى ، كما قلت منذ برهة أجل ، إنها لم تنقطع عنى فى الحقيقة . أما ذلك البذخ فسوف نتحدث عنه فيما بعد ، ولكنك يجب أن تخبرنى الآن بكل ما عندك ، وأن تطيل ، ولا تختصر ، فلن يقطع أحد علينا حديثنا .

ثم أضافت إيرينا وهى تجلس فرحة مستروحة فوق كرسى كبير :

– ما أحلى هذا الحديث ! هات ما عندك !

فبدأ لتفينوف قائلاً :

– قبل أن أروى قصتى يجب أن أشكرك .

– علام ؟

– على طاقة الزهر التى وجدتها فى غرفتى .

– أية طاقة ؟ إننى لا أعرف شيئاً عنها .

– ماذا ؟

– أقول لك : إنى لا أعرف شيئاً عنها ... ولكنى منتظرة ... منتظرة سماع قصتك ... ما أكرم بوتوجين إذ جاء بك إلى هنا !

وأرهف لتفينوف أذنيه . وسأل :

– هل عرفت هذا السيد بوتوجين منذ وقت طويل ؟

– أجل ، منذ وقت طويل ... ولكن أخبرنى بقصتك .

– وهل تعرفينه جيداً ؟

فتنهدت إيرينا وقالت :

– أجل ! لأسباب خاصة ... لقد سمعت بالطبع عن اليزابيلسكى .. التى ماتت منذ عامين تلك الميتة المروعة ؟ .. آه ، كلا ، لقد نسيت أنك لست عالماً بكل فضائحنا ... هذه نعمة ! أوه ! quelle chance (١) أخيراً ، أخيراً ألتقى بإنسان ، بإنسان حقيقى لا يعلم شيئاً عنا ! وأتكلم معه بالروسية ... ولو أنها روسية رديئة ، بدلاً من هذه الفرنسية البطرجية الكريهة الباهتة المملة !

– تقولين : إن بوتوجين كان على اتصال بـ ...

فقاطعته إيرينا قائلة :

– إن مجرد الإشارة إلى هذه القصة يؤلمنى . لقد كانت اليزا صديقتى الحميمة فى المدرسة ، وكنا نتزاور دائماً بعد ذلك فى بطرسبرج . وكانت تفضى إلىَّ بكل أسرارها ، فقد كانت شقية معذبة . وبوتوجين كان شهماً حقاً فى مسلكه نحو المسألة كلها . لقد ضحى بنفسه ، ولم أقدره إلا منذ ذلك الحين .

(١) « ياله من حظ سعيد ! » .

ولكننا ابتعدنا عن موضوعنا مرة أخرى . إنى منتظرة قصتك يا جريجورى ميهالتش .

– ولكن قصتى لا تشوقك البتة يا إيرينا بافلوفنا .

– هذا لا يعنيك .

– تذكرى يا إيرينا بافلوفنا أننا لم نتقابل منذ عشر سنوات . عشر سنوات كاملة. ما أكثر ما فعل الزمن فى هذه السنوات العشر !

– ولهذا أريد أن أسمع حديثك .

– ثم إنى لا أدرى من أين أبدأ .

– من البداية . منذ ... منذ رحلت إلى بطرسبرج . لقد غادرت أنت موسكو بعدئذ. أتدرى أنى لم أعد قط إلى موسكو منذ ذلك الحين ؟

– حقاً ؟

– كان ذلك مستحيلاً فى أول الأمر . ثم لما تزوجت ...

– هل تزوجت منذ زمن طويل ؟

– منذ أربع سنوات .

– أليس لك أبناء ؟

– فأجابت بخشونة :

– لا .

وصمت لتفينوف برهة .

– وهل مكثت عند ذلك ... الكونت ريزنباخ حتى تزوجت ؟ فنظرت إليه إيرينا نظرة ثابتة ، كأنها تريد أن تعلم لماذا سأل هذا السؤال . وأخيراً أجابت :

– لا .

– أظن أبويك .. معذرة ، أنى لم أسأل عنهما . أهما ...

– إنهما كليهما بخير .

– ويعيشان فى موسكو كما مضى ؟

– ويعيشان فى موسكو كما مضى .

– وأخوتك وأخواتك ؟

– كلهم بخير . وأنا أرعاهم جميعاً .

فقال لتفينوف وهو يرمق إيرينا من طرف خفى :

– آه ؟ لست أنا الذى يجب أن أروى قصتى ، بل أنت . لو .. وارتبك فجأة وصمت. ورفعت إيرينا كفيها إلى وجهها وأخذت تدير خاتم الزواج فى أصبعها . وأخيراً قالت :

– حسناً . لن أرفض ذلك . ربما .. فى يوم من الأيام ... ولكن ابدأ أنت ، فإنى لا أكاد أعلم شيئاً عنك ، مع أنى حاولت أن أتتبع أخبارك . أما أنا فقد سمعت عنى كثيراً . أليس كذلك ؟

ألم تسمع عنى ؟

– إنك يا إيرينا بافلوفنا قد شغلت مكاناً ظاهراً فى المجتمع ، فهل كان يمكن ألا يتحدث الناس عنك . خصوصاً فى الريف ، حيث كنت أعيش ، وحيث كل شائعة تصدق ؟

– وهل تصدق الشائعات ؟ وما نوع هذه الشائعات ؟

– إن أردت الحقيقة يا إيرينا بافلوفنا فإن هذه الشائعات كانت نادراً ما تصلنى . لقد كنت أحيا فى عزلة تامة .

– كيف هذا ؟ ألم تكن فى القرم ؟ وفى الجيش ؟

– أتعلمين هذا أيضاً ؟

– كما ترى . لقد قلت لك أنك كنت مراقباً .

فأحس لتفينوف بالحيرة مرة أخرى . وقال هامساً :

– ولما أخبرك بما تعرفينه من قبل ؟

– لماذا ؟ لأنى أسألك . ألا ترى أنى أسألك هذا منك يا جريجورى ميهالتش ؟

فحنى لتفينوف رأسه وبدأ ... بدأ يقص على إيرينا فى أسلوب مضطرب مجمل مغامراته التى لا تشوق . بل إنه كان كثيراً ما يقف وينظر إلى إيرينا مستفهماً ، كأنه يسأل هل اكتفت بما روى ، ولكنها ألحت عليه ليتم قصته ، وبدت وهى تنحى شعرها خلف أذنيها ، وتعتمد بمرفقيها على ذراع كرسيها ، كأنما هى تلتقط كل كلمة فى انتباه شديد . ولعلك لو نظرت إليها من جانب وتابعت تعبير وجهها لخيل إليك أنها لا تسمع شيئاً مما يقوله لتفينوف ، ولكنها غارقة فى تأملها . بيد أنها لم تكن تتأمل لتفينوف ، وإن أطالت إليه النظر حتى اضطرب واحمر وجهه . لقد كانت تتمثل أمامها حياة بأسرها ، حياة مخالفة جد المخالفة لما كانت تسمع ، حياتها هى لا حياته .

لم يتم لتفينوف قصته ، بل قطعها وقد خامره إحساس بالضيق . ولم تقل له إيرينا شيئاً فى هذه المرة ، ولم تحثه على المضى فى قصته ، بل ضغطت راحتها على عينيها كأنما هى متعبة ، واضطجعت فى الكرسى ببطء ، وظلت بغير حراك . وانتظر لتفينوف قليلاً ، ثم تذكر أن زيارته قد دامت أكثر من ساعتين ، فمد يده يريد قبعته ، وإذا بصوت حذاء من جلد الماعز ينبعث من الحجرة المجاورة ، وفاليريان فلاديميروفتش راتميروف يدخل مسبوقاً بعطره الأرستقراطى البديع .

ونهض لتفينوف ، وتبادل الانحناء مع الچنرال الوسيم ، بينما رفعت إيرينا يدها عن وجهها فى غير عجلة . وقالت بالفرنسية وهى تنظر إلى زوجها نظرة باردة :

– آه ، لقد عدت ! ولكن كم الساعة الآن ؟

فأجابها الچنرال :

– نحو الرابعة يا عزيزتى – وأنت لم تلبسى بعد . إن الأميرة تنتظرنا .

وحنى قوامه المحبوك نحو لتفينوف انحناءة رشيقة ، وقال بنبرته العابثة المتهالكة التى تكاد تكون أنثوية :

– الظاهر أن ضيفك العزيز أنساك الوقت .

وليسمح لنا القارئ عند هذه النقطة أن نحدثه بشىء عن الچنرال راتميروف . لقد كان أبوه ابنا غير شرعى لشخصية ممتازة فى عصر ألكسندر الأول ، من ممثلة فرنسية صغيرة حلوة . وقد مهد ذلك الشخص الممتاز لابنه طريقاً فى الحياة ، ولكنه لم

يترك له مالاً ، ولم يتسع الوقت للابن (والد بطلنا) حتى يجمع ثروة ، بل مات قبل أن يجاوز رتبة كولونيل فى البوليس . وكان قد تزوج قبل وفاته بعام أرملة شابة حسناء اتفق أن استظلت برعايته . وأدخلت « الواسطة » أبنهما فاليريان ألكسندرو فتش المدرسة الثانوية العسكرية ، وهناك لم يجتذب انتباه الرؤساء إليه بنجاحه فى العلوم ، بقدر ما أجتذبه بهندامه وآدابه وحسن سلوكه (وإن تعرض لكل ما لم ينج منه تلاميذ المدارس الحربية فى تلك الأيام) . ثم عين فى الحرس . ووصل فيه إلى مركز ممتاز بفضل تودده المؤدب ، ومهارته فى الرقص ، وحسن جلسته على ظهر الجواد فى الاستعراضات (وكان غالباً يستعير الجواد الذى يركبه) وقبل هذا كله براعة خاصة فى رفع الكلفة مع الرؤساء دون غض من أقدارهم ، ونوع من الملق اللطيف المهذب تمازجه مسحة من التحرر باهتة خفيفة كالهواء .. إلا أن هذا التحرر لم يمنعه من أن يجلد خمسين فلاحاً فى قرية من روسيا البيضاء بعث إليها ليخمد ثورة وكان جذاب المظهر ، زاهر الشباب ، مورد الخدين ، ناعماً خفيفاً لعاباً ، فوفق أعظم التوفيق مع النساء ، وجنت به السيدات الأرستقراطيات الناضجات . وكان الحذر له عادة ، والصمت ذريعة ، فراح يتنقل بين أرقى الأوساط كنحلة نشيطة تجمع العسل حتى من أتفه الأزهار . وكان بلا خلق ولا علم ، ولكن كانت له شهرة رجل عملى ، وحاسة فى معرفة الناس ، ومقدرة على فهم الظروف ، وكان له قبل ذلك كله عزم لا يتزعزع على منفعة نفسه ، فتفتحت له الأبواب كلها آخر الأمر .

ابتسم لتفينوف ابتسامة مغتصبة ، بينما لم تزد إيرينا على أن هزت كتفيها ، وقالت دون أن يزايلها برودها :

– حسناً ، هل رأيت الكونت ؟

– نعم رأيته . وقد أمرنى أن أبلغك تحيته .

– آه ! ألا يزال نصيرك هذا غبياً كما كان ؟

فلم يجب الچنرال راتميروف ، ولكنه ضحك ضحكة صغيرة من أنفه ، كأنه يتجاوز عما فى حكم امرأة من تسرع . كانت ضحكته هى تلك التى يجيب بها الكبار الطيبون على نزوات الأطفال . واستمرت إيرينا تقول :

– نعم ، إن غباء صديقك الكونت لشىء عجيب . وما أكثر ما رأيت من أعاجيب !

فتمتم الچنرال بين أسنانه :

– أنت التى أرسلتنى إليه .

التفت إلى لتفينوف وسأله بالروسية هل يعالج نفسه بمياه بادن ؟

فأجاب لتفينوف :

– إنى بصحة تامة والحمد لله .

فمضى الجنرال يقول وهو يبتسم ابتسامة تودد :

– هذه أعظم نعمة . الحق أن الناس لا يأتون إلى بادن عادة طلباً للمياه ، ولكن المياه هنا طيبة الأثر je veu dire efficace وكل من يعانى سعالاً عصبياً مثلى ...

فنهضت إيرينا مسرعة ، وقطعت بازدراء حديث زوجها قائلة بالفرنسية :

– نتقابل مرة أخرى يا جريجورى مهالتش ، وأرجو أن يكون ذلك قريباً ولكنى يجب أن أستعد للخروج الآن . إن تلك الأميرة لا تطاق بحفلاتها الدائمة التى لا تبعث إلا الملل .

فتمتم زوجها وهو يدلف إلى الحجرة المجاورة :

– أنت قاسية على كل إنسان اليوم .

وكان لتفينوف متجهاً إلى الباب ... فاستوقفته إيرينا قائلة :

– لقد أفضيت إلىَّ بكل شىء ، ولكنك أخفيت عنى أهم شىء .

– ومَا ذاك ؟

– ألست خاطباً ؟ لقد سمعت ذلك .

فاحمر لتفينوف حتى أذنيه ... والحق أنه تعمد ألا يشير إلى تاتيانا ، ولكنه أحس بغيظ شديد لأن إيرينا كانت عالمة بزواجه ، ثم لأنها اتهمته بالرغبة فى إخفاء الأمر عنها . وحار فيما يقول ، بينما لم ترفع إيرينا عينيها عنه . وأخيراً قال :

– نعم ، إنى خاطب .

وانصرف على الفور .

وعاد راتميروف إلى الحجرة وسأل :

– حسناً . لماذا لم تلبسى ؟

– اذهب وحدك . إنى أحس صداعاً .

– ولكن الأميرة ...

فقاست إيرينا زوجها من رأسه إلى قدمه بنظرة واحدة ، وأولته ظهرها ، وذهبت إلى مخدعها .

- ١٣ -

سخط لتفينوف على نفسه سخطا شديدا ، كأنه خسر فى الروليت أو أخلف وعدا . قال له صوت فى باطنه أنه ما كان يجوز له ، وهو على عتبة الزواج ، وهو رجل رزين لا صبى حدث ، أن يخضع لنوازع التطلع أو إغراء الذكريات . قال فى نفسه : « ما كان أغنانى عن الذهاب ! الأمر من جانبها لا يعدو أن يكون نزوة طارئة . إنها ملول إنها ضجرة بكل شىء . لقد اشتاقت إلىَّ كمن أتخمته أطايب الطعام فهو يتوق فجأة إلى الخبز الأسود ... حسنا ، إن هذا طبيعى جداً ... ولكن لماذا ذهبت إليها ؟ إننى لا أستطيع أن أحس نحوها شيئا .. سوى الاحتقار ! لم يستطع أن يفوه بهذه العبارة - حتى فى خياله - إلا بجهد ... وتابع أفكاره : ليس هناك أدنى خطورة بالطبع ، ولا يمكن أن تكون . إننى أعرف من أواجه ، غير أن المرء يجب ألا يلعب بالنار ... لن أضع قدمى فى منزلها ثانية . ولم يجرؤ لتفينوف أو لم يستطع حتى ذلك الحين أن يعترف لنفسه كم بدت له إيرينا جميلة ، وكم أحس أنه منجذب إليها .

ومضى اليوم مرة أخرى ثقيلا كئيبا . واتفق أن جلس لتفينوف على الغداء بجانب رجل أنيق مصبوغ الشارب ، لم ينبس بكلمة ، بل ظل يلهث ويدير عينيه فى محجريهما . ثم أخذه الفواق فاذا هو روسى مثل لتفينوف ، فقد صاح بالروسية فى حرارة : « آه ! ما كان يجب لى أن آكل الشمام ! » ولم يحدث فى المساء أيضا ما يعوض اليوم المفقود . وربح بنداسوف ، أمام عينى لتفينوف ، أربعة أضعاف ما اقترضه منه ، لكنه - بدلا من أن يرد إليه دينه - حدق فى وجهه تحديقا فيه شىء من الوعيد ، كأنه مستعد لأن يقترض منه أكثر مما اقترض ، لا لشىء إلا لأنه رآه يربح . وفى اليوم التالى غزاه مرة أخرى جحفل من مواطنيه . وتخلص لتفينوف منهم بصعوبة ، وانطلق إلى الجبال .

التقى أولا بإيرينا ، فتجاهلها ومر بها مسرعا . ثم التقى ببوتوجين . وكان موشكا أن يبدأه بالحديث ، لولا أن بوتوجين لم ينشط لإجابته ، وكان ممسكا بيد طفلة أنيقة الملبس ، ذات خصل خفيفة ناعمة تكاد تكون بيضاء اللون ، وعينين سوداوين واسعتين ، ووجه صغير مدنف ، عليه طابع الإصرار ونفاد الصبر الذى يتسم به الأطفال المدللون . وأمضى لتفينوف ساعتين فى الجبال ، ثم سار فى طريق لختنتال عائدا إلى مسكنه ... وإذا هو بسيدة جالسة على مقعد ، وعلى وجهها نقاب أزرق ، تنهض مسرعة وتقبل نحوه . وعرف فيها إيرينا .

قالت فى ذلك الصوت المضطرب الذى يدل على انفعال كظيم :

– لماذا تتجنبنى ياجريجورى ميهالتش ؟

فأجفل لتفينوف :

– أنا أتجنبك يا إيرينا بافلوفنا ؟

– أجل . أنت ...أنت ...

وكانت ايرينا تبدو ثائرة إلى حد الغضب :

– أؤكد لك أنك مخطئة .

– لا . لست مخطئة . أتظننى لم أعرف هذا الصباح – حين التقينا – أنك عرفتنى ، أم تريد أن تقول أنك لم تعرفنى ؟ أخبرنى !

– حقا ... يا إيرنيا بافلوفنا ...

– جريجورى ميهالتش ؟ أنت رجل صريح . لقد كنت صادقا معى دائما . أخبرنى . أخبرنى . ألم تعرفنى ؟ ألم تدر وجهك عامدا ؟

ونظر لتفينوف إلى إيرينا . كانت عيناها تلمعان ببريق غريب ، بينما كان خداها وشفتاها شاحبة شحوب الموت تحت قناعها الكثيف . وكان فى تعبير وجهها ، وفى همسها المتقطع ، شىء حزين ضارع لا سبيل إلى مقاومته ... فلم يستطع لتفينوف أن يمضى فى ادعائه . قال بجهد :

– نعم ... عرفتك .

ارتجفت إيرينا رجفة خفيفة ، وأرخت ذراعيها ، وهمست :

– لماذا لم تأت إلىَّ ؟

– لماذا ؟ لماذا ؟

ومال لتفينوف إلى جانب الطريق ، وتبعته إيرينا صامتة . وردد مرة أخرى «لماذا !» واتقد وجهه فجأة ، وشد على قلبه وحلقه غضب مرير .

– أتسألين بعد كل ما حدث بيننا ! لا أعنى الآن بالطبع ، لا أعنى الآن ، بل هناك ... هناك ... فى موسكو .

وبدأت إيرينا تقول :

– ولكننا اتفقنا ... لقد وعدتنى ...

– لم أعدك بشىء ! معذرة إذا تكلمت بخشونة ، فإنك تريدين الحقيقة . احكمى أنت نفسك : كيف أفسر ... لست أدرى ماذا أسميه ! كيف أفسر إلحاحك إلا أن يكون لعبا لا أفهمه، رغبة فى أن تختبرى مقدار سلطانك الباقى على؟ لقد سار كل منا فى طريق . لقد نسيت كل شىء . لقد قاسيت هذه المحنة كلها منذ عهد بعيد . لقد أصبحت رجلا آخر . وأنت متزوجة ، وسعيدة فى الظاهر على الأقل ، تشغلين مكانا مرموقا فى المجتمع ، فما الغاية وما الفائدة من لقائنا ؟ ما أنا عندك ؟ وما أنت عندى ؟ إننا لا نستطيع حتى أن نتفاهم الآن . لا شىء مشترك بيننا الآن ، لا من الماضى ولا من الحاضر ! وخصوصا ... وخصوصا الماضى !

قال لتفينوف هذا كله سريعا متقطعا ، لم يلتفت أثناء كلامه ، ولم تبد إيرينا حراكا، إلا أنها مدت يديها نحوه بضعف . كانت كأنها تضرع إليه أن يسكت ويستمع إليها ، ولكنها عضت شفتها السفلى عضا خفيفا عندما سمعت كلماته الأخيرة ، وكأنها تريد أن تصمد لألم جرح حاد سريع .

وأخيرا بدأت تقول فى صوت أهدأ ، وهى تزداد ابتعادا عن الجادة ، حيث كان المارة يعبرون من حين إلى حين :

– جريجورى ميهالتش !

وتبعها لتفينوف بدوره :

– جريجورى ميهالتش ! صدقنى ! إننى لو كنت أتوهم أن لى ذرة من السلطان عليك ، لكنت أول من يتجنبك . فإن كنت لم أصنع ذلك ، إن كنت قد جرؤت على أن أجدد معرفتى بك ، رغم ... رغم الإساءة التى قدمتها إليك فى الماضى ، فما ذلك إلا لأن ... لأن ...

فسأل لتفينوف بشىء من الفظاظة :

– لأن ماذا ... ؟

فمضت إيرينا تقول بحدة مفاجئة :

– لأنى لم أعد أحتمل ، لأنى أختنق فى هذا « المجتمع » ، فى هذه المكانة المرموقة التى تتحدث عنها . لأنى إذ ألقاك أجد رجلا حيا بعد كل هؤلاء الدمى – لقد رأيت نماذج منهم منذ ثلاثة أيام فى القلعة القديمة – فأسعد بك كأنك واحة فى الصحراء ، بينما أنت تظننى أغازل ، وتحتقرنى وتصدنى محتجا بأنى أسأت إليك ! لقد أسأت إليك حقا ، ولكنى أسأت إلى نفسى أكثر مما أسأت إليك !

فقال لتفينوف مرة أخرى ، وبغير أن يلتفت أيضا :

–لقد اخترت مصيرك بنفسك يا إيرينا بافلوفنا .

فقالت إيرينا مسرعة ، وكأنها تجد عزاء خفيفا فى خشونة لتفينوف :

– أجل ، لقد اخترته بنفسى ، وأنا لا أشكو ، ولا يحق لى أن أشكو . أنا أعلم أنك لابد أن تظن بى السوء ، ولن أبرئ نفسى . إنى لا أريد إلا أن أوضح لك إحساسى . أريد أن أقنعك أنى لست بحيث أغازل الآن ... أنا أغازلك ! كيف ! إن هذا غير معقول ! عندما رأيتك انبعث كل ما كان شابا ونبيلا فى ... ذلك الزمن حين لم أكن بعد قد اخترت مصيرى ، كل ما فى تلك الفترة المشرقة التى اختفت وراء هذه الأعوام العشرة ...

– مهلا يا إيرينا بافلوفنا ! إن مبلغ علمى أن إشراق حياتك يبدأ بالضبط منذ افترقنا ...

فوضعت إيرينا منديلها على شفتيها :

– إن ما تقوله شديد القسوة ياجريجورى ميهالتش ، ولكنى لا أستطيع أن أحس حنقا عليك . كلا . لم يكن ذلك العهد مشرقا . إننى لم أرحل عن موسكو لأعدو سعيدة ، بل لم أعرف لحظة واحدة من السعادة ... صدقنى ، مهما قيل لك . لو كنت سعيدة لما حدثتك كما أحدثك الآن ... أؤكد لك أنك لا تدرى حقيقة هؤلاء الناس ... إنهم لا يفهمون شيئا ولا يعطفون على شىء . حتى الذكاء ليس عندهم ni esprit ni intelligence [(1)] لا شىء إلا الـ faire savoit [(2)]. والخبث . وفى باطنهم لايبالون بموسيقى ولا برسم ولا بشعر ... سوف تقول إنى أنا أيضا لم أكن أبالى بشىء من ذلك ، ولكن ليس إلى هذه الدرجة ياجريجورى ميهالتش ... ليس إلى هذه الدرجة ! إن هذه التى تقف أمامك

(١) « لا روح ولا عقل » .
(٢) « المكر » .

الآن ليست سيدة صالون ، ما عليك إلا أن تنظر لترى - ليست « نجمة مجتمع » - أظنهم يلقبوننا بهذا الاسم - لكن مخلوقة مسكينة مسكينة ، تستحق الرثاء حقا . لا تعجب لكلماتى ... فكبريائى لاتعنينى الآن ! إنى أمد يدى إليك كشحاذة ... إنى أسألك الصدقة ..

وأضافت باندفاع وقد عجزت عن كبح نفسها :

- إنى أسألك الصدقة ، وأنت ...

وتهدج صوتها . ورفع لتفينوف رأسه ونظر إلى إيرينا . كانت أنفاسها تتلاحق ، وشفتاها ترتعشان . ودق قلبه سريعا وسكت عنه الغضب .

ومضت إيرينا تقول :

- تقول إن كلا منا سار فى طريق . وأعلم أنك على وشك الزواج عن حب ، وأنك رسمت خطة حياتك . هذا كله صحيح . ولكننا لم نصبح غريبين كلا عن الآخر ياجريجورى ميهالتش . ما زلنا نستطيع أن نتفاهم . أم تظن أنى تفهت تماما ، أنى غرقت فى الوحل إلى أذنى ؟ كلا ! أرجوك ألا تظن هذا ! أرحنى قليلا من هذه الحياة - أضرع إليك بحق الأيام القديمة نفسها ، إن كنت لا تريد أن تنساها . افعل هذا ، حتى لا يمر لقاؤنا وكأنه ما كان فهذا مرير ، ولن يطول لقاؤنا على كل حال ... لست أدرى كيف أوضح ... ولكنك ستفهمنى ، لأنى أريد شيئا قليلا ، شيئا قليلا جدا ... لا أريد غير قليل من العطف . أريد ألا تصدنى وأن تدعنى أتنفس ...

وكفت إيرينا عن الكلام ، وكان صوتها دامعا . تنهدت ، ونظرت إلى لتفينوف نظرة باحثة شبه مختلسة ، ومدت يدها إليه ... فأخذ لتفينوف اليد وضغط عليها ضغطة خفيفة .

وهمست إيرينا :

- لنكن صديقين .

فردد لتفينوف حالما :

- صديقين .

- نعم صديقين . أما إن كان هذا إسرافا فى الطلب ، فليكن بيننا على الأقل شىء من الود .... لنكن كأن لم يحدث بيننا شىء من قبل .

فردد لتفينوف مرة أخرى :

– كـأن لم يحدث بيننا شيء من قبل .... لقد قلت يا إيرينا بافلوفنا منذ برهة إنى لا أريد أن أنسى الأيام الماضية ... فما قولك إن كنت لا أستطيع أن أنساها ؟

فعبرت وجه إيرينا بسمة سعادة اختفت على الفور ، وتلاها تعبير من الألم يوشك أن يكون رعبا .

– كن مثلى ياجريجورى ميهالتش . تذكر الطيب منها . وعدنى قبل كل شيء ... عدنى بشرفك ...

– ماذا ؟

– ألا تتجنبنى . ألا تؤذينى من غير داع . أتعد ؟ قل !

– نعم .

– وستبعد من عقلك كل فكرة سيئة عنى ؟

– نعم ... أما فهمك – فلن أحاوله .

– لا ضرورة لذلك ... على أنك بعد قليل ستفهم . أتعد ؟

– لقد وعدتك فعلا .

– شكرا . لقد اعتدت أن أصدقك . سأنتظرك اليوم وغدا . لن أخرج من المنزل . والآن يجب أن أتركك . إن عظمة الدوقة مقبلة على الطريق ... لقد لمحتنى ، ولابد أن أذهب لأكلمها ... وداعا حتى نلتقى ... هات يدك ! vite, vite [١] . إلى اللقاء .

وبعد أن ضغطت إيرينا على يد لتفينوف بحرارة ، سارت نحو سيدة وقور فى منتصف العمر ، تتهادى على الممر المغطى بالحصباء ، وفى صحبتها سيدتان أخريان وخادم جليل المنظر فى بزة رسمية .

قالت السيدة عندما انحنت إيرينا باحترام :

[٢] Eh bonjour, chére Madame. Comment allez-vous aujourd hui? Venez un peu avec moi.

فسمع صوت إيرينا يجيبها متملقا :

[٣] votre altesse a trop de bonté

(١) « أسرع ، أسرع ! » .

(٢) « صباح الخير ياسيدتى العزيزة . كيف أنت اليوم ؟ تعالى معى قليلا »

(٣) « هذا عطف كبير من عظمتك » .

- ١٤ -

انتظر لتفينوف حتى غابت الدوقة وحاشيتها عن نظره ، ثم سار منحدرا فى الطريق هو أيضا ، ولم يستطع أن يتبين مشاعره ، فقد كان خجلا بل خائفا ، وكان يحس مع ذلك زهوا ... لقد أخذه حديث إيرينا على غرة ، وغرق من كلماتها السريعة المندفعة فى سيل عاصف ، وقال لنفسه : ما أعجب نساء المجتمع هؤلاء ! متقلبات ... ما أشد ما تفسد عن البيئة التى يعشن فيها ، والتى يشعرن هن أنفسهن بفظاعتها ! ... وكان فى الحقيقة لا يفكر فى شىء من ذلك ، ولكنه كان يكرر هذه العبارات المحفوظة تكراراً آليا ، وكأنه يريد أن يدفع عن نفسه أفكارا أخرى أشد إيلاما ! أحس أنه يجب ألا يفكر الآن بجد فيندم ، فجعل يمشى بخطى متثاقلة ، يكاد يضطر نفسه إلى الانتباه لكل ما يصادفه ... وفجأة رأى نفسه أمام مقعد ، ولمح أمامه قدمين ، فصعد بصره فوجدهما لرجل جالس على المقعد يقرأ صحيفة . ووجد ذلك الرجل بوتوجين . وبدرت من لتفينوف نبرة تعجب خافتة . فألقى بوتوجين . الصحيفة على ركبتيه ونظر إلى لتفينوف بانتباه وبغير أن يبتسم ، ونظر لتفينوف إليه أيضا بانتباه وبغير أن يبتسم .

وسأل أخيرا :

- أتسمح لى أن أجلس بجانبك ؟

- بكل سرور. ولكنى أرجو ألا تغضب منى إذا حدثتنى ،فإنى اليوم منقبض المزاج ، ساخط على البشرية ، يبدو لى كل شىء فى أسوأ صورة .

فأجاب لتفينوف وهو يهبط على مقعده :

- هذا حسن ياسوزونت إيفانتش . الواقع أن هذا المزاج يناسبنى جدا . ولكن ما الذى أوصلك إليه ؟

فأخذ بوتوجين يقول :

- فى الحقيقة يجب ألا أسخط ، فقد قرأت فى الصحيفة منذ برهة مشروعا لإصلاح المحاكم فى روسيا . وقد سررت جدا لأن قادتنا سلكوا السبيل الصحيح أخيرا ، فأبوا أن يضيفوا إلى المنطق الأوربى الواضح المستقيم ذيلا من عندياتنا ، متعللين بالأصالة

أو الوطنية ، بل أخذوا شيئا طيبا بكل حذافيره ، وإن كان أجنبيا . يكفى أننا تسامحنا فى موضوع الأراضى الزراعية ، فليس من السهل أن تلغى الملكية المشاعية ! أجل ، أجل ، لا يحق لى أن أسخط ، ولكنى وقعت لسوء حظى على أحد « ذوى المواهب الفطرية » وتحدثت معه ، ويا ويلى من ذوى المواهب الفطرية ، هؤلاء الذين علموا أنفسهم ! أنهم سيجعلوننى أتململ فى قبرى !

فسألَ لتفينوف :

– من تعنى ؟

– أوه ! هنا رجل يتسكع ويتوهم أنه موسيقى عبقرى . يقول لك : طبعا أنا لست شيئا ، أنا صفر ، لأنى لم أتعلم ، ولكن فى رأسى أنغاماً وأفكاراً أكثر مما عند مايربير . وأنا أقول : أولا ، إذا لم تتعلم ؟ وثانيا : دعنا من مايربير ، إن أحقر نافخ ناى ألمانى ، يؤدى دوره فى أحقر أوركسترا ألمانية ، لديه من الأفكار أكثر عشرين مرة مما لدى «ذوى المواهب الفطرية» مجتمعين . إلا أن عازف الناى يحتفظ بأفكاره لنفسه ، ولا يهلل لها فى بلاد مليئة بأمثال موزار وهايدن ، أما صاحبنا الموهبة الفطرية ، فما أن يعزف فالسا أو أغنية عزفا مخلخلا حتى يضع يديه فى جيبى بنطلونه وبسمة ازدراء على شفتيه – إنه عبقرى ! وهكذا الحال فى الرسم وفى كل شىء آخر . آه من هذه المواهب الفطرية ! كم أبغضهم ! كأن الناس جميعا لايعلمون أن هذه الهوشة الفنية والعلمية لا توجد إلا حيث لا فن حقيقى أصيل ولا علم حقيقى عميق الجذور . لقد حان الوقت لنطرح هذا التهويش ، بل هذا الهراء السخيف ، مع تلك العبارات المجوجة من مثل قولهم : لا أحد يموت جوعا فى روسيا ... السفر البحرى فى روسيا أسرع منه فى أى بلد آخر ... نحن الروس لا أحد يستطيع أن يغلبنا ... إننى أسمع دائما عن غنى الفطرة الروسية ، وعن غريزة الروس التى لا تخطئ ، وعن كوليبين ... ولكن ما هذه الفطرة الفنية ياسادة ؟ إنها ككلام النائم ، أو كحكمة الحيوان . الغريزة ! أى فخر ! خذ نحلة فى الغابة وضعها على مسافة ميل من بيتها ، فستهتدى إليه . إن الإنسان لا يستطيع أن يصنع شيئا كهذا ، ولكن هل تقول إنه أحقر من النحلة ؟ إن الغريزة لاتليق بالإنسان ، ولو أصابت دائما . العقل ، العقل السليم البسيط المستقيم هذا هو تراثنا وفخارنا . إن العقل لا يأتى بمثل هذه الغرائب ، ولكنه عماد كل شىء . أما كوليبين الذى توصل إلى صنع ساعات بالغة الرداءة دون أن يعلم شيئا عن الميكانيكا ، فأعتقد أن ساعاته يجب أن تعرض على الملأ مع هذه العبارة : انظروا ! هكذا يجب ألا تصنع

الساعات . ليس لأحد أن يلوم كوليبين نفسه ، ولكن عمله لا خير فيه . ولا بأس بأن نعجب بجرأة تياوشكين ، وبراعته إذ تسلق برج وزارة البحرية ، ولكن لا حاجة بنا أن نصيح بأنه أظهر جهل المهندسين الألمان ، وأن كل ما يعملونه هو سرقة أموالنا... فإنه لم يظهر جهلهم مطلقا ، لأنه البرج احتاج إلى إصلاح فلم يكن بد من رفع سقالة حوله وترميمه بالطريقة المعروفة . بالله لا تشجعوا قولهم فى روسيا إن كل شىء يمكن عمله بلا تعلم ! كلا . قد يكون لك عقل سليم ، ولكنك يجب أن تدرس ، وأن تبدأ من ألف باء . وإلا فالجم لسانك واصمت وتواضع ! أف ! إن هذا يجعلنى أغلى ! ونزع بوتوجين قبعته وجعل يروح عن نفسه بمنديله . ثم عاد يقول :

– الفن الروسى ! الفن الروسى حقا !.. إننى أعرف الغرور الروسى ، والعجز الروسى ، أما الفن الروسى فاسمح لى أن أقول لك إنى لم أعثر عليه قط . لقد مكثوا عشرين سنة يمجدون ذلك النكرة الهزيل بريولوف ، ويتوهمون أننا أنشأنا مدرسة فى التصوير خاصة بنا ، بل إن هذه المدرسة لا تقاس بها جميع المدارس الأخرى ... الفن الروسى ! ها ها ها ! هو هو هو !

فعقب لتفينوف :

– معذرة ياسوزونت ايفانتش . أتأبى الاعتراف بفضل جلنكا أيضا ؟

– إن الشاذ كما تعلم يثبت القاعدة . على أننا لا نستغنى عن التنفج حتى فى أمر جلنكا . ولو قلنا مثلا أن جلنكا موسيقار ممتاز حقا ، وأنه لولا ظروف خارجة عنه وأخرى خاصة به لكان منشئ الأوبرا الروسية ، لو قلنا ذلك لما جادلنا فيه أحد ولكن لا ! إننا لايمكن أن نكتفى بهذا . بل يجب أن نرفعه فورا إلى رتبة القائد الأعلى فى الموسيقى . يجب أن نلزم الشعوب الأخرى حدها ، فليس عندهم من يضارعه . وسيؤيدنا فى ذلك عبقرى وطنى عجيب ، لا تعدو ألحانه الكبرى أن تكون تقليدا للموسيقيين الأجانب من الطبقة الثانية لأن تقليدهم أسهل . ليس عندهم من يضارعه ! حقا ! يا لكم من برابرة بلهاء مساكين لايقدرون الفن ، بل يرون الفنانين أشبه شىء ببطلنا رابو ! فهم يقولون إن العملاق الأجنبى يستطيع أن يرفع مائة رطل بيد واحدة ، أما رجلنا فيستطيع أن يرفع أربعمائة ! ليس عندهم من يضارعه ! إنى أخبرك بشىء أذكره ولا أستطيع نسيانه : فى الربيع الماضى زرت قصر البلور قرب لندن ، وفى ذلك القصر كما تعلم شبه معرض لكل ما ابتكرته عبقرية الإنسان ، أو إن شئت دائرة معارف للإنسانية . جعلت أسير ذهابا وجيئة بين المكنات والآلات وتماثيل عظماء الرجال ، وقلت لنفسى : لو حكم بأن الأمة التى تختفى عن وجه الأرض يختفى معها

كل ما لها فى قصر البلور من مخترعات لكان لأمنا روسيا المقدسة أن تختبئ فى أعماق الأرض بغير أن ينقل مسمار واحد من المكان . كل شىء يمكنه أن يستقر حيث هو . حتى السماور وأحذية الليف والشكيمة والسوط - منتجاتنا الشهيرة - لسنا نحن مخترعيها . ولكنك لا تستطيع أن تجرى هذه التجربة حتى مع سكان جزر ساندوتش ، فهؤلاء الجزريون قد صنعوا قوارب ومزاريق خاصة بهم ، فسوف يلاحظ زوار المعرض غيابهم . إنها معرة ! لعلك تقول أن هذه قسوة . ولكنى أجيبك أولا أنى لا أستطيع أن أهدل مثل الحمام وأنا أنظر إلى هذه العيوب ، وثانيا أن الشيطان ليس هو وحده الذى يخاف المرء أن ينظر إلى وجهه ، فما من أحد يجرؤ أن ينظر إلى نفسه ، ولا الأطفال وحدهم هم الذين يهدهدون حتى يناموا . لقد جاءتنا مخترعاتنا القديمة من الشرق ، واستعرنا مخترعاتنا الحديثة من الغرب ، وكدنا نفسدها بينما نصر على الحديث عن استقلال الفن الروسى . بل لقد اكتشف بعض الاجرياء علما روسيا أصيلا . إن اثنين فى اثنين تساوى أربعة عندنا كما هى عند سوانا ، لكن يظهر أننا وصلنا إلى هذه النتيجة ببراعة أعظم !

فصاح لتفينوف :

- ولكن مهلا ياسوزونت ايفانتش ! أرجو أن تنظر دقيقة ! فأنت تعلم أننا نرسل بعض الأشياء إلى المعارض العالمية . كما أن أوربا تستورد منا أشياء .

- نعم . الخامات . ولا تنس ياسيدى العزيز أن خاماتنا الجيدة يرجع الفضل فى جودتها إلى أشياء أخرى رديئة . فالشعر الذى نصدره مثلا كبير وقوى لأن خنازيرنا هزيلة . والجلود قوية وسميكة لأن أبقارنا نحيلة ، والشحم دسم لأنه أغلى مع نصف اللحم ... ولكن لماذا أطيل عليك فى هذا الكلام ؟ لقد درست التكنولوجيا ، ولاريب أنك تعرف هذا كله خيرا منى . إنهم يحدثوننى عن قدرتنا على الابتكار ! قدرة الروس على الابتكار ! هؤلاء فلاحونا يشكون مر الشكوى ويعانون الخسائر الفادحة لأنهم لا يجدون آله صالحة لتجفيف القمح ، تغنيهم عن وضع حزمهم فى حجرة الفرن كما كانوا يفعلون أيام روريك . إن هذه الأفران عظيمة الضرر - مثلها فى ذلك مثل أحذية الليف والحصر الروسية - وكثيرا ما تسبب الحرائق . والفلاحون يشكون ، وليس هناك ما يبشر بآلة تجفيف لم لا تظهر آلات التجفيف ؟ لأن الفلاح الألمانى لا يحتاج إليها . لأنه يستطيع أن يدرس قمحه كما هو ، فلا حاجة به إلى اختراع مثل هذه الآلة . ونحن ... نحن لا نستطيع أن نخترعها مهما نحاول . سأقول منذ اليوم كلما قابلت أحد هذه المواهب الفطرية ، هؤلاء العباقرة الذين علموا أنفسهم بأنفسهم : « مهلا ياصديقى

الفاضل ! أين آلة التجفيف ، نريد أن نراها ! » ولكن أنى لهم هذا! إننا قادرون أن نلتقط حذاء أطرحه سان سيمون أوفورييه[1] منذ أجيال ، فنضعه فوق رءوسنا ونعده أثرًا مقدسا ، وقادرون على أن نلفق مقالا عن الدور الذى لعبته البروليتاريا فى مدن فرنسا الكبرى قديما وحديثا ، ولكنى سألت مرة كاتبا وعالما اقتصاديا من هذا النوع – أشبه بصديقك السيد فوروشيلوف – أن يسمى عشرين مدينة فى فرنسا ، فماذا تظنه فعل ؟ لقد ألجأه اليأس إلى ذكر مونت فرمى على أنها مدينة فرنسية ، ولعله تذكرها من قصة لبول دى كوك . وهذا يذكرنى بقصة حدثت لى . كنت أجوس ذات يوم خلال غابة ومعى كلب وبندقية ...

فسأل لتفينوف :

– أأنت من هواة الصيد ؟

– إننى أخرج للصيد أحيانا . فذات يوم كنت أبحث عن مستنقع – أطنب لى هواة الصيد فى وصفه – لاصطياد الشناقب ، وبينما كنت مارا فى فرحة من الغابة رأيت شابا ظريفا جالسا أمام كوخ أحد تجار الخشب – ولابد أنه كان كاتب حساباته – وكان يبتسم لسبب لم أعلمه . فسألته : أين المستنقع ، وهل فيه كثير من الشناقب ؟ فانطلق مرحبا وقد بدا عليه السرور كأنى منحته روبلا : « أى خدمة . المستنقع من الطراز الأول ، أما الطيور البرية بأنواعها . ياسلام ! إنها كما تريد كثرة » . فانطلقت ، غير إنى لم أجد شيئا من الطيور البرية . وكان المستنقع نفسه جافا منذ زمن طويل . خبرنى الآن بربك : لماذا كان الروسى كذابا؟ لماذا يكذب عالم الاقتصاد ، ولماذا الكذب على الطيور البرية أيضا ؟

فلم يجب لتفينوف ، بل تنهد موافقا ، واستمر بوتوجين فى حديثه :

– أما إذا حدثت هذا الاقتصادى نفسه عن أدق مشاكل علم الاجتماع ، دون أن تتجاوز حدود النظرية ، أو تتناول الحقائق ، فإنه يحلق كالطائر بل كالنسر . على أنى نجحت مرة فى اقتناص أحد هذه الطيور . وكان الفخ الذى استعملته فخا بديعا ، وإن يكن ظاهرا ، كما سترى . كنت أتحدث مع واحد من شبابنا المتحرر فى مختلف « المشاكل » كما يقولون ، فتحمس كعادتهم دائما ، وانطلق يهاجم فى حرارة صبيانية حقة ، وكان من بين ما هاجمه نظام الزواج . وأوردت عليه الحجة بعد الحجة ... فكأنى أحدث جدارا . ورأيت أنى لن أغلبه بهذه الوسيلة ، فخطرت لى فكرة موفقة ! قلت له : « اسمح لى بملاحظة ياسيدى – ولابد أن تكون رسميا دائما حين تكلم هؤلاء الشباب

(١) فيلسوفان اشتراكيان فرنسيان ، من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر.

المتحررين – إنى لأعجب منك حقا ، فأنت تدرس العلوم الطبيعية ، ومع ذلك غاب عنك أن جميع الحيوانات الجارحة وآكلة اللحوم ، سواء أكانت وحوشا أم طيورا ، لابد لها أن تخرج باحثة عن الفريسة وأن تجتهد فى الحصول على طعام حيوانى لها ولأولادها ... أظنك تعد الإنسان من جنس هذه الحيوانات ؟ » فقال « الشاب المتحرر » : « أجل إنى أعد الإنسان من جنسها ، ليس الإنسان الا آكل لحم .» فزدت : «وجارحا ؟» فصرح : « وجارحا.» قلت : « حسنا . فكيف إذن لم تلاحظ أن هذه الحيوانات تعيش أزواجا ؟ » فانتفض « الشاب المتحرر » : « كيف هذا ؟ » قلت : « هو هذا . انظر إلى الأسد ، والذئب ، والثعلب، والنسر ، والصقر ... الواقع أنها لايمكن أن تكون غير ذلك . فبالكاد يستطيع الأبوان أن يعولا صغارهما . » ففكر الشاب ، ثم قال : « حسنا . يجب إذن إلا نقيس الإنسان على الحيوان . » وهنا قلت له أنه مثالى ، ففزع وكاد يبكى . واضطررت أن أطمئنه ، بأن وعدته ألا أخبر أصدقاءه ، فليس من الهين أن يستحق المرء أن يدعى مثاليا ! ولكن أهم نقطة يضل عندها شبابنا هى أنهم يتوهمون أن العمل السرى المتواضع القديم قد مضى أوانه ، وأن آباءهم الشيوخ لم يكن أمامهم إلا أن يحفروا فى باطن الأرض كالخلد ، أما هم فلا يليق بهم مثل هذا العمل ، فهم يقولون : سنعمل فى وضح النهار ! سننزل الميدان ! يا أصدقائى المساكين حتى أبناؤكم لن ينزلوا إلى الميدان ، فلماذا لاترجعون إلى الحفر فى بطن الأرض لتواصلوا عمل الأسلاف ؟

وساد صمت قصير ، ثم عاد بوتوجين يقول :

– أعتقد ياسيدى العزيز أننا لسنا مدينين للمدنية بالعلم والفن والقانون فحسب ، بل إن الإحساس بالجمال والشعر يتطور أيضا ويقوى بتأثير تلك المدنية نفسها ، وأن ما يسمى بالخلق الفطرى الشعبى إن هو إلا سخف وهذيان . حتى هوميروس نجد فيه آثار مدنية رافهة منوعة ، حتى الحب يزداد بالمدنية غنى وعمقا . لو لم يكن السلافوفيل أناسا طيبى القلوب لشنقونى على هذا الكفر ، ولكنى لن أغير رأيى ، ومهما يقدموا لى من مدام كوهانوفسكى و« عش النحل » فإنى لا أستطيع أن أحتمل رائحة مايسمونه الـ Triple extrait de moujik Russe [1] ، لأنى لست من الطبقة الراقية التى تحتاج أن تطمئن نفسها من حين إلى حين إلى أنها لم تعد فرنسية خالصة ، والتى لم يصنع ذلك الأدب En cuir de Russie [2] إلا لفائدتها . حاول أن تقرأ أمتع وأذيع القطع من « العش » على فلاح حقيقى ، فسيظن أنك تقرأ عليه تعويذة تدفع شر الحمى و تذهب داء السكر ، أعود فأقول : أنه بغير المدنية لا يوجد شىء حتى ولا الشعر .

(١) « روح الفلاح الروسى » .

(٢) « ذو الجلد الروسى » .

وإذا أردت أن تظفر بفكرة واضحة عن المثل الأعلى الشعرى للروسى غير المتمدن فارجع إلى أغانينا وأساطيرنا . لن أطيل القول فى أن الحب يصور كأنه نتيجة للأشربة السحرية والتعاويذ ، وأنه يسمى كهانة و « عملا» ، ولا فى أن ما يسمى بأدب الملاحم عندنا هو الأدب الوحيد فى الشرق والغرب - الأدب الوحيد - الذى لم يصور قط حبيبين نموذجيين ، إلا إذا كنت تصد فانكا وتانكا [1] من هذا الطراز ، ولا فى أن فارس روسيا المقدسة إنما يبدأ معرفته بعروسه المقبلة بأن يضربها على جسمها الأبيض « بسوطه المجدول » ، « لأنه يجعل جنس النساء لينات كالحرير » . سأترك هذا كله ، لأنبهك إلى الصورة الفنية للبطل الشاب ، « للجان برومييه » كما رسمه خيال الصقلبى الساذج غير المتمدن . انظر إليه . ها هو « الجان برومييه » مقبلا ، « عليه معطف من السنجاب صنعه لنفسه ، وأتقن خياطته ، وألحم غرزه وحزام من سبعة أدرج من الحرير عقده بأناقة على صدره ، وأصابعه مختفية فى كمية الطويلين الجميلين ، وياقته مرفوعة فوق رأسه تحجب وجهه المشرب بحمرة ، وكذلك رقبته الطويلة البيضاء وقد أمال قبعته الصغيرة على جنب ، ولبس فى قدميه حذاء من الجلد البديع ، له طرفان مدببان مقوسان وكعبان عاليان ، بحيث يمكنك أن تدير بيضة حول الطرفين ويمكن أن يطير عصفور بين الكعب والنعل . » وهذا الشاب الجميل يمشى بخطوات قصيرة سريعة مثل الكيبيادنا [2] - تشوريلو بلنكوفتش - الذى كان لمشيته المتصنعة تأثير عجيب أشبه بالدواء فى قلوب العجائز والفتيات . وما زال نزل الفنادق عندنا يمشون هذه المشية ، فيخيل إليك حين يثبون بخطا صغيرة أن كل مفاصلهم محلولة . وهذه المشية هى زبدة الغندرة الروسية وزهرتها ، غاية ما يتمناه الذوق الروسى .أنا لا أهزل . جمال الزكائب هذا مثل فنى . ما رأيك فى هذا النموذج ؟ أتراه نموذجا طيبا ؟ إتراه يقدم مادة جيدة للرسم والنحت ؟ وتلك الحسناء التى تخلب لب البطل الشاب ، ذات « الوجه الأحمر كدم الأرنب » ؟ أظنك غير مصغ إلىّ .

وانتبه لتفينوف ، فإنه لم يسمع فى الحقيقة ما قاله بوتوجين . لقد كان يفكر تفكيرا مستمرا ملحا فى إيرينا ، وفى لقائه الأخير بها .

وبدأ يقول :

(١) « إشارة إلى أغنية شعبية » .

(٢) الكيبادس قائد أثينى (٤٥٠ - ٤٠٤ ق . م) اشتهر بجماله وثرائه وذكائه المفرط ، وقدرته الحربية النادرة ، ولكنه لم يكن يثبت على مبدأ ، وكان شديد المهارة مع هواه ، فلم يطمئن اليه الايكتيون وانتهت حياته بالقتل .

– معذرة ياسوزونت ايفانتش ، ولكنى سأتطفل عليك مرة أخرى بسؤالى السابق عن ... عن مدام راتميروف .

فطوى بوتوجين صحيفته ووضعها فى جيبه .

– أتريد أن تعلم مرة أخرى كيف عرفتها ؟

– لا . ليس هذا ما أعنيه بالضبط . إنى أود أن أسمع رأيك .. فى الدور الذى كانت تلعبه فى بطرسبرج . ماذا كان ذلك الدور فى الحقيقة ؟

– لا أدرى ماذا أقول لك ياجريجورى ميهالتش . لقد اتصلت بمدام راتميروف اتصالا وثيقا ... غير أن ذلك الاتصال كان مصادفة محضة ، ولم يدم طويلا . ولم أطلع قط على عالمها ، بل ظل ما يحدث فيه مجهولا لدى . وقد سمعت شيئا من القيل والقال ، ولكن الغيبة عندنا – كما تعلم – لا تسود الأوساط الديموقراطية وحدها . ثم إنى لم أكن أسأل . وأضاف بعد صمت قصير :

– ولكنى أراك مهتما بها .

– نعم . لقد تحدثت معها مرتين بكثير من الصراحة ، إلا أنى لا أزال أتساءل : أهى صادقة ؟ فخفض بوتوجين بصره :

– إنها ككل امرأة عاطفية ، تصدق حين يغلبها وجدانها . ثم إن الكبرياء كثيرا ما تمنعها من الكذب .

– أهى متكبرة ؟ أغلب ظنى أنها عنيدة .

– بل متكبرة كالشيطان . ولكن هذا لا يعيبها .

– يخيل إلىَّ أنها تبالغ أحيانا ...

– ليس هذا بشىء أيضا . إنها صادقة مع ذلك . وبعد فأين تجد الحرص على الحقيقة ؟ إن خير نساء المجتمع هؤلاء عفنات حتى نخاع عظامهن .

– ألا تذكر ياسوزونت ايفانتش أنك سميت نفسك صديقها ؟ ألم تجبرنى إجبارا على زيارتها !

– وماذا فى ذلك ؟ لقد سألتنى أن أجىء بك . فلم أر بأسا بذلك . ثم إنى صديقها حقا . إنها لا تخلو من خير ، فهى كريمة ، أعنى انها تسخو على غيرها بما لا تحتاج هى إليه . ولكنك بلا ريب تعرفها قدر ما أعرفها على الأقل .

– كنت أعرف إيرينا بافلوفنا منذ عشر سنين . ولكن منذ ذلك الحين ...

– آه ! ماذا تقول ياجريجورى ميهالتش ، أتظن أن أخلاق الإنسان تتغير ؟ كما يكون المرء فى المهد يكون فى اللحد . أم لعلك (وهنا بالغ لتفينوف خفض رأسه) ... أم لعلك خائف أن تقع فى شباكها ؟ لاشك أن هذا ... ولكن المرء لابد له بطبيعة الحال أن يقع فى شباك امرأة ما .

– فضحك لتفينوف ضحكة مغتصبة :

– أتظن ذلك ؟

– لا مفر من هذا . الرجل ضعيف ، والمرأة قوية ، والمصادفة قادرة على كل شىء ، واحتمال حياة لا مسرة بها أمر عسير ، ونسيان المرء نفسه جد مستحيل ... وفى أحد الجانبين ، الجمال والعطف والدفء والنور ، فكيف يستطيع المرء أن يقاوم ؟ إن المرء ليسرع إليها كما يسرع الطفل إلى حاضنته . حقا إنه يجىء بعد ذلك البرد والظلام والفراغ ... فى دورها الطبيعى . وينتهى الأمر بأن تصبح غريبا عن كل شىء . فى أول الأمر لا تفهم كيف يمكن أن تحب ،وفى آخر الأمر لا تفهم كيف يمكن أن تعيش .

نظر لتفينوف إلى بوتوجين ، وراعه أنه لم ير من قبل رجلا يشبهه فى وحدته ووحشته ... وشقائه . فى هذه المرة لم يكن خجولا ولا جامدا ، بل كان يجلس مطأطئ الرأس شاحبا ، ورأسه على صدره ، ويداه على ركبتيه ، وهو لا يتحرك بل يبتسم ابتسامته الحزينة . وأحس لتفينوف بالأسى لذلك الرجل السوادوى الغريب .

بدأ لتفينوف يقول بصوت خفيض :

– لقد ذكرت إيرينا بافلوفنا فى أثناء حديثها صديقة حميمة لها ، أظنها – إن لم تخنى الذاكرة – تسمى بيلسكى .. أو دولسكى .

فرفع بوتوجين عينيه الصغيرتين الحزينتين ونظر إلى لتفينوف ثم عقب متثاقلا :

– آه ! لقد ذكرت ... حسنا ، وماذا عنها ؟

ثم أضاف وهو يتصنع التثاؤب :

– آن أن أعود إلى مسكنى للعشاء . فى أمان الله .

وترك المقعد فجأة ، ومضى قبل أن يستطيع لتفينوف النطق بكلمة . فاستحال عطفه سخطا ، سخطا على نفسه طبعا ، فما كان التطفل من أخلاقه ، ولكنه أراد أن يعبر عن عطفه نحو بوتوجين ، فإذا به يلمزه لمزا غير رقيق . فعاد إلى فندقه معذب الضمير .

وبعد قليل كان يقول لنفسه : « عفنة حتى نخاع عظامها ... ولكنها متكبرة كالشيطان ! هى – تلك المرأة التى تكاد تركع أمامى – متكبرة وليست عنيدة ؟ »

وحاول أن يطرد من رأسه صورة إيرينا فلم يفلح . ولهذا السبب نفسه تعمد ألا يفكر فى خطيبته . فقد شعر أن تلك الصورة التى سكنت مخيلته لن تزول منها اليوم . فعزم على أن ينتظر انجلاء هذا « الأمر الغريب » دون أن يزيد نفسه قلقا .

لم يكن هذا الجلاء ليتأخر طويلا ، ولم يدرك لتفينوف أدنى شك فى أنه سيأتى بلا عناء ولا افتسار . هكذا كان يحدث نفسه ، بينما ظلت صورة إيرينا ماثلة أمامه ، وكل كلمة قالتها تعود – فى دورها – إلى ذاكرته .

وأحضر إليه خادم الفندق بطاقة ، وكانت هى أيضا من إيرينا : « إن لم يكن لديك ما تعمله هذا المساء ، فأرجو أن تأتى . لن أكون وحيدة . سيكون لدى ضيوف . وستنظر من قرب إلى أصحابنا ، إلى مجتمعنا .إنى شديدة الرغبة فى أن تطلع عليهم ، وأتوقع أنهم سيظهرون بكامل روعتهم . يجب أن تعلم أى جو ذلك الذى أتنفس فيه . تعال . ستسعدنى رؤيتك ، أما أنت فلن تشعر بالضجر (أخطأت ايرينا فى كتابة هذه الكلمة الروسية الأخيرة) . أثبت لى أن حديثنا اليوم قد جعل كل خصام بيننا مستحيلا إلى الأبد . المخلصة ·أ· » .

لبس لتفينوف سترة سهرة ورباط عنق أبيض ، وانطلق إلى مسكن إيرينا . وكان يردد فى نفسه وهو ذاهب : « لا ضرر ... النظر إليهم ... لماذا لا أنظر إليهم مرة ؟ إنه مشهد مسل . » مع أن هؤلاء الناس أنفسهم أثاروا فيه منذ أيام قلائل شعورا آخر ، لقد أثاروا فيه السخط والكراهية .

سار بخطا حثيثة وقد أنزل قبعته على عينيه ، واغتصب ابتسامة على شفتيه ، بينما كان بمبايف جالسا أمام ندى فيبر يشير إليه من بعيد ليراه فوروشيلوف وبشتشالكن ، ويصيح بحماسة : « أترون هذا الرجل ؟ إنه حجر ! إنه صخر ! إنه صوان ! » .

وجد لتفينوف عند إيرينا ضيوفا غير قليلين . فكان ثلاثة من الجنرالات الذين رآهم يوم النزهة ، وهم الجنرال السمين ، والجنرال الحنق ، والجنرال المتسامح جالسين إلى منضدة للعب الورق فى أحد الأركان ، يلعبون « البشكة » . وليس فى لغة الإنسان كلمات تعبر عن وقارهم وهن يرمون الورق ، ويدبرون الخطط ، ويؤلفون بين البسطونى والكومى ... لاشك الآن فى كونهم من رجال الدولة ! فهم يتركون للعوام - للبورجوا - تلك العبارات والإشارات الصغيرة التى تتردد عادة فى أثناء اللعب ، ولا ينطقون إلا بما لا غنى عنه من المقاطع ، وأن أباح الجنرال السمين لنفسه أن يقول بحرارة بين رميتين : ce satané a de pique [١] وعرف لتفينوف من بين الزوار سيدات كن فى النزهة ، ولكن كان هناك أيضا سيدات أخريات لم يرهن من قبل . وكانت إحداهن عريقة فى القدم حتى لتبدو كل لحظة وكأنها توشك أن تتداعى . وكانت تهز كتفيها العاريتين السمراوين القاتمتين المخيفتين ، وتحجب فمها بمروحتها ، وترمق راتميروف بعينيها اللتين تماثلان عيون الموتى . وعنى بها راتميروف عناية كبيرة ، فقد كانت ذات مكانة عظيمة فى المجتمع الراقى ، لأنها آخر من بقى من وصيفات الشرف للامبراطورة كاترين . وكانت الكونتس « س » ملكة الضبابير تجلس عند النافذة متنكرة فى زى راعية ، وقد أحاط بها الشبان . وكان المليونير الشهير فينيكوف الجميل ظاهرا بينهم بمسلكه المترفع ، وجمجمته المسطحة ، وتعبير وجهه الوحشى الذى لا يرحم ، كأنه وجه خان من بخارى أو هليوجابال من روما [٢] . وكانت سيدة أخرى - هى أيضا كونتة ، وتعرف تدليلا باسم « ليز » - تتحدث إلى محضر أرواح شاحب أشقر الشعر مرسله ، وقد وقف بجانبهما سيد شاحب مرسل الشعر أيضا ، لايزال يضحك ضحك من يعنى شيئا ما . وكان هذا السيد أيضا يؤمن بمخاطبة الأرواح ، ولكنه جمع إلى ذلك هواية التنبؤ ، فكان يستخرج من التلمود ورسائل القديس يو حنا نبوءات شتى عن أحداث عجيبة . ولم يتحقق حدث واحد من هذه الأحداث ، ولكن هذه الحقيقة ما كانت لتزعجه قط ، بل ظل مثابرا على تنبؤاته . وكان الموسيقى العبقرى صاحب المواهب الفطرية ، الذى أثار فى بوتوجين ذلك الحنق الشديد ، جالسا إلى البيان يضرب على أوتاره بغير اعتناء d'une main distraite [٣] وهو يديم التحديق فيما حوله تحديقاً زائغا مبهما .

(١) « هذا الشيطان معه الاسباتى ! »

(٢) امبراطور رومانى ، حكم من ٢١٨ إلى ٢٢٢ ، كان مشهورا بجماله وقسوته وعمره .

(٣) « بيد ذاهلة » .

وكانت إيرينا جالسة على أريكة بين الأمير كوكو ومدام س ، وهى سيدة اشتهرت قديما بجمالها البارع وفكاهتها الحاضرة ، واستحالت منذ أزمان الى كمأة ذابلة تفوح منها رائحة زيت الصيام وبخار السم . وحين وقع نظر إيرينا على لتفينوف احمر وجهها ونهضت من مقعدها ، وأقبل عليها فصافحته بحرارة ، وكانت تلبس ثوبا من الحرير الرقيق الأسود يزينه وشى ذهبى لايكاد يلحظ ، وكانت كتفاها بيضاوين كاللؤلؤ ، أما وجهها الذى بدا شاحبا تحت فيض حمرته الوقتية فكان يتألق بزهو الجمال ، بل بأكثر من الجمال . كان سرور خفى – يكاد يكون ساخرا – يلمع فى عينيها المسبلتين ، ويرتعش حول شفتيها ومارنها .

تقدم راتميروف من لتفينوف ، وبعد أن تبادل وإياه التحيات المألوفة ، دون أن يصحبها بتدلله المألوف ، قدمه إلى سيدتين أو ثلاث : الطلل البالى ، وملكة الضبابير ، والكونتس ليز .. وقد رحبن به ترحيبا جميلا ، فقد كان لتفينوف – وإن لم ينتم إلى مجتمعهن · على حظ كبير من الوسامة ، واجتذبهن وجه الشاب المعبر ، إلا أنه لم يعرف كيف يستبقى هذا الاهتمام ، فقد كان قليل الخبرة بالمجتمعات ، وكان يشعر بشىء من الخجل ، وزاده اضطرابا أن الجنرال السمين ظل يحدق فيه تحديقا ملحا ، وكأنما كانت نظرته الثقيلة الثابتة تقول : « آها ! أهذا أنت أيها الثائر ؟ أيها المفكر الحر ؟ إذن فقد جئت وقبعتك فى يدك لتقدم فروض الولاء ! » وأنقذت إيرينا لتفينوف فسهلت له أن ينتقل إلى ركن قرب الباب ، خلفها بقليل . فكانت تضطر كلما خاطبته أن تلتفت إليه ، فسهره انثناء جيدها الرائع ، ويعب من شذا شعرها الخفى . ولم يفارق وجهها قط تعبير من الشكر رقيق عميق : أنه الشكر ولا شىء غيره ما كانت تنم به تلك البسمات والنظرات . اضطر لتفينوف أن يعترف بذلك ، فتوهج فيه مثل هذا الشعور ، وامتلأ قلبه بالندم والسرور والخوف..

وكانت تبدو فى الوقت نفسه وكأنها تريد أن تسأله : « حسنا ، ما رأيك فيهم ؟ » وكان هذا السؤال غير المنطوق يزداد وضوحا فى سمع لتفينوف كلما لفظ واحد من الأضياف كلمة سخيفة أو أتى عملا مزريا . وقد حدث ذلك غير مرة فى أثناء المساء . وذات مرة لم تستطع إيرينا إخفاء شعورها ، فضحكت ضحكا عاليا .

وكانت الكونتس ليز تؤمن بالخرافات ، وتميل إلى الغرائب . فبعد أن شبعت من الحديث مع محضر الأرواح عن هوم ، والموائد التى تدور ، والأكورديون الذى يعزف بلا عازف ، وما إلى ذلك ، انتهت إلى سؤاله : هل ثم حيوانات يؤثر فيها التنويم المغناطيسى ؟

فقال الأمير كوكو من بعد :

– هناك على كل حال حيوان واحد بهذا الوصف . أتعرفين ملفانوفسكى ؟ لقد نوموه أمامى . وشد ما كان يشخر !

– أنت خبيث جدا يا أميرى . إنى أتحدث عن الحيوانات الحقيقية .

(١)Je parle des bêtes.

(٢)Mais moi aussi, madame, je parle d'une bête...

قال الروحانى :

– بعض الحيوانات الحقيقية يتفق له ذلك . جراد البحر مثلا . فأعصابه شديدة الحساسية . ومن السهل جعله فى حالة همود تام .

فدهشت الكونتس دهشة عظيمة :

– ماذا ! جراد البحر حقا ؟ أوه ! هذا ظريف جدا! أود أن أراه ! وأردفت تخاطب شابا ذا وجه حجرى كوجه دمية جديدة ، وعليه ياقة حجرية أيضا (وكان يفخر بأنه قد ندى الوجه السالف الذكر برشاش نياجرا والنيل النوبى ، وإن كان لايذكر شيئا من أسفاره ، ولا يعنى بغير النكات الروسية ..)

قالت الكونتس تخاطب هذا الشاب :

– مسيو لوزهين . هل تسمح بأن تحضر جراد بحر سريعا ؟

فابتسم المسيو لوزهين ابتسامة مصطنعة ، وسأل :

– أيجب أن يكون جراد البحر سريعا أم أحضره سريعا ؟

فلم تفهم الكونتة ما قاله . وكررت :

– Mais oui ، جراد بحر ، une écrevlssu

فقاطعتهما الكونتس « س » بخشونة :

– آه ؟ ماذا جراد بحر ؟ جراد بحر ؟

وكانت ضجرة لغياب السيد فردييه ، وأنكرت أن تغفل إيرينا دعوة هذا الفرنسى الذى لا نظير له فى الظرف والخلابة . أما « الطلل البالى » فقد استبهم عليها كل شىء منذ زمن طويل ، ثم إنها كانت صماء ، فاكتفت بهز رأسها .

(١) « إنى أتحدث عن الحيوانات » .

(٢) «وأنا أيضًا يا سيدتى أتحدث عن حيوان» .

– oui , oui,vous allez voir. [١] أرجوك يامسيو لوزهين ... فانحنى الرحالة الشاب وذهب ثم عاد مسرعا . وكان يسير خلفه نادل يبتسم ابتسامة عريضة ويحمل طبقا يرى عليه جراد بحر كبير أسود :

صاح لوزهين .

– Voici madame [٢] الآن نستطيع أن نبدأ عملية جراد البحر ! ها ها ها ! (الروس هم دائما أول من يضحك لنكاتهم) .

– هى هى هى !

بهذه الضحكة أدى الكونت كو كو واجبه متواضعا كوطنى مخلص يشجع كل المنتجات الوطنية (ونرجو القارئ ألا يدهش ويغضب . فمن ذا الذى يستطيع أن يزعم أنه لم يصفق لنكات أبرد من هذه ، وهو جالس على مقعد بمسرح ألكسندر وقد أعداه الجو المحيط به ؟)

قالت الكونتس : Merci, merci . Allons, allons, monsieur Fox, montrez-nous ça [٣] ووضع النادل الطبق على منضدة مستديرة. وجرت حركة خفيفة بين الضيوف ، واشرأبت بعض الأعناق ، إلا أن الجنرالات الجالسين إلى منضدة اللعب ظلوا محافظين على وقار جلستهم . ونفش الروحانى شعره ، وعبس ويسر ، ثم اقترب من المنضدة وأخذ يحرك يديه فى الهواء ، فتمطى جراد البحر ، ورقد على ظهره ، ورفع مخالبه . وكرر الروحانى حركاته وأسرع فيها ، وجراد البحر لا يزال يتمطى .

فسألت الكونتس :

– mais que doit-elle donc faire? [٤]

فأجابها المستر فوكس بفرنسية تغلب عليها نبرة أمريكية بينة :

– يجب أن يبقى ساكنا ويقف على ذيله .

وحرك أصابعه فوق الطبق بجهد تشنجى ، ولكن التنويم لم يفلح ، وظل جراد البحر يتحرك . وأعلن الروحانى أنه ليس فى حال من التهيؤ النفسى تساعده على العمل . وابتعد عن المنضدة فى سخط ظاهر . وأخذت الكونتة تعزيه مؤكدة أن مثل هذا

(١) « نعم – نعم ، سترون » .

(٢) « إليك ياسيدتى » .

(٣) « شكرا ، شكرا . هيا يامسيو فوكس . أرنا » .

(٤) « ولكن ماذا يجب أن يعمل ؟ » .

الفشل يتفق أحيانا للمستر هوم نفسه ... وأمن الأمير كو كو على ماذكرته . وتسلل أستاذ التلمود ورسائل القديس يوحنا إلى المنضدة ، وأخذ يحرك أصابعه حركات سريعة عنيفة صوب جراد البحر ، مجربا حظه هو أيضا ، ولكن بدون فائدة ، ، إذ لم يظهر على جراد البحر أية علامة من علامات الهمود . عندئذ نودى النادل ، وأمر أن يأخذ جراد البحر ، ففعل ذلك وهو يبتسم ابتسامته العريضة . وسمع ينفجر ضاحكا خارج الباب ... وتلا ذلك ضحك كثير فى المطبخ uber diese Russen [1] . وكان العبقرى الذى علم نفسه قد بدأ يعزف أثناء التجارب على جراد البحر ، ملتزما نغمات حزينة ، زعما بأن للموسيقى تأثيرا لايمكن معرفته أو التكهن به . فلما انتهت هذه التجارب عزف فالسه الذى لا يتغير ، وقوبل باستحسان عظيم طبعًا . ولذعت الغيرة الكونت هـ . الهاوى الذى لا يبارى (انظر الفصل الأول) ، فغنى أغنية صغيرة من تلحينه ، سرقها جملة من أوفنباخ . وكانت كل السيدات تقريبا يحركن رءوسهن يمنة ويسرة مع جوابها المرح (quel oeuf, quel boeuf) [2] . ويبلغ الطرب بإحداهن أنها تنهدت برقة . وكانت الكلمة التى لابد منها ! charmant ! charman! .. تتردد على كل شفة ، وتبادلت إيرينا نظرة مع لتفينوف ، واختلج على شفتيها مرة أخرى ذلك المعنى الساخر المستتر .. ولكنه لم يلبث أن صرح بل مازجه شىء من التشفى عندما بدا للأمير كوكو ، ممثل مصالح النبلاء وراعيها ، أن يبسط آراءه لمحضر الأرواح ، فأعاد بالطبع عبارته المشهورة عن تزعزع مبدأ الملكية ، وأردفها طعنا شديدا فى الديموقراطيين . وثار الدم الأمريكى فى عروق محضر الأرواح ، وأخذ يجادل ، فجعل الأمير يصيح كعادته بأعلى صوته ، ويستعيض عن كل نقاش بأن يكرر دون انقطاع C'est absurde ! Cela n'as pes le ens commun [3] وبدأ المليونير فينيكوف يقذف بألفاظ السباب ، دون أن يبالى من نصيب ، وأصبح صوت التلمودى صغيرا ، وصوت الكونتس « س » صريرا ... نعم ، لقد ثارت ضجة متنافرة لا معنى لها كتلك التى ثارت عند جورباريوف ، ولم يكن ثمة فارق إلا انعدام البيرة ودخان التبغ ، وأن الناس هنا أحسن ملبسا ممن عند جوباريوف . وحاول راتميروف

(١) « من هؤلاء الروس » .
(٢) « أى بيضة ، أى بقرة » .
(٣) «هذا مضحك ! هذا غير معقول» .

أن يعــيــد الســلام (فـــقـــد أظـــهـــر الجـــنـرالات اســـتـيـاءهـــم ، وصـــاح بـوريـس : encore cette satanépolitique) [١] لكن جهوده لم تنجح . وضمن لها الفشل أن أحد الحاضرين ، وكان موظفا كبيرا من ذلك الطراز المتسلل المتطفل ، أخذ على نفسه أن يعرض le resumé en peu de mots [٢] – فجعل يطن وينبح ، ويبدئ ويعيد ، وكان عاجزا بينا عن سماع الاعتراضات الموجهة إليه أو فهمها ، قاصرا قصورا واضحا عن إدراك لب « المسألة » la question ، فانتهت وساطته كما ينبغى أن تنتهى . وزاد الأمر سوءاً أن إيرينا كانت تستثير المتجادلين بخبث ، تغرى بعضهم ببعض ، بينما هى تتبادل النظرات والإشارات الـسـريعـة مع لتفينوف ... ولكنه كان جالسا كأنما انعقد لسانه ، لا يسمع شيئا ، ولا ينتظر شيئا ، إلا أن تلمع هاتان العينان الرائعتان مرة أخرى ، وأن يضيء عليه ذلك الوجه الشاحب الرقيق العابث البديع مرة أخرى ... وانتهى الأمر بأن ضجرت السيدات ورجون أن ينقطع الجدال ... وسأل راتميروف الهاوى أن يعيد أغنيته ، وعزف العبقرى العصامى فالسه مرة ثانية ...

بقى لتفينوف حتى جاوز الليل منتصفه ، وكان آخر من ودع ، ودار الحديث فى أثناء الليل حول عدد من الموضوعات ، أخليت بعناية من كل ما يثير الاهتمام . وبعد أن انتهى الجنرالات من لعبتهم البهية ، اشتركوا فى الحديث ببهاء . وسرعان ما ظهر نفوذ هؤلاء الكبراء ، فقد دار الحديث حول بنات الهوى الباريسيات الشهيرات ، اللواتى بدا كل امرئ عليما بأسمائهن ومواهبهن ، وحول مسرحية ساردو الأخيرة ، وقصة لآبو ، وباتى فى « الترافيانا » واقترح أحد الحاضرين لعبة السكرتير au secretaire ، ولكن اللعبة لم تنجح ، فقد كانت الإجابات فاترة ولم تخل أحيانا من غلطات نحوية ، وروى الجنرال السمين أنه سئل مرة :

Qu'est-ce que l'amour? [٣] فأجاب :

Une colique remontée au coeur, [٤] . وانطلق يضحك ضحكته الجافة ، فضربته الطلل البالى بمروحتها على يده ، فسقطت قطعة من الجص عن جبينها لهذا الاندفاع . وبدأت الحيزبون تذكر الإمارات الصقلبية ، وضرورة نشر الدعاية

(١) « هذه السياسة اللعتية مرة أخرى » .

(٢) « الخلاصة فى قليل من الكلمات » .

(٣) « ما الحب ؟ » .

(٤) « إمساك فى القلب » .

الارثوذكسية فى وادى الدانوب ، ولكنها لم تلق جوابا فصفرت وسكتت . وقد تحدثوا فى الحقيقة عن هوم أكثر مما تحدثوا عن أى شىء سواء ، ووصفت ملكة الضبابير كيف رأت هى نفسها يدين تزحفان عليها ، وكيف وضعت خاتمها فى أصبع إحدى اليدين .

لقد انتصرت إيرينا أى انتصار . وحتى لو أعار لتفينوف ما يقال حوله اهتماما أكبر لما استطاع أن يلتقط من خلال ثرثرتهم المتقطعة الخامدة جملة واحدة صادقة ، ولا فكرة واحدة ناصحة ، ولا حقيقية واحدة طريفة . حتى صيحاتهم لم يكن فيها انفعال صادق ، وهجومهم لم تكن فيه حدة صادقة . إلا أنك كنت تسمع بين الحين والحين صرخة عداء تلفت من تحت قناع الحمية الوطنية ، أو الكبرياء المتألهة ، معبرة عن خوفهم من الخسارة المالية ، وبضعة أسماء لن تنساها الأجيال القادمة ينطقونها بين صرير الأنياب ..ولا تجد تحت كل هذه الضوضاء وهذا الهراء قطرة واحدة من ماء الحياة ! يا للعبث السخيف ، يا للتفاهات الممجوجة التى تمتص كل تلك الرءوس والقلوب ، لا فى ذلك المساء حده ، ولا حين يجتمعون فقط ، بل فى بيوتهم أيضا ، فى كل ساعة وفى كل يوم ، فى طول وجودهم وعرضه ! ويا لجهلهم إذا قالوا كل ما لديهم ! ما أعجزهم عن فهم كل ما بنيت عليه الحياة الإنسانية ، كل مابه جمال الحياة !

وحين ودعت إيرينا لتفينوف شدت على يده مرة أخرى وهمست معرضة :

– حسنا . أيكفيك ما رأيت ؟ إنه بديع ، أليس كذلك ؟

فلم يجبها ، ولم يزد على أن انحنى انحناءة كبيرة صامتة .

وبقيت إيرينا وحيدة مع زوجها . وكانت تهم بالذهاب إلى حجرة نومها حين استوقفها قائلا وهو يستند على رف المدفأة ويدخن لفيفة :

Je vous ai beaucoup admirée ce soir, madame, vous vous étes parfaitement moquée de nous tous (١)

فأجابت دون مبالاة :

pas plus cette fois que les autres.(٢)

فسألها راتميروف :

– ماذا أفهم مما تقولين ؟

(١) «لقد أعجبت بك الليلة ياسيدتى – إنلك سخرت منا جميعا سخرية بارعة» .

(٢) «لم زكن أكثر سخرية من المرات الأخرى» .

– لك أن تفهم ما تريد .

– مم .. C'est clair[١] .

ونفض راتميروف رماد اللفيفة بطرف ظفر خنصره الطويل ، فى عناية أشبه بحركات القط . ومضى يقول :

– على فكرة ! صديقك الجديد هذا – ما اسمه ؟ – السيد لتفينوف ... لعله معروف بذكائه الشديد ؟

والتفتت إيرينا مسرعة عندما سمعت اسم لتفينوف :

– ما الذى تعنيه ؟

فابتسم الجنرال :

– إنه يلتزم الصمت ... وواضح أنه يخشى أن يتورط إذا تكلم . فابتسمت إيرينا أيضا . ولكن ابتسامتها لم تكن كابتسامة زوجها .

– الصمت خير من الكلام ... كما يتكلم بعض الناس .

فأجاب راتميروف وهو يتظاهر بالاستسلام :

– Attrpé! [٢] ولكنه – دون مزاح – ذو وجه جذاب . وجه يبدو عليه الجد ... وسلوكه عامة ... أجل – وأصلح الجنرال رباط عنقه ، وألقى برأسه إلى الخلف متأملا شاربه – أخاله جمهوريا كصديقك الآخر بوتوجين . وهذا أيضا أحد أصدقائك البكم الأذكياء .

وارتفع حاجبا إيرينا ببطء فوق عينيها الشاخصتين الصافيتين ، وزمت شفتيها زمة خفيفة ، وقالت فى عطف ساخر :

– ما غرضك من هذا القول يا فاليريان فلاديميروفتش ؟ إنك تطيش سهامك ... لسنا فى روسيا ، ولا أحد هنا يسمعك .

وكأنما لسع راتميروف . فبدأ يقول وقد انقلب صوته عاليا خشنا :

(١) «هذا جلى» .
(٢) «وقعت !» .

– ليس هذا رأيى فحسب يا إيرينا بافلوفنا . غيرى يلاحظون أيضا أن لهذا السيد مظهر المتآمرين .

– حقا ؟ ومن هؤلاء ؟

–حسنا ... بوريس مثلا ...

– ماذا ؟ أهذا أيضا له رأى ؟

وهزت إيرينا كتفيها كأنما لدغتها نسمة باردة ، وأمرت أصابعها فى بطء عليهما .

– هذا أيضا ؟ نعم هذا أيضا . اسمحى لى يا إيرينا بافلوفنا أن ألاحظ أنك غاضبة ، وتعلمين أن الغضب ...

– أنا غاضبة ، أوه ، لمه ؟

– لا أدرى . لعلك استأت مما قلته عن ...

فكررت إيرينا مستفهمة :

– عن ... دعك من السخرية ولا تطل ، فأنا متعبة ونعسانة .

وتناولت شمعة من فوق المائدة :

– عن ... ؟

– حسنا . عن هذا السيد لتفينوف ، فلا شك الآن أنك مهتمة به اهتماما كبيرا .

فرفعت إيرينا اليد التى كانت تمسك بها حامل الشمعة حتى وازى اللهب وجه زوجها ، ونظرت فى عينيه مليا وكأنها تتعجب ، وفجأة انفجرت ضاحكة .

فسأل راتميروف متجهما :

– ماذا ؟

واستمرت إيرينا تضحك . فكرر : « حسنا ، ما الأمر ؟ » ودق الأرض بقدمه . كان يحس أنه طعن واهين ، وكان مع ذلك مأخوذا بجمال هذه المرأة التى تواجهه فى هذه الخفة والجسارة ... لقد كانت تعذبه . رآها كلها ، كل مفاتنها ، حتى ظل أظافرها الوردى على أطراف أناملها المرهفة وهى قابضة على برنز الحامل القاتم . أجل ، حتى هذا لم يفته ، بينما كانت الإهانة تنفذ فى قلبه عميقة عميقة ، وإيرينا لا تزال تضحك :

وأخيرا نطقت بهذه الكلمات :

– ماذا ؟ أنت ؟ أنت تغار ؟

وأولت الزوج ظهرها وخرجت من الحجرة ، وسمع صوتها من وراء الباب «إنه يغار!» وأتاه مرة أخرى رنين ضحكتها .

لقد أتبعها راتميروف عينيه فى شرود ، ومرة أخرى لم يستطع ألا أن يرى فتنة قوامها وحركاتها ، فحطم لفيفته على رخامة المدفأة بضربة عنيفة وألقاها بعيدا ، وشحب خداه فجأة ، ومرت على أسفل وجهه رعدة متشنجة ، وجالت عيناه حول أرض الحجرة تحملقان فى غباء حيوانى وكأنهما تبحثان عن شىء ... لقد اختفت من وجهه كل مظاهر الرقة ، ولابد أن هذا كان منظره حين جلد فلاحى روسيا البيضاء .

وكان لتفينوف قد عاد إلى مسكنه وظل جالسا إلى المنضدة بلا حراك ورأسه بين كفيه . وأخيرا نهض وفتح صندوقا وأخرج منه حافظة استل من أحد جيوبها الداخلية صورة شمسية لتاتيانا . وشخص إليه وجهها بحزن ، وقد بدا قبيحا هرما كما تبدو الصورة الشمسية عادة . كانت خطيبة لتفينوف فتاة روسية صميمة شقراء أقرب إلى الامتلاء، فى ملامح وجهها بعض الغلظ ، ولكن لها عينين عسليتين صافيتين تفيضان طيبة وحنوا ، وجبينا أبيض نقيا كأنما استقر عليه شعاع من الشمس . ولبث لتفينوف برهة طويلة لا يحول نظره عن الصورة ، ثم أزاحها برفق وأمسك رأسه بيديه مرة أخرى ، وأخيرا همس :

– كل شىء قد انتهى يا إيرينا ! إيرينا !

وفى هذه اللحظة وحدها أدرك أنه كان يحبها حبا لا يعرف معنى العقل ، وأنه أحبها منذ ذلك اليوم الذى لقيها فيه للمرة الأولى عند القلعة القديمة ، وأنه لم ينس حبها قط . ومع هذا فكم كان يدهش ويستنكر لو قيل له ذلك قبل ساعات قليلة !

« ولكن تانيا ، تانيا ! رباه ! تانيا ، تانيا ! » هكذا راح يردد فى ندم ، بينما تمثل له شبح إيرينا فى ردائها الأسود الذى يشبه ثوب الحداد ، وقد تألق على وجهها المرمرى هدوء النصر .

-١٦-

لم يتم لتفينوف ليلته ، ولم يخلع ثيابه ، وكان شديد الهم ، فقد كان أمينا صريحا ، يعرف سلطان العهود ، وقداسة الواجب ، ويخجل أن يغالط نفسه فينكر ضعفه وسقوطه . وأستحوذ عليه أول الأمر نوع من البلادة ، فاستسلم لشعور مبهم لم يكد يستوضحه . ثم تملكه الفزع حين فكر أن مستقبله الذى كاد ينقاد له قد عاد فانزلق إلى الظلام ، وأن بيته الركين الذى لم يكد يرفعه قد أخذ يتداعى من حوله ... وراح يلوم نفسه لوما عنيفا ، ولكنه ما لبث أن تماسك ، وقال : « هذا ضعف منى . ليس هذا وقت اللوم والندم بل وقت العمل . تانيا هى خطيبتى ، وهى واثقة بحبى وشرفى ، وقد ارتبطنا مدى الحياة ، ولا يمكن أن ننفصل ، بل يجب ألا ننفصل . » وتمثل كل فضائل تانيا ، وأطنب فيها ، وأحصاها بعقله ، وهو يحاول أن يوقظ فى نفسه الرقة والحنان . وفكر مرة أخرى : « لم يبق لى الا شىء واحد : أن أرحل من فورى ولا أنتظر عودتها ، إن أسرع إلى لقائها . وقد أتألم ، وقد أكون شقيا مع تانيا – وإن كنت أستبعد هذا – ولكننى على كل حال يجب ألا أفكر فيه . يجب أن أؤدى واجبى ولو مت فى سبيله ! » فهمس صوت آخر فى أعماق نفسه : « ولكن لا يجمل بك أن تخدعها ، ليس من حقك أن تخفى عنها اختلاف مشاعرك . ألا يجوز أن تأبى الزواج منك حين تعلم أنك تحب امرأة أخرى ؟ » فيجيب : « كلام فارغ ! كلام فارغ ! ما هذه إلا سفسطة ، مغالطة مخجلة ، فضيلة كاذبة . لا يحق لى أن أحنث فى كلمتى ، هذا ما لا شك فيه . حسنا ، إذن فلأرحل من هنا دون أن أرى الأخرى ... »

ولكن قلبه خفق خفقا أليما حين قال ذلك ، واعتراه برد ، وأخذته رعدة ، واصطكت أسنانه بضعف . وتمدد وتثاءب كأنه فى حمى . ولم يصر على فكرته الأخيرة بل كبتها وراغ منها . إنما راح يتعجب ويتساءل كيف استطاع مرة أخرى أن يحب تلك المخلوقة الدنيوية المنحلة ، التى كان يجد كل ما حولها بغيضا منفرا . وحاول أن يواجه نفسه بهذا السؤال : « ولكن حدثنى : أتحبها حقا ؟ » فما استطاع إلا أن يطرد السؤال على الفور بإشارة من يده . وكان لا يزال يتعجب ويتساءل بينما تصعد أمامه من مثل الضباب الناعم العبق صورة ساحرة ، وترتفع أهداب طويلة حريرية ، فتضرب العينان الرائعتان فى قلبه بنعومة نافذة ، ويرن الصوت رنينه الحلو ، وتموج الكفتان المتألقتان ، ككتفى ملكة ، بأنفاس الفتوة والشهوة الناعسة .

* * *

حينما اقترب الصباح ، كان قد انعقد فى عقل لتفينوف عزم . لقد قرر أن يرحل فى ذلك اليوم ليقابل تاتيانا ، وأن يرى إيرينا للمرة الأخيرة ويخبرها بالحقيقة كلها ، إذا لم يكن من ذلك بد ، ثم يفارقها فراق الأبد .

فرتب أمتعته وحزم حقائبه ، وانتظر حتى الساعة الثانية عشرة ، ثم ذهب إليها . ولكنه حين رأى نوافذها بستائرها المسبلة خانه قلبه ... ولم يستطع أن يستجمع شجاعته ليدخل الفندق . فذرع شارع لختنتالر مرة أو مرتين ذهابا وجيئة ، وفجأة سمع صوتا ساخرا ينادى من فوق عربة خفيفة مسرعة : « أهلا وسهلا بالسيد لتفينوف ! » ورفع لتفينوف عينيه ورأى الجنرال راتميروف جالسا بجانب الأمير م . ، وهو رياضى شهير مشغوف بالعربات والجياد الإنجليزية . وكان الأمير يقود العربة ، والجنرال منحنيا إلى الأمام وقد مال إلى ناحية ، وهو يبدى نواجذه مبتسما ، ويرفع قبعته عالية فوق رأسه . وانحنى له لتفينوف ، وهرع من فوره إلى مسكن إيرينا وكأنه يطيع أمرا خفيا.

كانت هناك . وبعث باسمه ، فأدخل على الفور . ووجدها واقفة وسط الغرفة فى رداء صباحى واسع الكمين ، ووجهها الشاحب كالبارحة ، فى غير نضرة البارحة ، يبدو عليه التعب والإعياء واستقبلت إيرينا زائرها ببسمة وانية زادت ذلك التعبير وضوحا ، ومدت إليه يدها فى ود مازجه شرود .

بدأت تقول بصوت شاك وهى تغوص فى كرسى منخفض :

– أشكرك على مجيئك . لست بخير هذا الصباح ، فقد قضيت ليلة سيئة . حسنا ، ما قولك فيما رأيته البارحة ، ألم أكن على صواب ؟

فجلس لتفينوف وبدأ حديثه قائلا :

– لقد جئت إليك يا إيرينا باقلوفنا ...

فاعتدلت فى جلستها فجأة ، والتفتت إليه ، وأثبتته عيناها ، ثم قالت فى دهشة :

– مابك ؟ إنك شاحب كالأموات . إنك مريض . ماذا بك ؟

فاضطرب لتفينوف :

– ماذا بى ؟

- هل بلغك خبر سيئ ؟ هل حدث مكروه ؟ أخبرنى . أخبرنى .

ونظر لتفينوف بدوره إلى إيرينا . وأخيرا قال فى جهد :

- لم تبلغنى أخباراً سيئة . ولكن مكروها حدث . مكروه فظيع .. وهو ما جاء بى إليك .

- مكروه ؟ ما هو ؟

- هو ... أن ...

وحاول لتفينوف أن يستمر فى حديثه ... فلم يستطع . ولم يزد على أن عقد يديه حتى طقطقت أصابعه . وكانت إيرينا منحنية إلى الأمام وكأنها استحالت حجرا .

وأخيرا ندت من صدر لتفينوف أنة خافتة :

- أوه ! إنى أحبك !

والتفت كأنه يريد أن يخفى وجهه .

- ماذا ؟ أنت ياجريجورى ميهالتش ...

ولم تستطع إيرينا أن تتم جملتها أيضا ، ووضعت كلتا يديها على عينيها .

أنت.. تحبنى ؟

فردد فى مرارة وهو يشيح بوجهه قليلا قليلا

- أجل... أجل...أجل ..

كان كل شيء فى الغرفة ساكنا ، وثمة فراشة شاردة ترفرف بجناحيها ، وتجاهد بين الستارة والنافذة.

واستأنف لتفينوف الحديث قائلا:

- هذا يا إيرينا بافلوفنا ...هذا هو المكروه الذى ... حل بى ، والذى كان يجب أن أتوقعه وأحاذره ، لولا أنه دهمنى فجأة كما حدث فى أيام موسكو . كأن القدر يحلو له أن يضطرنى مرة أخرى إلى مقاساة العذاب بسببك . عذاب ما كنت أظن أنه يتكرر ...كان العقل يدعونى إلى المقاومة ... وحاولت أن أقاوم . ولكن لا مفر من القدر ، وأنا أخبرك بكل هذا لأقطع فورا هذه ...وأضاف بمزيد من الغضب والخجل - هذه المهزلة الأليمة .

ثم عاد لتفينوف إلى الصمت، وكانت الفراشة لاتزال تجاهد وترفرف ·ولم ترفع إيرينا يديها عن وجهها، وجاء همسها من تحت هاتين اليدين البيضاوين كأنما خلتا من الدم :

-أواثق أنت أنك لست مخطئا ؟

فأجاب لتفينوف بصوت باهت :

– لست مخطئا · أنا أحبك ، ومثل هذا الحب لم أحببه غيرك قط · لا أريد أن ألومك ، هذه حماقة ، ولا أن أكرر لك أنك لو كنت عاملتني معاملة أخرى لما جرى من هذا شيء ··· حقا ، إنني أنا وحدي الملوم، جنت عليَّ ثقتي بنفسي ، هذا هو الجزاء الذي أستحقه· وما كان لك أن تقدري ما سيكون··· لم يخطر ببالك طبعا أنه كان أسلم لي لو لم تشعري أنك أسأت إليَّ – كما تتخيلين – ولو لم تحاولي الإصلاح ··· ولكن ما كان كان· إني لم أرد إلا أن أوضح لك موقفي ، ولا حاجة بنا أن نزيد الأمر قسوة · على أنه لن يكون بيننا شيء من سوء التفاهم كما تسمينه ، وسوف تخفف صراحة اعترافي مما لابد أن تحسيه من أذى ·

وكان لتفينوف يتكلم دون أن يرفع عينيه . على أنه لو نظر إلى إيرينا لما رأى شيئا مما يمر على وجهها ، فقد أبقت يديها على عينيها كما كانتا . ولكن ما مر على وجهها ربما كان خليقا أن يذهل لتفينوف ، لقد ارتسم عليه الخوف والسرور ونوع من البهر اللذيذ ، ولمعت عيناها لمعانا خفيفا تحت أجفانها المسبلة، وكانت أنفاسها البطيئة المضطربة بردا على شفتيها المنفرجتين الملسوعتين·

صمت لتفينوف ينتظر جوابا أو نأمة ··· ولا شيء · فبدأ يقول مرة أخرى :

– لم يبق إلا حل واحد ، وهو أن أرحل · وقد جئت لأودعك ·

فألقت إيرينا يديها ببطء على ركبتيها ، وبدأت تقول :

– ولكني أذكر ياجريجوري ميهالتش أن ·· الشخص الذي حدثتني عنه سيأتي إليَّ هنا ؟ ألست تنتظرها ؟

– أجل · ولكني سأكتب إليها ···لتنتظر في بعض الطريق ... في هيدلبرج مثلا .

– آه هيدلبرج ... أجل ... بلدة جميلة · ولكن هذا كله ينقص خططك بلا شك · أأنت على ثقة من أنك لا تبالغ التقدير ياجريجوري ميهالتش ، et que ce n, est pas une fausse alarme?(١)

(١) «وأن هده ليست صيحة كاذبة ؟» .

كانت إيرينا تتكلم بهدوء يوشك أن يكون برودا، وهى تتوقف وقفات قصيرة ، وتنظر نحو النافذة. ولم يجب لتفينوف على سؤالها الأخير . فاستمرت تقول :

– ولكن لماذا تتحدث عن الأذى ؟ إنى لست متأذية ... كلا !

وإذا كان أحدنا ملوما فلست أنت الملوم على كل حال ، لست الملوم وحدك ... تذكر محاوراتنا الأخيرة، وسوف نتأكد أنك لست الملوم.

وتمتم لتفينوف بين أسنانه:

– إنى لم أشك قط فى كرمك ، ولكن أود أن أعلم هل تقريننى على عزمى ؟

– على الرحيل ؟

– أجل .

واستمرت إيرينا تنظر بعيدا .

– لقد بدا لى أولا أن فى قرارك شيئاً من العجلة، ولكنى فكرت الآن فيما قلته ... وإذا لم تكن مخطئا فأظن أنه ينبغى أن ترحل . هذا خير ... لكلينا.

وكان صوت إيرينا قد أخذ ينخفض وينخفض ، وكلماتها تبطئ وتبطئ . وبدأ لتفينوف يقول :

– حقا ... قد يلاحظ الجنرال راتميروف ..

ونكست إيرينا بصرها مرة أخرى ، وارتعش على شفتيها بريق غريب ... لحظة واختفى . وقاطعته قائلة :

– لا . إنك لم تفهمنى . لم أكن أفكر فى زوجى . لم أفكر فيه ؟ ليس هناك شئ يلاحظ . ولكن أفكر أن الفراق ضرورى لكلينا .

والتقط لتفينوف قبعته التى سقطت على الأرض وفكر : « لقد انتهى كل شىء . يجب أن أذهب ... » ثم قال بصوت مرتفع :

– إذن لم يبق لى إلا أن أقول لك وداعا يا إيرينا بافلوفنا .

– وفجأة أحس بوخزة وكأنه يتأهب لينطق بحكم الإعدام على نفسه – لم يبق لى إلا أن آمل ألا تذكرينى بشر ، و ... وأننا لو .... فقاطعته إيرينا مرة أخرى :

– صبرا ياجريجورى ميهالتش . لا تودعنى الآن . هذه مفاجأة غير مستحبة .

وبدا أن شيئا فى لتفينوف يوشك أن يضعف ، ولكن الألم المحرق انفجر فى قلبه مرة أخرى بعنف مضاعف . صاح :

– ولكنى لا أستطيع البقاء ! لم أبقى ؟ لم أطيل هذا العذاب ؟

فرددت إيرينا :

– لا تودعنى الآن . يجب أن أراك ثانية . فراق أخرس آخر كفراقنا فى موسكو ؟ كلا ، إنى لا أريد ذلك . تستطيع أن تذهب الآن . ولكن يجب أن تعدنى – تعدني بشرفك أنك لن تذهب إلا بعد أن تزورنى مرة أخرى .

– أتريدين هذا ؟

– إنى مصرة عليه . إذا ذهبت دون أن تودعنى فلن أسامحك . أتسمع ! لن أسامحك أبدا!

ثم أردفت وكأنها تخاطب نفسها :

– غريب ! لا أستطيع أن أقنع نفسى أنى فى بادن ... لا أحس إلا أننى فى موسكو ... اذهب الآن !

فنهض لتفينوف قائلا :

– إيرينا بافلوفنا ! هاتى يدك !

فهزت إيرينا رأسها :

– قلت لك لا أريد أن أودعك ...

– لا أريدها لوداع ...

وكادت إيرينا تمد يدها ، ولكنها نظرت إلى لتفينوف للمرة الأولى منذ اعترافه ، فسحبتها وهى تهمس :

– لا لا . لن أعطيك يدى . لا ... لا . يجب أن تذهب .

فانحنى لتفينوف وخرج . ولم يستطع أن يعرف لم أبت عليه إيرينا هذه المصافحة الأخيرة ... لم يستطع أن يعرف ماذا كانت تخاف .

ذهب وغاصت إيرينا فى كرسيها ثانية ، وغطت وجهها ثانية .

- ١٧ -

لم يعد لتفينوف إلى مسكنه ، بل ذهب إلى الجبال ، وانثنى إلى خميلة ، فانبطح على الأرض ، وبقى هناك ساعة . لم يكن يخاصم نفسه ، ولم يكن يبكى ، بل كان كمن يغيب عن وعيه فى بطء مؤلم . لم يعرف قط مثل هذا الشعور . لقد كان فراغا مرهقا يأكل نفسه أكلا : فراغ فى نفسه وخارج نفسه ، فى كل ما يحيط به . فلم يفكر فى إيرينا ولا فى تاتيانا ، إنما أحس بشىء واحد : أحس أن الضربة وقعت فانقطعت الحياة كالحبل ، وحملته قوة باردة غريبة ، كان يخيل إليه أحيانا أن إعصارا انقض عليه ، وكان يحس عصفه ، وخفق أجنحته السوداء . ولكن عزمه لم يتزعزع . البقاء فى بادن ... هذا ما لا يمكن التفكير فيه . لقد رحل بالخاطر فعلا ، وإنه لجالس فى عربة صاخبة دخنة ، يسرع ويسرع فى البعد الأخرس الميت ونهض أخيرا ، واعتمد برأسه على شجيرة ، ولبث دون حراك ، إلا أنه مد يده بلا وعى إلى العقدة العلية من شجرة سرخس ، وراح يهزها هزات متناغمة .

ونبهه من همومه وقع أقدام مقتربة : كان حطابان ينحدران فى شعب الجبل وعلى ظهريهما زكيبتان كبيرتان . فهمس لتفينوف : « حان الوقت ! » وتبع الحطابين إلى المدينة ، ومال إلى المحطة ، فأرسل برقية إلى كابيتولينا ماركوفنا عمة تاتيانا . وفى هذه البرقية أخبرها أنه راحل من فوره ، وعين الملتقى فى فندق شرادر بهيرلبرج .

كان يقول لنفسه : « أسرع . أسرع بإنهاء الأمر . لا فائدة من تأجيله إلى الغد . » ودخل بهو القمار ، وحدق بتطلع بليد فى وجوه بعض المقامرين ، ورأى عن بعد منظرا خلفيا لرأس بنداسوف الكريه ، ورأى وجه بشتشالكن الواضح وبعد أن انتظر قليلا فى بهو الأعمدة ، ذهب إلى إيرينا وقد استجمع عزمه . لم يدفعه إليها دافع فجائى قاهر ، ولكنه حين قرر أن يرحل قرر أيضا أن يبر بوعده ، وأن يذهب ليراها مرة أخرى . ولم يلحظه البواب حين دخل ، ولم يصادفه أحد على السلم ، ولم يطرق الباب بل دفعه بحريه إليه ودخل .

كانت إيرينا جالسة على نفس الكرسى ، بنفس الثوب ، فى نفس الوضع كما تركها منذ ثلاث ساعات ... وكان جليا إنها لم تغادر مكانها ، ولم تأت بحركة طوال ذلك الوقت . رفعت رأسها ببطء ، فلما رأت لتفينوف ارتعد جسمها كله ، وقبضت على ذراع الكرسى ، وهمست :

- أفزعتنى .

ونظر إليها لتفينوف بدهشة صامتة ، فقد راعه تعبير وجهها وانطفاء عينيها .

وابتسمت إيرينا ابتسامة مغتصبة ، وسوت شعرها المشعث :

- لا ترع ... أنا لا أدرى فى الحقيقة ... لابد أنى نمت هنا .

فقال لتفينوف :

- عفوا يا إيرينا بافلوفنا ، لقد دخلت دون استئذان ... أردت أن أعمل مابدا لك أن تطلبيه منى ، وبما أنى راحل اليوم ...

- اليوم ؟ ولكنى أظنك قلت أنك ستكتب خطابا ...

- لقد أرسلت برقية .

- آه ! رأيت أن تسرع . ومتى تذهب ؟ أعنى فى أية ساعة ؟

- الساعة السابعة مساء .

-آه ! الساعة السابعة ! وقد جئت تودعنى ؟

- نعم يا إيرينا بافلوفنا . جئت أودعك .

وصمتت إيرينا برهة .

- يجب علىَّ أن أشكرك ياجريجورى ميهالتش . لعل قدومك إلى هنا لم يكن هينا عليك .

- نعم ياإيرينا بافلوفنا . إنه لم يكن هينا .

- الحياة كلها غير هينة ياجريجورى ميهالتش . ألا ترى ذلك ؟

- هذا يتوقف على أمور كثيرة يا إيرينا بافلوفنا .

وصمتت إيرينا مرة أخرى ، وكأنها غرقت فى التفكير ، وأخيرا قالت :

- أنت أثبت صدق عاطفتك نحوى بقدومك . شكرا لك . إننى أوافقك تماما على قرارك بإنهاء الأمر كله فى أقرب وقت ... لأن كل تأجيل ... لأنى أنا ... حتى أنا التى اتهمتنى بأنى ملاعبة ، وسميتنى ممثلة ... أظن هذه هى الكلمة التى قلتها ؟

ونهضت إيرينا مسرعة ، وجلست على كرسى آخر ، وانحنت إلى الأمام وضغطت وجهها وذراعيها على حافة المنضدة . وهمست بين أصابعها المطبقة :

– لأنى أحبك ...

وترنح لتفينوف كأن أحدا صكه على صدره . وحولت إيرينا رأسها عنه بحزن ، كأنها تريد بدورها أن تخفى وجهها عنه ، ووضعته على المنضدة .

– أجل . إنى أحبك ... إنى أحبك ... وأنت تعلم ذلك .

قال لتفينوف أخيرا :

– أنا ؟ أنا أعلم ؟ أنا ؟

فمضت إيرينا تقول :

– حسنا . الآن ترى أنك يجب أن تذهب حقا ، وأن التأجيل محال . لا أنا ولا أنت نستطيع ذلك . إنه خطر ، إنه مروع ... وداعا ! – وأضافت باندفاع وهى تنهض عن كرسيها : وداعا !

وسارت بضع خطوات نحو باب مخدعها ، ووضعت يدها وراء ظهرها ، وحركتها حركة سريعة فى الهواء وكأنها تريد أن تلاقى يد لتفينوف وتضغط عليها ، ولكنه وقف عن بعد كعمود من الحجر فقالت مرة أخرى :

– وداعا . انسنى .

وذهبت مسرعة دون أن تلتفت .

بقى لتفينوف وحيدا ، ولكنه لم يستطع أن يثوب إلى نفسه . وأخيرا جمع حواسه وذهب إلى باب المخدع ، ونطق باسم إيرينا مرة ومرة ومرة ... وكانت يده على القفل ... وارتفع من درج الفندق صوت راتميروف الأغن ... فجذب لتفينوف قبعته على عينيه . وخرج إلى الدرج . كان الجنرال الأنيق واقفا أمام مدخل البواب السويسرى ، يبين له بألمانية ركيكة أنه يريد استئجار عربة طول اليوم . فلما وقع نظره على لتفينوف عاد فرفع قبعته عالية فوق رأسه و « رحب » به ترحيبا شديدا . وكان جليا أنه يهزأ به ، ولكن لتفينوف كان فى شغل عنه ، فلم يكد يرد تحيته ، ومضى إلى مسكنه حيث وقف أمام حقيبته المعدة المغلقة ، ورأسه يدور ، وقلبه يتذبذب كوتر قيثارة . ماذا يعمل الآن ؟ وهل كان يستطيع أن يتوقع ذلك ؟

أجـل ، إنـه كـان يتـوقع ذلك وإن لم يستطـع تصديقه . لقد فاجـأه كالصـاعقة ، ولكنه كان يتوقعه ، ولم يجسر على الاعتراف بـه لنفسـه . ومع ذلك فإنه الآن غير واثق من شيء . كان كل شيء فيه يغلى ويضطـرب . وانقطع حبل أفكاره . وتذكر موسكو ، وتذكر كيف فاجأه « ذلك » من قبل كما تفاجـأ العاصفة السفين . وانبهرت أنفاسـه ، وعربدت فى قلبه نشوة يائسة مضنية كادت تخنقه . لا لشـىء فى العالم كان يساوى عنده تلك الكلمات التى نطقت بها إيرينا ... ولكن ماذا بعدها ؟ إن تلك الكلمات ما كانت برغم كل هذا لتغير عزمه ، بل ظل ثابتا كما كان راسخا كأنه المرساة . لقد انقطع خيط أفكاره .. نعم ، ولكن بقيت له إرادته واقتاد نفسه كما لو كانت رجلا آخر يعتمد عليه . فطلب خادم الفندق ، وسأله عن حسابه ، وحجز مكانا فى سيارة المساء . لقد تعمد أن يقطع على نفسه كل طريق للهرب ، وصـاح : « ولو مت فى سبيله ! » كما صاح فى الليلة السابقة المسهدة ، وكأنما أعجبته تلك العبارة .. وراح يردد وهو يقبل ويدبر فى غرفته : « ولو مت فى سبيله ! » ولكن كلمات إيرينا كانت تعود مرة بعد مرة فتغزو قلبه وتحرقه بمثل النار ، فيغمض عينيه بلا إرادة ، ويحبس أنفاسه ، ويقول لنفسه : « لا أحسبك تحب مرتين . حياة أخرى تأتى إليك ، وتدعها تمتزج بحياتك ، فلا تخلص أبدا من ذلك السم ، ولا تحطم أبدا تلك القيود ! أجل ، ولكن ما معنى هذا ؟

السعادة ؟ .. أهى ممكنة ؟ أنت تحبها ، فلنسلم بذلك ... وهى ... هى تحبك .. »

ولكنه هنا يعود فيستجمع قوته . وكما يرى المدلج فى الليل البهيم ضوءًا أمامه فلا يحول عينيه عنه لحظة واحدة حتى لا يضل الطريق ، كذلك وجه لتفينوف قوة انتباهه كلها نحو نقطة واحدة ، نحو غرض واحد : أن يصل إلى خطيبته ، وليس إلى خطيبته بالدقة (فقد كان يحاول ألا يفكر فيها) بل إلى غرفة فى فندق هيدلبرج . ذلك ما كان يلوح له النور الهادى . أما ما يكون من بعد فلم يكن يعلمه ، ولا يريد أن يعلمه ... كان هناك شىء واحد لا يرتقى إليه الشك : إنه لن يعود . وردد للمرة العاشرة : « ولو مت ! » ونظر الى ساعته . السادسة والربع ! ما أطول الانتظار ! وذرع الغرفة مرة أخرى مقبلا ومدبرا . كانت الشمس على وشك المغيب ، والسماء حمراء قانية فوق الأشجار ، والشفق الوردى يسيل من النوافذ الضيقة الى حجرته المغطشة . وفجأة خيل للتفينوف أن الباب قد فتح وراءه فى هدوء وسرعة ، وأغلق فى هدوء وسرعة كذلك ... فالتفت ، وإذا بامرأة فى شملة سوداء تقف عند الباب ... فصاح وهو يصفق بيديه فى ذهول :

– إيرينا !

فرفعت رأسها ، وهوت على صدره .

وبعد ساعتين كان جالسا على أريكة فى غرفته ، وقد انزوى صندوقه فى ركن مفتوحا فارغا ، وعلى المائدة بين ما نثر عليها من الأشياء رسالة من تاتيانا تلقاها منذ برهة ، تقول فيها إنها عزمت على أن تعجل بالرحيل عن درسدن ، إذ أن عمتها عوفيت تماما : فإن لم يَعُقْها شىء فسوف يكونان فى بادن فى الساعة الثانية عشرة من اليوم التالى . ورجت أن يقابلهما على المحطة . وكان لتفينوف قد استأجر لهما حجرة فى فندقه .

وفى نفس المساء بعث بكلمة إلى إيرينا ، فتلقى منها هذا الجواب فى الصباح التالى :

« كان لابد أن يحدث ذلك إن قريبا وإن بعيدا . أكرر لك ما قلته البارحة : إن حياتى بين يديك ، فافعل بى ما تشاء . أنا لا أريد أن أحد حريتك ، ولكنى أقول لك إنى سأرمى كل شىء وأتبعك إلى آخر الدنيا إذا اقتضى الأمر . سنلتقى غدا بالطبع ... حبيبتك إيرينا » .

وكانت الكلمتان الأخيرتان مكتوبتين بخط كبير ثابت قوى .

- ١٨ -

كان لتفينوف بين المجتمعين على رصيف محطة السكة الحديدية فى الثامن عشر من أغسطس عند الساعة الثانية عشرة . وكان قد رأى إيرينا منذ برهة ... رآها جالسة فى عربة مكشوفة ومعها زوجها وسيد آخر متقدم فى السن . ووقع نظرها على لتفينوف ، فلاحظ أن انفعالا غامضا لمع فى عينيها ، ولكنها سرعان ما تورات منه خلف مظلتها .

كان قد حل به انقلاب غريب منذ اليوم السابق – انقلاب شامل فى مظهره وتعبير وجهه ، وكان يحس حقيقة أنه رجل غير الذى كان . لقد تلاشت ثقته بنفسه ، كما تلاشى هدوء ذهنه ، واحترامه لذاته . لم يبق من حالته النفسية السابقة شىء ، وإذ طغت تجارب حديثة لا تنسى على كل ماعداها ، واستولى عليه إحساس قوى حلو خبيث لم يعهده قط من قبل ، ونفذ ضيف غامض إلى محرابه الأقدس فاستحوذ عليه ، ورقد فيه صامتا إلا أنه متبجبح كالمالك فى بيت جديد . لم يعد لتفينوف يشعر بالخجل ، ولكنه كان خائفا ، وكانت تتملكه مع ذلك شجاعة يائسة . الأسرى والمهزومون يعرفون مثل هذا الخليط من إحساسات متناقضة ، كما يعرفه اللص بعد سرقته الأولى . وقد هزم لتفينوف فجأة ... أين أمانته ؟

تأخر القطار خمس دقائق فاستحال قلق لتفينوف إلى عذاب أليم ، ولم يستطع أن يقر فى مكان ، بل ظل يتحرك فى الزحام حركة ثقيلة مدفعة وهو يحدث نفسه : « رباه ! لو كان أمامى أربع وعشرون ساعة أخرى ! » ... أول نظرة إلى تانيا ، وأول نظرة من تانيا . هذا ما ملأه خوفا ... هذا ما أراد أن يخلص منه سريعا .. ثم ماذا ؟ ثم ... ليكن ما يكون ! .. لقد كف الآن عن التقرير والتدمير ، لأن نفسه لم تعد ملكا له . وومضت فى ذهنه صيحة الأمس وميضا مؤلما ... هكذا يلقى تانيا ! ..

وأخيرا سمع صفير ممطوط ، وكركرة ثقيلة تشتد كل لحظة ، ولاح القطار ينثنى فى بطء عند منحنى من منحنيات الطريق . وأسرع الجمهور لاستقباله ، وتبعهم لتفينوف يجر قدميه كرجل حكم عليه بالموت . وأخذت تظهر من العربات وجوه وقبعات سيدات ، ورفرف من إحدى النوافذ منديل أبيض ... كانت كابيتولينا ماركوفنا تلوح له ... انتهى الأمر . لقد بصرت به وعرفها . ووقف القطار ، وأسرع لتفينوف إلى باب العربة وفتحه . كانت تاتيانا واقفة قرب عمتها ، تبسم بسمة مشرقة ، وتمد إليه يدها .

وأعانهما كليهما على النزول ، ورحب بهما بكلمات تافهة مختلطة ثم جعل يضطرب هنا وهناك : يتناول تذكرتيهما وحقائب سفرهما وملاحفهما ، ينطلق ليبحث عن حمال ، ينادى ليستأجر مركبة . وكان سائر الناس من حوله فى هرج ، وكان مسرورا بوجودهم وضجيجهم وصياحهم . وابتعدت تاتيانا قليلا ، وانتظرت حتى يفرغ من تدابيره السريعة وهى لا تزال تبتسم . أما كابيتولينا ماركوفنا فكانت لا تستطيع قرارا وكأنها لا تصدق أنها أصبحت أخيرا فى بادن .

صاحت فجأة :

– المظلتان ! تانيا ! أين المظلتان ؟ – ولم تلاحظ أنها كانت قابضة عليهما بشدة تحت إبطها . ثم أخذت تودع سيدة صادفتها فى الطريق من هيدلبرج إلى بادن وداعا صاخبا طويلا .

ولم تكن هذه السيدة إلا صاحبتنا مدام زوهانتشيكوف ، وقد ذهبت إلى هيدلبرج لتقدم ولاءها إلى جوباريوف وعادت تحمل « توجيهاته » . وكانت كابيتولينا ماركوفنا تلبس شملة مخططة غريبة الشكل ، وقبعة سفر يشبه شكلها شكل الكمأة ، وينفر من تحتها شعرها الأبيض الخفيف . وكانت قصيرة نحيلة ، يعلو وجهها احمرار السفر ، وتتكلم الروسية بصوت منغم يخرق الأذن ... فسرعان ما أخذ الناس ينظرون إليها .

وأخيرا أجلسها لتفينوف مع تاتيانا فى عربة ، وأجلس نفسه ازاءهما . وانطلقت الجياد ، وأعقبها الاستفسار والمصافحة وتبادل البسمات والتحيات ... وتنفس لتفينوف الصعداء . لقد مرت اللحظة الأولى بسلام ، ولم يرع تاتيانا منه شىء ولا أرابها شىء ، فقد كانت تبسم بسمتها الوضيئة الواثقة ، وتحمر احمرارها الفاتن ، وتضحك ضحكها السمح وأخيرا فرض على نفسه أن ينظر إليها نظرة صريحة مباشرة لا سارقة عابرة– وكانت عيناه لا تطاوعانه على النظر إليها – فخفق قلبه بانفعال لا إرادى : لقد بعث فيه ذلك السلام الذى كان يلوح على وجهها الصريح الأمين لذعة تأنيب مرير ، فقال فى نفسه : « إذن فقد جئت يابنيتى المسكينة ، يا من كنت أستعجلها وأتشوق إليها ، وأريد أن أقضى معها العمر كله ! لقد جئت . لقد وثقت بى .. وأنا .. وأنا .. » وأطرق لتفينوف ، ولكن كابيتولينا ماركوفنا لم تمنحه وقتا للتأمل ، بل أخذت تمطره بالأسئلة :

– ما هذا البناء ذو الأعمدة ؟ أين يلعبون القمار ؟ من هذه المقبلة ؟ تانيا ! أنظرى ياتانيا ! ما أعجب هذه الرافعات ! وهذه من عساها تكون ؟ أظن أكثر هذه المخلوقات من باريس؟ يالله ! أى قبعة هذه ! اتجدون كل شىء فى الحوانيت هنا كما فى باريس ؟

ولكن لابد أن الأشياء باهظة الثمن ! هه ؟ يا لها من سيدة ذكية نادرة هذه التى تعرفت بها فى القطار ! أنت تعرفها ياجريجورى ميهالتش . وقد وعدت أن تزورنا . ما أروعها حين تنتقد هؤلاء الارستقراطيين ! من هذا السيد ذو الشارب الأشيب ؟ ملك بروسيا ؟ تانيا ، تانيا ، انظرى ! ملك بروسيا ! لا ؟ ليس ملك بروسيا ! سفير هولندا ؟ أنا لا أسمع ! العجلات تكركر كركرة ! آه ! ما أجمل الأشجار !

فوافقتها تاتيانا قائلة :

– نعم جميلة ياعمتى ، وما أبهج كل شىء هنا وما أنضره ! أليس كذلك ياجريجورى ميهالتش ؟

فأجاب من بين أسنانه :

– نعم ، بهيجة جدا .

ووقفت العربة أخيرا أمام الفندق ، وقاد لتفينوف المسافرتين إلى الحجرة التى أعدت لهما . ووعد أن يعود قبل ساعة ،. وذهب الى حجرته . وما كاد يدخلها حتى استولى عليه من جديد ذلك السحر الذى نام لحظة . هنا فى هذه الحجرة كان عرش إيرينا وتاجها منذ يوم ، كان كل شىء يحدث عنها بلسان فصيح ، والهواء نفسه كأنما علق آثارا خفية منها ... وأحس لتفينوف مرة أخرى أنه عبدها . أبرز منديلها الذى أخفاه فى صدره ، وضمه إلى شفتيه ففاضت فى عروقه الذكريات اللاهبة كالسم الوحى . وعرف أن لا نكوص ولا خيرة الآن . لقد ذاب من نفسه العطف الحزين الذى أثارته تاتيانا كما يذوب الثلج فى النار ، وخبا الندم ... خبا حتى اطمأن قلقه ، ولم تعد فكرة الخديعة تثير اشمئزازه ...الحب ، حب إيرينا .. ذلك هو حقيقته الآن ، هو قانونه ، هو ضميره .. ولم يتمهل لتفينوف العاقل الحريص ليفكر فى النجاة من موقف كان شعوره بفظاعته وشناعته لا يتجاوز الخطرة العابرة ، وكأنه أمر لايعنيه .

وما كادت الساعة تمر حتى جاءه خادم الفندق رسولا من النزيلتين الجديدتين . كانتا تسألان أن يلحق بهما فى بهو الفندق . فتبع الرسول ووجدهما فى ملابس الخروج وقبعاتهما على رأسيهما . وأبدت كلتاهما الرغبة فى الخروج على الفور لتريا بادن ، لأن الطقس كان جميلا ، وكانت كابيتولينا ماركوفنا على الخصوص لا تطيق صبرا ، وحزنت حين علمت أن الساعة المختارة للنزهة أمام بهو السمر لم تحن بعد . وأعارها لتفينوف ذراعه ، وانطلقوا للفرجة . وكانت تاتيانا تسير بجانب عمتها وهى تنظر حواليها بتطلع هادىء ، وكابيتولينا ماركوفنا ماضية فى أسئلتها . وكان مرأى

الروليت ، والكروبييه ذوى المهابة الذين لو أبصرتهم فى أى مكان آخر لحسبتهم وزراء ، والعصى السريعة الحركة ، وأكوام الذهب والفضة على القماش الأخضر ، والعجائز المقامرات ، والغوانى المتبرجات – كان مرأى ذلك كله باعثا لذهولها الأبكم . فنسيت كل النسيان أنها ينبغى أن تثور على ما تراه من فساد ، ولم تستطع إلا أن تحدق وتحدق ، وهى تنتفض دهشة لكل منظر جديد .. وكان أزيز العجلة العاجية فى قاع الروليت يبعث الرعدة فى نخاع عظامها ، وإنما استعادت قوتها حين خرجت إلى الهواء الطلق ، وتنفست نفسا طويلا ، فوصفت القمار بأنه اختراع فاسد من مخترعات الأرستقراطية ، وارتسمت على شفتى لتفينوف ابتسامة جامدة باردة . وكان يتكلم ببطء واختصار ، وكأنه ضجر أو مغيظ ... ولكن خجلا خفيا اعتراه حين التفت إلى تاتيانا . كانت تنظر إليه مليا وكأنها تسأل نفسها ماذا ترى فيه بالتحديد . وأومأ إليها مسرعا ، فأجابته بمثل إيماءته ، وعادات فنظرت إليه متسائلة ، فى شىء من الجهد ، وكأنه واقف فى مكان أبعد مما كان فيه فى الواقع . وانصرف لتفينوف برفقته من بهو السمر ، ومر «بالشجرة الروسية» وقد جلست تحتها سيدتان روسيتان ، واتجه إلى شارع لختنتالر . فما كادوا يشرفون على الطريق حتى رأى إيرينا على بعد .

كانت تسير نحوه مع زوجها وبوتوجين . فاستحال لتفينوف أبيض كالقرطاس ، على أنه لم يبطئ فى مشيته ، وانحنى فى صمت حين قابلها ، وانحنت له بدورها فى أدب يمازجه البرود ، وانسابت عابرة وهى تشمل تاتيانا بنظرة سريعة ... ورفع راتميروف قبعته عالية ، وغمغم بوتوجين بشىء .

سألت تاتيانا فجأة ، ولعلها لم تكن قد فتحت شفتيها قبل تلك اللحظة :

– من هذه السيدة :؟

فردد لتفينوف :

– هذه السيدة ؟ إنها تدعى مدام راتميروف .

– أهى روسية ؟

– أجل .

– هل عرفتها هنا ؟

– لا . إنى أعرفها من زمن طويل .

– ما أجملها !

فقالت كابيتولينا ماركوفنا :

– هل لا حظت ثيابها ؟ إن ثمن الوشى وحده يكفى عشر أسر سنة كاملة .

ثم سألت وهى تلتفت إلى لتفينوف :

– أهذا الذى معها زوجها ؟

– نعم .

– أتراه فاحش الثراء ؟

– لا أدرى فى الحقيقة . لا أظن ذلك .

– مارتبته ؟

– إنه جنرال .

ولاحظت تاتيانا :

– ما أجمل عينيها ! وما أغرب تعبيرهما ! حالمتان نافذتان فى وقت واحد ... لم أر قط مثل هاتين العينين .

فلم يجب لتفينوف . وخيل إليه أنه أحس نظرة تاتيانا المتسائلة مصوبة إلى وجهه ، ولكنه كان مخطئا ، فقد كانت تنظر إلى رمل الممر تحت قدميها .

وصاحت كابيتولينا ماركوفنا فجأة :

– ياالله ! من هذه الغول ؟

وأشارت إلى عربة خفيفة ، تتمرغ فيها بقحة امرأة حمراء الشعر ، قطساء الأنف ، نافجة المنخرين ، فى ملابس فاخرة ، وجورب وردى اللون .

– هذه الغول ! إن هذه هى المدموازيل كورا الشهيرة .

– من ؟

– المدموازيل كورا ... باريسية ... مشهورة .

– ماذا ؟ هذا الكلب الصينى ؟ كيف ؟ إنها فظيعة !

– يظهر أن هذا ليس بعائق .

فلم تستطع كابيتولينا ماركوفنا إلا أن ترفع يديها فى دهشة ... وأخيرا قالت :

– حسنا . إن هذه البادن تستحق الفرجة ! هل يمكننا الجلوس على هذا المقعد ؟ إنى أحس بعض التعب .

– طبعا يمكنك ياكابيتوليا ماركوفنا . هذا ما وضعت المقاعد من أجله .

– وكيف أعلم ؟ يقولون إن باريس فيها مقاعد على طول الطريق أيضا ، ولكن لا يليق أن تجلس عليها .

فلم يجب لتفينوف . وفى هذه اللحظة أدرك أن المكان الذى قابل فيه إيرينا مقابلتهما الحاسمة لا يبعد عنه إلا خطوتين . ثم تذكر أنه لاحظ منذ قليل بقعة وردية صغيرة على خدها ...

وتهالكت كابيتولينا ماركوفنا على المقعد ، وجلست تاتيانا بجانبها ، وظل لتفينوف واقفا فى الممر . وبدا له – أو لعله توهم – أن شيئا ما قد حدث بينه وبين تاتيانا ... حدث تدريجيا ودون أن يحس .

صاحت كابيتولينا ماركوفنا وهى تهز رأسها بحسرة :

– يا للقردة الحمقاء ! هذه ثمن ملابسها لا تكفى عشر أسر فقط ، بل مائة . هل لاحظت الماسات فى شعرها الأحمر تحت قبعتها ؟ ياللعجب ! ماسات فى وضح النهار !

فعلق لتفينوف على ملاحظتها قائلا :

– ليس شعرها أحمر . إنها تصبغه أحمر ، وهذا هو البدع الآن ...

فلم يسع كابيتولينا ماركوفنا إلا أن ترفع يديها مرة أخرى وقد عقلت الدهشة لسانها . وأخيرا قالت :

– مثل هذه الفضائح لا توجد عندنا فى درسدن ، والسبب أنها أبعد عن باريس قليلا . ألا تظن ذلك ياجريجورى ميهالتش – هه ؟

فأجاب لتفينوف : « أنا ؟ مؤكد . طبعا . » بينما كان يقول لنفسه : « ترى عن أى شىء تتكلم ؟ »

وفى تلك اللحظة جاء وقع أقدام بطيئة ، واقترب بوتوجين من المقعد ، وبدأ الكلام وهو يومىء مبتسما :

- كيف أنت باجريجورى ميهالتش ...

فأمسك لتفينوف بيده على الفور :

- كيف أنت ، كيف أنت ياسوزونت إيفانتش ؟ ألم أقابلك منذ برهة مع ... منذ برهة فى الطريق ؟

- أجل هو أنا ..

وانحنى بوتوجين باحترام للسيدتين الجالستين على المقعد .

- اسمح لى أن أقدمك للسيدتين ياسوزونت إيفانتش . صديقتان قديمتان وقريبتان لى ، وصلتا إلى بادن منذ قليل . سوزونت إيفانتش بوتوجين ، مواطن لنا يزور بادن أيضا .

فنهضت السيدتان عن الكرسى قليلا ، وانحنى بوتوجين ثانية . ثم بدأت كابيتولينا ماركوفنا تقول بصوت رفيع ، وكانت السيدة العجوز الطيبة شديدة الخجل ، ولكنها حاولت أن تصطنع العظمة بأية وسيلة :

هذا المكان أشبه بـ réunion [١] . كل واحد يرى النزول فى بادن واجبا لذيذا . فأجاب بوتوجين وهو يلحظ تاتيانا عن عرض :

- إن بادن مكان طيب بلا ريب . بادن بلد طيب جدا .

- نعم . ولكنها فى الحقيقة شديدة الفخامة على قدر ما أستطيع أن أحكم . لقد عشنا فى درسدن مدة طويلة ، وهى بلدة لطيفة جدا . أما هنا فالمدينة فى الحقيقة أشبه بـ réunion

فقال بوتوجين فى نفسه : « إنها معجبة بهذه الكلمة » ، ثم رفع صوته قائلا :

- هذه ملاحظة صائبة . ولكن المناظر هنا بديعة ، والموقع قليل النظير . لا شك أن رفيقتك بخاصة سوف تعجب به .

(١) « اجتماع ، احتفال » .

وأردف موجها الحديث إلى تاتيانا هذه المرة :

- أليس كذلك ياسيدتى ؟

فرفعت تاتيانا عينيها الكبيرتين الصافيتين إلى بوتوجين ، وبدت كأنها تسأل نفسها ماذا يطلب منا ، ولماذا قدمها لتفينوف من أول وصولها إلى ذلك الرجل الغريب ، وإن كان وجهه ينم بطيبة وذكاء ، ونظراته تعبر عن ود وترحيب ، وأخيرا قالت :

- نعم . إن المكان جميل .

وتابع بوتوجين حديثه قائلا :

- يجب أن تزورى القلعة القديمة . وأوصيك برحلة السيارة إلى ايبرج .

فبدأت كابيتولينا ماركوفنا تقول :

- سويسرا السكسونية ...

وحينئذ رنت فى أرجاء الشارع أصوات آلات النفخ النحاسية ، فقد كانت فرقة راشتات الموسيقية العسكرية تبدأ حفلاتها الموسيقية الأسبوعية فى كشك المدينة (وفى سنة ١٨٦٢ كانت راشتات لاتزال قلعة للحلفاء) .

فنهضت كابيتولينا ماركوفنا قائلة :

- الموسيقى الموسيقى ! á la Conversation [(١)]. يجب أن نذهب إلى هناك . الساعة بعد الثالثة الآن ... أليس كذلك ؟ أهى الساعة التى يلتقى فيها المجتمع ؟

فأجاب بوتوجين :

- نعم ، هذا هو الوقت المفضل عندهم ، والموسيقى هناك ممتازة .

- حسنا . إذن فلا نضيع وقتا . تعالى ياتانيا !

فسأل بوتوجين :

- أتسمحون لى بمرافقتكم ؟

(١) « إلى بهو السمر » .

فدهش لتفينوف جدا ، ولم يخطر بباله قط أن بوتوجين كان مبعوثا من إيرينا .

وابتسمت كابيتولينا ماركوفنا بأدب .

– بكل سرور يامسيو ... مسيو ...

فأكمل : بوتوجين . وقدم لها ذراعه . وقدم لتفينوف ذراعه لتاتيانا . وقصد الزوجان بهو السمر .

واسترسل بوتوجين فى حديثه مع كابيتولينا ماركوفنا . أما لتفينوف فسار دون أن ينبس بكلمة ، إلا أنه ابتسم مرة أو مرتين بلا داع ، وضغط على ذراع تاتيانا ضغطا خفيفا . ولم تجب تاتيانا على هذه النبضات الكاذبة ، وشعر لتفينوف بكذبه ، فلم تكن تلك النبضات– كما كانت فى الأيام الخالية – تأكيدا للرباط الوثيق بين قلبين متحابين ، بل بديلا وقتيا لكلمات لم يستطع أن يجدها . إن هذا الشىء الصامت الذى حدث بينهما قد نما وازداد قوة . وعادت تاتيانا تنظر إليه مليا حتى كأنها تتفحصه .

واستمرت هذه الحال حتى جلس الأربعة حول مائدة صغيرة فى بهو السمر مع فارق واحد، وهو أن صمت لتفينوف بدا شبه عادى فى ضجة الزحام ورنين الموسيقى . وبلغ نشاط كابيتولينا ماركوفنا قمة حدته بحيث لم يستطع بوتوجين أن يلاحق أسئلتها أو يرضى تطلعها . ثم أسعفه الحظ فجأة بأن ظهر بين الزحام شبح مدام زوهانتشيكوف النحيل بعينيها اللامعتين الوثابتين ، فعر فتها كابيتولينا ماركوفنا على الفور ، ونادتها وأجلستها على مائدتهم ، وهامت عاصفة من الكلام .

والتفت بوتوجين إلى تاتيانا ، وبدأ يحادثها بصوت ناعم خفيض ، وهو منحن نحوها قليلا ، وعلى وجهه تعبير لطيف ودود، وكانت هى تجيبه بسهولة وطلاقة دهشت لهما ... كانت سعيدة بأن تتحدث إلى ذلك الأجنبى الذى لا تعرفه بينما جلس لتفينوف ساكتا كما كان ، وعلى شفتيه تلك الابتسامة الجامدة الباردة ؟

وأخيرا حان وقت العشاء . وانقطعت الموسيقى ، وقل الزحام . وودعت كابيتولينا ماركوفنا مدام زوهانتشيكوف وداعا حارا ، فقد شعرت نحوها باحترام عظيم ، وإن قالت فيما بعد لابنة أخيها : «إن هذه السيدة شديدة التعصب حقا ، ولكنها تعرف كل

شيء عن كل إنسان . وصحيح أن النساء يجب أن يحصلن على مكنات الخياطة على أثر الزفاف . »

وودعهم بوتوجين ، ورافق لتفينوف السيدتين فى عودتهما . وبينما هم يدخلون الفندق سلمت إليه رقعة ، فانتحى ناحية وفض الغلاف مسرعا ، فرأى على قصاصة صغيرة من الورق هذه الكلمات بالقلم الرصاص : «تعالى إلى هذا المساء فى الساعة السابعة . دقيقة واحدة – أرجوك. إيرينا.» فدس لتفينوف الورقة فى جيبه ، والتفت وقد اصطنع مرة أخرى تلك الابتسامة ... لمن ؟ لماذا ؟ لقد كانت تاتيانا واقفة وظهرها إليه . وتعشوا على مائدة الفندق العامة ، وكان لتفينوف جالسا بين كابيتولينا ماركوفنا وتاتيانا ، وفجأة تملكه مرح غريب فانطلق يثرثر ويحكى الحكايات ، ويصب النبيذ لنفسه وللسيدتين . وأغرى مرحه ضابطا فرنسيا كان يجلس أمامه، له شارب ولحية على طريقة نابليون الثالث ، وقد قدم من ستراسبورج ، فلم يتحرج من الاشتراك فى الحديث ، بل وصل الى أن اقترح نخبا á la santé Des belles moscovites [1] ولما انتهى العشاء صحب لتفينوف السيدتين إلى حجرتهما ووقف عند النافذة عابس الوجه بضع دقائق ، ثم أعلن فجأة أنه مضطر إلى الخروج فترة قصيرة لبعض الأعمال ، ولكنه لابد سيعود قبل المساء .

ولم تقل تاتيانا شيئا ، ولكنها شحبت ونكست بصرها . وكان من عادة كابيتولينا ماركوفنا أن تنام قليلا بعد العشاء ، وكانت تاتيانا تعلم حق العلم أن لتفينوف يعرف هذه العادة من عمتها ، وتتوقع أن ينتهز هذه الفرصة ليبقى معها فإنه لم ينفرد بها ولا تطلق فى الحديث معها منذ مجيئها . ولكنه ذاهب ! ما معنى هذا ؟ الحق أن سلوكه طول اليوم ...

وانصرف لتفينوف مسرعا قبل أن يسمع اعتراضا ، ورقدت كابيتولينا ماركوفنا على الأريكة ، وبعد أن زفرت زفرتين ، وأنت أنتين ، سبحت فى نوم هادىء مهيب . بينما انتحت تاتيانا ركنا ، وجلست على كرسى واطئ ، وقد شبكت ذراعيها على صدرها .

(١) « فى صحة المسكوفيتيين الحسناوين » .

- ١٩ -

صعد لتفينوف درج « فندق أوروبا » مسرعا ، فأوقفته بنت صغيرة فى الثالثة عشرة ، ذات وجه صغير ماكر وسحنة كلموكية ، وقالت له بالروسية: « تفضل من هذا الطريق . إيرينا بافلوفنا ستكون هنا حالا . » ونظر إليها فى حيرة فابتسمت وكررت : « تفضل . تفضل . » وقادته إلى حجرة صغيرة مواجهة لمخدع إيرينا ، غاصة بصناديق المتاع وحقائب السفر ، ثم اختفت لتوها وهى تغلق الباب بخفة . ولم يكد لتفينوف ينظر حوله حتى فتح الباب ووقفت إيرينا أمامه فى ثوب سهرة وردى اللون ، وحول جيدها وفى شعرها لآلئ . اندفعت نحوه اندفاعا ، وقبضت عليه بكلتا اليدين ، وبقيت لحظات لا تستطيع كلاما ، وعيناها تلمعان ، وصدرها يعلو ويهبط كأنها صعدت جبلا وهى تجرى . بدأت تقول فى همس معجل :

– لم أستطع أن أستقبلك ... هناك . نحن ذاهبان بعد قليل الى حفلة عشاء ولكنى أردت قبل كل شئ أن أراك ... أظن تلك التى قابلتها معك اليوم خطيبتك ؟

فأجاب لتفينوف :

– أجل ، إنها كانت خطيبتى .

وضغط على كلمة « كانت » .

– لقد أردت أن أراك دقيقة واحدة لأخبرك أنك يجب أن تعد نفسك مطلق الحرية ، وأن ما حدث البارحة يجب ألا يؤثر فى خططك .

– إيرينا ! لم تقولين هذا ؟

لفظ هذه الكلمات بصوت عال ، وكانت فيها رنة عاطفة غشوم . فأغمضت إيرينا عينيها دقيقة بحركة لا إرادية ، ومضت تقول وقد زاد همسها خفوتا ، كما زاد انفعالها جموحا :

– آه ياحبيبى ! إنك لا تدرى كم أحبك ، ولكنى لم أزد أمس على أن أديت دينى ، ومحوت إثم الماضى ... آه ! لم استطع أن أمنحك شبابى كما كنت أتمنى ، ولكنى لم ألزمك بشىء ، ولم أكلفك وعدا أيها الغالى ! افعل ما بد الك ،أنت طليق كالهواء ، لا شىء يقيدك ، لا شئ مطلقا ، أريد أن تعلم ذلك !

فقاطعها لتفينوف هامسا هذه المرة :

– ولكنى لا أستطيع أن أحيا بدونك يا إيرينا ، أنا لك أبدا، منذ أمس ... لا أستطيع أن أتنفس إلا عند قدميك ...

وانحنى يقبل يديها وقد شملته رعدة . وحدقت إيرينا فى رأسه المنحنى . قالت :

– إذن فاعلم أننى أيضا على استعداد لكل شيء . إننى أيضا لن أبالى بأحد ولابشيء . كل ما تراه نافذ . أنا أيضا لك إلى الأبد ... لك .

ونقر على الباب نقرة حذرة . وانحنت إيرينا وهمست مرة أخرى « وداعا ! » .

وأحس لتفينوف مر أنفاسها ومس شفتيها على شعره . وحين وقف كانت قد غادرت الحجرة ، إلا أن ثوبها كان يحف فى الدهليز ، وجاء صوت راتميروف من بعد : Eh bien, Vous ne venez pas [1] جلس لتفينوف على صندوق مرتفع وغطى وجهه بيدية ، واستنشق عطرا أنثويا خفيا نديا ... لقد أمسكت إيرينا يده بين يديها . وقال فى نفسه : « هذا كثير ، هذا كثير » ، ودخلت البنت الصغيرة الحجرة ، وابتسمت مرة أخرى جوابا على نظرته القلقة ، وقالت :

– تفضل بالمجيء معى الآن ...

فنهض وخرج من الفندق . وكان عبثا أن يفكر فى العودة إلى مسكنه وهو فى حاجة الى أن يتماسك أولا ، وكان قلبه يدق دقا عنيفا مضطربا ، والأرض كأنها تميد تحت قدميه . وعاد لتفينوف يمشى فى شارع لختنتالر ، وأدرك أن اللحظة الحاسمة قد حانت ولم يعد فى مقدوره أن يرجئ الأمور ، وأن يروغ من نفسه ويتعامى عن الواقع . كان لابد من جلاء الأمر مع تاتيانا . وتخيلها جالسة هناك لا تبدر منها نأمة ، وهى تنتظر عودته ... وتخيل ماسيقوله لها ، ولكن كيف يقول ، وكيف يستطيع أن يبدأ ؟ لقد طرح مستقبله الشريف الرزين المنظم وراء ظهره ، وكان يعلم أنه يلقى بنفسه إلى هاوية يجزع المرء من مجرد النظر إليها ... ولكنه لم يكن يبالى بذلك ، فقد قرره وانتهى منه ، إنما الباقى : كيف يواجه قاضيه؟ ويا ليته كان قاضيا ! ليته كان ملاكا بسيف من نار ،

(١) « حسنا ، ألا تأتين ؟ » .

فذلك أهـون عـلـى القـلب المـذنـب ... ولـكن كان عليـه هو أن يغمد السكين فّى ... يا للشناعة ! هل يرجع ويتخلى عن الثانية ، هل يستغل الحرية التى منحتها إياه ، واعتبرتها حقه ؟ .. لا ! الموت خير من ذلك ! لا ، إنه لا يريد هذه الحرية البغيضة ... بـل يـمرغ نـفـسه فـى التراب راضيا فى سبيل نظرة حب من هاتين العينين وقال صوت حزين :

– جريجورى ميهالتش !

وحطت يد ثقيلة على كتف لتفينوف . فالتفت وراءه بشىء من الفزع ، وعرف بوتوجين .

وبدأ هذا يقول بحيائه المألوف :

– معذرة ياجريجورى ميـهالتش ، أخشى أن يضـايقك ، ولكنى رأيتك من بعد ، ففكرت ... أما أن كنت لا تريدنى ...

فتمتم لتفينوف من بين أسنانه :

– على العكس ، أنا سعيد برؤيتك ..

فسار بوتوجين بجانبه وبدأ يقول :

– مساء جميل . هذا الدفء ! هل سرت طويلا ؟

– لا ..

– ما كان أغنانى عن السؤال ! لقد رأيتك منذ قليل خارجا من « فندق أوروبا » .

– إذن فقد كنت تتبعنى ؟

– أجل .

– الديك ما تريد أن تقوله لى ؟

– فكرر بوتوجين بصوت لا يكاد يبين :

– نعم ..

ووقف لتفينوف . ونظر إلى رفيقه الذى جاء بلا دعوة . كان وجهه شاحبا ، وعيناه زائغتين ، وملامحه المتقلصة كأنما ران عليها حزن مقيم .

قال لتفينوف ببطء وهو يتقدم :

– ما الذى تريد قوله بالضبط ؟

– اسمح لى ... سأخبرك بعد لحظة . لنجلس على هذا الكرسى . إن لم يكن عندك مانع . هذا أروح .

فقال لتفينوف وهو يجلس بجانبه :

– هل فى الأمر سر ؟ إنك تبدو مضطربا ياسوزونت إيفانتش .

– لا ، أنا بخير ، وليس فى الأمر سر أيضا . إنما أردت أن أخبرك ... برأيى فى خطيبتك ... أظنها مخطوبة لك ؟ .. على كل حال ، أنا أعنى الشابة التى قدمتنى إليها اليوم . الحق أنى لم أر فى حياتى إنسانة أجدر منها بالحب . قلب من ذهب . ملاك كريم .

نطق بوتوجين بكل هذه الكلمات دون أن تفارقه مرارته وحزنه ، حتى أن لتفينوف نفسه راعه التناقض الغريب بين سيماه وكلامه .

وبدأ لتفينوف يقول :

– إنك مصيب فيما قلته عن تاتيانا بتروفنا . ولكن يجب أن أقول لك أنى دهش لمعرفتك بالرابطة التى بينى وبينها ، ثم لاستطاعتك أن تفهمها بهذه السرعة . حقا إنها ملك كريم . ولكن اسمح لى أن أسالك : أهذا ما أردت أن تبحثه معى ؟

فمضى بوتوجين يقول وكأنه يتجنب السؤال الأخير :

– كل من رآها لابد أن يفهمها . حسب المرء أن ينظر إلى عينيها . إنها جديرة بكل سعادة ، وسعيد ذلك الرجل الذى قسم له أن يسعدها ! ليته يثبت أنه جدير بمثل هذا الحظ العظيم .

فعبس لتفينوف قليلا وقال :

– معذرة ياسوزونت إيفانتش . إن محادثتنا تبدو لى غريبة فريدة ... أود أن أعلم هل تعنينى بما قلته الآن ؟

فلم يجب بوتوجين على الفور ، وكان جليا أنه يجاهد نفسه وأخيرا بدأ يقول :

– جريجورى ميهالتش ! إما أنى مخطىء كل الخطأ فى تقديرك ، وإما أنك قادر على أن تسمع الحق من أى إنسان جاء ، وفى أى صورة كريهة ظهر . لقد أخبرتك الآن أنى رأيت من أين قدمت .

– أجل . من فندق أوروبا . وأى بأس فى ذلك ؟

– إنى أعلم من كنت تزور .

– ماذا ؟

– لقد كنت عند مدام راتميروف .

– حسنا ، لقد كنت عندها . ثم ماذا ؟

– ثم ماذا ؟ .. أنت خطيب تاتيانا بتروفنا . وقد كنت عند مدام راتميروف ، التى تحبها ... وتحبك .

فانتفض لتفينوف واقفا ، واندفع الدم إلى رأسه ، وأخيرا قال بصوت كظيم :

– ما هذا ؟ مزاح سخيف ؟ تجسس ؟ أرجو أن توضح لى أمرك !

فحول إليه بوتوجين نظرة ضعيفة :

– آه ! لا تغضب ياجريجورى ميهالتش . أنا لن أغضب مهما تقل . إنى لم أبدأك بالحديث من أجل هذا ، وليست لى رغبة فى المزاح .

– ربما ، ربما . أنا مستعد أن أثق بحسن نيتك . ولكنى أسألك : بأى حق تقحم نفسك فى دخائل رجل آخر، وعلى أى أساس تتقدم واثقا... باختراعك على أنه حقيقة ؟

– اختراعى ! لو كنت اخترعته لما أثار حنقك . أما حقى فأنى لم أسمع من قبل أن الرجل ينبغى أن يسائل نفسه عن حقه فى أن يمد يده إلى غريق .

فصاح لتفينوف باندفاع :

– أنا شاكر وممتن لعنايتك . ولكنى لست بحاجة إليها مطلقا . وكل ما يقال عن الشباك التى تنصبها نساء المجتمع للشبان الأغرار .... وعن انحلال المجتمع الراقى . إلخ – كل هذا أراه مجرد كلام ، كلام تافه غث ، ولهذا أتوسل إليك أن تريح ذراعك المنقذة ، وأن تدعنى أغرق فى سلام .

فرفع بوتوجين عينيه مرة أخرى إلى لتفينوف ، وحشرجت أنفاسه ، وارتعدت شفتاه ، وأخيرا انفجر صائحا وهو يصك صدره :

– انظر إلىّ أيها الشاب . هل تراني أشبه أخلاقيا أو واعظا عاديا راضيا عن نفسه ؟ ألا تفهم أن اهتمامى بك ، مهما يكن عظيما ، ما كان ليدفعنى إلى أنطق بكلمة واحدة تجعل لك الحق فى أن تتهمنى بشر ما أكره : بالتطفل والفضولية ؟ ألا ترى أن الأمر مختلف جدا ، وأن أمامك رجلا حطمته – بل محته محوا – تلك العاطفة التى يريد أن ينقذك من عواقبها ... نحو المرأة نفسها ؟

فتراجع لتفينوف خطوة :

– أهذا ممكن ؟ ماذا قلت ؟ .. أنت ... أنت ... ياسوزونت إيفانتش ؟ ولكن مدام بيلسكى ... ذلك الطفل ؟

– آه. لا تستجوبنى ! .. بل صدقنى ! إنها قصة سوداء مروعة ، ولن أخبرك بها . إنى لم أكد أعرف مدام بيلسكى ، وهذه الطفلة ليست بنتى ، ولكنى حملت المسئولية كلها ... لأن ... لأنها هى أرادت ذلك ، لأنه كان ضروريا لها هى . لماذا أنا هنا فى هذه البلدة الكريهة ؟ هل تظن – هل تستطيع أن تتخيل لحظة أنى كنت أجرؤ على إنذارك لمجرد العطف عليك ؟ إنى آسف لتلك الفتاة الطيبة الحلوة ، خطيبتك ، ولكن ما شأنى بمستقبلكما ، ما شأنى بكما معا ؟ .. إنما أخاف عليها ... عليها هى .

– أنت تسدى إلىّ شرفا عظيما ياسيد بوتوجين . ولكن مادامت حالك من حالى ، كما تقول ، فلماذا لا توجه مثل هذا النصح إلى نفسك ؟ ألا أنسب مخاوفك إلى شعور آخر ؟

– أتعنى الغيرة ؟ آه أيها الشاب ، أيها الشاب ، ألا تخجل أن تراوغ وتغالط ، ألا تخجل إذ تجهل أى حزن مرير يكلمك الآن من شفتى ! لا ، ليست حالى من حالك ! أنا رجل هرم مضحك ، شيخ أبله لا يؤبه له – أما أنت ! ولكن ما حاجتنا إلى الحديث عن ذلك ؟ إنك لاتقبل لحظة واحدة أن تشغل المكان الذى أشغله شاكراً! الغيرة ! لا يغار من لم يحظ قط بقطرة من أمل . ولو كنت أغار لما كانت هذه أول أسباب الغيرة . لست خائفا إلا ... إلا عليها . أعلم ذلك . وهل كان بوسعى أن أتوقع – حين أرسلتنى إليك – إن شعورها بالذنب نحوك – وقد اعترفت لى به – سوف يذهب بها إلى هذا المدى ؟

– ولكن معذرة ياسوزونت إيفانتش ، يبدو أنك تعلم ...

– أنا لا أعلم شيئا ، وأعلم كل شيء ! – وزاد وهو يلتفت : أنا أعلم أين كانت ليلة أمس . إنها لن يكبح لها جماح منذ اليوم . إنها كحجر تدحرج ، فلا بد أن يتدحرج حتى القرار . وأنى لأحمق إن تخيلت أن كلماتى سوف تردك على الفور ... أنت ، حين تكون امرأة كهذه ... لكن دعنا من هذا .إنى لم أملك نفسى ، وهذا كل عذرى . ولكن من يدرى ؟ وماذا تضر المحاولة ؟ لعلك تفكر فى الأمر مرة أخرى . لعل كلمة من كلماتى تنفذ إلى قلبك ، فتنثنى عن تحطيمها ، وتحطيم نفسك ، وتحطيم هذه المخلوقة البريئة الحلوة .. آه ! لا تغضب، ولا تدق الأرض بقدمك ! ماذا أخاف ؟ ولماذا أحتشم ؟ ليست الغيرة هى التى تتكلم فى ، لا ، ولا الغضب ... إنى على استعداد لأن أركع عند قدميك ، لأن أتضرع إليك. لكن وداعا . لا حاجة بك إلى القلق، فسيبقى هذا كله سرا . ما أردت لك إلا الخير .

وخطا بوتوجين خطوات واسعة على الطريق اللاحبة ، واختفى فى الظلام المغطش ، ولم يستبقه لتفينوف .

« قصة سوداء مروعة ، هكذا قال بوتوجين للتفينوف ، ولكنه أبى أن يخبره بالقصة ... فلنعرج عليها ببضع كلمات فحسب :

حدث منذ ثمانى سنوات أن ندبته مصلحته للعمل مع الكونت ريزنباخ . وكان ذلك فى الصيف ، واعتاد بوتوجين أن يركب عربة إلى الكرمة الريفية ومعه الأوراق ، ويمكث هناك أياما كاملة متعاقبة ، وكانت إيرينا تعيش إذ ذاك بمنزل الكونت ، ولم تكن تترفع عمن دونها ، أو على الأقل لم تكن تزدريهم ، وقد آخذتها الكونتة غير مرة على تبسطها المسكوفى المفرط . فسرعان ما استكشفت إيرينا فى الكاتب المتواضع رجلا ذكيا مخبأ فى السترة المحكمة التى كانت بزته الرسمية . واعتادت أن تجاذبه الحديث فى حماسة وانطلاق ، وأما هو ... فقد أحبها ... أحبها حبا قويا عميقا مكتوما .. مكتوما ! هذا ما كان يظنه هو . ومضى الصيف ، واستغنى الكونت عن معونته ، وغابت إيرينا عن عينى بوتوجين ، ولكنه لم يستطع أن ينساها . وبعد ثلاث سنوات تلقى على غير انتظار دعوة من سيدة من الطبقة الوسطى لم تكن له بها إلا معرفة يسيرة ، واضطربت السيدة أول الأمر وهى تشرح له الغرض من دعوتها ، ولكنها بعد أن استحلفته ألايبوح بشيء مما سيسمعه ، عرضت عليه ... أن يتزوج فتاة ، كانت لها فى المجتمع مكانة مرموقة ، ولم يكن لها بد من الزواج . ولم تكد السيدة تجرؤ على الإشارة إلى الرجل الذى كان محور القصة . ثم وعدت بوتوجين بمال ... بمقدار جسيم

من المال . ولم يثر بوتوجين ، فقد خنقت الدهشة فى نفسه كل شعور ، ولكنه رفض رفضا باتا . وعندئذ ناولته السيدة كلمة مكتوبة – من إيرينا . وإذا فيها : « أنت رجل نبيل كريم ، وأنا أعلم أنك ترضى بأن تفعل أى شىء من أجلى . إنى أسألك هذه التضحية . ستنقذ شخصا عزيزا علىَّ جدا . وبإنقاذك إياها ستنقذنى أيضا ... لا تسلنى كيف . لم أكن لأتوجه بهذا إلى أحد غيرك ، ولكنى أمد يدى إليك وأقول افعل هذا من أجلى » وفكر بوتوجين ثم قال إنه حقا على استعداد لأن يفعل أشياء كثيرة من أجل إيرينا بافلوفنا ، ولكنه يود أن يسمع رغبتها من بين شفتيها . وكان اللقاء فى المساء نفسه ، ولم يدم طويلا ، ولم يعرف به أحد إلا تلك السيدة نفسها ، ولم تكن إيرينا تقيم إذ ذاك فى منزل الكونت ريزنباخ .

سألها بوتوجين :

– ما الذى حداك إلى التفكير فىَّ أنا ، دون الناس جميعا ؟

فبدأت تفيض فى الثناء على صفاته النبيلة ، ولكنها توقفت فجأة ... وقالت :

– كلا . يجب أن تعلم الحقيقة . أنا أعرف أنك تحبنى ، هذا ماجعلنى أقرر ....

ثم أخبرته بكل شئ .

لقد كانت اليزا بيلسكى يتيمة ، كان أقاربها يكرهونها ، ويطمعون فى ميراثها ... وكانت فى محنة ، وبإنقاذها أرادت إيرينا أن تخدم الرجل الذى كان سببا فى محنتها والذى أصبحت له الآن علاقة وثيقة بإيرينا نفسها ... ونظر بوتوجين إلى إيرينا نظرة طويلة ، ولم يتكلم ، ووافق ، فبكت ، وانطرحت على عنقه ودموعها تنهمر . وبكى هو أيضا ... ولكن دموعها كانت جد مختلفة . وكان كل شئ قد أعد للزواج المكتم . كانت يد قوية تزيح كل العقبات ... ولكن جاء المرض ... ثم ولدت طفلة ، وإذا بالأم بعد ذلك ... تشرب السم . فماذا يكون من أمر الطفلة ؟ لقد كفلها بوتوجين ، بعد أن تلقاها من اليدين نفسيهما ، يدى إيرينا .

قصة مروعة سوداء ... فلنعد عنها أيها القراء ، فلنعد عنها !

مضى أكثر من ساعة قبل أن يحمل لتفينوف نفسه على العودة إلى فندقه .. ولما قاربه سمع من خلفه وقع خطا ، وخيل إليه أنها تتبعه بإلحاح ، وتسرع كلما أسرع ، فلما مر لتفينوف تحت عمود مصابح التفت وراءه وعرف الجنرال راتميروف .

وكان راتميروف عائدا وحده من الحفلة ، ومعطفه مفتوح ، وعلى صدره رباط عنق أبيض وعدد من النجوم ، والصلبان فى سلسلة ذهبية معلقة بعروة سترته . وثبت عينيه على لتفينوف ببغض واحتقار ، وبدا فى مظهره كله تحد واستفزاز حتى اضطر لتفينوف أن يتقدم ليلقاه ويواجه « الفضيحة » وإن كره . لكن وجه الجنرال تغير فجأة حين حاذاه لتفينوف ، وعاودته رقته اللاعبة المألوفة ، ولوحت يده فى قفازها ذى اللون الأصفر الخزامى ، رافعة قبعته الصغيرة فى الهواء . فرفع لتفينوف قبعته صامتا ، ومضى كل فى طريقه .

وفكر لتفينوف : « لاشك أنه لاحظ شيئا ! »

وفكر الجنرال : « ليته على الأقل كان ... شخصا آخر ! »

وكانت تاتيانا تلعب الورق مع عمتها حين دخل لتفينوف حجرتها ، فصاحت كابيتولينا ماركوفنا وهى تلقى بأوراقها :

– والله إنك شاب ظريف ! أول يوم ، وتغيب طول المساء ! لقد انتظرنا و انتظرنا ! وقلنا فيك وأعدنا ..

فعقبت تاتيانا :

– أنا لم أقل شيئا ياعمتى .

– أوه ، إنك الطيبة نفسها ، كلنا نعلم ذلك ! يجب أن تخجل ياسيدى ! هل نسيت أنك خطيب ؟

وانتحل لتفينوف ما استطاع من أعذار ، وجلس إلى المنضدة .

قال بعد صمت قصير :

– لماذا قطعتما اللعب ؟

– سؤال ظريف ! إننا كنا نلعب من السأم ، ولم يكن لدينا ما نعمله ... أما الآن فأنت هنا .

فقال لتفينوف :

– إذا كنتما تحبان الاستماع إلى موسيقى المساء فإنه يسعدنى أن أذهب معكما .

فنظرت كابيتولينا ماركوفنا الى ابنة أخيها . قالت تاتيانا :

– نذهب ياعمتى . أنا مستعدة . لكن ... أليس الأفضل أن نبقى هنا ؟

– من غير شك ! نشرب شاينا المسكوفى ، شاى السماور ، ونتكلم حتى نشبع ، فإننا لم نكد نتحدث .

وطلب لتفينوف شايا . إلا أن الحديث المشبع لم يتيسر ، لقد كان لتفينوف معذب الضمير ، كلما تكلم خيل إليه أنه يكذب ، وأن تاتيانا تفضح كذبه . ولكنها لم يبد عليها تغير ما ، بل كان سلوكها عاديا لا تكلف فيه ولا تحفظ ... ولو أن عينيها لم تثبتا على لتفينوف قط ، بل كانتا تنزلقان عنه فى تسامح خائف ، ووجهها كان يعلوه شحوب غير عادى . فسألتها كابيتولينا ماركوفنا هل تشعر بصداع ؟

وهمت تاتيانا بأن تقول لا ، ولكنها قالت بعد تفكير قصير :

– نعم ، قليلا .

فقال لتفينوف .

– إنها الرحلة .

واحمر وجهه خجلا .

ورددت تاتيانا :

– نعم ، الرحلة .. وانزلقت عيناها عنه مرة أخرى .

– يجدر بك أن تستريحى ياحبيبتى تانيا .

– نعم . سأنام بعد قليل ياعمتى .

وكان على المنضدة نسخة من Guide des Voyageurs [١] . فأخذ لتفينوف يقرأ فيه بصوت مرتفع وصف ضواحى بادن . وقاطعته كابيتولينا ماركوفنا قائلة :

– تماما . ولكن يجب ألا ننسى شيئا : لقد سمعت أن نسيج الكتان هنا رخيص جدا ، فيجب أن نشترى شيئا منه للجهاز .

وغضت تاتيانا بصرها .

(١) « دليل السياح » .

– الوقت واسع ياعمتى . إنك لا تفكرين فى نفسك أبدا . يجب أن تشترى لك بعض الملابس . أنت ترين أناقة الناس هنا .

– ياحبيبتى ! ما فائدة ذلك ؟ الأناقة ليست مطلبى . قد يختلف الحال لو كنت حسناء كصديقتك ياجريجورى ميهالتش . ما اسمها ؟

– أية صديقة ؟

– التى قابلناها اليوم .

فقال لتفينوف وهو يتصنع عدم الاكتراث :

– أوه ، هذه !

وشعر بالتقزز والخجل مرة أخرى ، وقال لنفسه « لا ، لا يمكن أن تستمر هذه الحال . لقد كان جالسا بجانب خطيبته ، وفى جيبه – على قيد بوصات منها منديل إيرينا . وغابت كابيتولينا ماركوفنا لحظة فى الحجرة الأخرى ، فقال لتفينوف بجهد :

– تانيا ...

وكانت أول مرة يناديها باسمها فى ذلك اليوم ، فالتفتت إليه :

– أنا ... لدى شىء هام أريد أن أقوله لك .

– أوه ! حقا ؟ متى ؟ الآن ؟

– لا . غدا .

– غدا . حسن جدا .

وفاض قلب لتفينوف بحنو لا حد له . وتناول يد تانيا وقبلها بخشوع كأنه آثم . فانقبض قلبها ولم تفرح بقبلته .

ورفعت كابيتولينا ماركوفنا رأسها فجأة فى الساعة الثانية ليلا ، وأنصتت ، وكانت تنام مع ابنة أخيها فى حجرة واحدة . قالت :

– تانيا ! أتبكين ؟

فلم تجب تانيا على الفور . ثم ارتفع صوتها اللطيف :

– لا ياعمتى . لقد أصابنى برد .

سأل لتفينوف نفسه صباح اليوم التالى ، وهو جالس أمام نافذة حجرته : « لماذا قلت لها ذلك ؟ » وهز كتفيه بحنق . إنه قال ذلك لتاتيانا ليقطع على نفسه كل سبيل للتراجع . وكانت على النافذة ورقة من إيرينا تسأله فيها أن يزورها فى الساعة الثانية عشرة ، وكانت كلمات بوتوجين لا تزال تساوره ، وكأنها تصل إليه بصوت خافت منحوس ، كصوت قرقرة تحت الأرض . وكان ساخطا على نفسه ، ولم يستطع أن يتخلص من هذه الكلمات . وطرق الباب . فسأل لتفينوف :

- wer da? [١] .

فسمع صوت بنداسوف الأجش :

- آه ! أنت هنا ! افتح !

وصرت أكرة الباب . وابيض لون لتفينوف من الغضب . صاح بحدة :

- لست هنا .

- لست هنا! يالها من دعابة ظريفة !

- أقول لك أنى لست هنا ، انصرف !

فزمجر بنداسوف :

- ما أكرمك ! لقدجئت أسألك قرضا صغيراً .

على أنه مشى يدق الأرض بكعبه كعادته .

وكاد لتفينوف يعدو خلفه ، فقد تاق توقا إلى أن يخنق ذلك الصعلوك البغيض . كانت حوادث الأيام القليلة الماضية قد أوهنت أعصابه ، ولم يكن بينه وبين البكاء إلا القليل . وشرب كوب ماء بارد، وأغلق كل درج فى الغرفة دون أن يعلم لم يفعل ذلك ، ثم ذهب إلى تاتيانا .

وجدها وحيدة ، فقد ذهبت كابيتولينا ماركوفنا إلى السوق . وكانت تاتيانا جالسة على الأريكة ، ممسكة بكلتا يديها كتابا ، ولم تكن تقرأ فيه ، ولا تعرف أى كتاب هو . لم تتحرك ، ولكن قلبها دق فى صدرها دقا سريعا ، وارتعشت الياقة البيضاء حول عنقها ارتعاشا ظاهرا منتظما .

(١) « من هناك ؟ » .

واضطرب لتفينوف ... ولكنه جلس بجانبها وقال : « صباح الخير » ، وابتسم ، وابتسمت له أيضا بلا كلام . وكانت قد انحنت له حين دخل ، انحنت له فى أدب وكأنه غريب ، ولم تنظر إليه ، ومد إليها يده فأسلمته أصابعها الباردة ، ولكنها سحبتها بسرعة ، وأمسكت الكتاب ثانية . وشعر لتفينوف أنه إن بدأ الحديث فى موضوعات تافهة كان ذلك إهانة لتاتيانا . أما هى فلم تطالبه بشىء كعادتها ، ولكن كل ما فيها كان يقول بجلاء : « إنى منتظرة ، إنى منتظرة » ... عليه أن ينجز وعده ، إلا أنه – وإن قضى أكثر الليل يفكر فى هذا الأمر دون غيره – لم يكن قد أعد ما يقول ، حتى ولا الكلمات الممهدة الأولى ، فلم يدر كيف يقطع ذلك الصمت القاسى :

وأخيرا بدأ ميقول :

– تانيا . لقد أخبرتك أمس بأن لدى شيئا هاما أريد أن أقوله لك ، وأنى على استعداد لذلك ، ولكنى أسالك أولا ألا تغضبى علىَّ ، وأن تؤمنى بأن مشاعرى نحوك ..

وتوقف ليلتقط أنفاسه ، وظلت تاتيانا ساكنة لا تنظر إليه ، ولم تزد على أن شدت قبضتها على الكتاب .

ومضى لتفينوف يقول دون أن يتم الجملة التى بدأها :

– لقد كانت بيننا دائما صراحة تامة. إن إجلالى لك أعمق من أن أستطيع خداعك . أريد أن أبرهن لك على تقديرى لنبلك وشجاعتك ومع أننى ... مع أننى طبعا ...

فبدأت تاتيانا تتكلم بصوت متزن ، بينما غشى وجهها كله شحوب كشحوب الموت :

– هأنذى أساعدك ياجريجورى ميهالتش : إنك لم تعد تحبنى ، ولا تدرى كيف تخبرنى بذلك .

فانتفض لتفينوف . قال وهو لا يكاد يبين :

– لماذا ؟ .. لماذا تظنين ؟ ... أنا فى الحقيقة لا أفهم ...

– ماذا ، أليس هذا حقا ؟ – أخبرنى ، أخبرنى . ودارت تاتيانا إلى لتفينوف حتى واجهته ، وكان شعرها مرسلا إلى الخلف ، فكاد وجهها يلامس وجهه ، وبدت عيناها – اللتان لم تنظرا إليه منذ أمد – وكأنهما تتسبران عينيه . وأعادت :

– أليس هذا حقا ؟

فلم يقل شيئا ، ولم ينبس بصوت . ولو علم أنها ستصدقه وأن كذبه سينقذها لما استطاع أن يكذب فى هذه اللحظة . بل إنه لم يستطع أن يواجه عينيها المثبتتين عليه . لم يقل لتفينوف شيئا ، ولكنها لم تحتج إلى جواب ، لقد قرأت الجواب فى صمته ، فى تلك العينين المذنبتين الذليلتين . وارتدت فى كرسيها ، وتركت الكتاب يسقط من يدها ... لقد كانت تشك إلى هذه اللحظة ، وكان لتفينوف يفهم ذلك ، كان يفهم أنها غير موقنة – ويا لبشاعة ما عمل ، يا لبشاعة ما عمل !

انطرح على ركبتيه أمامها مناديا :

– تانيا ! ليتك تعلمين مقدار تعاستى وأنا أراك هكذا ... مقدار فزعى حين أفكر أننى أنا ... الذى فعلت هذا ! إن قلبى يتمزق. وأنا لا أعرف نفسى . لقد فقدت نفسى ، وفقدتك ، فقدت كل شىء ... لقد ضاع كل شىء يا تانيا ، كل شئ ! هل كنت أظن أنى أنا ... أنى أنا سأسىء إليك هذه الإساءة ، يا أعز صديق ، يا ملاكى الحارس ..؟ هل كنت أظن أننا سنلتقى مثل هذا اللقاء ، وسنقضى يوما مثل أمس ! ...

وهمت تانيا بأن تنهض وتذهب ، فأمسك بحاشية ثوبها .

– لا . أصغى إلى دقيقة أخرى . هأنذا راكع على ركبتى أمامك ، ولكنى لم آت لأسألك المغفرة ، فإنك لا تستطيعين أن تغفرى لى ، ولا ينبغى أن تغفرى لى . لقد جئت أخبرك أن صديقك ضاع ، أنه يسقط فى الهاوية ولا يريد أن يجرك معه ... ولا أمل فى إنقاذى ! حتى أنت لا تستطيعين إنقاذى ، ولو حاولت لدفعت بك بعيدا . لقد ضعت ياتانيا لقد ضعت وانتهيت !

نظرت تانيا إلى لتفينوف ورددت وكأنها لم تحسن الفهم :

– ضعت ؟ ضعت ؟

– أجل ضعت ياتانيا . كل ما ضى ، كل ما أحببته ، كل ما عشت من أجله حتى الآن – كل ذلك ضاع . كل شىء تحطم وخرب ، ولا أدرى ماذا ينتظرنى . لقد قلت الآن إنى لم أعد أحبك ... لا ياتانيا ، أنا ما زلت أحبك ، ولكن عاطفة غير هذه ، عاطفة قاهرة مخيفة – جرفتنى كالشلال .. لقد حاربتها جهد استطاعتى ...

فنهضت تاتيانا وقد انعقد حاجباها واربد وجهها الشاحب . ووقف لتفينوف أيضا . بدأت تقول :

– أنت تحب امرأة أخرى ، وأنا أحدس من هى ... لقد قابلناها أمس . أليس كذلك ! حسنا ، إنى أعلم الآن ماذا يمكننى عمله . ما دمت أنت نفسك تقول أن هذه العاطفة

لا يمكن أن تتغير (وتوقفت تاتيانا لحظة ، ولعلها كانت لا تزال تأمل ألا يدع لتفينوف هذه الكلمة الأخيرة تمر دون اعتراض ، ولكنه لم يقل شيئا) إذن فليس لى إلا أن أرد اليك ... كلمتك .

فحنى لتفينوف رأسه ، وكأنه يتلقى فى خضوع ضربة يستحقها كل الاستحقاق .

قال :

– لك كل الحق أن تغضبى على . لك كل الحق أن تؤنبينى على ضعفى ... وخداعى ...

فنظرت إليه تاتيانا مرة أخرى .

– أنا لم أؤنبك يالتفينوف ، ولست أتهمك . إنى أوافقك ، فالحقيقة ، مهما تكن مرة ، أهون مما كان بالأمس . أية حياة كانت تصير حياتنا الآن ؟

فارتد الصدى حزينا فى نفس لتفينوف :

– أية حياة تصير حياتى الآن !

وذهبت تاتيانا نحو باب المخدع :

– أسألك أن تتركنى وحدى قليلا ياجريجورى ميهاليتش . سوف نتقابل مرة أخرى . سوف نتحدث مرة أخرى . لقد كان هذا كله غير متوقع . يجب أن أتمالك ... اتركنى ... أبق على كبريائى ... سوف نتقابل مرة أخرى .

وتراجعت تاتيانا مسرعة وهى تنطق بهذه الكلمات ، وأغلقت الباب خلفها . وخرج لتفينوف إلى الشارع ذاهلا مشدوها . كان شىء أسود مر يكمن فى أعمق أعماق فؤاده – ولابد أن هذا هو ما يحسه الإنسان الذى ذبح إنسانا – وكان يشعر فى الوقت نفسه براحة ، وكأنه ألقى عن عاتقه عبئا فظيعا . لقد سحقه نبل تاتيانا ، وشعر فى جلاء بكل ما فقده ... ولكن ندمه كان يمازجة سخط . وكان يتوق إلى رؤية إيرينا التى أصبحت ملجأه الوحيد ، ولكنه كان فى الوقت نفسه غاضبا عليها . لقد ظلت مشاعر لتفينوف تعنف وتتعقد فى هذه الأيام القليلة الأخيرة حتى عذبه هذا التعقد وأخنقه .

وشعر أنه ضائع فيه . كان ظامئا إلى شيء واحد ، أن يخرج أخيرا إلى طريق ، أى طريق ، حتى لايدور ويدور فى هذه العتمة المستغلقة - ومن كان عمليا مثل لتفينوف فلا ينبغى أن تستحوذ عليه العاطفة ، لأنها تحطم فيه معنى الحياة نفسه .

ولكن الطبيعة لا تبالى بالمنطق - منطقنا الإنسانى - لأن لها منطقها الذى لا نفهمه ولا نعترف به حتى نسحق تحت عجلته .

حين فارق لتفينوف تاتيانا لم تكن فى رأسه إلا فكرة واحدة : أن يرى إيرينا . فانطلق ليراها . ولكن الجنرال كان فى البيت ، أو على الأقل هذا ما أخبره به البواب - فلم ينشط لتفينوف للدخول ، إذ لم يجد فى نفسه القدرة على النفاق ، واتجه فى بطء نحو بهو السمر ، فقابل فوروشيلوف وبشتشالكين ، وعرف كلاهما كم كان لتفينوف عاجزا عن النفاق فى ذلك اليوم ، فقد صارح الأول بأنه فارغ كالبطل ، والثانى بأنه ثقيل يزهق الروح . وكان من حسن الحظ أن بنداسوف لم يظهر فتحدث grosser scandal [1] وارتاع كلا الشابين ، بل إن فوروشيلوف سأل نفسه ، أليس من الواجب أن يدعو لتفينوف إلى المبارزة حرصا على شرفه العسكرى ؟ ولكنه كان كالضابط بتروجوف فى إحدى روايات جوجول ، فهدأ أعصابه ببضع سندوتشات فى قهوة . وأبصر لتفينوف كابيتولينا ماركوفنا على بعد وهى تجرى فى نشاط من دكان إلى دكان ، وعليها شملتها المخططة ... فلذعه ضميره لمرأى السيدة العجوز الطيبة المضحكة الكريمة . ثم تذكر بوتوجين وحديثهما بالأمس ... وفجأة نبهته نفحة عجيبة : شئ لا يلمس ولكن لا يخطئه الحس ، فلو أن ظلا كان شذى لما كان أرق ولا أخفى منه . وشعر لتوه أن إيرينا تقترب . وظهرت حقا على قيد خطوات منه ، وذراعها فى ذراع سيدة أخرى . وسرعان ما التقت عيناهما . ولعل إيرينا لاحظت أمرا شاذا على سيماء لتفينوف فوقفت أمام دكان عرضت فيه ساعات حائط خشبية صغيرة مما يصنع فى الغابة السوداء ، وأومأت إليه تستدنيه ، فأشارت إلى إحدى هذه الساعات البديعة التى يعلوها ديك ملون ، وبينما كانت تدعو إلى تأمل جمالها قالت فى غير همس بل فى صوتها الطبيعى وكأنها تتم عبارة بدأتها - فذلك أجدر ألا يلفت انتباه الغرباء :

(١) « فضيحة كبيرة » .

– تعال بعد ساعة ، سأكون وحدى .

ولكن زير النساء الشهير المسيو فردييه هجم عليها فى تلك اللحظة ، وراح يثنى على لون ثوبها الأصفر feuille-morte ، وعلى قبعتها الأسبانية القصيرة التى تكاد تمسى حاجبيها .. واختفى لتفينوف فى الزحام .

- ٢١ -

كانت إيرينا تقول له بعد ساعتين ، وهى تجلس على الأريكة ، وتضع كلتا يديها على كتفيه :

– جريجورى ! ما يشغلك ؟ أخبرنى الآن سريعا ، ونحن وحيدان .

قال لتفينوف :

– ما يشغلنى ؟ أنا سعيد سعيد . هذا ما يشغلنى .

فغضت إيرينا بصرها ، وابتسمت ، وتنهدت .

– ليس هذا جوابا على سؤالى أيها الحبيب .

ففكر لتفينوف مليا :

– حسنا ، فلأخبرك إذن ... ما دمت تصرين على ذلك (فتحت إيرينا عينيها وارتعشت رعشة خفيفة) لقد أخبرت خطيبتى أمس بكل شىء .

– ماذا – كل شىء ؟ أخبرتها باسمى ؟

فرفع لتفينوف يديه مستنكرا :

– يالله ! كيف يمكن أن تخطر لك هذه الفكرة يا إيرينا ؟ أنا ..

– معذرة ... معذرة . ماذا قلت ؟

– قلت لها أنى لم أعد أحبها .

– وهل سألتك عن السبب ؟

– لم أخف عنها أنى أحب امرأة أخرى . وإننا يجب أن نفترق .

– آه ! وماذا فعلت ؟ هل وافقت ؟

– أوه يا إيرينا ! يا لها من فتاة ! إنها عين التضحية والنبل !

– لا أشك فى ذلك ، لا أشك فى ذلك ... وإن كانت لا تملك غير هذا .

– ولا كلمة تأنيب ، ولا كلمة واحدة مرة ، مع أنى أفسدت حياتها كلها ، وخدعتها ، ونبذتها بلا رحمة ...

وكانت إيرينا تتأمل أظافرها .

– خبرنى ياجريجورى ... أكانت تحبك ؟

– أجل يا إيرينا ، إنها كانت تحبنى .

وصمتت إيرينا دقيقة ، وشدت ثوبها . ثم قالت :

– إنى لا أفهم لماذا قررت فجأة أن تصارحها بالأمر ؟

– لماذا ؟ لا أظنك كنت تفضلين أن أكذب عليها وأخدعها ، وهى الطيبة البريئة . أم كنت تظنين ...

فقاطعته إيرينا :

– لم أكن أظن شيئا . يجب أن أعترف لك بأنى لم أفكر فيها الا قليلا . أنا لا أحسن التفكير فى شخصين معا .

– تعنين أن ...

فقاطعته إيرينا مرة أخرى :

– حسنا . ثم ماذا ؟ هل ترحل هذه الطيبة البريئة ؟

فأجاب لتفينوف :

– لا أعلم . يجب أن أراها ثانية . ولكنها لن تقيم .

آه ! مع السلامة !

– إنها لن تقيم . ولكنى لا أفكر فيها الآن ، بل أفكر فيما قلته لى ، فيما وعدتنى به .

فرمقته إيرينا من بين أجفانها :

– أيها الرجل الجاحد ! ألم تقنع بعد !

– لا يا إيرينا أنا غير قانع . لقد أذقتنى طعم الهناء ، ولكنى غير قانع . وأنت تعرفين ما أعنيه .

- هذا ، إننى ...

- نعم ، أنت تعرفين ما أعنيه . تذكرى كلماتك ، تذكرى ما كتبته إلىَّ ، أنا لا أستطيع أن أقتسمك مع غيرى . لا ، لا ، لن ألعب هذا الدور الوضيع ، دور العشيق المتلصص . أنا لم ألق عند قدميك بحياتى وحدها ، بل بحياة أخرى معها ، لقد تخليت عن كل شىء ، ولكنى واثق - مؤمن كل الإيمان بأنك إزاء هذا ستبرين بوعدك ، وتوحدين بين حظى وحظك إلى الأبد .

- أتريد أن أفر معك ؟ إنى على استعداد ... (وراح لتفينوف يقبل يديها فى نشوة الفرح) إنى على استعداد . لن أرجع فى كلمتى . ولكن هل فكرت أنت فى كل الصعوبات ، هل أعددت كل الوسائل ؟

- أنا ؟ إنى لم أجد وقتا بعد للتفكير فى شىء ، أو لإعداد شىء . لكن قولى نعم ، دعينى أعمل ، فلا يمر شهر ...

- شهر ! سنرحل إلى إيطاليا بعد أسبوعين .

أذن يكفينى أسبوعان . أوه يا إيرينا ! إنك تقابلين اقتراحى ببرود ، ولعلك تظنينه خياليا ، ولكنى لست صبيا ، ولم أتعود أن أتلهى بالأحلام . وأنا أعلم أنها خطوة خطيرة ،أنا أعلم أى مسئولية سأتحملها ، ولكنى لا أرى طريقا آخر . فكرى فى الأمر .

يجب أن أقطع كل صلة بالماضى ، ولو لم يكن لهذا من سبب إلا كراهة أن أبدو كذابا حقيرا فى عينى الفتاة التى ضحيتها من أجلك !

فانتفضت إيرينا فجأة وقد ومضت عيناها :

- أوه ، أما هذا فلا ياجريجورى ميهالتش ! إذا قررت هذا - إذا قررت حقا فسأفر مع رجل يفعل ذلك من أجلى ، من أجلى أنا وحدى ، لا كراهة أن يسقط من عينى فتاة راكدة الطبع ، يجرى فى عروقها اللبن والماء بدل الدم ! وسأخبرك بشىء آخر : أعترف أن هذه هى أول مرة أسمع فيها أن الرجل الذى شرفته بنظراتى جدير بالإشفاق ، وأنه يلعب دورا وضيعا ! أنا أعرف دورا أوضع منه . دور الرجل الذى لا يدرى بما يدور فى قلبه !

فانتفض لتفينوف بدوره ، وبدأ يقول :

- إيرينا ...

ولكنها دقت جبينها فجأة بكلتا يديها ، وألقت بنفسها على صدره فى حركة تشنجية ، وراحت تعانقه بأشد من قوة الأنثى ، وتقول بصوت مرتعش :

– سامحنى ، سامحنى ، سامحنى ياجريجورى ! أرأيت كم أنا فاسدة ، غيور ، حاقدة ، شرسة ! أرأيت كم أحتاج إلى عونك وتسامحك ! نعم ، أنقذنى ، أخرجنى من هذا المستنقع قبل أن أضيع فيه ! نعم ، تعال نفر ، نفر من هؤلاء الناس ، من هذا المجتمع ، إلى بلاد بعيدة جميلة حرة ! لعل حبيبتك إيرينا تكون جديرة آخر الأمر بما تضحى من أجلها ! لا تغضب علىّ ، اعف عنى أيها الحبيب ، اعلم أنى سأفعل كل ما تأمرنى به ، سأذهب حيث تريد !

واصطخب قلب لتفينوف ، وازدادت إيرينا التصاقا به ، بجسمها الفتى اللدن ، فانحنى على شعرها العبق الذى انسدل ، ولم يكد يجرؤ وهو فى نشوة السعادة والشكر أن يداعبه بيده ، أو يمسه بشفتيه .

ردد :

– إيرينا ، إيرينا . ياملاكى ...

فرفعت رأسها فجأة ، وأنصتت ... ثم همست :

– إنها خطا زوجى ... لقد دخل حجرته . ثم عبرت الغرفة إلى كرسى آخر . وهم لتفينوف أن يقوم لينصرف ، فاستمرت تقول هامسة :

– أين تذهب ؟ إبق . إنه يرتاب فيك من الآن . أم أنت تخافه ؟ – ولم ترفع عينيها عن الباب – نعم ، إنه هو . سيدخل بعد قليل . قل لى شيئا ، تحدث إلىّ – ولم يستطع لتفينوف أن يفكر فى شىء ، فبقى صامتا . قالت بصوت عال . « ألست ذاهبا إلى المسرح غدا ؟ إنهم يمثلون La verre d'eau ، رواية قديمة ، وبليسى متكلفة إلى درجة فظيعة . » وأضافت وهى تخفض صوتها : « نحن أشبه بمحمومين . لا فائدة ، يجب أن نفكر جيدا . كان يجب أن أنذرك بأن نقودى كلها بين يديه « mais j'ai mes bijoux [1] لنذهب إلى أسبانيا ، ما رأيك ؟ » وعادت فرفعت صوتها : « لماذا تصبح كل الممثلات بدينات ؟ مادلين بروهان مثلا ... تكلم ، لا تجلس هكذا صامتا . إن رأسى يدور . ولكن ، ولكن يجب ألا تشك فىّ ... سأخبرك أين تأتى غدا . إلا أنك أخطأت بإخبار تلك الفتاة ... وصاحت فجأة : ... Ah, mais ... c'est charmant [2] » – ومزقت حاشية منديلها وهى تضحك ضحكة عصبية .

(١) « ولكن عندى الحلى » .

(٢) « آه ، بديع ! » .

سأل راتميروف من الحجرة الأخرى :

– أدخل ؟

– نعم ... نعم .

فتح الباب . وظهر الجنرال على عتبته . وحين رأى لتفينوف عبس قليلا ، ولكنه انحنى له ، أى ثنى القسم الأعلى من شخصه الكريم .

قال :

– لم أكن أعلم أن معك ضيفا : je vous demande pardon de mon in- diserétion [١] إذن فما زلت تستطيب الإقامة فى بادن يا مسيو – لتفينوف ؟

– لتفينوف ؟

كان راتميروف ينطق بلقب لتفينوف فى شىء من التردد دائما ، وكأنه ينساه كل مرة ، ولا يستطيع أن يتذكره على الفور ... وبهذه الطريقة ، وكذلك برفع قبعته حين يحييه ، كان يحاول أن يجرح كبرياءه .

– أنى لا أشعر بالملل هنا : M sieu de général [٢]

– حقا ؟ أما أنا فأجد بادن مملة الى حد الفظاعة . إننا سنرحل قريبا ، أليس كذلك يا إيرينا بافلوفنا ؟ assez de Bade indiscrétion [٣] مع أنى ربحت لك اليوم خمسمائة فرنك .

فمدت إيرينا يدها بدلال :

– أين هى ؟ هاتها من فضلك .. لمصروفى ..

– سأعطيك إياها ، سأعطيك إياها ... أخارج هكذا سريعا يامسيو – لتفينوف ؟

– نعم ، كما ترى .

وثنى راتميروف جسمه مرة أخرى .

– يسرنى أن أراك ثانيا !

(١) « معذرة على تسرعى » .

(٢) « يا سيدى الجنرال » .

(٣) « شعبنا من بادن » .

قالت إيرينا :

– وداعا ياجريجورى ميهالتش . سأبر بوعدى .

فسأل زوجها :

– أى وعد ؟ هل لى أن أتطفل ؟

فابتسمت إيرينا :

– لا ، إنه شىء كنا نتحدث عنه : c'est a' propos du voyage ou il vous plaira [1] أتعرف كتاب ستايل ؟

– آه ! آه ! بلا شك . صور رائعة .

وبدا راتميروف على أتم وفاق مع زوجته .

(١) « موضوع السفر .. الأماكن المحبة » .

-٢٢-

ردد لتفينوف وهو ينحدر فى الشارع بخطا واسعة ، وقد أحس أن الضجة الباطنة تثور فيه من جديد : « الأفضل ألا أفكر الآن : لقد تقرر الأمر ، ستفى بوعدها ، وما على إلا أن أرتب الخطوات اللازمة .. ولكنها تبدو مترددة .. » وهز رأسه ، ولاحت له مشروعاته ، هو نفسه ، فى ضوء غريب : لقد كان فيها شىء مصطنع غير حقيقى .

إن المرء لا يستطيع أن يطيل التأمل فى أفكار بعينها إلا إلى حد محدود . فهى تتحرك تدريجيا كقطع الزجاج فى كاليدوسكوب ... وبينما ينظر المرء يجد الأفكار التى أمام عينيه قد تغيرت تغيرا تاما . وهكذا هبط على لتفينوف إحساس بالكلال .. لو استطاع أن يستريح ساعة واحدة قصيرة ! ولكن تانيا ! وأيقظ نفسه ، وبغير مزيد من التفكير انقلب الى مسكنه خاضعا . كان كل ماخطر فى ذهنه أنه ظل طوال اليوم يتقاذف كالكرة بين الواحدة والأخرى ... لا بأس ، فليضع للأمر حدا . وعاد إلى فندقه وذهب ليرى تانيا ، لم يتردد ولم يسوف ، وهو على حاله تلك من الخضوع والخدر .

وقابلته كابيتولينا ماركوفنا . فعرف من أول نظرة أنها علمت بكل شىء . كانت عينا العانس المسكينة ورمتين من البكاء ، ووجهها المحمر الذى أحاطت به خصلها البيض المشعثة يعبر عن جزع وغضب وحزن وذهول . اندفعت إلى لتفينوف ، ولكنها تماسكت على الفور ، ونظرت إليه وهى تعض على شفتيها المرتعدتين ، وكأنها تريد أن تضرع إليه ، وتريد مع ذلك أن تقتله ، ثم تؤكد لنفسها أن الأمر كله كان جنونا ، حلما ، محالا ... أليس كذلك ؟

بدأت تقول :

- إذن فقد جئت ، جئت ...

وسرعان ما فتح باب الغرفة المجاورة ودخلت تاتيانا بخطا خفيفة ، شاحبة يكاد جلدها يشف ، ولكنها على أتم الهدوء . فأحاطت عمتها بذراعها فى رقة وأجلستها بجانبها ، وقالت للتفينوف الذى كان واقفا عند الباب كمن لا يجد نفسه :

- اجلس أنت ياجريجورى ميهاليتش . يسرنى أن أراك مرة أخرى . لقد أخبرت عمتى بعزمك ، بل بعزمنا المشترك . وهى تشاطرنا إياه وتقرنا عليه كل الإقرار ... لا سعادة بغير الحب المتبادل ، أما الاحترام المتبادل فلا يكفى وحده (وغض لتفينوف بصره بلا إرادة حين سمع كلمة الاحترام) . وخير أن نفترق الآن من أن نندم غدا . أليس كذلك ياعمتى ؟

فبدأت كابيتولينا ماركوفنا تقول :

– نعم ، طبعا ياحبيبتى تانيا . الرجل الذى لا يستطيع أن يقدرك ... الذى يبلغ به الأمر ...

فقاطعتها تاتيانا :

– عمتى ! عمتى ! تذكرى وعدك لى . لقد كنت تقولين لى دائما : الحقيقة ياتانيا ، الحقيقة والحرية . حسنا ، إن الحقيقة ليست حلوة دائما ، وكذلك الحرية ، وإلا ففيم فضيلتهما ؟

وقبلت كابيتولينا ماركوفنا على شعرها الأبيض ، والتفتت إلى لتفينوف ومضت تقول :

– إنى أفكر أنا وعمتى فى الرحيل عن بادن ... ولعل هذا أوفق لنا جميعا .

فقال لتفينوف بصوت باهت :

– ومتى تفكران فى الرحيل ؟

وتذكر أن إيرينا سألته هذا السؤال نفسه منذ قليل .

وتحركت كابيتولينا ماركوفنا نحوه ، ولكن تاتيانا ردتها بلمسة عطوف على كتفها :

– قريبا ، قريبا جداً .

وسأل لتفينوف بنفس الصوت :

– وهل تسمحين لى أن أسأل أين تنويان الذهاب ؟

– إلى درسدن أولا ، ثم لعلنا نذهب بعد ذلك إلى روسيا .

فصاحت كابيتولينا ماركوفنا :

– ولكن ماحاجتك الآن إلى معرفة ذلك ياجريجورى ميهالتش ؟

فقاطعتها تاتيانا مرة أخرة :

– عمتى ! عمتى !

وساد صمت قصير ، ثم بدأ لتفينوف يقول :

– تـاتيـانا بتـروفنا ، أنت تعلمين ما عسى أن تكون مشـاعرى اللحظة إيلامـا ومرارة ...

فنهضت تاتيانا قائلة :

– جريجورى ميهاليتش ، لن نتحدث عن ذلك ... أرجوك ، أرجوك من أجلى ، إن لم يكن من أجلك أنت . لقد عرفتك منذ زمن طويل ، وإنى لقادرة على تصور ما تشعر به الآن . ولكن ماجدوى الكلام ؟ ماجدوى مس جرح (وأمسكت ، وكان جليا أنها تريد أن تكبح انفعالا مهاجما ، وأن تزدرد دموعا ثائرة . وقد أفلحت) لماذا ننكأ جرحا لا نملك دواءه؟ دع ذلك للزمن . والآن أريد منك شيئا ياجريجورى ميهاليتش: سأعطيك خطابا ، فلعلك تتكرم بوضعه فى البريد بنفسك ، لأنه هام ، وأنا مشغولة الآن مع عمتى ... أكون شاكرة ... انتظر دقيقة ... سأحضره حالا .

وعند عتبة الباب التفتت تاتيانا فى قلق إلى كابيتولينا ماركوفنا ، ولكنها كانت جالسة فى وقار وكبرياء ، وكان على حاجبيها المعقودين وشفتيها المزمومتين تعبير صارم ، فاكتفت تاتيانا بأن أومأت إليها إيماءة ذات معنى ، وذهبت .

غير أن الباب ماكاد يغلق خلفها حتى تلاشت من وجه كابيتولينا ماركوفنا كل آثار الوقار والصرامة . فنهضت وأسرعت على أطراف أصابعها إلى لتفينوف ، وبدأت تقول فى همس مرتعش باك ، وقد تحدبت وحاولت أن تنظر إلى وجهه :

– بالله ياجريجورى ميهاليتش ، ما معنى هذا ؟ أهو حلم أم ماذا؟ أنت تهجر تانيا ، أنت تملها ، أنت ترجع فى كلمتك ! أنت تفعل هذا ياجريجورى ميهاليتش ، يا من كنا كلنا نثق فيه ثقة عمياء أنت ؟ أنت ؟ أنت ياجريشا ؟ – وتوقفت كابيتولينا ماركوفنا ، ثم مضت تقول دون أن تنتظر جوابا ، ودموعها تجرى قطرات رقيقة على خديها : كيف ! إنك تقتلها ياجريجورى ميهاليتش . لا تحكم عليها بمسلكها الآن ، فأنت تعلم أخلاقها ! إنها لاتشكو أبدا ، إنها لاتشفق على نفسها . فيجب أن يشفق عليها الآخرون ! إنها لا تزال تقول لى : « يجب أن نحتفظ بكبريائنا ياعمتى ! » ولكن ماذا تكون الكبرياء حين أرى أمامنا الموت ... نعم ، الموت ... (وقرقع كرسى تاتيانا فى الغرفة المجاورة ، ومضت السيدة العجوز تقول بصوت أشد انخفاضا) : نعم ، إنى أرى الموت . كيف أمكن أن يحدث شئ كهذا ؟ أهو سحر أم ماذا ؟ لم يمض زمن طويل منذ كنت تكتب إليها أرق الرسائل . الحق ، هل يستطيع رجل شريف أن يسلك هذ المسلك ؟ إننى كما

تعرفنى امرأة متحررة غير جامدة ، ésprit fort ، وقد ربيت تانيا هذه التربية نفسها ، فهى أيضا حرة الفكر ...

وجاء صوت تاتيانا من الغرفة المجاورة :

– عمتى !

– ... ولكن كلمة الشرف واجب ياجريجورى ميهاليتش ، وخصوصا عند من يؤمنون بمبادئك – بمبادئنا ! إن لم نعترف بالواجب فماذا يبقى لنا ؟ لا يمكنك أن تحنث فى وعدك هكذا – لمجرد نزوة – دون أن تنظر إلى ما يصيب غيرك ! إن هذا مخالف لكل مبدأ ... نعم ، إنها جريمة ... نوع غريب من الحرية !

وسمع مرة أخرى :

– عمتى ، أتسمحين بالمجيء هنا ؟

– أنا آتية ياحبيبتى ، أنا آتية ... وأمسكت كابيتولينا ماركوفنا بيد لتفينوف – أرى أنك غاضب ياجريجورى ميهاليتش ... (وأراد أن يقول : أنا ! أنا غاضب ؟ ولكن لسانه خرس) أنا لا أريد أغضابك – بل على العكس ! أريد أن أتوسل إليك ... فكر قبل أن يفوت الأوان ، لا تحطمها ، ولا تحطم سعادتك أنت ، أنها مازالت تريد أن تثق فيك . جريشا ! إنها ستصدقك ، لم يضع شيء بعد . كيف ! إنها تحبك حبا لن يمنحك أحد مثله !

ارحل عن بادن – بادن الكريهة هذه ، لنرحل جميعا ، ما عليك إلا أن تنفض عن نفسك هذا السحر ، والمهم . أشفق ، أشفق ... ونادت تاتيانا بشيء من الضجر :

– عمتى !

ولكن كابيتولينا ماركوفنا لم تسمعها .

– ما عليك إلا أن تقول نعم ، وأنا أرتب كل شيء ... ما عليك إلا أن تومئ لى إيماءة كهذه أيها العزيز ... إيماءة واحدة !

وشعر لتفينوف أن الموت حبيب إليه فى تلك اللحظة ، ولكنه لم ينطق كلمة « نعم » ، ولم يومئ .

وعادت تاتيانا بخطاب فى يدها . فأسرعت كابيتولينا ماركوفنا مبتعدة عن لتفينوف ، وحولت وجهها منحنية على المنضدة ، وكأنها تنظر فيما عليها من كشوف وأوراق .

وتقدمت تاتيانا إلى لتفينوف . قالت :

– هناك الخطاب الذى تكلمت عنه ... هل تذهب به إلى البريد على الفور ؟

فرفع لتفينوف عينيه .. حقا لقد كان قاضيه ماثلا أمامه . وبدت له تاتيانا أطول مما هى وأشد نحولا ، وكان وجهها ، الذى أشرق بجمال غير مألو ف ، عظيما عظمة تمثال من الحجر ، ظل صدرها ساكنا ، وكان رداؤها ذو اللون الواحد ، المعتدل كشملة إغريقية قديمة ، يسقط ثنيات طويلة مستوية كثنيات الرخام على قدميها المختفيتين تحته . وكانت تاتيانا تنظر أمامها نظرة مستقيمة ، كانت تنظر إلى لتفينوف وحده ، وفى نظرتها برود وهدوء . كأنها أيضا نظرة تمثال . وقرأ لتفينوف فيها الحكم عليه ، فانحنى ، وتناول الخطاب من اليد التى امتدت إليه بثبات ، وانصرف صامتا .

وأسرعت كابيتولينا ماركوفنا إلى تاتيانا . ولكن هذه صدت عناقها وغضت بصرها ، وغشى وجهها احمرار ، ومضت إلى مخدعها وهى تقول : « يجب أن نسرع الآن » وتبعتها كابيتولينا ماركوفنا مطرقة الرأس .

كانت الرسالة التى عهدت بها تاتيانا إلى لتفينوف موجهة إلى إحدى صديقاتها فى درسدن ، وهى سيدة ألمانية تؤجر مساكن مفروشة وألقى لتفينوف الرسالة فى صندوق البريد ، وخيل إليه أنه يلقى مع هذه القصاصة الصغيرة ماضيه كله ، بل حياته كلها – إلى المقبرة . فخرج إلى ظاهر المدينة ، وظل يتجول فى ممرات ضيقة بين بساتين الكروم ، ولم يستطع أن يتخلص من شعور باحتقار النفس كان يلح عليه كطنين ذبابة صيف . لقد كان الدور الذى مثله فى هذا اللقاء الأخير دورا لا يحسد عليه ... ولما عاد إلى فندقه ، وسأل بعد قليل عن السيدتين ، قيل له إنهما أمرتا ساعة خروجه بمركبة تقلهما الى محطة السكة الحديدية ، ورحلتا فى قطار البريد إلى وجهة غير معلومة . وكانت أمتعتهما معدة منذ الصباح ، وتذكراتهما مدفوعة ، وكان جليا أن تاتيانا سألت لتفينوف أن يحمل خطابهما إلى البريد لكى تبعده عن سبيلهما . وتجاسر على سؤال البواب : هل تركت له السيدتان أى خطاب ؟ فأجابه بالنفى ، وأظهر الدهشة ، فقد بدا له هذا الرحيل المفاجئ ، بعد استئجار المسكن أسبوعا ، أمراً غريبا يدعو إلى الريبة . فأولاه لتفينوف ظهره ، واعتكف فى حجرته .

ولم يغادرها حتى اليوم التالى ، وقضى معظم الليل جالسا إلى المنضدة يكتب ، ويمزق ما كتب ... وكان الفجر قد بدا يلوح حين فرغ من عمله – كان خطابا إلى إيرينا .

- ٢٣ -

وهذا ما كان فى خطابه إلى إيرينا :

« لقد رحلت خطيبتى أمس ، ولن نلتقى بعد الآن ... بل إنى لا أعلم علم اليقين أين تعيش بعد اليوم . لقد أخذت معها كل ما كان عزيزا لدى حتى الآن . لقد ذهبت معها كل أفكارى وخططى وحياتى السابقة ، لقد ضاعت جهودى ، وانتهى عمل السنين إلى لا شىء ، ولم يعد لكل ما سعيت إليه معنى ولا فائدة . مات كل ذلك . نفسى ، ذاتى القديمة دفنت منذ الأمس . إنى أشعر بذلك وأراه وأحسه فى وضوح ... ولست آسفا عليه ، ولست أقول لك هذا شاكيا .. وكيف أشكو وأنت تحبيننى يا إيرينا ! إنما أردت أن أخبرك بأنه لم يبق من كل هذا الماضى الميت ، من كل هذه الآمال والجهود التى أصبحت دخانا ورمادا - لم يبق حيا قاهرا إلا حبى لك . لم يبق لى شىء سوى ذلك الحب : وقليل أن أقول أنه كنزى الوحيد . فإن كيانى كله فى ذلك الحب . إن ذلك الحب هو كل وجودى . إن فيه مستقبلى . وعملى . وبلادى . وكل مقدس عندى ! أنت تعرفيننى يا إيرينا . أنت تعرفين أنى لا أحسن الكلام المنمق ، بل أكرهه . فمهما تكن قوية تلك الكلمات التى أحاول التعبير بها عن شعورى فلا ترتابى فى صدقها ، ولاتحسبى أن فيها شيئا من المبالغة . لست صبيا يتمتم أمامك فى فورة النشوة الطارئة بعهود لا يعى معناها ، ولكنى رجل ناضج السن يخبرك فى بساطة ووضوح - بل فى ذعر - بما عرف أنه الحقيقة التى لامناص منها . أجل ، إن حبك قد حل عندى محل كل شىء - كل شىء ، كل شىء ! فاحكمى أنت : أأستطيع أن أدع كلى هذا بين يدى رجل آخر ؟ أنت - ستكونين ملكه . كل وجودى ودم قلبى سيكون ملكه - وأنا ... أين أنا ؟ ما أنا ؟ غريب متفرج ... أتفرج على حياتى نفسها ! كلا إن هذا محال . محال ! أأقتسم فى الخفاء ذلك الذى تغدو الحياة بدونه عبثا ومحالا ... هذا هو الغش والموت . أنا أعلم عظم التضحية التى أسألك إياها بغير حق ، وما الذى يمنح المرء حقا فى التضحية ؟ ولكنى لست أنانيا حين أفعل ذلك . فالانانى يرى الأسهل والأسلم ألا يثير هذه المسألة على الإطلاق . أجل . إنى مطالبى باهظة ، ولن أدهش إذا أخافتك . فأنت تكرهين الناس الذين تعاشرينهم مضطرة ، وأنت قد سئمت المجتمع ، ولكن هل لديك من القوة ما يمكنك أن تطرحى هذا المجتمع ، أن تدوسى تحت قدميك الفوز الذى توجك به ، أن تثيرى عليك الرأى العام - رأى هؤلاء القوم الذين تكرهينهم ؟ سلى نفسك يا إيرينا . لا تحملى نفسك عبئا أعظم مما تطيقين . أنا لا أريد أن أبكتك . ولكن تذكرى أنك

عجزت مرة عن الصمود للإغراء . أنا لا أستطيع أن أقدم إليك إزاء كل ما تفقدينه سوى القليل . اسمعى كلمتى الأخيرة : إن كنت لا تجدين من نفسك القدرة غدا - بل اليوم - على أن تتركى كل شىء وتتبعينى - أنت ترين جسارتى فى التعبير ، وإصرارى فى الطلب - أن كنت تخشين المستقبل المزعزع ، إن كنت تخشين الغربة ، والوحشة ، واحتقار الناس ، إن لم تكونى واثقة من نفسك - فصارحينى بذلك ولا تمهلى صارحينى فأرحل عنك . سأرحل بقلب كسير ولكنى سأباركك لصدقك . أما إن كنت يامليكتى الجميلة الباهرة تحبين حقا هذا الرجل الخامل المتواضع ، وترغبين حقا أن تشاركيه فى حظه ، فهاتى يدك إذن ، وهيا ننطلق سويا فى رحلتنا الشاقة ! ولكن اعملى أن عزمى لن يتغير . فإما كل شىء وإما لا شىء . إنه جنون .. ولكنى لا أستطيع غيره - لا أستطيع يا إيرينا ! حبى لك فوق ذاك .

حبيبك « ج . ل »

لم يرض لتفينوف كثيرا عن هذه الرسالة . فإنها لم تصور ما أراد أن يقوله تصويرا صادقا كل الصدق ، ولا دقيقا كل الدقة . وكانت فيها عبارات قلقة ، أشبه بما فى الكتب ، أو أقرب إلى المبالغة . وكانت - بلا شك - لاتفضل كثيرا من الرسائل التى مزقها ، ولكنها كانت آخر هذه الرسائل ، وكانت النقطة الأساسية مقررة فيها تقرير واضحا على كل حال ، ولم يشعر لتفينوف وهو فى ألمه وإعيائه بمقدرة على اقتلاع شىء آخر من رأسه ، ثم إنه لم يكن يملك القدرة على وضع أفكاره فى صورة أدبية ، وكان - ككل من لا يمارسون الكتابة - يحتفل كثيرا للأسلوب. ولعل رسالته الأولى كانت أحسن رسائله ، إذ كانت صادرة من قلبه وعلى كل حال فقد بعث لتفينوف برسالته إلى إيرينا .

وأجابت بكلمة قصيرة :

« تعال إلى اليوم . إنه سيغيب طول النهار . لقد أزعجنى خطابك جدا . إنى أفكر وأفكر ... ورأسى يدور من التفكير . إنى فى هم شديد ولكنك تحبنى . وأنا سعيدة ... تعال . »

حبيبتك « أ »

كانت جالسة فى مخدعها حين دخل لتفينوف . قادته إليه البنت الصغيرة ذات الثلاثة عشر عاما ، تلك التى ترقبته فى اليوم السابق على الدرج . وكان على المنضدة

المواجهة لايرينا صندوق من الورق المقوى شبه دائرى فيه وشى . وكانت تلف الوشى بإحدى يديها فى غير عناية ، وتمسك بالأخرى خطاب لتفينوف . وكانت قد كفت عن البكاء ولما تكد ، فأهدابها مخضلة ، وأجفانها ورمة ، وعلى خديها آثار الدموع لم تكفكف . ووقف لتفينوف ساكنا بالباب فلم تلحظ دخوله .

قال متعجبا :

– أتبكين ؟

فريعت . وأمرت يدها على شعرها . وابتسمت .

وأعاد لتفينوف :

– لماذا تبكين ؟

فأشارت إلى الرسالة فى صمت . فنطق متلعثما :

– إذن فقد كنت ... لتلك ...

قال :

– تعال . اجلس . هات يدك . أجل . لقد كنت أبكى . مم تعجب ؟ أهذا قليل ؟

وأشارت إلى الرسالة ثانية .

وجلست لتفينوف :

– أعلم أن الأمر غير يسير يا إيرينا . وأنا أقول هذا فى رسالتى .... أنى أفهم موقفك . ولكن إن كنت تعرفين ما يعنيه حبك لى ، إن كانت كلماتى قد أقنعتك ، فلابد أنك تفهمين أيضا ما أشعر به الآن لمرأى دموعك . لقد جئت إلى هنا كرجل يساق إلى المحكمة ، وإنى لأنتظر قضائى : الموت أم الحياة ؟ إن جوابك يقرر كل شىء . لكن لا تنظرى إلى بهاتين العينين ... إنهما تذكرانى بالعينين اللتين رأيتهما قديماً فى موسكو .

فاحمر وجه إيرينا فجأة ، والتفتت ، وكأنها شعرت هى نفسها بنذير شؤم فى نظرتها .

– لماذا تقول ذلك ياجريجورى ؟ واخجلتاه ! تريد أن تعلم جوابى ... أتعنى أنك تستطيع أن ترتاب فيه ؟ تزعجك دموعى ... ولكنك لا تفهمها . إن رسالتك – يا أعز

عزيز - جعلتنى أفكر . هأنت تقول إن حبى شغل كل مكان عندك ، حتى دراساتك السابقة لن تكون لها فائدة بعد الآن ، ولكنى أسائل نفسى : أيستطيع الرجل أن يعيش للحب وحده ؟ ألا يمل الحب آخر الأمر ، ألا يتوق إلى العمل ، ويلوم ذلك الذى انتزعه منه ؟ هذه هى الفكرة التى تفزعنى ، هذا هو ما أخافه ، لا ذلك الذى كنت تتخيله .

وأطال لتفينوف النظر إلى إيرينا ، وأطالت النظر اليه ، كأن كلا منهما يريد أن ينفذ إلى أغوار نفس صاحبه ، إلى أغوار لا تصل إليها الكلم ، ولا تنم بها الكلم .

ثم بدأ لتفينوف يقول :

- أنت مخطئة إذ تخافين ذلك . لابد أنى أسأت التعبير ، الملال ؟ الخمول ؟ مع القوة الجديدة التى يبعثها فى حبك ؟ أوه يا إيرينا ، إنى أجد حبك عالما بأسره ، ولا أستطيع أنا نفسى أن أتنبأ بما يكمن فيه .

وفكرت إيرينا ، ثم همست :

- أين تذهب ؟

- أين ؟ سنتحدث عن ذلك فيما بعد . ولكنك إذن ... إذن توافقين ؟ أتوافقين يا إيرينا ؟

فنظرت إليه :

- وتكون سعيدا ؟

- أوه يا إيرينا !

- ولا تأسف على شىء ؟ أبدا ؟

وانحنت على صندوق الورق ، وبدأت تنظر مرة أخرى إلى ما فيه من وشى . قالت :

- لا تغضب ياحبيبى لأنى أشغل نفسى بهذه التوافه فى مثل هذه اللحظة ... إنى مضطرة لأن أذهب الليلة إلى حفلة رقص فى منزل سيدة من السيدات ، وقد جاءتنى هذه الزيوق ، وعلىَّ أن أختار شيئا منها اليوم .

وصاحت فجأة :

- آه ، ما أتعسنى !

ووضعت رأسها على حافة الصندوق . وجلعت الدموع تنحدر من عينيها ثانية ... فالتفتت ، قد تفسد الوشى الدموع .

وبدأ لتفينوف يقول فى قلق :

– إيرينا ! أتبكين ثانية ؟

– فقاطعته إيرينا مسرعة :

– أجل ثانية . أوه ياجريجورى ! لا تعذبنى . لا تعذب نفسك ! لنكن أحرارا ! لم لا أبكى ؟ وهل أعلم أنا فى الحقيقة لماذا تسيل دموعى ؟ أنت تعرف قرارى . لقد سمعته . وأنت تعلم أنه لن يتغير . إنى أوافق على ... كيف قلت ؟ إما كل شىء أو لا شىء ... ماذا تريد أكثر من هذا ؟ فلنكن أحرارا ! لماذا تضع القيود حولنا ؟ نحن وحيدان الآن . وأنت تحبنى . وأنا أحبك . فهلا نجد لنا شغلا خيرا من التفتيش فى ضمائرنا ؟ انظر إلى .أنا لا أريد أن أتحدث عن نفسى أنا ما أشرت بكلمة واحدة إلى أنه ربما لم يكن سهلا علىَّ أن أدوس على واجبى كزوجة ... ولا أخدع نفسى . فأنا أعلم أنى مجرمة . وأنه يحق له أن يقتلنى . ولكنى لا أبالى . فلنكن أحرارا . العمر يوم ...

ونهضت عن كرسيها . ونظرت إلى لتفينوف من عل ، وهى تبتسم ابتسامة خفيفة ، وتضيق عينيها ، بينما كانت تزيح عن وجهها ، بذراع عارية حتى الكوع ، خصلة طويلة لمعت عليها عبرات قليلة . وانزلق عن المنضدة وشاح ثمين . وسقط على الأرض عند قدمى إيرينا . فداسته باحتقار .

– أم أنت لا تحبنى اليوم ؟ هل أصبحت قبيحة منذ أمس ؟ خبرنى : أرأيت أجمل من هذا الذراع ؟ وهذا الشعر ؟ خبرنى : أتحبنى ؟

وضمته بكلتا ذراعيها . وضغطت رأسه على صدرها . وسقط مشطها يرن . وغطاء شعرها المتهدل كموجة ناعمة فواحة .

- ٢٤ -

كان لتفينوف يقبل ويدبر فى غرفته بالفندق وهو مطرق يفكر . أصبح الواجب أن ينتقل من النظرية إلى التطبيق ، وأن يدبر الطرق والوسائل للهرب والرحيل إلى بلاد مجهولة . ولكن العجيب أنه لم يكن يفكر فى الطرق والوسائل بقدر ما كان يفكر هل وصل حقا وبلا أدنى ريب إلى القرار الذى أصر عليه ذلك الإصرار ؟ هل قيلت الكلمة الأخيرة التى لا يمكن أن تسترد ؟ لاشك أن إيرينا قالت له حين فارقته : « رتب كل شىء . ومتى أصبحت مستعدا فما عليك إلا أن تخبرنى » . إذن فالأمر مقرر . ولا محل للشك ! إذن فعليه أن يبدأ فى مهمته . وقد بدأ لتفينوف مهمته بالتفكير المنظم . أولا النقود . وقد وجد لتفينوف أن بيده من النقود ١٣٢٨ جلداً ، أى ٢٨٥٥ فرنكًا بالعملة الفرنسية . وهومبلغ صغير ، ولكنه يكفى حاجاتهما الأولى . ثم عليه أن يكتب إلى أبيه ليرسل إليه كل ما يستطيع . فليبع الغابة وجزءا من الأرض . ما عسى أن تكون حجته ؟ حسنا . سيجد حجة مناسبة . لقد أشارت إيرينا إلى حليها . هذا صحيح ولكن هذه الحلى لا ينبغى أن تدخل فى حسابه مهما تكن الأسباب . فمن يدرى ؟ قد تنفع فى أزمة . وكانت له غير ذلك ساعة سويسرية جيدة ، يمكنه أن يأخذ فيها ... لنقل ٤٠٠ فرنك .

وذهب لتفينوف إلى مصرفى وسأله – بعد لف ودوران – هل يمكنه أن يقرض نقودا ؟ ولكن الصيارفة فى بادن ثعالب مسنة حذرة . فهم يجيبون على هذه المداورات بأن يتظاهروا على الفور بالذبول والأسى كزهرة برية حزها المنجل . وبعضهم يضحك فى وجهك دون مداورة ، وكأنما أعجبته هذه الدعابة البريئة منك .

ويا لخزى لتفينوف إذ جرب حظه على الروليت . حتى الروليت . يا للعار ! فوضع تالرا على رقم ثلاثين ، وهو الرقم الذى يوافق عمره . وكان يريد أن يزيد رأس ماله و « يقفله » . ومع أنه لم يزد رأس ماله فقد « أقفله » حقا إذ فقد الثمانية والعشرين جلدا الزائدة .

وكانت المسألة الثانية الهامة هى مسألة جواز السفر . ولكن جواز السفر للمرأة لم يكن ضرورة لا يمكن التجاوز عنها . وكانت هناك بلاد لا تحتاج إليه مطلقا مثل بلجيكا وإنجلترا . ثم أن من المستطاع الحصول على جواز غير روسى . فكر لتفينوف فى ذلك كله تفكيرا عميقا ، وكان عزمه ثابتا لا يتزعزع ، على أن شيئا أقرب إلى الهزل منه إلى

الجد كان لا ينفك يتسلل إلى أفكاره ، وكأن الأمر كله مهزلة ، وكأن أحدا لم يفر مع أحد قط فى الواقع ، بل فى التمثيليات والقصص ، أو ربما فى أعماق الريف ، فى مجاهل روسيا ، حيث يمرض الناس من السأم وحده كما روى بعض المسافرين . وتذكر لتفينوف كيف هرب أحد أصدقائه - باتسوف - وكان ضابطا متقاعدا من سلاح الفرسان - مع ابنة أحد التجار فى عربة بريد بأجراس وترويكا [1] ، بعد أن مهد لذلك باسكار أبويها ، واتبع الخطة نفسها مع العروس ، وكيف ظهر فيما بعد أنه هو الذى خدع ، وكاد يضرب فوق ذلك . وضاق لتفينوف بنفسه ضيقا شديدا لهذه الخواطر النابية ، وتذكر تاتيانا ، ورحيلها المفاجئ ، وكل ذلك الحزن والبلاء والخزى ، فشعر شعورا أليما بأن الأمر الذى يستعد له أمر جدى فظيع ، وبأنه كان محقا حين أخبر إيرينا بأن الشرف نفسه لايدع له سبيلا آخر ... وإذا به مرة أخرى يلتف على قلبه شيء كالنار لمجرد ذكر اسمها ، ثم يسكن تاركا فيه ألما حلوا .

وسمع وقع حوافر جياد من ورائه ... فانتحى ناحية . وأدركته إيرينا على ظهر جواد ، وقد ركب بجانبها الجنرال السمين . فعرفت لتفينوف ، وأومأت إليه ، وألهبت حصانها بضربة من سوطها على جنبه ، فعدا قليلا ثم مرق فجأة فى سرعة خاطفة ، وهفهف نقابها الأسود مع الريح .

وصاح الجنرال :

- Pas si vite, nom de Dieu ! pas si vite ! [2]

وركض خلفها .

(١) ثلاثة من الخيل فى صف .

(٢) « لا تسرعى هكذا ! لا تسرعى هكذا بحق الله ! » .

في الصباح التالي كان لتفينوف عائدا من عند المصرفي ، بعد أن تحدث معه مرة أخرى عن تقلقل سعر عملتنا في السوق الدولية ، وخير الوسائل لإرسال النقود إلى الخارج ، فسلمه بواب الفندق خطابا . وعرف لتفينوف خط إيرينا ، فذهب إلى حجرته دون أن يفض الخاتم . وقد وقع في نفسه – لسبب لا يعلمه إلا الله – أن ليس وراء هذا الخطاب خير . وكان هذا ما قرأه (كان الخطاب بالفرنسية) :

« يا أعز حبيب ، لقد أمضيت الليل كله أفكر في خطتك ... أني لا أريد أن أخدعك . لقد كنت صريحا معي ، فلأكن صريحة معك . إني لا أستطيع الفرار معك . ليست لدى القوة لأفعل ذلك . إني أشعر بعمق إساءتي إليك – أن إثمي في الثانية لأكبر من إثمي في الأولى – إني أحتقر نفسي ، وجبني ، وأؤنب نفسي بمرارة ، ولكني لا أستطيع أن أغير طبيعتي . عبثا أقول لنفسي إني حطمت سعادتك ، وأنك محق الآن في أن تعدني لعوبا ذات نزوات ، وأني أنا التي منيتك ووعدتك أوثق الوعود .. إني مليئة رعبا وكراهية لنفسي، ولكني لا أستطيع أن أفعل غير ما أفعله ، لا أستطيع ، لا أستطيع . أن أبرئ نفسي ، لن أقول لك أني أنا أيضا كنت مدفوعة بعاطفتي ... فهذا كله لا قيمة له ، ولكني أريد أن أقول لك ، وأكرر مرة بعد مرة ، إني لك ، لك إلى الأبد ، فافعل بي ماشئت ، متى شئت ، بلا شروط ، ولا قيود ! أني لك ... أما أن أفر ، وأرمي كل شيء ... فلا ! لا ! لا ! لقد توسلت إليك أن تنقذني . لقد رجوت أن أمحو كل شئ ، أن ألقى الماضي في النار . ولكني لا أرى لي خلاصا . إني أرى السم قد بلغ أعماقي ، إني أرى الإنسان لا يستطيع أن يتنفس في هذا الجو سنوات دون أن يتلوث به . لقد ترددت طويلا قبل أن أكتب إليك هذه الرسالة ، فأنا أخاف قرارك ، ولا أعتمد إلا على حبك لي . ولكني رأيت من الخيانة أن أخفي عنك الحقيقة – وبخاصة أن لعلك بدأت تعمل لتنفيذ خطتك . آه لقد كانت حلوة ، ولكنها مستحيلة ! أوه ياحبيبي ! اعتبرني امرأة ضعيفة نزقة ، احتقرني ، ولكن لاتهجرني ، لا تهجر حبيبتك إيرينا ! ... ليست لي القوة على أن أفارق هذه الحياة ، ولا القدرة على أن أعيشها بدونك ! سنعود بعد قليل إلى بطرسبرج ، فتعال هناك ، عش هناك ، سنجد لك عملا ، ولن تضيع جهودك الماضية ، ستجد لها مجالا مفيداً .. ولكن عش بقربي ، أحببني كما أنا ، بكل ضعفي ورذائلي . وثق أنك لن تجد قلبا يخلص لك أو يحنو عليك حنو حبيبتك إيرينا ! تعال إلى بأسرع ما تستطيع ! لن أجد لحظة راحة حتى أراك – حبيبتك ، حبيبتك ، حبيبتك : «١»

اندفع الدم إلى رأس لتفينوف بضربات مطرقة ، ثم غاص إلى قلبه بطيئا ثقيلا ، وبقى هناك كصخرة لا تتقلقل . قرأ رسالة إيرينا ثانية ، وكما حدث تلك المرة فى موسكو ، انطرح على الأريكة ذاهب القوة . وظل راقدا بدون حراك ، وكأنما انفغرت حوله فجأة هوة مظلمة ، فراح يحدق فى ذلك الظلام بذهول وقنوط . هكذا مرة أخرى ... الخديعة مرة أخرى ، بل شر من الخديعة : الخيانة والضعة .. حياته تحطمت ، وكل شىء اجتث من جذوره ، والشىء الوحيد الذى استطاع أن يتعلق به ، ذلك السند الأخير قد تفتت أيضا ! جعل يردد بضحكة مرة : « تعال وراءنا إلى بطرسبرج . سنجد لك عملا ... يعينوننى رئيس كتبة مثلا ؟ ومن (هم) الذين سيجدون لى عملا ؟ هاهنا ماضيها طافيا إلى السطح ، ذلك الماضى الخفى المروع الذى لا أعلمه ، والذى كانت تحاول أن تمحوه ، وأن تلقى به فى النار . هاهنا عالم المؤامرات ، والعلاقات السرية ، والقصص السوداء عن بيلسكى وبولسكى .. وأى مستقبل ! أى دور رائع ينتظرنى ! أن أعيش بقربها ، وأزورها ، وأشاطرها كآبة الانحلال ، كآبة سيدة المجتمع التى تضجر بالمجتمع وتسأمه ، ولكنها لا تستطيع أن تعيش خارج دائرته. وأصبح صديق الأسرة . وطبعا صديق سعادته ... إلى ... إلى أن تتغير النزوة ، ويفقد العشيق الشعبى طعمه الحريف ، فيحل محله الجنرال السمين أو السيد فييكوف – هذا ممكن ، وممتع ، ولعله مفيد أيضا ... إنها تتحدث عن « المجال المفيد » لكفاء تى ! أما الخطة الأخرى فهى مستحيلة ! مستحيلة ! .»

وهبت فى نفس لتفينوف لفحات دفينة من الغضب ، كأنها الأنواء قبل العاصفة .. أحنقته كل عبارة فى رسالة إيرينا . حتى تأكيدها لعواطفها الدائمة غاظه وأضجره . وأخيرا صاح :

– لن يمر الأمر هكذا ! لن تلعب بحياتى هكذا دون رحمة !

ووثب لتفينوف واختطف قبعته . ولكن ماذا يجب عليه إن يفعل ؟ يهرع إليها ؟ يجيب على خطابها ؟ توقف ، واسترخت يداه : أجل ، ماذا يجب عليه أن يعمل ؟

ألم يعرض عليها ، هو نفسه ، ذلك الاختيار الفاصل ؟ إن الأمر لم ينته كما أحب ، وهذا خطر كل اختيار . لقد غيرت رأيها ، هذا حق ، لقد أعلنت هى نفسها أول الأمر أنها تود أن تترك كل شىء وتتبعه ، هذا حق أيضاً ، ولكنها لم تنكر خطأها ، بل زعمت أنها امرأة ضعيفة ، لم ترد أن تخدعه ، ولكنها خدعت فى نفسها .. فأى جواب يقال لمثل هذا الكلام ؟ إنها لم تنافقه على كل حال ، لم تخدعه .. بل كانت صريحة ، صريحة

بلا حرج . لم تكن مضطرة إلى مكاشفته على الفور ، ولم يكن ثمة ما يمنعها من تعليله بالوعود ، وإرجاء الأمور ، وتركه فى الظلام إلى يوم رحيلها .. رحيلها هى وزوجها إلى إيطاليا . ولكنها حطمت حياته ، حطمت حياتين .. حسنا ، ليس هذا بالأمر الغريب .

وليست هى التى ظلمت تاتيانا .لقد كان هو الظالم ، هو لتفينوف وحده ، ولا يحق له أن يتملص من المسئولية التى ألقاها إثمه على كاهله نيرا من حديد ... هذا كله حق ، ولكن ماذا بقى له أن يفعل الآن ؟

وارتمى على الأريكة ثانية ، وعادت اللحظات تتراكض فى سرعة نهمة ، مظلمة لامعنى لها غير تاركة وراءها أثرا .

وومض فى ذهنه : « لم أفعل ما تقول ؟ إنها تحبنى ، إنها لى . أليس ثمة شىء محتوم لا يقاوم ، كأنه القانون الطبيعى ، فى اندفاع كل منا إلى الآخر ، فى هذه العاطفة الشديدة التى اشتعلت بعد سنين كثيرة ، وفرضت سلطانها بقوة قاهرة ؟ أعيش فى بطرسبرج .. لن أكون الأول فى هذا الوضع ، ثم أين كان يمكننا أن نجد وطنا أنا وهى ؟ .. »

وسبح فى الأحلام ، وتمثلت له صورة إيرينا كما انطبعت فى ذاكرته إلى الأبد خلال هذه الأيام القليلة ... ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فسرعان ما أفاق لنفسه ، وبفورة جديدة من الغضب طرد الذكرى من مخيلته ، ومع الذكرى صورتها الساحرة .

صاح : أنت تقدمين إلىَّ تلك الكأس الذهبية لأشرب منها ، ولكن فى هذه الجرعة سما ، وجناحاك الابيضان ملطخان بالوحل اغربى عنى ! أأبقى معك هنا بعد أن .. بعد أن طردت خطيبتى .. ياللعار ! ياللعار ! وعصر فى سورة الألم يديه ، وأنبعث من الاعماق وجه آخر قد انطبعت على ملامحه الهادئة سيماء الألم . وبدا فى عينيه المودعتين تأنيب أبكم .

وتحمل لتفينوف هذا البلاء طويلا. ظل فكره المعذب يتقلب من جنب لجنب كالمحموم .. حتى هدأ ، واستقر على عزم . لقد كان يشعر منذ اللحظة الأولى ماذا سيكون قراره .. لقد بدأ له أول الأمر نقطة نائية لا تكاد تبين وسط دوامة مظلمة من صراعه الباطنى ، ثم لم تزل النقطة تقترب وتقترب حتى شقت قلبه بنصل بارد كالثلج .

جر لتفينوف صندوقه من الركن مرة أخرى ، وجمع متاعه فى غير عجلة - بل فى نوع من العناية البليدة - ثم طلب خادم الفندق ودفع حسابه ، وأرسل إلى إيرينا ورقة بالروسية هذا مضمونها :

« لست أدرى أتسيئين إلىَّ اليوم إساءة أعظم من إساءاتك الأولى ، ولكنى أدرى أن هذه الضربة لا تقاس شدتها بتلك ... إنها النهاية . تقولين لى : « أنا لا أستطيع ... » وأكرر لك أنا لا أستطيع ... فأفعلى ما تشائين . أنا لا أستطيع ولا أريد . لاتجيبينى . إنك عاجزة عن أن تقدمى إلىَّ الجواب الوحيد الذى أرضاه . سأرحل صباح الغد بأول قطار . وداعا ، وسعدت ! لا أظن أننا سنلتقى مرة أخرى .»

ولم يغادر لتفينوف حجرته حتى هبط الليل ، ولعله كان ينتظر شيئا . الله وحده يعلم . وحوالى الساعة السابعة مساء اقتربت من درج فندقه سيدة فى شملة سوداء وعلى وجهها نقاب . اقتربت من الدرج مرتين . ثم ابتعدت بضع خطوات وبعد أن حدقت برهة فى الفضاء لوحت بيدها فى عزم ، واتجهت للمرة الثالثة إلى الدرج .

وإذا بصوت مشدود ينطق خلفها :

– أين تذهبين يا إيرينا بافلوفنا ؟

فالتفتت بسرعة عصبية .. كان بوتوجين مسرعا إليها .

فوقفت وفكرت لحظة . ثم اندفعت إليه ممسكة بذراعه ، وشدته وهى تردد مبهورة الأنفاس :

– خذنى بعيدا . خذنى بعيدا !

فتمتم فى دهشة :

– ماذا أصابك يا إيرينا بافلوفنا ؟

فكررت بقوة مضاعفة :

– خذنى بعيدا ، إن كنت لا تريد أن أبقى إلى الأبد .. هناك !

فحنى بوتوجين رأسه طائعا . وأسرعا مبتعدين معا .

وفى بكرة اليوم التالى كان لتفينوف على أهبة الرحيل حين دخل إلى حجرته ... بوتوجين .

اقترب منه فى صمت . وفى صمت صافحه ، ولم يتكلم لتفينوف أيضا : كان كلاهما يحاول عبثا أن يبتسم .

وأخيرا أخرج بوتوجين من فمه :

– إنى جئت أتمنى لك رحلة طيبة .

فسأل لتفينوف :

– وكيف علمت أنى راحل اليوم ؟

ونظر بوتوجين إلى أرض الحجرة حوله ...

– عندى علم بذلك ... كما ترى . إن محادثتنا الأخيرة قد اتجهت وجهة غريبة عند النهاية .. فلم أرد أن أفارقك دون أن أعبر عن شعورى الطيب الصادق نحوك .

– أهذا شعورك الآن ... وأنا راحل ؟

فنظر بوتوجين إلى لتفينوف بحزن وبدأ يقول بزفرة قصيرة :

– آه ياجريجورى ميهالتش ! لم يبق وقت للمداورة والمحاورة . إنى لم أرك تعنى كثيرا بأدبنا القومى ، ولعلك لم تسمع عن فاسكابوسلايف ؟ ...

– عمن ؟

– عن فاسكابوسلايف بطل نوفجورود – فى مجموعة كرشا دانيلوف .

فقال لتفينوف وقد شعر ببعض الحيرة لذلك الاتجاه المفاجئ فى الحديث :

– من بوسلايف ؟ أنالا أعرف عنه شيئا .

– لا بأس . هذا ما أردت أن أنبهك إليه : بعد أن رحل فاسكابوسلايف بأتباعه من أهل نوفجورود حاجين إلى بيت المقدس ، وروعهم بأنه لا يؤمن بالفأل ولا الرؤيا ولا الزجر – تسلق هذا المنطقى فاسكابوسلايف جبل طابور . وكان على قمة ذلك الجبل صخرة عظيمة ، حاول الناس من كل جنس أن يثبوا فوقها ... وأراد فاسكا أن يجرب حظه أيضا . فصادف فى طريقه رأس ميت – جمجمة آدمية – فرفسها بقدمه . فقالت له الجمجمة : « لم ترفسنى ؟ لقد عرفت كيف أعيش . وأنى لأعرف كيف أتدحرج فى التراب–وسوف يصيبك ما أصابنى .» ثم وثب فاسكا فوق الصخرة . ولما كاد يعبرها . عثرت قدمه ، وتهشمت جمجمته ... بهذه المناسبة يجب أن أشير إلى أن أصدقاء نا السلافو فيل ، المغرمين برفس الرء وس الميتة والقوميات التى دب فيها الفناء ، يجدر بهم أن يفكروا فى تلك الأسطورة .

فقاطعه لتفينوف بصبر نافد :

- ولكن ما الذى ترمى إليه ؟ معذرة . لقد حان الوقت ... فأجاب بوتوجين وقد التمعت عيناه بعطف شديد لم يكن لتفينوف يتوقعه منه :

- كيف ؟ الذى أرمى إليه هو ألا ترفس رأس إنسان ميت ، لعل طيبة قلبك تيسرك للوثوب فوق الصخرة القاتلة . لن أستبقيك أكثر من هذا . ولكن دعنى أعانقك قبل رحيلك .

فقال لتفينوف وهو يقبل بوتوجين القبلات الثلاث التقليدية :

- بل لن أحاول الوثوب !

وذابت لحظة تلك الإحساسات المرة التى كانت تغمر قلبه فى شفقة على الرجل الشقى الوحيد .

- ولكن يجب أن أذهب الآن . يجب أن أذهب ...

وأخذ يدور فى الحجرة . فتطوع بوتوجين قائلا :

- هل أحمل عنك شيئا ؟

- لا . شكرا لك . لا تتعب نفسك . يمكننى ...

- ولبس قبعته ، وحمل حقيبته . وسأل وهو يقف بالباب :

- أتقول أنك رأيتها ؟

- نعم رأيتها .

- حسنا ... كيف هى ؟

فصمت بوتوجين لحظة .

- لقد كانت تنتظرك أمس ، وسوف تنتظرك اليوم .

- آه ! قل لها ... لا ، لاضرورة ... لا ضرورة لأن تقول شيئا ...

وداعا ... وداعا !

– وداعا ياجريجورى ميهالتش .. دعنى أقول لك كلمة واحدة أخيرة . مازال لديك بعض الوقت لتسمعنى ، فقطارك لن يتحرك قبل نصف ساعة . إنك عائد إلى روسيا ... وستعمل هناك .. عندما يئون الأوان . فاسمح لثرثار عجوز – فلست مع الأسف إلا ثرثارا – كى يقدم إليك نصيحة قبل ذهابك . كلما شرعت فى عمل جديد فاسأل نفسك : هل تخدم بهذا العمل قضية المدنية بالمعنى الدقيق الصحيح لهذه الكلمة ؟ هل تسعى لتحقيق مبدأ من مبادئ المدنية ؟ وهل لنشاطك تلك الصبغة الأوربية المتنورة التى لا ينفعنا غيرها الآن ؟ فإن كان كذلك فسر على بركة الله ! ثم احمد الله لأنك لست وحدك الآن . لن تكون « باذرا فى الصحراء » . فبيننا الآن كثير من العاملين ... من الرواد ... ولكنك يجب أن تسرع الآن . وداعا ، لا تنسنى !

هبط لتفينوف الدرج مسرعا ، وارتمى فى عربة ، وقصد إلى المحطة دون أن يلتفت مرة واحدة إلى المدينة التى ترك فيها شطرا كبيرا من حياته ومن نفسه . كان كرجل أسلم نفسه إلى موجة عالية فاختطفته وحملته وهو عازم كل العزم ألا يقاومها ، مضرب عن كل محاولة أخرى لإثبات إرادته .

وبينما كان يهم بدخول عربة القطار سمع من خلفه همسة ضارعة :

– جريجورى ميهالتش ... جريجورى ...

وانتفض ... أيمكن أن تكون إيرينا ؟ .. أجل ، إنها هى . كانت واقفة على الرصيف تنظر إليه بعينين خابيتين ، وقد تلفعت بشال خادمتها ، ووضعت على شعرها المشعث قبعة سفر .

كانت العينان تقولان : عد، عد ، لقد جئت من أجلك . وأى وعود كانتا تعدان ! لم تتحرك ، ولم تقو على أن تزيد كلمة واحدة ، ولكن كل ما فيها ، حتى ثيابها المهوشة ، بدا وكأنه يدعو مسترحما ...

وكاد لتفينوف ينهزم . وبلأى ما استطاع أن يمنع نفسه من الاندفاع إليها ... ولكن الموجة التى أسلم نفسه إليها استعادت سلطانها . فقفز إلى داخل العربة ، والتفت مشيرا لإيرينا إلى الكرسى بجانبه . وفهمت . لم يفت الوقت . خطوة واحدة ، حركة واحدة ، وإذا بحياتين ، وحدتاإلى الأبد ، تغيبان فى البعد المجهول وبينما هى فى ترددها ارتفع صفير عال ، وتحرك القطار . وتداعى لتفينوف على مقعده ، بينما سارت إيرينا مترنحة إلى كرسى ، فتهالكت عليه . ورآها موظف دبلوماسى صغير كان يتسكع

فى المحطة ، فذهل ... كان يعرف إيرينا معرفة جد عابرة ، ولكنه كان شديد الإعجاب بها ، ولما رآها مستلقية كالمغشى عليها ظنها أصيبت une attaque de nerfs [1] ، ومن ثم رأى واجبا عليه باعتباره un galant chevalier [2] أن يخف لنجدتها ، لكن دهشته تضاعفت حين هبت لأول كلمة وجهها إليها . ودفعت ذراعه التى قدمها لها ، وخرجت إلى الشارع لا تلوى على شىء . ولم تلبث أن اختفت فى ضبابة بيضاء كثيفة من ذلك الضباب الذى يميز جو الغابة السوداء فى مطلع الخريف .

(١) « نوبة عصبية » .

(٢) « فارسا شهما » .

- ٢٦ -

اتفق لنا مرة أن دخلنا كوخ امرأة فلاحة فقدت منذ قليل وحيدها الحبيب ، وشد ما دهشنا حين رأيناها هادئة كل الهدوء ، تكاد تكون فرحة . فقال لنا زوجها حين لاحظ دهشتنا : « دعوها ، فهى الآن لا تحس » . وهكذا فقد لتفينوف إحساسه ، فهبط عليه ذلك الهدوء الميت أثناء الساعات الأولى من رحلته . لقد كان محطم النفس ، شديد البؤس ، ولكنه كان يستريح . كان يستريح بعد عذابات الأسبوع الماضى ووساوسه ، والضربات التى توالت على رأسه ، وضاعف من شدتها عليه أنه لم يكن مستعدا بطبعه لمثل هذه العواصف . إنه الآن لايرجو شيئا فى الواقع ، ولكنه يحاول أن ينسى الماضى . أن ينسى الماضى ، هذا هو المهم . إنه ذاهب إلى روسيا . فلا بد أن يذهب إلى مكان ما ، ولكنه لم يعد يرسم لنفسه خطة ، فهو لا يعرف نفسه ، ولا يفهم أفعاله ، وكأنما فقد نفسه الحقيقية ، والحق أنه أصبح قليل الاهتمام بهذه النفس . وكان يخيل إليه أحيانا أنه من المحال أن يسمح رجل (رجل !) لنفسه بأن يخضع هذا الخضوع للمرأة ، للحب... فيتمتم : « يا للضعف المزرى ! » وينفض معطفه ، ويعتدل فى جلسته ، وكأنه يقول : إن الماضى قد انتهى ، فلنبدأ من جديد ... وما هى إلا لحظة واحدة حتى يبتسم ابتسامة مرة ، ويتعجب من حاله .

وجعل ينظر من نافذة القطار .. كان الجو أغبر رطبا ، لا مطر فيه ، ولكن الضباب لاينكشف ، والسحب الدانية تحجب السماء وهبت الريح فى مواجهة القطار ، فاندفع أمام النافذة التى جلس إليها لتفينوف موكب متلاحق من أمواج البخار البيضاء ، بعضها خالص وبعضها ممتزج بسحب الدخان القاتمة . وأخذ لتفينوف يرقب هذا البخار والدخان . كانت السحب تمر بعد السحب ، ولا تزال تصعد ، وتعلو وتهبط ، وتتلوى وتتعلق بالأعشاب والشجيرات ، وكأنها تلعب فى إحدى المساخر . ثم تتعدد وتذوب فى الفضاء ... كانت تتبدل دائما وهى لا تزال كما هى .. لعبة سريعة سخيفة مكررة ! وكانت الريح تتغير حين ينحرف الخط يمنة أو يسرة ، فيتلاشى الرعيل كله فجأة ، وسرعان ما يبدو مرة أخرى من النافذة المقابلة . ثم ينتشر الذيل الضخم مرة أخرى فيحجب عن بصر لتفينوف سهل الرين الفسيح . حدق وحدق ، واستولى عليه شرود غريب ... كان وحيدا فى المقصورة ، لم يكن هناك من يزعجه ، فردد مرات عديدة : دخان و دخان . وفجأة بدا له كل شىء دخانا – كل شىء : حياته هو ، والحياة الروسية ، وكل ما هو بشرى ، وعلى الخصوص كل ما هو روسى . الكل دخان وبخار – هكذا قال لنفسه – كل شىء يبدو دائم التغير فى كل مكان أشكال جديدة ، أحداث بعد

أحداث ، وكل شيء كما هو في الصميم. كل شيء يسرع طائرا إلى وجهة ما ، وكل شيء يتلاشى دون أن يترك أثرا أو يبلغ أمرا . وتتغير الريح ، فيسرع كل شيء في الاتجاه المضاد ، وهنا تبدأ نفس اللعبة المستمرة القلقة العقيمة . وتذكر كثيرا مما شاهده بنفسه في السنوات الأخيرة من أحداث أحيطت بالضجيج والتهريج ، فهمس : دخان . دخان . وتذكر الجدل العنيف والصياح والنقاش عند جوباريوف ، وعند أناس آخرين منهم الشبان والشيوخ ، والبسطاء والعظماء ، والتقدميون والرجعيون . فردد : دخان بخار ودخان . وتذكر أخيرا تلك النزهة الأنيقة ، وتذكر خطبا وتصريحات لأشخاص آخرين يعدون أنفسهم لكبرى المناصب - حتى كل مواعظ بوتوجين ... دخان ، دخان ، لا شيء أكثر من دخان وجهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه ؟ لم يستطع لتفينوف إلا أن يلوح بيده في قنوط .

هذا والقطار ينساب وينساب . وقد خلف راشتات وكارلسروهة ويروكسال منذ زمن طويل ، وانفرجت الجبال عن يمين الخط ، وتراجعت إلى الفضاء البعيد ، ثم اقتربت ثانية ، ولكنها كانت أقل ارتفاعا ، والغابات التي تكسوها أقل كثافة .. وانثنى القطار في المحطة المسقوفة وإذا بأصوات باعة الجرائد يحملون كل أنواع الصحف حتى الروسية . وأخذ المسافرون يتحركون في مقاعدهم ويهبطون إلى الرصيف ، ولكن لتفينوف لم يغادر ركنه ،بل ظل جالسا فيه مطرق الرأس . وفجأة ناداه شخص باسمه ، فرفع بصره . كان بنداسوف يطل بمحياه الكريه من النافذة ، وكانت وراءه - أم كان يحلم ؟ كلا ، بل كان كل من وراءه وجوها مألوفة من بادن : مدام زوها نتشيكوف ، وفورو شيلوف ، وبمبايف . وكانوا كلهم يتحركون نحوه ، بينما زعق بنداسوف :

- أين بشتشالكن ؟ لقد كنا ننتظره . سيان على كل حال . نط يا زواغ نحن ذاهبون جميعا إلى جوباريوف .

وقال بمبايف مؤكدا وهو يشق طريقه إليه :

- نعم يابني ، نعم . إن جوباريوف ينتظرنا . نط !

ولولا حمل ثقيل على قلب لتفينوف لاستشاط غضبا . ولكنه نظر إلى بنداسوف وأشاح بوجهه دون أن يتكلم .

فصرخت مدام زوها نتشيكوف وعيناها تقفزان من رأسها قفزا :

- ألا تسمع ؟ إن جوباريوف هنا !

فلم يحرك لتفينوف ساكنا .

وبدأ بمبايف يقول أخيرا :

– أستمع – بالله – يالتفينوف ! ليس جوباريوف وحده هنا . إن هنا فرقة كاملة من ألمع الشبان الروس وأذكاهم – وكلهم يدرسون العلوم الطبيعية ، وكلهم شرفاء مخلصون ! حقا يجب أن تعرج على هذا المكان ، ولو من أجل هؤلاء . هنا مثلا شخص يدعى .. ياسلام ! نسيت اسمه . ولكنه عبقرى ، عبقرى !

فقاطعته مدام زوها نتشيكوف :

– أوه ، دعه دعه ياروستيسلاف أرداليونوفتش . دعه ! أنت ترى أى مخلوق هو ، وأسرته كلها مثله . له عمة كنت أظنها أول الأمر سيدة عاقلة ، ولكنى سافرت معها أول أمس – كانت حضرت إلى بادن منذ قليل ، وفى غمضة عين رجعت – المهم ، كنا فى القطار معا وبدأت أسالها ... فهل تصدقون أنى لم استطع الفوز بكلمة من ذلك الجماد ؟ ارستقراطية فظعة !

كابيتولينا ماركوفنا المسكينة أرستقراطية ! أكان يمكنها أن تتوقع مثل هذه الإهانة ؟

ولكن لتفينوف ظل صامتا ، وأشاح بوجهه عن الجماعة ، وجذب قبعته على عينيه . وأخيرا تحرك القطار . فصاح بمبايف :

– طيب ، قل شيئا على سبيل الوداع ، ياحجر ، الناس لا يتصرفون هكذا !

وصرخ بنداسوف :

– طفل ! أبله !

وازدادت سرعة القطار ، فأطلق بنداسوف شتائمه آمنا من العقاب :

– بخيل ! عفن ! مدود !

وسواء اخترع بنداسوف هذا اللقب الأخير عفوا أم كان قد تعلمه من أحد ، فقد أعجب اثنين من الشبان الشرفاء الذين يدرسون العلوم الطبيعية ، وكانا واقفين على قرب ، فظهر بعد أيام فى الوريقة الدورية التى كانت تنشر آنذاك فى هيدلبرج ، بعنوان : A tout venant. je crache ! أو « لايهمنى » . [1]

(١) هذه حقيقة تاريخية .

وأخذ لتفينوف يردد مرة أخرى : « دخان ، دخان ، دخان ! » وقال فى نفسه : فى هيدلبرج الآن أكثر من مائة طالب روسى ، كلهم يدرسون الكيمياء والطبيعة ووظائف الأعضاء – ولا يكادون يطيقون أن يذكر أمامهم شىء آخر ... وبعد خمس سنوات أو ست لن يوجد خمسة عشر طالبا يستمعون إلى محاضرات الأساتذة المشهورين أنفسهم . ستتغير الريح .. ويهب الدخان .. فى اتجاه آخر ... دخان . دخان ... !

ومر قرب المساء بكاسل . وانقض عليه الألم مع الظلام كما ينقض العقاب ، وبكى وهو يدفن نفسه فى ركن العربة ، فاضت دموعه طويلا ، لم تغسل قلبه ، بل زادت على عذابه ألما مرا حارقاً . وفى الوقت نفسه كانت تاتيانا راقدة فى أحد فنادق كاسل ، وقد وقذتها الحمى ، وكابيتولينا ماركوفنا جالسة بجانبها تقول :

– تانيا ؛ بالله دعينى أبرق إلى جريجورى ميهالتش ؛ دعينى أفعل يا تانيا ؛

فتجيب :

– لا ياعمتى ، يجب ألا تفعلى . لا تخافى ، أعطينى قليلا من الماء ، سأشفى بعد قليل .

وكان بعد أسبوع أنها تماثلت للشفاء ، فواصلت الصديقتان رحلتهما .

عاد لتفينوف إلى ضيعته دون أن يعرج على بطرسبرج أو موسكو . وفزع حين رأى أباه ، فقد كان ضعيفا متداعيا . أما الشيخ ففرح بعودة فتاه ، كما يفرح رجل فى أخريات أيامه ، وأسلم إليه من فوره إدارة الضيعة . وكانت فى حال سيئة ، وامتدت حياته بضعة أسابيع أخرى . ثم فارق هذا الكوكب الأرضى. وبقى لتفينوف وحيدا فى داره الصغيرة القديمة ، وبدأ زراعته بقلب مثقل ، وبلا رجاء ولا حماس ولا مال . والزراعة - كما يعلم الكثيرون - عمل لا بهجة فيه ، فلن نطيل القول عما لقيه لتفينوف فيها من عناء . أما الإصلاحات والابتكارات فلم يكن ثمة مجال للتفكير فيها ، ولم يكن بد من إرجاء التطبيق العملى لما حصله فى الخارج إلى أجل غير محدود ، واضطره الفقر إلى أن يتحايل على الأيام ، ويتسامح فى كثير من الأمور المادية والمعنوية . كانت المبادىء الجديدة لم ترسخ أصولها بعد ، والمبادئ القديمة قد فقدت كل قوة . كان الجهل يرتطم بالخيانة ، ونظام الحياة الذى اهتز من أساسه يضطرب كوحل زلق ، ولم تكن هناك إلا كلمة واحدة عظيمة ترف كروح الله على الماء : كلمة الحرية . لم يكن بد من الصبر أولا ، الصبر فى غير سلبية بل إيجابية مثابرة ، لا تخلو من مكر وحيلة . وضاعفت حالة لتفينوف النفسية صعوبة الأمور . لم يبق فيه إلا قليل من إرادة الحياة... فأين له بإرادة العمل والجهاد ؟

لكن مضى عام بعده عام ، وبدأ عام ثالث . وكانت الفكرة العظيمة [١] تتحقق رويدا رويدا ، وتكتسب لحما ودما ، كان الشطء قد نبت من الحب المبذور ، ولم يعد أعداؤه الظاهرون أو المستترون بقادرين على أن يطئوه بالأقدام . ومع أن لتفينوف انتهى بتأجير القسم الأكبر من الأرض للفلاحين على نظام المزارعة - أى عاد إلى الطرق البدائية الفقيرة - فقد نجح فى بعض مشروعاته : فتح المصنع من جديد ، وبدأ مزرعة صغيرة بخمسة عمال - وقد جرب أربعين حتى اختار هؤلاء الخمسة - وسدد ديونه الخاصة الكبرى ... وتماسكت نفسه حتى استعاد مشابه من لتفينوف القديم . صحيح أن كآبة دفينة لم تفارقه قط ، وأنه كان أهدأ من سنة ، وأنه حبس نفسه فى دائرة ضيقة ، وقطع كل علاقاته القديمة ... ولكن تلك الاستهانة الميتة ذهبت ، وعاد يتحرك ويعمل كرجل حى بين الأحياء ، وذهبت آخر آثار ذلك السحر الذى أحاط به ، وبدا له كل ماحدث فى بادن غائما كالحلم ... وإيرينا ؟ حتى هى شحبت واختفت ، إلا إحساسا غامضا بالخطر كان يشعر به لتفينوف تحت الضبابة التى أخذت تكتنف صورتها . وكانت تصل إليه فى الحين بعد الحين أخبار عن تاتيانا . فعلم أنها تعيش

(١) فكرة تحرير الفلاحين .

مع عمتها فى ضيعتها التى تبعد عنه بمائة وستين ميلاد ، وأنها تحيا حياة جد هادئة ، ولا تخرج إلا قليلا ، ولا تكاد تستقبل ضيوفا - ولكنها بخير وعافية .

وفى يوم جميل من أيام مايو كان جالسا فى مكتبه ينظر بغير اهتمام فى صفحات العدد الأخير من مجلة بطرجية ، حين دخل خادمه يعلن قدوم عم عجوز . كان هذا العم قريبا لكابيتولينا ماركوفنا ، وقد زارها حديثا ، وكان قد اشترى ضيعة قريبة من ضيعة لتفينوف ، فمر عليه فى طريقه . ولبث مع ابن أخيه يوما كاملا ، وحدثه طويلا عن معيشة تاتيانا . فلما رحل فى اليوم التالى أرسل إليها لتفينوف رسالة كانت الأولى منذ فراقهما . سألها أن تأذن له فى تجديد تعارفهما ولو بالمراسلة ، كما رغب أن تخبره أن كانت يجب عليه ألا يفكر فى رؤيتها ثانية . ولم يكن انتظاره للجواب خاليا من قلق واضطراب ... وأخيرا جاء الجواب . لقد رحبت تاتيانا بطلبه ، وختمت رسالتها بقولها : إذا كنت ترغب فى زيارتنا فمرحبا بك ، أنت تعلم المثل : « الشركة خير حتى فى البلوى » . كما كتبت إليه كابيتولينا ماركوفنا تحييه . وأصبح لتفينوف سعيدا كالطفل ، فما خفق قلبه منذ زمن طويل فرحا لشىء كما فرح الآن . أحس فجأة بالبهجة والمرح ... كذا الشمس لا تكاد تشرق وتجلى . وظلمة الليل حتى يرف على وجه الأرض المنتعشة نسيم لطيف . وظل لتفينوف يبتسم طول النهار حتى وهو فى مزرعته يلقى أوامره . وأخذ يستعد من فوره للرحلة . وبعد أسبوعين كان فى طريقه إلى تاتيانا .

- ٢٨ -

سار بعربته مبطئا ، فى طرق جانبية ، دون مغامرات . وحدث مرة أن انكسر إطار إحدى العجلتين الخلفيتين ، فأخذ الحداد يطرقه ويلحمه وقتا طويلا ، وهو يلعن الإطار ويلعن نفسه معا ، ثم انتهى بأن يئس منه . ولحسن الحظ ظهر أن المرء فى بلادنا يستطيع أن يسافر دون عناء بإطار مكسور ، وخصوصا إذا كان مسافرا «على لين » ، أى على الطين . على أن لتفينوف التقى فى رحلته هذه بأناس ما كان يتوقع لقاءهم . فشهد بعد مرحلة من الطريق جلسة « لقضاة التحكيم » وكان يرأسهم بشتشالكن الذى بدا له أشبه بصولون أو سليمان الحكيم ، إذ كانت عباراته موسومة بطابع الحكم الغوالى ، وكان ملاك الأرض والفلاحون على السواء يظهرون له غاية التبجيل ... وحتى منظره بدا أشبه بحكماء الأقدمين ، فقد انجرد شعره عن يافوخه ، وانتفش وجهه حتى بدأ كخميرة من الفضائل الرابية ... وقد رحب بمقدم لتفينوف «إلى إقليمى ، إن جاز لى أن أستعمل مثل هذا التعبير الجرىء . » ثم غرق فى الصمت، كأنما أخذته نوبة من المشاعر الطيبة . على أنه نجح فى أن ينهى إليه خبرا . وكان هذا الخبر عن فوروشيلوف ، فقد عاد بطل اللوحة الذهبية للخدمة العسكرية ، وتمكن فعلا من إلقاء محاضرة بين ضباط كتيبته فى موضوع « البودزم » - أو « الديناموزم » - لم يستطع بشتشالكن أن يجزم بأيهما . وانتظر لتفينوف فى المحطة الثانية طويلا حتى تسرج الخيل . وكان الوقت سحرا ، والنعاس يخامره وهو جالس فى عربته ، حين أيقظه صوت بدا له مألوفا ، وفتح عينيه ... ياللسماء ! أليس هذا هو جوباريوف فى سترة شهباء كالتى يلبسها البحارة ، وسراويل نوم فضفاض ، واقفا على درج المحطة، يسب ويلعن ؟ .. لا ، إنه لم يكن جوباريوف .. ولكن ما أتم الشبه بينهما ! .. لولا أن هذا السيد كان أضخم فكا ، وأبرز نواجذ ، وكانت نظرات عينيه الكابيتين أشد توحشا ، كما كان أنفه أكبر ، ولحيته أكث ، ووجهه كله أغلظ وأشد تنفيرا .

جأر ببطء وحنق ، ، فاغرا فاه الذى يشبه فم الذئب :

- حيوانات ! حيوانات فلاحون بهائم ! .. هذه هى الحرية التى تتباهون بها .. الخيل لا نستطيع أن نجدها ..

- حيوانات ، حيوانات !

انبعث هذا الصوت الآخر من وراء الباب ، وفى الوقت نفسه ظهر على الدرج فى سترة شهباء كالتى يلبسها البحارة وسراويل فضفاض أيضا - جوباريوف الحقيقى

هذه المرة ، جوباريوف نفسه ، ستيبان نيكولايفتش جورباريوف ، لا شك فى ذلك . استمر يقول مقلدا أخاه (وقد ظهر أن السيد الأول كان أخاه الأكبر ، رجل المدرسة القديمة المشهورة بعنف قبضتيه ، والذى كان يدير ضيعته) :

– بهائم ! دواؤهم الجلد ، اسمع كلامى . لكمة أو لكمتان فى الأنف ، هذه هى الحرية التى تلائمهم ... قال « رئيس الفولوست » قال [1] ... والله عال . سأعرفكم من رئيس الفولوست .

ولكن أين هذا المسيو روستون ؟ .. ماذا دهاه ؟ .. هذا عمله .. الصعلوك الكسلان... كيف لا يجنبنا هذه المضايقات ؟

فبدأ جوباريوف الأكبر يقول :

– يا أخى ألم أقل لك دائما أنه لاينفع ؟ صعلوك كسلان ، هكذا هو ! ولكن من أجل أفكارك القديمة ... موسيو روستون ! موسيو روستون ! أين ذهبت – عليك اللعنة !

وجار الأصغر ، جوباريوف العظيم :

– روستون ! روستون ! ازعق عليه زعقة طيبة ياأخى دوريميدونت نيكولايتش !

– حسنا ، إنى أصيح به ياستيبان نيكولايتش ! مسيو روستون !

فسمع صوت معجل :

– هأنذا ! هأنذا !

ومن خلف ركن المحطة وثب ... بمبايف .

فكتم لتفينوف شهقة . كان المتحمس المسكين يضطرب اضطرابا محزنا فى سترة مطرزة بالية ممزقة الكمين ، أما ملامحه فلم تتغير على التحقيق ولكنها امتطت والتوت ، وكانت عيناه الصغيرتان اللتان استولى عليهما القلق تعبران عن وجل ذليل وخضوع جائع ، ولم يزل شاربه المصبوغ يبرز كسابق عهده فوق شفتيه المنتفختين . ما كاد يظهر حتى أخذ الشقيقان يعنفانه معا من أعلى الدرج . فتوقف دونهما فى الطين وقد حنى ظهره فى ضراعة ، وحاول أن يتملقهما بابتسامة صغيرة عصبية ، وهو يعجن قبعته بين أصابعه الحمراء ، ويداول بين قدميه ، ويتمتم أن الخيل ستحضر بعد قليل ...

(١) « الفولوست » فى روسيا قبل الثورة ، صورة من صور الحكومة اللامركزية تشبه المجلس المحلى فى مصر .

ولكن الأخوين لم يسكنا حتى وقع بصر أصغرهما على لتفينوف ، وسواء أعرف لتفينوف أم أحس بالخجل أمام أجنبى ، فقد دار على عقبيه مسرعا كالدب ، ودخل المحطة وهو يقرض على لحيته ، وأمسك أخوه عن الكلام من فوره ، وتبعه وهو يدور كالدب أيضا . إن جوباريوف العظيم لم يفقد سلطانه حتى فى وطنه .

وهم بمبايف أن يتبع الأخوين ... فناداه لتفينوف باسمه . فالتفت ، ورفع رأسه ، وعرف لتفينوف ، فطار إليه طيرانا وقد بسط ذراعيه . ولكنه حين وصل إلى العربة أمسك ببابها وسند صدره عليه وانفجر باكيا بدموع غزيرة .

فقال لتفينوف وهو ينحنى عليه ويربت على كتفه :

– هون عليك يابمبايف !

لكنه استمر فى البكاء ، وتمتم بين شهقاته :

– أنت ترى ... أنت ترى ... إلى أى ...

وزأر الأخوان فى السقيفة :

– بمبايف !

فرفع بمبايف رأسه ، ومسح دموعه عجلا وهمس :

– مرحبا ، مرحبا أيها الحبيب ، ووداعا ! .. أنت سامع ، إنهما ينادياني .

فسال لتفينوف :

– ولكن أى مصادفة جاءت بك إلى هنا ؟ وما معنى هذا كله ؟ لقد ظننتهما يناديان رجلا فرنسيا .

فأجاب بمبايف وهو يشير إلى السقيفة :

– إننى ... مدير منزلهما ... رئيس الخدم . وقد أصبحت فرنسيا على سبيل المزاح . ماذا كنت أستطيع عمله يا أخى ؟ لم أجد ما آكله . أضعت آخر فلس . هكذا يضطر المرء أن يضع رأسه فى النير . نزلت عن كبريائى لأعيش .

– وهو ... أهو فى روسيا منذ وقت طويل ؟ وكيف ترك رفاقه ؟

– آه يابنى ! هذا كله راح وانتهى ... الريح تغيرت – كما ترى . مدام زوهانتشيكوف ... ماتروناسميونوفنا ... طردها شر طردة . فسافرت حزينة إلى البرتغال .

– البرتغال ؟ غريبة !

– نعم يا أخى : إلى البرتغال ، مع اثنين من الماتروفيين .

– مع من ؟

– الماتروفيين . هذا اسم أعضاء حزبها .

– هل لماترونا سميونوفنا حزب ؟ حزب كبير ؟

– حسنا . إنه مؤلف من هذين العضوين بالتحديد . أما هو فله هنا ما يقرب من ستة أشهر . غيره اعتقلوا ، ولكنه لم يصب بسوء . إنه يعيش فى الريف مع أخيه ، ويا ليتك سمعته الآن ..

– بمبايف !

– حاضر ياستيبان نيكولايتش ، حاضر . وأنت أيها العجوز ! مستريح ؟ مبسوط ؟ الحمد لله على ذلك ! أين تذهب الآن ؟ .. ياسلام ! .. ولا كان على البال ... أتذكر بادن ؟ آه ! كانت أيام ! وبالمناسبة : تذكر بنداسوف أيضا ؟ مات .. تصدق ؟ .. وجد وظيفة فى مصلحة الدمغة ، وكان فى إحدى الحانات فدخل فى عركة ، وشجوا رأسه بعصا بليارد . نعم ، نعم ، كذا حال الدنيا ! ولكنى سأقول دائما : روسيا ! يالها من بلد ! انظر إلى هاتين الأوزتين ! ليس فى أوربا كلها ما يشبههما ! أوزتان ماسيتان أصيلتان !

وبعد أن أدى بمبايف ما يجب عليه لتحمسه الذى لا يفتر ، أسرع إلى المحطة حيث كان اسمه ينادى مرة أخرى بنعوت بذيئة .

وعند الأصيل شارف لتفينوف ضيعة تاتيانا . وكان المنزل الصغير الذى تقيم به خطيبته السابقة رابضا على سفح جبل يجرى من تحته جدول صغير ، وتحيط به حديقة حديثة الغرس . وكان المنزل حديث البناء أيضا ، يرى من مسافة بعيدة عبر النهر والخلاء . وقع نظر لتفينوف عليه من بعد يزيد عن ميل ونصف ، بزواياه المستقيمة ، ونوافذه المتوازية الصغيرة التى كانت تلمع حمراء فى شمس الأصيل . وكان قد أحس بقلق خفى حين غادر المحطة الأخيرة ، والآن ملأه الاضطراب ، جاشت نفسه بفرحة مازجها خوف . سأل نفسه : كيف يقابلانى ؟ وكيف أقترب منها ؟ ولكى يشغل نفسه أخذ يتحدث مع سائقه ، وكان فلاحا رزينا أشيب اللحية ، طلب منه – على الرغم من شيبه ورزانته – أجر خمسة وعشرين ميلا مع أن المسافة كانت عشرين .. سأله : أيعرف جامعة شستوف ؟

– جماعة شستوف ؟ نعم ، سيدتان طيبتان ، نعم الناس ! تطببانا أيضا . أى والله ، إنهما طبيبتان ! الناس يذهبون إليهما من المنطقة كلها . أى والله ، ناس مالها عدد . مثلا إذا واحد مرض ، أو جرح ، أو أى شىء ، يذهب إليهما توا ، فيعطيانه شرابا أو مساحيق أو لزقة ، ويطيب . الدوا ينفع . ولا تأخذان أى نقود . تقولان : نحن لا نفعل هذا من أجل النقود ... وعندهما مدرسة أيضا ... لكن ما فائدة المدرسة ؟

ولم يرفع لتفينوف عينيه عن المنزل بينما كان السائق يتكلم . وبرزت إلى الشرفة أمراة فى ثياب بيض ، وقفت قليلا ، ثم اختفت ... ألم تكن هذه إياها ؟ كاد قلبه يطفر ، وصاح بالسائق .

– أسرع ، أسرع !

واستحث السائق الجواد . وبعد لحظات أخرى ... دخلت العجلة من البوابة المفتوحة... كانت كابيتولينا ماركوفنا واقفة على الدرج ، تصفق بيديها وتصيح وهى تكاد تطير فرحا : « أنا عرفته . عرفته قبلك ! هو ! هو ! .. عرفته ! »

قفز لتفينوف من العربة قبل أن يستطيع الغلام المقبل فتح بابها ، وعانق كابيتولينا ماركوفنا مسرعا ، واندفع إلى المنزل ، وعبر البهو ، ودخل حجرة الطعام ... كانت تاتيانا واقفة أمامه ، وقد تورد وجهها خجلا . نظرت إليه بعينيها الحنونين اللطيفتين (كانت أكثر نحولا ، ولكن ذلك زادها جمالا) ، ومدت إليه يدها . لكنه لم يتناول يدها ، بل سقط على ركبتيه أمامها . ولم تكن تتوقع هذا ، فلم تدر ماذا تقول أو تفعل .. واغرورقت عيناها بالدموع . لقد ذعرت ، ولكن وجهها كله كان يتألق بشرا .. قالت : « جريجورى ميهاليتش ! ما هذا ياجريجورى ميهاليتش ؟ » وهو لايزال يقبل طرف ردائها ... وتذكر فى غمرة من حنان أنه ركع على ركبتيه أمامها فى بادن كما يركع الآن ... آنذاك – والآن ! شتان ما بين المرتين !

ردد :

– تانيا ! تانيا ! هل عفوت عنى يا تانيا ؟

فصاحت تانيا ملتفتة إلى كابيتولينا ماركوفنا وقد دخلت الحجرة :

– عمتى ، عمتى ، ما هذا ؟

فأجابت السيدة العجوز الطيبة :

– لاتمنعيه يا تانيا . لا تمنعيه . إنه جاء تائبا !

وبعد ، فقد آن لنا أن نختم قصتنا ، والحق أن ليس هناك شىء يزاد . يستطيع القارئ أن يحدس الباقى بنفسه ... ولكن ماذا عن إيرينا ؟

إنها لاتزال فاتنة رغم أعوامها الثلاثين ، يشغف بها شباب لايحصون عددا ، وكان يمكن أن تشغف آخرين لو ... لو ... أيها القارئ ، ألا تعرج معنا دقائق على بطرسبرج ، لندخل منزلا من أجمل المنازل هناك ؟ انظر ، إن أمامك بهوا فسيحا ، ولا نقول إنه فاخر الرياش ، فذلك تعبير يقصر عن وصفه ، ولكن نقول إنه رائع بارع مهيب . أتعروك هزة من الخضوع ؟ إذن فأعلم أنك . دخلت معبدا ، معبدا كرس للسلوك النبيل ، ، والنبل المحسن ، أو باختصار : لصفات عليين ... أن سكونا « كاتما للأسرار » يحتويك : فالسجف المخملية على الأبواب ، والستر المخملية على النوافذ ، والبسط الوثيرة على الأرض – كل شىء كأنه قدر تقديرا ليخفت كل صوت خشن ، ويلطف كل إحساس عنيف . والمصابيح المهندسة الضوء توحى بعواطف هادئة وقور . والهواء المحبوس يتخلله أريج مهذب . حتى السماور على المائدة يئز أزيزا مكتما خجلا . إن سيدة الدار – وهى شخصية هامة فى مجتمع بطرسبرج – تتحدث حديثا لايكاد يسمع ، فهى دائما تتكلم وكأن فى الحجرة مريضا مدنفا يكاد يحتضر . والسيدات الأخريات يقلدنها فلا يكدن يهمسن ، بينما تحرك أختها شفتيها – وهى تصب الشاى – حركات لا صوت لها ، حتى يحار الشاب الجالس أمامها ، وقد ألقته المصادفة فى معبد الآداب ، فهو عاجز عن فهم ما تريده منه ، بينما هى تنفث للمرة السادسة :

Voulez - vous une tasse de thé (١)

وفى الأركان شبان عليهم وسامة ، عيونهم تلمع بتذلل رقيق ، وسيماهم متعلقة فى وداعة وجلال ، وصدورهم يلمع عليها – بلطف – عدد من النجوم والصلبان . والحديث دائما لطيف يدور حول موضوعات دينية ووطنية : «النقطة الصوفية» لف . ن . جلنكا ، بعثتنا التبشيرية فى الشرق ، الأديرة والإخوان فى روسيا البيضاء . أحيانا يتحرك خدم فى حلل رسمية ، يخطون خطوا ملثما على البسط اللينة ، وكلما خطوا ارتعشت – بلا صوت – ربلاتهم الضخمة التى غلفت بجوارب حريرية ضيقة ، فيزيد ارتعاش الهيبة فى العضلات الصلاب ما يقع فى النفس من احتشام المكان ووقاره وقدسيته . إنه معبد ، معبد !

(١) « هل تريد قدحا من الشاى ؟ » .

سألت إحدى السيدات العظيمات برقة :

– هل رأيت مدام راتميروف اليوم ؟

فأجابت ربة الدار بنغم أثيرى كأرغن عوليس :

– لقيتها اليوم عند ليز . إنى آسفة لها . فهى مرة الروح .

Elle n'a pas la foi . [1]

– أجل ، أجل . أذكر أن هذا ما قاله عنها بيوتر ايفانتش . وإنه لحق ... qu'elle set. quelle est [2] مرة الروح .

فانبعث صوت ربة الدار كأنه البخور :

– Elle n'a pas la foi, C'est une ame egarée. [3] . أنها مرة الروح .

فتردد أختها بشفتيها فقط : إنها مر الروح .

لهذا لم يقع الشبان جميعا بغير استثناء فى هوى إيرينا ... فهم يخافونها ... يخافون روحها المرة ... وهذه هى القالة الشائعة عنها . وفيها ، كما فى كل قالة ، نصيب من الصحة . ولا يخافها الشبان وحدهم ، بل الناضجون فى السن ، ذوو المناصب العالية ، وحتى « الشخصيات » الكبيرة أيضا ، فلا أحد يضارعها فى قدرتها النافذة على أن تلمح الجانب المضحك أو الوضيع فى نفسية شخص ما ، ولا أحد غيرها يستطيع أن يدمغه – فى غير رحمة – بالكلمة التى لاتنسى ... وأن لذع هذه الكلمة ليزداد حدة إذ تخرج من بين شفتين عاطرتين جميلتين ... عسير أن تقول ماذا يجرى فى قلبها ، ولكن الأراجيف لا تثبت بين عشاقها الكثيرين حبيبا تعزه .

زوج إيرينا يتنقل مسرعا فى ذلك الطريق الذى يسميه الفرنسيون طريق المجد . وقد سبقه الجنرال السمين وتخلف عنه الجنرال المتسامح . ويعيش فى المدينة التى تعيش فيها إيرينا صديقا سوزونت بوتوجين ، ولا يراها إلا نادرا ، فليس ثمة ضرورة معينة تلزمها الإبقاء على صلتهما ... لأن البنت الصغيرة التى كانت فى رعايته قد ماتت منذ زمن غير بعيد .

(تمت)

(١) « فاقدة الإيمان » .

(٢) « أنها .. أنها .. » .

(٣) « إنها فاقدة الإيمان ، روح ضالة » .

المحتويات

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة — والاس مارتن — ت : حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها — بريجيت شيفر — ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة — آلن تورين — ت : أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد — بيتر والكوت — ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب — آن سكستون — ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية — بيتر جران — ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك — بنجامين بارير — ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج — أوكتافيو پاث — ت : المهدى أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف — ألدوس هكسلى — ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور — روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين — ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب — بابلو نيرودا — ت : محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (١) — رينيه ويليك — ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية — فرانسوا دوما — ت : ماهر جويجاتى
٤٩ - الإسلام فى البلقان — هـ . ت . نوريس — ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير — جمال الدين بن الشيخ — ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانو أمريكية — داريو بيانوييا وخ. م بينياليستى — ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدعيمى — بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل — ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم — أ . ف . ألنجتون — ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقى للمسرح — ج . مايكل والتون — ت : محسن مصيلحى
٥٥ - ما وراء العلم — چون بولكنجهوم — ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١) — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢) — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة — كارلوس مونييث — ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل — جوهانز ايتين — ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان — شارلوت سيمور - سميث — مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ - لذّة النّص — رولان بارت — ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢) — رينيه ويليك — ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة) — آلان وود — ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى — برتراند راسل — ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية — أنطونيو جالا — ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات — فرناندو بيسوا — ت : المهدى أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى — فالنتين راسبوتين — ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين — عبد الرشيد إبراهيم — ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية — أوخينيو تشانج رودريجث — ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى — داريو فو — ت : حسين محمود

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبـة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيئل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الگنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت : مجموعة من المترجمين
١٦٤ - شامپوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد

(تحت الطبع)

الجانب الدينى للفلسفة
الولاية
مختارات من الشعر اليونانى الحديث
چان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة
العنف والنبوءة
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)
وضع حد
التليفزيون فى الحياة اليومية
أنطوان تشيخوف
تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
الإسلام فى السودان
العربى فى الأدب الإسرائيلى
ضحايا التنمية
المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر
فن الرواية
ما بعد المعلومات
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
المهلة الأخيرة
الهيولية تصنع علمًا جديدًا

مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى
النقد الأدبى الأمريكى
موت الأدب
عن الذباب والفئران والبشر
العولمة والتحرير
حجر الشمس
علم اجتماع العلوم
الطريق
الكلام رأسمال
محاورات كونفوشيوس
رحلة إبراهيم بيك
قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان
شتاء ٨٤
الشعر والشاعرية
ديوان شمس
عامل المنجم
مصر أرض الوادى
الدرافيل أو الجيل الجديد
سحر مصر
أسفار العهد القديم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٠١٥٥ / ٢٠٠٠





إبداعات أدبية

المقامر : دوستويفسكى
نصوص مختارة من تولستوى
اعترافات منتصف الليل : جورج ديهامل
دخان : إيفان تورجنيف

يضم هذا المجلد أربعة أعمال إبداعية مختلفة هى : «نصوص مختارة من تولستوى» ، و«المقامر» لفيدور دستويفسكى، و«اعتراف منتصف الليل» لجورج ديهامل ، و«دخان» لـ إيفان تورجنيف.

ففى العمل الأول نجد تولستوى باحثًا عن الحقيقة وفيلسوفًا ، لاعن لذة فطرية فى التأمل ولاعن حب استطلاع فكر ، ولكن من أجل المحافظة على النفس ونتيجة لليأس؛ فتفكيره كتفكير بسكال ، فلسفة على حافة الهاوية أو خارجة منها؛ لقد كان يبحث عن الحياة فى خوفه من الموت والعدم .

أما رواية «اعتراف منتصف الليل» فقد حلل فيها ديهامل عناصر التناقض بين الفرد ومجتمعه ، وبين واقع الفرد وآماله ، وبين أفكاره وأعماله ، صور ذلك كله منعكسًا على ذهن سلاڤان ، فهو لا يقص أحداثًا ، بل أفكاراً بلغت من قوتها وتمكنها مبلغ الأحداث ، فهى أحداث بالنسبة لصاحبها ، وهى مغامرات حقة تمسك أنفاسك وأنت تقرؤها .

وتأتى فى النهاية رواية «دخان» ؛ حيث صور تورجنيف فيها جماعات من المغتربين الروس فى مصيف ألمانى ، فصور المجتمع الأرستقراطى بأناقته وتفاهته وفراغه وانحلاله . كما صور منتديات أكثر شعبية ، منتديات أدعياء التحرر بمناقشاتهم العقيمة وخضوعهم الأعمى لشعار أو قائد . والتقط عيوب هؤلاء وأولئك بعين نافذة خبيرة ، وصورها بدقة حفار ، فجعلها نماذج رائعة للهجاء الواقعى . على أن هذه الصور ليست مجرد هجاء سياسى ، بل إن وراءها إحساسًا مراً ، إحساسًا تراجيديًا بضياع الجهد الإنسانى واضطراب الفكر الإنسانى ، وغموض المصير الإنسانى.

الغلاف : عماد حليم